

الدكتور عفيف عبد الرحمن

الشعر وأيام العرب

في العصر الجاهلي

دار الأنجلو
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م



جميع الحقوق محفوظة

دار الكتب - بيروت، لبنان

هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ١١٠٥٥٣ - تلوكس: ٢٣٦٨٣

اللهم ادرك

إلى التي راقتني في رحلة الحياة ربع قرن ويزيد
إلى التي تحملت الكثير وضحت بالكثير من أجل توفير المناخ المناسب
للبحث والدرس

إلى أم أولادي

أم خالد

أهدي هذا النتاج للتواضع

المؤلف

مقدمة

موضوع «أيام العرب في العصر الجاهلي» من أبرز الموضوعات التي تلفت نظر الباحثين . وتحظى بمناخ من يوجب في دراسة ذلك العصر ، لأن الأيام تشكل جانباً هاماً من جوانب الحياة الجاهلية ، وتشغل حيزاً كبيراً في المجتمع الجاهلي وفي ظلالها نشأت وتبلورت معالم العصر الجاهلي وقيمته ، فالحياة في العصر الجاهلي كانت حياة طمية حراء لا تهدأ نارها ولا يجمد أولها ، وكانت القبائل في حركتها الدائمة المستمرة من أجل لقمة العيش وجرعة الماء وبصرة السيادة لا تكاد تنفص أيديها من وقعة من الوقائع حتى تبلغها في وقعة أخرى ، وسبق كانت حياة القبائل العربية في العصر الجاهلي حروباً وأياماً مستمرة ، وكأنها أصبحت سنة من سنن الحياة الجاهلية وشرعية مقدسة يحقون بها الحياة في هذا للجمع الذي تسيطر عليه القوة وتتحكم فيه .

ولا يستطيع الباحث الذي يوجب في دراسة أيام العرب في العصر الجاهلي أن يدرسها بمعزل عن الشعر الجاهلي ، فالشعر الجاهلي - كما قيل - ديوان العرب ، لقد كان الوسيلة الهامة لنقل أخبار تلك الأيام ، كما كان السجل لأحداثها . ومن هنا كان لا بد من دراسة الشعر والأيام دراسة لا انفصام بينها فيها .

ولذلك استقر في ذهني قبل أن أعطي للموضوع ، ضرورة دراسة طريقه : الشعر والأيام ، فالأيام تشكل الجانب التاريخي من الموضوع ، كما يصور الشعر الإطار الفني لتلك الأحداث . فكان الموضوع الذي اخترته للدراسة هذه « الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي » .

ولست أدعي أنني أول من يدرس هذا الجانب من الحياة الجاهلية ، فإن عصرنا من عصور امتنا لم يحظ باهتمام الباحثين والدارسين كما حظي هذا العصر^(١) ، فقد عكفوا على دراسة جوانبه المتعددة ، ومن أهم تلك الجوانب الأيام . واستطيع أن أزعم بأنه لا يكاد يخلو كتاب في المكتبة العربية التي تهتم بالعصر الجاهلي ، من ذكر الأيام .

(١) تصدير تقريباً للمكتبة الجاهلية للمؤلف ، عن دار الأتلس - بيروت

وفي عصرنا الحاضر عرض بعض الباحثين الأيام في جزء من دراستهم صنيع جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » أو جورج زيدان في كتابه « العرب قبل الإسلام » أو فليب حتي في كتابه « تاريخ العرب مطول » وغيرهم . وقد ألف محمد أحمد جاد المولى ورفيقه مؤلفاً خاصاً بآيام العرب في العصر الجاهلي ، وآخر بآيام العرب في الإسلام . وفي مجال الدراسات الأدبية درس بعض الباحثين جانباً أو قطاعاً من الأيام ، وذلك من خلال دراستهم لشاعر فارس أو لقبيلة ما ، أو حيناً وصدوا ظاهرة ما . وفي مجال الدراسات الجامعية درس باحثان حرب البسوس وحرب داحس والغبراء (١) .

وهكذا وجدت أن المكتبة العربية ما زال ينقصها بحث يوضح أحداث الأيام ، و يسجل ظواهرها بارزة في شعر الأيام ، ويوضح العلاقات بين القبائل ، السلمية منها والحربية على السواء ، ويحاول أن يكشف ظواهر مشتركة في تلك الفترة ، ويلقي بعض الضوء على ذلك العصر الذي ما زالت بعض جوانبه مظلمة .

و كنت أدرك منذ البداية أن الطريق ليست مهيأة على الرغم من تعدد الدراسات وتنوعها ، فهناك قضايا كثيرة تناور حول تلك الفترة وتلغنها وشعرها لم يقطع فيها برأي . وعلى رأس تلك القضايا الانتحال والوضع ، وغموض أولية الشعر الجاهلي ، وصلات القبائل بالما لك المجاورة ، ومنتجات القبائل ، وغير ذلك من المشكلات التي تعترض سبيل الباحث ، كما أن المستشرقين وبعض الباحثين من العرب أثاروا قضايا تتصل بإبطال تلك الحروب كإلهلهم وعثرة وما حيك حولها من قصص وأساطير .

وما حفزني على هذه الدراسة أنني كنت لأرغب في رسم صورة واضحة المعالم لتلك الفترة تبين طبيعة العلاقات في ذلك المجتمع ، كما كنت راجياً في رسم صورة مجتمعة الشعر الأيام الموزع في دواوين الشعر الجاهلي وغيرها ، لأنني كنت وما زلت ، أعتقد بأن شعر الأيام يتسم بطوابع وخصائص تميزه عن غيره من الشعر الجاهلي ، ولأننا نستطيع أن نجتمع منه ديوناً ضخماً يزيد على نصف الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا ، ذلك أن شعر الأيام وكتب الشعر العربي الجاهلي منذ أوليته التأخجة التي عاصرت أحداث البسوس واستمرت حتى ظهور الإسلام .

ومن هنا ، ولا أسلفت من دواع ، تأتي أهمية هذا البحث في مجال الدراسة الأدبية ، فهو

(١) بعد مناقشة هذا البحث بجامعة القاهرة بعامين نوقشت رسالة دكتوراه الباحث العراقي هو عادل جاسم البائي بعنوان (كتاب أيام العرب لأبي عبيد) بجامعة عين شمس عام ١٩٧٣ ، ونشر الكتاب عام ١٩٧٦ .

بالإضافة إلى ما ألمحت إليه يتناول جنباً من جوانب المجتمع الجاهلي بالدراسة ، كما يتناول مجموعة ضخمة من شعر الأيام بالبحث والتحصيل متبعاً من خلاله ما أصاب هذا الشعر من تطور موضوعي وفني متمثلاً في شعر طائفة من أبرز شعراء الأيام في العصر الجاهلي الذين أوسوا دعائم الفن الشعري فيه ، وتقدموا به خطوات بعيدة المدى في طريق التطور والإزدهار .

وبما يجدر ذكره أن شعر الأيام يتميز بطابع الحماسة ، ذلك أن الحروب الجاهلية جعلت هذه الحماسة واضحة فيه أشد الوضوح بيّنة أوضح بيان ، بالإضافة إلى أنها اقترأت في لوحة الحياة الجاهلية المكتملة لوناً لافتاً شديد الوضوح . ولذلك كان لا بد من دراسة نماذج مجسدة لتلك البطولة فكان أن وقع اختياري على ثلاثة شعراء فرسان أولهم شهد أحداث حرب البسوس ، وكان هزكاً لها ، وهو المهلهل ، والثاني كان فارساً من فرسان حرب داحس والغبراء ، وبطلاً من أبطال عيس في حروبها ، وهو عترة العبي ، والثالث قيس بن عاصم بطل حروب قيس وسيد أهل الوبر كما سماء النبي ﷺ .

وبعد ذلك فإن البحث تستوعبه أبواب ثلاثة وملحق :

الباب الأول : دراسة تاريخية ويشمل فصلاً ثلاثة :

الفصل الأول : لدراسة المجتمع القبلي الجاهلي .

الفصل الثاني : لدراسة دوافع الحروب في المجتمع الجاهلي .

الفصل الثالث : لدراسة أيام العرب في العصر الجاهلي .

الباب الثاني : شعر الأيام : دراسة موضوعية وفنية ، ويشمل فصلاً ثلاثة :

الأول : مصادر شعر الأيام .

الثاني : موضوعاته .

الثالث : خصائصه الفنية .

الباب الثالث : نماذج متميزة من شعراء الأيام ويشمل ثلاثة فصول :

الأول : المهلهل بطل حرب البسوس .

الثاني : عترة بطل حرب داحس والغبراء .

الثالث : قيس بن عاصم بطل حروب قيس^{٥٥}

وختمت البحث بجدول يقيد منها الدارس في حصر الأيام وتوزيعها وكذا الشعراء الأيام
وشعرهم موزع على الأيام وهي إضافة جديدة على الأطروحة الأصلية .

ملحق : يضم مجموعة شعر الأيام مرتبة حسب مجموعات الأيام الكبرى^{٥٦} .

وبعد ، فلست أدعي أنني بالغ درجة الكمال في هذا البحث ، وأنه سيكون مبرراً من
العيوب ، ولكنني أقول أنني حاولت أن أضع الموضوع وألم بجوانبه ، ولم أبخل بجهدي أستطيعه
ليخرج هذا البحث في صورة مرضية . والله الموفق .

جامعة اليرموك - إربد - الأردن

عفيف عبد الرحمن

حزيران ١٩٨١

(١) لم يكن هذا الفصل في البحث الذي قدم لنيل درجة الدكتوراه للغة مصانره آنذاك ، وألحقته بهذه
الدراسة فيما بعد .

(٢) هذا الملحق سيصدر في كتاب مستقل .

الباب الأول

دراسة تاريخية

الفصل الأول

المجتمع القبلي في العصر الجاهلي

الإطار الجغرافي :

تقع الجزيرة العربية في أقصى الجنوب الغربي من قارة آسيا ، وهي شبه جزيرة مستطيلة الشكل تحيط بها المياه من ثلاث جهات . . . البحر الأحمر من الغرب ، وخليج عدن والمحيط الهندي من الجنوب ، والخليج العربي من الشرق . والضلع الرابع منها يحده الماء كذلك ، وإن كان ماء نهر القرات^(١) . وهي تقع بين خطي ٣٥ ، ٦٠ طول شرقاً ، وخطي عرض ١٢ ، ٣٧ شمالاً ، أي أن مدلول السرطان يمر في وسطها تقريباً .

وقد اصطلاح الجغرافيون العرب على تسميتها « جزيرة العرب » ولملأوها جهدهم لتفريخ التسمية^(٢) ، كما تشكل عليهم تحديد أراضي هذه الجزيرة الترابية الأطراف ، فالهمداني^(٣) أدخل بلاد الشام كلها وأجزاء من العراق ومصر ضمن بلاد العرب ، والقعني^(٤) جعل صحراء النفوذ حدها الشمالي ، والإصطخري^(٥) حدد نهر العرب : بالحجاز وتجد المتصل بأرض البحرين وبادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام واليمن المشتملة على تهامة ونجد وعُمان ومهرة وحضر موت وبلاد صنعاء وسائر غلاف اليمن .

ويتكون بلاد العرب من أقسام ثلاثة متميزة : سلسلة من الجبال البركانية تحيط بها من الشرق والغرب والجنوب ، وسهول ساحلية تقع بين سلاسل الجبال والبحر تسمي وتضيق قرب الجبال من البحر ، وهضبة داخلية تشغل الربع الخالي والنفوذ الكبرى والذهناء وهضبة نجد .

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ٤٧

(٢) انظر أحسن التقاسيم - للقعني ٩٧ والهمداني ٤٧

(٣) الهمداني ٤٧

(٤) أحسن التقاسيم ٩٧

(٥) مسالك الممالك - للإصطخري ١٤

إذا لموطن العرب في جاهليتهم رقعة شاسعة من الأرض ، ذات بضاع متباينة ، في المناخ وفي التضاريس ، وعليهم أن تختلف بيئتها اختلافاً يكاد يجعل منها مواطن متعددة . ويستطيع أن يميز أقساماً ثلاثة فيها من حيث البيئة الطبيعية : مناطق الاستقرار الطبيعي حيث الماء والزرع والمناخ المعتدل ، نشأت فيها تبعاً لهذه الظروف دول مستقرة نسبياً في اليمن والشام والحيرة ، وقوام حياة أهلها الزراعة والتجارة . ومناطق صحراوية تصيب بعض الغيث ، أو فيها بعض العيون والأبلة سمحت بزراعة بسيطة ، وولّد كل هذا استقراراً نسبياً مثلها نجد في قرى ومدن الحجاز والواحات المنتشرة في الصحراء . ومناطق صحراوية لا يفي ملؤها بحاجة الزرع . ربما نبت بعض الكلا لترحال الأهل ، فإذا غيض الماء اضطر أهلها للرحيل بحثاً عن الكلا والماء من جديد وهؤلاء السكان يكونون مجموعة من البدو الرحل القليل العدد .

وقد ضاقت الجزيرة عن إمداد سكانها بأسباب العيش الرغيد ، بل بأدنى ما يحتاجه الإنسان ليقم أوده في بعض الأحيان ، واضطر العربي أن يتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن مورد رزقه بصارع كل قوة تقف في سبيل استمرار وجوده ، فكان هذا العربي يعيش في خطر دائم وفي أحضان طبيعة قاسية ، تعصف الريح فتسفي الرمال ، وتقوض بيته ، وتكفيء قلوبه ، وتطفيء ناره ، ويهدر السيل فيجتاح داره ، وتبطل السماء فتشج زانه ، وتهزل النعم ، ويهدده الجوع .

وعلى الرغم من تباين مناخ الجزيرة العربية الذي نجم عن اتساع رقعتها فإننا باستثناء بعض الدولات التي نشأت في شمال الجزيرة وفي اليمن - يجب ألا تغالي في تصور الفرق في أسلوب المعيشة بين القبائل الحضرية والبدوية ، فحياتهم كانت أقرب إلى الطابع البدوي سواء من حيث خشونة اللبس أو بساطة الطعام أو العرف السائد .

إلا أن هذا التباين في المناخات والذي أثر في حسب بقعة وجذب أخرى سيكون له في بحثنا هذا شأن خطير جعل القبائل في حركة مستمرة لا تهدأ ، الأمر الذي جعل هذه القبائل تنصارع في سبيل الكلا والماء والاستمرار في الحياة ، والذي صيغ أرض الجزيرة العربية وصحاريها بالنم فترة طويلة من الزمن .

الإطار الزمني :

بعد أن حددنا الرقعة المكانية التي كانت مسرحاً وموطناً للعرب في الجاهلية ، سنحاول تحديد الفترة الزمنية التي شغلها أحداث موضوعنا ؛ بدايتها ونهايتها . وقبل الشروع في ذلك نتوقف قليلاً عند مفهوم كلمة «الجاهلية» ونسأل متى أطلقت هذه الكلمة؟ وما مدلولها؟

وأغلب الظن أن الكلمة لفظ حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة ^(١) وهذا رأي ابن خالويه . أما مدلولها فالبحر يحيل إلى اعتبارها لفظاً يدل على ما كان عليه العرب قبل الإسلام من سيرة ^(٢) وسلوك ، ومال آخرون إلى اعتبارها تشير إلى ذلك العصر الذي لم يكن للعرب فيه ناموس ولا زرع ، ولا نبي ملهم ، ولا كتاب منزل ^(٣) ، وذهب أكثر الباحثين إلى أنها مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والتزق فهي ضد الحلم ، وهي تقابل كلمة « الإسلام » التي تدل على الخضوع والطاعة لله وتحتل على التحلي بالخلق الكريم ^(٤) . وهكذا فالجاهلية لفظ أطلقه المؤرخون على تلك الفترة التي سبقت ظهور الإسلام ، ويدل على ما كان هؤلاء العرب عليه من طبع تزق وسفه وعلش ونظب .

أما تحديد بداية هذه الفترة ، ثم عمرها ، فقد ذهبت دائرة المعارف والألوسي إلى « أنها الفترة الزمنية بين الرسولين الكريمين عيسى ومحمد عليهما السلام » ^(٥) ، وذهب آخرون إلى أنه لا يمكن تحديد أوطأ وبالتالي فلا يمكن تحديدها بزمن ^(٦) ، وقطع الدكتور شوقي ضيف بأنها في حدود قرن ونصف من الزمن ، ^(٧) وما وراء ذلك سواء بالجاهلية الأولى . أما إبراهيم مصطفى ^(٨) فقد رأى أن سبيل تحديد أول جاهلية مرتبط بتحديد آخر حضارة فالت بالجزيرة ثم تحدد نهايتها فتكون بدء العصر الجاهلي ، وذهب إلى أن آخر دولة مستقلة قبل الإسلام وهي الدولة الحميرية باليمن انتهى عهدها سنة ٥٢٥ م ، وتفككت الجزيرة بعد ذلك ووقعت الفوضى وعمت الجزيرة . وقد أحسن الشاعر الجاهلي الخارث بن حلزة تصويرها :

هل علمتم أيام ينتهب الناسُ
لا يُقيمُ العزيزُ بالبلدِ السهلِ
فيسواراً لكلِّ حيٍّ عواءُ
ولا يتنفعُ السَّليلُ النِّجاءُ

(١) الألوسي - بلوغ الأرب ١/ ١٥٠ .

(٢) نزهة الخليل - مجلة النجم العلمي بدمشق ٢/ ٤٢٤ ، وانظر : عبد النعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية ٤٤ .

(٣) تاريخ العرب مطول - طيب حتى ١/ ١١٧ ، يحيى الجبري - الجاهلية ٢٩ .

(٤) شوقي ضيف - العصر الجاهلي ٣٩ ، وانظر فجر الإسلام لأحمد أمين ، ١٩٦٩ ، P. 10 Nicholson, Lit. His.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٦٤ - ٢٦٥ ، بلوغ الأرب - الألوسي ١/ ١٥٠ .

(٦) تاريخ أدب العربية جورج زبدان ١/ ٢٩ ، تاريخ الدولة العربية - عبد النعم ماجد ٤٤ .

(٧) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٣٩ .

(٨) مجلة الرسالة عدد ٩١٩ فبراير ١٩٥١ ص ٢١٥ .

(٩) شرح القصائد السبع الطبري ٤٧٠ .

فهو عنده حد العصر الجاهلي العربي ، أي أن الفترة الجاهلية عنده حوالي مائة عام .

ولعل إلى رأي الذين قالوا بأنها امتدت نحو قرن ونصف من الزمان ، لأن حرب اليموس وهي حرب مشهورة دامت نحو أربعين سنة وحللت وقتها في الجاهلية ووصلتا أخبارها وحللت بدايتها ونهايتها بشكل قسّي ، فنهايتها كانت على يد النضر الثالث الذي عقد الصلح بين الحيين بكر وتغلب ، وكان ذلك حوالي ٥٢٥ م^(١) وتكون بدايتها حوالي ٤٨٥ م ، وهذا يقترب من رأي الذين قالوا بأن الجاهلية امتدت قرناً ونصفاً من الزمن . ويدعون للفول بهذا الرأي كذلك عمر الشعر العربي الجاهلي الذي حدده بعض القدماء بمائة وخمسين سنة تقريباً^(٢)

مصادر دراسة هذه الفترة :

يكتف تاريخ أمتنا في هذه الفترة بعض الغموض ، لعدم تدوينهم تاريخهم ، أو لأنه لم يصلنا ما دونّه في تلك الفترة ، الأمر الذي دعا البعض إلى القول بأن وليس للباحث في قضايا الجاهلية إلا نور ضئيل من الحقائق المبثورة يعني به ، ولا يرى هذا الباحث من المصادر إلا الروايات والأساطير والأمثال^(٣) .

ولكن العرب عرفت نوعاً من التاريخ الشفهي^(٤) ، فقد رأينا القبائل تروي أليها : حروبها وانتصاراتها ، وتتخذ ذلك مادة فخرها على القبائل الأخرى . وهذا التاريخ الشفهي أو التراث اليدوي اللغوي كان الطريق الوحيد إلى التخصص تاريخ الجاهلية مما لم يشر إليه القرآن الكريم ، وقد كان يتخذ أحياناً صورة الشعر الخالص ، وأخرى يكون نثراً تتخلله الأشعار ، وقد يكون النثر شرحاً لقصيدة أولبيت من الشعر تضمن مثلاً أو حكمة ، وقد يأتي الشعر مرئلاً على لسان أحد أبطال الخير للقول . وكان الشعر في جميع الحالات هو محور الخير وهو الذي يحافظ على تناقل الخير وانتشاره ، وربما سقط النثر خلال تلك الرحلة الطويلة التي قطعها الخير عبر القرون حتى عصر التدوين ، وربما نسي الشعر وعند ذلك تبتكر أشعار جديدة لتعجد القليلة وتعلي منزلتها .

فالشعر إذاً أداة التاريخ الجاهلي ، ومصدر أساسي له لازدياده ارتباطاً وثيقاً بالأخبار ، ولانعدام أدوات التاريخ الأخرى أو لقلتها على الأقل . وقد نجد مبالغة وتزيّناً أحياناً وشعراً

(١) تاريخ العرب مطول - فيليب حتى ١ / ١٢٠ .

(٢) الحيوان للمجسط ١ / ٧٤ .

(٣) تاريخ العرب مطول - فيليب حتى ١ / ١١٨ .

(٤) نشأة التدوين التاريخي عند العرب - حسين نصار ٦ .

منحولاً علىفراد أو قبائل ، إلا أن ذلك لا يقلل من أهمية الشعر في التاريخ لتلك الفترة الهامة من حياة أمنا في فجرها الأول . ولا ينقص من أهمية هذا الشعر ما ذهب إليه أحد الباحثين حين نعته بأنه « معالجة التاريخ القبلي وغيره في أحواله العائلية تلميحاً أكثر من معالجته بشكل مفصل » ، ولأنه يخلط الأحداث التاريخية بأشور أخرى غير ذات صلة بها ^(١) .

ولقد وصلنا هذا الشعر عبر طريقين أوصله الطريق الأول للشاعري ، حمله أصحابه أولاً ثم حمله خلقهم من بعدهم ، وأكمل الطريق الرواة على اختلاف فئاتهم ، ثم أسلموه إلى فقه من العلماء تولت تنقيحه وتثنيته وتدوينه . وقد سقط من هذا الشعر عبر هذه الرحلة الطويلة الشاقة الكثير ووصلنا الكثير أيضاً . ووصلنا قدر من الشعر لو درس بأمانة وعناية لثقل إلينا صورة واقعية حية لحياة العرب في جاهليتهم .

ونجد هذا الشعر مبثوثاً في مصادره التي ستعرض لها في فصول قادمة ، سواء منها الذي انفرد بمجموعات شعرية متجانسة ، أو شعر شاعر بعينه ، أو جاء الشعر في ثيابا القصص في مواضع معينة للإيمتداد به ، أو لتحلية الموضوع وغير ذلك .

ولكننا إلى جانب الشعر الجاهلي نجد مصادر أخرى لها قيمتها نقلت إلينا صوراً من الحياة القبلية الجاهلية ، وصورت لنا عاداتهم وحياتهم وخروجهم ومكرماتهم ومبادئهم . ومن هذه المصادر القرآن الكريم وكتب تفسيره ، والحديث الشريف وما تبعه من كتب تراجم الرجال الذين رويهم ، وكتب الجغرافية والتاريخ ، وكتب اللغة والأدب والنحو ، والمعاجم اللغوية ، وكتب أخرى غير عربية كالتوراة ، وتاريخ هيرودس والآثار التي اكتشفت في الجزيرة العربية وغيرها من المصادر ^(٢) .

القبيلة وحدة الحياة في المجتمع الجاهلي :

إذا استحيينا تلك المجتمعات المستقرة التي توفرت لها أسباب العيش كدولتي الخلافة والفلسفة ومجتمع المدينة ، وقريش ، وثقيف ، فإن المجتمعات التي عاشت في الجزيرة عاشت حياة قبلية لم تنعم إلا ببعض الاستقرار دأبها التنقل سعياً وراء الكلأ والماء .

والأسباب التي دعت إلى تكوين القبيلة ، وإلى أن تكون الوحدة الاجتماعية في ذلك العصر يمكن دوماً إلى اضطراب الحياة المادية وعدم استقرارها ، وإلى عدم قيام حكومة تحفظ للناس

(١) دراسات عن المؤرخين العرب لمرحليوث ، ترجمة حسين نصار ٧٥ .

(٢) صدرت حديثاً عن جامعة الملك سعود دراسات: مصادر دراسة لتاريخ الجزيرة العربية في عشرين لمجموعة من الباحثين ، ١٩٨٢ ، وناقروا المذكور عبد الرحمن الأنصاري ١٩٨٢

أرواحهم وممتلكاتهم وتطعم الجائع وتغث المنكوب^(١) ، وإلى قسوة الحياة في تلك الصحراء للتراثية الأطراف . ورأى فيها بعض الباحثين^(٢) قطعاً ملائماً لمتنضيات البيئة الصحراوية كما تلائم الحياة الصناعية متنضيات الحياة في ديترويت .

والقبيلة مجموعة من الناس ، تؤمن بوجود رابطة تجمعهم تقوم على أساسين من وحدة الدم الشئكة في انتمائهم لأب واحد ، ووحدة الجماعة . وهذه المجموعة تعمل في اتجاه واحد هو مصلحة القبيلة المشتركة . فهي إذن وحدة سياسية قائمة بذاتها في العصر الجاهلي ، كما أنها وحدة إجتماعية أيضاً لها نظمها وأعرافها وتقاليدها .

وهكذا فكل قبيلة أشبه بدولة مصغرة^(٣) ، وهي دولة الإعرابي وموئله في تلك الصحراء القاسية التي لا يسودها قانون عام يحقق الأمن والعدل للجميع ، وقد توافرت فيها المسؤولية المشتركة بين أفرادها جميعاً ، فكل فرد صورته المصغرة ومثلها أمام القبائل الأخرى .

وهكذا نجد للقبيلة مظهراً إجتماعياً ومظهراً سياسياً ، ويظهر الأخير بشكل أوضح عندما ينشأ نفوس الحرب في القبيلة ، عند ذلك تظهر وحدة القبيلة ويجب كل فرد فيها مدافعاً عن حملها ، أو مهاجماً مع باقي أفراد قبيلة خصومهم الذين يتربصون بهم .

وأصل تكوين القبيلة الأسرة ، فمجموعة الأسر تشكل القبيلة ولكن هذه الأسر يرتبطها رباط الدم الواحد الذي يجري في عروقهم . ويلعب « سميت » إلى أن « الجماعة القائمة على وحدة الدم هي أكثر الصور قدماً في المجتمع السامي وأن إطلاق اسم الحي على الجماعة التي من دم واحد يعطى بالبدا السامي القائل بأن حياة الجسد ثانوية في الدم^(٤) . ولكن القبيلة لا تعيش بمعزل عن المحيط الذي تعيش فيه ، فقد تنضم إليها عناصر من قبائل مجاورة ، ويتضوون تحت لوائها ويشاركون فيها يشارك فيه أفراد القبيلة الصحراء من تحمل المسؤولية المشتركة ، ويصبحون من أفراد القبيلة . ويتم ذلك إما بالهلق وإما بالمزاجاة أو الإسترقاق أو الإستحقاق .

وهكذا لا يمكننا إرجاع وحدة القبيلة إلى صلات القرى وحدها ، فالقبيلة ضمت أبنائها الصحراء ، وضمت من لا يمتون إليها بصلة القرابة كالموالي والمستحقين من القبائل الأخرى .

(١) النخاسي - أحمد الشايب ٣٧ .

(٢) تاريخ العرب مقبول - قليب حتى ٢٨ / ١ .

(٣) النخاسي - أحمد الشايب ٣٧ ، وأنظر نواري من ٨ .

(٤) Smith, Kin ship and marriage P 46 .

ولا بد من البحث عن رابطة تجمع بين هذا المزيج وتلك هي المصلحة المشتركة في الحفاظ على كيان هذه الجماعة وحسن بقائها وتوفير أسباب العيش لها .

وإذا فطبقات القبيلة العربية التي نميزها على ضوء ما سبق : الصرحاء والوإالي أو الخلفاء والعبيد . ولكل من هذه الفئات الثلاث حقوق وواجبات ، إلا أنهم مع ذلك يشتركون في بعضها ، ويتميز الصرحاء عن باقي الطبقات بامتيازات يتمتعون بها ، ومع ذلك فالصرحاء ليسوا في مرتبة واحدة ، لأن البيت والعدد أمران بارزان في كيان كل قبيلة .

ومن الأمور التي استقر عليها العرف القبلي أن ذية الخليف تصف ذية الصريح ^(١) وأن ليس من حق الخليف أن يجرى وإنما ذلك حق للصريح وحده من أبناء القبيلة . ^(٢)

وكان الرقيق مزيجاً من العرب والأمم المجاورة لهم ، ولكن السود كانوا أشد تعرضاً للاحتقار والازدراء ^(٣) ، ومن مصادر الرقيق في ذلك العصر الحروب والاختطاف والشراء ، وعرفت الجماعة أسواقاً لبيع الرقيق كمسوق عكاظ وسوق حياثة ^(٤) وعرف هذا العصر قوانين للرقيق فيما يتعلق ببيعه وأبنائه واستلحاقه بنسب القبيلة ، وبالأمانة إن وضعت مرلوياً ، فقد سموه هجيناً ^(٥) ، وكان عمل الرقيق مقصراً على الرعي والخدمة في بيوت الصرحاء من أبناء القبيلة، ولا يلحق بنسبها إلا إذا قدم لها عملاً جليلاً كان ينقلها من هزيمة محقة بشجاعتها كما فعل عترة .

وكانت القبيلة تؤمن تماماً قوياً بحسبها وتعتبر أنها أنقى القبائل دماً ، وأشرافهم حسباً ونسباً ، ولا تعترف لأحد بفضل عليها . وهذا الإيمان قادها إلى الاعتناء بنسبها ، كما قادها إلى استنثار غير العرب فوجدت طائفة الأخرية ^(٦) وكان كل فرد في القبيلة يعرف نسبه ونسب أسرته وقبيلته ويقتخر به ويحفظه أبداً وأحفاده .

وكانت القبيلة كذلك تؤمن بوحشتها ولا تسمح لأي فرد من أفرادها أن يلتصق هذه الوحدة ، أو يخرج من إطارها ويشذ عن إطار المجموعة ، ومن فعل ذلك كان جزاءه الخلع فيغترب طريداً في الصحراء .

تشكيل القبيلة :

قلنا سابقاً إن العربي لم يعرف في جوامع دولة تحمي وتنظم حياته ، واستعاض عنها بشكل مصر ، ذلك هو النظام القبلي ، فالقبيلة أشبه ما تكون بدولة مصغرة وكما أن لكل دولة

(١) الأغاني / ٣ / ١٨ . (٢) سيرة ابن هشام / ١ / ٣٨١ .

(٣) الأغاني / دار الكتب / ٨ / ٢٤٠ . (٤) التفاضل طبعة أوروبا / ١ / ١٣٩ .

(٥) النظر مائة هجين في القيسان . (٦) الشعراء الصعاليك - خليف / ١١٩ .

ورئيساً ، وكذلك كان لكل قبيلة رئيس أو سيد أو شيخ ، فمعها اختلفت التسميات فالضمون واحد ، والرئيس هذا يختار من بين أفراد القبيلة الصرحاء ومن عشيرة قوية العصبية ، وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً أبان فيه أن الرئاسة لا تزال في تصايبها المخصوص من أهل العصبية ^(١)

ويجب أن يتحلى رئيس القبيلة وسيدها بصفات تؤهله لقيادة القبيلة في سلمها وحربها ، في جنبها ونحسبها ، وعمل رأس هذه الصفات الشجاعة والمقدرة الحربية ، تلك الصفة التي كان العرب يتساعفون في أي صفة إلا هذه ، وما ذلك إلا الحاجة المبررة إلى رجل شجاع يحميها من أخطائها ، ويقود فرسانها إلى الحرب والغزو فيحفظها عزتها وسعتها بين القبائل الأخرى . كما أن رجاسة العقل وحصالة الرأي تكفي في الرتبة الثانية ، لأن القبيلة بحاجة إلى من يحسن قيادتها ، ويحسن تصور الأمور وتصريفها . وينبغي أن يكون سيد القبيلة كريماً الخلق ، حليماً يتسع صدره لجهل الجاهلين إذا جهلوا ، كما ينبغي أن يكون صنيئاً ، ولو أن صغر السن لم يكن يمنع الرئاسة ، ولدينا في العصر الجاهلي شواهد على ذلك ، فصخر أمّو الحساء لم يكن كبيراً في السن ومع ذلك سوّته عشيرته . والمثال ضروري حين تشتد المحن ويجب الضرع ويقططر المطر ويتلاشى الكلال ، وسيد القبيلة أول من يلجأ إليه في مثل تلك الحالات ، ولذا يجب أن يكون عظيم الثروة ، وربما دفع سيد القبيلة ديّات القتل لقبيلة أخرى كما فعل سيدا غطفان هُرَيم بن سبابة والحارث بن عوف حيناً لعملا ديّات القتل وأنها ثلثت حرب داحس والغبراء .

وتلعب البراعة البيانة ولمصاحبة اللسان دورها في إتجاح القيادة ، لذا يجب أن يكون رئيس القبيلة مثكلاً فصيح اللسان يملك الحجة ورجاسة العقل ليستطيع السيطرة على أبناء قبيلة بالحجة والإقناع لا بالسيف والقوة ، كما أن السم والحيشة لها أثرهما في النفس لما تكسبان صاحبهما من هبة ووقار .

وهكذا فإن رئيس القبيلة ينبغي أن يكون مسناً ممتاز برجاسة عقل وكرم خلق يمتلك ثروة كبيرة تؤازره قوة عصبية ، شجاعاً يتمتع بكفافة حربية .

وقد حدد عمر بن الطفيل العامري بعض شروط السيادة حين قال : ^(٢)

وَأُنْسِي وَإِنْ كُنْتُ أَبْنَى سَيُّرَ عَامِرٍ وَفِي السَّرْمَتِهَا وَالصَّرِيمِ الْمُهَلَّبِ

(١) مقدمة ابن خلدون - طبعة مصر ١٣٢٣ ص ١٠٤

(٢) زهر الأديب - للتحصري ١ / ٨٥ والمطر ديوانه ٦٣ .

فها سَوْدَتْسِي عاسرٌ عن وراثته أبى الله أن أسمو بأمر ولا أبى
ولكننى أحى حامداً وأتقى أذاها وأزبى من زمامها بمنكب

والشخصية رئيس القبيلة أثر كبير في مكانة القبيلة ، فالزعماء في المجتمعات القبلية رجال السياسة ، بحكمتهم وكفائتهم تقرر الأمور ، ووب كلمة من زعيم أو حقوة تصدرو منه تأثير حرباً أو تسبب كارثة أو لكيتك أو للحظف الذي يتزعمه ^(١)

وإذا عرضنا لحروبهم لاحظنا كيف أن سيد القبيلة وقائدها كان يهزمه وحكته يغير مجرى المعركة ، لهذا حُظِرَ بين الكتاب الأوسى يترك ويظمن فخذ يستأن رحمه يوم يُعاث عندما رأى أن الدائرة تلوح على قومه ، فرجع قومه والتفوا حوله ونبشوا وبحول الهزيمة إلى نصر ^(٢) وفي يوم شُيْبَ جبلةً تجتمع عاسر وحليفها عيس للمشورة فيما ستفعله لمواجهة القبائل التي زحفت نحوها ، وكان رئيسهم الأخرص بن جعفر قد شاخ ، فعرض عليهم أن يعرضوا أراهم وقرهم الصالح منها ليقبلوا إلى أن استقر رأيهم على أمر وكان النصر لحليفهم ^(٣) . وفي يوم الكلاب الثاني كان أُنْظَم بن صيكي زعيم تميم وحكيمها قد لُفَّ على التسعون فطلب منهم إيداء أراهم وهو يسمع ليحكم لأنه يظن أن ينشأ براه ولا يكون مصياً بسبب كبر سنه ، حتى قام النعمان بن جساس واقترح أن يذهبوا إلى ماء الكلاب فاتفرو أُنْظَم ^(٤) . وهذا زهير بن جندبة العبيسي بما امتلأ به بتزعم قبيلة عيس وعند تقوئه إلى قيس عيلان يرميها ، وكانت بطون قيس تأتيه بالإتاوة كل عام ^(٥) ولبعه ابنه قيس بعد ذلك فقاد عبساً في حروبها ضد ذبيان وغيرها .

وواجبات سيد القبيلة كثيرة تتمثل في قيادته لها في الحروب ، واستقبال وفود القبائل ، وعقد الصلح ، وعقد المحالفات ، واتخاذ التنايير في سبيل القسط ، وإقامة الضيافات ولجديد حركات الظهور ، ولجماشي الظلم ، ونجدة المستغيث للظهور ، وحفظ الجوار ، وإغاثة المعوز والضعيف ، وتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وديانتها .

وقد ذكر معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب هذه الواجبات حين قال : ^(٦)

نُعْطِي العشيبة حَقَّها وحقيقتها فيها ونغفر ذنبها ونسودُ

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي / ٢١٥ .

(٢) الكامل في التاريخ لأبن الأثير / ٦٨٠ . (٣) التلخيص / ٢٠٥٨ .

(٤) العقد المرید / ٢٢٤ . (٥) الأغانى / ١٠٨ .

(٦) الفضائل - مفصلة رقم ١٠٤ .

وَإِذَا تَحَمَّلْنَا الْعَثِيرَةَ ثَقَلَهَا قَمْنَا بِهِ ، وَإِذَا تَعَرَدُ نَعُودُ
وَإِذَا نَوَافِقُ جَرَأَتْ أَوْ نَجَدَتْ كُنَّا ، سُمِّيَ بِهَا الْعَدُوُّ نَكِيدُ
بَلْ لَا تَقُولُ إِذَا تَبَوَّأَ جِيرَةً إِنْ الْمَحَلَّةُ شَيْعَهَا مَكْدُودُ
إِذْ بَعْضُهُمْ يَحْمِي مَرَاصِدَ بَيْتِهِ عَنْ جَارِهِ وَسِيلُنَا مَرْدُودُ
قَالَتْ سَمِيَّةٌ : قَدْ غَوَيْتَ ، بَانَ رَأْتُ حَقًّا تَنَاقُوبُ مَا لَنَا وَوَفُودُ
غَيُّ لِعَمْرِكَ لَا أَزَالُ أَعُوذُ مَا دَامَ مَالٌ عِنْدَنَا مَوْجُودُ

وهذا لفظ الإيادي يصور لنا أهم واجبات الرئيس وصفاته فيقول^(١) :

وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ ظَرْفَ دَرَكِمٍ رَحِبَ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مَضْطَلِعَا
لَا يَطْعَمُ النَّوْمُ إِلَّا رَيْثَ بَيْعَتِهِ هَمٌّ يَكْلُدُ سَنَاءَ يَقْضِمُ الضَّلْعَا
سَهْدُ النَّوْمِ تَعْنِيهِ أَمُورُكُمْ يَرُومُ مِنْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مُطْلِعَا
مَا أَتَضَكُّ يَجْلِبُ هَذَا الدَّمْعُ أَشْطَرُهُ يَكُونُ مَتَّبِعًا طَوْرًا وَمَتَّبِعَا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْزٍ مَرِيرُهُ مَسْتَحْكَمُ الرَّأْيِ لَا قَمْحًا وَلَا ضَرْعَا
وَلَيْسَ يُشْغَلُهُ مَالٌ يَشْمَرُهُ عَنْكُمْ ، وَلَا وَلَدٌ يَبْقَى لَهُ الرُّفْعَا

وكان رئيس القبيلة إن شاخ وكبر يتخلل عن قيادة فرسان القبيلة في غزواتها ويبقى له بالي
الجهات ، كما كان يتخلل نهائياً عندما يحس أنه غير قادر على تحمل مسؤوليات قبيلته فقد تخلل قيس
ابن زهير العبسي عن زعامة عبس للربيع بن زياد ، تاركاً له أمر وضع حد لحرب داحس ،
واحتزل قيس القبيلة^(٢) :

أما حقوقه السياسية وسيادته على القبيلة فهي تتمثل في الإحترام ، وله بعض الحقوق المالية
حدها عبد الله بن عثمان الضبي عندما رأى بسطاماً^(٣) :

لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ

(٢) أمثال الضبي ص ٤٠ .

(١) غزوات ابن الشجري ص ١ .

(٣) الحيوان - للجاحظ ٩ / ٣٣٠ والأصمعية رقم ٨ .

فالرباع ربيع الغنمة كان خالصاً للرئيس ، والنشيط كان للرئيس أن ينشط عند قسمة الختام العلق القيس إذا استحل ، والقصي : الشيء النادر ، والفضول : فضوله للقاسم .

ولكن سيادة رئيس القبيلة على قبيلة ليست مطلقة بل مرتبطة بمجلس القبيلة ^(١) وبجزاء هذا الرئيس إن بلى كجزاء كُليب وهو القتل ، إلا أننا مع ذلك نرى أن الأمر كله متعلق بشخصية الرئيس وتقومه وسيطرته على أفراد القبيلة ، ومن هنا تختلف نسبة هذه السيادة لشخصية الرئيس وعصبية في القبيلة . وأسرف البعض ^(٢) فزعم أنه ليس له حقوق البتة ، بل كل ما له الإحترام ، وأعطاه آخر ^(٣) نفلاً كلمته في السلم والحرب .

وتنتقل الرئاسة والسيادة إما بالوراثة كما وأبناها تنتقل من زهير بن جليعة إلى ابنه قيس ، ومن ربيعة إلى ابنه كُليب ، إلا أن هذا الإنعقال الوراثي مشروط بتوفر شروط الرئاسة في الورث ، ويرضى القبيلة عنه . كما تنتقل بانتخاب الرئيس الراحل خطفاً له غير ابنه كما فعل قيس ابن زهير ^(٤) وقد يترك الأمر كله لمن بعده صنيع قيس بن عاصم حين حضرته الوفاة ^(٥) ، كما أن الشحلي بكرم الحلال كان ينفذ بالقرعة إلى رئاسة القبيلة كما حدث مع عامر بن الطفيل وقد عبر عن ذلك حين قال : ^(٦)

فما سودتني عامرٌ عن وراثته لئلي لقد أن أسمو بأمر ولا أب
ولكنني أحبي حياهما وأنقي لأخاه وأرمني من رماها بمقنب

وربما انتقلت الرئاسة إلى أسرة أخرى بسبب تلاشي عصية الأسرة الحاكمة الأولى ، كما حدث للبيان حينما قتل حليفة وإخوته ، فقد انتقلت الزعامة إلى الحارث بن عوف بن أمي حليفة الرزي بعد أن قتل آل بدر ، وكان حصن حدثاً لا يصلح لرئاستهم وقيادتهم في حروبهم مع عيس ^(٧) .

وفي كل قبيلة مجلس معاون ورئيسها في تسير أمورهما في السلم والحرب ، ويقرر سياستها ، ورئيس القبيلة ملزم بتنفيذ قرارات هذا المجلس والالتزام بها ، وهو أشبه ما يكون بمجلس النواب

(١) انظر بلاشير ٣٦ ، المعصر الجاهلي ٥٩ ، تاريخ العرب - فليبي حتى ١ / ٣٦ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية - بروكلمان ١ / ١٧ .

(٣) الطائفي - أحمد الشايب ٣٢ .

(٤) أمثال القيسي ٤٠ .

(٥) الأغاني / كتب ١٤ / ٨٢ .

(٦) زهر الأكتاب للحصري ١ / ٨٥ ، غير أنه ٢٨ .

(٧) أمثال القيسي ٤١ .

في العصر الحاضر. ويضم هذا المجلس شيوخ العشائر التي تتكون منها القبيلة ، كما يضم فرسان القبيلة عيادها في السلم والحرب وشاعرها أو شعراءها ، وعطيلها ، وكبار السن للجهريين ، وحكماء القبيلة وكاعنها وعرفائها .

وأهمية هذا المجلس في المُلَيَّات التي تنزل بالقبيلة . ولا ينعقد إلا لأمر طرأ ، وقد عرفنا كثيراً من هذه المجالس من خلال دراستنا لأيام العرب في الجاهلية ، كمجلس يوم جيلة ، ومجلس يوم ذي قار ، ومجلس يوم بُعث ، ومجلس حرب الفجار وغير ذلك الكثير .

ويرأس هذا المجلس رئيس القبيلة أو سيدها ، ولكل الحق في إبداء المشورة والرأي ، وتناقش الآراء المعروضة ويتفقون على رأي موحد يلتزم به الجميع .

وقد أشار مهلهل إلى هذا المجلس بقوله : ^(١)

ثَبَّثْتُ أَنَّ النَّارَ بِعِدْكَ أَوْقَدْتُ وَاسْتَبْتُ بِعِدْكَ يَا كَلْبُيبُ الْمَجْلِسُ

ولكل قبيلة حكمائها أو حكملاؤها ، يلجأ الناس إليهم في الخلافات الصعبة ، وربما كان لبعضهم طابع ديني ^(٢) . وقد حدثنا صاحب سبط اللآلء عن طائفة من هؤلاء الحكماء وذكر منهم : عامر بن الظرب من قيس ، وغيلان بن سلمة التقي ، وأكثم بن صيفي التميمي ، وحاجب بن ذرارة التميمي ، والأقرع بن حابس التميمي ، وفُصْرَة بن فُصْرَة التميمي . ^(٣)

ولكل قبيلة فرسانها الذين يناقحون عنها ، والذين يقودونها للغزو والغنمة ويخفون بالفرصاة لكل حدو مترصد بها ، وتضجر القبيلة بهم ويتغنى الشعراء ببطولاتهم ، ويحصلون قوتهم البدنية تستطيع القبيلة شن الغزوات ، وخوض المعارك وتحقيق النصر ، والعودة بالأنعام والأسلاب ، وإذا ما جاء النور على القبيلة وهوجت تصلى هؤلاء للمغربين وحفظوا لها ما حصلت عليه في غاراتها .

هذا مظهر من مظاهر القروسية العربية ، ولكن مظهراً آخر من ألوان القوة كان له أثره ، ولكنها قوة معنوية ، وكلا اللونين المادية والمعنوية هتفها واحد هو حبة القبيلة ، ذلك هو الشعر الذي يعتبر المظهر الجماهيري الثاني من مظاهر القروسية ^(٤) . ولهذا كانت القبيلة من العرب إذا نبغ

(١) حسانة أبي تمام شرح المزدوقي ٢ / ٩٢٨ .

(٢) تاريخ الأدب العربي - بلاشير - ٣٩ .

(٣) سبط اللآلء - ليكنزي ١ / ٤٨٧ . وانظر أيضاً الهان واليهود للجاحظ ١ / ٢٩٠ .

(٤) سيرة هنترة - محمود الحفني ٣٧ .

فيها شاعر أثبت قبائلها فهتأتها وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعنن بالزاهر ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وثبَّ عن أحسابهم وتحليلد لأكرهم وإشاعة بذكرهم .^(١)

وتتكمال القوتان اللغوية والمعنوية في رفع شأن القبيلة ، وقد تحدث الجاحظ كذلك عن أثر الشعر في نهضة القبيلة^(٢) ويرتفع مقام الشاعر إذا اجتمعت المروسة والشعر فيه^(٣) ، ويلبغ عندها أرفع الدرجات . وكان لوقع الكلام عندهم ما صدر عن شاعر فارس تلامي نفسه على صفاء آلة البيان وآلة الحسام . ونعيب بعض الباحثين^(٤) إلى أن الشعر الجاهلي كان يمثل فكرة الفن للمجتمع أصديق لثبيل .

ودور الشاعر في القبيلة العربية في العصر الجاهلي كبير ، ويستطيع أن يقدم لها الشيء الكثير ، وهو أشبه ما يكون بجهاز إعلامي ضخم لها .

ففي الأسواق والواسم لمحرص القبيلة على اصطحاب شعرائها ، حيث حلقات الفاعرة بين شعراء القبائل ، كل يشيد بمناب قومه ويعدد مآثرهم ويتفصص من شأن الآخرين^(٥) .

وإذا حاول أحد الانتفاض من شأن قبيلة أو التعرض لها ابهرى شاعرها الرد ، ولو كان هذا التعرض ملكاً ، ولصحة الخوارث بن حنظلة الشكري ماثلة في أذهاننا عندما أحس بأن عمرو بن هند ملك المناذرة يحاول الخط من شأن بكر ، فإذا الخوارث يهربي متشدداً معلته بعدد مآثر قومه ويرد على ادعاءات الخصوم ، ويقول بعد المقدمة الطليعة :

وَأَتَانَا عَنْ الْأَرَاقِمِ أَهْنَا هُ وَخَطْبٌ يُعْتَسَى بِهِ وَنُسَاءُ
أَنْ إِخْرَأْنَا الْأَرَاقِمَ يَغْلُو نَ عَلَيْنَا فِي قَوْمِهِمْ إِخْفَاءُ
يُخْلَطُونَ الْبَرِيءَ مِنْهُ بِذِي الذَّنَبِ بَ لَا يَنْفَعُ الْخَلِيَّ الْخِلَاءُ^(٦)

ولم يقتصر الشعراء في مجالس الملوك على الرد فحسب ، بل إنهم يدافعون عن قبائلهم ويستعطفون الملوك إذا ما تقمروا عليها بسبب تعادٍ على حكامهم وخير مغير لقومه لدى ملوك المناذرة والغساسنة هو التابعة الديني . فقد استطاع بحسبته أن يحافظ على صلات طيبة مع الدولتين ، ويرى الباحثون أنه إذا فعل ذلك لغرض قبل ، وحتى يتحقق ضبط هاتين الدولتين على قبيلته التي كانت تغير على مراعيها بين القبيلة والأخرى .

(١) المقدمة - لابن رشيح / ١ / ٣٧ . (٢) الحيوان للجاحظ / ١ / ٣٦٤ .

(٣) الشعراء العربان للبستاني / ١٢ . (٤) القصيدة - لإحسان الصبي / ١٦٦ .

(٥) انظره عكاشة في معجم البلدان لهاموت / ٣ / ٧٠٤ .

(٦) شرح القصائد السبع الطوال لابن الأثير / ٤٤٥ .

وديون الثانية يضم قصائد مدح لأولئك الملوك وقصائد استعطاف ، وقد كانوا يكرمونه ، ويطلقون سراح السبي إكراماً له ، كما يحدثنا الديوان أن حصن ابن حليفة وزيان بن سيوار أكثر من الإغارة على ما كان في يد حسان ، فجهزوا جيشاً لغزو ذبيان ، وعلم الثانية بأمره ، فاقبلت بتصحها بعدم ملاقاته ومحاولة التوغل في الجزيرة ، فرفضوا وأسر القساسنة وسبوا نساء من ذبيان ، فمدحهم الثانية برأيت التي استعملها بمحاولة التوصل مما فعله قومه :

لَقَدْ نَهَيْتُ بَنِي ذَبْيَانَ عَنْ أَقْرِ وَعَنْ تَرْبُعِهِمْ فِي كُلِّ أَصْغَارٍ^(١)

وصور فيها حال السبي وما من فيه من ذلك ، فلما قُدم بالسبي أطلقهم إكراماً للثانية .

ولم يته الأمر بالشاعر الجليل عند حد استعطاف هؤلاء الملوك بل إنه يتهددهم ويترعبهم إذا ما حاولوا القتل من كرامته أو اضطهاد قومه . هذا شاعر مزي هو الخوارث بن ظالم يخطر بقل ابن الملك النعمان ويذكر السبب حين يقول^(٢)

فَتَكْتُ بِهِ كَمَا فَتَكْتُ بِخَالِدٍ	وَكُنْ سِلَاحِي نَحْوِيهِ الْجَاهِجُمُ
أُخَيِّصُ حِمْلِي بِأَيِّ يَكْتُمُ نَجْمَةً	أَتَأْكُلُ جِيرَانِي وَجَلْدُكَ سَالِمُ
بَدَأْتُ بِحِلْيِي ثُمَّ أَتْنِي بِهِ	وَنَالَتْهُ تَبِيضُ مِنْهَا الْمَقَامُ

وهذا شاعر آخر يتوعد النعمان بن المنذر ويهجو منها إياه بالخداعة والكذب ، ويتهدده بأنه إذا فكر بفزهم فستلغاه الكتاب التي تحمل معها الموت لكل من يلقاها .^(٣)

نَعْمَانُ إِنَّكَ خَالِسٌ خَائِبٌ	يُخْفِي ضَمِيرُكَ غَيْرَ مَا تُبْدِي
فَإِذَا بَدَا لَكَ نَحْتُ أَثْلَتْنَا	فَعَلَيْكُمَا إِنْ كُنْتَ ذَا حَرَوٍ

إلى أن يقول مهبطاً :

إِنْ تَغْرُ بِالْخِرْقَاءِ أَسْرَتَنَا	نَلْقَى الْكَتَابَ دُونَنَا تَرْدِي
أَحْيَيْنَا لَحْمًا عَلَى وَصْمٍ	أَمْ خَوَّلَتْنَا فِي الْبَاسِ لَا تُجْدِي

(١) ديوان الثانية ٨٠ .

(٢) الفضليات - القصيدة رقم ٨٨ .

(٣) يزيد بن الحلي الشني - لقصيدة رقم ٧٨ .

وهو يمرض في قصيدة أخرى يظلم النعمان ويأن قومه لن يعطوا النعمان الإثابة وليجرب النعمان
فيرسل جيوشه إليهم ليرى بأسهم وشدتهم :^(١)

أكلُ لثيم منكم ومُعلَّج
ألا ابن المكلُ خيلتنا وخيلتنا
يغدُ علينا غارة فخبوسا
صركري تُعطِي الماكسين مكوسا
تجدُ حول أبياتسي الجميع جلوسا

ولا تستطيع الإمبرسال في عرض مشاهد ومواقف الشاعر الجاهلي مع الملوك فإن الأمر سيطول
بنا .

وفي الحروب يلق الشاعر متغنياً بطولات قومه وشجاعتهم ، ومتغنياً بطولته هو إن كان
من يخوضون غمرات القتال ، وهذا هو الغلب ، ويسهب في وصف المعارك وتساقط القتل من
الأعداء ويصف فلولهم المولوية ، وسيهم الذي وقع في أيدي قومه وحال ذلك السي من الأسى
والذلة ، ولا ينسى من سقط من فرسان قومه في حومة الوض ، فريته وقلة هو أقرب إلى الفخرمة
إلى الرثاء ، متغنياً بشجاعته ورسالته ، ومنافه الأخرى . ونراء يجلز الآخرين من غزو قومه وإلا
لمصيرهم كمصير هؤلاء . ولا يرضى الشاعر بالخزيمة ، ولا يسلم بها بسهولة ، وقد يقلب
الخطبة ويصور هزيمة قومه نصراً كما فعل الشاعر البكري عبد المسيح بن عملة العبدي يوم حَيَّزَة
حين جعل بكرةً هي للتصرة مع أن تغلب هي للتصرة :^(٢)

غدنوا إليهم والسوفُ عصيًا بأيماننا نغلي حسنُ الجهاجا
لعمري لأشبعنا ضباغ حَيَّزَة إلى الحول منها والنورُ الفشاعيا

وإذا ما هُزمت قبلته فإنه يهون عليها الخزيمة ويمنعها ليوم الثار من الأعداء ، ويحثها على
الاستعداد بالثار إذا ما لحس أنها تلتكأ في ذلك .

ويتصدى شاعر القبيلة للشعراء الذين يحاولون النيل من قبيلته إذا هُزمت ففي يوم بُعات
هزمت الأوس الخزرج ، واتخر بذلك قيس بن الخطيم ، فآثري عبد الله بن رواحة يرد عليه
ويقول :^(٣)

ومعتزكُ غنكُ يري الموتُ ومنطقه مشيئنا له مكي الجبال المصاحب

(١) الشاعر نفسه القطفية رقم ٧٩ .

(٢) للفضلية رقم ٨٣ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٨٣ .

يَرْجُلُ تَرَى الْمَاضِي فَوْقَ جُلُودِهِمْ وَيَبْضُ نَفِيًّا مِثْلَ لَوْنِ الْكَوَاكِبِ
وَهُمْ خُسْرًا فِي الدَّرُوعِ نُخَالُهُمْ أَسْوَدًا مِثْلَ تَشْنَأِ الرِّمَاحِ تَضَارِبِ

وإذا ما شئت الحربُ قومه وقللت ساداتهم ترى الشاعر العربي ينسج لنا ليصور حال قومه بالأسى وما كانوا عليه من نعيم في ديارهم ومنعة ، وحالهم اليوم وقد فرتهم الحرب ، ويحس بأن الشاعر بثقت قلبه حسرة عليهم ، ولكنه لا ينسى أن يظهر مفاصلهم ، وهذا جابر بن حنبل التنلي يصور لنا ذلك :^(١)

لَتَغْلِبَ أَبْكِي إِذَا أَلْزَمْتُ وَمَا حُفَا غَوَائِلَ شَرٍّ بَيْنَهَا مِثْلُكُمْ
وَكَانُوا هُمُ الْيَانِسَ قَبْلَ اخْتِلَافِهِمْ وَمَنْ لَا يَشِيدُ بِنَيَّانِهِ يَتَهَدَّمُ

إلى أن يقول :

وَقَدْ زَعَمْتُ بِهَرَاءٍ أَنِّي وَمَا حُفَا رِمَاحُ تَضَارِي لَا نَخُوضُ إِلَى الدَّمِ
فِيَوْمِ الْكَلَابِ قَدْ أَزَالَتْ وَمَا حُفَا شَرَّخِيلَ إِذْ أَلَى أَلِيَّةٍ مُقْسِمِ
لِيَتَزَعَّنَ أُرْمَلَحَا ، فَأَزَالَهُ أَبُو حَنْظَرٍ عَنْ ظَهْرِ شَقَاءٍ صِلْدَمِ

ويقوم الشاعر في قومه بدور الناصح المحذر من مغية الوقوع في الشرك إذا ما حاولوا الاحتكاك بملك أو استباحة حياه ثلثا بصيهم منه ما يكره شاعرهم ونسمع صوت حلقة الفحل محذراً قومه من أبي قابوس وناصحاً لها :^(٢)

فَقُلْ لَتَمِيرَ تَجْمَعُلُ الرَّمْلَ دُونَهَا وَغَيْرَ عِمٍ فِي الْمَزَانِزِ جَاهِلَةٌ
فَلَنْ أَبَا قَابُوسَ يَنْسِي وَبَيْنَهَا بَلَّوْعَنَ يَنْفِي الطَّيْرَ حَمْرَ مَنَاقِلَةٍ
إِذَا ارْتَحَلُوا أَصَمَّ مَوْبُو وَكُلَّ سَهَبٍ نَقَرُهُ وَصَوَاهِلُهُ

وهذا القبط الإنادي يكتب إلى بني شيبان يوم ذي قار محذراً من غزو كسرى وحالاً لهم على الاستعداد له :^(٣)

فَرَمُوا قِيَامًا عَلَى أَمْشَاطِ أَرْجُلِكُمْ ثُمَّ الْفَزَعُوا قَدْ يَنَالُ الْأَمْنُ مَنْ فَزَعَا
وَقَلَّدُوا أَسْرُكُمُ اللَّهُ دَرَكُمُ رَحْبَ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعَا

(١) المقفلة رقم ٤٢

(٢) ديوان حلقة الفحل ص ١٤٧ .

(٣) المعتد الفرزدق ٢٦٨ / ٥ والحماسة البصرية ٨٩ / ١ .

والثابتة الديباني ينهي قومه ويظهرهم من غارة الملك عندما تربعت بنو ذبيان ذا أقر الذي كان قد حله الملك النعمان بن الحارث الغساني ، ويتصور حال نساء قومه وهن في الأسر وشوقه عليهن وعلى شرفهن أن يسو :

لقد نهيتُ بنِي ذُبْيَانَ عَنْ أَقْرِ
وَقُلْتُ : يَا قَوْمُ إِنْ أَلَيْتُمْ مَنَافِضُ
لَا أَعْرِضَنَّ رِيبِي أَوْراً مَدَامُهَا
يَنْظُرُونَ شَرّاً إِلَى مَنْ جَاءَ مِنْ
خَلْفَ الْعَضَارِيطِ لَا يَوْقِينَ فَاحِشَةً
يَكْرَهُنَّ دَمْعاً عَلَى الْأَشْغَالِ مَتَحَدِّراً
إِذَا عَصَيْتُ فَمَنْسِي غَيْرُ مَنَفَلَتِ
أَوْ أَضْعَ الْبَيْتِ فِي سَوْدَاءَ مَظْلَمَةٍ

وَمَنْ تَرَبُّعَهُمْ فِي كُلِّ أَصْفَلٍ (١)
عَلَى بَرَائِثِهِ لَوْبَةِ الضَّارِي
كَأَنَّ أَبْكَارَهَا نَعْلُجُ ذَوَاكِرِ
عَرُضَرٍ بِالْوَجْدِ مَنَكُورَاتِ الرِّقِ أَحْرَارِ
مَسْتَمْسِكَاتٍ بِأَقْصَابٍ وَأَكْوَابِ
يَأْمَلْنَ رَحْلَةَ حَصْنٍ وَابْنِ مَكَا
مَنْسِي اللَّصَابِ فَتَجْتَبِأُ حَرَّةَ النَّارِ
تُقَيِّدُ الْعَيْرَ لَا يَتَرَى بِهَا السَّارِي

وحين حينها كان غادراً حريمه ، في الأسر لدى أعدائه ، لم يكن يضمن على قومه بالتحذير ، يورد هذا الأسر بأنه لا يطيع أن يُغزوا وهو طابع عندهم لا يفعل شيئاً : (٢)

فَلَا تَأْمُرْنِي يَا ابْنَ أَسَاءَ بِالنِّي
بَأَنْ تَخْتَرُوا قَوْمِي وَأَجْلِسَ فِيكُمْ
وَلَا رَأَيْتُ الْقَوْمَ جَدّاً تَغْيِرُهُمْ

تَحْمُرُ الْفَتَى ذَا الطَّعْمِ أَنْ يَتَكَلَّمَا
وَأَجْعَلَ عَلَمِي ظَنْ غَيْبٍ مُرْجَمَا
دَعْوَتُ نَجَاحِي عَمْرَآ وَلَقَلَّمَا

ثم يقول إنه فعل ذلك حتى لا يلومه قومه في يوم من الأيام.

فَكَلَّمْتُ مَا عِنْدِي مِنَ الْحَمِّ نَاقَتِي خَافَةً يَوْمَ أَنَّ الْإِمَّ وَأَتَمَّا

والشاعر في القبيلة يسجل الحوادث التي تحدث بين أبناء القبيلة الواحدة ، ويحاول أن يحثهم على عدم البُغْض والتشتت ، وإذا ما حدث الشقاق أُنحى باللائمة على المخطئ من الغريزيين ويصور ذلك بأمانة الحريص على وحدة قبيلته . هذا الحُصَيْنُ بْنُ حُثَمِ الْمُرِّيَّ يحمل بني صريمته ووزر الحرب التي اُقتل فيها الإعرابان : (٣)

(١) ديوان الثابتة ٨٠ .

(٢) التفاضل ١ / ٥٣ الشعر لعصيرة بن طارق البديوي .

(٣) القضاة ، رقم ٩٠ .

يا اخوتنا من أيننا وأيننا
فلن أنتم لم تفعلوا لا أبا لكم
ونحن بنو ستم بن مرة لم نجد
مى نتسب تلقوا أبانا أبانكم
ذروا مولدنا من قضاة يذها
فلا تلقلونا ما كرمنا فنفضها
لنا نسباً عنهم ولا متسباً
ولن نحدونا للفواحر أقرنا

وهذا شاعر فزاري « شبيب بن شويلد » يعرض ما حدث عندما عرض الحارث بن عوف ابنه على عيس بعد أن قتل الحصين بن حنظلهم أحدهم بعد الصلح وبين صلوات القريى ويذكر باليهود والنعم بين الحيين ، وبين شناعة ما فعل عيس ^(١)

يا قومنا لا تفرونا بظلمة
في جاركم وابنكم إذ كان مقتله
عمر المسود بها والسائدون فلم
كتا بها بعدما طيخت غروضهم
لاني وحصناً كاذي الأنف المقول له
يا قومنا واذكروا الآلاء والدما
شعاء شيت الأصداع واللمما
يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما
كله سيرة بنفسي ليطها الدنسا
ما عنك أنفك إن أعضفته اتجها

ثم يفتنها بطلبه منهم أو يودها ذممة حصن أو ليتظروا حراً لا تبلي ولا تذر:

أدوا ذممة حصن أو خذوا بها
حرباً تحش الوقود الجسول والضرمما
وللناقة صوته السموع في هذا المجال ، وطللا بكى فراق الإخوة وتخليهم ، ونعى على عيس مجاورتهم لغير بني جلدتهم مثل بني شكيل ، وما هو ذا يبكي بني عيس حين فارغوا ذبيان وأطلقوا إلى بني عامر ^(٢):

أبلغ بني ذبيان ألا أتحلم
بجمع كلون الأصيل الورز لوته
هم يردون الموت عند لغايه
بعبس إذا حلوا الدماغ فأظلم
تسرى في نواحيه زهيرا وحديما
إذا كان ورد الموت لا بد أكرما

وفي الحرب التي جرت بين بطون علي بنصور قبضة الجرهمي الطائي كيف أنهم هذه الحرب قطعوا وشائج القربى التي كانت بينهم بسببهم ^(٣):

(١) النفاض ١/ ١٠٦ .

(٢) النفاض ١/ ١٠٣ ، القبران ١٠٩ .

(٣) حاشية أبي تمام شرح المزدني ٢/ ٦١٢ .

عَشِيَّةً قَطَعْنَا قَرَارَيْنَ بَيْتَا بِأَسْيَالِنَا وَالشَاهِدُونَ بَنُو بَدْرِ
فَاصْبَحْتُ قَدْ حَلَّتْ بِمِثْنِي وَأُذِرْتُ بَنُو ثَعْلَبٍ تَبْكِيرٌ وَرَاجِعُنِي شِعْرِي

ولم يتأخر خولسان بن زهير في أن يقوم ، يوم شواحيط ، حين قتل إخوتهم حتى منهم من ذلك ، وفي ذلك يقول في ختام قصيدته :

وَإِنِّي لَأَشْفِي النَّاسَ إِنْ كُنْتُ غَارِماً لِعَاقِبَةٍ : قَتَلُ جَدِيَّةً وَالْخَضِرُ
أَكَلْتُ قَتْلُ مَعْشَرٍ لَسْتُ مِنْهُمْ ؟ وَلَا أَنَا مَوْلَاهُمْ وَلَا نَصْرُهُمْ نَصْرِي

ولعلنا لا نبالغ ، ولا نلعب بعيداً في تصورنا ، إذا قلنا إن الشاعر الجاهلي عندما يكن لمرقة قومه وتنسجهم إنما كان يتطلع إلى يوم يتحدثون فيه على العدو الخارجي وليس صديقاً أن نسمع النابغة الغلباني يتغنى ويتغنى أن يخرج النعمان من سجن كسرى سلباً يتغنى باسم سعد كلها وليس باسمه لو باسم قبيلة ^{١٥} :

وإن يرجع النعمان نفرح ونبتح ويأت معدا ملكها ووريعها
ويرجع إلى غسان ملك وسدد وتلك المنى لو أننا نستطيعها
وإن يهلك النعمان نمر مطيه ويلق إلى الغناء قطوعها
وتحط حصان آخر الليل نحلة تقضض منها أو تكاد ضلوعها

لم لا يكون هذا الشعر إلهاماً للوحدة الكبرى التي حمت الجزيرة بعد قليل فاجتمع العرب بعد فرقة ؟

ومعكنا فإن الشاعر القبلي كان دائماً جنداً تحت السلاح عليه أن يؤدي ضريبة القبيلة إضافة لمحمليها وتقريباً بشأنها ، والمتخاراً بلحائها ، ثم حطاً من شأن أعتاقها وهجاء لهم وإعلاناً للخازيم في المحافل ^{١٦} وكذا باتياً لطرق كلمتها رائياً لقتلاها ، يشجذ همها للأخذ بظروها من الأعداء إن هزمت :

هذا هو الوجه المشرق للشاعر القبلي ، ولكن كثيراً ما كان التهاجي بينهم يتقلب إلى وقائع دامية بين القبائل التي يتحتمون إليها وربما أدى التلاهي بين شعراء القبيلة الراحلة إلى وقوع الشر

(١) الديوان ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) مقال للدكتور يوسف خليف - مجلة المجلة عدد نوفمبر ١٩٥٩ من ١١٥ .

بين بطونها^(١) ومن أجل ذلك أنكرت قرىش على الشعراء أن يهجوا بعضهم بعضاً وعالجتهم على ذلك . وسمعت بقطع لسان ابن الزمعي لمجته بني قصي ،^(٢)

تلك هي الفئات البارزة في القبيلة العربية الجاهلية بسلطانها ووضوحها دور كل فئة ومستحلول أن تعرض لها سيأتي دستور القبيلة العربي الذي نظم أسورها الداخلية والخارجية والذي خضع له كل فرد فيها مهما بلغت منزلته .

دستور القبيلة العربي :

ساد النظام القبلي حياة العرب في جاهليتهم ، ولم تتوفر حكومة مركزية قوية ينضوي الجميع تحت لوائها ، وانفردت كل قبيلة بمكانتها وتنظيمه وفق قانون خاص بها . إلا أن هذه الحياة لم تكن كما يهوى كل فرد ، وإنما يخضع الجميع في القبيلة لقانون ينظمهم جميعاً ، فكانت القبيلة أشبه بدولة مستقلة لأن هذه القبيلة لها إقليمها وجمهورها ووحدتها ونظامها ورئيسها ، فإذا ما أضفت السياسة الخارجية كانت هذه مقومات الدولة :^(٣)

أما إقليم القبيلة فلم يكن بالمفهوم الذي نعرفه الآن ، فقد كانت القبيلة تتحرك ولا تثبت في مكان واحد ولكنها مع ذلك واجدون لكل قبيلة مجالها الذي تتحرك فيه حيث مراعيها ومياهاها ومنازلها وأوديتها وجبالها . وهذا الإقليم أو تلك المراجع كانت القبيلة تحميه وتمنع غيرها من الإحتداء عليها وسمت « الجيى »^(٤) .

وكان هذا الحمى أشبه بالوطن اليوم ، لا ينبغي أن يمس أو يقترب منه أجنبي ، مثله مثل حدود الدولة اليوم ، وقد نضى الشاعر الجاهلي بالحفاظ على هذا الحمى ، وبأن حماه لا يطرده غريب ، بينا هو يستريح حتى غيره يقول عبيد بن الأبرص :

ولقد أبحت ما حثت ولا مئيت لما عثيت^(٥)

وكان للقبيلة العربية دستور عربي عام استته أنفسهم يشترك فيه جميع الأفراد ، ويختص هذا الدستور في أن جميع أفراد القبيلة متساوون فيما بينهم يتساوون في الحفاظ على شرف القبيلة وحماها ، ولا يعتبرون أحداً مساوياً لهم أو أعلى منهم ، وينحضعون لرئيس قبيلتهم ، ولا يدينون لغيره ، ولا ينحضعون له مهما بلغت منزلته وقوته .

(١) المعصية لإحسان القصي ١٦٥ . (٢) طبقات الشعراء لابن سلام ١٩٧ .

(٣) لتاريخ الشعر السياسي - أحمد الشليب ٢٨ . (٤) نظره حمى ، في لسان العرب .

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣٧ .

ولم تنح الأفراد داخل إطار قبيلتهم بحرية ، ولكنها كانت حرية شخصية ، ولم تكن حرية اجتماعية ، وسادت قبيلتهم الروح الديمقراطية التي تجلت في انتخاب شيخ القبيلة ومجلسها ورقابة المجلس على الرئيس ، وحزهم هذا الرئيس أو قتله إن طغى ، وليست صورة مقتل زهير بن جندبة ، ومقتل كليب ، ومقتل جحر الكندي وغيرهم بغاية من الانعنان .

وكان على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتضامن مع أفراد القبيلة ، كما كان على القبيلة في مجموعها أن تحمي كل فرد من أفرادها ، وتنب جميعها للدفاع عنه والأخذ له بحقه ، أو الانتصاف له إن ناله ضيم ، أو انتقصت كرامته ومن هنا قالوا قديماً : في الجريمة تشترك العشيرة ^(١) وهذا العقد الاجتماعي بين الفرد وقبيلته قائم على أساس عاطفي بحث لا مجال للتفكير فيه ^(٢)

وتتمسك القبيلة بأفرادها ما داموا هم متمسكين بقانونها العرفي ، فإذا ما بدر منه ما لا ترضاه القبيلة ولم تعترف عليه مما يس سمعها ، أو شرفها أو يس أي فرد فيها ، كان جزاء هذا الخلع على قراباتها الخلع . والخلع يستيع طرد هذا الفرد من حبلها ، ويجريده من كل حقوقه ، وحرماته من حماية القبيلة له ، وتركه فريسة للصحراء . وقد عبر عن مصير هذا المبتدع طرفة بن العبد حينما صورته كأنه بغير أجرب يفر منه الناس ^(٣) :

وما زال تُشرّبي الخمورَ ولَدَتني وتبيعي وإنفاقي طريقي ومتلدي
إلى أن تحامتي العشيرةُ كلُّها وأسرَدَتْ إفرادَ البعيرِ المُعبدِ

وتخلع القبيلة الفرد إذا ارتكب جرماً ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجه أو إذا أخطأ في حق القبيلة نفسها ^(٤) وقد ذكر الدكتور يوسف خليف ثلاثة أسباب لعمل القبيلة تقدم على خلع الفرد أولاً أن يقتل أحد أفراد القبيلة فرداً منها وولض أهل القتل الدية ، ثانياً أن تتعد جرائم أحد الأفراد حتى لجأ القبيلة نفسها عاجزة عن نصرته ، وثالثاً سوء خلق الفرد ، وكل هذه الأسباب الثلاثة تدور حول محور واحد هو خروج الفرد على وحدة القبيلة وتصرفه تصرفاً فردياً بدون رضاه ^(٥) .

ويتخذ الخلع صوراً عدة كلها تدور حول فكرة إعلان ذلك للناس ، وللقبائل ، حتى لا يطالبها أحد بتحمل ما يقوم به من أعمال فبا بعد ، لذا فقد كان الخلع أحياناً في صورة إعلان في المواسم والأسواق ^(٦) ، أو أن يرسلوا مندباً ينادي بذلك ويعلنه للناس كما حدث عندما خلع بنو

(١) العمرون والوصايا - للسجستاني ١٦ . (٢) الشعراء الصعاليك - يوسف خليف ٨٩ .
(٣) ديوان طرفة بن العبد ص ٤٩ . (٤) دائرة المعارف الإسلامية Asabih .
(٥) الشعراء الصعاليك - يوسف خليف ٩١ . (٦) الأغاني - (بولاق) ١٣ / ٢ .

سهم عمرو بن العاص في الجاهلية^(١) ، وربما كتبوا كتاباً بذلك^(٢) .

وبإعلان خلع الفرد تسقط حقوقه القبلية كافة فلا تصون له حقاً ، ولا تحفظ عليه نفسه ، ولا تطالب بالطهارة بدنه إذا سَكَت . ويحدد المخلوع أمامه طريقين ، إما الانسحاب إلى الصحراء الفقيرة ، وربما شكّل جماعات من الخلداء يكسيون لقمة العرش بطريقة يضفون عليها ، وإما يلجأ إلى قبيلة أخرى يبحث فيها عن جُلز يلجأ إليه بحميه ويعيش في جواره ، ومن هنا نشأ قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلي وهو قانون الجوار^(٣) .

وقد نُسِ المجتمع الجاهلي هذا القانون تقليداً كبيراً ، فالجَارُ شَمِعٌ دائماً في الاجتماع القبلي الجاهلي ، فاتخذ بذلك العربي لأنه أصبح ملاذاً يلجأ إليه الخائف ، يقول عمرو ، بن عطية التميمي مصوراً ذلك مفتخراً^(٤)

وَأَمْسَحُ جَارِي مِنْ الْجُحُفَا ت ، وَالْجَارُ مَتَمَعٌ حَيْثُ صَارَا
وَأَعْلَدْتُ لِلْحَرْبِ مَلِيوَنَةً تَرُدُّ عَلَى مَائِسِيهَا الْخِيَارَا

وهنا الشعراء كل من غدر بجاره ، فالجُمُوحُ الأَسَدِيّ يهجر عباً لأنهم قتلوا نَفْلَةً بن الأشعر الفَقْعَسِيّ الذي كان جواراً لهم^(٥) :

يَا جَارُ نَفْلَةً قَدْ أَتَى لَكَ أَنَّ تَعَسَى بِحَارِكُ فِي بَنِي هَذِمِ
مُتَّظَمِينَ جَوَارَ نَفْلَةٍ يَا شَاءَ الْوُجُوهُ لِدَلِكِ النِّظْمِ
وَيَنُورُ زَوَاحِفَ يَنْظُرُونَ إِذَا نَظَرَ النَّدِي بِأَنْفَرِ غُثَمِ

وصوّروا قيس بن زهير ، وكان قد جاور النمر بن قاسط بعد الهبأة ، حقوق الجوار وما يجب أن ينعم به بعد أن ترك قبيلته من أُنْزَرِ ينعم به ، وبزيتا له ، ومعاملته بالسلواة ، ورد كل أذى يتعرض له بالدفاع عنه^(٦) :

إِنْ لِلنَّمْرِ فِي إِجَارَتِهَا الْجَا رَ وَأَمْسَرَ الطَّرِيدَ حَفْظًا عَظِيمًا
يَأْمَنُ الْجَارُ فِيهِمْ وَيَتَرَى وَشَ ظُهُمَ ذَا خُتُولَةٍ مَعْمُومَا
يَمْلَأُ الدَّلْوُ قَبْلَ دَلْمِ أَخِي النَّمْرِ سِرَ ، وَمَا حَوْضُ جَارِهِمْ مَهْدُومَا

-
- (١) الأغاني ٩ / ٥٧ . (٢) تاريخ المدن الإسلامي - جرجي زيدان ١ / ٦٩ .
(٣) انظر مادة جوار في اللسان والمحيط . (٤) القضيبة رقم ١٢٤ .
(٥) القضيبة رقم ١٠٩ . (٦) العمرون والوصايا - أبي حاتم السجستاني ١٤٥ .

والشواهد الشعرية كثيرة ، لا سبيل إلى ذكرها كلها ، وكلها تندد بالذي لا يحفظ عهد الجار ، وتنتي على الذي يحفظ جاره وعهده .

وكانت الصلة بين الجار والمجير تختلف تبعاً للظروف ، ظروف الجار ، وظروف المجير ، فحينئذ تكون الإجارة مؤقتة مثلها نجد في إجارة معبد بن زُرارة للحارث بن ظالم الذي قتل خالد ابن جعفر العامري ، والذي كان السبب في يوم رَحْرَحان بين عامر ونعيم ^(١) وكانت أحياناً أخرى دائمة بل وراثية ، وقد عرف مجتمع مكة في الجاهلية الكثير من هؤلاء الذين كانوا يقدون عليها ، ثم يستقرون بها ويعقدون صلات جوار مع بعض رجالها ، كما رأينا حيناً وقد يأسر بن عمار على مكة وجاور عبد الله بن جدهان .

وفي بعض الحالات كان المجير يتعهد بتصرة جاره على عدو معين فقط كما حدث حينما أرشد خديش بن زهير قيس بن الخطيم إلى قاتل أبيه وأجاره ، فقتله قيس بن الخطيم ، وحماه عداش حينما نذر إليه القوم ليقتلوه ^(٢) وفي حالات أخرى كان يتعهد بتصرته على كل الأعداء ، بل من الموت نفسه ، كما حدث لقيس بن زهير عندما طالبه رجل من الضباب يقال له « الحنيس الضبابي » بنفع دية رجل من الضباب كانت بنو عبد الله بن هظفان قد أسرته ، ودفعه القبي إلى أسره إلى رجل من أهل نهاء يهودي فأنهمم اليهودي بأسرته فخصاه ، فأجابهم زهير : ما كنا لنفعل ، فقال الضبابي والله لو أصابه من الريح لودعتموه ^(٣) وكما حدث بين الأعشى وعامر بن الخطيم ^(٤) .

وأخرى حالات الإجارة أن يتعهد فيها المجير بأن يثأر له حتى من أخيه الصميم ^(٥) وحرماً على أنفسهم منه ما يحرم من الهدي ، وكانوا يسمون الجار بالمهتري ، يقول زهير :

لَسَمَ أَرَّ مَعْتَرّاً أَمْرواً هَدِيّاً وَلَسَمَ أَرَّ جَلَوْ بيت يُسْتَبَاءُ
ويقول الأصمعي في تفسير هذا البيت : هو الرجل الذي له حرمة كحرمة هدي البيت ^(٦) .
ويقول حنرة العبسي في ليروائ العبسي : ^(٧)

هَدِيكُمْ خَيْرَ أبا من أَيْكُمْ أَبَرُّ وَأَوْفَى بِالْجِوَارِ وَأَحْدُ

(١) الكنازل لابن الأثير ١/ ٥٥٦ . (٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٨٢ .

(٣) الألفاني : ١٢٠ / ٩ .

(٤) مادة هدي في لسان العرب .

(٥) المجرى لابن حبيب ٣٤٨ .

(٦) أمثال القيسي ٣٩ .

وفي مقابل هذه الحقوق وتلك المزايا التي يتمتع بها الجار ، والتي فرضها له القاتلون الجاهل قبل ، فإن عليه واجبات نحو مجبره أو مجبريه ، منها احترام جاره وعدم الإساءة إليه لا في شخصه ولا في سمعته ولا في حياته المادية والمعنوية ^(١) ، فإذا لم يحترم هذه الواجبات خلع كما خلعت قبيلته ، وربما تعددت استجابة الخليج للقبائل في بعض الأحيان ، فالبراءة الكنتاني بعد أن خلع جماً إلى بني الدليل ، فشرّب بينهم فخلعوه ، فأتى مكة هائلاً حزّباً ابن أمية ، فأحسن حرب جواره ، وشرّب حتى همّ حرب بخلعه ولكنه استبقاه إلى أن قتل عروة الرجل وجرّ مقلته حروب الفيجار ^(٢) .

وعلى الرغم مما كان ينعم به الجار من أمن بعد خوف فإنه لم يكن ليتساوى مع أبناء القبيلة ، وكان يستشر الغربة ، ويحس بالهانة ، ولذلك لم يكن بعض الذين تخلّج بهم قبائلهم يقولون أن يلتحقوا بمن يجبرهم ، بل كانوا يعيشون جماعات في الصحراء تغزو وتسطو على أموال القبائل وأنعامهم وعرفوا في ذلك الوقت بالصعاليك ^(٣) . ويكفي هذا المستجير هوئاً وفلة أن دية كانت نصف دية الصريح ابن القبيلة ^(٤) . ولكن لم تكن حاله دوماً هكذا فلقد نشبت حروب بين القبائل بسبب امتحان ذلك الجار أو قتله ، ولقد هدد الأوس بقتل عامر بن الإطنابة زعيم الخزرج إن لم يدفعوا دية جاره أو يسلموههم القاتل ، ولما رفضت الخزرج استمرت حرب فارس بينهم واستمرت حتى حل دية عامر بن الإطنابة نفسه ^(٥) .

وكما يكون الجوار للأفراد فإنه كذلك للقبائل ، فقد تضطر قبيلة لترك منازلها والتحرك في الجزيرة هاربة من خطر يحدق بها ، فتجد نفسها مضطرة إلى مجاورة القبيلة التي ترغب في النزول بجوارها وتعقد بينها وبين تلك القبيلة حلفاً .

ففي حرب داحس والغبراء ، وبعد أن فتكت عيس بأختها فيهان في يوم بئر الحباشة ، أحست عيس بالخطر ، وشكلت فيهان عليها وآلؤها حلفاءها فقررت الارتحال ، فتحركت نحو الشرق وجاورت في رحلتها الطويلة تلك كلاً من بني حنيفة ، وقيس ، وبني عامر وغيرهم .

وكانت في كل مرة تقيم فيها بجوار إحدى هذه القبائل تحاول القبيلة النيل منها والاعتداء على حقوقها وأموالها ، فتضطر إلى مغارتها أو الرحيل عنها سراً وحاربت مع بني عامر يوم شيبج بجيلة .

(١) الشعراء الصعاليك - يوسف خليف ٩٥ . (٢) الأغانى / ثقافة ٢٢ / ٦٣ .

(٣) الشعراء الصعاليك - خليف ٩٣ . (٤) الكامل لابن الأثير ١ / ١ / ٦٥ .

(٥) الكامل لابن الأثير ١ / ١ / ٦٦٨ .

وفي نهاية حرب السوس ، وبعد أن هُزمت تغلب في يوم تحلاق اللحم ، وعز على مهلهل أن يكون المسؤول عن كل الذين التهمتهم تلك الحرب ، فقرر الرحيل فرحل بأسرته إلى اليمن ونزل في جُتب ، وقد أجبره أولئك على تزويجهم بـه .

وهكذا نرى أن الجار لم يكن يحافظ على حقوق جاره دائماً ، كما نرى أن الجوار لم يكن مقصوداً على الأفراد ، بل كانت القبائل تجاور ، كما تفهم من معاجم اللغة أن الجار والحليف معانها واحد ^(١) ، فالجار حليف جاره الذي أجاره .

وتساءل لم احترام المجتمع الجاهلي ذلك القانون ، وتعارف الناس عليه ؟ والسبب أن المجتمع احترام هذا القانون لأن الحليف أو الجار لم يكن كلاً على غيره ، بل كان ما تقدمه القبيلة له من حقوق ومزايا هي في حد ذاتها مزايا معنوية ، فهو يكسب قوته ، ولا تنسى أن هذا الجار يرد الدين للقبيلة فيحارب معها ويتعهد باحترام تقاليدها ، ويكون فرداً من أفرادها وبذلك فإن القبيلة لا تحسر شيئاً بل تضم فرداً جديداً وقوة جديدة ، كما أن هذا الجار تستطيع القبيلة أن تتخل عنه إذا ما أساء إلى الذين أجاروه .

وكذلك فإن ضم هذا الفرد إلى قبيلة ما أفضل من أن يندو إلى الصحراء فيصبح خطراً عليها وحمل غيرها بما يسببه لها من طغرات على نعمها ، مورد زيلها الأساسي .

العصبة القبلية :

العصبة أن يدعو الرجل إلى نصرته عصيته ، وانتأب معهم ، على من يتأوبهم فكلون كانوا أو مظلومين . والعصبي هو الذي يغضب لمصيبة ويحامي عنهم .

والعصبة : الانقلاب من جهة الأب ، لأنهم يعصبونه أي يحيطون به ويشدد ^(٢) بهم ويرأها ابن خلتون « النصرة على ذوي القربى وأهل الأرحام ، أن يلغم ضميم أو تصيبهم هلكة » ^(٣) .

ويعرفها فيليب حتى بأنها « روح العشيرة » ومن شروطها على الفرد الوفاء الذي لا حد له لإخوانه من أبناء العشيرة بشكل يقابل ما نعهده من التوعية الوطنية المطروقة في النظام السياسي الحديث ^(٤)

(١) انظر مادة « جوار » اللسان .

(٢) مادة عصب في اللسان .

(٣) مقدمة ابن خلدون ١٣٨ .

(٤) تاريخ العرب مطول فيليب حتى ٣٥ / ١ .

وعملها الدكتور شوقي ضيف بأنها : الرابطة التي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة ^(١) ورأى فيها بعض الباحثين دستور القبيلة العرفي . ^(٢)

ولقد عبر الشاعر عنها بهذا البيت من الشعر أصدق تعبير وأبسطه حين قال ^(٣) :

فاحفظْ عشيرتك الأدين إن لم
حقاً يفرق بين الزوج والموت

كما عبر عنها عمرو بن الأعتصم المغربي ميّناً لكرها حتى يشتد الخطب ^(٤) .

جزى الله خيراً منقراً من قبلة
دعوتهم فاستعجلوني بنصرهم
إذا الموت بالموت ارتدى وتأزوا
إلى غضاباً يتفوضون السؤرا

عرضنا كل ما تقدم لتعطي صورة للعصية من حصة ما تقدم ، فهي رابطة أو رباط يعتصب به كل أفراد القبيلة فتوثق صلاتهم ببعضهم البعض ، وينصر الفرد منهم أخاه في جميع الحالات ويعتصب له ، وأنهم إذا ما ظلم أحدهم أو ظلم فإنهم يهجون لتجديته . وواضح أن القرابة هي المحور الذي تدور حوله العصية .

وبنى العصية على وحدة الدم وحملة النسب ^(٥) ، ولكن القبيلة لم تستطع أن تعيش في معزل عن القبائل الأخرى ، وبالتالي فلم تستطع أن تحافظ على وحدة الدم فيها طويلاً بسبب التضياع الآخرين إليها بالطرق التي سبق ذكرها ، ولكننا مع ذلك نرى أن العصية ظلت قائمة فيها . ومعنى هذا أننا يجب أن نجد بديلاً لوحدة الدم كأساس للعصية . وفي رأينا أن المصلحة العامة والإحساس بالمسؤولية هما قوام العصية. كما أن الأساليب التي اعتنقها العرب وبنوا عليها عصيتهم من مفومات العصية ^(٦) . فكان كل فرد يحس أنه ضمن مجموعة قبلية يربطه بها نسب مشترك ، ومصلحة عامة مشتركة ، وإحساس بأنه مدين لهذه الجماعة في كل شيء ، في أمنه وفي وجوده ، وفي كل ما يملك .

وتستمد هذه العصية القبلية قوتها من شعور الأفراد بأنهم أبناء أسرة واحدة ، وتفكرى هذه العصية وتشتد في الظلمات ، وقد رأينا الربيع بن زياد الحبشي يعود إلى ليس بن زهير عنده بالأمس

(١) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٥٧ . (٢) مجتمع مكة والمدينة - لأحمد الشريف ٤٩ .

(٣) الكامل للبريد - طبعة أوروبا ص ١٩٩ . (٤) الحماسة البصرية ٩٣ / ١ .

(٥) مقدمة ابن خلدون - طبعة مصر ١٣٢٢ هـ ص ١٠٢ .

(٦) فجر الإسلام - أحمد أمين ٨ .

ومصالحه للوقوف معاً في وجه العدو المشترك الذي انتقص من قيمة عيس ، حليفه بن بدر الغضاري^(١) .

والعصية مستويات ، فهي تكون للأسرة والعشيرة ، وتكون للقبيلة ، وتكون للشعب ، وتختلف هذه الثلاثة عن بعضها بعضاً تبعاً للزمن والظروف ، إلا أن التي تعيننا بالدرجة الأولى : والتي هي مدار بحثنا العصبية القبلية ، فعصبية الرجل لقبيلته بأسرها مع تفلوت في شدة هذه العصبية يتحدد بدرجات القرابة ضمن إطار القبيلة .

وكما أن النظام القبلي نظام ملائم لطبيعة الجزيرة ، وللتطور الحضاري الذي كانت تحرفه امتنا ، كذلك العصبية ضرورية للمجتمع القبلي حيث يتعرض الإنسان الجماعي لأعداء كثيرين ، والناس مططرون على اللطامع ولا وازع يردعهم^(٢) ، ولأنهم التنازع فلا بناء للقبيلة إلا ببعضها . ويظهر العصبية في المجتمع الجماعي يلبي حاجة كائنة في نفس العربي ، ويروي قلعه إلى التعلق بمثل أهل يعيش من أجله ويعكس توفقه إلى عقيدة يؤمن بها .^(٣)

وقد مر بنا أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية ، لأن الرياسة لا تكون إلا بالغلب ، والغلب إنما يكون بالعصبية . فالعصبية ضرورية لتثبيت الإستقرار في حيلة القبيلة ، لأن قوتها في بطن من القبيلة يجعل القبيلة تسلم أمر قيادتها إلى تلك العصبية ، وبالتالي فإن نظام القبيلة السياسي يلبي مستتراً ، ويقض الحكم في يد تلك العصبية إلى أن توجد عصبية أقوى منها وعندما توجد أكثر من عصبية قوية في القبيلة الواحدة تنقسم القبيلة إلى أقسام صغيرة تستغل كل ينادية شؤونها ، وقد يؤدي تضارب مصالحها واشتباكها إلى اختلالها وتحاربها ، كما رأينا في حروب البطون الواحدة للتنمية إلى قبيلة واحدة . وكما حدث عندما كان الربيع بن زياد الحبيشي وعشيرته منشقين على قيس بن زهير وبقيّة عيس .

والعصبية القبلية تبعات ، فهي تشعر كل فرد في القبيلة أنه مسؤول عن الجماعة كلها ، كما تشعر القبيلة أنها مسؤولة عن كل من ينتمي إليها . وهذه التبعات بمثابة عهد غير مكتوب يفرض على أبناء القبيلة الناصر والتأزر والسعي في سبيل منفعة القبيلة في جميع الأحوال ، ويفرض عليهم تبني شعار : الفرد في سبيل القبيلة والقبيلة في سبيل الفرد . ويذهو الفرد إلى نصرته أنديه ظلالاً كان أم مظلوماً ، يقول شاعر الحجازية :^(٤)

لا يسألون أحباهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

(١) الأختلي / مجلة ١٢ / ١٢٩ . (٢) تاريخ الصدق الإسلامي ، زبدان ١ / ١٦٠ .

(٣) العصبية - إسحاق النص ١٣٩ . (٤) حسانة أبي تمام - شرح المازوني ١ / ٢٩٠ .

وربما تسامح الفرد في شأن من شأنه وأما العصبية فلا تقص في أي واجب من واجباتها .

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ عَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوِيَتْ وَإِنْ تَرَعَّدَتْ غَزِيَّةُ أَرْضِكُمْ^(١)

والعقوبة التي توقع على التمرد عليها ، والتشغل من تبعاتها ، هي الخلع ، والمخلعون غالباً يتخلون عن عصبيتهم ويتخللون من شخصيتهم القبلية^(٢) ، ومع ذلك فيعض الصماليك لم يستطيعوا ذلك تماماً ، فالسلوك بن السلطة يأتي التعرض لقومه مضر فلا يغير إلا على قبائل اليمن وربيعة^(٣) . ويزيد بن شَهْر الحارثي الذي كان فارساً شريفاً وكان قد جنى جناية في قومه فلحق بيني عامر فحالفهم فشهد معهم فيف الرياح ، وعندما دارت رحى للمركة بين الطرفين أقبل على عامر ووجه بالرمح في وجهه وانشقت عين عامر ففقدناها ثم لحق بقومه^(٤) لمخلع الرجل لا يؤدي دائماً إلى إلغاء عصبية ، بل تظل كلمة فيه على الرغم من تحلل قومه عنه ، فإذا مارلى عطفاً يحن يوم أو نازلة نزلت بساحتهم تحركت عصبية وهب للوقوف معهم في محنتهم .

وكثيراً ما يتعرض ولاء الرجل لقبيلته ، وإخلاصه لها لامتحن قاسر نتيجة اصطدام العصبية القبلية بعوامل أخرى ، فلما أن انتصر العصبية ، وإما أن تخرج منهزمة ولكن النتيجة في الغالب تكون في صالحها . فقد تصطدم العصبية مع عشيرة أمه وهنا يقع بين قطبين يحاول كل منهما اجتذابه ، وولائه لقومه ، وولائه لعشيرة أمه وقومها ، فإن لم يكن من تصادف بين العصيتين اجتماعاً معاً في نفس الرجل وكانت قوة أكبر ، وإلا انتصرت عصبية لقومه . ففي حروب حاحس والقيراء ، نزل قيس بن زهير هو وقومه على بني شكيل ، وهم بنو أختهم لأن أمهم حسيبة فجلودوهم ، ومع ذلك لم يروا منهم للمعاملة الطيبة ، بل الأثرة وسوء الجوار فرحطوا عنهم^(٥) ولكن ذلك لم يكن يمنع انتصار عصبية الأم أحياناً ، ففي حروب حاحس وبعد أن عقد الصلح بين عيس وذيان ، قتل حُصَيْن بن حُسَيْن عيساً يقال له وبيعة بن الحارث ، وأمه فزارية ، وعندما بلغ فزارية خبر مقتلها داروا ونضبوا ولم تهدأ النفوس إلا حينما أرسل الحارث بن عوف بالينه ، وخبرهم بين ابنة أو الدية ، فقبلوا الدية وهدأت النفوس^(٦) .

وقد تصطدم العصبية بالعاطفة الزوجية كما رأينا في حرب كَعْب بن عمرو المازني وهي حرب من أيام الأوس والخزرج ، فقد كانت سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية زوجة لأخيه

(١) الأصمعيات رقم ٢٨ .

(٢) الشعراء الصماليك - يوسف خليف ١٧٤ .

(٣) الأختي / السلي ١٨ / ١٣٤ . (٤) النفاض ١ / ٤٧٦ .

(٥) أمثال الضبي ٣٧ . (٦) أمثال الضبي ٤٢ .

ابن الجراح الأرمي، وعلمت بما بيت زوجها الأرمي قومها الخزرج، فذهبت إليهم مسئلة من بيتها سرا وأخبرتهم بما عزم عليه زوجها^(١) فلم تؤثر زوجها على قومها، بل انصرت لقومها، وطلقها زوجها عندما علم بذلك.

وتصطدم العصبية بالصدقة بين اثنين مختلفي العصبية، فتبقى صداقتها ما دامت العصبيتان لم تقتلا، أما إذا حدث واقتلتا سرعان ما نرى الرجل يفسح بصداقته، ولا يتورع عن قتل صديقه إن وجد في ذلك مصلحة لقومه، ونيس بن زهير وحمل بن بدر ومهلون بن ربيعة وهنأ بن مرة، وغيرهما من الأمثلة يؤيدان ما نذهب إليه، ولو أننا نحس بمرارة تضل في نفس نيس ومهلون عندما علما بفشل صديقهما، ويحزن عميق ليلتهما، ولكنها لا يجذان إلا هذا الطريق يسلكانه، أن ينصرا قومها ويرفضا كل عائق في سبيل ذلك. ولقد بكى نيس بن زهير حمل بن بدر بكاء مرأ فقال^(٢):

تَعْلَمُ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَيِّتٌ عَلَى جَسَدِ الْهَبَاءِ مَا يَرِيمُ
وَلَوْ لَا ظَلَمْتُ مَا زِلْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ الدَّهْرُ مَا طَلَعَ النُّجُومُ

والظلم الذي يعنيه هنا أنه حلول التيل من عيس هو وحليقة عندما رفضا دفع الرهان، وثارت الحرب بين عيس والمزارة، واصطدمت العصبيتان.

وفي يوم ذي قار مظهر من مظاهر تغلب العصبية على غيرها عند اصطدامها، فقد كان نيس بن مسعود بن نيس بن خالد ذو الجذنين عامل كسرى على الطقة، وكتب إليه كسرى أن يوافي إلياس بن قبيصة قتل... وعندما دنا من بكر النسل إلى قومه ليلاً، فأتى هائلاً بن مسعود، فأشار عليهم كيف يصنعون وأمرهم بالعصرتهم ورجع^(٣).

ومثال آخر من يوم ذي قار أن يبدأ كانت مع جيش كسرى الذي يقاوم لقتال بكر، فأرسلت إلى بكر سرا تسالفا: أي الأمرين أعجب إليكم، أن نطير تحت ليلتنا فنذهب، أو نقيم حتى نقر حين ثلاثون القوم؟ قالوا: بل نقيمون فإلما التقى الناس انهزم بهم^(٤).

ولكن الخصم المتبد الذي تغلب عليها وقهرها وتحداها هو الدين، فقد استطاع أن يقضي عليها، أو حل الأقل أن يقضي على الضيقة منها، ويضعفها ويوسع مفهومها.

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٠.

(٢) الطائي ١/ ٩٦.

(٣) العقد الفرید لابن عبد ربه ٥/ ٢٦٠.

(٤) الطائي ٢/ ٦٨٢.

ومن أبرز مظاهر العصبية القبلية^(١) ذلك الهلاك الوثيق الذي نراه بين أبناء القبيلة الواحدة ، والتعاون الذي يسود حياتهم .

ومن مظاهرها كذلك حرص كل فرد في القبيلة على سيادتها وكرامتها والتفاني في سبيل الحفاظ على سمعتها ، وصونها من كل عبث . ومن المظاهر كذلك ذلك الحرص على نسب القبيلة^(٢) ، واعتزاز كل فرد في القبيلة به ، وتمسك القبيلة باسمها وكرهها التخلي عنه ولو كان ذمياً . ومنها كراهية القبيلة الخضوع لقبيلة أخرى أو لسيدها غير سيدها ، أو لسلطان دولة مجاورة ، لأن معنى ذلك كله ذوبان شخصية القبيلة .

ومن مظاهر العصبية تلك المقامرات والمنازعات الكثيرة على لسان الشعراء والأشراف والمطباء ، التي ملأت الكتب التي وصلتنا ، تلك المقامرات التي كانت تقام في الأسواق ، والتي ربما جرّت الويلات والحروب . وثمة مقامرات بين بطون القبيلة الواحدة ، والبطون كلها تشترك في منافرة القبائل الأخرى بأصلها المشترك فحلقات للمنافرة تبدأ من حلقة ضيقة ثم تتسع . وقد روى أبو الفرج في أغانيه^(٣) أن « قريشاً كانت تخرج في الجاهلية إلى مكان من شعاب مكة فتنافس وتشتتم ولا يفترق الغوم إلا عن قتال » وأكثر المقامرات كانت تجري في المواسم والأسواق ، وفي سوق عكاظ خاصة ، وفي مجالس ملوك الحيرة والشام . وقد تزيد الرواة وافتعلوا الكثير من المقامرات على لسان أهل الجاهلية .

ومنها تلك الوقائع الدامية والغارات التي خلقتها القبائل العربية فيما بينها قرابة قرن ونصف من الزمان على الأقل ، وراح ضحيتها الكثير ، وأبقت الجزيرة العربية مفككة الأوصال .

ومن المظاهر حالات الشكر الفردي التي حفلت بها أخبار هذا العصر ، وسنورد في آخر حديثنا عن العصبية حديثاً مفصلاً عن الثار .

وطابع العصبية يتميز بخص حدودها ، فلم تكن تتجاوز حدود البطن أو القبيلة ، وإن قُدِّر لها التجاوز في بعض الأحوال ، فإنها تفقد الكثير من حيويتها وقوة اندفاعها . فالعصبية كانت في أضيق حدودها ، وما الحروب التي شهدتها العصر الجاهلي بين بطون القبيلة الواحدة ، كحرب الفساد بين بطون طيء وحرب لياس بين بطون من نعيم والقنلة بين بطون من عامر وغير ذلك الكثير ، إلا مظهراً من مظاهر ضيق هذه العصبية ، كما أن تحالف القبيلة مع جماعات أخرى

(١) العصبية لأحسن النص ١١٦ وما بعدها .

(٢) العصبية - أحسن النص ١١ .

(٣) الأغانى ١١٧/٩ .

غريبة عنها عند قبيلة تربطها بها رابطة القرابة والنسب مظهر آخر من مظاهر ضيق نطاق هذه العصبية .

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ الجاهلي ، ففي يوم جندود هاجت يربوع الحوقران بن شريك الذي كان يقود بني شيبان مغيراً على بني سعد بن زيد مناة بن تميم ، وسبى سبياً كثيراً ونعماً كثيراً ، وعندما انتهى إلى جندود منعتهم يربوع للماء ، ثم صالحوهم بعد التفاوض على أن يعطوهم بعض الغنائم مقابل أن يخلّوا بينهم وبين الماء ، فقبلوا وورد الحوقران وقومه الماء ، وقبلت يربوع بعض الغنائم^(١) .

وهذا كله يقودنا إلى السؤال التالي : هل عرف العصر الجاهلي العصبية بمفهومها الواسع، أي عصبية الجنس ؟

لقد أجاب عن هذا السؤال عدد كبير من الباحثين^(٢) بالنفي ، وأجمعوا على أن العربي في جاهليته كان عاجزاً عن المسو بتفكيره وشعوره العنصري عن حدود عشيرته الأندون ، ولذا فإن هذه العصبية كانت عصبية قبلية ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام ، فكل ولائهم للقبلية ، وكل تفكيرهم محصور فيها ، ولعل في أيام العرب خير شاهد على عدم وضوح شعور العرب لهم أمة واحدة ، ولكنهم كانوا يميزون في حروبهم وقتالهم بين فئة وأخرى حسب صلات الرحم أو الإثنية . « وربما بدا في تضاعف إمارات الشمال شعور ضئيل بالوحدة »^(٣) .

إلا أننا كلما اقتربنا من نهاية العصر نحس بأن الجزيرة بدأت تتكتل في أحلاف قبلية متحاربة فيما بينها ، وربما لحاربة عدو خارجي ، وشتم الناس تلك الحالة من شيوخ الفوضى ، وفقدان الأمن وثقل وطأة الغريب ، وربما كان ذلك كله إلهاماً للوحدة الكبرى تحت لواء الإسلام .

وأخيراً وبعد هذا العرض السريع للعصبية ومستوياتها نود أن نسأل هل كانت العصبية شراً للمجتمع الجاهلي .

وتجيب على ذلك بأننا لم تكن شراً كلياً ، ولم تكن خيراً كلياً ، فقد كانت لها آثار إيجابية في ذلك المجتمع الضليل ، كما كانت لها آثار سلبية ضارة .

(١) العقد القوي ١٩٩/٥ .

(٢) انظر : فجر الإسلام لأحمد أمين ١٧ ، العصر الجاهلي لشوقي ضيف ٥٧ ، حضارة العرب لعمر فروخ ٦٠ ، العصبية لأحسان النسي ١٤٠ ، الممارسات النحوي بدمشق ٤٥٣/٢ .

(٣) العصر الجاهلي ٥٧ .

لما الآثار الاجتماعية فتتمثل في أن العصبية حفظت التوازن بين الجماعات القبلية^(١) ، كما أنها أثرت في دفع الناس بعضهم ببعض ، وصيانة كراماتهم وحقوقهم ، وضمت جميع أفراد القبيلة في إطار واحد متساو ، وحفظت عليهم وحدتهم وقت أن كانت الجزيرة لا تخضع لحكم مركزي ولا دين ساهوي يعم أرجاءها وينظم حياتها ويحفظ على الناس حياتهم .

وأما آثارها السلبية فتتمثل في أنها متنافية للشعور القومي لأنها تجزئ الوطن الواحد إلى مجتمعات متعلقة بحارب بعضها بعضاً^(٢) . وأنها متنافية أيضاً للشعور الإنساني لأنها لا تسمح ولم تسمح إلى إقامة صلوات سلمية تضم جميع وحدات المجتمع القبلي^(٣) . ومن آثارها السلبية أنها ساعدت على عدم الاستقرار في المجتمع القبلي الجماعي^(٤) لكثرة الأطراف وحشية النزاع بينها بسبب ظروف البيئة الاجتماعية الطبيعية والاقتصادية ، وأنها حالت دون تكوين مجتمع واحد كبير تنصهر فيه جميع الوحدات القبلية ، ولم تكف بذلك بل أوجدت مجتمعات صغيرة ، لكل منها كيانها الخاص . ثم إن العصبية الضيقة أوجدت تفككاً إيجابياً في الجزيرة نجم عن المنازعات المستمرة الناشئة عنها . ولعل هذا كله ما دعا أحد الباحثين إلى اعتبارها « من أخطر الظواهر الاجتماعية » وإلى تشبيهها « بالمجتمعات ذات الاتجاهات المغالية في قوسيتها »^(٥) .

الثالث :

وهو أثر من آثار العصبية ، ويحدث غالباً نتيجة للحوادث الفردية التي كثيراً ما تجر إلى الوقائع بين الجماعات . والثر أخطر ظاهرة إيجابية نشأت بسبب العصبية القبلية . فإذا قتل رجل رجلاً من غير قبيلته طالب أولياء المقتول عشيرة القاتل (بالقَوْد) ومعناه دفع القاتل إليهم ليقتل بمصاحبهم ولم تكن القبيلة لترضى بتسليم القاتل وهو من رجالها ، وقد تعهدت بحمايته طبقاً لقانون القبيلة العربي ، وهي إن فعلت فإنها تحط من شأنها بين القبائل ، وأظهرت ضعفها وأطعمت فيها القبائل .

ولذا فإنها تعرض على أهل القاتل (الدية) ترضية وتعويضاً ، فإن قبل أهله حسم الخلاف ، وبغضت الدماء ، وإلا أعلنت العداوة بين القبيلتين ، وأصبح واجباً على كل فرد في القبيلة أن يشارك من القبيلة الأخرى ، لأن قانون القبيلة العربي يفرض عليهم ذلك .

ولم يكن المجتمع القبلي ليرضى عن قبول الدية ، وكان يعتبرها عاراً ، وكان القوم بأعوا بينهم بالبن ، وقد غضب وقد تغلب عندما عرض عليهم مرةً بين شيان دية تكليب مقدارها ألف

(١) مجتمع مكة والمدينة : أحمد الشريف ٦٥ - (٢، ٣) العصبية - إسماعيل النص ١٠٦ .

(٤) مجتمع المدينة : أحمد الشريف ٦٥ . (٥) تاريخ العرب - فليب حتي ١ / ٦٥ .

ثقة قائلين : « لم تأكل لثرتنا لكي تعطينا رجال بنيك ، ولا تسودنا بالدين »^(١)

وعبر شعراؤهم الذين يفكرون في قبول الدية ، وبخاصة عندما يقتل أشراف القبيلة ، هذه امرأة من حبة تعرض قومها على عدم قبول الدية ، وتدعوهم ليليقوموا بحد السلاح :

ألا لا تأخذوا لينا ولكن اذيقوا قومهم حدّ السلاح
فإن لم تشاروا عسراً بزيار فلا فرت لبون بني رباح^(٢)

ويعنى شاعر الحفاصة لو قبل الحيّ التوتور المال فدية إذن لساقوا لهم سيلاً مُقْعِماً من المال ، ولكنهم قوم يرفضونها خوفاً من العار ، لذلك اختار الدم على الدين :

فلو أنّ حياً يقبلُ المالَ فديةً استقنا لهم سيلاً من المال مُقْعِماً
ولكن أبى قومٌ أصيبَ أخوهم رضا العاري فاختاروا على الدين الدما^(٣)

وعندما قبل حليفة بن بشر دية إته فرقة هبت لم فرقة تدعو عليه بالأسلم من الأعادي ، وألا يولي شر النكبات لأنه قبل الدية :

حليفة لا سلمت من الأعادي ولا وكيت شر النكبات
أقبل فرقة قيس وترضى بأنعم ونوق سارحات^(٤)

وعلى الرغم من تثبت المجتمع القبلي بضرورة النذر فإنهم كانوا يتلون الدية أحياناً كحل وسط ، ويختلون عن طلب النذر في بعض الأحوال . وكان يلجأ إليها في سبيل وضع حد لحروب قبلية طال أمدها ، كما حدث في حروب القيساري^(٥) ، وفي حرب داحس والغبراء^(٦) . وعندما يتحمل أحد سادة القوم أو مجموعة منهم ديّات القتل ويصطلح الحيان . كما كانت تغيل حقناً لدعاء حين من قبيلة واحدة ، أو قبيلتين تربطها قرابة وثيقة ، فقد قبلت فزارة الدية من عيس في بداية حرب داحس والغبراء^(٧) . وربما رضوا بها عندما يحسون بالعجز أمام الذين يطلبونهم بالنذر ، أو حيناً لا يهدون مفرأ من قبوطها لإنهاء التوتور ، كما حدث عندما قتلت فييان أحد العيسيين يوم قطن ، وكان الحيان قد أوشكا على الصلح ، فقبلت عيس الدية^(٨) .

(١) أمثال القيسي ٥٧ . (٢) حسان البعثري ٢٨ .

(٣) حسان أبي غلام شرح المزدولي ٢١٧ / ١ . (٤) رباح الأسدي - لويس شيخو ٣٩ .

(٥) الألفي / ثقة ٧٨ / ٢٢ . (٦) أمثال القيسي ٤١ .

(٧) الألفي / ثقة ١٧ / ١٢٨ . (٨) أمثال القيسي ٤٢ .

أما حين يكون القاتل والقتيل من عشيرة واحدة فلا غطاضة من قبورها^(١) ولا عار عليهم إن هم قبلوها ، وإذا أصروا على عدم القبول خُلعَ القاتل .

وتنال القبيلة لكي تدفع العار الذي يلحقها إن هي قبلتها فتلجأ إلى حيلة سهم الاعتذار وهو عبارة عن سهم يرمى نحو السماء فإذا عاد مضرجاً بالدم لا يقبلونها ، وإذا عاد كما صعد ، وهذا هو الذي سيحدث قبلوها^(٢) .

وأما مقدارها المتعارف عليه في المجتمع الجاهلي فلم يكن ثابتاً فقد تعارفوا عليها مائة ناقدة^(٣) ولكنها بالنسبة للرؤساء كانت تصل إلى ألف بغير وترفض في أغلب الأحيان كما رأينا في رفض امرئ القيس ذلك عندما عرضتها أمـد عليه^(٤) وكما رفض التغلبون ذلك دية لكلب واعتبروا ذلك إهانة واستخفافاً بهم . كما تعارفوا على أن دية الخليف والمجرب نصف دية الصريح^(٥) ومع ذلك نرى المزورج في حرب سمير يرفضون أن تدفع لهم نصف دية خليفهم ويصرون على دية كاملة ويقتلون إلى أن يحكم بينهم للشمر بن حزام النجاري بدفع دية كاملة هذه المرة ثم العودة إلى سنتهم القديمة^(٦) .

ويرى بعض الباحثين أن « عادة الثور لم تكن تعني عند العربي إلا أنه قد حصر الجولة الأولى ، والخسارة في الصحراء معناها القناء ، فعليه أن يكسب الجولة الثانية وإلا فني وهلك^(٧) وحتى يحس بوطأة القناء والملاك كان يفرض على نفسه ما يشعره بذلك ، فكان يحرم على نفسه النساء والدهن وكل أنواع الملذات كالخمر واللحم وقد يمنع عن الاغتسال حتى يأخذ بثأره .^(٨) وبعض آخر فهو يحرم نفسه من منافع الحياة الأساسية وهي الاحتفاظ بالنفس من الهلاك وخلق الأنفس الجديدة ، أي أنهم « يرغمون أنفسهم على صورة مصغرة من صور القناء ليعرفوا فداحة ذلك، ويقدموا على القتال بكل قوة وشجاعة حتى يأتخلوا بثأرهم فيزيلوا عن أنفسهم شبح القناء ، وترد إليهم القوة روح الحياة^(٩) .

(١) انظر الشان (٥٥) .

(٢) خزاعة الألب ٢ / ١٣٧ ، ديوان الخليلين ٢ / ٣٦ .

(٣) الأغانبي / بحلة ١٧ / ١٣٣ .

(٤) الأغانبي / بحلة ٢٣ / ٤٠٦ .

(٥) الأمالي للتللي ١ / ٧٢ .

(٦) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٥٩ .

(٧) سيرة عترة / محمود الحفني ٣٦ .

(٨) الشافعي ١ / ٨٣ ، الشعر والشعراء ١٧ .

(٩) سيرة عترة - محمود الحفني ٣٦ .

وقد شاعت في المجتمع الجاهلي القبلي أسطورة الخامة^(١) ، فقد زعموا أنها تخرج من رأس الغير ثم لا تزال تصيح : أسقوني ، حتى يلعنوا بثأره ، ولم يكن هدف هذه الأسطورة إلا الخفص على طلب الثأر .

وقد أسبغ لامنس - الذي كتب فصلاً لدراسة شريعة الثأر وطابعها الديني عند العرب - الصفة الدينية على شريعة الثأر^(٢) ، لما رأى من تقديس المجتمع لها ، ولما رأى لها من طقوس متعارف عليها ، ولما رأى من أساطير تربطها بها - وربط (وهوزن) بين الثأر وحالة الإحرام ، ورأى فيها التعبير الأسعي عن المثالي الذي يروجو البدوي التقرب بواسطته من الألهة^(٣) .

والعربي كان يحرص على إعلان اعتزازه الأخذ بالثأر ، وتحريم كل اللذات على نفسه حتى يدرك بثأره ، وهو يتخاطر بسبعته عندما يفعل ذلك ، ولا يكفي بالإعلان بل يدعو نفسه إلى احتقاره إن لم يف بثأره :

فلا يدعني قومي لزيم بن مالك
لئن لم أعجل ضربة أو أعجل^(٤)

ويحرص كذلك على أن يتم الأخذ بالثأر جهراً وعلى ملا من الناس ، وما لم يكن ذلك حتى يعلم الناس جميعاً أن قوم القاتل قد أخذوا بثأره ، وأخبر الأيام حاكمة بذلك .

ويشجع قانون التكافل والتضامن القبلي في قوانين الثأر في أوضح صورته^(٥) فكل رجل في القبيلة يؤدي ضريبة الدم عن أخيه ، والقبيلة بمجموعها مسؤولة عن المطالبة بدم قتلها ، كما أن قبيلة القاتل تؤخذ كلها بجريته . وقد نجد القبيلة الموثورة أن القاتل غير كفء للقتل ، وبالتالي فهي لا ترضى أن تقتله به ، كما الذي حدث عندما قتل البراء الكنتي عروة للرجال الذي كان سيداً من سادات عامر ، فقد رفضت هوازن أن تقتل البراء بعروة الرجال لأن البراء خليع والرجال سيد^(٦) وقد نجد أن القاتل لا يعدل ، لشرفه وبذل أصله ، دم رجل واحد من جماعة القاتل ، فلا ترضى عندئذ إلا قتل عدد من الرجال ، وهذا ما عرف بالتكافل بالدم ، وهو ما

(١) أمالي القبلي / ١ / ١٢٩ ، حياية الأرب / ٣ / ١١٢٣ .

(٢) المعصية لإحسان النص / ١٢٣ .

(٣) المعصر الجاهلي - شوقي ضيف ٦١ وانظر المعصية لإحسان النص / ١٢٣ .

(٤) حياية البحري / ١٠ .

(٥) المعصية - إحسان النص / ١٢١ .

(٦) المقتد الفريد / ٥ / ٢٥٣ .

أسقطه الإسلام . وأمثلة ذلك كثيرة تمن واجدوها في مقتل كليب ومقتل حجر الكندي والد
لعريه القيس ، وواجدوها في حالة عصمة بن حنثة البريحي الذي لم تهدأ باله إلا عندما قتل
سبعين رجلاً من بني عيسى يرجل قتلوه من قومه^(١) والمنذر بن ماء السماء الذي أقسم أن يقتل مائة
من قيس بابه^(٢) .

وقد يكون من الحق أن شريعة النثار هذه خطبت رجال الجزيرة العربية بدماء كانت لا تكاد
تحف ، ولكن من الحق أيضاً أن هذه الشريعة كانت قانوناً وقائياً لا بد منه في ذلك المجتمع
القبلي ، ففي ظل النثار كان العربي يشعر بالأمن في بيته لا يسودها نظام ولا يسيطر عليها قانون .
وبسبب هذه الشريعة أيضاً كانت القبائل تتحلى بإراقة الدماء عند الغزو ما وسعها ذلك ، وأن
نفور البدوي من إراقة الدماء في جميع عهوده مرده إلى شريعة النثار^(٣) .

وبسبب النثار ثارت المواقف ، وأصبحت كل قبيلة إما واثرة أو موبوءة :

يُغَار علينا واثرين فيشتقى بنا إن أهيئنا أو نغير على وثر^(٤)

السياسة الخارجية للقبيلة :

لقد سيطرت فكرة الحمى على المجتمع البدوي كله ، وأصبح لكل قبيلة حمى خاص بها ،
ولكن ذلك لم يمنع القبيلة من أن تجد مجال حركتها خارج حماها ما لم تكن في الحمى الجديد قوة
أقوى من قوتها . وهذا ما نتج عنه تدخل منازل القبائل .

وقد أثبتت الدراسة الإنجليزية « سميل » أن كل مشكلة من مشكلات التاريخ يعمل فيها
عاملان أساسيان : الإنسان والبيئة الجغرافية ، يمثل العامل الإنساني القوة المتحركة الدافعة في
كل نشاط بشري ، كما يمثل العامل الجغرافي القوة الثابتة الموجهة لهذا النشاط التي لا تكف عن
العمل وفرض حقيقتها على المجتمعات ومعالجاتها^(٥) .

وهذا الحمى لم يكن ثابتاً فهو عرضة للاعتداد أو التقلص ، لا يمكن لقبيلة ما أن تستقر تماماً
في بقعة ما ، لأن عوامل متعددة تؤثر في حياة السكان في جزيرة العرب ، وأهم عاملين يؤثران

(١) الثقافى ١ / ٣٣٦ .

(٢) الأضاني / مجلة ٢٢ / ١٩٢ - ١٩٣ يوم أخلوة الثاني .

(٣) العصية لإحسان النص ١٢٠ .

(٤) الأضاني ١٠ / ٥ ، جلسة أبي تمام ٢ / ٨٢٥ .

(٥) مجلة « المجلة » فبراير ١٩٦٥ ص ١٦ مقال الدكتور يوسف عفيف .

بشدة في حياة السكان الجندب والحر . وانطلاقاً من الظروف الجغرافية التي خضع لها المجتمع الجاهلي أصبحت الحركة هي القاعدة التي تقوم عليها حياة البدو من سكان الجزيرة^{١٥٥} .

ومن أسباب التحرك^{١٥٦} في المجتمع الجاهلي القليل كثرة النسل التي تؤدي إلى ضيق المكان بأهله ، لأن العشيرة أو القبيلة كان عليها أن تواجه أمرين متعارضين : أولهما الدفاع عن النفس الذي يتطلب كثرة في العدد ، وثانيهما : تأمين حاجات العشيرة من الماء والكلا وهذا يدعو أن تكون الجاهلية قليلة العدد ، فلما ما تمت الجاهلية ، وزاد عددها حل ما يستطيع الحي أن يقدمه من ضرورات الحياة ، كان من اللازم أن تنقسم الجاهلية إلى جماعتين أو أكثر ، وأن توحد إحداهما إن هونا وإن قسراً ، وربما تعرضت مصالحهما لتحتلها ، كما رأينا بكرة وتقلب ، والأوس والحزرج ، وهباً وذبيان .

ومن أسباب التحرك الحروب والشقاق والتناحر الذي كان ينجم عنه هجرات ومثلها حرب داحس التي جعلت عبساً لطوف في أرجاء الجزيرة المختلفة ودحاً من الزمن . وربما كان التحرك بسبب ظروف اقتصادية كما رأينا في سيل العرم ، وحركة قبيلتي بكر ونخيل .

ويجبي أن هذا التحرك يفرض على القبيلة الاحتكاك بغيراتها ، وهذا الاحتكاك قد يكون سلمياً ، وقد يكون حربياً يجعل طابع العدوان . ومن هذا الاحتكاك تنشأ العلاقات والصلات بين القبائل ، تلك العلاقات التي أسستها « عوامل الحاجات الملحة التي تمثلها المصالح الذاتية والرغبة في المحافظة على النفس »^{١٥٧} .

فالصلات السلمية القبلية إنما أوجدتها ظروف الحياة القبلية من اضطرار إلى النزول إلى جوار قبيلة أخرى ، وتعدو تخمين الاكتفاء الذاتي في القبيلة وتعدو الاستغناء نهائياً عن الآخرين في أي مجتمع من المجتمعات فكيف في مجتمع صحراوي متقلب الظروف ؟

ولتمثل الصلات السلمية في التفاه القبائل في الأشهر الحرم^{١٥٨} في الأسواق والمواسم ، ييمون ويشرون ، ويستعمون ويقولون ، ويتبادلون الأسرى ، يتقايضون ويقضون بعض شعائرهم الدينية ، وكانت الأشهر الحرم هذه مقدسة لا يجوز خرقها وقد تعارف عليها المجتمع الجاهلي^{١٥٩} ، فلم يكن فيها قتال ، وسُميت الحروب التي انتهكت حرمتها بالقبيحار ، وفي هذه

(١) مجلة « المجلة » فبراير ١٩٦٥ ص ١٦ مقال الدكتور يوسف خليف .

(٢) تاريخ الأدب الجاهلي - علي الجنتي ٧٠ - ٧١ .

(٣) تاريخ العرب - مطول - حتى ٢٨ / ١ .

(٤) الأشهر الحرم : ذو الحجة وذو القعدة ورمح ورجب .

(٥) قصة الخطورة - ول ديورانت ١٣ / ١٢ ، انظر سياتك الذهب .

الأسواق لا يحمل القادمون إليها السلاح ، وإن حملوه وأودعوه لدى زعيم أو سيد معترف به لدى الجميع ، وقد كان عبدالله بن جندب يودع لديه السلاح في سوق عكاظ^(١).

وكان العرب ينتقلون من سوق إلى آخر وفق ترتيب دقيق ، ينتهي سوق ليبدأ سوق آخر في منطقة قريبة منه ، ومن هذه الأسواق : سوق دومة الجندل ، وسوق هجر ، وسوق عياف ، وسوق الشجر ، وسوق صحر ، وسوق الشحر ، وسوق بني الحجاز ، وسوق خيالة ، وسوق عكاظ^(٢).

وكان الأشراف والفرسان إذا أتوا عكاظ تقصموا حتى لا يعرفوا حين يؤسرون فيكبر فداؤهم ، ومنهم من كان يرفض أن يتخضع كطريف بن عيم العتيبي^(٣).

كما كانت أسواق المكان الذي تدفع فيه الأتاوات ، فهوازن كانت تدفع الأتاوات لزهير بن جذيمة العبيسي في عكاظ^(٤).

وفي الأسواق ترفع راية وقاء لمن ثنى مكرمة ليعرفه الناس ، كما ترفع راية لمن يطلب من الناس ألا يصاحروه ويعزلوه^(٥).

ومن مظاهر الصلوات السلمية المصاهرة التي كانت تتم بين القبائل وبخاصة بين القبائل المتجاورة في مواعيدها ، وكانت هذه المصاهرات تحقق من روح العداوة بين هذه القبائل ، ولكنها لم تستطع أن توقفها .

ومنها قري الضيف ، الذي علقه بعض الباحثين^(٦) بأنه « نائي » عن الشعور المشترك بضعفهم وضعزهم تجاه مشاق الطبيعة القاسية العنيدة . ومهما يكن في البدوي من صفات البغض والإستكثار لعدوه فإن العربي أيضاً ضمن نطاق صداقته غلص لصديقه ، ولقد تغنى شعراء الجاهلية بفضل الضيافة التي تعتبر هي والحماية والروعة من أسس الشائلك التي تميز بها الشعب العربي ، وكان بعضهم يوقد النار ليلاً^(٧) حتى يحيط إليها المارة فيقصدوها ليجدوا الطعام والمأوى في هذه الصحراء المظلمة . ويرى فيه بعضهم^(٨) تحقيقاً من شر الغزو الذي خيم

(١) الأختي / ٢٢ / ٦٦ .

(٢) بلوغ الأرب - الأوس ٢٦٤ / ١ - ٢٦٧ .

(٣) العقد الفريد ٢٠٨ / ٥ .

(٤) الأختي / ١١ / ٨٣ .

(٥) الأزمدة والأمكنة - للمزدولي ١٧٠ / ٢ .

(٦) تاريخ العرب مطول - فليبي حتى ٣٢ / ١ .

(٧) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - للقلشدي ٤٦٣ .

(٨) تاريخ العرب مطول - فليبي حتى ٣٢ / ١ .

على الجزيرة العربية ، وجفاف الصحراء وقسوتها . ويصور لنا عتيبة بن ربيعة اللزني من بني الحارث بن كعب مشهد غيب طرق منزله ليلاً يقول :

وَمُسْتَبَحِ بِاتِ الصَّدَى بِسْتِيهِه إِلَى كُلِّ صَوْتٍ فَهَرُ فِي الرَّحْلِ جَانِحٌ
فَقُلْتُ لِأَهْلِي : مَا يُغَامِ مَطِيَّةٍ وَسَارَ أَصْلَافُكَ السِّكَاظُ التَّوَابِحُ
فَقَالُوا : غَرِيبٌ طَارِقٌ طَوَّحَتْ بِهِ مَتُونُ الْقِيَا فِي وَالْخَطُوبِ الطَّوَارِحُ
فَقُمْتُ وَلَمْ أَجِمْ مَكَانِي وَلَمْ تَقُمْ مَعَ النَّفْسِ عِلَاتُ الْبَخِيلِ الْفَوَاضِحُ^(١)

ومن للظاهر السلمية الإجارة ، فقد كان المستجير يجد أنباء بعد خوف ، وصوتاً غليظة بعد أن نبلته قبيكة ، وقد اعترف المجتمع الجاهلي بقانون الإجارة وخضع له ولقوانينه ، وقد بحثنا ذلك في فقرة سابقة ، وكان حق الإجارة وفقاً على المصحاء من أبناء القبيلة^(٢) ولعل في ذلك دعماً لهذا القانون لأن الحليف لو سمح له أن يجر قتل يملك القوة التي يحمي بها جاره .

وعلى الرغم من تقديس المجتمع الجاهلي لهذا القانون فقد تناهى إلى أسوأ ما جاز يشكو ظلم جيرانه وانتقامهم حقوقه ، وغير شاهد على ما نقول ما حدث لعيس حين جاورت بني كعب ، فهُجُوا بِالْفَخْرِ بَيْنِي عَيْسَ ، وَكَانَتْ عَيْسُ قَدْ حَاقَتْهُمْ ، وَفَطَنَ لَمْ يَسْرِ عَيْسُ فَأَخَذُوا حَذَرَهُمْ ، وَخَلَدَ تِلْكَ الْحَادِثَةَ شَاهِرَ عَيْسَ^(٣) .

وأخر هذه الصلوات السلمية الأحلاف ، والحلف بمعنى اليمين أصلاً . كانوا يقسمونه في عهودهم ، وكانوا يخضعون أيديهم في أثناء عقد أحلافهم في طيب لو في دم^(٤) وكانوا يقولون : « الدم الدم ، والخدم الدم ، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شداً ، وطول الليالي إلا منكاً ، ما بل البحر صوفه وأقام وضوى في مكانه^(٥) » إن كان جيلهم وضوى ، وإلا ذكروا ما يجاورهم من جهال . وربما أوقدوا النار عند مخالفتهم ، ودعوا الله أن يحرم من ينقض عهد الحلف من مناقعها^(٦) .

وربما دنوا من هذه النار حتى تكاد تحرقهم ، كما حدث للبالل من مرة بين عوف ، الذين تحالفوا عن نار فدنا منها ، وحشوا بها حتى عشتهم فسموا « المحاش »^(٧) .

(١) حسانة أبي تمام شرح المزدولي ١ / ١٥٥٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٣٨١ .

(٣) ديوان عنترة ٢٠٠ وانظر كذلك أمثلة في الألفاظ ١٣ / ٢١ والحجاسة ١ / ٣٣٦ .

(٤) العصر الجاهلي - شوقي صيف ٥٨ .

(٥) الخيران ١ / ٤٧٦ .

(٦) المصدر السابق ١ / ٤٧٠ .

وكانت القبائل تسعى إلى المحالفات طلباً للأمن ، ودفعاً للمعدن ، وإثراً للعاقبة ، ومع ذلك « فلم تستطع هذه المحالفات حقن الدماء التي كانت تسفك لأفئدة الأسباب ، وربما كان الحلف نفسه من أسباب الحرب ، تسعى إليه القبيلة إذا هي طلبت ثأراً عجزت عنه أو تولت بها مصيبة فعلت دون دفعها ، إلا أننا يجب ألا ننسى أن هذه الإنجذابات ، إنجذابات الأخلاف » قد لعبت دوراً كبيراً إيجابياً في تكوين القبائل ، إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية لتحميها وترد العدوان عنها »^(١) .

وقد عرف تاريخ العرب في جاهليتهم أنواعاً متعددة من الأخلاف القبلية : منها الحلف بين قبيلتين متجاورتين إحداهما لغوى من الأخرى كحلف الأوس واليهود ضد الخزرج عندما تغلب الخزرج على الأوس في يوم بُعثت فحالفوا اليهود ليتمكنوا أنفسهم من الخروج^(٢) . ومنها حلف يُعقد بين قبيلتين متساويتين في الحقوق والواجبات وصفة هذا الحلف مؤقتة ، يزول بزوال سببه كحلف عيس وضيبة الذي عقد بينهما عندما كانت ضبة تريد معيناً لها في حربها ضد أخوتها ثيم^(٣) . وأخلاف دائمة كحلف المطيين من قريش ويضم بني عبد مناف بن قصي ، وبني أسد ابن عبد العزى بن قصي ، وبني زهرة بن كلاب ، وبني قيس الله بن مرة ، وبني الحارث بن مالك ، وكانوا بدأ واحدة في التناصر^(٤) .

ومنها أخلاف كانت غايتها دفع الظلم والشر ، أو نشر الأمن في ربوع القبيلة وغير مثال لهذا النوع من الأخلاف « حلف الفضول »^(٥) بين بطون قريش ، « وسبب هذا الحلف أن رؤساء قبائل قريش اجتمعوا فاتفقوا ألا يدعوا أحداً يظلم أحداً إلا نصرهوا للظالم على الظالم بأعداء له حلف » .

ومنها ما كان له طابع ديني كحلف « الحمّس »^(٦) الذي عقد بين كنانة وقريش ونجدة وطوائف من بني عامر بن صعصعة .

وقد انتشر التحالف بين القبائل بصورة واسعة قبل الإسلام^(٧) ، ولم يبق إلا قبائل

(١) العصر الجاهلي - شوقي صيف ٥٨ ، وانظر لمحة لذلك في معجم البكري ١ / ٥٣ وما بعدها .

(٢) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٧٨ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١ / ٥٨١ .

(٤) المحرل لابن حبيب ١٦٦ .

(٥) المحرل لابن حبيب ١٦٧ ، الأغلبي / ثقافة ١٧ / ٢١٠ - ٢٢١ .

(٦) المحرل لابن حبيب ١٧٨ .

(٧) مجمع مكة والمدينة - أحمد الشريف ٤٦ .

« جمرات العرب »^(١) ، ولعل انتشار المحالقات كان إحساساً من القبيلة العربية بأنها بحاجة إلى الإقتران على غيرها من القبائل ، ولعل ذلك كان بدء نهضة قومية استفاد منها الإسلام في توحيد أمة .

إلا أننا نستطيع أن نؤكد أنه لم تكن لأي قبيلة سياسة مرسومة لتحدد علاقاتها مع القبائل الأخرى ، فقد تعقد نوعاً مع الصلات مع إحدى القبائل ثم تكتشف أن مصلحتها في قطع هذه العلاقة ، فلا تتوانى عن فعل ذلك ، فمصلحتها هي التي تحدد طبيعة العلاقة ، ربما أصبح صديق الأسى على اليوم ، والأمثلة كثيرة جداً ولعل ما نراه في محالقات عيس ، يعد أن نرحل عن ديارها ، عندما تأكلت عليها كل قبائل قطفان بسبب ملكها بغزارة يوم القباة ، غير مثال على ما نقول . ولعل هذا هو ما جعل أحد المستشرقين يرى أن المحالقات القبائل كانت تتم في ظروف إستثنائية لا تلبث أن تنحل^(٢) .

أما النوع الثاني من الصلات بين القبائل فهو الصلات الحربية التي كانت تتراعى لبعض الباحثين أنها تمثل طبيعة الصلات في الجاهلية ، وأن الصلة الدعوية هي التي تعين القبلت الذي تضطرب فيه حياة البدو^(٣) ، وأن السياسة الخارجية قامت في ذلك العصر على الترسيع والعداوة^(٤) .

ومظاهر هذه الصلات الحربية تتمثل في العداوة ، والنزاع المتصل ، والغزو .

الغزو :

قلنا إن الظروف الجغرافية في الجزيرة العربية جعلت الحركة هي القاعدة التي تقوم عليها حياة البدو من سكانها . ومن هنا استقر في أعماق البدوي إحساس بالأنفة من كل الأعمال التي تفرض على أصحابها الإستقرار ، وإحساس بالرضا عن كل الأعمال التي تفرض على أصحابها الحركة والتنقل^(٥) ، ومن هنا فقام البدوي الغزو ، وأصبح وسيلة من وسائل الحياة ، بل شريعة مقدسة يكمن فيها سر الحياة ، يعبر عن ذلك عزيد بن الصمّة حين يقول :^(٦)

(١) الخيران ١٦٣ / ٥ والبحر ٢٣٤ .

(٢) تاريخ الأديب العربي - بلاشير ٢٥ / ١ .

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية - بروكلمان ١٧ / ١ .

(٤) تاريخ الشعر السياسي - أحمد الشاذلي ٣٢ .

(٥) مجلة « المجلة » فبراير ١٩٦٥ ص ١٦ مقال للدكتور يوسف خليف .

(٦) الخياصة لأي قام شرح المروزي ٨٢٥ / ٢ .

يُنْصَرُّ عَلَيْنَا وَاتَّسِرْنَ فَبَشَّحْنِي
قَسَمًا بِذَلِكَ الدَّهْرِ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا
بِنَا إِنْ أَصْبَحْنَا أَوْ نَغِيرَ عَلَى وَثَرٍ
لَهَا يَنْقُضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ

فَالْغَزْوُ إِذَا وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ عَيْشِهِمْ ، ذَلِكَ الْعَيْشُ الْمَشْتُوبُ بِالضَّمَكِ وَالنَّشْطِ وَضَرُورَةُ
إِجْتِمَاعِيَةِ أَسْلَحَتِهَا أَسْوَاقُ الْبِلَادِ الْاِئْتِمَاعِيَّةُ وَالْاِجْتِمَاعِيَّةُ ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ فَضِيلَةً فِي حَدِّ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا
ضَرُورَةُ مِنْ ضَرُورَاتِ الْحَيَاةِ وَالْبَيْتَةِ ، وَهُوَ يُمَثِّلُ صُورَةً مِنْ صُورِ تَنْزُوعِ الْبَقَاءِ فِي مَجْمُوعِ ظَهْرِ جِزْءٍ .
كُلُّ هَذِهِ الْعَوَاضِلُ وَلَعَلَّتِ الْغَزْوُ إِلَى مَسْتَوَى النِّظَامِ الْقَوْمِيِّ ^(١) .

وَالطَّاعِيعُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ الْغَزْوُ هُوَ تَجَنُّبُ إِعْرَاقِ الدِّعَاءِ عَيْنًا ، فَلَا يَفْتُلُونَ إِلَّا حَيَاتِي لَا يَهْدُونَ
بِدَأً مِنَ الْقَتْلِ . وَتَقْدِيرُنَا أَنَّ الشَّرَّ كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ التَّصَرُّفِ ، وَسَبَبُ آخِرِ أَنَّ هَمَّهُمْ مَوْجَّهٌ إِلَى
السُّلْبِ وَالسِّيِّ وَأَسْرَ الْمُسَرِّينَ وَالسَّادَةِ الَّذِينَ يَطْمَعُ فِي فِدَائِهِمْ ، فَفِي يَوْمِ الْكُتْلَابِ الثَّانِي يُلْحَقُ
عِيصَةً بِنِ أَتْبَرِ عَيْدٍ يَغْرُثُ الْخِلَافَةَ وَهُوَ يَصْبِيحُ بِهِ : وَيَحْكُ إِنِّي رَجُلٌ أَحِبُّ الْعِلْمَ وَأَنَا غَيْرُكَ لَكَ مِنْ
الْفَلَاحِ وَالْعَطَشِ ^(٢) .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْقَوْمِيِّ الَّتِي تُسَوِّدُ كَثِيرًا مِنْ أَسْوَاقِ الْمَجْمُوعِ الْقَبْلِيِّ ، إِلَّا أَنَّ الْأَعْرَافَ
الْقَبِيلِيَّةَ لَمْ تَلْقُفَتْ مِنْ حِلَّةِ هَذِهِ الْقَوْمِيَّةِ ، فَأَعْرَافُهَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْلَافِ ، وَأَعْرَافُهَا يَتَعَلَّقُ
بِاللُّوْاسِمِ وَالْأَسْوَاقِ وَالْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ، وَأَعْرَافُهَا تَتَعَلَّقُ بِالْغَزْوِ وَنَتَاجِجِهِ أَيْضًا .

فَقَدْ تَعَارَفُوا عَلَى عَدَمِ جَوَازِ الْغَزْوِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْمُتَحَالِفَةِ ، وَكَانَ شَعْرَاؤُهُمْ يَذْكُرُونَهُمْ
بِذَلِكَ صَنِيعِ التَّابِغَةِ حِينَئِذٍ أَرَادَ عِيصَةُ أَنْ يَخْلُوعَ بَنِي عَيْسَ ضِدَّ بَنِي أَسَدَ وَكَانَتْ ذِيَانًا مَرْتَبُطَةً بِحَلْفِ
مَعَ بَنِي أَسَدَ ^(٣) . كَمَا تَعَارَفُوا عَلَى عَدَمِ جَوَازِ الْغَزْوِ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ^(٤) ، وَلِذَا كَانَتْ الْجُزَيْرَةُ فِي
هَذِهِ الْأَشْهُرِ يَرْفُقُ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَالْأَمْنُ بِشَكْلِ عَامٍ ، وَتَهْرَعُ إِلَى الْأَسْوَاقِ لِتَبَادُلِ وَتَقْضِي
حَاجَاتِهَا . وَتَعَارَفُوا عَلَى كَيْفِيَّةِ مَعَامَلَةِ الْأَسْرَى ، مِنْ ضَرُورَةِ الْمَحَافَظَةِ عَلَى حَيَاتِهِمْ ، وَعَدَمِ إِخْلَاقِ
لِلْهَانَةِ بِهِمْ ، وَتَعَارَفُوا عَلَى قَوَائِمِ تَوَزِيعِ الْأَسْلَاحِ فِيهَا بَيْنَهُمْ ، كَمَا تَعَارَفُوا عَلَى فَنَاءَةِ الْأَسِيرِ الَّتِي
لَمْ تَكُنْ تَأْتِيهِمْ إِلَّا مُخْتَلِفَةً تَبَعًا لِمَكَانَتِهِ .

وَالْأَسْرُ لِقَائِدٍ ، مِنْهَا أَنَّ الْمَلِكَ لَا يُحْرَقُ نَاصِيَتُهُ إِنْ أَسْرَ ، فَقَدْ ضَرَبَ طَارِقُ بْنُ عَصِيْمَةَ

(١) نَرُجِعُ إِلَى الْمَعْرِ الْجَمَاعِيِّ ٢٨ ، مَقَالُ الدُّكْتُورِ يُوْسُفِ خَلِيفِ ، حَضْرَةُ الْعَرَبِ - لُيُؤُونُ ٢٢ ،

الْعَصِيَّةُ لِإِحْسَانِ النَّصِّ ٨٢ ، تَارِيخُ الْعَرَبِ حَتَّى ٣١ / ١ .

(٢) انْظُرْ غَيْرَ الْيَوْمِ فِي التَّقَائِيصِ ١٤٩ / ١ ، الْكَامِلُ لِأَمِينِ الْأَثِيرِ ٦٢٠ / ١ .

(٣) دِيْوَانُ التَّابِغَةِ ١٩٦ .

(٤) مِنْ أَجْلِ هَذَا سَمَّوْا حُرُوبَ قَيْسٍ وَكَثَانَةَ حُرُوبِ الْقُضَلَاءِ ، الرُّوْضِيُّ الْأَنْفَ ٩٢ / ١ .

اليروعي فرس قابوس فعقره ، وأخذ لهجز ناصيته ، فقال قابوس : إن الملوك لا يُفْرَضُ تواصيها ، فجهزه وأرسله إلى أبيه^(١) .

ومنها أنهم كانوا إذا استأسروا لشهزم ، وكان رجلاً له مكانته في قومه اكتفوا بجز ناصيته علامة الفزعة والإستسلام ، وخلوا سبيله على أن يكرمهم فيها بعد^(٢) . ولكنهم لا يفعلون ذلك دائماً ، فقد أسرت عامر مقيّد بن زرارة التميمي يوم زحراحان الثاني وبقي في الأسر إلى أن وفد أخوه لقيط عليهم لفتاكه^(٣) .

وكانوا يبالغون على حياة الأسير لأكثر من سبب ، أهمها حرصهم على خديته وخولتهم من الوقوع في قبضة الأسر من قبل أعدائهم فالخيلة كز وفر . ففي يوم الرقام بين يربوع وعامر أسر عتيبة بن الحارث اليربوعي أسير الرعيل وطالب منه قومه قتله فرفض حتى اقتدى نيس نفسه بمائتي بعير ، فعبر العباس بن مرداس عتيبة بذلك^(٤) .

وقد تابعت القديمة ، فطرة نجدها مائتي بعير كما رأينا في اقتداء أسير الرعيل نفسه من عتيبة ، وأخرى تراهم لا يقبلون من لقيط بن زرارة قديمة لأخيه فبقي في الأسر حتى هزل ومات وغير أخوه بذلك^(٥) . وفي يوم زروة الثاني بين يربوع وتغلب المندى حزيمة بن طارق الثقلي نفسه بمائتي بعير^(٦) . وترفع هذه القديمة في يوم السلان عندما أسروا زبرة الكلبي فالتدى نفسه بألف بعير وفرس من يزيد بن الصعق^(٧) وفي يوم السويان وعامر وقيم ، فأدى حسان بن زبرة من يزيد ابن الصعق بألف بعير فداء للملوك^(٨) .

ويكرم الأسير إن كان قد قدم معروفاً للقبيلة أو لفرقة فيها قبل أسره ، فقد أسرت كنانة ثريد ابن الصفة في غارة لها على قومه بني جشم فأعطى ثريد نسيه ، وكان قد خلّ سبيل حامي الطعينة ربيعة بن مكنم سيد وقارس كنانة ، وتعرفت على ثريد إحدى النساء فصاحت : هلكنم ماذا جرّ علينا قوما ؟ ثم ألقت عليه ثوباً وطلبت من قومها إطلاق مراحه ، فأطلقوه بعد أن أرضوا أسره وكسوه وجهزوه ، فلم يزل كافلاً عن حريم حتى هلك عرفاناً بجميلهم^(٩) .

-
- (١) المقذ الفريد ٥ / ٢٣٤ .
 (٢) المقذ الفريد ٥ / ١٣٩ .
 (٣) المقذ الفريد ٥ / ١٣٩ ، الأغانى / كتب ١١ / ١٢٧ .
 (٤) الأغانى / كتب ١٥ / ٣٤٦ .
 (٥) المقذ الفريد ٥ / ١٨٧ .
 (٦) المقذ الفريد ٥ / ١٨٧ .
 (٧) الكامل ١ / ٦٣٩ .
 (٨) المقذ الفريد ٥ / ١٧٣ .
 (٩) المقذ الفريد ٥ / ١٧٣ .

ومن المتعارف عليه أن الأسير ملك أسرهِ ، وله الحق في القدية فإذا ما رغبَت القبيلة في قتله لثأر سابق ، أو إطلاق سراحه إكراماً له ، فلا بد من ترضية أسرهِ ، ففي يوم السُّكَّاب الثاني أسرت قميم حميد بغوث الخارثي ، ولزادت قتله بسيد من ساداتها قتله قومه في ذلك اليوم ، ورفض أسرهِ حميد بن أبيير ، وكانت تحدث فتنة بين حمي بني قميم بسببه ، فقال عصمة إني مضحل وقد أحببت القنى في نفسي ولا تطيب نفسي عن أسيري . فاشتراه بنو الحسحاس بمائة بعير وقتلوه بالنعمان بن جساس^(١) .

وكانت عملية تبادل الأسري بين القبائل تتم في الأسواق - في الأشهر الحرم التي كانت بمثابة الحفلة المقدسة في الجزيرة ، ويؤكد صحة ذلك الحيرة حينما أسر الربيع قُواب بن ربيعة الأسدي ، وكان قُواب قد قتل أباه عتيبة بن الحارث بن شهاب وظل عتبه أسيراً حتى قاده أبوه ربيعة بإبل معلومة فاطمه عليها ، وتواعدا سوق عكاظ في الأشهر الحرم أن يكتفي هذا بالإبل وهذا بالأسير^(٢) وفي غير ألفيف ما يشير إلى أنه وقد حل عامر في رجب .

وكانوا عندما يأسرون شاعراً يشدون لسكته بنسعة حتى لا يقول شعراً يعيرهم به ، ويتنشر في القبائل ، وهذا ما فعلته قميم بعد بغوث الخارثي يوم الكلاب الثاني ، وعندما رجاعهم أن ينزلوها أخذوا عليه عهداً ألا يجوعهم^(٣) .

أما السي من النساء ، فالبعض كان يبيهن^(٤) ، والبعض كان يتصرف بهن كإماء^(٥) أو يعيدنهن إلى قبيلتهن إكراماً لشخص في القبيلة أو إيماناً في الإقلال والازدراء^(٦) . فقد غزت جيوش حسان قبيلة النابغة لكثرة اعتصاماتها على ما حوا من أرض ، وسبوا نساء من ذبيان ، فقال النابغة يمدحهم ويصور حال أولئك النسوة وهن في الأسر ينتظرن من يخلصهن ، فأطلقوا سراحهن إكراماً له^(٧) .

وعلى الرغم من كل هذه القوانين إلا أن ذلك لم يمنعهم ، إحصاءً بجنوة الحقد في نفوسهم ، من أن يسوموا الأسير الذل والمهانة ، فقد أخارت فزارة على التَّيَم فقتلوهم قتلاً فريعاً يوم جِرْع ظلال ، وأخذوا منهم مائة امرأة فقسمنهن حبيبة بن حصن الفزاري في بدر ، وجعلهن

- (١) النفاض ١/ ١٤٩ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٠ . (٢) العقد الفريد ٥/ ٢١٩ .
 (٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٠ ، النفاض ١/ ١٤٩ . (٤) العقد الفريد ٥/ ٢١٢ .
 (٥) يوم جرع ظلال ، الصمد لابن رقيق ٢/ ٢١٥ .
 (٦) المصدر السابق ٢/ ٢١٥ . (٧) ديوان النابغة ٨٠ .

مع أزواجهن الأسارى يفتلن الحرى هرقاً لهم ، ثم أطلق الجميع بغير فداء بعد ذلك^(١) ولم تمنعهم كل ما تعلموا عليه من قتل الأسير أحياناً وهم يعدونه ، كما حدث لوانيل بن صريم البشكري حل يدي بني أسيد بن عمرو بن قهم ، والذي جرّ يوم الحاجر^(٢) .

العلاقات مع الممالك المجاورة :

نشأ في الجزيرة العربية قبل الإسلام ثلاث ممالك لعبت دوراً هاماً في تحريك الأحداث في الجزيرة ، وكان لها أثر كبير في تلك الأحداث ، وتلك الممالك مملكة كندة في الجنوب ، ودولة النافذة والغساسنة في الشمال . كما كان لدولتي القرمس والروم أثر غير مباشر ، إذ كانت الدولتان الكبيرتان في ذلك الوقت لتتخذان من بعض هذه الدول سوراً يحميها من هجمات القبائل العربية ، كما يحمي مصالحها الاقتصادية في الجزيرة .

فمملكة كندة نشأت في جبال اليمن مما يلي حضرموت في الأصل ، وأنها سكنت أولاً في عمر ذي كندة . وكندة قبيلة قحطانية . كما يحدّثنا الإخباريون - عرفت بكندة للملوك ، لأن لذلك كان لهم حل بأمية الحجاز من بني عدنان^(٣) . ويحدّثنا اليعقوبي عن حرب وقعت بين كندة وحضرموت طال أمدها ، هزمت فيها كندة ، ثم صولت إلى أرض معد ، وملكوا عليهم أول ملوكهم مرتع بن معاوية بن ثور ، وتعالى بعده ملوك إلى أن ملك حُجْر بن عمرو المعروف بأكل المرار الشهير الذي حالف بين كندة وربيعة باللفافيه وتولى الملك .^(٤) وحجر أقدم رجل في كندة تحدث عنه الإخباريون بالتفصيل ، فذكروا أنه كان أشأاً لحسان بن ثعلبة لأمه ، فلما دُخِص حصان بلاد العرب ، وسار في الحجاز وهم بالانصراف ، ولّى حجراً على معد بن عدنان كلها^(٥) . وقدر فيليب حتى ذلك حوالي سنة ٤٨٠ م^(٦) ونفهم مما ذكره ابن خلدون أن بني معد كانوا أقباحاً للتيابعة يعينون عليهم من يشامون من النلس .

يظهر من أكثر روايات الإخباريين حل اختلافها^(٧) أن الذي نصب حجراً ملكاً هو ثعلبة .

(١) العهد الفرزدق ١١٢/٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٥٧ ، قطر معجم البلدان ٧/٢٨٤ ، صفة جزيرة العرب ٨٥ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ١/١٧٦ وما بعدها .

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٧٣ والمعروف لابن كنية ٣٠٨ ، والعرب قبل الإسلام ٢١٤ .

(٥) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٧٣ والمعروف لابن كنية ٣٠٨ والعرب قبل الإسلام ٢١١ .

(٦) تاريخ العرب ملوك حتى ١/١١٥ .

(٧) انظر تفصيل ذلك في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٣/٢١٩ - ٢٢١ .

ومعنى هذا أن سلطان نيج كان واسعاً يشمل الحجاز ونجداً ، وأن له القدرة على تعيين الحكام على قبائل هذه الأرضين .

وقد نزل حجر بنجد ، ببطن عاقل ، وكان اللخميون ملكوا كثيراً من تلك البلاد ، ولا سيما بلاد بكر بن وائل ، فنهض بهم وحارب اللخمين واستخلص أرض بكر منهم^(١) . ويدو أنه ومنع سلطته بطريق الزواج ، فقد روى ابن الكلبي بأنه تزوج بنت ظالم بن وهب بن الحارث ، كما تزوج بامرأة من حير ، وبزوجة ثالثة هي أم إلياس بنت عوف بن هلم الشيباني^(٢) . وقد بسط نفوذه على بعض أجزاء الهلعة حيث عين ابنه (معاوية) حاكماً عليها^(٣) .

واعقب حجر ابنه عمرو القصور ، وسمي بذلك لأنه فقد سلطته على قبائل ربيعة التي ظهر فيها في هذا الوقت قائد جديد هو كليب التغلي . وقد ارتبط عمرو هذا مع التافرة بأزاصر الصداقة والتقريب ، فتزوج المثلث بن ماء السماء ابنته^(٤) .

وتولى بعده الحارث عمرو الذي يعتبر أقوى ملوك كندة وأبرزهم ، ومعلوماتنا عنه أوضح . حكم مدة تزيد على أربعين سنة ، وتوسط بين بكر وتغلب وحقق بينهما صلحاً انتهت به حرب البسوس ، ثم بسط سياسته على قبيلة بكر بعد ذلك^(٥) .

استغل ضعف ملوك التافرة وسوء علاقتهم مع الساسانيين ، فاستطاع أن يتولى ملك الحيرة ودحا من الزمن يتزايد من قبل ملك الساسانيين . ويبدو أن قبلتاً كان يريد أن يستغل نفوذ الحارث لإخضاع القبائل العربية ، وبخاصة بكر وتغلب التي أخذت ترحل إلى أطراف العراق ، ثم عزله قبلتاً لرفضه اعتناق المزدكية^(٦) .

وقد نجح الحارث نيج حجر في الإسهار لعدة قبائل ، فتزوج أم قطام بنت سلمة بن الحارث بن معاوية ، فولدت له حجراً ، وانحصر اسماء فولدت له شرحبيل ، ومعد بكر وبجرينها فولدت له سلمة ، كما تزوج بنت عوف بن هلم فولدت له عمراً^(٧) .

وقد ولي الحارث إبان حكمه أولاده على القبائل التي يحكمها بعد أن احتفظ بنفسه بحكم

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٥١١ .

(٢) محاضرات في تاريخ العرب - صالح المثلث ٦٩ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٨٠ والأعالي ٨٢/ ١٥ .

(٤) محاضرات في تاريخ العرب - صالح المثلث ٧٠ .

(٥) نهاية الأرب للشمس ١/ ٤٠٦ .

(٦) تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/ ٢٢٢ جواد علي .

(٧) محاضرات في تاريخ العرب صالح المثلث ٦٩ .

يُشَدُّ . وتؤكد تنقح أغلب الروايات على أنه عين حجر أو على أسد وكثانة وعطفان ، وعين شرحيل على بكر وحنتلة والرياب وقيم ، وعين سلمة على تطلب والنمر بن قاسط ومعد بكرب على قيس عكرانة^(١) .

ولو تأملنا المواطن التي كانت تسكنها هذه القبائل لأفركنا مدى سعة سلطان الحارث وامتداد حكمه إلى نجد وأطراف الحجاز والبحرين والهامة . وكانت مناطق حجر - كيا يدوانا من معرفة موطن القبائل التي وأليها - عند حدود الدولة البيزنطية ، لذا كانت له علاقة بها .

وبعد وفاة الحارث ، تولى كل واحد من ولادته السلطة على القبائل التي كانت تقضع له ، لكن لم تكن لهم القوة والسطوة ، وظلم بعضهم ، وسعى الوشاة بين بعضهم فطردت كلمتهم . فحجر ظلم أسداً فتلعنت منه ، ثم تريصت به فقتله ، وشرحيل وسلمة دب بينهما الخلاف بعد موت أبيهما ، وربما كان للتلذذ بن ماء الساء أثر في توسيع شقة الخلاف بينهما^(٢) إذ يروى أنه دس لكل من الآخرين من يقهده أن الآخر يريد الاتفاق مع التلذذ ، مما أثار غضبتهما ، وأدى هذا الاختلاف إلى اقتتلها في يوم الكلاب الأول وقتل أسدها .

وحاول امرؤ القيس الاتحاد بثلثيهم ، لكنه عجز بعد أن بذل كل ما في وسعه ، وربما كان من أسباب فشله أن التلذذ ملك الحيرة كان وراء ذلك ، وكان قد بسط نفوذه على بعض القبائل فمنعها من نصرة امرؤ القيس كما حى أسداً ، ثم نصح بالسفر إلى القسطنطينية أهداء للتأفد ، ولكنه أيضاً فشل ، ولعل القيص لم يرغب في المغامرة بإرسال جيش مع عربي ليس له من سند له ، ولحاربه لمصلحة هذا العربي ، بالإضافة إلى أن القساسة كانوا حلفاء للروم ويقومون لهم بسط نفوذهم على القبائل^(٣) .

وهكذا تنتهي هذه المملكة التي لعبت دوراً في تاريخ القبائل العربية ، ونود الآن بيان مدى سيطرتها ، ومدى صلاتها بالقبائل ، ومدى صحة الروايات التي وصلت إلينا .

بعد أن تعرض الدكتور جواد علي لاختلاف الروايات المتعلقة بتلك المملكة يقول معجباً « ليس من السهل تصور بلوغ نفوذ هذه المملكة واتساعه بحيث غطى تسماً كبيراً من أرض الجزيرة ، وقد رأينا آثار الوهن بادية على هذه المملكة بحيث لم تتمكن من مقاومة غزو الحبشة لها مع وجود البحر ، وليس من السهل تصور عجيء بكر والقبائل الأخرى طائفة مختارة إلى الحارث

(١) انظر الأعماني ٨٢/٩ ، الفضليات ٤٣٢ ، الكامل لابن الأثير ١/ ١٣ ، Kings of Kinda 64-70 .

(٢) محاضرات في تاريخ العرب - صالح العلي ٧٢ .

(٣) محاضرات في تاريخ العرب - صالح العلي ٧٤ - ٧٥ .

تلتبس منه أن يفضل فيكون ملكاً عليها ، وقد رأيناها تنقضى على البيت المالِك من كتلة وشور عليه ، وتقتل أمراءه ، حال علمها بضعف ذلك البيت ، ويرى : أن الأقرب إلى المنطق هو أن هذه القبائل لم تعترف برئاسة الخوارث عليها ، إلا لما رآه فيه من القوة ، وإلا بعد استعمال العنف مع عدد من القبائل ، فرضيت به ملكاً ما دام قريباً والأمير يديه ، وهو منطق السياسة في الصحراء^(١) .

وللتبحر للأخبار المبثورة في المصادر ، والتي تحدثت عن العلاقات بين ملوك هذه المملكة والقبائل العربية يلحظ تبايناً في هذه الروايات^(٢) ومرد هذا الاختلاف يعود إلى التزعزعات القبلية التي يحملها الرواة ، فطريفة رواة ولمضر رواة ، ولليمن رواة وهمل وأسهم الكلبي الذي أهتم كثيراً برواية أخبار اليمن ، والكل يتعصب بلحاظه^(٣) . وتضرب لذلك مثلاً آخر : ياقوت^(٤) يذكر أن كلياً كان يوم عزاز على ربيعة ، والأحوص على مضر ، وعبد بن حبيب^(٥) يروي أن كلياً هو الذي قلد جموع ربيعة ومضر وقضاعة يوم عزاز . وأبو زياد الكلبي^(٦) يروي أن الذي أوقف النار هو الأحوص بن جعفر ، أي أنه كان رئيس نزارة .

وقد خاضت القبائل العربية حروباً ستعرض لها في موضعها ، منها ما كان في صفها ضد أعداء آخرين حين كانت تدن بالولاء لها ، ومنها ما كان ضدّها ثورة عليها ومحاولة للتخلص من ظلم ملوكها .

ويحدث الدكتور صالح العلي عن طبيعة تضروب القبائل العربية لهذه المملكة فيقول : لم يحاول الكتنيون في تنظيمهم السياسي أن يغيروا النظم السياسية القبلية ، فتركوا كل قبيلة تحفظ بتطبيقاتها وتقاليدها ورؤسائها مكتوبين بالإعتراف برئاستهم العليا . وبذلك كانوا نوعاً من الاتحاد كانت كتلة رأسه ومنظمته ومرجعته ، فنظامها أدى إلى نشر الأمن والسلام والحد من الخصومات القبلية ، فلما انقرضت كتلة حلّت دولة الماشقة محلها مدة قصيرة ، ثم سقطت فتفككت القبائل البدوية واستقل كل منها في شؤونه الداخلية واضطرب الأمن واقتسدت هذه القبائل كل فيما بينها^(٧) .

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٢ / ٢٣٠ .

(٢) مثال ذلك قصة مقتل حجير والد امرئ القيس .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٢ / ٢٤٩ .

(٤) معجم البلدان ٣ / ٤٣٠ .

(٥) للمهر - لابن جيب ٢٤٩ .

(٦) معجم البلدان ٣ / ٤٣٠ .

(٧) محاضرات في تاريخ العرب - صالح العلي ٧٤ .

وإذا فقد أثرت هذه المملكة في القبائل العربية الشمالية أو في بعضها حل وجه التحديد ، وحكمتها حكماً غير مباشر بواسطة ولاية يدهنون لها ولكن هذه القبائل كانت تترك كلها سحت لها الفرصة بظهور زعيم قوي يوحد كلمتها ، أو كلها ضعفت تلك المملكة ، كما أن هذه القبائل بطشت بأفراد من هذه الأسرة وتحتكم بظلمهم لها . كما أن القبائل كانت مستقلة استقلالاً تاماً تصرف شؤونها كما تريد ، ولكن الرواة اليمنيين بالغوا فيما نقلوه إلينا بدافع العصبية وحل رأسهم الكلبي ، كما أسهم امرؤ القيس الشاعر برفع شأن هذه الأسرة بما قاله من شعر ، وأعيدنا فيما وصل إلينا من هؤلاء الرواة ، ولم تصلنا نقوش أو وثائق تشير إلى هذه العلاقات وتوضحها .

لما لمملكة الحيرة ، أو إمارة الحيرة ، فتقع على بعد ثلاثة أميال من موقع الكوفة على بحيرة النجف موطن الشيعة حتى اليوم ، وكانت في أرض خصبة تروى بفروع من نهر الفرات ^(١) ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث ، واستمر إلى ظهور الإسلام ، وكان لأهلها أثر كبير في الحضارة العربية ، فقد كانوا يجهزون لوجاء الجزيرة بالتجارة ، واستطاعوا مد نفوذهم التجاري إلى أواسط وجنوب وغربي الجزيرة العربية ، وأرسلوا قوافل تجارية إلى الأسواق الرئيسية ومنها عكاظ ، وكانت تسمى اللطائم ، وهي تحمل المسك والنسوجات ، وربما بعض المنتجات الحيرية التي يستعملها العرب . وكانوا يأخذون لها الأدلاء والحفراء ، ويؤمنونها من هجمات القبائل الساتنة على طول الطريق التجاري ^(٢) .

وكان للمواصلات التجارية في جزيرة العرب طريقان : أحدهما شرقي يصل عمان بالعراق وينقل بضائع اليمن والحند وفارس براً ، ثم يجوز غرب العراق إلى البادية حتى ينتهي به المطاف إلى أسواق الشام .

والثاني وهو الأهم يصل اليمن بالشام بختار بلاد الحجاز ناقلاً أيضاً بضائع اليمن والحيرة والحند إلى الشام وبضائع الشام إلى اليمن .

ومن أشهر ملوك الحيرة في الفترة الأخيرة لثندر بن ماء السماء الذي تولى الحكم سنة ٥٢٠ هـ ^(٣) ، كان معاصراً لكسرى ثور شروان والحارث بن أبي شمر الغساني الذي اشتبك مع لثندر في نزاع على أرض ، أدعى كل منها ملكيتها والسيطرة على القبائل العربية النازلة بها . ولم

(١) انظر الأعلاني ١٩ / ٧٥ ، ٢٠ / ١٣١ ، طبقات ابن سعد ٢ / ٦ ، دائرة المعارف الإسلامية : مكة .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي - حسن إبراهيم حسن ١ / ٥٩ طبعة اول ١٩٣٥ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

يكند بتهمي ما بينهما من نزاع حتى نشبت المعارك بينهما من جديد حوالي سنة ٥٤١ م ، وفيها أسر المنذر ابن الحارث وانتهت الحرب سنة ٥٤٤ م بهزيمة المنذر وقتله في مرج حلیمة . غير أنها ما لبثت أن نشبت من جديد وانتهت بموقعة عين أباغ سنة ٥٧٠م وقتل فيها ملك الحيرة أيضاً .^(١)

وتولى بعد فترة النعمان بن المنذر سنة ٥٨٠ م ، ثم قتله كسرى أبرويز سنة ٦٠٢ م^(٢) وهو الذي كان يخاطبه التابعة الليثاني « أبيت اللعن » .

وقد حلت دولة المناذرة حل كشك في بسط النفوذ على بعض القبائل العربية فترة قصيرة من الزمن ، ولعبت دورها التاريخي ، حتى خيل لأحد الباحثين إن ملوك الحيرة كانوا وراء كل خلاف يقع بين القبائل العربية ، وأن القبائل تلحق وتفترق في هذا السيل ، والنماء تجري ولمرت يتلغ الناس ابتلاءً ، كل ذلك تدفع إليه سياسة التفرقة التي كان يركبها إذ ذلك هؤلاء الملوك .^(٣)

ثم حل الضعف والانقسام بأمراء الحيرة على أثر ما نزل بهم من الحوادث الجسام وما توالى على دولة الساسانيين من ضعف ، ومن مظالم هذا الضعف المزائم التي ألحقها بهم إمارة القساسة ، وتنازع أولاد المنذر على العرش ، وعلى الرغم من فوز النعمان بن المنذر بالإمارة إلا أنه لم ينج من الكيد والوقيعة في البلاط الفارسي حتى مات تحت أقدام فيلهم^(٤) .

وصار من أثر هذا الإحتلال أن عمت الفوضى ، وضاعت هيئتهم عند القبائل ، فأغلظ بعضهم لهم القول ، كما قالت تغلب لمُرو بن هند حين طلب إليهم العون في الثار لأبيه : هل نحن لأبن هند رعا ؟^(٥) ويجوزون على ماله الخاص فيسبونه كما فعلت بنو الشقيقة وريثهم فيس في إبل عمرو بن هند وأشار إلى ذلك الحارث بن حنيفة :

أبى شارق الشقيقة إذ جا هوا جميعاً لكل حني لواء
حول قيس مستكثمين بكبير قرظي كائنة عبلاء
وصيت من العوائك ما قد هاه إلا مبيضة رَعلاء^(٦)

(١) لوليتكه - أمراء ساسان ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي - حسن إبراهيم - طبعة أول ١٩٣٥ ص ١/٥٢ .

(٣) تاريخ الشعر العربي - النبهاني ٣٦ .

(٤) الأنبياء الطوال - أبو حنيفة الفهرري ١٠٧ - ١٠٩ .

(٥) تاريخ الإسلام السياسي - حسن إبراهيم ٥٤ طبعة أول ١٩٣٥ .

(٦) معلقة الحارث بن حنيفة البشكري - شرح القصائد السج الطوال - ١٩٣ وما بعدها .

ويذكر الخوارزمي في معقلته أنه كان ليكر اليد الطولى في صدهم (١) :

مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ آيَا	ثَلَاثُ فِي كُلِّهِنَّ الْقَضَاءُ
أَيُّهُ : شَارِقُ الشَّقِيقَةِ إِذْ جَا	وَمَا جَمِيعاً لِكُلِّ حَيٍّ لَوَاءُ
حَوْلَ قَيْسٍ مَسْتَلَكَمِينَ بِكَبْشِرٍ	قَرْطُوسٍ كَانَهُ عِبْلَاءُ
فَجَبَّهْنَاهُمْ بِضَرْبٍ كَمَا يَخْدُ	سَرَجٌ مِنْ خُرَيْمِ الزَّوَارِ الْمَاءُ
وَجَلَنَاهُمْ عَلَى حَزْمٍ نُهَلَا	نَ شِلَالاً وَفُتًى الْأَنْسَاءُ
وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ الدُّدُ	لَهُ وَمَا إِنْ لِلْحَالَتَيْنِ دَمَاءُ

هذا ما قاله البكريون وهم القائلون بحكومة الحيرة . أما معقلته عمرو بن قُلقُم ، فلها تصور لنا إيذاناً قوياً ، وغصياً عنيداً لملك الحيرة :

بَأْيٍ مَشِيشَةٍ عَمْرُو بْنُ هَنْدٍ	نَكُونُ لِقَيْلُكُم فِيهَا قَطِينَا
بَأْيٍ مَشِيشَةٍ عَمْرُو بْنُ هَنْدٍ	تُسَطِيعُ بِهَا الْوَشَاةُ وَتَزْفِرُنَا
تَهْدِدُنَا وَأَوْعِدُنَا وَوَيْدَا	مَتَى كُنَّا لَأَمْكُ مَقْتُونَا

ثم انتقل إلى تذكره بقومه وبقوتهم ، وهو بذلك يهده ويذكره بما فعله قومه من حلولوا الليل منه ومن قومه فيقول :

فَلِنْ قَنَاشَا يَا عَمْرُو أَمِيتُ	عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَلَّا تَلِينَا
إِذَا غَضُ الثُّغَافِ بِهَا انْشَاعَزْتُ	وَوَلَّتْهُمْ عَشَوَزْنَةُ زَيْوَنَا
عَشَوَزْنَةُ إِذَا انْقَلَبْتُ أَوَّلْتُ	تَدَقُّ قَعَا لَلْفَقْرِ وَالْجِينَا
فَهَلْ حَقَّقْتُ فِي جُفْهِ بْنِ بَكْرِ	بِتَقْصُرِ فِي خَطُوبِ الْأُولِينَا (٢)

وعكلاً نرى أن الحيرة لم تمارس نفوذاً عسكرياً . إن صح التعبير . حل القبائل العربية كما فعلت كتلة ، لقد ورثت نفوذها وصاحبت القبائل العربية حل استصاها ولكنها لم تستطيع أن تمارس التأثير الفعال على جبهة القبائل العربية . لقد وصلنا أخبار عن إهم وواقع للحيرة مع بكر وقيم وتغلب وأسد ، وسنعرضها بزيادة من التفصيل في موضعها من البحث .

ويبدو أن الصلات نظمت بين القبائل العربية من جهة والفرس والمناذرة من جهة أخرى

(١) معقلته الخوارزمي بن حازم البكري - شرح القصائد السبع الطول - ١٩٣ وما بعدها .

(٢) شرح القصائد السبع الطول ١٠٦ وما بعدها .

على أساس التجارة ، وأن الخلافات والحروب كانت تحدث بسبب تعرض هذه القبائل لظلمتهم
للساقة عبر حى هذه القبائل ، وفي الحالات العادية كانت هذه القبائل تتولى حماية هذه التجارة
مقابل مال يدفع لها .

وكانت « القبائل المتوسطة » في نظر الحكومات النظامية تعتمد إلى حد كبير على أهمية
الطرق التجارية التي تخترق أرض الجزيرة العربية .^(١) لذلك كانت هذه القبائل معرضاً لاطّباع
اليمن حيناً ولإطّباع الحيرة حيناً آخر . وقد مارست هذه القبائل عهدين من التبعية لليمن أولاً
مبتدئاً في إمارة بختنك ثم للحيرة . ووضح هذه الحقيقة يفسرنا كثيراً من الحروب التي كانت
تشارك فيها هذه القبائل حيناً ضد الشرق وحيناً ضد الجنوب .

على أن هذا التاريخ غامض فعرض التجارة نفسها خلال الجزيرة ، فلم يصلنا الكثير مما
يفسر لنا طبيعة تلك العلاقات والحروب ومتى انتقلت التبعية وكيف ، لكننا مع ذلك نحاول
تلمس الحقيقة ببعض الإشارات التي وصلتنا .

وكانت هذه القبائل على ما تردده من معاني العزة والشهامة والغوة تُشرف كثيراً إذا وجد
أفرادها الخطوة لدى الحكومات النظامية^(٢) ومن صور الشرف : الرّدقة وهي أن يجلس الملك
ويجلس الرّدق عن يمينه ، فإذا شرب الملك شرب الرّدق المرافق ، وكانت الرّدقة في الجاهلية لبني
برمouc لأنه تُعقد بها الكفوا عن الغارة على العراق^(٣) ، وقد ثارت برمouc عندما حاول النعمان بن
المطهر تسليم الرّدقة لبني مجاشع ونجح عن ذلك يوم طيخنة الذي هُزمت فيه برمouc جيش المنذر ،
وقلت الرّدقة فيها^(٤) .

ومن صور الشرف : الأكال وهو نوع من القطائع ، عرفها ابن الأعرابي بأنها الليرة التي
يمتلون بها في الجذب . والأكال : مأكّل الملوكة ، وهي ما يجعله الملوكة لن يشرفوهم .^(٥) .

ومنها المشاركة وهو ولاية الجباية على الأرياف ، كان ملوك الحيرة يعتمدون إليها لإرضاء
بعض القبائل للتمرد والغوية التي يفتشون متاعب نسيبها لهم . ويمكن هذه القبائل بنفوذها من
الجباية .^(٦)

(١) مقدمة ديوان لبيد بن ربيعة تحقيق إحسان عباس ٤ .

(٢) المرجع السابق ٤ .

(٣) أنظر المسان مائة « ردقة » .

(٤) النقائص ١ / ٦٦ ، الكامل لابن الأثير ١ / ٦٤٩ .

(٥) المسان مائة « أكال » .

(٦) المسان مائة « شرف » .

ولكن في هذا التشريف مصلحة للطرفين ، فالقبيلة تفرح بذلك ، لأن تلك الممالك كانت أرقى حضارياً وسياسياً من تلك القبائل ، وفيها مصلحة للملوك الحيرة لأنهم بذلك التشريف الرمزي المعنوي يضمنون ولاء القبيلة ، وعدم تعديها على مصالحهم ، ويكونون عوناً لهم على أعدائهم . ولم يكن القرب إلى الملك ليقبل ويخبر بهذا التشريف لو أهينت قبيلة .

بقي من هذه الممالك مملكة حسان ، التي سكنت شرقي الأردن على أنقاض الضجاعة ، وسط ملوك حسان نفوذهم على عرب الشام ، وساعدتهم في ذلك الرومان ، وظلوا كذلك حتى سنة ١٣ هـ ، عندما هزمت جيوش الروم في موقعة اليرموك .^(١)

وقد جعلهم الرومان حصناً منيعاً ضد القبائل العربية الناجحة لحدود الإمبراطورية كما هيئهم حصناً قوياً في وجه المناذرة حلفاء القيس في الحيرة . واستقطبت كل من الإماراتين القبائل العربية المجاورة لها ، المناذرة جمعوا حولهم عرب نجد والعراق ، والغساسنة عرب الشام وشمال الجزيرة .

ولكن الذي لا شك فيه أن الغساسنة لم يتوغلوا في نفوذهم في الجزيرة كما فعل المناذرة ، وسبب ذلك أن الحيرة كانت تدعم صلاحها لمصلحة تجارية ، وكانت تعمل ذلك حماية لمصالح الفرس ومصلحتها . كما أن غطوع الحيرة للفرس الذين كانت لهم سلطة في اليمن دعمت مركزهم ، كما كانت لليمن سلطة على القبائل . كل هذه العوامل مكنت من نفوذ الحيرة على بعض القبائل العربية كما تعددت أشكال هذا النفوذ وصوره .

وقد دخلت القبائل العربية في الصراع الدائر بين مملكتي الحيرة وحسان فاستقطبت كل منها بعض القبائل ، الحيرة ومعها عرب العراق وبعض قبائل نجد ، وحسان ومعها عرب الشام وبعض القبائل الناجحة لها وتسكن الشمال الغربي للجزيرة العربية .

وبعدئذا الرواة والإخباريون أن ملكاً من ملوك الغساسنة لقي دعوة ملك بن العجلان الحزرجي لانتزاع السلطة من اليهود والنصارى الأوس والخزرج الذين تربطهم بالغساسنة رابطة انتسابهم إلى الأزد .^(٢)

وإذا تبعنا الأيام التي وصلت إلينا أخبارها وجدنا أن الغساسنة كانت لهم أيام مع قبة (يوم انقسم ريزاعة) ، وطيحان (أمر) ، وأسد (فرحرح) ، وشطب (المراد) ، وبرمخ (خول)

(١) تاريخ الإسلام السياسي - حسن إبراهيم حسن - ٥٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٥٩ - ٦٥٨ ، الأملاني / خلاصة ٢٢ / ١٠٢ .

الثاني) . وهذه الأيام قليلة العدد إذا قيست بأيام العرب الكثيرة . كما أن هذه القبائل كانت متاخمة في منازلها لمنازل حسان ومراعبيها ومتاخقة لغزوئها .

ونجد في شعر عبيد بن الأبرص والتابعة وغيرها إشارات إلى طبيعة العلاقات بين قبائلهم ومملكة حسان .

ونقول أن طبيعة أيام حسان وهذه القبائل كان يتخذ شكلين ، أما إغارة هذه القبائل على ممتلكات حسان ، أو حملة تأخيرية يقوم بها جيش الغساسنة لإحدى هذه القبائل .

الفصل الثاني

دوافع الحرب في المجتمع الجاهلي

طبيعة البدوي

قبل أن نخوض في بيان دوافع الحرب في العصر الجاهلي ، نود أن نبحث بشيء من التفصيل طبيعة هذا البدوي الجاهلي الذي كان فارس هذه الحروب ووقودها ومحركها ، وأن نبحث العوامل التي جعلته بهذه الطبيعة وهذا الخلق .

وكانت البيئة وما تميزت به من تيلين ويطاف ، وسرقاظة وبرد قارس ، واتساع صحرائها من أول العوامل التي أثرت على هذا العربي وخلقه . وقد فرضت الصحراء على العرب اتساعاً خاصاً ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولاً ، وصارت لهم على مرّ السنين جيلة ونظرة .^(١)

وأول أثر من آثار الصحراء على العربي أنها جعلته قوي الشكيمة ، صعب المراس رفيق سلاحه وفارسه ، يفرغ إليهما لدفع عدوان المعتدي ، ويفزع عليهما ليكسب قوته ويحفظ عليه حياته ، كما يفزع إليهما لينتقل من مكان إلى آخر طلباً للماء والكلأ . وفي الصحراء لا حيلة إلا للقرية ، ولا احترام للقبيلة ولا لقرد إلا إذا كان قوياً ، إن كان قوياً هابت القبائل ، وإن كان ضعيفاً تكالبوا عليه . ومن هنا لم يقدس العربي شيئاً مثل تقديسه البطولة والشجاعة .

والعربي في هذه الصحراء الشاسعة ، والتي لم تنظمها حكومة مركزية واحدة قوية ، ينضمون تحت لوائها ويخضعون لها ، لم يجد شيئاً يحد من حريته الشخصية ، وإن حدثت نقابيد القبيلة حريته الاجتماعية ، إلا أنها لم تؤثر في حريته الشخصية ، له مطلق الحرية أن يقول ما يشاء وأن يفعل ما يشاء ، على ألا يعطسهم ذلك بدستور القبيلة العربي . ومع ذلك الحظيوع

(١) الفتوى عند العرب - عمر الدسوقي ٢١ .

للقانون العربي القبلي فلم يكن يخضع له دوماً ، وقد رأيناه يخرج على هذا القانون وينطلق إلى الصحراء بعد أن خلعتة قبيلته ، ويتجمع في جماعات للإغارة والغزو ، سميت بالصعاليك .

فالعربي في الجاهلية محب للحرية والحرية هي « الأمر الوحيد الذي اتفق أن يتمتع به »^(١) في تلك البيئة النجدية . وحب الحرية جعله يألف من الظلم وأبواه نفسه ويرفضه ، ليس رفضاً سلبياً ، بل يحاول أن يزيله ، ولقد لقي الكثير من سادات المجتمع الجاهلي مصرعهم على يد شعوبهم أو قبائلهم على الأصح ، فحُجِرَ قتلُه أَسَدَ لظلمه ، وزهير بن جذيمة هُوَزَنَ ، وكُتِبَ بن وائل قتلُه بِكَرْلَانَه طغى وبنى .

وهذا التخليص للحرية جعله لا يؤمن إلا بالمساواة ، ويمتور القبيلة العربي قاز أساساً على هذه الفكرة ، فكل أبناء القبيلة يتساوون ، وحتى سيد القبيلة لم يكن يخاطب بالفاظ التمجيل والتضخيم ، ولا ينال احترامه إلا بما يقتضيه للقبيلة ، وهو مثلهم يحلسون إليه ، ويناقشونه ، ويعدلون خططه ، ويدون رأيهم في كل صغيرة وكبيرة .

والبدوي كان يحب قبيلته ، ويغنى في إخلاصه لها ، والعمل على رفع شأنها وإعلاء كلمتها ، ونعصبه لها ، كل ذلك جعله « يتجاهل غيرها ، ولا يعترف بحق الخيالة أو الملكية أو التمتع لأحد سواها »^(٢) وقاده هذا الاعتقاد إلى إهدار حقوق الآخرين واستباحتها لنفسه ما دام قوياً بملك القوة والفرصة المؤانية ، وكان يرى أن القوة والقتل والغارات هي التي تجعل الآخرين يرهبون جلته ويمسكون بحسابه .

والبدوي في تلك البيئة التي لا تستقر على حال فترة طويلة ، جعلته كرمياً يوقد النار ليلاً للضيف ليرأها فيقبل نحرها ، وهو الذي يبيع كل ما هو ملك لغيره . وهذا ما جعل هذا التصرف يبدو متناقضاً مع تصرفه الثاني ، ولكنه في الحقيقة عندما يكرم فإنه يكرم وهو حر لا يبيعه أحد على ذلك ، ولأنه يعتقد أنه لا بد يوماً أن تقوده رحلته إلى مكان قفر فيجد من يكرمه ، ولأنه عندما يكرم فإن ذلك يجعله مشهوراً في المجتمع القبلي ، تتسامع به القبائل ، ويتغنى بكرمه الشعراء . وربما كان الشعور المشترك بشعبهم ومجزمهم تجاه مشاق الطبيعة القاسية العنيدة أنشأ فيهم الإحساس بحاجة ماسة إلى تقديس الضيافة^(٣) .

والعربي محب لنفسه وعشيرته ، وانتهى البعض بالاثنية ، وحب نفسه وعشيرته هذا جعله

(١) حضارة العرب - لويون ٧٢ .

(٢) تاريخ الأدب الجاهلي - علي الجندبي ١٠١ .

(٣) تاريخ العرب مطول - فيليب حبي ٣٢ / ١ .

يبلغ في فهم معنى الشرف ، « فالتعصبة الجنسية ، والأثرة ، وحجب الظهور ، والمبالغة في معنى الإيذاء والعزة والشرف » أوجدت فيهم الحمية الجاهلية فكانوا يشعرون لأفقه الأسباب ، ويدخلون المعارك ، ويزعمون الأرواح في سرعة وظهور ، دون أدنى تفكير^(١) .

وكانت المرأة تحاط بسياج متين من القيود للمحافظة عليها وكانوا يحافظون على شرفها ، ويشرعون رعايتهم بسببها . وقد بلغ الخوف على شرفها من عار بهيبتهم ، أن وأدوها وهي في المهد حتى لا تجلب العار . وفي الحروب عندما كانت تسي ، كان شعراء القبيلة التي سبت يتغنون بليلك مفتخرين على الأعداء ، يقول امرؤ القيس غاملاً شهاب بن شداد بن ثعلبة :

إِنَّا تَرَكْنَا مِنْكُمْ قَتْلَ وَجَرَ حَسَى وَبَايَا كَالسَّعَالِ
مَمْسُونِ حَوْلَ إِحْيَانَا مُعْتَرِفَاتٍ بِجُوعٍ وَهَزَالٍ^(٢)

ويزعم شوبر بن يزيد الخارثي أنه أخذ امرأة عامر بن الطفيل يوم فلف الريح فيقول :

وَكُنَّا إِذَا قَيْسِيٌّ فَهَيْتَ بِنَا جَرَى دَمْعُهَا مِنْ عَيْنِهَا فَتَحَنَّنَا
مُخَافَةً مَا لَأَقَتَ حَلِيلَةً عَامِرٍ مِنَ الشَّرِّ إِذْ سَرَّ بِأَلْمَا قَدْ تَعَفَّرَا^(٣)

وربما كان من المبالغة في المحافظة على العرض تزوج الرجل بزوجة أبيه بعد وفاته ونحو ذلك من العادات كانت تتم عن حرص ومبالغة في الحفاظ على الشرف .

واجتماع الفطر والحرية في تلك البيئة نشأ عنها عدم احتجاب الضيم والثورة لأفقه الأسباب^(٤) لأن العربي الذي حرم ثوب العيش وضمان حصوله عليه بجهد قليل قد غَوَّضَ عن ذلك النقص بحساسية مفرطة ، فلا يكاد يمتثل أي ضيم لو أذى بلحق به ، أو يتخيل أنه سيلحق به .

وكانت القبائل في هذا المجتمع تتباهى وتختلف في السيادة وضمان الحرية للأفرادها والسبعة اللاتفة ، وأسهمت الأسواق والمواسم في هذا التباهي والتفاخر ، فأصبح الفرد منهم محباً للزهو مبالاً إلى المبالغة وحجب الظهور ، فكان ذلك سلاحاً ذا حدين ، فمن ناحية كان داعياً إلى التجدد لئلا يتأخر عن صنع المعروف ، ومن يد العون ، وحماية الضعيف ، وتزوي الضيف ، وحماية اللاجئين ، والدفاع عن الجار ، وغيرها من لئلا التي قدسها العربي في ذلك الوقت واقتصر بها ،

(١) تاريخ الأدب الجاهلي - علي الجنتي ١٠٢ . (٢) ديوان امرؤ القيس ٢٦٠ .

(٣) تاريخ الثقافتين - أحمد الشاذلي ٣٢ .

(٤) العقد الجديد ٢٣٦ / ٥ .

كان داعياً إلى تجميعها لأنهم يتباهيهم بفعلها يدفعون الآخرين إلى الإسراع في عملها أو التحلي بها . وهو من ناحية أخرى كان مدعياً لأرتكاب بعض الحماقات التي ربما جرت إلى الولايات .

والبدوي محافظ على عهده ملتزم به ، ولو أدى به إلى أوجع العواقب ، ففي يوم شغب جبلة لقي جمعٌ منهم وحلفائها حرب بن صخر بن فلالوا : أين تلعب ، أتريد أن تنذر بنا بني عامر ؟ قال لا ، قالوا فأعطنا عهداً ، فأعطاهم ، فخلعوا سيده فمضى مسرعاً إلى عامر ، ولكنه أبى أن يخبرهم ، وقال لست فاعلاً ولكن إذا رحلت فأتوا منزلي فإن فيه الخير الخ الخبير^(١) وقصص الأهم مليئة بهذه الأخبار التي تحدث عن التزام البدوي في المحافظة على العهد (انظر قصة أبي عليل البريوي مع بكر حبيبا قتل أخاه علفمة وأخذت عليه عهداً)^(٢) .

ولئن كانت فلة الماء وشدة الحر ومشقة السفر وأفة الفحط كلها أضاءت لزورت على البدوي في أحواله العانية ، فإنها في الوقت نفسه ، إذا ما انتابه العدو أحلاف تقوم بمناصرته ونجدة ، فلا عجب إذا رأينا البدوي ينذر أن يطأطىء رأسه تحت نير أجنبي^(٣) .

ويقول ولي هورانت في « قصة الحضارة » إن البدوي كان يحب الصحراء القاسية لأنه يتمتع بكامل حريته فيها ، وكان البدوي رحباً وسفكاً للدماء ، كريماً وخيلاً غادراً وأميناً حقراً وشجاعاً ، ومهما يكن من قدره ، فإنه كان يواجه العالم بمهابة وألفة ، يزهو بثقاة دمه ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نهب^(٤) .

ولكي يصحح هذا القول وانحأ تعقب بأن هذه الصفات المتناقضة التي جعلها صفات للبدوي ، إنما هي صفات لظروف مختلفة ، فهو كريم عندما يحس بأن الكرم واجب ، وهو بخيل على الناس عندما يجد مبرراً في نفسه لهذا البخل ، وهو رحيم عندما يكون غير مظلوم وهو رحيم بأقاربه وبفوي رحمه ، ولكنه سفك للدم عندما يحس أن حمله قد استبيح أو أنه يحارب قبيلة لئلا من هزيمتها له ولقومه وأسفكها دمه . وأما الغدر فلم يكن إلا في مفهوم الخيلة والمقاجة في الحروب ، وقد يلجأ إلى الغدر إذا كان موقوراً ، ولا يجد وسيلة للأخذ بثأره إلا بالغدر كما فعل الحارث بن ظالم المري عندما قتل خالد الكلابي^(٥) ، وكانوا يعتبرون أن هذا الغدر ضرورة حربية .

(١) الفقايس ٢ / ٦٦٠ . ٦٦٠ .

(٢) المقد الفريد ٥ / ١٩٠ .

(٣) تاريخ العرب مطول - فليب حتي ١ / ٦٩ .

(٤) قصة الحضارة - ولي هورانت ١٣ / ١٣ .

(٥) انظر يوم رجرجان الذي الفقايس ١ / ٢٣٦ .

وعلى الرغم مما يتهم به البدوي من فردية وأنتية^(١) ، فإن هذه الفردية تلدوب في أغلب الأحيان أمام النزعة القلبية وهنا يبدو التناقض الظاهري في خلق البدوي ، فهو على فردية للسرفة لا يتردد في التضحية بحياته في سبيل الجماعة ، وهو ليس بتناقض - فيما نعتقد - لأن فردية يتمسك بها ما دامت لا تؤثر في الجماعة ولا تضر ، فإذا ما تعرضت نبذها ، ولقد رأينا القبط الأهلبي الذي كان في بلاط كسرى كنياً ، لا يتردد في إختيار قومه بما اعتزمه كسرى من غزوهم^(٢) ولم يفكر فيما سيعرض له من خطاب إذا ما علم كسرى ، كان كل همه أن ينجذ قومه بتحضيره إليهم .

ولم يتج هذا العربي من مهام المستشرقين الذين حاولوا أن يتألوا من كل ما يعتز به ، يقول ديفرجيه بعد أن يتعمد بأنه جاع الاقتصاد « وليس بمستبعد أن يأخذ العربي للخصائص جعل جاره طوعاً أو كرهاً ، ويصنع منه طعاماً ليعمن في إكرام ضيوفه ، والكرم أفضل فضائل الأعراب ، ويعلم الأعراب أنهم ما اتصفوا به أنهم »^(٣) .

ويقول رينان « ولم يظهر بأسها ورسالتها إلا بعد القرن السادس من الميلاد » ويرد لويون على ذلك قائلاً « إن هذا الرأي فاسد أول وهلة ، ولو لم نعلم شيئاً عن ماضي العرب ، فإن أمكن ظهور حضارة أمة ولغتها بفتة على مسرح التاريخ لا يكون هذا إلا نتيجة تضج بطنه . فلا يتم تطور الأشخاص والأسم إلا بالتدريج »^(٤) .

دوافع الحرب :

وقبل الخوض في دوافع الحرب في ذلك العصر ، نود أن نتأقش رأياً لأحد الباحثين فيه « إن العربي لم يكن يجب الحرب » ، وهو يورد أدلة على قوله ، منها : « وصفهم لها بأنها جنسية منكرة ، ولعنهم الحرب ومن تسبب فيها ، وتلوه الأبطال منها ، والتخلص من مسؤوليتها ، والدعوة إلى السلم والصلح بين المتنازعين ، وأما ادخلوهم في الشعر بأنهم أبناء حرب فإن ذلك من قبيل القبح »^(٥) .

وهذا القول خطير لو أخذناه على حواخته دون مناقشته وتوضيح ما قصده قتله ، لو ما كان يقصده ولم يصرح به ، لأننا لو سلمنا بذلك ، فكيف نعلل الحروب القادمة التي دامت قرابة

(١) انظر بلاشير / ١ / ٣٣ ، وقليب حسي / ١ / ٣٥ .

(٢) التناقض / ١ / ٣٠٥ .

(٣) حضارة العرب لويون ٧٢ .

(٤) المرجع نفسه ٨٧ .

(٥) شعر الحرب في العصر الجاهلي - حل الجفدي ١٣١ .

قرنين من الزمان ولدت على الأخضر واليابس ، كيف نعللها إذا كان العربي لا يحب الحرب وهو الذي خاضها ، التصرته وانتهزم ؟

فالجزيرة العربية لم تقدس شيئاً كما قدست القوة ، وكانت تنظر إلى الفارس نظرة ملوثةا الإكبار ، فهو حاميتها ولدت القتال ، وهو الذي يضمن لحماها العزة . وكانت القوة معناها أنهم أحياء يستطيعون أن يحدوا مكاناً في تلك الجزيرة التي تحولت إلى ما يشبه ساحة حرب كبيرة تقتل فيها العشائر والقبائل ، وفي كل جانب يتصارع الأبطال وشهر السيوف وتلمع الرماح وتصبوب النبال وتلق الأعناق وتسيل الدماء (١) .

ولم تكن القبيلة ترضى بأن تسود الجبلان ، كانت ترضى أن تسود صغير السن أو الب خيل ، ولكنها لم ترض أن تسود الجبلان ، قبيلة عامر حينما علمت أن عامر بن الطفيل قد استلم لزيد الخيل دون قتال ، فجز هذا ناصيته وأطلق سراجه أثبتته وأنكرت سيادته ، ولم تعد إلى الاعتراف بها إلا مكروهة بعد لأي (٢) ، وهي التي كانت قد سودته لشجاعته وهو البخل القليل العطاء ، الظالم الجبلي الطبع الشكبر ، ومع ذلك فقد سودته لشجاعته وإقدامه .

وأغلب الظن أن العربي كان يحب السلم ويكره الحرب لو لم يكن في عصره ظروفه الخاصة ، لا حكومة مركزية تحفظ الأمن ، ولا خيرات تكفي أهل الجزيرة ، وعندها وصف العربي الحرب بأنها جناية منكورة ، فقد وصف الحرب عندما تكون بين حين تربطها صلة الرحم كتلك التي نشبت بين عيس وغيان ، أو التي نشبت بين بكر وثعلب ، أو بين الأوس والخزرج ، وعندما كانوا يلعنونها قلائم كانوا يفعلون ذلك بعد أن تعرضهم حرك الرحي بظلمها ، أما في بدايتها فقد كانت العvisية تدفعهم إلى التحام الأموال ولم تسمح في الشعر الجاهلي الدعوة إلى السلم والصالح بين المتنازعين إلا من زهير بن أبي سلمى ، والناطقة الذبياني وقليل غيرها وسط ذلك المجتمع للترامي الأطراف فهي أصوات خافتة لم تبلغ الأذان والقلوب وسط لطمعة السيوف .

وإذا سلمنا بأن ما قالوه في شعرهم من وصف للحروب ، ومن فخر بشجاعتهم هو مجرد إدعاء لا يستند إلى واقع فإننا بذلك نلغي واقعية هذا الشعر وصدقه .

دوافع الحرب في العصر الجاهلي

كانت حياة العرب في العصر الجاهلي حياة دامية حرة لا تهدأ لأزها ، ولا تعتمد لأزها ، وكانت القبائل في حركتها الدائمة المستمرة من أجل العيش والماء والسيادة لا تكاد تنفض أيديها من

(١) البطولة في الشعر العربي - شوقي ضيف ١٢ .

(٢) الشعراء الفرسان - بطرس البستاني ١١ .

وقلعة من الوقائع حتى تغررها في وقلعة أخرى ، ونحن كانت حياة القبائل العربية في العصر الجاهلي حروباً وأياماً مستمرة ، وكلما أصبحت الحرب سنة من سنن الحياة الجاهلية وشرعية مقدمة يحقون بها الحياة في هذا المجتمع الذي تسيطر عليه القوة . وتتحكم فيه . وفي ظل هذه الحياة الدامية الحمراء قامت العلاقات بين القبائل حل أساس مجموعة من القوانين : أهمها قانون العصية وقانون الثأر . وفي ظل هذين القانونين اللذين اعتادا في نفوس العرب الجاهليين صفة القداسة اضطربت حياتهم بالدم وسيطرت عليها روح الخصام والقتال . فالقبائل مؤمنة بعصيتها القبلية إيماناً راسخاً ، وهي في سبيل هذا الإيمان لا تفرط في أي حق من حقوقها ، وهي مؤمنة أيضاً بأن دماء أبنائها يجب ألا تظل ، وإنما يجب أن يؤخذ بثراها حتى تهدأ الأرواح المحمومة حول الأحداث في وقتلها الأبدية .

ولرى في بداية الحديث عن دوافع الحرب وقبل أن نخرج بالصورة النهائية لهذه الدوافع أن أبه إلى امرين :

أولهما : أن الدافع للحرب ربما كانت له جذور عميقة ، وإن بدا السبب المباشر تافهاً .

وثانيهما : أنه ربما اجمع أكثر من عامل على إشعال نلر الحرب بين قبيلتين . وبعد ذلك أرى أن أعرض لمختلف آراء الباحثين في دوافع هذه الحروب ، وبعد ذلك نخرج بالدوافع العامة لهذه الأيام .

فجورجي زيدان^(١) يرد سبب الحروب والتنازع فيما بين القبائل إلى ضعف سلطة اليمن واستقلال حرب الحجاز وبعد من سيطرتها حاج شاعرهم وأيضاً فطروا عليه من عزة النفس وإياه الضيم ، فاعتادوا يخلقون فيما بينهم لأن سيطرة اليمن قد جمعتهم قبوتها ، فلما أطلق سراحهم تنازعوا ، فنجرت بينهم حروب

وفيليب حتي :^(٢) يخالف اللذين دونوا أبعاد الأيام وسعيهم إلى إبراز الدوافع التي أدت إليها ، وتعتزهم أمر العدالة الدمية ، ويرى « أن كثيراً من هذه الحوادث بلا ريب بعثتها عوامل اقتصادية بحتة » ويرى في الأيام « منطلقاً للتدخل من شر ازدحام السكان » .

وبلاشير^(٣) يرد عوامل اللجوء إلى القوة في ذلك العهد إلى عاملين : تأمين العيش واستد

الثار .

(١) تاريخ أداب اللغة العربية - زيدان / ١ / ٧٦ .

(٢) تاريخ العرب مطوك - فيليب حتي / ١ / ٣٤ .

(٣) تاريخ الأدب العربي - بلاشير / ١ / ٤٠ .

والحرب عند العربي في ذلك الوقت كانت دافعاً لملل الحياة الرتيبة وسآمتها يدفعها بالحرب والحرب ، وهذا رأي ولي ديورانت مؤلف قصة الحضارة .^(١)

ودافع الحرب عند العربي في رأي « علي مظهر »^(٢) هو العصبية ، لأن الكلمة يفهم منها الحيلة دون مراعاة لمصلحة المجموع ، وكثيراً ما يكون هذا الحب أو تلك المساعدة ضد مصالح الآخرين . لهذا السبب قضى سكان الجزيرة حياتهم يحارب بعضهم بعضاً منشقين على أنفسهم .

أما جواد علي^(٣) فيرى أن الغالب على الأيام التي وقعت بين القحطانية والعديانية « طابع التخلص من سيطرة اليمن ومن تفوقها على العديانية » ويرى أن أكثر أسباب هذه الأيام هو « صف حكام القبائل القوية في القبائل الضعيفة التابعة لأولئك الحكام بسبب الأناوة ، أو بسبب نزاع على ماء ، أو مرضى أو أخذ لثأر ، أو محاولة للتخلص من حكم القبائل على القبيلة بظهور شخصية قوية فيها .

ويشير البهيبي^(٤) بأصابع الاتهام إلى ملوك الحيرة الذين كانوا وراء كل خلاف يقع بين القبائل العربية ، فالقبائل تلغي وتنتشر في هذا السيل ، والدعاء قهري والموت ينتلج الناس ابتلاءً ، كل ذلك تدفع إليه سياسة التفرد التي كان يركبها إذ ذاك هؤلاء الملوك ، ولا يكاد يفلت من ذلك يوم واحد من أيام العرب قبل الإسلام .

أما أحمد الشايب^(٥) فيرى أن البداوة القوية قد أدت إلى ظاهرتين طبيعيتين : القسوة الحسية والعلمي ، والفنى النفسى والتشبث بالحرية إلى أبعد الأمد لأنه يرفض التفسيرين المادي والنفسى . وقد نشأ عن هذا الفقر المادي والحرية والمسؤولية المشتركة بين أفراد القبيلة عدم إحتمال الضيم ، كما نشأ عنها الثورة لأقل الأسباب والعمل على إشاعة رهبة القبيلة بين القبائل .

ويرد التناسق في موضع آخر بين القبائل في الجاهلية إلى عاملين رئيسين : « مادي يتمثل في طمع في إبل أو مرمى أو بشر أو فرس أو متاع ما ، وأدبي يتمثل في رغبة في رئاسة ، أو أخذ بثأر ،

(١) قصة الحضارة - ولي ديورانت ١٣ / ١٢ .

(٢) العصبية - علي مظهر ٦ - ٧ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٤ / ٣٤٧ .

(٤) تاريخ الشعر العربي - البهيبي ٣١ .

(٥) الفخافس - أحمد الشايب ٣٦ ، تاريخ الشعر السياسي - أحمد الشايب ٤٦ .

أو اعتزاز بنفس، أو مفارقة بقوة، أو غضب لجار أمين أو عهد تقص، أو مجلولة لفسيه .

وفي موضع ثالث نراه يلخص الأسباب المباشرة للأيام بالطمع والرغبة في النهب والسبي ، والغضب للكرامة والشرف ، والوشايات والعوامل السياسية ، والملاحقة والمراء الذي يورث الصدور ، وحماية الجار والنجدة لصديق أو حليف أو قريب وفي سبيل الفقراء ، والمثل ، وفي سبيل النفوذ الخارجي ، ولرفع الضيم والتشيت بالحربة ، ومن أجل الرياسة وزعامة القبائل ، وحماية اللطائف ^(١) .

وهو يرى أن الحرب كانت « ضرورة للحصول على العيش ، كما كانت ضرورة لتصفين الحرية والكرامة ، ثم صارت غاية يفخر بها الشيوخ والشبان » ^(٢) .

وأكثر حروجهم - كما يرى الدكتور شوقي ضيف ^(٣) - « كان » يجرها نزاع بعض الأفراد في قبيلتين مختلفتين ، إما بسبب قتل أو بسبب إهانة ، أو بسبب اختلاف على حد من الحدود .

ويحدث الدكتور عبد الحميد بونس عن حروب عامر في « الحلالية » ويستطرد فيذكر أن الحلب الأيام كانت تدور على التناحر على البقاء بصورة من الصور ^(٤) .

وأسباب الأيام عند بطرس البستاني « النهب والسلب ، أو التزاحم على الماء والكلأ ، ومنها ما كان يحدث لأسباب تافهة تدور إليها عنجهية البدوي كحرب البسوس ولما وثقت النفع عدو غريب كيوم ذي قار وحروب اليمن والأحباش » ^(٥) .

ويراها محمد دروزة تقع لأسباب « حليفية أو شخصية أو نسائية أو نتيجة لغارات يشنها بعضهم على بعض » ^(٦) .

ويجيبها الدكتور زكي المحاسني فيجدها « النعم والمال ، والحفاظ على الشرف وإجالة المستعجب ، والشهوة والزعامة وحس التسلط ، للدفاع عن كرامة المرأة ، وبسبب المال الذي قد يكون سراً تفتله منه أحقاد الصلور كحرب البسوس » ^(٧) .

(١) التناقض - أحمد الشاب ٦٣ - ٦٤ . (٢) المرجع السابق ٣٨ .

(٣) المصدر السابق - شوقي ضيف ٦٣ . (٤) الحلالية - عبد الحميد بونس ٢٢ .

(٥) الشعراء القريش - بطرس البستاني ٢٠ .

(٦) تاريخ الجنس العربي - محمد دروزة ٥ / ١٥٣ .

(٧) شعر الحرب في أدب العرب - زكي المحاسني ٢٧ .

والسبب الرئيسي لهذه الأيام - عند الدكتور علي الجندي - عدم وجود سلطة مركزية قوية يخضع لها العرب جميعاً ، وقد عبر النابتة عن ذلك :

تعدو الذئاب على من لا يلازم له^(١) وتنتهي صولة المستأمر الضاري^(٢)
وزعيم يعبر عن المعنى ذاته :

ومن لم يلد عن حوضه بسلاجو يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم^(٣)
ويضيف إلى هذا السبب الأساسي أسباباً أخرى منها : « الصراع بين العذنية والتحتانية ، والصراع بين أهل البدو والحضر ، والتسابق على منابت الكلا ، والرغبة في التوسع »^(٤) .

وبدافع الحرب عند شاكرو الجودي وقلة الخيرات في شبه الجزيرة التي أضاعت الفقر بين سكان الجزيرة ، ولعل هذا الفقر كان أهم أسباب الغارات والحروب ، يلجأ إليها البدوي حين لا يجد وسيلة غيرها لسد حاجته ، ولعل هذا الفقر أيضاً هو الذي جعل الحياة هشة يذلها من أجل الحصول على أقله المكاسب ويضيف سيياً آخر هو :

« انقسام العرب إلى قحطانيين وعذنيين وانقسام كل منها إلى قبائل ، وكل منها يريد المغلبة لنفسه »^(٥) .

ويردعها الدكتور عمر فروخ^(٦) إلى ثلاثة عوامل رئيسية : إقتصادية ويمثل لها بحروب البسوس ، وسياسية ويمثل لها بحروب الأوس والخزرج ، وأجنية ويمثل لها بعين أباغ وحليمه .

وتتمثل عند الدكتور إحسان النص^(٧) في أربعة أسباب : بدائع الحاجة والفقر وسوء الأحوال المعيشية في بلاد العرب ، وبدائع الشر والإنتقام ، وبدائع الغضب لشرف القبيلة وسعنتها وكرامتها ، وبدائع المقاضرات القبلية .

وقبل أن نتسق هذه الآراء في بدائع كلية نود أن نشير إلى أن طبيعة البدوي وحلقه ، وسرعة انفعاله بحكم عوامل بيئية أثرت فيه كانت وراء هذه الأيام ولو احتكم إلى عقله لمنع الكثير من هذه الوقائع . كما أننا نرفض الرأي القائل بأن العربي كان يلجأ إلى الحرب دفعاً للسام والمثلل . فلم يكن العربي في جعليته إلا إنساناً متحركاً لا يكاد يستقر ، وكان يجد الكثير مما يفعل من أجل

(١) ديوان النابتة .

(٢) شرح النصائح السبع الطوال ٢٨٥ .

(٣) شعر الحرب في العصر الجاهلي - علي الجندي ١٧ .

(٤) اللامه بالرجز - شاكرو الجودي ٣٠ - ٣٢ .

(٥) حضارة العرب - عمر فروخ ٥٨ .

(٦) المعصية - إحسان النص ١٤٨ .

تأمين عيشه وعيش أسرته . كما ترفض الرأي القائل بأن ملوك الخيرة وراء كل يوم من أيام العرب في الجماعة لثانيًا في الفصل الأول أن الخيرة لم يكن لها من القوة ما يجعلها وراء كل يوم ، حقا كانوا وراء بعض الأيام ، يدفعون القبائل لمقاتلة بعضها بعضاً لتحقيقاً للرسم ، ويجبرون الحسرات أحياناً لتأديب بعض القبائل التي تعترضهم أو تعترض نفوذهم ومصالحهم . كما أن عدم وجود سلطة مركزية تحفظ الأمن كان من دوافع هذه الحروب .

ويمكننا أن نقرر الآن الدوافع الأساسية للحروب من خلال عرضنا السابق وهي :
العصية القبلية وما يلحق بها من تبعات ، والأخذ بالثأر ، والصراع على أسباب الحياة ، والصراع على مناطق الحدود والصراع حول تقاليد المجتمع القبلي ، والتمرد على سلطة الممالك المجاورة .

العصية القبلية :

العصية هي أن يدعو الرجل إلى نصرة عصيته ، والتألب معهم ، على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين ، ومنها تفهم التزام كل فرد بالوقوف إلى جانب أي فرد من القبيلة في جميع الأحوال ، فهو تعصب أصمى ، يعود إلى الكوارث ، وإلى الحروب . وكثيراً ما كان الفرد يرتكب خطأ في حق فرد من قبيلة أخرى فتناصره قبيلته ظلياً مما يؤدي إلى نشوب الحرب بين القبيلتين . لقد هجا بشر بن خازم الأسدي أوساً بن حلزة الطائي طمعاً في مال أحطى له من خصومه ، وطلبه أوس وبنا بشر إلى قومه بني أسد فكان يوم ظهر النعمان .^(١)

والعصية تعني الليل والمحاباة ، وكثيراً ما تكون هذه المحاباة ضد مصالح الآخرين ، لذا يحدث الصدام ، ففي يوم سقوان^(٢) قتلت بنو مازن وبنو شيان حل ماء يقال له سقوان ، فزعمت بنو شيان أنه لهم ، وأرادوا إجماع شيم عنه ، فاقبلوا قتالاً شديداً ، فظهرت عليهم بنو شيم . وفي حرب البسوس كان من أسبابها الرئيسية أن كليلاً كان قد اختص نفسه بالهناجات ، وهي موارد المياه والمرعى ومنع بكرة من ارتيادها ، وقصرها على نفسه وقومه ، فشك ذلك على جساس وإبعوته ، وكانت قصة ناقة خالة جساس المشاورة التي أشعلت نار الحرب .^(٣)

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٦ .

(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٠١ .

(٣) مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٥ ، أمثال العنبي ٥٦ .

٥ تين لي بأنه أحاول توثيقها أن الخبرة والفلسفة واليمن والفرس واليهود في ثوب كانوا وراء كثير من الأيام الجماعية ، وهذا ما قد أعرض له في بحث مستقل إن استطعت توثيقه بالتفصيل والأدلة . أما ما أثبتت هنا فهو رأيي حتى الساعة .

والعصية تعني تفوق الجنس أو النسب الذي تنتمي إليه القبيلة حل الأنساب الأخرى ، وهذا الإحساس بالتفوق جعلهم يضخرون به ، ويحطون من شأن غيرهم وكثيراً ما جرت عليه المنازعات القبلية التابعة من إحساس الفرد بأن نسبه لا يتفوقه نسب . ففي يوم الفجار الأول جلس بنو بني مضر الكنتاني في سوق عكاظ ، ومدّ رجله وقال : أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها ، فضربها الأحمير بن مازن من هوازن قاتلاً له : ضلعا إليك أيها المختلف . وتجاوز الحيان عند ذلك حتى كاد أن يكون بينها الدماء ، ثم تراجعوا ^(١) .

وفي يوم طيخة الذي كان سببه أن الرذالة كانت لبني يربوع ، فسأل حليج بن رولة النعمان أن يجعلها للمحاربين فرط بن سفيان بن عياض ، وسأله النعمان بني يربوع ، فأبوا عليه . فقلوبهم : إن بني يربوع لا يؤمنون ودانهم إلى غيرهم ، وأرسل إليهم النعمان جيشاً فهزموه وأسروا ابنه قابوساً وكلداً أختاه حسان بن المثنى ^(٢) .

والعصية تدعو كل فرد في القبيلة أن يهب للدفع كل عدو غريب عن القبيلة يحاول النيل منها ، أو ظلمها أو انتقاص حقها . والوقائع التي حدثت بسبب هذا كثيرة ، ففي يوم جحر ثارات أسد عل جحر الكنتاني وقتله غير آية بقوة مملكته ، ولا بما سيحل بها ^(٣) . وعندما وجدت هوازن القرصة مؤانية لها راعها فتك بزهر بن جذبة العبي ^(٤) ، بل إنهم لا يأبهون بالملك إن حاولوا النيل منهم ، وما فعله عمرو بن كلثوم بعمر بن هند بخالية حل أحد ^(٥) . وهذا البراءة الكنتاني لا يرضيه أن يسمع عروة الرجال يزعم أنه سيحمي لطيفة الملك في أرض الجزيرة حتى تصل سائلة فيهرض به حتى يقتله مثيراً بذلك حروب الفجار ^(٦) .

ويستطيع أن نفهم إن يوم ذي قار قد عملت العصية عملها بتمسك بني شيان خاصة وبكر عاملة بخلفه النعمان ورفضهم تسليمها ، كما فسروا تهديد كسرى لهم ، بأنه محاولة للنيل منهم وقتلهم ، وحده من حريتهم ، لذا نجد أنهم قد رفضوا الشروط التي عرضها كسرى عليهم ، حلها إليهم النعمان بن زوجه التغلبي ، واعتبروها مساساً بحريتهم ، وأن تضيقها يوجب لهم العار بين القبائل .

والعصية القبلية تفرض على أبناء القبيلة حماية من التجأ إليهم ، وتطلب إليهم أن يهروا

(١) المقد الفريد ٥ / ٢٥١ .

(٢) المقد الفريد ٥ / ٢٣٤ . الكامل لابن الأثير ١ / ٦٤٩ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١ / ٥٦١ - ٥٦٢ . (٤) المقد الفريد ٥ / ١٣٥ .

(٥) شرح القصائد السبع الطوال ٣٦٩ . (٦) المقد الفريد ٥ / ٢٥٣ .

غاضبين إن رأوا جوارهم أمهرن ، بل نراهم يبالغون في إكرامهم فيرفضون نصف الدية له إن قيل
 كما كان العرف الجاهلي يقضي ، فحرب سبي بين الأوس والخزرج كان سبها المباشر إن رجلاً
 من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان يقال له « كعب بن العجّالان » نزل على مالك بن العجّالان
 السلمي الخزرجي فقتله الأوسي بسبب مفارقة ، فأرسل مالك الخزرجي إلى بني عمرو بن نوف
 يطلب قتله ، فأجابه بأنهم لا يدرون من قتله ، وعرضوا عليه الدية فطلب دية كاملة ، ولجج الأمر
 بينهم حتى آل إلى المحاربة ، فاقتلوا وقتلوا الأوس . ثم حكوا فيما بينهم الشلر بن حرام
 التجاري الخزرجي وأنهى الأمر^{١١} . والبسوس خالة جساس ، عندما قتل كليب نالتها وسراب^{١٢}
 وصاحت وطلبت من بني بكر حملتها وحملها ما ثلثك وهب جساس ليأخذ بثأر جاره ومخلته ،
 فكان مقتل كليب ، وكانت حرب البسوس^{١٣} .

والعربي يحمي حماء ، ولكنه يستنحج حتى ظهروا إن وجد لديه القوة ، ووجد الضعف عند
 جيرانه . وهذا ما دعاه إلى التوسع ، وكانت كل قبيلة تسعى إلى توسيع رقعتها كلما وسعها ذلك .
 واستباحة حتى الغير لم تكن إلا بهدف الحصول على ما يها من مزاي لا يجدها في حماء ، كالكلأ
 والماء ، لأن العربي لم يكن يعنيه التوسع إلا من هذه الزاوية . ونستطيع أن نجد حروب بكر
 وغنم في غالبيتها من هذا القبيل ، فقد كانت أرض غنم أنصب مما جعلها هدفاً للفرسان بكر
 وغنمهم . كما نجد هذه الظاهرة في حروب الخزرج والأوس حيث طمع الخزرج في منازل بني
 قريظة ، فهدوهم بقتل رهنهم أو إخلاء ديّارهم^{١٤} وكانت قريظة والنضير قد قبلوا محالقة الأوس
 ضد الخزرج في يوم الفجار الثاني .

والحفاظ على الشرف مثلاً في المرأة شيء مقدس لدى أفراد القبيلة ، ولذا فإننا نجد أفراد
 القبيلة يهونون جميعاً حينما يتعرض أحد لإحدى نساء القبيلة ، عاولاً النيل من شرفها ، ففي يوم
 الفجار الثاني كان الذي هاجه أن ثية من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر بن صعصعة بسوق
 عكاظ ، وكانت وضعية حسنة ، فسألوها أن تسفر لهم عن وجهها ، فأبت عليهم ، فأتى أحدهم
 من خلفها فشد ثيابها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت تقطع اللوح عن دبرها . فضحكوا
 وقالوا : متنتا النظر إلى وجهها فقد رأينا دبرها ، فنادت المرأة : يا عامر . فتجاوز الناس ،
 وكان بينهم قتال ودعاء يسيرة فحملها حرب بن أمية^{١٥} ويروي صاحب الأغاني خبراً عن أبي
 عبيدة مضمونه أن عجزاً من هوازن أتت زهير بن جذعة العسي ، وكانت هوازن تدفع لزهير

(١) الكامل لابن الأثير / ١ / ٦٥٨ - ٦٥٩ .

(٢) أمثال الضبي ٥٥ .

(٣) الكامل لابن الأثير / ١ / ٦٧٨ .

(٤) المقادير ٥ / ٢٥٢ ، المعتمد لابن دشتي ٢ / ٢١٨ ، الأغاني / ثلاثة ٢٢ / ٦٢ .

إتلاوة كل عام، يسمن في يحيى، فاعتلرت إليه، وشكت السنين التي تاتين على الناس فذاته فلم يرض طعمه، فدعها بقوس في يده عطل في صدرها، فاستطقت لخلاوة القفا فهدت عورتها، ففقتبت من ذلك هوازن، وحطت عليه إلى أن قتله خالد بن جعفر بن كلاب^(١) وبعده شأس بن زهير من عند النعمان بن المنذر، وبتزع ملاسه ليقتل بالفرب من بيت رباح ابن الأسلم القنوي، ويطلب منه رباح أن يستر لانه بين البيوت وامرأة رباح تنظر إليه فبرمه رباح فيقتله^(٢).

والحرية الشخصية من أثر العصبية القبلية، تلك الحرية التي أشاعت القوضى وجعلت القبيلة للقوة والبطش، والسيادة للظلم والطغيان. ولم تكن القوة لتكفي بل لا بد من ممارستها حتى يعترف الناس بقوته، ويتهيأ أن يظلم الناس حتى لا يظلموه:

ومن لا يكد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم^(٣)

والحرية الشخصية هي التي أباحت للمراض الكتاني قتل سيد عامر عروة الرجال، وجنى ثمار هذه القبلة كل من الحوين كنانة وهوازن أسوأ ما يكون الجني، قتل وفوضى وانتهاك للأشهر الحرم^(٤). وهي نفسها التي أباحت لجساس بن مرة البكري أن يقتل سيد بكر ويطلب، كلياً، زوج أخته، دون الرجوع إلى والده ورئيس بكر ودون استشارة أحد، فكان أن فر وحمل قومه وأبناء عمومته دماء بريئة وحرباً دامت أربعين سنة^(٥) وهي نفسها التي جعلت زرداً العبيسي يراهن حليقة بن بلز القزاري على فرسي قيس بن زهير، وقيس حينئذ بمكة، ولم يرض حليقة أن يلفي الرهان عندما عاد قيس، وكان أن جر ذلك الرهان الشوم والويلات للمحيين، وأعرفت الدماء من كلالا الجفانين^(٦).

فالحرية الشخصية كانت تعطي الحق للفرء في القبيلة أن يتصرف أحياناً تصرفاً بعيد الأثر في مستقبل علاقات القبيلة ووجودها.

وقد مر بنا أن الرياسة لا تزال في نصائبها المخصوص من أهل العصبية، لأن الرياسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية. ولهذا ترى القبائل التي تنتمي لأصل واحد تخضع لرئيسها ما دامت عصبية هذا الرئيس قوية، ويبقى خاضعة ولكنها ترمص به، حتى إذا

(١) الأغانى / كتاب ١١ / ٨٣.

(٢) المصدر السابق ص ٩١.

(٣) العقد القرئذ ٥ / ٢٥٣، الأغانى / كتاب ٢٢ / ٦٣.

(٤) صبح الأسفل للمبدئي ٢ / ٥٢٩.

(٥) الكامل لابن الأثير ١ / ٥٧٠.

ما وجدت غرضاً للاستقلال عنه ، لو انتزع السيطرة والسلطة منه ، ثارت عليه لوجارته ، لتحقيق نفسها الرياسة ، والأسباب الحقيقية لحروب الأوس والخزرج من هذا النوع ، فالأوس والخزرج لبيتان من أصل واحد ، كانت السيادة للخزرج فتصتها عليه الأوس ، ومن هنا نشبت الحروب بين القبيلتين متلوعة بأسباب ظاهرية .

وحرب داحس والقيراء نجد فيها كذلك صراعاً على الرياسة ، فقد كان زهير بن جذيمة زعيم غطفان ، وامتد نفوذه إلى هوازن ، ثم قتل ، وخلفه على زعامة عيس قيس بن زهير ، وحاول أن يكون زعيماً كآبيه على عيس وذيبيان ، فتصدت له فرارة بزعامة حطيفة وإخوانه وكان الزمان بداية الحرب الطويلة الطالعة في سبيل الزعامة ، ولم يكن هو السبب الوحيد للحرب ، بل كان الشرارة .

وقد يكون التناقص على الرياسة ، داخل القبيلة الواحدة ، بين بطونها . ففي حروب الأوس والخزرج كان زعيم الخزرج عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي ، وكان الناقس الرئيسي له من قومه عباد بن أبي بن سلول ، وقد ظهر الخلاف بينهما واضحاً يوم الفجار الثاني للأنصار حينما لم يفره على فعلته بالرهائن اليهود وبناه عن قتلهم ، وقتل الأوس وقال له : كأي بك وقد حلت قبلاً في عيادة بملك أربعة رجال فولم يقتل ابن أبي هو وقومه أحداً من الغلمان وأطلقهم^(١) .

وحدث مثل هذا بين ابني وائل ، بكر وتغلب ، فلقد كان كليب رئيس القبيلتين وقادما في حروبهما وحقق لهما الكرامة والسيادة بين قبائل معد . ثم حدث أن بدأ أبناء حمومة وأصهاره أبناء مرة وعلى رأسهم جساس بمسدونه على مركزه وانتهز فرصته للفتك به . متلوعاً بأنه بغض وظلمهم وحس المراعي الحصنة والمياه قتل جساس ، وكان مقتله بداية حرب غروس فشكت بالقبيلتين ، فقتلت زعماءهما ، وشردت تغلب بعيدة عن منازلها بعد هزيمة في يوم إحصاة ، وباعدت بين منازلها ، ومات قائد تغلب وزعيمها بعيداً عن قبيلته في الأسر .

الثار :

وهو أثر هام من آثار المعصية ، وهو ظاهرة إجتماعية خطيرة ، يبدأ في الغالب بحادثة فردية تخرج إلى حرب بين جماعتين أو أكثر ، وتخرج هذه الحرب حروباً أخرى للأخذ بالثار لقتل الحروب السابقة وهكذا . ولا تقيد نار الحرب إلا عندما يتقدم سيد من سادات إحدى القبيلتين ويتحمل هيأت القوم ، وقد يفعل ذلك منذ أول ولعة .

(١) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٧٨ - ٦٨٠ .

ففي بداية حرب داحس عندما قتل مالك بن حليفة ، ثكته عيسى ، حمل الربيع بن زياد العبيسي ، دية وكان مجاوراً للزارة ، وقد فعل ذلك حلفاً للدماء ، ولكن فزارة ثكثت مالك بن زهير بعد أن طعنهم الدية فاشتعلت الحرب من جديد ^(١) .

وفي حروب النيجار ، وبعد أن ملأ الفريقان الحرب ، تراخىوا بأن يعدوا القتل ، فهدوا من فضل ، فكان الفضل لقيس على قريش وكثافة ، وكان الفضل عشرين قتيلاً من هوازن ، فودعهم حرب بن أمية فيما تروي قريش ^(٢) .

وبعد أن انتهت الحرب قبائل غطفان ، رجع الربيع بن زياد إلى بني ضيان ومعه قومه ، واصطالح الحيات ، وتحمل الحارث بن عوف وخارجة بن ميسان ، وجعثن بن حذيفة الديات ^(٣) .

وذهب بعضهم إلى أن اللجوء إلى القوة في ذلك العصر كان يعود إلى عاملين ، أحدهما الأخذ بالثأر ^(٤) . وفي حالات الثأر لا شيء يعوق العربي ، فهو عنده شيء لا يتهلون فيه . ويجدر بالقبيلة المتورة أن تبقى في حالة حرب مع القبيلة الواقعة حتى تأخذ بثأرها ، وأن تحرم على نفسها ما يحرمه العربي على نفسه في حالات الثأر ، ففي يوم الفكياء حرم بنو الشريد النساء والمدمن على أنفسهم حتى يلوذوا بثأرهم من بني كثافة ^(٥) .

وفي حرب البسوس التي بدأت بمقتل كليب ، وهب مهلهل أخوه بعدها للأخذ بالثأر ، ولم يتوقف عند حد ، فالتحوت القبيلتان بتيرانها أربعين عاماً ^(٦) .

وعندما قتل البراء النكتاني عروة الرحال هبت هوازن كلها للأخذ بثأره وكانت حروب النيجار .

وفي يوم لؤارة الثاني ، قيل فيه إن المنذر بن ماء السماء وضع ابنه عند زُرارة بن عُدس التميمي ، فخرج يتصيد ذات يوم ، فأخطى ، فرجع فمر بإبل لسويد بن ربيعة اللزري ، فأمر بئالة سميت منها فخرها ، وسويد تآلم ، فلما اتبته شد على ابن المنذر فقتله ، وأخرج هارباً حتى لحق بمكة ، وجرد المنذر خمس حملة وقتل منهم عند جبل لؤارة تسعة وتسعين بذلك الغلام ^(٧) .

(١) الألفي / نقلة ١٧ / ١٣٣ .

(٢) الألفي / نقلة ٢٢ / ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) أمثال القيسي ٤٦ .

(٤) العهد الجديد ٥ / ١٢٦ .

(٥) الألفي / نقلة ٢٢ / ١٩٢ وفي بعض الروايات أنه ابن لعمرو بن هند .

(٦) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ٤٠ .

(٧) الألفي / نقلة ١ / ١٠٨ .

وفي يوم متعرج كان قد قُتل شاسُ بن زهير ، قتله رياح بن الأسل الغنوي ، فغزت بنو عيس غنماً قبل أن يطلبوا ثوداً لوفدة ، ونصحت غني رياحاً بالحرب لعلهم يصلحوا القوم على شيء .

وكانت حالة الثار القردي غير إلى حرب ، وهذه الحرب نجر إلى أخرى ، وهكذا تتعاقب الحروب ، لأن كل حرب تخلّف قتل من الفريقين ، غير متساوي العدد ، فتطلب القبيلة التي كثر قتلها ثارها ، وهكذا تستمر العداوات وربما وصلت إلى أربعين حولاً كما في حرب البسوس .

ونستطيع أن نذكر بعضاً من الأيام التي كان سببها الثار بمفهومه القردي والثار القبلي بمفهومه الجاهلي فمنها : أولرة الثاني ، ورأس العين ، ومُهايش والشَّيْطَان وفو قدار الأول ، والحاجر ، والكند ، وبرزة ، والفيلاء ، وشيغب جبلة ، والجفار واليسار ، وفات الشكوق ، والنشأة ، وحروب الفجار ، وحرب البسوس وأيام الأوس والحزرج ، وأيام القارة والغساسنة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن كل مجموعة لها بين قبيلتين أو عصبيتين ، كانت سلسلة من الأيام يدفع أحدها الآخر للثار ، كل يوم للثار لليوم الذي سبقه سواء أكان ثراً للشخص معين أو ثراً لقتل القبيلة أو كرامتها من القبيلة الأخرى .

الصراع على أسباب الحياة :

قلنا إن الجزيرة كانت قليلة الموارد ، قليلة الخيرات ، شحيحة الماء ، تضيق مراعيها بإهلها وأنعاسها . وقد نشأت هذه العوامل الفار بين سكانها ، ذلك الفقر الذي كان الحافز الأساسي للغزو والغارات ، ولعله هو الذي جعل حياة الفرد هيئة علب أحياناً .

فللفقر وقلة الخير كانتا سبباً من أسباب العداء الطويل بين القبائل العربية في العصر الجاهلي ، ولغات متبادلة ليس لها القطاع . والسائق على منابت الكلا ، والرغبة في الإستيلاء على جزء كبير منه خليقان أن يؤديا إلى تصادم واقتتال ، فإذا أضفنا إلى ذلك قلة هذا الكلا ، لتركنا عصف القتال .

كما أن الفقر والبؤس وكثرة الجائعين يجعلان نور الحق عن أصحابها ، يصبح الجوع حافزاً يفلق من أمه أسوداً كواسر تهجم على غيرها في غير رحمة لتحفظ عليها حقها في الحياة .

وقد كانت حروب اليم ويكر في معظمها ، والتي بلغت فيها وصل إلى علمنا خمسون يوماً ، على إثر جذب الحق بمنازل يكر ، وكانت أرضهم أكثر خصباً من أرض يكر ، وهذا ما لشغل

الحروب بينها . وإذا تبعنا هذه الحروب نجد أنها تشكل غارات متصلة بقصد السلب والنهب ،
فإذا ما غزت بكر نمياً ، واستأقت إبلها ونعمها وقت عليها نعيم بغلة للثأر من بكر للغلة الأولى ،
وهكذا استمر بينهم الغزو حتى دخلت نعيم في الإسلام ، واستمرت بكر في غزوها حتى دخلت
هي الأخرى في الإسلام . وبدراسة مجموعة حروب بكر ونعيم نجد أن ثلاثين يوماً منها كانت
بقصد الإغارة والسلب ، ونجد في أخبار هذه الأيام نصراً صريحاً إلى أن ماعدتها الأهل والنعم
والسي ، كما نجد أن القتل من الطرفين غير كثير ، مع الأخط يعين الإعتبار مبالغت الرواة .

ولو تبعنا بقية مجموعات الأيام لوجدنا الدافع الإقتصادي يبرز بشكل واضح وهذا ما جعل
بعض الباحثين يؤكد أنه الدافع للحرب في العصر الجاهلي^(١) فحروب الأوس والخزرج ، عل
الرغم من أن الدافع الأساسي لها التنافس على الزعامة ، إلا أنها لم تخل من هذا الدافع ، ولقد
أشرنا إلى هذا قبل الآن ، فلقد طمعت الخزرج في أرض بني قريظة وبني النضير ، وطلبوا منهم
صراحة أن يخلوا بينهم وبين ديارهم بحجة أنهم حلفاء الأوس .

وحرب البسوس يرى فيها بعض الباحثين^(٢) صراعاً على المائدة ، على أسباب الحياة ،
وليس ذلك بعيداً ، فقد أحست بكر استئثار كليب بالرماحي الحصبة وبمولد المياه ، وحماها ومنعها
عنها . وربما أحست القليلتان أن مراعيها ومراعيها لم تعد تكفي ، فنشأ الإحتكاك بينهما
واشتد هذا الصراع واستمر ودحاً طويلاً من الزمن .

وحروب عيس وفيها كان الدافع الإقتصادي من أبرز الدوافع بينها ، وحرهما تشبه إلى
حد ما حرب البسوس ، فقد أحست عيس بقوتها ، وتقسما أختها ذبيان ، فأبى عليها القبائل
المجاورة ، ظلمتها في الرهان فلم تطلق عيس ذلك ونشبت الحرب وتحركت عيس بعد أن أحست
بتكتل القبائل المحيطة بها ، تحركت نحو شرق الجزيرة ، مجاور هذا ، ثم تفارقه عندما تحس
بالشر إلى ذلك ، وطال بها الترحال ، ونحس من نصوص الأخبار التي وصلتنا أن القبائل التي
نزلت عيس بجوارها كانت تحشى مناقصها في رزقها كما تحشى بأسها .

وقد يكون مصدر الرزق غير الأهل والنعم ، قد يكون من التجارة ، وحروب الفجار مثل
للصراع على النفوذ التجاري في الجزيرة بين قريش وكنانة ذات الماضي العريق في التجارة من
جهة ، وبين هوازن القبيلة القوية بفرسانها وحدها والتي تقطن المنطقة التجارية ، منطقة سوق
عكاظ ، فقد عز على البراض الكناني أن يسمع من عروة أنه سيحضي قافلة ملك الحيرة التجارية
في أرض نجد ، وهذا يحقق كسباً مادياً وأدبياً لهوازن ، ولا ترضى عنه قريش .

(١) الحلاله - عبد الحميد يونس ٢٢ . (٢) تاريخ العرب - قليب حتى ٣٤ .

والغارات التي كان يشنها ملوك المناذرة والغساسنة على نهم وذيان وأسد ويكر كانت في غالبها بسبب حاجة هؤلاء الملوك لمراعي حصبة ، وحاجة هذه القبائل إلى ارتيادها لثرائفها معتدية بملك على حى الملك ، فيجرد حملة ثأورية .

والأهم التي حدثت بين بطون القبيلة الواحدة فيما نعتقد ، من خلال تأملنا للنصوص التي بين أيدينا ، كان الدافع الاقتصادي والصراع على موارد المياه ، ومنابت الكلا هو الأساس الذي قامت عليه هذه الأيام . فقد كانت هذه البطون تحس أنها قد خيلق بها المكان فتتناحر وتتحارب ويحل التنصر للتهزم عن المراجع وقد يختلف الحيان على ماء كما حدث في يوم حرايب بين بني عامر .^(١) ومثله يوم الفرعاء بين بني مالك وبني يربوع الذي كان بسبب ماء .^(٢)

وقد كانت اللطائم وما حملة تخزي هؤلاء الأعراب الحرومين بالاعتداء عليها ، وكان ذلك يحر حراً لأن الذين يسيرون هذه اللطائم لا يسكنون على ذلك ، ففي يوم الصفقة كان سببه اعتداء بني يربوع وغيرهم من قيم على قافلة بحث بها عامل كسرى باليمن إليه ، تحمل إليها من ثياب اليمن ومسكاً وعسراً ، وقتلت يربوع من معها من الحفراء والأساورة واقتسموها فجراً ذلك يوم الصفقة ، حيث احتال عليهم حاكم حصن المشقر من قبل كسرى بالطعام في سنة قحط ، وكان يدخل الرجل منهم الحصن مجروحاً من سلاحه فيقتل .^(٣)

وفي يوم الكلاب الثاني علمت ملاحج بما حدث لتسيم يوم الصفقة ، فقد قُلت القافلة ، وبقيت الذراري والأموال ، ومضى بعضهم إلى بعض وبقوا : اختتموا بني قيم .^(٤)

وكان النعمان بن المنذر يجهز كل عام لطيفة لتباج بمكاظ ، فتعرض لها بنو عامر يوماً ، فتغصب للملك النعمان ، وحلب من وبرة الكلبي أنبيه لأمه ، ومن بني ضبة أن يقصدا بني عامر إذا فرغوا من مكاظ ، واتسلخت الأشهر الحرم ، فوافوهم بالسنان .^(٥)

وبما يدل على أهمية الماء في ذلك العصر وأنها كانت المحرك الأساسي للأيام في ذلك الحين ، تلك الروايات التي تشير إلى قدية الأسير ، وإلى مقدارها وإلى حرص القارص منهم على اختيار الأسير الغني المناسب الذي يحقق له المكسب الوفير . وأخبار كهذه أكثر من تحصى مبهورة في كتب الأدب والتاريخ . كما نجدهم لا يقتلون أحد الأعداء وأشجع القراصن إن وجدوا وراء

(١) جمع الأمثال للميداني ٢ / ٥٣٣ .

(٢) المصدر السابق ، وانظر التفاضل ١ / ٢٦٤ .

(٣) الأغاني / لقطة ١٧ / ٢٣٨ . (٤) الأغاني / كتب ١٦ / ٣٢٩ .

(٥) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٣٩ - ٦٤١ .

إطلاق سراحه شيئاً ما لم يكن مطلوباً بشار .

وقد فطن بعض قادة القبائل وفرسانها إلى حيلة استعمالها في حروبهم ، ولم يخص هذه الحيلة أن يعملوا النعم والنساء في طريق ، والفرسان في طريق مغير ، فإذا ما لحق بهم الأعداء فضلوا الغنمة واللبن والنساء على الالتقاء بالفرسان ، وعندما يشغلون بالغنائم والسبيل ، يهجم عليهم الفرسان ويعملون فيهم السيف ويخلصون الذراري والأموال ، وهذا ما فعله قيس بن زهير في حربه مع ذبيان ^(١) .

الصراع على الحدود :

لم يكن للقبيلة حدود بالمعنى الدقيق الذي نفهمه الآن ، ولكن لها حتى تعيره وطنها ، وإطار هذا الحس هو بمثابة حدودها . فمراعي القبيلة حدودها ، ومياهها كذلك ، وكانت القبائل تتعارف على هذه الحدود ، فإذا ما حاولت قبيلة أن تنتزع ملكية مرعى من هذه المراعي ، أو ماء من مياهها ، تصدت لها القبيلة بفرسانها تردعهم عن مهاجمها .

وعلى الرغم من أن الصراع بين القبائل شمل الصراع على مناطق الحدود بين القبائل إلا أن هذا اللون من الصراع ينضج في الصراع بين القبائل والممالك المجاورة ، وتعدي هذه القبائل على حمى هذه الدول ، فجرت لها الحملة تلو الحملة . فقد بعث النعمان إلى ريس اليمن الأصهب الجعفي يذكر عليه بلوغ سعد وعنترة العليبي ، والعلكب ملة بين القادسية والبيعة ^(٢) فحشد لهم ولقيهم يوم العليبي ، وانهمزت اليالية وأخذ منهم مال كثير وسي ^(٣) . ويوم فترخ بين بني سعد بن ثعلبة من بني أسد وضمان ^(٤) .

ونستطيع أن نعد حروب المناذرة الغساسنة ، على الرغم من أنها كانتا إمارتين ، إلا أنها كانتا تستطبان حولهما حرب العراق وحرب الشام ، من هذا القبيل ، فلقد اختلفتا على أرض تسمى متراقة ، فقد ادعاهما كل من النذر والحارث القساني ، ولزمت بينهما حروب أشهرها : حرب أباج وقد هُزم المناذرة ^(٥) ، ثم يوم حلجمة وقد هُزم فيه المناذرة ^(٦) ، ويوم شطيب وقد هُزم فيه الغساسنة ^(٧) .

-
- | | |
|--------------------------------------|--------------------------------------|
| (١) الكامل لابن الأثير / ١ / ٥٧٨ . | (٢) معجم البلدان / ٦ / ١٣٦ . |
| (٣) المعتمد / ٢ / ٢١٧ . | (٤) الألفي / كتب / ١١ / ١٩٩ . |
| (٥) الكامل لابن الأثير / ١ / ٥٤٠ . | |
| (٦) خزائن الأدب / ٣ / ٣٠٣ - ٣٠٥ . | (٧) الكامل لابن الأثير / ١ / ٥٤٢ . |

ويوم ذي قار الذي كان بين بكر من جهة والفرس وأتباعهم من جهة أخرى ، والذي ذكره اللورخون أسبلاً مختلفة ، منها قتل النعمان بن المنذر عدي بن زيد العبادي^(١) ومنها المكائد التي كانها له أعداؤه عند كسرى^(٢) ، ومنها أذواه التي أودعها هاني بن قبيصة^(٣) . ولكن صاحب الألفاني نقل لنا خبر يوم ذي قار وقال فيها ذكره : فلما هلك النعمان جعلت بكر بن وائل تغير على السواد . . .^(٤) أي أن النعمان كان يشكل الحاجز بين العرب والفرس .

ويمكننا أن نربط بين محاولة كسرى الإيقاع بيني ليم يوم الصفقة ، ومحاولة الإيقاع بين بكر يوم ذي قار . وبذلك يضمن أمن حدوده ويضمن عدم تعرض مصالحه التجارية للخطر في الجزيرة العربية .

الصراع حول تقاليد المجتمع :

يجمع العربي في جماعته قبيلة بالدرجة الأولى ، ولكل قبيلة أعرافها وتقاليدها ومبادئها التي يلتزم بها أبناءها ، وجزء من يخرج عليها وفع الحماية عنه وسحب جنسية القبيلة منه ، ولكن للمجتمع الجاهلي ، على الرغم من تشككه إلى مجتمعات صغيرة ، كان يؤمن ببعض التقاليد ، ويعترف عليها ، منها فما يخص بالعرض وصون شرف المرأة ، ومنها فما يخص بالأسير وكيفية معاملته ، وفي كيفية اقتدائه ، ومنها فما يتصل بالجار ، حقوقه وواجباته ، ومنها فما يخص بالدية ، ومقدارها ، وكيفية أدائها وغير ذلك من القوانين والتقاليد التي تعارفوا عليها .

فلذلك العربية في العصر الجاهلي كانت تحظى بمكانة ممتازة في ذلك المجتمع ، وكان الاعتداء أو مس شرفها بكلمة يعني طعنة في قلب العربي لذلك تراهم يحيطونها بالرعاية وسياج متين من الحماية ، وكانوا من أجل هذا يخشون عليها من ذل الإساءة وعار السبي ، ومن أجل ذلك قتل بعضهم بناتهم ثلاثا بغير في السبي ، وربما حملوا معهم النساء من أجل ألا يتركوهن في أيدي الأعداء وهم يعلمون عن الحمى ، فيسيحون الحمى ويسبون النساء ، ويرى بلاشير أن الزواج الحريمي العنيف أصبح لعاطفة قوية هي العرض^(٥) .

ومع ذلك فالأليم التي حدثت بسبب محاولة الاعتداء على الشرف لو لم تكن كرامة المرأة قليلة ، إذا ما قورنت بغيرها ، وعمل الأقل ما وصلنا منها ، وربما كان السبب أن القبائل كانت تتجنب

(١) التقاليد / ٢ / ٦٣٩ ، انظر تاريخ الطبري ٢ / ١٩٣ - ٢٠١ .

(٢) تاريخ الطبري ٢ / ٢٠١ . (٣) الألفاني / ثلاثة ٢٢ / ٢٢٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٦١ . (٥) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ٣٨ .

التعرض لها حتى لا تثير القبيلة ، لو لأن ذلك لا يعتبر مجالاً للفخر . ففي يوم القيصر الثاني حاول فتية من كنانة أن يعيشوا بامرأة عامرية جميلة في سوق عكاظ بأن سألوها أن تسفر عن وجهها فأبى ، فأثى أحدهم من خلفها فشد دبر زوجها بشوكة إلى ظهرها دون أن تحس ، وعندما قامت تخلص الفرع عن دبرها فضحكوا ، فنكت المرأة : يا لعامر ، فتجاوز الناس ، وكانت بينهم دعاء بسيرة حملها حرب بن أمية وأصلح بينهم^(١) .

وفي يوم منيع ، عاد شاس بن زهير من بلاد الشافرة مزهواً وقد خلع عليه ملكهم وأكرمه ، وتوقف في طريقه إلى قومه ، عند ماء وخلق ملاجه ليختل مقابل منازل قبيلة غني ، ورأه رباح ابن الأسل الغنوي ، فطلب منه أن يستتر لأنه قريب من الحلي ومن بيته ، فلما أبى شاس قتله بهم رماء به جزاء ما فعل غير مبال يطش عيس وقوتها^(٢) .

وقصة مقتل الغطيون ، إن صحت روايتها ، وتحرر الأوس والخزرج من سيطرة اليهود عليهم ، تعتبر أكبر دليل على ما كانت المرأة عليه في هذا العصر ، فلقد أثارت أخت كعب بن مالك أخاها ، وجعلته يقدم على قتل زعيم اليهود ويقر هارباً إلى الشام مستنجداً بالفسانة^(٣) وقد شكك ولفسون في هذه القصة لأنها تصور العرب لا أئمة لهم ، ثم إن اليهود أصحاب دين سبائي لا يصدر عنهم مثل هذا الفحش^(٤) .

وكان الجار في الجاهلية متعباً بين مجبريه ، يصونون ماله وحياته وعرضه ، ويهيئون مدافعون عنه إن تعرض لضيم ، وقد تعارف العرب في جاهليتهم على هذا ، وهو أشبه ما يكون بقانون التجود السياسي في أبلنا هذه ، وكثيراً ما كانت تنشب الحروب بسبب محاولة البعض الانتقاص من حق هذا الجار أو ظلمه . فالبسوس حالة جسدي سكنت مجاورة لقوم جساس ، وتعرض كليب لناقتها لأنها كانت ترمي بين إبله ، فقتلها ، وصرخت البسوس تطلب حماية حفيها من ظلم المعتدين ، وأثارت يكتفها ابن أختها جساس فهب لنصرتها فقتل زعيم قبيلتها كليباً وزوج أخته ، ومع التسليم بأن ثمة دوافع أخرى لهذه الفعلة ، إلا أن قصة ذاقه حاله كانت الشرارة .

والأسباب الظاهرية لأيام الأوس والخزرج كانت بسبب التعرض لجار أحدهم ، أو قتله أو التعدي على ضيفه ، تلك الحروب التي دامت قرابة قرن ونصف من الزمن . فحرب سُمير كانت بسبب قتل سُمير من بني عمرو بن عوف الأوسي لحليف كعب بن العجلان الخزرجي^(٥) وحرب

(٢) العقد الفريد ٥ / ١٣٣ - ١٣٥ .

(٤) تاريخ اليهود . ولفسون ٥٦ .

(١) العقد الفريد ٥ / ٢٥٢ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٥٨ .

(٥) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٥٨ .

فلما كنت بسبب قتل رجل من بني النجار لفلان قضاعي كان عمه مجاوراً لمعاذ بن النعمان الأرمي^(١) ، وحاطب كانت بسبب كُتْع يهودي لرجل من بني ثعلبة كان نازلاً عند حاطب الأرمي بالمعاذ من الحارث بن قُشْم الحزرجي^(٢) .

وكذلك كانت الحرب تشتعل بسبب إجارة قبيلة لرجل مطلوب بثار لقبيلة أخرى ، فطلب القبيلة هذا الثور لتأخذ بثارها فأتى تلك التي أجارته فتشرب حرب بينهما ، فقد قتل الحارث بن ظالم لثري خالد بن جعفر الكلبي ، وهرب فالتجأ إلى معبد بن زُرارة فأجاره فكان يوم رَحْرَحان الثاني حيث جهزت عامر قوساً لها وغزت لها^(٣) .

وكان العربي يحافظ على العهد ، يضمن الأمانة ويحافظ عليها ولو كلفه ذلك حياته ، ويكفي أن يؤخذ عليه العهد فلا يفرّ ، ولو كان ذلك مع أعدائه ، فلقد قتل نفر من يشكر حلقة وأسروا أعداء أبا مَكِيل في غارة عليها ، وبعد أن أقام عندهم زمناً أطلقوه بعد أن أخذوا عليه عهداً بالآ يقول شيئاً ، وعهد ولم يغير قومه بشيء عما حدث ، ولم يعرفوا ما حدث إلا عندما خرجوا بقصون أثره ، فحرق ذلك يوم المَلْهَم^(٤) .

وفي يوم ذي قار كان الشرارة التي أشعلتها أن النعمان قبل أن يتوجه إلى بلاد فارس استودع حلقة وولده وماله عند هانيء بن مسعود ، وعندما مات النعمان مقتولاً أرسل كسرى إلى هانيء يطلب تسليمه ما للنعمان عنده ، لأن النعمان كان حاملاً لكسرى فأتى هانيء ، فكانت هذه فريسة ليجرد كسرى جيشاً لتأديب بكر قوم هانيء ، وقبل هانيء وقومه ذلك حل أن يسلموا الأمانة لغير أصحابها^(٥) .

وكان العرب في جاهليتهم يلتفون ، فيقتاترون ، ويحاول كل منهم أن يجعل من قبيلته سيده القاتل ، ومن نفسه أشجع الفرسان ، وكما أن ذلك يتم في الأسواق كعكاظ مثلاً ، وكثيراً ما كانت تلك المقاترات أو للاصحات تهر أرباباً . فقد حدث أن التقى خالد بن جعفر بالحارث بن ظالم في بلاط الحيرة فقال خالد معيراً الحارث بن ظالم بأنه يجب أن يشكره لأنه قتل زهيراً وتركه سيد قومه ، وخطب الحارث وأمسح الشر لخالد حتى جنّ الليل فقتله وهرب ملتجئاً إلى معبد ابن زُرارة وجر ذلك يوم رَحْرَحان الثاني^(٦) .

والتقى معاوية السلمى وهاشم بن حَزْمَة بعكاظ فكان بينهما كلام ومفاخرة ومناقرة أدت إلى يوم حَزْمَة الأول^(٧) .

(١) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٦٨ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٧١ .

(٣) المقد الفريد ٥ / ٩٠ .

(٤) التفاضل ١ / ٢٣٦ .

(٥) التفاضل ٢ / ٦٣٨ .

(٦) المقد الفريد ٥ / ١٦٣ .

(٧) التفاضل ١ / ٢٣٦ .

وكان العربي يرى نفسه متبعاً كريماً بين عشيرته ، ويكره أن يعيه أحد على مسمع من الناس وبخاصة إذا كان من غير قبيلة . وإن حدث هذا اعتبر إهانة للقبيلة كلها فقد كان لرجل من بني نصر بن معلوية دين على رجل كنانى ، وماطله في الدفع ، فوافق النصرى عكاظ بفرد ، فلو فقه في عكاظ وقال : من يبيعني مثل هذا بمالي على فلان ؟ وأكثر من ذلك حتى يعير الكنانى وقومه . . . ومرت رجل من بني كنانة فضرب الفرد نفسه فقتله ، فهتف النصرى : يا هوازن ، رعبف الكنانى : يا لكانة . فتهالج الناس حتى كان أن يكون بينهم قتال وكان ذلك يوم الفيجار الثاني^(١) .

وكان العرب في جاهليتهم ربما راهن بعضهم بعضاً على شيء ، كسباق مثلاً بين فرسين أو نحر ذلك والذي يخسر الرهان يدفع ما اتفق عليه ولا يحق له تجاهله ويشهدون على ذلك الناس يعدون فيه الرهان وحده ويقدره . وقد حدث أن راهن قيس بن زهير حليقة بن بدر وبها من قبيلتي عيس وقزاة ، الثمن لجمعها قرابة الدم وعندنا رأي حليقة أنه سيخسر الرهان ، جعل فتيته يربطون القوس قيس فيلطمونها ويؤخرون جريها حتى تسبق فرسه فرس قيس ، وحدث هذا ، وأدرك قيس الخدعة وطالب حليقة بالوفاء بما تراها عليه فأبى حليقة ، وتنازل قيس عن قيمة الرهان ، واكتفى بناقدة واحدة ينحرها حتى لا تسمع العرب بأنه ظلم في حقه ولم يطالب به . وأبست فزارة فبخر ذلك حراً طويلة بين القبيلتين دامت أربعين عاماً^(٢) .

ولو شئت أتبع الأيام والمناوشات بين القبائل العربية في ذلك العصر التي كانت تحدث بسبب الخروج على تقاليد المجتمع لجمعنا الكثير ولكننا نكتفي بما عرضناه من أمثلة .

التعرد على سلطة الممالك التي كانت تحاول إخضاع القبائل العربية :

لئن إن القبائل المنفرقة في الجزيرة العربية كانت تحاول إخضاعها ثلاث قوى ، مملكة كندة والقبائل الجنوبية التي تأثر بأمرها في الجنوب ، ودولة المناذرة ومن ورائها القوس في الشمال الشرقي ، ودولة الحسنة ومن ورائها الروم في الشمال الغربي .

وقد كانت هذه الممالك تخضع القبائل لسيطرتها ، أو على الأقل لتفوذها وترك لها الشؤون الداخلية وتسوق بعضها لتحارب معها في منازعاتها وصراعاتها . كما تضمن لها تجارتها تمر بأمان

(١) المقداد الفريد ٥ / ٢٥٢ .

(٢) التتائى ١ / ٨٣ وما بعدها ، أمثال الضى ٢٦ - ٢١ .

في قلب الجزيرة العربية دون أن يعترضها أحد ، مقابل ودانة لرحطوة لرعيم القبيلة ، أوميرة لهم كل عام .

وكانت القبائل تستسلم لهذا ما دامت تلك الدولة قوية ، وما دامت هي لا تجهد من يقودها ، فإذا ما ظهرت شخصية قوية وأُتست ضعفاً من الدولة للسلطة ثارت عليها واقتلتها .

وأيام المجموعة الأولى ، وهي حروب القبائل العدنانية والقططانية غير ما يمثل هذا الدافع فقبيلة أسد عندما ظلمها حُجر وأحست بأنها قلعة على التمرد ، وضائق بأعماله التعسفية ثارت عليه وقتلته ، وأزلت نفوذه عليها^(١) ويوم خزل محاولة من قبائل الشمال للتخلص من سيطرة الجنوب ، وقد فعلت عندما ظهر فيها كليب بن وائل الذي قادها في تلك الحرب^(٢) ورفضت بكر الحضرع للمنتصر فكان يوم أواز الأول^(٣) .

وقد كان هذا التمرد يأخذ طابعاً آخر يتمثل في التصدي للطائفة وبهجها وقتل حراسها ، كما فعلت عامر بطبيعة النعمان فجر ذلك يوم السلان^(٤) ، وفعلت ثيم مثل ذلك فطارت على لطيفة الملك بجحر قطاع^(٥) ، فجر ذلك يوم الصفقة^(٦) .

وكان هذا التمرد أيضاً طابع آخر تمثل في غزو قبائل عرب الشمال لقبائل جنوبية انتهبها عندما تلمس منها ضعفاً ، فقد أغار الأقرع بن حابس على لعل اليمن يوم لجران^(٧) وأغار عتيبة بن الحارث اليربوعي على إبل لغسانين نزلاً قريوين من يربوع^(٨) .

وكما أن هذه القبائل كانت تفعل هذا عندما تلمس في نفسها القوة ، فكذلك كان يفعل الغساسنة والمناذرة والهميون كلها لمساو باصرة تمرد على سلطتهم من قبيلة إن وجدوا لديهم القوة ، وكانوا يجرؤون الحملات والصناعات لكسر شوكة ثيم حيناً ، وبكر حيناً آخر ، وعامر حيناً .



(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٥١١ - ٥٢٠ .

(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٤٥ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٢٠ .

(٣) المغالط ١/ ٤٥ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٥٢ .

(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٣٩ .

(٥) جميع الأمثال للبيداني ٥/ ٥٢٨ .

(٦) نفس المصدر السابق ٥/ ٥٢٨ ، الأغاني/ كلمة ١٧/ ٢٣٧ .

(٧) المغالط ١/ ٤٦ ، العقد ٢/ ٢٠٠ .

(٨) العقد الفريد ٥/ ٢٤٨ .

وبعد فهذه أبرز الدوافع التي كانت السبب في تلك الأيام التي زخر بها تاريخ العرب في جاهليتهم ، ولكن ذلك لا يعني أن اليوم الواحد كان له دافع واحد ، ويمكن تقسيم الأيام تقسماً على هذه الدوافع بل إن اليوم الواحد ربما تضاعفت عدة دوافع كانت السبب في حدوثه ، فقد يجمع الناس إلى جانب الرغبة في السلب إلى جانب حب الرقعة في يوم واحد . ويضي الأتني الدافع الشخصي في الأيام ، فربما دفع فرد في القبيلة له منزلة قبيلة إلى حرب مع قبيلة أخرى بدافع القضاء على شخص في تلك القبيلة الأخرى ، أو رغبة في مكسب يحققه لنفسه ، وكانت القبيلة تطيعه لمكانته فيها فحينما هجا بشر بن أبي خازم الأسدي لؤس بن حلوشة الطائي ، واحتسب بني أسد هاجم لؤس بن حارثة بني أسد وكان معه قومه ، واقتلوا بظهر الدُّهَّاء^(١) وفي حرب ربيع الطُّفري كان سببها أن ربيعة كان يمر في مال لرجل من بني النجار إلى ملك له ، فتمتعه النجاري فتنازعا فقتله الربيع ، واجتمع قومه فاقتلوا^(٢) .

وكانت العصبية القبلية هي التي تطور الصراع الفردي إلى حرب قبلية بين قبيلتين إلا أنها كانت تفرض على كل أبناء القبيلة الوقوف إلى جانب ابنها في نزاعه سواء أكان ظالماً أم مظلوماً ، ولولا هذه العصبية لأخرجنا أكثر الأيام من موضوعنا ولكانت مجرد منازعات فردية . ولعل هذا ما دعا بعض الباحثين إلى القول بأن « أكثر حروبهم كان يحرمها نزاع بين بعض الأفراد في قبيلتين مختلفتين إما بسبب قتل أو إهانة أو بسبب اختلاف على حد من حدود ، وحينئذ تشترك عشيرتا هؤلاء الأفراد ، وتنضم إلى كل عشيرة قبيلتها وقد تنضم لحملاتها فتتشر نيران الحرب بين قبائل كثيرة^(٣) » وعبر عن هذا شاعر الحجاز حين قال :^(٤)

الشيء يلدؤه في الأصل أصغرة
والحرب يلحق فيها الكارهون كما
وليس يصل بكل الحرب جانها
تدنو الصُّحاح إلى الجزئى فتعديها

وهكذا عاشت الجزيرة في حروب مستمرة لا تكاد تهدأ نازها ، فالقبيلة إما وائرة أو مؤثورة ، لا تترك دعاء بينها تلعب هدراً ، يعبر فريد بن الصمة عن هذا المعنى حيث يقول :^(٥)

(١) الكامل لابن الأثير / ١ / ٦٢٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير / ١ / ٦٦٦ .

(٣) العصر الجاهلي - شوقي ص ٦٣ .

(٤) حاسة لمي السام - شرح المزدق / ١ / ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٥) المصدر السابق / ٢ / ٨٢٥ - ٨٢٦ .

فَلَمَّا تَرَيْنَا لَا نَمُوتَا لَدَىٰ وَاتِرٍ يَسْعَىٰ مَا أَخْبَرَ الدَّهْرُ
فَلَمَّا لَلَّحُمُ السِّيفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ وَتَلَحُّمُهُ حِينًا وَلَيْسَ يَلْزِي نَكِيرُ
يُغَارُ عَلَيْنَا وَاتَرَيْنَ فَيُشْتَقَىٰ بِنَا إِنْ أُمِينَا أَوْ تُعِيرُ عَلٰى وَثَرُ
فَسَمْنَا بِذَاكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَا فَمَا يَنْقُضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلٰى شَطْرُ

المرأة والأيام

ولم تكن المرأة العربية في العصر الجاهلي بمنأى عن أحداث مجتمعتها ، ولم تكن باقل حساساً من الرجل إذا دقت طبول الحرب في القبيلة معلنة بدء غارة لها على قوم أو شنت عليها الغزاة . فقد كانت المرأة تشارك الرجل في الحرب فتطوي مع الغزاة في المؤخرة ، تشتد الأحاديث وتضرب بالدفوف ، كما كانت تقوم بالسهر على راحة الفرسان ، وتضمد الجرحى إذا التحم القوم ، وأشرفت الرماح .

ففي يوم الكندي كانت أم ربيعة بن مكرم تشد على يد ولدها مشجعة ، وتضمد جراحه ، فيعبر إلى ساحة الوضى وهو أشد إقداماً وهو يرتجز :

شَدَىٰ عَلَى الْعُصْبِ أُم سِيَّار فَتَد رُزَيْتُ فَارِسًا كَالدَّيَّارِ
يَطْعُنُ بِالرَّمْحِ أَمَامَ الْأَقْبَارِ^(١)

وللمرأة الزوجة كانت تشارك زوجها ما يقاسيه من مرارة الحرب ، وشعر أبي نيس بن الأسلت الذي يصور إنكار زوجته له لما أصابه من شحوب غير شاعر :

قَالَتْ وَلَمْ تَقْصِدِ لِقَائِي الْخَنَاءَ مَهْلًا فَقَدْ أَبْلَغْتَ أَسَاعِي
اسْتَكْرْتُ لَوْنًا لَهُ شَاخِبًا وَالْحَسْبُ غَوْنُ ذَاتِ أَوْجَاعِ^(٢)

ولم تنس المرأة عصبيتها لقومها ، ولعل ما فعلته زوجة أسبحة بن الجلاح حين أخبرت قومها بني النجار بما اعتزمه زوجها من مهاجمتهم ، أبلغ دليل على ذلك وكان جزاؤها عندما علم زوجها بذلك أن طلقها وكسر يدها^(٣) .

(٢) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٧٥ .

(١) الألفاظ / نقلا ١٦ / ٢٥ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٩٠ .

وكانت للمرأة كلمة مسموعة في قبيلتها ، فلقد تعرفت امرأة من بني فراس على خُزَيم بن الصُّعْبة بعد يوم اللوى ، حينما أسره بنو فراس ، وكان قد أنكر شخصيته ولديده فضل على ربيعة بن مكنم ، حامى الظعينة ، فلم تزل تلك المرأة يقومها حتى أطلقوا سراحه ، وردوه مكرماً وأقلع عن غزو بني فراس حتى مات^(١) .

وكان القوم يصطحبون المرأة معهم حتى لا يفروا ، فقد روي أن قبائل اليمن اصطحبت النساء والنواوي حتى لا يفروا يوم فَيْك الرِّيح^(٢) .

ولم يكن هذا هو كل دور المرأة في الاجتماعية ، بل كانت الحارث الذي يدفع بالابطال إلى ساحة الوغى غير مباليين بالموت في سبيل المرأة ، ففي يوم جليلة بين الغساسنة والناظرة ، دامت الحرب بين الطرفين أياماً لم ينتصف بعضهم من بعض ، فلما رأى الحارث ذلك دعا ابنته هنداً ، وأمرها فالتفت طلياً كثيراً في الجفان ، وطيت به أصحابه ، وتنادى بعد ذلك : يا فتيان غسان من قتل ملك الحيرة زوجة ابنتي هنداً . فقال يزيد بن عمرو الغساني لأبيه : يا أبت إني قاتل ملك الحيرة لو مقتول دوني لا عالة ، وشد لييد على المنذر الأسود ملك الحيرة فقتله ، واحتز رأسه وأقبل به إلى الحارث وألقاه بين يديه ، فقال الحارث : شئتك هبنة عمك فقد زوجتكها ، فقال : بل انصرف فاراسي أصحابي بنفسي ، ورجع إلى المعركة وقاتل قتل . فكانت النائرة على لحم ، وأسهمت المرأة في تغيير مجرى المعركة وبالإسراع في حسمها بمقتل ملك الناظرة .

وفي يوم فَيْكَة بين بكر وغلِب ، يروي صاحب الأغانى خبراً عن ابن الكلبي « لما كان يوم التحاقن أقبل القند الزماني إلى بني شيان وهو شيخ كبير قد جاوز لثلاثة سنة ، ومعه بستان له شيطانان من شياطين الإنس ، فكشفت إحداهما عنها وتجردت وجعلت تصيح ببني شيان ومن معهم من بني بكر :

وَعَا وَعَا وَعَا وَعَا حَرَّ الْجِيَادِ وَالْمَطَا
يَا حَبِذَا يَا حَبِذَا لِلْمَلْحَقُونَ بِالضُّحَى

ثم تجردت الأخرى وأقبلت تقول :

إِنْ تَنْبَلُوا نَعَاتِقَ وَغُرَشَ الْبَارِقِ
أَوْ تَنْبَرُوا نَبَارِقَ لِبَارِقٍ غَيْرِ وَامِقِ

(١) المجد القريدي ٥ / ١٧٣ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٣٢ .

قال : والتقى الناس يومئذ ، فأصعد (عوف بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة) ابنته على جمل له في ثنية يثكة حتى إذا توسطها ضرب عرقوبي الجمل ثم نادى :

أنا البرك أنا البرك

أنزل حيث أدرك

ثم نادى : ومهلولة لا يمر بي رجل من بكر إلا ضربته بسيفي هذا ، أفي كل يوم تفرون ، فيمطف الغرم فقاتلوا حتى ففروا ، فانهزمت تغلب^١ .

وهذا الخبر ، على الرغم من أن روايته ابن الكلبي ، إلا أنه ليس بعيد الحدوث في ذلك العصر ، وفي تلك الحروب بعد أن هزمت بكر في جميع معاركها السابقة مع تغلب ، فللمركة فاصلة ، وربما بالغ ابن الكلبي في رواية الخبر .

وكانت المرأة في الجاهلية تؤمن من يستجير بها إذا اشتد الخطب ، ففي يوم عكاظ ، وهو اليوم الرابع من أيام الفجر الآخر ، ضرب مسعود بن عثب الثقفي على امرأته سبعة بنت عبد شمس بن عبد مناف غباء وقال لها : من دخله من قريش فهو آمن ، فجعلت توسع في غيبتها ليسع ، فقال لها : لا تتجولزي غيابة ، فأحفظها . فلما انهزمت قيس دخلوا غيابة مستجيرين بها ، فأجار لها حرب بن أمية جيرانها وقال لها : يا عمة من تمسك بأمتاب غيابة أو دار حوله فهو آمن ، فقاتل بذلك فاستدارت قيس بغياتها حتى كثروا جداً^٢ .

ورقعة عشرة العبي ، ووجه لعلبة ابنة عمه ، حل الرغم عما أحاط بها من ضروب المبالغة ، إلا أننا نميل إلى أن علة كانت وراء فروسية عشرة ومهلولة إثبات مقدرة الحرية ليكون أعلاً لها . فالمرأة صورة جميلة يراها القارس فيشتهيها ، ويعمل جهده للحصول عليها ، ويمثل له مفهوم البطولة في نجاح مهته .

وللمركة الشاعرة دور آخر ، يتمثل في وصف المارك ، وتصوير شجاعة الأبطال ورياء أولئك الأبطال عندما يستطون صرعى في ميادين القتال ، والشعر الذي رثت به المرأة أباها أو زوجها أو أمتها أو بطلاً من أبطال قومها كثير ، جمعه بعضهم في كتاب خاص^٣ .

(١) الأغاني / ثمانية ٢٣ / ٢٥٤ .

(٢) الأغاني / ثمانية ٢٢ / ٧٤ .

(٣) ريمس الأدب في مرثي شواعر العرب - لويس شيخو ، شاعرات العرب - عبد البديع صقر ، شاعرات العرب - بشير مهوت .

ولم تكن المرأة الشاعرة لترفض بذلك والخوان ، فكانت تهب صارخة في وجه قومها إن هم قبلوا الفللة ، أو قبلوا الدية ، أو تقاعسوا عن طلب الثار ، أو فروا من المعركة ، أو أسلموا النسوة للأعداء بأسروهن . وستعرض لكل هذا عندما نتحدث عن الفرائض الشعر عند شعراء الأيهم .

الفصل الثالث

أيام العرب في العصر الجاهلي

طبيعة الأيام :

وقد أقرنا اليكم في حديثنا عن الأيام بالتحدث عن طبيعة هذه الأيام حتى تتضح صورتها ومعناها أمامنا ، فلا نجعلها أكثر مما كانت تعني ، ولا نقلل من شأنها . فالأيام كما سنرى في تقسيمنا لها لا تعدو أن تكون إحدى هذه الأمور .

أ - نزاع يحدث بين طرفين ، يشتد هذا النزاع ، ويفزعون إلى أسلحتهم ويهولهم ، ولكنهم يكتشفون أن الأمر لا يستحق الاقتتال ، فيتراضون ويمسكون النزاع بينهم ، ومن أمثلة هذه الأيام يوم ذي فرائح الذي كان بين قيس واليمن « ولم يكن بين القوم حرب ولكن تصالحوا »^(١) ويوم خزيمة الذي كان بين يثربين من قيس ، سعد والرباب من جهة ، وحنظلة من جهة أخرى ، وعندما استعملوا للقتال قال ابن خفاف لسعد الرباب : من لعيال عمرو وحنظلة إن قتلتم مقاتلهم ؟ قالوا : نعم ، قال : فمن لعيالكم إن قتلوا مقاتلكم ؟ قالوا : هم ، قال فدعهم لعيالهم وليدعهم لعيالكم ، واصطليح القرقيظان^(٢) . وفي يوم الفجر الأول يروي أبو عبيدة « أن الحيين تهاجروا عند ذلك حتى كاد أن يكون بينها الدعاء ، ثم تراجعوا ، ورأوا أن الخطيب يسير »^(٣) .

فهم يلجأون إلى المصالحة عندما يرون أن الخطيب يسير ، لا يستحق أن تهدر فيه الدعاء ، أو عندما يذكرون صلوات القرابة ، وربما لجأوا إلى المصالحة عندما يرون قوة الخصم فيها فتدبره ،

(١) مجمع الأمثال - للبيهقي ٢ / ٥٣٠

(٢) العمدة لابن رشيقي ٢ / ٢٠٩

(٣) العقد الفرید ٥ / ٢٥٩ .

لأنهم لا يأكل لحم به ، ولا طائفة لهم على ملاقاته ومنازكته .

ب- وأحياناً تأخذ الحروب بينهم طابع الغارات التي تقوم على المباغتة ، ويقصد منها السلب والنهب والأسر ، وهذه الأيام لا تراقى فيها الدماء إلا عند الضرورة ، وهذه الصورة كثيرة في أيامهم ، بل تكاد تشكل نسبة كبيرة منها . ومقالها تلك الأيام بين بكر وقهم ، وبين القبائل المتجاورة ، فإن هذه القبائل تغزو جيرانها كلها أجدهت أو أنست منهم غرة أو ضعفاً .

ج- وصورة أخرى من تلك الأيام ، وهي الأيام التي تقع في عدة سنين ، ويربط بينها أكثر من عامل ، فالسبب الأصلي لها جميعاً واحد ، والقبيلتان في جميع الأيام تبقيان في حالة عداوة مستمر ، وقد يفصل اليوم عن الآخر لفترة قد تطول ، ولكن حالة الحرب والعداء تستمر . وقد تحالف كل قبيلة قبائل أخرى فيسحق لطلاق الحرب ، وطابع هذه الحرب يكون أشد عنفاً من الصورة التي سبقها . ومن أمثلة هذه الصورة حرب حاحس والغبراء ، وحرب البسوس ، وأيام الأوس والخزرج وهذا النوع من الأيام لا ينتهي إلا عندما ينتهي طرف من الطرفين ، أو يكلّ الطرفان ويرطبان في إنهايتها ، فيتدخل سادة القوم والعقلاء منهم ويتحملون ديات القتل من الطرفين .

د- وصورة رابعة من صور الأيام ، وهي أن تلتقي أهداف عدة أطراف عند هدف مشترك ، ويبقى لكل طرف أطباعه ، ويتكون فريقان من القبائل ، ويكون يوم عظيم يقتل فيه الطرفان ، وفي نية كل فريق القضاء على الفريق الآخر . ففي يوم جيلة^(١) الذي كان لبني عامر وعيس على أسد وذبيان ، ومع كل فريق جاء حلفاؤه ، وكل يريد تحقيق هدف ، فذبيان برأسها جصن بن حليفة الذي يطلب عيساً بدم أبيه حليفة الذي قتله عيس يوم الحباءة ، وينو حنظلة والزياب ورأسهم أنيط بن زُرارة يطلبون عامراً بدم أخيه معبد بن زُرارة ، ومعأوية بن الجؤن الكليلي ، وغيره لتحقيق أغراض خاصة من عيس وعامر . وانتهى جميع أهل الشعب يومئذ ثلاثين ألفاً ، حتى لقد عدّه المؤرخين من أعظم أيام العرب في الجاهلية .

أما الأيام التي كانت بين القبائل العدنانية والقبائل الفصحطانية ، أو بين العرب والفرس فعل الرغم من أنها لم تقم على أساس العصية القبلية الكبرى لعدنان أو لفصحطان ، إلا أنها مع

(١) العقد الفريد ٥ / ١٤١ ، القلائص ١ / ٤٠٧ ، ٢ / ٦٥٤ ، العملة ٢ / ٢٠٣ ، جميع الأشكال للميداني ٢ / ٥١٩ .

ذلك كانت تتميز بالفرادة ، ورغبة كل طرف في القضاء على الطرف الآخر ، أو إنيادته على الأقل بقتل فرسته . لأن القبائل العدنانية عندما كانت تحارب القبائل القحطانية وبخاصة القبائل ذات القوة والسلطة عليها فهي إما تحاول التحرر من سيطرتها ، وأن الأسيار لديها ، وإما الانسحاب ، وإما الاستمرار في الموضوع . وعندما كان الطرف الآخر يتغلب على القبائل العدنانية كان يفتك بها ، ففي يوم الصفقة ، قتل من قيم خلق كثير ، وفي يوم أواراة حرق منهم خلق كثير ، وبعد ما لاقته قيم يوم الصفقة عقدت قبائل اليمن النية على تصفية قيم وانتهاز فرصة إنيادتها يوم الصفقة ، حيث منى بعضهم إلى بعض قائلين : إغتصموا نهباً وإبعثوا الرسل في قبائل اليمن وأحلبوها من لفضاعة^(١) . وعندما قُلت بنو أسد حُطراً قالت لحلفائه بني كنانة وقيس : أنتم إخواننا وبنو عمنا ، والرجل بعيد النسب منا ومنكم ، ورأيتم سيرته وما كان يصنع بكم هو وقومه فاتهبوهم^(٢) . وفي يوم الكلاب الثاني نسج قيس بن عاصم يخاطب بني قيس : يا بك قيم ، لا تغفلوا إلا فارساً فإن الرجالة لكم^(٣) وهذا القول يختلف عن ذلك الذي نسمعه من صالح من الأوس يصبح عندما وضعت الأوس السلاح في الخزرج : يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم ، فجولهم غير من جول الثعالب^(٤) ، وذلك يوم بُعث .

فالقتال كان يشتد في هذه الأيام ، والدعاء تسيل بغزارة أكثر من الأيام الأخرى كما أن أعداد المحاربين تزايد هنا بكثر ، ولا يرددهم عن رحم الجاهلي في سفك الدماء .

وقد سبأها بعضهم^(٥) ، وأعني الحروب بين العدنانية والقحطانية ، أو بين العرب والفرس ، بحروب الوحشة والاستغلال ، وبغية الأيام بالحروب الأهلية ، وهي تسمية مقبولة إلى حد ما إذا تجاوزنا عن مفهوم العصية بمعناها الجامع ، فالقبائل العدنانية عندما كانت تشهدا إما كانت تشهدا متفرقة ، كيوم الصفقة ، والكلاب الثاني ، وأواراة الأول ، وأواراة الثاني وغيرها ، ولم تجتمع القبائل العدنانية كلها في الجاهلية إلا في ثلاثة : يوم البداة بين تهامة واليمن ، واليوم السلان بين الجاهة واليمن ، ويوم غزار بين معد كلها واليمن^(٦) .

وما هو ملاحظ في هذه الأيام جميعاً تشابه أحداثها تقريباً وأساليبها وكيفية القضاء وخططهم ، وبخاصة الأيام التي يقصد منها المغارة والسلب والنهب .

(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٥١١ وما بعدها

(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٨٠ .

(٦) القحطاني ٢/ ٦٥٤

(١) الأغاني / كتب ١٦/ ٣٢٩

(٣) الأغاني / كتب ١٦/ ٣٣٢

(٥) تاريخ الشعر العربي - البهتني ٥

وعده الأيام قليلة الأهمية ، وقليلة الضحايا ، إذا ما قيست بما كان يقوم بين الأمم القديمة من حروب ويبدو أن العرب في حروبهم ، باستثناء تلك التي كانت مع غيرهم ، كانت في سبيل التناحر على البقاء ، ولم يكن القصد منها الإغناء والتوسع بمعناه الدولي ، بل كان القصد منها الاستيلاء على ما في يد القبائل الأخرى من نعم ومتاع ، ونسج فرسانهم وقلداتهم في الحروب دحرة لهم بالمعونة والاكتفاء بما غنموا .

كما أننا إذا استعرضنا القبائل التي سكنت الجزيرة في الجاهلية لاحظنا أن بعضها لم يخض حرباً ، أو على الأقل فيها وصلنا ، كما نرى في الوجه للقبائل قبائل اشتهرت بكثرة ليائها ، وحروبها كنسيم وبكر وتغلب وأسد وبلحج وعامر . وسببت في آخر هذا البحث جدولاً بين لم كل قبيلة بما وقع في أيدينا من أخبار هذه الأيام .

وربما كان لطبيعة أرض الجزيرة ، واتساعها ، واتساع صحاريها ، وقلة خيراتها الاثر الأكبر في جعل الحروب على ذلك النحو ، ولم تشهد أرض الجزيرة حروباً موسعة .

ويترتب على هذه الطبيعة المحدودة للحروب أن يكون عدد القتلى قليلاً ، فيوم العُطال وهو يوم بين بكر وقيم كان عدد بكر ثلاثمائة فارس^(١) . وفي يوم ذي قار على الرغم من أهميته لأنه أول يوم انتصف فيه العرب من المعجم ، كان عدد القتلى من العرب^(٢) لا يزيد على الألف . وأن مائة من بكر وسبعين من عجل وثلاثين من لحيان بكر أصبحوا السواد ودخلوه في طلب القوم بعد هزيمتهم ، فلم يفلت منهم أحد^(٣) . ويوم الحياطة بين عيس وفزارة لم يزد عندهم على مائة فارس^(٤) . وفي يوم القروق ينقل صاحب العمدة خبراً عن عترة بأن عندهم لم يزد على مائة فارس^(٥) . أما يوم جيلة فكان العدد كبيراً لأسباب وضحناها فيما سبق .

وأما عدد الذين يسقطون قتل في هذه الأيام فكان متفاوتاً متبايناً كطبيعتها . فأيام لا تسيل فيها دماء ، وأيام يُقتل فيها الرجل أو الرجلان ، وأيام يلعب ضحيتها عدد كبير من الطرفين ، وما يزيد الأمر إسهاماً أن كتب التاريخ والأدب لم تذكر لنا القتل ، مقدارهم وعندهم ، إلا ناعراً ، وتكتفي بالقول « فاقتل الفريقان قتلاً شديداً وقتل خلق كثير » أو « بالفتون فيروون أن

(١) العقد الجديد / ٥ / ١٩٣

(٢) لأن ابن الأثير يذكر أنهم قطعوا أقية سبعمائة راحلة من بني شيبان وحدها / ١ / ٤٩١ .

(٣) الأخاني / ثلاثة / ٢٣ / ٢٣٤

(٤) حيون الأمير لابن قتيبة / ١ / ١٢٥

(٥) المعلة / ٢ / ٢٠٣

القتل يعملون بالملات ، وقد تنقض الروايات حسب الرواة ، فحرب البسوس بعضهم يقول إنها أهلكت الكثيرين^(١) ، وصاحب الأغاني يذكر أنه لم يقتل فيها إلا ثمانية ذُكروا في شعر حرب البسوس^(٢) حددتهم المهكهل في رائيته . وقد تبعت أخبار هذه الحرب في مصنفاتها التي وصلت إلينا وأصبحت من قُتل ، فوجدت عشرين شخصاً من الفريقين ذُكروا بالاسم ، وذكر في بعض الأيام كيوم النهي عبارة « واستحرَّ القتل في شبان » وفي يوم الذواب « وقتلت بكر يوم الذواب » وما يلاحظ أن الشعراء ، وهم مصدر أساس في تاريخ الأيام ، لا يذكرون إلا الفرسان المشهورين ، والذين بعد قتلهم خسارة للقبيلة . وهذا معناه أن أي محاولة للتوثيق على عدد القتلى ضرب من المحال ، إلا أن الذي نلاحظه من الفرائض أن القتلى لم يكونوا كثيرين .

مصادرتنا في دراسة الأيام :

يقول أبو هلال العسكري (م ٢٩٥ هـ) في كتاب الصناعتين « لا تعرف أساليب العرب وتواريخها ، وأيامها ووقائعها إلا من جلة أشعارها ، فالشعر ديوان العرب ونزوانة حكمتها ، ومستبطن أدبها ومستودع علومها »^(٣) .

ويقول الجاحظ في كتاب الحيوان « وكانت العرب في جاهليتها تختال في تقليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام اللغوي ، وكان ذلك هو ديوانها »^(٤) .

ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب « فإن زعمت أن غالباً كان إسلامياً ، وكان حاتم في الجاهلية والناس يكثر العرب في الجاهلية أشد كلفاً فقد صدقت . . . وإلا فما بال أيام الإسلام ورجالها لم تكن أكثر في النفوس ، وأجل في الصدور من رجال الجاهلية ، مع قرب العهد ، وعظم خطر ما ملكتهم ، وكثرة ما جللت به أنفسهم »^(٥) .

فالفضل للشعر إذاً في حفظ أخبار تلك الأيام ، وصيانتها من النسيان ، لاضطرار الراوي والسامع إلى الاطلاع على مناسبة هذه الأشعار .

وكانت الأيام تحدد عناية خاصة في المجتمع القبلي ، فهي مادة فخرهم ، وهي سجل تاريخهم ، وكان الشعر يلعب دوراً أساسياً في الرواية الشفهية ويتخلل القصة ، وربما ورد الشعر

(١) العقد القرئيد ٥ / ٢٢٠

(٢) الأغاني / كتب ٥ / ٥٢

(٣) كتاب الصناعتين - لأبي هلال العسكري ١٠٤

(٤) الحيوان - الجاحظ ١ / ٧٢ .

(٥) الحيوان - الجاحظ ٢ / ١٠٨

في نهاية الخبر ، وذلك حسب دور الشاعر في معارك قبيلته . وهذا الشعر لا يسير بالقصة ولكنه يعطيها حيوية وتأثيراً ، ويمرور الزمن أصبح الوثيقة التي تبرز صحة القول .

وربما نشأت قصص الأيام أول ما نشأت في مجلس القبيلة المسائية يرويها الأبناء للأبناء ، فيحفظونها هؤلاء الأبناء في صدورهم ، ليخبروا بها ، ويتناقلوها فيما بينهم فقصص الأيام إذاً مجموعة روايات شفوية قبلية جماعية ، هي ملك القبيلة ، وبقيت كذلك حتى عصر التنوير حيث جمعت وصنفت .

ويعتبر حاجي خليفة أخبار أيام العرب علماً يسميه « علم أيام العرب » ويعرفه بأنه « علم يبحث فيه عن الوقائع العظيمة والأحوال الشديدة بين قبائل العرب . . . والعلم المذكور به يفي أن يجعل فرعاً من فروع التاريخ ، وإن لم يذكر أبو الخير مع أنه ذكر ما هو ليس بمثابة ذلك »^(١). وقد بدأ العرب يولون اهتماماً خاصاً بالأيام منذ عهد مبكر بعد الإسلام ، فقد كان عذيل بن أبي طالب يجلس على طفلة في مسجد الرسول ﷺ ويتحدث في علم الأسساب وأيام العرب ، ولكنه لقى العداوة بسبب إطلاته في ذكر مثالب الناس^(٢).

ودأب المحسنون منذ العصر الأموي على طمس الأيام لأن فيها إيقاظاً للشعور الجماعي الذي يفرم على العصبية ، وذلك أمر مستكروه .

وقد وصلتنا أخبار الأيام بأسلوب يفيض حيوية ، يختلط الشرف به بالشعر ، وانتقلت من جبل إلى جبل مع الشعر ، يرويها الرواة على اختلاف مستوياتهم وميولهم ، وحفظت كل قبيلة أيامها في الجماعة ، وفخرت بها عندما اشتملت العصبية من جديد . ولا شك أن كثيراً من تفاصيل هذه الأيام قد سقط خلال تلك الرحلة الطويلة الشاقة على الرغم من حرص الناس على تناقلها . كما أنه مما لا شك فيه أن الخطأ ربما قد حدث فيها ، ولعبت المبالغة وعوامل كثيرة في هذه الروايات ، وستعرض لها في حديث مستقل فيما بعد .

وقد أوردنا فصلاً في الباب الثاني للمحدث عن شعر الأيام ومصادره ورواياته وتوثيقه ، لذا فإننا سنقتصر حديثنا في هذا الفصل على المصادر التي نقلت إلينا أخبار الأيام دون التعرض لروايتها أخبارها بالشرح والتعديل ، فذلك ما ستحدث عنه عند حديثنا عن شعر الأيام الذي كان ملازماً لأخبار الأيام ، بل العمود الفقري لها ، والعامل الأساسي في وصول أخبار الأيام إلينا .

(١) كشف الظنون / ١ / ٤٤٩

(٢) نكت الحميدان للصفيدي ٢٠٠ .

واليام العرب في الجاهلية كثيرة العدد ، فقد بلغنا أن أبا عبيدة معمر بن المثنى الراوية البصري (ت ٢١٠ هـ) صنف في الأيام كتابين ، الأول كتاب الأيام الكبير ، وفيه ذكر ألفاً ومائتي يوم ، والثاني كتاب الأيام الصغير ، وذكر فيه خمسة وسبعين يوماً^(١) .

أما الأول فقد فقد فيها فقد من تراثنا ولكن الذين أخذوا عنه ذكروه ، جاء في معجم البكري^(٢) وهكذا قال أبو عبيدة في كتاب الأيام^(٣) ، كما صنف صاحب الألفاني ، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٤ هـ) كتاباً في الأيام جمع فيه ألفاً وسبعمائة يوم^(٤) .

وليس بين أيدينا اليوم كتاب مستقل يبحث في أيام العرب من الكتب التي ألفت قديماً ، فقد ضاعت كلها ، ولكن مصادر عديدة من تراثنا نقلت إلينا أخبار الأيام وتستطيع أن تميز من هذه المصادر الصور التالية :

١) كتب ورد فيها ذكر الأيام من خلال شرح الشعر وتفسير ما ورد فيه من أحلام ، وعلى رأس هذه المجموعة كتاب «التفاني لأبي عبيدة معمر بن المثنى» وهو كتاب شرح فيه تناقض جرير والفرزدق ، تلك التناقض التي تضمنت بين ثأيا أشعارها فخرأ برجال من العصر الجاهلي ، وأيام من ذلك العصر ، وعند ذلك يتوقف أبو عبيدة فيذكر اليوم مبنياً القريظون وسببه والقتال والنتائج والشعر الذي قيل فيه . وقد يفصل في أخبار يوم ويختصر في يوم آخر ، ويبدو أن ذلك مرتبطاً لديه من أخبار . وقد ذكر فيه أبو عبيدة أخبار سبعة وخمسين يوماً . ونجد ذلك في دواوين الشعراء التي وصلت إلينا كاملة مع شروحها التي شرحها العلماء الرواة في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، كما كنا سنجد لو وصلت إلينا دواوين النبال . ونجد في كتاب المغضليات التي جمعها الفضل الغني الرواية البكري ، والتي شرحها فيها بعد ابن الأعرابي والمرزوقي وغيرهما ، الكثير من أخبار الأيام ، كما ضمت حملة أبي تمام بشرحها للبرزي والمرزوقي في أخبار الأيام ، إذ إنها تضمنت أخبار أيام كثيرة .

٢) ونجد أخبار الأيام مشوية كذلك في كتب الأمثال ، فقد يضطر إلى ذكر خبر اليوم حيناً يريد شرح المثل وتوضيح مناسبه ، وأقدم كتاب وصل إلينا « أمثال الغني » وقد نقل إلينا فيها

(١) كشف الظنون - حاجي خليفة ١/ ٤٩٩

(٢) معجم البكري ٤/ ١٣٦٢

(٣) كشف الظنون ١/ ٤٩٩ .

(٤) انظر ما حشد كل مصدر من الأيام في الجدول الملحق بالكتاب .

نقل خبر حرب داحس وغير حرب البسوس ، وكتاب « مجمع الأمثال للميداني » (ت ٥١٨ هـ) وقد ذكر مائة وأثنين وثلاثين يوماً .

ويختلف كتاب الطبري عن الميداني في أن الأول لورد قصة بعض الأيام شبه كاملة كقصة حرب داحس والغبراء ، أما كتاب الميداني فيختصرها جداً ، فبعض الأيام لم يذكر منه إلا اسمه ، والبعض الآخر يذكر اسمه والفريقين وبيت شعر ، وربما ذكر اليوم وذكر أنه لكلاً ، دون ذكر الطرف الآخر . ولكنه يمتاز عن الأول في أنه أفرد باباً خاصاً لأيام العرب في الجاهلية والإسلام . ويبدو من خلال المقارنة أن الميداني لم يكن يتحرى الدقة في ذكر أخبار هذه الأيام .

٣) وتحدثت كتب الأدب العامة عن الأيام عندما نهيء في معرض الحديث ، وقدمها كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٤ هـ) فقد ذكر أخبار أكثر من عشرين يوماً ، عدا ذكر الغارات ، وفي الغرب ألف ابن عبد ربه (٢٤٦ هـ - ٣٢٧ هـ) كتاب « العقد القريني »^{١٥} ، وأفرد فيه باباً للحديث عن أيام العرب ، ورتبها على النحو التالي حروب قيس - حرب قيس وكنانة - حرب قيس وغيرهم - أيام بكر وغيرهم - حرب البسوس - أيام الفجار . وتتخلل حديثه عن حرب البسوس أيام لا تمت إلى البسوس بصلة مثل : الكلاب الثاني ، وطبقه ، وقنف ، الرياح ، ونياس ، وزرود الأول ، وغزل الثاني ، والجهات وإراب والشعب وغزل - والمهجة وخزاز والمعالي السمر وذات الشقوق وغيره . كما خلط مع أيام الفجار أيام الغساسنة والمناذرة .

وبمجموع ما ذكره صاحب العقد مبيعة ومبعون يوماً ، ويعتبر كتاب العقد من أولى المصادر التي وصلت إلينا متضمنة أخبار مجموعة من الأيام يرتبط بعضها ببعض ويأتي في المرتبة الثالثة بعد كتابي التفاضل والتكامل لابن الأثير ، كما أن ابن عبد ربه الشاعر قد ضمن أخبار الأيام مجموعة من الشعر توضح مواقف معينة في تلك الأيام التي نقلها إلينا . وينقل ابن عبد ربه عن أبي عبيدة ، وابن الكلبي .

ومنها أيضاً كتاب « الملوک لابن قتيبة »^{١٦} (٢١٣ هـ - ٢٧٦ هـ) الذي اكتفى بذكر بعض الأيام المشهورة باختصار وهي : فو قار ، والفجار الأول والفجار الثاني ، والوقيط ، وشويط ، وحرب بكر وغلبل ، وحرب داحس والغبراء .

(١) العقد القريني - لابن عبد ربه من ١٣٢ / ٥ - ١٦٠

(٢) الملوک لابن قتيبة ٦٠٣ - ٦٠٧

ومنها كتاب « نهاية الأرب » للتويري^١ ، وهو من الكتب المتأخرة في عصرها ، لذا فلا يمكن أن يكون تفلأً عن سيقم العلماء والمؤلفات ، وترتيبه يشبه إلى حد كبير ترتيب صاحب العقد ، وقد ضمن كتابه اثنين وثلاثين يوماً ، ورواته هم رواة صاحب العقد .

وفي عصر متأخر ألف الفلقشتدي (ت ٨٢٩ هـ) كتابه « صحيح الأعشى »^٢ وقد تحدث في الجزء الأول من كتابه المضحك عن بعض الأيام باختصار شديد ، والأيام هي : عزاز ، والبسوس ، وعون أباع ، ومرج حليلة ، والكند ، والكلاوب الأول والكلاوب الثاني ، وأولرة ، ورخرحان وشعب جيلة ، وبقار .

وقد صاحب العمدة ابن رشيون الفيرواني^٣ (ت ٤٦٣ هـ) فصلاً خاصاً بالحديث عن الأيام ولكن حديثه تميز بالإيجاز الشديد ، وهو يلقي بعض الضوء عن أخبار اليوم كما أنه يتميز بأنه يذكر الرواية أحياناً . أما الشعر في مجموعته فلا وجود له . ولم يراع في ذكرها أي ترتيب وقد أوضح ذلك في بداية حديثه عنها . وذكر في ذلك الفصل أخبار ستين يوماً من أيام العرب في الجاهلية بدأها بالحديث عن يوم إرب وأنها بالحديث عن يوم الصريف .

٤) وللأيام نصيب في المعاجم العربية سواء منها الجغرافية مثل « معجم البلدان » لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ، « معجم ما استمعجم للبيكري (ت ٤٨٧ هـ) ، فهذا النوع من المعاجم يقي فيه ذكر اليوم عندما يرد فيه ذكر اسم المكان الذي له صلة بذلك اليوم فيستطرد المؤلف ويتحدث عن اليوم ، وبفضل هذا النوع من الكتب أنها حفظت لنا ذكر الكثير من الأيام وبعض أخبارها .

والمعاجم اللغوية تحتوي بين صفحاتها على الكثير من ذكر الأيام وبعض أخبارها ، ولكن باختصار شديد ، يتطرق واضح المعجم إلى الحديث عنها عندما يرد شرح بيت شعر ، فيذكر قائله والمناسبة ويتوقف عند هذا الحد . ولكنها ذات قيمة علمية ، لأن عالم اللغة يستوثق من مادته قبل أن يشبهها في مؤلفه .

٥) ولكتب التاريخ نصيب الأوفر في الحديث عن الأيام ، ولكنها لم تنل في الأهمية بها ، فالطبري (٢٣٤ - ٣١٠ هـ) لم يذكر منها إلا يوم ذي قار^٤ ، وجليلة والزبداء وطسم

(١) نهاية الأرب - للتويري ١٥ / ٣١٥ وما بعدها (٢) صحيح الأعشى - للفلقشتدي ١ / ٣٩٠ - ٣٩٣
(٣) العمدة لابن رشيون ٢ / ١٩٨ وما بعدها . (٤) تاريخ الطبري ٢ / ١٩٣ وما بعدها .

وجنيس ، وربما اكتفى بهذا القدر لأنه اعتم بالأم المملوك فأوردتها ، وإما لأنه دخلها كثير من المبالغة فلم يقبل أن تدخل ضمن مادة كتابه ، ونحن إلى الإحتمال الثاني لميل .

ويأتي بعده ابن الأثير (ت ٦٣٢ هـ) الذي يتهم بالأيام اعطياً شديداً في كتابه « الكامل في التاريخ »^(١) ، وقد ذكر فيه أربعة وستين يوماً ، محاولاً ترتيبها تاريخياً ، قسم له بعض ما حاول ، مشحراً بالإيجاز ولا سيما في النصوص الشعرية إما لشكه في صحتها ، وإما لشدة إعجابه بالجانب التاريخي ، ومعتمداً على ما روى عن أبي عبيدة ، وابن اسحاق .

ويعتبر كتاب الكامل من المصادر الهامة لدراسة الأيام ، وقد قصر كتابه على ذكر الأيام المشهورة والوقائع المذكورة التي اشتملت على نفر كثيرين وقتل شديد ، وأعمل ذكر العبارات التي تشتمل على نفر اليسير لكثرتها ولأنها تخرج عن الحصر وذكر هذا في بداية حديثه عن الأيام .

والمؤرخ أبو القداء ، اسماعيل بن علي (ت ٧٧٤ هـ) يكتب فصلاً في تاريخه المختصر في أخبار البشر^(٢) بعنوان : أخبار بعض أيام العرب في الجاهلية ، والأيام التي يتحدث عنها في هذا الفصل هي : حرب البسوس وحرب داحس ، ويوم أولة ، ويوم وحرخان ، يوم شعب جيلة ، وشوقار ، ومرح حلينة ، والكلاب الأول ، وعين أبيح وعزاز .

وابن خلدون^(٣) في تاريخه المعروف تحدث عن يوم واحد فقط من الأيام وهو يوم ذي قار حديثاً مفصلاً . واقتصر من الأيام عليه ، وربما نيج منهج الطبري .

وابن القرات (ت ٨٠٧ هـ)^(٤) تحدث في الجزء العاشر من تاريخه عن أربعين يوماً منها : داحس والغبراء والفجار واليسوس والأوس والخزرج دون مراعاة ترتيب معين ، وراعى فيها الإيجاز ، ولم يحفل كثيراً بالشعر وملته تشبه الكتب التي سبقت هذا الكتاب .

ولم تحل كتب الجغرافية من ذكر الأيام ، فليسعودي (ت ٣٤٥ هـ) في كتابه التنبيه والإشراف^(٥) تحدث عن تأريخ الأمم ، وكيف كانت القبائل تورخ ، فذكر أنها كانت تورخ بوقائعها الهامة ، وتحدث أثناء ذلك حديثاً مختصراً عن الأيام .

(١) الكامل لابن الأثير ١ / ٥٠٢ - ٦٨٤

(٢) المختصر في أخبار البشر لأبي القداء ١ / ٩٦

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٥٥٩

(٤) مخطوط في جامعة الدول العربية تحت رقم ٣٢٧ تاريخ من الورقة ١ - ٧١

(٥) التنبيه والإشراف - السعدي ١٦٧ - ١٨٣ .

مشكلات تواجهنا عند دراسة الأيام :

ليست دراسة الأيام ، ومحاولة الخروج بصورة حقيقية لها ، سهلة القتل ، فإن كتابة تاريخ حقيقي للأيام أمر يكاد يكون مستحيلاً ، ومع ذلك فإن ما ذكره الرواة والمؤرخون من أخبار هذه الأيام ، وإن كان لا يتضمن وقائع ثابتة ، فإنه يلقي ضوءاً كبيراً ، ويصف بأمانة كبيرة الطريقة التي كانت تدار بها المنازعات القبلية ، بالإضافة إلى أنها تلقي ضوءاً على بعض صفات العربي .

وعلى الرغم من كل ما نجده أمثالا من أخبار جمة عن هذه الأيام ، إلا أن ثمة صعوبات تعترض سبيلنا ، سنحاول التعرض لبعضها بنهيء من التوضيح .

فمن المشكلات التي تواجهنا اختلاف الروايات واضطرابها ، على الرغم من أنها في الغالب ترد إلى مصدر واحد هو أبو عبيدة . فنجد لليوم الواحد أكثر من رواية ، تختلف فيها النتائج والأسباب والقتل والأسرى وكل تفصيلات اليوم ، وفي القبائل المشتركة في القتال .

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تأثير التدوين مما جعلها تقطع رحلة طويلة تتألقها الشغلة قبل أن تدون ، فترة تتراوح ما بين ثلاثة قرون إلى أربعة ، مع عدم تقيدها قديماً ، فلو حدثت لنا وثيقة في هذا الاضطراب . وسبب آخر لا يقل أهمية وهو تأثير العصبية ، التي أثرت في نقل أخبار الأيام ، فالرواية يكتف جزئيات الرواية على هواه ، وإذا كان الرواية يائياً فإنه يتعصب للتحفظات ضد العدائية والعكس كذلك .

لذا وجب على دارس الأخبار المتصلة بالأيام الحذر من دور العاطفة في أخبارها ، ولكي نصل إلى أقرب شيء إلى الحقيقة ينبغي البحث عن روايات متعددة لليوم الواحد . والمقارنة ، وغريزة هذه الأخبار بعد ذلك أمر ضروري . ولكن هذا ليس بميسور لأن الروايات ترد إلى نفر محددين^(١) .

وثاني هذه المشكلات صعوبة تحديد زمنها ، ثم ترتيب هذه الأيام زمنياً ، وذلك بسبب نداعتها ، ولأن هذه الأيام جميعاً نشبت في مدى قرن ونصف على الرغم من كثرة عددها ، ولأن اهتمام الإخباريين تركز على قصص الأيام وأعمال الأبطال بتفريغ أسبابها وضبطها زمنياً ، ولأن الجاهليين لم يكن لهم تاريخ ثابت يؤرخون به . وكل ما يقال عن تواريخ الأيام وتهيئها هو

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٣٤٦/٤ .

حدس وتضمن^(١) وحتى حينما حلول القدماء تحديد زمنها بدا التناقض والاضطراب في كلامهم^(٢).

بقي أمر ينبغي توضيحه وهو تعيين الحد الفاصل لأيام الجاهلية ، فلا يمكن اعتبار البعثة النبوية الحد الفاصل بين أيام الجاهلية وأيام الإسلام ، كما لا يمكن جعل الهجرة حداً فاصلاً لحدوث أيام بعد ذلك التاريخ بين قبائل لم تكن قد دخلت الإسلام بعد ، كيوم الشَّيْطَيْن ، ومن الممكن « اعتبار كل يوم حدث بعيداً من تأثير الإسلام وتياراته ولو بعد ظهور الإسلام جاعلياً ، فيوم الوَكْي جاعلي ، ومثله يوماً ذِي قَار ، والشَّيْطَيْن »^(٣) ومن المشكلات التي تصادفنا ضياع الكثير من أخبار الأيام ، فبعض المصادر لا نجدها تذكر من اليوم إلا اسمه ، ونفتش المصادر الأخرى هلنا نلظف بما يضيف إلى ما عثرنا عليه فلا يملأنا الحظ . فالبدائي يذكر في كتابه « جميع الأمثال » أن أقدم الأيام يوم اليبداء^(٤) ويضيف أن هم فيه أشعاراً كثيرة ، ونفتش عن هذه الأشعار فلا نلحظ على شيء . وليس يوم اليبداء هو الوحيد الذي لا نجد إلا اسمه في بطون الكتب .

ونحن نميل إلى الترجيح أن أيام قبائل معينة كان لها حظ عظيم في الوصول إلينا ، وساعدها على ذلك عوامل ، فأيام نهم والقبائل التي حاربتها نهم كبكر وغيرها وصلتنا بفضل نفاذ جرير والفروزيق وشرح أبي عبيدة لها . وقبيلة عيس كان عترة وشجاعته العامل الأكبر في اشتهار حروبها وبخاصة حرب داحس والغبراء . وحرب البوسى وصلتنا للقصة التي اتصلت بها ، وما صيغ عليها من الأمثال حملت معها القصة وأيام الحرب .

ولو كانت أيام العرب وصلتنا كاملة لتغيرت الصورة التي نحملها عن ذلك العصر وربما أسهمت الأيام المفقودة في إتصاف بعض القبائل ، بل ربما جعلت تلك الأيام صورة الحياة الجاهلية أكثر إشراقاً ، لأنه ربما أسهم الرواة عن عهد في نقل الأيام التي تمثل الجانب السيء من حياة العرب في جاهليتهم ، ولربما وضحت لنا تلك الأيام العلاقة الصحيحة بين حرب الشمال وحرب الجنوب ، لأن الصورة عن طبيعة تلك العلاقات ما زالت باعثة يكتشفها الغموض .

فنحن نتعرف منذ البداية بهذه العيوب وتلك الفجوات التي تكتشف دراستنا ، والنتائج التي نتوصل إليها ستكون نتائج ظنية لأن الجزء الآخر من الصورة ما زال غائباً ، كما أن الصورة

(١) المصدر السابق

(٢) انظر حديث أبي عبيدة عن يوم شعب جيلة - النفاذ ٢ / ٦٥٤ وما بعدها

(٣) النفاذ - أحد الشلب ٦٧ - ٦٨ (٤) جميع الأمثال - البدائي ٢ / ٥٢٨

تبقى ما دام القسم الأكبر من الشعر قد ضاع أيضاً ، وضاع معه ما كان يغنيا في رسم الصورة ، عن ضياع الأخبار ، أما ضياع كليها فلمر خطير جداً .

فنحن إذن أمام حوالي ثلاثمائة وخمسين يوماً أو تزيد ، وهو ما استطعت جمعه من مصادره بعد تحجسه ، وملاحظة الأبهام الذي يمكن أن يقع فيه الباحث عندما يبد يوماً باسمين هتطين ، ومن هذه المجموعة التي حصلنا عليها ، والتي تعتبر ناقصة إذا ما قورنت بما ذكر عن عدد الأيام التي جمعها أبو عبيدة والأصفهاني من هذه المجموعة ستحاول دراستها والربط بين أيام تحمها وابطلة ما ، كما ستحاول معرفة مكان بعض الأبهام التي لم نحصل إلا على اسمها ، وربما حصلنا على التبينات المتحيزتين ، كما ستحاول الاستعانة بالأيام التي ترتب حدوثها على يوم سابق لنأثر أو نحوه ، وبعيننا في محاولة ترتيب أيام القيلة التصوص الصريحة أسبانياً والتي تشير إلى حدوث هذا اليوم أو ذلك قبل يوم كذا أو بعده بكذا ، كما سنبرر لنا الشعر بما يذكره الشاعر في يوم ما فبمراً بيوم سبقه ، وربما ذكر الشاعر قتل في شعره أو أبطلنا نسرشد بهم في تحديد زمان ذلك اليوم ، وفرسان اليوم وربما كانوا لنا عوناً على تحديد الأيام الأخرى التي اشتركوا فيها .

ولكن هذا ينبغي ألا يسوقنا في التفلؤل إلى أبعد من حدود الواقع ، إنما هي محاولة قد نصيب وقد نخطيء ، أما تحديد تاريخ زمني للأيام فغريب من الحال ، اللهم إلا تلك الأيام التي للملك الحيرة أو خسان أو كتلة طرف فيها فرما أمكن تحديد الزمن على وجه الضرب ، لأن تاريخ أولئك لتلك شبه معروف .

وإن فنتوج دراستنا للأيام بقوم على الأسس التالية :

(١) لمعرفة اليوم على وجه التفسير ينبغي جمع جميع الروايات من مصادرها ، وتخصها ومقارنتها ، والنظر في أمر روايتها وعصياتهم .

(٢) الروايات التي تلمس فيها جنوحاً إلى المبالغة إلى خبر يتصل بجانب من جوانب اليوم ينبغي الحذر منه وطرحه جانباً .

(٣) الأيام التي تتصل بفارس نسجت حوله القصص والأساطير والمبالغات تؤخذ بحذر شديد .

(٤) الأيام المعدنية والقحطانية ندرس بحذر شديد لما للعصية من أثر في تلويها .

(٥) لما كان الشعر هو العمود الفقري للأيام ، فينبغي تحرّي الصحيح منه وثقته من الموضوع والشعرول وسيكون هو الحادي لنا في طريق البحث الشاق .

٦) لما كان القتال فيه متصراً ومهزوماً ، فيجب الرجوع إلى شعر اليوم من الطرفين لأن كل طرف يعطينا الصورة المشرقة له ، ومقارنة ما توصلنا إليه ونحصيه .

٧) أما ترتيب الأيام زمنياً فنستعين بالشعر وبالأعلام الواردة فيه ، كما نستعين بالأبطال الذين شاركوا في هذه الأيام وما حدث لهم من قتل أو أسر أو نحو ذلك فتحدد موضع ذلك اليوم .
أي أنه من الممكن ترتيب أيام بعض القبائل حسب حدوثها . أما الترتيب الزمني الشامل لكل الأيام . فأمراً لا سبيل لتحقيقه .

٨) ينبغي ملاحظة الأيام التي ذكرت في مصادر مختلفة بأسماء مختلفة لسبب ما ، حتى لا نغدها أياماً مختلفة وسبيل ذلك الخبر نفسه ومضمونه ومرساته وأسبابه ونحو ذلك .

تسمية اليوم :

قال ابن السكيت^١ : «العرب تقول الأيام في معنى الوقائع . . . وإنما خصوا الأيام بذكر الليالي في الوقائع لأن حروبهم كانت نهراً ، وإذا كانت ليلاً ذكروها .

ليلة العسروب حتى غامرت جعفر يدعى ورهط ابن شكل

وتسمى العرب اليوم غالباً ، باسم المكان الذي حدث فيه القتال ، فقالوا يوم العَبْلَاء ، ويوم طَيْخَةَ ، ويوم عَكَاظ . وربما سموه باسم ماء قريب من الموقعة كيوم السُّكَّالِب ، ويوم اللثاب ، ويوم سَكْوَان ، ويوم خَرَابِيب ، ويوم العُدَيْب وأحياناً يسمى اليوم باسم رجل أو امرأة له أثر واضح في اليوم : كيوم حُجْر ويوم حَكِيمَة ، وحرب اليسوس . وإذا حدثت عدة وقائع لسبب واحد فإن هذه المجموعة تسمى باسم السبب الأصلي للأحداث : كحرب داحس والغبراء ، وحرب اليسوس . وربما سموا الأيام لصفة انتصفت بها كحروب الفِجَار . وأحياناً يسمون اليوم باسمي مكانين حدث فيها قتال في ذلك اليوم : كيوم النَّبَاج ونبتل لأن المهاجمين وهم بنو قحمة بزعامة قيس بن عاصم وسلامة بن ظرب وجدوا بني شيان الذي يقصدونهم في مكانين فقتلوا أنفسهم قسمين يلعب كل فريق إلى فريق من المقوم في المكان الذي حل فيه .

وأحياناً يسمى اليوم بأكثر من اسم كيوم ذي قار فإنه يسمى ذي قار ويوم فَرَاقِر ، ويوم حَوْفِي قار، ويوم حَوْفَرَاقِر ، ويوم الجَبَابِات ، ويوم ذات العَجْزَم ويوم الغنولان ، ويوم

(١) لسان العرب مادة : يوم

اليطحاء . ومثله يوم العُطالي فهم يسمونه أعشاش ، والأيام ، والأفانق ، ومَلِيحَة . وهم إنما يفعلون ذلك بسبب قرب هذه المواضع من بعضها . وفي معجم البكري إشارات كثيرة إلى هذا التعدد في التسمية^(١) .

وربما بدأ الشعراء إلى تغيير في الاسم بسبب الضرورة الشعرية ، فقد قال الفرزدق :

وتقتيل المسوك وإن منهم فوارس يوم طخفة والنار

وهو يعني يوم ضربة ، وضربة قرية من الكتلين السالف ذكرهما^(٢) .

ومن المستحسن ، تجنباً للخلط ، أن نسمي الحرب المشملة على أكثر من يوم ، والتي يربطها سبب مشترك حرباً ، ونسمي كل منها يوماً . فنقول حرب البسوس ، ويوم تحلاق التَّمَم ، لأنه يوم من أيام حرب البسوس ، ونقول داحس والغبراء ، ويوم جُفْر الحياصة . وكذلك نسمي حروب الأوس والخزرج حروباً ، ولكننا نجد أن أحد هذه الأيام وهو حاطب يفرع منه أيام عدة ، لذا قلنا نسميه حرب حاطب ، ونسمي الأيام المنفرعة منه أياماً . ولكن هذا القول لا يضع حداً فاصلاً ، فقد وردت أيام باسم حرب ، كيوم سُمَيْر فقد ذكرته المصادر حرب سميرة . وكذا حرب السركرة ، وحرب ربيع القفري . . .^(٣) .

مجموعات الأيام الكبرى :

في المصادر المختلفة لأخبار الأيام تقسمت مختلف مجموعات الأيام ، ونود قبل أن نختار نظاماً معيناً لتقسيم الأيام التي استطعنا الحصول على أخبارها ، أن نعرض لمختلف التقسيمات التي وردت فيها :

فلين عبد ربه في كتابه « العقد الفريد »^(٤) يقسمها إلى المجموعات التالية : حروب قيس - حروب قيس وكنانة - حروب قيس وليم - أيام بكر على قيس - أيام قيس على بكر - حرب البسوس - أيام الفجار .

(١) انظر معجم البكري فهو يشهد في ذلك في أكثر من موضوع .

(٢) الثقافى ١ / ٢٣٧

(٣) هذه كلها أيام من أيام الأوس والخزرج .

(٤) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ١٣٦ - ٢٦٠

لما ابن الأثير في كتابه « الكامل في التاريخ »^(١) فلم يضعها في مجموعات بل رتبها تاريخياً حسب ما اجتهد .

ووضعها جورجي زيدان^(٢) في جدولين ، الأول : أيام العدنانية مع سواهم والثاني أيام العدنانية فيها بينها ، وقسمها إلى ثلاثة أقسام : أيام قبائل ربيعة مع قبائل مضر ، وأيام مضر فيها بينها .

لما أحمد الشاذلي^(٣) فربعا أربع مجموعات : أيام العرب والفرس - أيام القحطانيون فيها بينهم - أيام العدنانية والقحطانية - أيام العدنانية فيها بينها .

وجعلها جاد المولى ورفيقه^(٤) في مجموعات عشر : أيام العرب والفرس - أيام القحطانية فيها بينهم - أيام القحطانية والعدنانية - أيام ربيعة فيها بينها - أيام ربيعة وقيم - أيام قيس فيها بينها - أيام قيس وكنانة - أيام قيس وقيم - أيام غبة وغيرهم - أيام مضرقة .

ويقسمها إحسان النص^(٥) إلى مجموعات أربع : أيام بين بطون القبيلة الواحدة - أيام بين قبائل متاعية في نفسها - أيام بين قبائل من أصول شتى - أيام العرب والعجم .

وإذا نظرنا إلى هذه التقسيمات السابقة الذكر وجدناها باستثناء تقسيم كتاب « أيام العرب في الجاهلية » بعيدة عن الواقع ، لأنه من المستحيل أن تحدث عن مئات الأيام ، بحلولين الربط فيها بينها وترتيبها زمنياً وهي تتظم ثلاث مجموعات أو أربع . ولعل أصحاب هذه التقسيمات اقترحوها دون معاناة التجربة والصعوبات . أما كتاب « أيام العرب » فقد قسم حديثه عن الأيام على هذا الأساس ، وأما صاحب العقد الفريد ، فقد أتمج مجموعات دونها رابط يربطها .

والتقسيم الذي نقتضيه لدراسة أيام العرب في الجاهلية هو :

الأيام بين القحطانية والعدنانية - الأيام التي كانت بين بكر وقيم - أيام قيس وكنانة - أيام قيس وقيم - حرب البسوس أو أيام ربيعة فيها بينها - حرب داحس والغبراء - حروب القبيصة - أيام

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١ / ٥٠٢ - ٦٨٣

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام - جورجي زيدان ٢٥١

(٣) الشاذلي - أحمد الشاذلي ٦٦

(٤) انظر كتابه « أيام العرب في الجاهلية » لجاد المولى ورفيقه .

(٥) العصبية - إحسان النص ١٤٨

الأوس والخزرج - أيام الغساسنة والمناذرة - يوم ذي نار - أيام غنيم والقبائل الأخرى - أيام بين بطون القيلة الراسدة - أيام غطفان وعامر - أيام غطفان والقبائل الأخرى - أيام أخرى .

وكان من الممكن الجمع بين حروب القبط وأيام قيس وكثانة لأن الفريقين قيس وكثانة ، ولكننا أثرتا الفصل بينهما لاختلاف الدواعي ، كما كان من الممكن الجمع بين أيام الأوس والخزرج ، وحروب الغساسنة والمناذرة ، ولكننا أيضاً أثرتا الفصل لاختلاف البيوت والدواعي والحركات فلهذا الأيام وتلك مع أنها أيام قحطانية ، كما قسمنا حروب غنيم إلى مجموعات ثلاث : بكر وغميم ، وقيس وغميم ، وقيس والقبائل الأخرى تسهيلاً للدراسة لكثرةها .

ومن الممكن أن يبدو هذا التظيم مضطرباً بعض الشيء ، ولكنه يعيننا في دراسة هذه المجموعات بشكل أوضح ، وربما سهل علينا ترتيبها ، والربط بينها ، واستخلاص النتائج .

١) الأيام العدنانية - القحطانية :

وقد بلغت الأيام التي وصلتنا من هذه المجموعة ثمانية وثلاثين يوماً ، خاصتها القبائل العدنانية ضد الغساسنة ، والمناذرة ، وكثانة ، وخيبر ، وكلب ، وملحج ، وزيد ، ومراد ، وطية ، والأزد . ومن جانب القبائل العدنانية اشتركت فيها : غنيم ، وعامر ، وقحلب ، وبكر ، وضبة ، وأسد ، وسكيم ، والنمر ، وقيس ، وإياد ، وذبيان .

وكان لغميم نصيب الأسد في هذه الأيام فقد خاصت منها خمسة عشر يوماً .

ونستطيع أن نميز في هذه المجموعة كلاً عاماً ثلاثة :

أ - أيام خاصتها القبائل العدنانية مع اليمن وهذه الأيام هي : ثلثت (سليم - مراد) ، وخزرج (نزار - اليمن) ، وخيبر (أسد - بحد) ، والزعيم (غنيم - اليمن) ، وفوثراتج (غنيم - اليمن) ، والمكيب (سعد وعثرة - ملحج وخيبر) ، والكلاب الثاني (غنيم - اليمن) ، ويكف الرياح (عامر - اليمن) ، ونجيران (غنيم - اليمن) ، والمضج والضمضمان (قيس - اليمن) ، والسكبان (معد وريبعة - ملحج وكلب) ، والعرقوب (عامر - اليمن) ، والكلاب الأول (قحلب والنمر بن قاسط وسليمة بن الحارث - بكر وضبة والزبان وبربرج مع شرحبيل بن الحارث) ، والقر (خثعم - عامر) ، وفوثرج (عامر وكثانة - غنيم) ، والصفقة (غنيم - الفرس واليمن) .

ب- أيام خاضتها العدنانية مع المناصرة : أواراة الأول (المناصرة وتغلب والنمر - بكر) ، وأواراة الثاني (المناصرة - تميم) ، وجو نطاع (سعد تميم - المناصرة) ، والحُسَيْن (تغلب - المناصرة) ، والسُلَآن (عامر - المناصرة وتميم) ، وطيحثة (تميم - المناصرة) .

ج- أيام خاضتها مع الغساسنة : إضَم (ضبة - الغساسنة) ، وأقر (الغساسنة - ذبيان) ، وحلوث الجولان (الغساسنة -) ، وفزحزح (أسد - غسان) ، وضبيعات (الغساسنة - تميم وتغلب) ، بوغزول الثاني (غسان - يربوع) ، والمُرَاد (أسد - غسان) .
لما بقية أيام هذه المجموعة فلم يصلنا إلا الاسم .

وواضح أن العممية العدنانية أو القحطانية لم تكن واضحة ، لأننا نجد قبائل عدنانية محارب في صفوف القحطانيون كما حدث يوم ذي نجب حين حاربت عامر إلى جانب كتلة بني تميم . ومثل ذلك نجد في أواراة الأول ، وأما ما نسمعه من امرئ القيس بقوله مخاطباً وفد بني أسد الذين عرضوا عليه الدية أو النطرة . « أما النطرة فلنكم ، ثم إنكم ستعرفون في فرسان قحطان ، أحكم فيكم ظبا السيف وشبا الأسته حتى أشفي نفسي وأتال ثأري »^(١) فلم يحتاج إلى الرواية قبل الحكم عليه ، والرأي عتدي أن ذلك من عمل الرواة ذوي الأهواء اليمنية . ولكننا مع ذلك نجد أكثر هذه الأيام ، إذا ما رجعنا إلى ذوائفه ، إنما كان يدافع التمرد على سلطة اليمن وفرونها على القبائل وبخاصة مملكة كتلة ، فكانت القبائل تلتصق بضعف السلطة فتثور ، أو أن القبائل اليمنية حينما تلتصق في نفسها القوة لتحرد حملاتها لكسر شوكة القبائل القوية كتميم وعامر وبكر وتغلب .

وتظل أيام هذه المجموعة مفككة لا نستطيع ترتيبها وربطها ببعض ما دام تاريخ الجزيرة في الجاهلية غامضاً ، فنحن بحاجة إلى معرفة الفترة التي خضعت فيها قبائل اليمن ، ومتى بدأت تستغلب هذه القبائل وتغريها بالثورة على سلطة قبائل الجنوب . أما غسان فكان صدامها مع القبائل العربية ذا طابع محدود يتصل بالصراع على الحدود ، ويبدو أنها لم تكن للفرس نفوذاً قريباً على الجزيرة العربية كما كانت اليمن أو المناصرة .

لقد تم أيام هذه المجموعة - بين القبائل الشبانية واليمن - يوم اليباء^(٢) لم يصلنا عنه إلا أنه

(١) الأختي / ثلاثة / ٢٣ / ٤٠٦

(٢) صبح الأشال / ٢ / ٥٦٨

أقدم أيام العرب بين حير وكتب ، وإن لم فيه اشتعلاً كثيرة . وقد حدد له زيدان تاريخاً هو
أواسط القرن الرابع الميلادي .

ويوم السلّان ، وكان يومين ، يوم بين معد ومذحج وكتب - شهدها زهير بن جندب
الكلبي^(١) وقال آخرون إنها وقعة لربيعة على مذحج^(٢) ، ويوم بين بني عامر والنعمان بن المنذر ،
وسبأ في ذكره .

وكان يوم غزاة^(٣) ، أول يوم استعنت فيه معد عن الملوك ، ملوك حير . وكان من حديثه أن
ملكاً من ملوك اليمن كان في يده أسارى من مضر وربيعة وقضاعة ، فوفد عليه وقد من وجهه
معد ، وكتبوه في الأسارى فوجههم لهم ، فاحبس عنده بعض الوفد رهينة حتى يأتي رؤساء
قومهم لأخذ اللواتي عليهم بالطاعة ، ورجع الوفد وخبر بما رأى وسمع ، فجمع كليب قومه
 واجتمعت عليه معد ، وسار بهم وجعل على مقدمة الجيش السُّقَّاح النبطي ، وأمرهم أن يوفدوا
ناراً يبتلون بها ، فإن دافعهم العدو فليوفد نارين ، وأقبلت مذحج واستنفروا من يليهم من
قبائل اليمن ، وانضمت لعل تهامة إلى ربيعة ، والتفوا بخزاز ، فاقبلوا قتالاً شديداً أكثروا فيه
القتل ، فانهزمت مذحج وانفضت جموعها . واختلف في رئيس القوم في هذا اليوم ، فقال قوم :
كليب ، وقال آخرون : زُرارة بن عدس ، وقال فريق ثالث : ربيعة بن الأخوص ، وأنكر أبو
عمرو بن العلاء جميع ذلك وقال : هو يوم لنزل على ملك من ملوك اليمن قديم لا يعرف من هو
مهم^(٤) .

وفي يوم حُجْر^(٥) ، قتل بنو أسد والد حمزة القيس ، وكان ملكاً عليهم ، فظلمهم
فقرصوا به وقتلوه ، وهبَّ إليه من بعده يحاول الأخط بشار أبيه ويستجد بالقبائل المختلفة .

وفي يوم الصَّفَّة^(٦) ، الذي كان بين عيم وعامل القوس في اليمن ، ومن حديثه أن بلذام

(١) جميع الأشكال ٢/ ٥٢٨ .

(٢) معجم البلدان ٥/ ١٠٤ .

(٣) المقادير ٥/ ٢٤٥ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٢٠ - ٥٢٢ ، المعتمد ٢/ ٢١٢ ، جميع الأشكال
٢/ ٥٢٠ .

(٤) المعتمد ٢/ ٢١٢ .

(٥) الألفاظ / ثلاثة ٢٣/ ٤٠٦ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥١١ - ٥٢٠ ، جميع الأشكال ٢/ ٥٣٦ .

(٦) الألفاظ / ثلاثة ١٧/ ٢٣٧ - ٢٤٠ ، المعتمد ٢/ ٢١٧ ، جميع الأشكال ٢/ ٥٢١ ، الكامل ١/ ٢٢٠ -
٢٢٦ .

عامل كسرى باليمن بعث إلى كسرى غيراً لعمل ثياباً ومسكاً ، فاعتزمت القافلة بنو حنظلة بن يربوع ، وقتلت حراسها ، في مكان يسمى « حَرْقَس »^(١) وشنوا المفاولة ، فبلغ الخبر كسرى وأعد بواسطة عامله بالمشكر قحاً نصبه لتعذيب في ستة قحط ، لوقع بهم وقتل عدداً كبيراً منهم .
ويسمى أيضاً يوم المشكر .

وقد جرى يوم الصلفة يوم الكلاب الثاني^(٢) ، لقد طمعت بعض القبائل في اليم التي قُتِلَت يوم الصلفة ، وقد رغبوا في الاحتام هذه الفرصة والقضاء عليها وسلبها ، وهذا ما فعلته مذحج ، فقد بعثت الرسل في قبائل اليمن وأحلافها من قُضاعة ، فاجتمع لهم اثنا عشر ألفاً ، ورئيسهم عبد يغوث بن صلالة على مذحج ، والبراء بن قيس على كتلة وأقبل أهل اليمن ، وأقبلت سعد الزبابة ، ورئيس الزبابة النعمان بن جساس ، ورئيس بني سعد قيس بن عاصم اليُفَري . والتل الغرم وقتل الكثير ، وأسر عبد يغوث الحارثي وقتلوه بالنعمان بن جساس ، وهزمت مذحج ومن جاء معها .

وأغزى خصوم أوس بن حارثة الطائي بشر بن أبي حازم الأسدي فهجاء ، فجز ذلك يوم ظهر الدهناء^(٣) ، لأن بشراً إلتجأ إلى عشيرته وقومه بني أسد ، فمنعوه فسار أوس إليهم وانطلقوا بظهر الدهناء^(٤) واقتلوا فانهزمت بنو أسد ، وقتلوا قتلاً ذريعاً .

وفي يوم كَيْفَ الريح^(٥) ، أغارت قبائل مذحج وأكثرها بنو الحارث بن كعب وقبائل من مُرَاد وجُعْفَى وزَيْد وشننهم وعليهم أنس بن مدركة وعلى بنو الحارث الحصون فأغاروا على بني عامر ابن صعصعة بغير الريح^(٦) ، وعلى عامر ، مُلَاجِب الأسيلة عامر بن مالك ، فاقتلوا وأسرع القتل في القرينين جميعاً ، واقترقوا ولم يشتغل بعضهم عن بعض بغزوة ، وكان النصر فيها والشرف لعامر .

(١) انظر معجم البلدان ومعجم البكري .

(٢) العقد الفريد ٥/ ٢٢٤ - ٢٢٣ ، الأغاني / كـ ١٦/ ٣٢٨ - ٣٢٠ ، المعجم ٢/ ٢٠٦ ويذكره أيضاً آخر : الشعبية ، جميع الأمثال ٢/ ٥٢١ ، النفاذ ١/ ١٤٩ ولتحديد الكلاب انظر معجم البكري (الكلاب) ، معجم البلدان ٧/ ٢٦٩ ، صحيح الأخبار ١/ ٤٣ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٢٦ .

(٤) معجم البلدان ١/ ١١٥ ، صحيح الأخبار ١/ ٤٢ .

(٥) النفاذ ١/ ٤٦٩ ، العقد الفريد ٥/ ٢٢٥ ، الكامل ١/ ٦٣٢ - ٦٣٤ ، المعجم ٢/ ٢١٣ ، جميع الأمثال ٢/ ٥٢٧ .

(٦) معجم البكري ٣/ ١٠٣٨ معجم البلدان ٦/ ٤١٣ .

ونكتفي بهذا القدر من أيام هذه القصة .

ومن أيام العرب مع المنقرة يوم طَبَقَةُ^(١) ، وهو يوم لبني يربوع على صاكر النعمان بن المنذر ، وسببه محاولة نزع الرُدَاقَة من بني يربوع وجعلها في بني مجاشع بلعامز من حاجب بن زُرارة . وقد هَزَمَتْ يربوع جيوش النعمان وأسرت أخاء حسان بن المنذر وابنه قابوس .

ومنها يوم أَوارة الأول^(٢) وسببه أن تغلب لما أخرجت سلمة بن الحارث الكنديّ منها النجا إلى بكر بن وائل ، فلما صار عند بكر أذهنت له وحشدت عليه ، وقالوا : لا يملكنا غيرك ، فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى طاعته ، فأبوا فحلف ليسردن إليهم وليباحتهم على قُلَّة جبل أَوارة حتى يبلغ الدم الحضيض . وغزاهم المنذر وأتسل منهم ، فشجع لهم مالك بن كعب العجليّ ، وأخرجهم من محبته ، فكفّ عن القتل .

وفي يوم أَوارة الثاني^(٣) الذي لوقع فيه عمرو بن هند ببني تميم ويقال له القصيّة ، وسببه أنه كان لعمرو بن هند ابن مسترضع في بني دارم عند زُرارة بن عُدَس ، فقتل ابنته ثالثة لرجل يسمى سويداً . فقتله سويد ، فغزا عمرو بن هند بني دارم ، وأقسم ليقطن منهم مائة ، فقتل تسعة وتسعين ، وأتم مائة برجل من البراهم .

وفي يوم السُّكُون^(٤) ، الذي كان سببه تعرّض بني عامر للطبيعة النعمان بن المنذر ، فغضب النعمان ، وأمر بتجهيز حملة لتغليب عامر ، ولكن جيشه هزم وأسير أعزوه وبيرة الكلبيّ .

(١) التفاض ٦٦/١ وسببه يوم ذات كهف ويوم طحفة ، العقد الفرید ٥/ ٢٣٤ المدة ٢/ ٢٠٦ ، جميع الأشكال ٢/ ٥٢٦ ، الكامل ٦/ ٦٤٩ ولتحديد طحفة انظر معجم البكري (طحفة) ، معجم البلدان ٦/ ٣٢ ، صحيح الأخبار ٢/ ١٠٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٥٥٢ المدة ٢/ ٢١٦ ، جميع الأشكال ٢/ ٥٢٨ ، ولتحديد الموقع انظر معجم البكري (أَوارة) معجم البلدان ٧/ ١١٤ ، صحيح الأخبار ٢/ ٩٤ ، ٣/ ١٤٢ .

(٣) التفاض ٢/ ٦٥٢ ، المدة ٢/ ٢١٦ ، الكامل لابن الأثير ١/ ٥٥٣-٥٥٥ ، الكامل للبردة طبعة أوروبا ٩٧ .

(٤) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٣٩-٦٤٩ .

لما أيام فسان مع القبائل العربية فمنها يوم خَوْل الثاني أو يوم يَنْهَك^(١)، وسببه أن ابني هُجَيْمَةَ الضَّحَّانِيَّيْن أَهْبَلَا فِي جَيْشٍ ، فَتَزَلَا فِي بَنِي يَرْبُوعَ ، فَأَغَارَ عَلَيْهَا أَنَاسٌ مِنْ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ يَرْبُوعَ فَاسْتَقَلُّوا نَعْمَهَا وَأَسْرَوْا مَنْ كَانَ فِي النِّعَمِ ، فَرَكِبَ ابْنَا هُجَيْمَةَ فِي الْتَرَهَمِ ، وَتَقَبَّلَا ، فَتَلَاهُمَا عَقِيَّةَ بْنِ الْخُلُوثِ الْيَرْبُوعِيِّ الْوَاحِدِ تَلَوَ الْآخَرُ . وَإِنَّا هَجِيمَةُ الْيَرْبُوعِيَّيْنِ وَصَمُرُو بْنُ كَبْشَةَ .

ومن هذه الأيام يوم خَرْخَرَح^(٢) ، الَّذِي أَغَارَ فِيهِ مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِهِمْ يُقَالُ لَهُ عَيَّ ، ابْنُ أُخْتِ الْخُلُوثِ بْنِ أَبِي شَمْرَةَ بْنِ أَبِي أَسَدٍ ، فَلَقِيَهُ يَنْبُوسُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ دُودَانَ ، فَاقْتَتَلُوا قِتَالاً شَدِيداً ، وَاقْتَلُوا عَدِيداً ، وَهَزَمُوا الْجَيْشَ .

وَأَغَارَ عَرَقُ الْغَسَّانِيِّ وَأَخُوهُ عَلِيُّ بْنُ ضُبَّةَ بِيْزَاعَةَ^(٣) ، فِي طَوَائِفٍ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ إِهَادٍ وَتَمَلْبٍ وَغَيْرِهَا أَفْرَكَهُمْ بَنُو ضُبَّةَ فَأَسْرَ زَيْدُ الْفَوَارِسِ عَرُكًا ، وَأَسْرَ إِخْوَاهُ هُبَيْشُ بْنُ دَلْفٍ ثُمَّ تَلَاهُمَا بِعَدِّ هَزِيمَةٍ مِنْ كَانَ مَعَهَا ، وَقُتِلَ مَعَهَا عِدَّةٌ^(٤) .

وَفِي يَوْمٍ إِضْمَ^(٥) ، هَزَمَتْ بَنُو عَائِلَةَ بْنِ مَالِكٍ بْنِ بَكْرِ بْنِ سَعْدٍ بْنِ ضُبَّةِ الْخَلَارِثِ بْنِ مَرْثُفَا الْمَلِكِ الْغَسَّانِيِّ ، وَحَمَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَائِلَةَ بْنِ قَيْسٍ يَدْعَى عَامِرُ بْنُ ضَامِرٍ عَلَى ابْنِ مَرْثُفَا فَطَعَتْهُ فَفَتَلَهُ ، وَاتَّيَزَمَ أَصْحَابِيهِ هَزِيمَةً فَاحْشَتْ . وَيَذَكُرُ ابْنُ وَشِيْقٍ أَنَّ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّ يَوْمَ إِضْمٍ هُوَ يَوْمُ بَرْثَانِكَةٍ .

هَذَا عَرَضٌ سَرِيعٌ لِأَيَّامِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ ، لَمْ نَسْتَطِعْ تَحْدِيدُهَا زَمَنِيًّا لِفَعْمَوْضِ التَّوَارِيخِ الْجَاهِلِ ، كُلُّ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقْعَلَهُ لَوْ يَحْتَسِبُ هُوَ تَحْدِيدُ بَعْضِ الْأَيَّامِ فِي فِتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ هِيَ تِلْكَ الْفِتْرَةُ الَّتِي حَكَمَ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ أَوْ ذَاكَ ، وَلَكِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذَلِكَ .

٢) أَيَّامُ بَكْرِ وَنَهْمٍ :

قَبِيلَةُ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ قَبِيلَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْعَدْنَانِيَّةِ ، فِيهَا الشُّهُرَةُ وَالْعَدَدُ وَمَنْ يَطْلُوعُهَا يُشْكِرُ بِنَ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ ، وَبَنُو عَكْبَةَ بْنِ صَنْعَبَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ ، وَبَنُو حَتِيفَةَ ، وَبَنُو حِجْلَ ابْنِ

(١) العقد الفرید ٥/ ٢٣٨ - ٢٣٩ ، معجم البكري ٤/ ١١٣٩ ، معجم البلدان ٧/ ٢٨٧ ، صحيح الأخبار ٤/ ٧٣ ، ١٨٣ ، ٧٥/١ .

(٢) الألفاني / كتب ١١/ ١٩٩ ، جميع الأمثال ٢/ ٥٣٠ ، معجم البكري ٣/ ٦٢٧ .

(٣) معجم البلدان ٢/ ١٦٠ ، صحيح الأخبار ٢/ ٣٤ .

(٤) العدة ٢/ ٢٠٧ ، الفتاوى ١/ ١٩٥ .

(٥) العدة ٢/ ٢٠٨ ، معجم البلدان ١/ ٢٨١ ، صحيح الأخبار ٢/ ٤٨ .

لجئهم بن صعب^{١٤١} . وكانت ديارهم من الهامة إلى البحرين إلى سيف كاطمة إلى البحرين فاطراف العراق ، فالأيلة ، فهيت^{١٤٢} .

وقيلة تميم بن مرقيلة عظيمة من العدنانية ، كانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة والهامة ، حتى يصلوا بالبحرين وانتشرت إلى العُدَيْب من أرض البصرة^{١٤٣} .

وكانت القبيلتان تتجاوزان في منازلها ، كما كان بين منازلها قبيلان في الحصب وكانت أرض تميم أكثر خصباً ، وقد نشبت بينهما حروب بسبب هذا ، وفي الغالب تكون بكر الهاجة على إثر جذب الحق بمنازلها^{١٤٤} .

وربما أضفت سبباً آخر لهذا الصراع ، فقد ذكر ابن الأثير^{١٤٥} وصاحب العقد الفريد^{١٤٦} أن بكرأ كانت تحت يد كسرى وفارس وكانوا يجهزونهم ويجهزونهم ، ولعل هذا يفسر لنا الصراع بين بكر وتميم حيث أن تيمياً كانت في حالة عداء مع كسرى ، ويوم الصفقة وغيره دليل على ذلك ، ويوم ذي قار رأينا لدى بكر أسرى من تميم .

هل أننا ينبغي ألا نفهم أن الخصومة بين القبيلتين كانت مطلقة ، فقد كانت موادة بين بعض بطون تميم وبكر على حساب بطون أخرى كما حدث يوم جندود^{١٤٧} وكذا يوم مباحض فقد كان بين حيين من بكر خصومة^{١٤٨} .

وقد ذكرت المصادر التي عرضت لأيام هذه المجموعة بوضوح البطون التي اشتركت في الأيام على النحو التالي :

من تميم : يربوع (خمسة عشر يوماً) ، وبنو عمرو بن تميم (خمسة أيام) ، والشعالب من تميم (ثلاثة أيام) ، وبنو سعد بن زيد مناة (يومان) ، وبنو منقر (يومان) ، وكل من بمجاشع ، وبنو العنبر وحظلة وحبة اشتركت في يوم واحد . أما المصادر التي لم توضح فقد اكتفت بذكر تميم .

ومن بكر : بنو شيان (خمسة عشر يوماً) وبنو يشكر (ثلاثة أيام) ، وبنو حنيفة (يومان)

(١) معجم قبائل العرب ١/ ٩٣ والقرن العقد الفريد ٣/ ٣٦٠ - ٣٦٣ نهاية الأرب للقلقشندي ١٧٨ .

(٢) صفح جزيرة العرب للهمداني ١٦٩ . (٣) معجم قبائل العرب ١/ ١٢٦ .

(٤) العرب قبل الإسلام - جرجي زيدان ٢٥٤ .

(٥) الكامل لابن الأثير ١/ ٦١٢ . (٦) العقد الفريد ٥/ ١٩٢ .

(٧) العقد الفريد ٥/ ١٩٩ - ٢٠١ . (٨) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٠٢ .

وبنوتهم اللات (بومان) ، وينو عجل (يوم واحد) ، وينو بكر بداية الأيام التي لم توضحها للمصادر .

وبلغت هذه الأيام هذه المجموعة التي وصلتنا سبعة وأربعين يوماً خاضت يربوع منها أكثر من خمسة عشر يوماً ، وكذلك بنو شيان ، مما يشير إلى قوة هذين البطنين ، أو إلى ظهور فرسان منها قادرا القليلين إلى حروب مستمرة .

وظهر من شيان الفارس سبطام بن قيس الذي قال عنه ابن الأعرابي^(١) « كان لبسطام أربع وقلعت : أسر يوم الصحراء ، وظهر يوم قشوة ، وانهمز يوم العطال ، وقُتل يوم النقا » .

وظهر من يربوع أكثر من فارس منهم عتية بن الحارث اليربوعي ، وطريف بن قيس العنبري وقيس بن حاصم اللقري ، والاقمر بن حابس المجاشعي ، ولقيط بن زُرارة التميمي وأخوه معبد ، ومشم بن نُزيرة وأخوه مالك اليربوعيين ، والنعمان بن جساس ، وعبيدة بن طارق اليربوعي .

كما يبرز من فرسان بكر الخوفزان بن شريك ، ووائل بن صريم البشكري وعسرو بن مرثد ، وأبجر العيجلي وأقيم مأوى الصعاليك، والأصم ، وطريف بن شراحيل .

أما ذوافع هذه الأيام فيمكن دمجها إلى: الغلوة من أجل النهب والسلب وبشكل غالية أسباب ذوافع هذه المجموعة، ومنها الأثر الذي حدث بسبب الأيام المتتالية والتي كانت تختلف الآثار، ومنها الصراع على الماء ومنها الصراع على الأرض .

وإن صححت الروايات التي بين أيدينا فقتل هذه المجموعة كثيرون إذا ما قورنوا بالمجموعات الأخرى ، فهم يعدون بثلاث من كل جانب . وربما مال بعض الرواة إلى المبالغة ولكن تبقى بعض الحقيقة بأن كثرة هذه الأيام وما كانت تحدثه من حالات أثار ، كانت كفيلة برفع عدد الضحايا على الرغم من حرص القبائل التي تغزو على تجنب القتل ما وسعها ذلك .

وعلى الرغم من أن أيام هذه المجموعة كثيرة إلا أن ثمة ضوابط تعيننا في ترتيب هذه الأيام ، أو بعضها تاريخياً ، فنستعين بفرسان هذه الأيام ، كما نستعين بما ذكرته المصادر من أن هذا اليوم كان بعد ذلك أو قبله ، كما نستعين بوقائع حدثت بسبب وقلع أخرى . ونستطيع أن نطمئن

(١) معجم البكري ١٠٧٥/٣ .

تخميناً يقترب من الصواب أن الأيام التالية مرتبة تاريخياً : يوم يُعَفُّ نُفْسُهُ ، ويوم الغَيْط ، ويوم كَيْحَان ، ويوم ذي قار الأول ، ويوم صَفْوَاق ، ويوم غول الأول ، ويوم مُسَابِض ، ويوم الزُّوْتَرَيْن ، ويوم جَدُود ، ويوم مُنْبِجَة ، ويوم العَظَل ، ويوم ذي طَلْح ، ويوم الشَّج ، ويوم قَلَج ، ويوم الشَّيْطُون . أما الأيام الأخرى فلم نستطع ، أما لأنه لم يذكر منها ما يعرنا ، وإما لأنها لم تُعرف منها إلا الاسم .

ويجب الحذر عند دراسة هذه المجموعة من تعدد أسماء اليوم الواحد ، فيوم ذي طَلْح هو يوم بَلْقَاء ويوم العُشْد ويوم أود جُزْوف طُنْج وفي حَتَل ، ويوم العَظَل هو يوم أَعَشَاش ويوم الأَيَاد ويوم الأَفَاقَة ويوم مُنْبِجَة ، وأمثلة ذلك كثيرة .

ولن نعرض لدراسة أيام هذه المجموعة لأنها كثيرة ومتشابهة ، ويستطيع من يرغب في دراستها أن يرجع إليها في مصادرها^(١) .

أيام قيس وكثانة :^(٢)

وتضم هذه المجموعة ، فيها وصل إلينا ، أياماً ثلاثة متسلسلة ، كل يوم مرتبط بسابقه ، فهو نازل ليوم السابق له . وبقربها هذه المجموعة هما : بنو سَكَم من قيس وبنو فُرَاس من كثانة .

وكان الشاعر لهذه الأيام ، بالإضافة إلى الفخر ، الغزو والصراع على موارد العيش من أجل البقاء . ويطلق كثانة وفارسها في هذه الأيام والذي يعد ثمرة جاً حياً صادقاً للفروسية والشجاعة

(١) مصادر هذه المجموعة : التفاضل في الصفحات : ٦٧٩/٢ ، ٥٨٣/٢ ، ١٤/١ ، ١٠٢٠/٢ ، ٤٩/١ ، ٧٨١/٢ ، ٥٤/١ ، ٧٣ ، ١٨ ، ١٩٠ ، ٢٦٨ ، وذكر ثلاثة عشر يوماً ٣٠٥/١ .
العقد الفريد ١٨٢/٥ - ٢١٢ وذكر منها اثنين وعشرين يوماً ، الكامل لابن الأثير الصفحات ١/٦٢٨ ، ٦١٠ ، ٦٠٤ - ٦٠٦ ، ٦٥٤ ، ٦٠٢ ، ٦٢٨ .
العمدة لابن رُشَيْق ٢/٢١٥ وما بعدها وذكر تسعة أيام .
جميع الأمثال للمبدئي نظر الصفحات : ٥٣٧/٢ ، ٥٣٣/٢ ، ٥٢٢/٢ ، ٥٣٢/٢ ، ٥٣٠/٢ ، ٥٣٤/٢ وذكر منها واحداً وثلاثين يوماً . ٥٣١/٢ ، ٥٣٦/٢ ، ٥٢٤/٢ ، ٥٣٥/٢ ، ٥٢٩/٢ ، ٥٢١/٢ ، ٥٢٨/٢ ، ٥٢٥/٢ ، ٥٢٣/٢ ، ٥٢٦/٢ .
الأغاني / كتب ١٧/٢٥٥ ، ١٧/٣١٨ - ٣٢٢ .

(٢) مصادر دراسة هذه المجموعة : العقد الفريد ٥/١٧١ - ١٧٦ ، الأغاني / ثلاثة ١٦/٢٤ - ٣١ ليوم الكندي ، معجم البلدان ٧/٢٢٤ ، ١٢٥/٢ ، نهاية الأرب للتوحيدي ١٥/٣٧٣ - ٣٧٥ ذكر يوم الكندي والقيفاء ، معجم البكري ٤/١١٢٠ ، ١/٢٤٧ ، ٣/١٠٣٦ .

والنبل ، هو ربيعة بن مكرم حلي النعمية حياً وميتاً والذي يستغضب الناس بتدحون شجاعته حياً وميتاً من غير عصيته ، وقد سقط هذا الفارس الشجاع يوم الكندي صريعاً^(١) . وبطل سليم وفارسها مالك بن خالد بن صخر بن الشريد الذي قتلته كنانة يوم بُرزة^(٢) ، فتولى القيادة بعده هيثم ابن خالد بن صخر فقتل يوم بُرزة ، فخلفه كُرز بن خالد بن صخر فقتل في نفس اليوم قتلهم عبد الله بن جدل ، فخلف كُرزاً أخوه عمرو^(٣) .

وقد جرت أحداث هذه المعركة حول مكة ، حيث تقطن القبيلتان .

وأول هذه الأيام يوم الكندي ، وقد رواه صاحب الأغاني عن أبي عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء أن فزراً من بني سليم تنافروا مع نفر من بني فراس ، فقتلت رجلين من بني سليم ، ثم ودوها ، ثم خرج قيسة بن حبيب السلمي غلباً فلقى طعناً من بني كنانة بالكندي^(٤) في ركب من قومه ، وبصر بهم نفر من بني فراس فيهم عبد الله بن جدل الطعان ، وبيعة بن مكرم ، فظن بنو فراس أن بني سليم جاءت تطالب بدمهم ، وذهب ربيعة بين مكرم يستطلع الخبر ، ثم نشبت الحرب ، وقتل ربيعة في هذا اليوم قتل قيسة بن حبيب السلمي وقد قدر بعضهم حدوث هذا اليوم سنة ٦٠٢ م^(٥) .

فلما قتلت بنو سليم ربيعة بن مكرم رجعت بنو كنانة ، وأقاموا ما شاء الله ، ثم إن مالك ابن خالد بن صخر بن الشريد غزا بني كنانة ، فأغار على بني فراس بُرزة^(٦) ووليس بني فراس عيد الله بن جدل ، وقتل في هذا اليوم مالك بن خالد بن صخر بن الشريد ، وكُرز بن خالد بن صخر بن الشريد ، قتلها عبد الله بن جدل . وقد لبى عمرو بن خالد أخاه مالكاً عن غزو بني فراس فقصاه .

ثم إن بني الشريد حرموا على أنفسهم النساء والدمن حتى يذركوا نارهم من بني كنانة ، فغزا عمرو بن خالد بن صخر بقومه حتى أغار على بني فراس^(٧) ، فقتل فزراً منهم : عاصم بن

(١) (الأغاني) ثقافة ١٦ / ٢٥ .

(٢) العقد الفريد ٥ / ١٧٤ .

(٣) الكندي : موضع بين مكة والمدينة أنظر البكري ٤ / ١١٦٩ ، بالوت ٧ / ٢٢٤ .

(٤) رياض الأديب - لؤي شيفو ص ٨٨ .

(٥) أنظر لتحديد المكان معجم بالوت ٢ / ١٢٥ ، معجم البكري ١ / ٢٤٧ .

(٦) كان اللذان في الفناء وهي مغارة لا ماء فيها أنظر معجم البكري ٣ / ١٠٣٩ .

للعلّيّ ، ونفلة السلميّ وللعارك ، وعمرو بن مالك وحسن وشريح ، وسى سياً فبهم ابنة
مكدم أخت ربيعة .

وقتل هذه المجموعة ، استناداً إلى ما بين أيدينا من أخبار ، لا يتعدى أحد عشر رجلاً .
والصادر التي تعرض هذه المجموعة يتفلون جميعاً عن أبي عبيدة الذي نقل عن أبي عمرو
ابن الحلاء .

٤ - حروب الفيجار :

وفريقا القتال في هذه المجموعة قريش وكثانة كلها في جانب وهوازن كلها في الجانب
الأخر ، فهي إذاً بين قيس وكثانة ، وقد سميت بذلك لأنها كانت في الأشهر الحرم ، ولأنهم
تفاجروا فيها ، سمّتها قريش بذلك . يقول ابن إسحق : « وإنما سمي يوم الفيجار بما استحلّ
هذان الحزبان ، كثانة وقيس عيلان » ، فيه المعلوم بينهم ^(١) .

وقد اختلفت المصادر في تفسيات هذه الأيام ، ولكنها لم تختلف في وقائعها ، فالذين
جعلوها أربع وقائع قسموها على النحو التالي : ^(٢)

الفيجار الأول أو فيجار الرجل وهو يثر بين مئثر الضمريّ .

الفيجار الثاني أو فيجار الرياح وهو الفرد .

الفيجار الثالث أو فيجار المرأة القصية .

الفيجار الرابع أو الفيجار الآخر أو فيجار التراض وهو اعظمها .

والذين جعلوها فيجارين ^(٣) ، جعلوا الفيجار الأول يضم أياماً ثلاثة هي في التنظيم الأول
الفيجار الأول والفيجار الثاني والفيجار الثالث ، وجعلوها في فيجار واحد لأنها لم تكن قتالاً بالمعنى
الحقيقي للقتال ، فلم تهرق إلا دماء يسيرة .

(١) الروض الأنف - السهيلي / ١ / ٩٢ .

(٢) أنظر التبيين والإشراف للمسعودي ١٧٩ ، جميع الأمثال للبيهقي ٢ / ٥١٧ ، العملة لابن رشيق
٢ / ٢١٨ .

(٣) أنظر الأضاني / ثلاثة ٢٢ / ٦٠ - ٨٠ ، الكامل لابن الأثير ١ / ٥٩٨ - ٥٩٥ ، نهاية الأرب للزبيدي
١ / ٤٣٣ .

والفيجار الثاني عندهم هو الفيجار الرابع في التقسيم الأول .

وأما ابن قتيبة فلا يعتبر الأول والثاني والثالث فيجاراً ويعتبر الرابع الفيجار الأول .^(١)

وزمن أيام الفيجار أمكن تحليده بشكل تقريبي لأن الرسول ﷺ حضر بعض وقائع مع أعيامهم ، ومن هنا اطلقوا في الحديث ، قال ابن هشام (الروض الأنف / ١ / ١٢٠) ومن تابعه من ابن عبد ربه^(٢) والميداني^(٣) يقولون إن الرسول ﷺ حضرها وعمره أربع عشرة سنة ، وأن بين الفيجار الأخير ومبعث الرسول ستاً وعشرين سنة وابن إسحق^(٤) ومن تابعه يقولون إنه حضرها وعمره عشرون سنة . وفي الأغاني غير أن ، أولها يروي فيه أن بين يوم نَحْلَة ومبعث الرسول الكريم ستاً وعشرين سنة ، وأنه شهدها وله أربع عشرة سنة ورواية هذا الخبر أبو عبيدة^(٥) ، وثانيها يروي فيه أنه شهدها وهو ابن ثمان وعشرين^(٦) ويروي البغوي أن الرسول شهدها وله سبع عشرة سنة وقيل عشرون .^(٧)

ونستطيع التوفيق بين الرأيين ، كما وفق بينها باحث آخر^(٨) ، إذا علمنا أن أيام الفيجار الرابع وقعت في أربع سنين ، أن تقول بأن الحرب قد وقعت أوزارها وعمره أشرف على العشرين سنة .

ويروي صاحب الأغاني في بداية حديثه عن أيام الفيجار فيقول : الفيجار فيجاران وكانت هذه الحروب بين قريش وقيس حيلان في أربعة أعوام متواليات ، ولم يكن لقريش في أولها مدخل ، ثم التفتت بها .

ولما الفيجار الأول فكانت الحرب فيه ثلاثة أيام ولم تسم باسم شهرتها ، ولما الفيجار الثاني فإنه كان أعظمها ، لأنهم استحلوا فيه الحرم ، وكانت أيامه : نَحْلَة ، وشَنْطَة ، والعبلاء ، وعكاظ ، والحريرة^(٩) .

وقد كان أول أمر الفيجار أن يدور بين معشر الكنتي وكان يستطيل حل من ورد عكاظ ،

-
- | | |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| (١) العنفة ٢ / ٢١٨ - ٢١٩ . | (٢) العقد الفريد ٥ / ٢٥٣ |
| (٣) مجمع الأمثال للميداني ٢ / ٥١٧ | (٤) الروض الأنف - للسيوطي ١ / ١٢١ |
| (٥) الأغاني / ثقافة ٢٢ / ٦٣ | (٦) المصدر السابق ٢٢ / ٦٣ |
| (٧) تاريخ البغوي - طبعه النجف ٢ / ١١ | (٨) أسواق العرب - سديد الألفاني ١٤٤ . |
| (٩) الأغاني / ثقافة ٢٢ / ٦٠ . | |

جلس بسوق عكاظ أول يوم من ذي القعدة ، فعد رجله وقال : أنا أمر العرب ، فمن كان أمر منها فليضرب بالسيف ، فضرب الأحمر بن هوازن من بني نصر بن معاوية ، فكان بين القبيلتين تشاجر دون أن تقع بينهما دماء^(١) .

وأما اليوم الثاني فكان الذي هاجه أن شبلاً من قریش وبني كنانة قعدوا إلى امرأة من بني عامر بسوق عكاظ ، وكانت جميلة ، فسألوها أن تسفر فابت ، فقام أحدهم فجلس خلفها ، وحلّ طرف درعها ، وشدّه إلى فوق حيزتها ، وهي لا تعلم ، فلما قامت انكشف درعها عن دبرها فضحكوا منها ، فصاحت يا آل عامر ، فثاروا وحملوا السلاح وحملته كنانة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وولعت بينهم دماء ، فوسط حرب بن أمية واحتمل دماء القوم ، ولوحى بني عامر من مثلة صاحبهم^(٢) .

وأما اليوم الثالث فكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر ابن معاوية فأعزم الكنتاني ، ولا أسماء وأهله الجشمي في سوق عكاظ بفرد ، وجعل يناهي : من يبعني مثل هذا الرّباع ، وهو الفرد ، بما لي عل فلان ابن فلان الكنتاني ؟ ولما صوته بذلك ، قلبا طال تدلّوه وتعيّره بني كنانة ، مر به رجل منهم فضرب الفرد بسيفه فقتله ، فهتف الجشمي : يا آل هوازن ، وهتف الكنتاني : يا آل كنانة ، فتجمع الحيان واقتتلوا حتى لحاجزوا ، ولم يكن بينهم قتل ، ثم كفوا وقالوا : أقي ربّاح ترفقون دماءكم وتقتلون أنفسكم ؟ وحلّ عبد الله بن جدهان ذلك في ماله بين الفريقين .^(٣)

أما الفجار الثاني ، لر الرابع ، فهو أعظمها وهو الذي استحل فيه الحرم ، وتفاقم فيه الشر ، وكان الذي هاجه قتل الرياض الكنتاني عروة الرحاح بن عتبة بن جعفر بن كلاب ، ورفضت هوازن أن تقتل الرياض بعروة ، لأن عروة سيد هوازن ، والرياض خليف بني كنانة ، وأرادوا أن يقتلوا به سيداً من قریش^(٤) .

(١) انظر الأغانى ٢٢ / ٦١ ، المصنعة ٢ / ٢١٨ والكامل لابن الأثير ١ / ٥٨٨ والمقد الفريد ٥ / ٢٥١ .

(٢) انظر المقصد الفريد ٤ / ٢٥٢ ، المصنعة ٢ / ٢١٨ الذي يروي أن الذي حمل الدماء الحارث بن أمية ، الأغانى / ثلاثة ٢٢ / ٦٢ ، الكامل لابن الأثير ١ / ٥٨٨ .

(٣) الأغانى ٢٢ / ٦٢ - ٦٣ ، المقصد الفريد ٥ / ٢٥٢ المصنعة ٢ / ٢١٩ ، الكامل لابن الأثير ١ / ٥٨٨ .

(٤) المقصد الفريد ٥ / ٢٥٣ الأغانى ٢٢ / ٦٣ ، الكامل لابن الأثير ١ / ٥٨٨ وما بعدها .

وأول حروب يوم الفجار الثاني ، أو الآخر يوم تَحْلَة^(١) ، وبينه وبين بعث النبي ﷺ ست وعشرون سنة ، شهد النبي ﷺ ذلك اليوم مع قومه وله أربع عشرة سنة ، وكان ينزل صموته النبل ، هذا قول أبي عبيدة . قال غيره : بل شهدا وهو ابن ثمان وعشرين^(٢) ، والرأي الثاني بعيد لأنه لو كان عمره ثانياً وعشرين سنة لاشترك في الحرب اشتراكاً فعلياً ، وهذا ما لم يقله أحد .

وكان الذي هاج هذه الحرب ، كما أسلفنا قتل البراء بن قيس بن رافع الكنتاني عروة الرجال ، وسبب قتله أن النعمان كان يبعث إلى سوق عكاظ كل سنة لطيفة يبيزها له سيّد مضر فبئاع ويشترى له بشمها الأدم والحرير ونحوه ، فجهز النعمان اللطيفة وقال : من يبيزها ؟ فقال البراء : أنا أبيزها على بني كنانة فقال : إنما أريد رجلاً يبيزها على أهل نجد ، فنقدم عروة الرجال بن عتبة بن جعفر بن كلاب قالاً : أنا أبيزها لبيت النعمن ، فقال البراء : وعلى بني كنانة تجهزها يا عروة ؟ قال : نعم وتناقرا ، ثم ترمص البراء بعروة وهو يشخص بالقافلة حتى قتله في خلفة عنه . وبلغ قريشاً الخبر وهي في عكاظ ، فجهزت عبد الله بن جُدعان الذي كانت العرب تضع أسلحتها عنده حتى يفرحوا من أسواقهم وحجهم . وأعيروه الخبر وطلبوا منه أن يمتس سلاح هوازن فأبى ، ولكنهم بعثوا إلى أبي براء زعيم بني عامر يبررون قسحهم من السوق ، وعللوا إلى مكة ، وبلغ هوازن الخبر فركب من حضر في أثرهم ، فأذركوهم بتَحْلَة^(٣) ، فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم وحنّ عليهم الليل فكفوا ، فتأذى أحد بن عامر : يا معشر قريش ، ميعاد ما بيننا هذه الليلة من العام المقبل بعكاظ . وكان رؤساء قريش حَرَب بن أمية ، وابن جُدعان ، وهشام بن ألفيرة ، ورؤساء قيس عمر بن مالك ملاعب الأُسّة ، وكندام بن عمير ، ومعهود بن سَهْم الثقفي وسبيح بن ربيعة النصري ، والصنعة بن الحارث الجُشمي .

وفي العام التالي جمعت كنانة قريشها وعبد منافها والأحباب ومن حنّ بهم من بني أسد ، وسلح يومئذ عبد الله بن جُدعان مائة كميّ بأداة كليلة سوى من سلح من قومه . وجمعت سليم وهوازن جرحها وأحلافها غير كلاب وبني كعب فأنها لم يشهدا يوم الفجار غير يوم تَحْلَة^(٤) ، فاجتمع القوم بشمطة^(٥) من عكاظ في الأيام التي تواجدوا فيها ، وحل كل قبيلة سيدها ، غير أن

(١) الأغانى ٢٢ / ٦٣ العقد الفريد ٥ / ٢٥٣ ، مجمع الأمثال ٢ / ١٥٨ .

(٢) الأغانى / تَحْلَة ٢٢ / ٦٣ .

(٣) أنظر معجم البلدان ٨ / ٣٧٥ .

(٤) أنظر معجم البلدان ٥ / ٢٩٥ وصحيح الأخبار ٣ / ١٦٦ .

أمر كتابة كلها إلى حرب بن أمية ، وأمر هوازن كلها إلى مسعود بن معتب الثقفي . وتسلط على الناس وزحف بعضهم إلى بعض ، فكانت الدائرة في أول النهار لكتابة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصاروت وانقضت كتابة ، فاستحر القتل فيهم ، قتل منهم تحت رايهم مائة رجل ، ولعل ثمانون ، ولم يقتل من قريش أحد يذكر^(١) .

ثم جمع هؤلاء وأولئك والتقوا على قرن الحول في اليوم الثالث من أيام عكاظ ، والرؤساء على هؤلاء وأولئك الذين ذكرنا في يوم شحطة ، التقوا بالعبلاء^(٢) وهو موضع قريب من عكاظ فكان قتال شديد ، واهزمت كتابة ، وقتل العولم بن غزيلة والد الزبير بن العوام ، قتله مرة بن معتب الثقفي^(٣) .

ثم كان اليوم الرابع ، فجمع هؤلاء وأولئك ، والتقوا على قرن الحول بشرى^(٤) ولم يكن بينهم يوم أعظم منه ، والرؤساء على الفريرين من ذكرنا ، وحل ابن جدهان يومئذ مائة رجل على مائة بعير من لم تكن لهم حولة^(٥) ، فالتقوا ، وخشيت قريش أن يجري عليها مثل ما جرى يوم العبلاء ، فبذرت حرب وسفيان وأبوسفيان بن أمية أنفسهم ، وقللوا : لا تبرح حتى نموت مكاننا ، فاقبل الناس قتالاً شديداً وصاروت قريش وكنته ، فانهزمت هوازن وقتلت قتلاً خريعا^(٦) .

ثم جمع هؤلاء وأولئك ، والتقوا على رأس الحول بالحزيرة^(٧) وهي حرة إلى جنب عكاظ ، والرؤساء هم الذين كانوا في سائر الأيام ، إلا بلعاء بن قيس فإنه كان قد مات فصار أخوه مكانه على عشيرته ، فالتقوا ، فانهزمت كتابة ، وكان آخر الأيام الخمسة التي تراخفوا فيها . وقتل يومئذ أبوسفيان بن أمية ، وثمانية نفر من كتابة قتلهم عتيان بن أسد^(٨) .

(١) العقد الفريد ٥ / ٢٥٦ - ٢٥٧ ، الأغلبي / ثلاثة ٢٢ / ٦٨ - ٧١ ، جميع الأشكال ٢ / ١٥٨ وقد ذكر اليزيدي أن هذا اليوم بن بني هاشم وبين عبد شمس وعلاء عتقا .

(٢) نظر معجم البلدان ٦ / ١١٣ صحيح الأخبار ٥ / ١١١ .

(٣) العقد الفريد ٥ / ٢٥٧ ، الأغلبي / ثلاثة ٢٢ / ٧١ - ٧٢ .

(٤) واسم هذا اليوم في الأغلبي وجميع الأشكال : عكاظ وصاحب العقد يسميه شرب .

(٥) الأغلبي / ثلاثة ٢٢ / ٧٢ جعل الذين حلوا الق رجل .

(٦) العقد الفريد ٥ / ٢٥٧ الأغلبي ٢٢ / ٧٢ - ٧٦ ، جميع الأشكال ٢ / ٥١٩ ، معجم البلدان ٥ / ٢٤٨ .

(٧) معجم البلدان ٣ / ٣٦٣ .

(٨) العقد الفريد ٥ / ٢٥٨ - ٢٦٠ ، الأغلبي / ثلاثة ٢٢ / ٧٦ - ٧٨ ، جميع الأشكال ٢ / ٥١٩ .

ثم كان الرجل منهم بعد ذلك يلقي الرجل ، والرجلان يلتقيان الرجلين فيقتل بعضهم بعضاً ، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يأتي من عليه الفضل في القتل إلى أهله ، فأبى ذلك وعقب بن معتب وخالف قومه ، واندس إلى هوازن حتى أخارت على بني كنانة ، فكان منهم بنو عمرو بن عامر بن ربيعة ، عليهم سلمة بن سعد البكائي وبنو حلال عليهم ربيعة بن أبي طليان الحلاتي ، وبنو نصر بن معاوية عليهم مالك بن عوف ، وهو يومئذ أمرد ، فأغاروا على بني ليث بن بكر بصحره الغميم فكانت لبني ليث لول النهار ، فقتلوا عبيد بن العوف البكائي ، فله بنو مدليج ، وسبيع بن المزمل الجسري ، حليف بني عامر ، ثم كانت على بني ليث آخر النهار ، فانهزموا واستحرق القتل في بني الملح بن يعمر بن ليث وأصابوا نعباً ونساء يومئذ .

ثم تراضوا بأن يعدوا القتل ، فبدوا من فضل ، فكان الفضل لقيس على قريش وكنانة ، فاجتمعت القبائل على الصلح ، وألا يعرض بعضهم لبعض ، فوهن حرب بن أمية ابنه أيا سفيان ابن حرب ، ووهن الحارث بن كنانة العبدوي ابنه الثغر ، ووهن سفيان ابن عوف ابنه الحارث حتى وديت الفضول ، ويقال : إن حبة بن ربيعة تقدم يومئذ فقال : يا معشر قريش ، هلموا إلى صلة الأرحام والصلح ، قالوا : وما صلحتكم هنا فإنا موتورون ؟ فقال : على أن تليي قتلاكم ، وتتصدق عليكم بقتلاتنا ، فرضوا بذلك ، وساد حبة مذ يومئذ وقال : فلما رأيت هوازن رهائن قريش بأيديهم رغبوا في العفو فأطلقوهم^(١) .

وروى أبو عبيدة : أن النبي ﷺ شهد سائر الأيام إلا يوم تحلة^(٢) وهذا القول مخالف لما ورد أثناء الحديث عن يوم تحلة بأن النبي ﷺ شهد ذلك اليوم .

وكان الفضل عشرين قتيلاً من هوازن ، فرداهم حرب بن أمية فيما تروى قريش وبنو كنانة تزعم أن القتل الفاضل قتلهم ، وأنهم هم ودعهم^(٣) .

ورواة هذه المجموعة من الأيام أبو عبيدة ونقل عن أبي عمرو بن العلاء وابن إسحاق ، وابن قتيبة . أما ما ذكره من دوافعها ، إنما كانت دوافع ظاهرية طغت على سطح الأحداث ، أما السبب الحقيقي لهذه الأيام فهو النزاع على النفوذ التجاري والأدبي بين قريش وأحلافها وبين

(١) الأغلاني / مجلة ٢٢ / ٧٨ - ٨٠ ، الكامل لابن الأثير / ١ / ٥٩٥ .

(٢) الأغلاني / مجلة ٢٢ / ٧٩ .

(٣) الأغلاني / مجلة ٢٢ / ٧٩ .

هوازن المعروفة بعددها وبطشها^(١) . ويدو من سير الأحداث أن قريشاً لم تكن رافضة فيها لميلها إلى السلم ولتفروح عكاظ في وسط أرض قيس عيلان ولم يكن السبب الحقيقي إلا صراعاً بين قبائل الحجاز على السلطة .

والقطاع الذي تسم به هذه المجموعة هو طابع الاعتدال وعدم العنف ، على الرغم مما يوحي به الاسم ، وقد حرص الفريقان على الأعراف القبلية ، وتجل ذلك بوضوح في رفض ابن جُدعان احتباس أسلحة هوازن ، كما تجل اعتدال الفريقين في تأجيلهم الحرب إلى موعد عكاظ من كل عام ، وكان كلاً منهما أراد تدعيم نفوذه ، ولم يجد الفريقان عتاء في الصلح ، كما تجل حرص الفريقين على الأعراف القبلية في سماح معتب بن مسعود الثقفي لزوجته أن تحير بني ثومها من قريش إذا هُزمت قريش ، وعندما انتصرت قريش أجارت رجلاً هوازن .

أيام قيس وتميم :

وهذه المجموعة لا ترتبط فيها بينها برابط ، إلا الرغبة في الغزو ، فقد وصلنا منها سبعة عشر يوماً ، خمسة منها لم يصلنا من أخبارها إلا الاسم والفريقان أوردتها الميداني وهي : يوم قارب لضبة على كلاب^(٢) ، ويوم الدغينة (لمازن على سُلَيْم)^(٣) ، والكُفْلانة (لنزارة على عمرو بن تميم)^(٤) ، ومزلق (لسميد على عامر)^(٥) ، وداب (عيس على سعد تميم)^(٦) . ولم يشذ عن سبب الغزو إلا يوم واحد وهو يوم الفراوات^(٧) ، حيث قتل زهير بن جذاعة العيسى قتله عامر بقلعه لها ، ورغبة في التخلص من سيطرة عيس عليها ، ويوم رَحْرَحان الثاني الذي ستحدث عنه .

والقبائل المشتركة في هذه الأيام : عامر بن صعصعة ، عيس ، سُلَيْم ، شَطَفَان ، فزارة ، باهلة ، تميم ، وضبة .

ولما كنا لا نجد سبباً عاماً يجمعها ، فإن تحديد الفترة الزمنية لحدوثها وترتيبها زمنياً أمران متعذران ، ولذا فإننا ستحدث عنها باختصار حديثاً قوياً ، كل يوم بمفرده .

(١) أسواق العرب - سعيد الأفغاني ١٤٤ - ١٦٢ .

(٢) جميع الأمثال / ٢ / ٥٣٧ . (٣) جميع الأمثال / ٢ / ٥٣٠ .

(٤) جميع الأمثال / ٢ / ٥٣٦ . (٥) جميع الأمثال / ٢ / ٥٣٦ .

(٦) جميع الأمثال / ٢ / ٥٣٧ . (٧) الأفغاني / كتب ١١ / ٨٢ - ٩٣ .

قضى يوم السويان أو السويان^{١٤} غزت بنو عامر ثيماً وضبّة فالتقوا ، وكان رئيس ضبّة حسان بن وثيرة ، فأسره يزيد بن الصديق الكلبي ، وانتهزت ثيم واقتدى حسان بالكف بعير فداء للولك ، ثم أغار يزيد بن الصديق بعد ذلك على عصفير النعمان بلدي لبنان ،

وفي يوم القرن^{١٥} غزا عمرو بن عمرو بن عثس من بني دارم ، فأغار على بني عيس وأخذ إبلاً وشاة ، ثم أقبل حتى إذا كان أسفل من ثبّة أقرن نزل فالتقى بجارية من السبي ، وأفرقه الطلب ، فالتقوا . فقتل عمرو قتله أس الفوارس بن زيد العبسي ، وهزمت ثيم ، وأوتدوا ما في ، أيديهم وفي العملة إشارة إلى أن عمرو بن عمرو خرج مرافقاً للنعمان بن المنذر .

وفي يوم اللوت^{١٦} لو يوم إرم الكلبة أو العتاب أو العثابين ، أغار يثيم بن سكة القشيري على بني العنبر بن عمرو بن ثيم ، فالتى الصريح بني عمرو بن ثيم فالتبعوه حتى لحقوه ، وقد نزل اللوت ، وهو يقسم الرباع ، ويعطى من معه فتلاحقوا واقتلوا ، وأسر في هذا اليوم عتب ابن عتاب الميثم بن عامر القشيري وأسر يزيد بن أزهر المازني بجير بن سلمة ، إلا أن عتب بن عتاب ضربه فقتله ، وانتهزت بنو عامر وقتل رجالهم . ويذكر صاحب العملة أن الذكر كان لبني يربوع في هذا اليوم ، وإنما أغارت قشير على بني العنبر ، فاستنقذ بنو يربوع أموال بني العنبر وسعهم من بني عامر . بينما يذكر ابن الأثير أن جلود هذا اليوم تمتد إلى متخرة جرت بين عتب الرياسي وبجير العامري بمكانة غير فيها بجير لغتياً ، ويقيد ما جاء في العملة من أن يربوع هي التي استنقذت المال والسبي .

وفي يوم دارة ساسل^{١٧} غزا عتية بن شثير بن خالد الكلبي بني ضبة فاستاق نعمهم ، وقتل حصين بن ضرار الضبي أبا زيد الفوارس ، فجمع أبوه ضرار قومه وخرج ثالداً بابنه حصين ، فأغار على بني عمرو بن كلاب .

وفي يوم ذي نجيب^{١٨} أتت بنو عامر بحسان بن معاوية بن آكل المرار لللك تغزو بني حنظلة

(١) العقد القريد ٥ / ١٧٧ - ١٧٨ ، العملة ٢ / ٧١٣ ويحمله هو نفسه يوم ملزق ، ولكنه يجعل اليوم لبني ثيم على عيس وعامر ، جميع الأشكال ٢ / ٥٢٧ يحمله بين عيس وبني حنظلة .

(٢) العقد القريد ٥ / ١٧٨ ، الكامل لأبن الأثير ١ / ٦٣٨ ، العملة ٢ / ٢٠٤ ، النقائص ٢ / ٦٧٩ .

(٣) العقد القريد ٥ / ١٧٩ ، العملة ٢ / ٢٠٢ ، الكامل ١ / ٦٧٦ ، النقائص ١ / ١٣ ، ٧٠ ، جميع الأشكال ٢ / ٥٢٢ .

(٤) العقد القريد ٥ / ١٨٠ ، جميع الأشكال ٢ / ٥٣٦ .

(٥) العملة ٢ / ٢١٢ ، جميع الأشكال ٢ / ٥٢٣ ، النقائص ١ / ٥٨٧ .

ابن مالك بعد يوم جبلة يعلم، فتضحى لهم بنو مالك بن عمرو بن عمرو بن علس، وتركوا في صدورهم بني يربوع، فهزمت عامر هزيمة عظيمة، وأسر يومئذ يزيد بن الصعق، وزيد بن ثعلبة، وقتل حنيف الثميري، وعمرو بن الأحوص الذي كان رئيس عامر يومئذ، كما قُتل حسان بن معاوية، قتله حُشيش بن ثوران اليربوعي، وفي رأي صاحب النقائص أن سبب هذا اليوم رغبة بني عامر امتصاص بني حنظلة نهائياً بعد أن قتل فرسانهم، وسعت إلى كثرة تستصرها وتغريها.

وفي يوم الجوثين أو الرغام^(١) أغارت حثيبة بن الحارث اليربوعي على بني كلاب فأنزلهم، وقتل أخوه حنظلة وقتل حثيبة قاتل أخيه في نفس اليوم وهو حوثرة، وانتهز التكلانيون بعد أن أسرع القتل فيهم والأسر.

وفي يوم الصرثم أو الجرف^(٢) أغارت عيس على بني دليح بن يربوع، وهزمت عيس وأسرفت عليهم في قتل بني عيس، وأسر الحكم بن مروان بن زنباع العبسي، وزنباع وقرقة ابني زنباع. ويفصل صاحب النقائص السبب بأن عيساً أغارت على ربيعة بن مالك بن حنظلة فأتى الصريخ بني يربوع فركبوا في طلب عيس فأنزكهم.

وفي يوم الوئدة أو الوئدة - كما يسميه صاحب العمدة، أو الوئدات - كما يسميه صاحب شرح النقائص^(٣) - أغارت بنو هلال على نعم بني تهل - فأنزلتهم بنو تهل بالوئدة - وهي بالهذلاء - فما أغلت من بني هلال إلا رجل واحد : فارس طواف وقيل : أوب .

وفي يوم السكك^(٤) أغارت شقيق بن جرّه الباهلي على بني ضبة بسيل وحلجر وهما ووضشان لعكك، وضبة وعدي وعكك وتميم حلفاء متجاوزون فهزمتهم وأغلت عوف بن ضرار وحكيم بن قبيصة بعد أن جرح وقتلوا عيلة بن لثيب الضبي .

وفي يوم زخرحان الأول أغارت يربوع بن حشيش الدرامي على بني عامر وكان على بني عامر قُرَيْظ بن عبيد بن لبي بكر، وقتل يربوع .

-
- (١) الأغاني / كتب ١٥ / ٣٤٥ ، النقائص / ١ / ٤١٠ ، العمدة / ٢ / ٢١٤ .
 (٢) العمدة / ٢ / ٢١١ ، النقائص / ١ / ٣٣٦ - ٣٣٩ .
 (٣) النقائص / ١ / ٣٨٩ ، العمدة / ٢ / ٢١٣ ، جميع الأمثال / ١ / ٥٣٣ .
 (٤) معجم البلدان / ٥ / ١٠٠ (٥) العمدة / ٢ / ٢٠٩ .

أما يوم وحرسان الثاني^(١) فكان بعد أن قتل الخارث بن ظالم المري عائد بن جعفر العامري ، وهرب الخارث بطلب ملجأ يصحبه يملجأ إلى معبد بن زؤارة ، فآجروه ، ولم يرض قوم لقيط عن فعله ، وخطبوه غير بني شاموية وبني عبد الله بن حارم وبلغ الأصوص بن جعفر مكان الخارث بن ظالم ، فغزا معبداً ، فالتقوا برحسان فانهزمت بنو تميم وأسر معبد بن زؤارة ، أسره عامر والطفيّل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب ، فوفد لقيط بن زؤارة عليهم في قتاله ، واختلف الفريقان في القضاء ، طلبوا هم دية ملك ، ودفع لقيط مائتي بعير ، ورجل لقيط عن القوم ، ومنعوا عن معبد الماء وضاروه حتى مات هزألاً . وقيل إن معبداً رفض أن يطعم شيئاً أو يشرب فمات هزألاً ، وغير لقيط بذلك .

ويذكر الميداني^(٢) يوماً يسميه يوم منيع ويحمله لبني يربوع على بني كلاب ويقلده في هذه الرواية المخالفة للمصادر الأخرى ، والتي تذكر أن هذا اليوم لغنص على حبس ، بالهوت الحموي^(٣) الذي يقول : ويوم منيع من أيام العرب لبني يربوع بن حنظلة بن مالك على بني كلاب^(٤) .

أيام تميم والقبائل الأخرى :

وهكذا استعرضنا حروب تميم مع كل من بكر ، واليمن والمنافرة ، وقيس ، ولم يبق فياً وصلنا إلا حروبها مع تغلب . وهذا ما ستحدث عنه في هذه المجموعة .

لقد حاربت تميم تغلب في خمسة أيام هي : يوم الشّعب ، ويوم إزاب ، ويوم زؤارة الثاني ، ويوم لظاع ، ويوم ذي بكنى . كما كان بين بني أسد ويربوع يوم غزّ . ولقد خاضت يربوع منها أربعة أيام .

وكما حدثتنا المصادر فإن تغلب هي التي كانت تغزو قحطياً وربما غزونا ذلك أما لحصص أرض تميم ، وإما لأن هذا الغزو تمّ في فترة ضعفت فيها تميم .

(١) الألفي / دار الكتب / ١١ / ١٢٤ - ١٣٠ المقد القرند / ٥ / ١٣٩ - ١٤٠ ، العملة / ٢ / ٢٠٩ ، جمع الأمثال / ٢ / ٥٢٠ ، التفاضل / ١ / ٣٣٦ .

(٢) جمع الأمثال للميداني / ٢ / ٥٣٦ .

(٣) معجم البلدان / ٨ / ١٨٠ .

(٤) أنظر صحيح الأخبار / ١ / ٥٢ .

ففي يوم زُرود الثاني^{١٠٥} أغار عَزْمَةُ بن طارق التغلبي على بني يربوع ، وهم يَزْرود^{١٠٦} ، ففلروا به والنزوا فاقبلوا قتلاً شديداً ، ثم انهزمت تغلب ، وأسر فارس الحملة خزيمة أسره أنيف ابن جبلة النسي ، وأسيد بن حنثة السلطي : وتنازعا فيه ، فحكما بينهما الحارث بن قزاة ، فحكم بتأسيته لأنيف ، على أن لأسيد على أنيف مائة من الإبل ، ففدا نفسه بما بقي يعير وفارس . وفي يوم ذي يمدى^{١٠٧} أغار المُذَكَّل بن حَبِيرة التغلبي على بني ضبة بلي يَكْزي^{١٠٨} ، فاستمرخت ضبة بني سعد بن زيد مناة عليهم ، فانتهزمت بنو تغلب ، وأسر المُذَكَّل ونوه .

وفي يوم الثَّشْب^{١٠٩} غزا قيس بن شركاء التغلبي بني يربوع بالشَّعب^{١١٠} ، فاقبلوا ، فانتهزمت بنو يربوع ، فأسر سُحَيْم بن وُكَيْل الرياحي ففدا نفسه ، وأسر مسمع بن لؤثمة ، فوفد أخوه مالك على قيس واقتناه ،

وفي يوم إرباب^{١١١} غزا المُذَكَّل التغلبي بني يربوع وهم يرباب^{١١٢} ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وأصاب ثمناً كثيرة ، وسبى سبياً كثيراً ، فيهم زينب بنت حمير بن الحارث . . . بن يربوع ، وهي يومئذ حبيطة نساء بني قيس ، وركب حمية بن الحارث في أسراهم ففكهم أجمعين . ويضيف صاحب المعركة أن بني رياح سبقوا الغليل ليمتعوه الماء حتى يرد السي ، فاقسم المُذَكَّل : لأن رد عنهم الماء فارغاً لأنائكم فيه برئ من إنسان تعرفونه ، فاشتروا منه بعض السي ، وأطلق البعض .

وفي يوم نطاع^{١١٣} أغارت بنو قيس على بني رزاح من بني تغلب ، وغنمت أموالهم ونعى الحارث بن حنزة ذلك على بني تغلب :

لَمْ يَحْمِلُوا بَنِي رَزَاحَ يَبْرُقًا وَ نَطَاعَ لَمْ عَلَيْهَا دُعَا
وَيَعْدُثَا صَاحِبِ الْأَعْيَانِ عَنْ خَلَاةٍ لَعَبْرَةٍ بَيْنَ كَلْثُومِ التَّغْلِبِ عَلَى بَنِي قَيْسٍ^{١١٤} .

-
- (١) العقد الفرید ٥ / ١٨٧ المعلقة ٢ / ٢١٦ .
 (٢) انظر معجم البلدان ٤ / ٣٨٧ ، صحيح الأخبار ٥ / ٢٤٩ ، معجم البكري ٢ / ٦٩٦ .
 (٣) المعلقة ٢ / ٢١٤ ، جميع الأشغال ٢ / ٥٢٣ ، معجم البكري ١ / ٦٨١ .
 (٤) معجم البكري ١ / ٦٨١ .
 (٥) العقد الفرید ٥ / ٢٤١ . (٦) انظر معجم البلدان .
 (٧) العقد الفرید ٥ / ٢٤٠ ، المعلقة ٢ / ٢٠١ ، النفاذی ١ / ٤٧٣ ، جميع الأشغال ٢ / ٥٢٢ .
 (٨) معجم البكري ١ / ١٣٣ ، معجم البلدان ١ / ١٦٧ .
 (٩) معجم البكري ٤ / ١٣١٣ .
 (١٠) شرح المفاتيح السبع الطوال ٤٨٥ . (١١) الأعني / كتاب ١١ / ٥٥ .

أما بنو أسد فلها مع تميم يوم غزو ، فقد أغارت بنو أسد على بني يربوع ، فأتسحوا إليهم فأتى الصريح الحي ، فلم يتلاحقوا إلا مساء بموضع يقال له غزو ، وفي هذا اليوم قُتل طارس يربوع عتية بن الحارث اليربوعي ، وشد الربيع بن عتية على ذؤاب ، فأسره وهو لا يعلم أنه قاتل أبيه ، وبقي عنده أسيراً حتى قتله أبو ربيعة بإبل معلومة قاطعه عليها ، وثواعدة عكاظ في الأشهر الحرم ، وأقبل أبو ذؤاب بالابل ، وشغل الربيع بن عتية فلم يحضر السوق ، فظن أبو ذؤاب أن الربيع قتل ابنه بأبيه فرثاه ، فلما بلغهم الشعر قتلوا ذؤاب بن ربيعة .^(١)

وهذه هي أيام تميم ، ونرجو بعد أن عرضناها عرضاً سريعاً أن ندرسها لاستخلاص بعض النتائج فيما يتعلق بنواحيها ، والبطون المشتركة فيها ، والقبائل الأخرى التي حاربتها . بصلتها بها ، والشعراء الذين سطروا لنا أخبار هذه الأيام .

وتبدو لنا من خلال مجموعة أيام تميم التي بين أيدينا أن يربوعاً استأثرت بنصيب والفر من هذه الأيام ، إذ أنها اشتركت في واحد وثلاثين يوماً من أصل مائة وعشرة أيام جمعتها تميم . وتعليل هذه الظاهرة يشمل ثلاثة أمور :

أولها : أن يربوعاً كانت قوية متسكة فاستغلت ذلك في الضغط على جيرانها وساعدها على ذلك ظهور فرسان عتيدين قادوها في تلك الأيام والغزوات .

والثاني : أن نقاطس جرير والفرزدق هي التي مكثت من وصول هذا العدد من أيام يربوع .

والثالث : أن يربوعاً كانت أراضيها ومراعيها خصبة ، وأن ذلك جعلها تحيط أنظار القبائل الأخرى .

وإذا انتقلنا من بني يربوع نرى أن بني سعد تميم قد اشتركوا في تسعة أيام ، وحظلة في ستة ، وبني عمرو في خمسة ، وبني منقر في خمسة ، وبني غصية في ثمانية ، وكلاً من بني مجاشع وبني العنبر وبني هاشم وبني عبد مناة والرباب في يومين ، والعتالب من تميم في ثلاثة ، وبني مازن في أربعة ، وبني دارم في ثلاثة ، وبني طهية في يوم واحد .

(١) العدد الفريد ٥ / ٢٤٩ ، جميع الأمثال ٢ / ٥٣١ ، معجم البلدان ٣ / ٤٩٢ ، صحيح الأخبار ١ / ١٢٩ .

ولدينا بعد ذلك فيما تبقى من أيام المجموعة أربعة وعشرون يوماً ذكرتها المصادر دون تحديد بطن من بطون تميم بل ذكرت فيها دون تحديد .

أما القبائل التي التقت معها تميم في أيامها هذه فهي : بكر ، اليمن ، والمناذرة ، قيس ، وتغلب ، وأسد . كان لبكر منها سبعة وأربعون يوماً ، والتقت تميم واليمن في أحد عشر يوماً ، والتقت مع المناذرة في أيام أربعة ، والتقت تميم مع قبائل قيس بن عيلان في ثلاثة وعشرين يوماً ، ولها مع تغلب ستة أيام ، ومع الغساسنة يومان ، ومع الفرس يومان ، والتقت مع بني أسد في يوم واحد .

وقد نقل إلينا أحداث تلك الحروب سنون شاعراً من شعراء تميم ، وهذا العدد يعادل ربع عدد الشعراء الذين عطفوا لنا أحداث تلك الأيام التي هي موضوع بحثنا كله .

ولو صحت الروايات التي بين أيدينا لوجدنا أن تميم قد انتصرت في ثلثي هذه الأيام تقريباً ، وهزمت في حوالي ثمانية وثلاثين يوماً منها . وهذه النتيجة - إن اطمأن الباحث إليها - دلالة ، وهي أن تميم كانت قبيلة قوية الشكيمة ، لم تقهر إلا في ثلث أيامها التي خاضتها ، كما أنها لم تترك قبيلة إلا حاربها والتقت معها في ساحة العراك والتزال . كما أن النتيجة تظهر لنا أن عدو تميم الأول كان بني بكر ، ولهم قبائل قيس عيلان . ونبحث عن تعليل فلا نجد أوضح من خريطة توزيع القبائل في العصر الجاهلي ، فتميم تكاد تكون محاطة بقبائل قيس عيلان ، كما أن بكرأ تجاورها مباشرة . ومن هنا يبين لنا سر الحروب ، والغزو الذي لا نهاية له بين تميم وهذه القبائل . فكلها آتسوا من تميم ضعفاً ، أو انحصت مراعيها ، انتحمت القبيلتان . وفي كل يوم تتولد ثارات جديدة ، وهذه تحتاج إلى لقاءات جديدة للأخط بالثار وهكذا .

وعندما نبحث عن دوافع أيام تميم عامة ، نرى أن حروبها مع بكر كان الدافع الأول لها الصراع على أسباب الحياة ، ولا يعني هذا عدم وجود دوافع أخرى كالثار وغيره . ولكن الغزو والغنيمة ومحاولة الاستيلاء على موارد لقاء كانت كلها وراء جميع أيام بكر وليميم .

وعندما نبحث في أيام تميم والقبائل الفصحطانية ، فإننا نراها صراعاً بين قبيلة قوية ، وقبائل تحاول إخطاع قبائل الشمال بإحضارها تميم لأنها قبيلة قوية ، كثيرة العدد والعدة . ونجد الأيام بين الفريقين سجلاً بين الطرفين ، وقد تناولت اليمن والفرس في محاولة إخطاع هذه القبيلة ، فلم تكد تميم تخرج من تحت الصلطة والنفوذ عامل كسري ييم ، حتى فكرت قبائل اليمن في انتهاز

هذه القرصة والقضاء على نعيم نهائياً ، فكان أن حدثت لتعيم في يوم الثلاثاء الثاني ، ولكنها رقت على أعقابها .

ولكن هذا لا يعني أن نيماً كانت تنتظر حتى تغزوها قبائل اليمن أو عمال القرص بل هي التي طُلّا تعرضت للطيمة الملك وسلبتها وقتلت حراسها .

أما حروب نيم وليس بقيادتها المتعددة فإن الصراع على وسائل العيش ، والصراع على الحدود ، والصراع حول تقاليد ذلك المجتمع ، وعوامل أخرى كانت وراء تلك الحروب المتعددة بين نيم وبعوثها المختلفة ، وقبائل قيس بقيادتها المتعددة .

وإذا انتقلنا إلى حروبها مع المناذرة والغساسنة ، فإن هناك شبهاً بين طبيعة هذه الحروب وأسبابها وبين حروب نيم واليمن . وقد كانت يربوع أحد بطون تعيم كثيرة التعرض والتصدي لما في أيدي المناذرة . فأسيروا أن يمتدروها فجعلوا الرذافة لشخص من يربوع . وحينما فكر ملك المناذرة لتزاع الرذافة منهم ، ثارت بنو يربوع وأرسل الملك جيشاً لإخضاعهم ، ولكنهم هزموا الجيش وأسروا ابن الملك وأخذوا ، وأقنطرو للمدول عن رايه ونرى أن نيماً قطت بين المنذر فكان يوم أوارة الثاني .

ونستطيع أن نقول إن طابع حروب نيم مع القبائل التي حاربتها اتسمت بالعنف ، وذلك يعكس ما اتسمت به الأيام ، وتبرز هذه الظاهرة بوضوح في حروبها مع القبائل الضحطانية ومع قبيلة بكر .

أيام ربيعة فيما بينها أو حرب البسوس : (١)

وأيام هذه المجموعة بين بكر وتغلب ، تعتبر من أقدم الحروب القبلية وأشهرها ، وحدث زمنها بأواخر القرن الخامس الميلادي ، وكان آخرها حوالي سنة ٥٢٥ م بواسطة المنذر الثالث ملك الحيرة الذي عقد الصلح بين الحيين بعد نفاد القوى وتلال السواعد^(٢) .

(١) مصادر دراسة هذه المجموعة : التفاضل ١/ ٤٥٢ تحدث عن الكلاب الأول ، العقد الفريد ٥/ ٢١٨ - ٢٢٢ ، جميع الأمثال ٢/ ٥٢٩ ، الكامل لأبن الأثير ١/ ٥٤٩ عن الكلاب الأول ، الأغانى / دار الكتب ٥/ ٣٤ وما بعدها ، الأغانى / ثلاثة ٢٣/ ٢٥٤ - ٢٥٦ يوم التحاق ، العمدة ٢/ ٢٠٥ - ٢٠٦ المعارف لأبن قتيبة ٦٠٥ ، أمثال الضبي ٥٥ - ٦٠ .
(٢) لتاريخ العرب - مطول - حتى ١/ ١٢٠ .

ويحدثنا الرواة أن بكرأ وتغلب استقرتا بعد خزلز في مكان واحد فيها بين الذنائب والكلاب وواردات والقصب وما والاها^(١).

وكان يربط القبيلتين رباط من الصهر والخلف والمجبة ، ولكن هذا الاختلاط وتلك القرابة والمصاهرة لم تستطع القضاء على العصبية القبلية الضيقة .

وقد كان سيد القبيلتين كليب بن ربيعة بن الحارث من تغلب ، وكان متزوجاً من بنت مرة جليلة ، ويبدو أن الغرور والكبرياء أصابا كليباً ، فطغى ، وحى نفسه المراعي الخصبة والمياه ، وحرم على بكر الكثير من الأماكن ، ويحدثنا صاحب الأغاني^(٢) ، وأبو عبيدة^(٣) عن سؤال كليب لزوجته عن أمر وائل ، حتى إذا ما كرر السؤال أجابه : أغوي . ويشور كليب ويلعب إلى ناقة خلتهم فيرمي فضيلها . ويستمر تحرش كليب بهم وتكرار السؤال على زوجته ، ويستمر في منع الماء عنهم ، حتى كثروهم عليه ، فقتله جساس بن مرة وابن عمه عمرو وبذلك أشعل جساس شرارة الحرب بين الحيين .

لما المهداني^(٤) فيجعل سبب الحرب ناقة البسوس وأسماها (سركب) ، تلك الناقة التي كثرت يئس حمام في حى كليب ، فرمى ضرعها بهم فوثب جساس على كليب فقتله ، ودامت الحرب أربعين سنة .

وهكذا اشتعلت الحرب لسيين كما نرى : أولها طغيان كليب نفسه ، وثانيها إحساس بكر بأنها يجب أن تتخلص من زعامة كليب وفطروته ، وثالثها علمنا فإن العصبية القبلية تجعل القبيلة ترفض أي زعيم لها من خارج القبيلة مهما تكن صلته بهم ، فكانت مقلد هذا الإحساس أحد أبناء بكر وهو جساس بن مرة .

ويقتل كليب غسرت الغيلتان زعيماً من أشجع القرمان ، وأصبحت بطون الغيلتين بالحسرة الفاحشة التي شئت بها ربيعة ، فانشطت الثمر بن قاسط وغفيلة بن قاسط لتغلب ، واعتزل الحرب من بكر إحساساً منهم بظلم بكر لتغلب : يَشْكُرُ ، عجل ، بنو حنيقة ، بنو قيس ، جهم .

وقد اتطلفت هذه البطون المعتزلة للحرب من إحساس بأن مقتل كليب حسرة للجميع ، وأن الغيلتين أشبه بشيلة واحدة لها أبا وائل ، وبأن تغلب صاحبة الحق لأنها طالبة ثار .

(١) بكر وتغلب ٣٠ . (٢) الأغاني / دار الكتب ٥ / ٣٥ .

(٣) مجمع الإشتال ٢ / ٥٦٩ .

(٤) النفاذ ٢ / ٩٠٥ .

وسنعرض هذه المجموعة وأساليبها وأيامها ونتائجها بالتفصيل عندما نتحدث عن المهلهل
بطل هذه الحرب .

حروب قيس فيما بينها

أ - حرب داحس والغبراء^(١)

وهذه المجموعة كسابقتها سنرجى الحديث عنها بالتفصيل إلى حين دراستنا عشرة وحروب
قيسك عيس ودوره فيها ، في الباب الثالث من هذا البحث .

تدور أيام هذه الحرب بين عيس وذبيان في بداية الأمر ، ثم دخلتها قبائل أخرى منحلزة إلى
كلا الفريقين ، وبدأتها كما حدثتنا الروايات كان ذلك الرهان بين قيس بن زهير العبسي وحليفته
ابن بلتر الغزاري ، ذلك الرهان الذي اختلف على كيفية بدئه ، وأفراسه ومقتلده .

فأبو عبيدة في شرح النفاذ^(٢) يذكر أن الرهان - كما زعم بعضهم - إنما حاجه أن قيساً
دخل على بعض الملوك وعنده قتيعة لحديقة تغنيه بقول امرئ القيس :

دارٌ هيرٌ والرَّيبِ وفَرَكْنَا وليس قبلَ حوادثِ الأيامِ
« ومن لما ذكر نسوة من بني عيس »

فغضب قيس بن زهير وشق رداءها وشتمها ، فغضب حليفته ، فبلغ ذلك قيساً قائماً
بشرفه فوقف عليه ، وجعل يكلمه ، وهولا يعرفه من الغضب ، وهذه أفراس لما بها وقال :
ليرتبط مثلك مثل هذه يا أبا مَهر ؟ فقال حليفته أتعيبها ؟ قال : نعم فتجاريا حتى تراها .

ومصاحب العقد الفريد يجعل الرهان بين قيس بن زهير وحمل بن بلتر ، ويجعل داحساً

(١) مصادر هذه المجموعة : أمثال القيس ٢٦ - ٤٤ نقفاض ١ / ٨٣ - ١٠٨ ، ٤٢ ، ٤٠٧ ، ٢ / ٦٥٤ - ٦٧٨ ، العارف ، ، ، الأختي / ١١ - ١٣١ - ١٦٣ ، الأختي / ١٧ - ١١٦
العقد الفريد ٥ / ١٥٠ وما بعدها ، المبدعة ٢ / ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢ / ٢٠٧ ، ٢ / ٢٠٣ التكميل لابن
الثير ١ / ٥٦٦ - ٥٨٣ ، جميع الأمثال ٢ / ٥٣٣ - ٥٣٤ القاهر للمفضل بن سلمة بن عاصم ٢١٩ -
٢٣٠ .

(٢) نقفاض ١ / ٨٥ ، أمثال القيس ٣٧ .

لقيس ، والغبراء لحمل بن بدر ، والرهان مائة بعير .^(١) بينما جعله صاحب الأغاني عشرين من الإبل^(٢) .

ويروي الطبري ثلاث روايات للذي هيج الرهان ، منها رواية أبي عبيدة^(٣) ، ويذكر الرواية أن قيساً كان كثيرها لهذا الرهان ، وأنه أتى بني بدر فسلمهم الواضعة ، طابوا حتى يعرف لهم سبقهم . فغضب قيس وضحك ، وقال : أما إذا علمتم فأعظموا الخطر وأبعدوا الغاية ، فقالوا : فاجعل الغاية من واردات إلى ذات الإحصاء ، وتلك مائة غلوة ، وجعلوا القصة في يدي رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له حصين وبني رجل من بني العشراء بن فزارة وهو ابن أخت لبني عيس . وحدث الغدر من فزارة وطالبت عيس بسبقها ، وطالبت فزارة بالسبق ، وتنزلت عيس إلى جزور وكاد أحد بني فزارة يفعل ذلك ولكن ابنه نهى ، فأبت فزارة . ولما رأى قيس بن زهير ذلك لم يحل عنهم^(٤) ، ثم اختلف المصادر ، فبعضها يذكر أن قيس بن زهير أغار فلقى عوف بن بدر فقتله وأخذ أهله^(٥) ، وذكر بعضها الآخر أن حليفة بن بدر أرسل ابنه يطلب الرهان فقتله قيس^(٦) . واستمرت المناوشات بعد ذلك ثم التفتوا في أيام ستذكرها فيما بعد إن شاء الله .

وعمل الرغم من إجماع المصادر المختلفة على أن سببها كان الرهان ، إلا أنه كان الشرارة التي أشعلت نار الحرب ، أما الأسباب الحقيقية فتعطل في العvisية القبلية ، ومنازعة فزارة عيساً في الزعامة ، ويمكن دراجها كذلك أسباب وبواحت اختصانية فقد اتسع حجم القبيلتين ولم تعد للرعي والحصى ينسج لها معاً فكان الصدام الحتمي ، وكان الرهان الشرارة الأولى .

وكانت عيس مهاجمة قوية في حين كانت الحروب الداخلية قد أنهكت فزارة وقبيلان ، ودامت الحرب أربعين سنة أنهكت القبيلتين ، فلم تنتج لهم ناقة ولا فرس لاستغفارهم بالحرب .

وعمل الرغم من أن الحرب جرت ويلات كثيرة إلا أنها لم تستطع أن تخسص اصموات التعقل ، الدامية إلى السلم بين القبيلتين الأخنتين . فعندما قُتل مالك بن حليفة حل الربيع بن

(١) العقد الفريد ٥ / ١٥٠ .

(٢) الأغاني / ثلاثة ١٧ / ١٢٨

(٣) أشبال الطبري ٢٧ .

(٤) أشبال الطبري ٢٨ - ٢٩ ، الأغاني ١٧ / ١٢٨ .

(٥) نفس المصادر السابق ٢٩ ، الأغاني / ثلاثة ١٧ / ١٢٨ .

(٦) الكامل لأبن الأثير ١ / ٥٧٢ ، العقد الفريد ٥ / ١٥٠ .

زياد العبي المجاور لقرارة وصهرهم الدية من ماله الخاص^{١٤} . وعندما قُلت قرارة مالك بن زهير لا مهم الربيع بن زياد^{١٥} وعند أحست عيس أنها ظلمتهم رهن الأسلع بن عبد الله العبي أبناء من عيس عند سبيع بن عمرو حتى يدفعوا لهم ديات القتل ، ولكن سبيع مات فدفعهم أبته إلى حليفة قتلهم^{١٦} . ثم عادوا إلى قومهم بعد رحلة طويلة ونداءوا إلى الصلح ثانية ودفع خارجة بن سنان والحارث بن عوف وحنين بن حليفة ديات القتل وعلمهم زهير بمعلقته المشهورة .^{١٧}

وأكثر شعراء الفريقين من ترويد أسم بغض ، جدهم ، في قصائدهم ، متوخين لتذكير القوم برابطة القرابة ، يقول النابغة

صبراً بغض بن ريش إنيها رجم حيتم بها فأنناختكم بجمعاج^{١٨}
ويقول ليس بن زهير :

فيا أبتى بغض راجعا السلم تسلياً ولا تُشمتا الأعداء بفترق الشمل^{١٩}
كما نعى النابغة عل عيس افتراقها عن أخيها ذبيان ، والتجاءعا إلى قبائل غريبة عنها ، لا يفشرون لها جواراً ولا حقاً^{٢٠} .

ولم يكن بعض زعماء القبيلتين راغباً في القتال ، يقول الربيع بن زياد لقيس بن زهير عندما انضم إليه : ظلموك في جوادك وظلمتهم في دعاتهم ، وقتلوا أمك بائتهم ، فإن يؤ الدم بالدم فعسى أن تلقح الحرب أقم معك ، وأحب الأسيرين إلى مسلمتهم وتخلطو بحرب هولاء^{٢١} .

ويبدو لنا من خلال الروايات التي وصلت إلينا أن ذبيان وقرارة كانتا الباختين ولا تدري هل هذه هي الحقيقة ؟ أم أن الرواة صنعوها ؟

(١) أمثال الضبي ٢٩ (٢) الأغاني / ثقافة ١٧ / ١٢٨ .

(٣) أمثال الضبي ٣٣ ، العقد الفريد ٥ / ١٥٤ ، الأغاني / ثقافة ١٧ / ١٣٤ .

(٤) أنظر معلقته الأبيات من ١٦ - ٢٥ .

(٥) ديران النابغة ٢١٦ . (٦) جميع الأمثال للميداني ٢ / ٥٨ .

(٧) أنظر ديران النابغة ٢١٤ . (٨) الكامل لابن الأثير ١ / ٥٧٤ .

وقد حشد المسعودي زمن حرب داحس والغبراء بنحو من ستين سنة قبل البحث أي سنة ٥٥٠ م^{٥٥}.

ب - حروب غطفان وعامر :

وهذه المجموعة أيضاً من حروب نيس فيها بينها ، وعدة أيام هذه المجموعة التي بين أيدينا ثلاثة عشر يوماً ، والأطراف المتنازعة من جهة وعامر من جهة أخرى ، وربما دخلت قبائل أخرى في أحلاف مع القرظيين .

ويبدو لنا أن أيام هذه المجموعة كلها حدثت بين غطفان وعامر بعد مقتل زهير بن جطبة الذي كانت تدعى له غطفان وهوازن كلها بالولاء ، وتدفع له الأثولة . أي أن هذه المجموعة تبدأ يوم الثغوليات ، ذلك اليوم الذي قُتل فيه زهير بن جطبة .

ونستطيع أن نرتب أيام هذه المجموعة على النحو التالي : الثغوليات - بطن عاقل - النصار - الطجفار - ذات الشقوق - الرقيم - النشأة - شواحيط ، وبعد ذلك نلتقي بأيام لم يصلنا منها إلا اسمها والقرظيان وهي : ذات الرقيم - طوالة - قفرة - سلف - الرميثة .

بعد أن قتل زهير بن جطبة العبيسي ، طلبت عيس وضيان عامر بدعه ، ثم التقى خالد بن جعفر والحارث بن ظالم عند الأسود بن المطر ، فسمي النعمان بن المطر ، مع خالد غزوة الرحال ، وجعل خالد يقول للحارث : يا حارث ألا تشكر يدي عتلك إن قتلت عتلك سيد قومك زهيراً وتركك سيدهم ؟ قال : سأجزيك شكر ذلك وانصرف خالد إلى قبته ، فلامه غزوة الرحال على تحرشه بالحارث ، ثم ناما ، فلما هدأت العيون انطلق الحارث حتى أتى قبة خالد فهتك شرجها ، ثم ولجها وقتل خالداً وفر هارباً . وكان قتل خالد بن جعفر بطن عاقل ، فسمي هذا اليوم بطن عاقل^{٥٦}.

أما يوم النصار^{٥٧} فسميه أن بني نعيم كانوا يأكلون عموهم خبزة ، فأصابته خبزة رهطاً من

(١) التنبه والأشراف - للمسعودي ١٢٤ .

(٢) العقد القريد ٥ / ١٣٧ - ١٣٨ ، معجم البكري ٣ / ١٩١٣ ، معجم البلدان ٦ / ٩٧ ، صحيح الأخبار ١ / ٥٣ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١ / ٦١٧ - ٦١٩ العقد القريد ٥ / ٢٤٨ ، جميع الأشكال ٢ / ٥١٧ ، المعتمد ٢ / ٢١٠ ، التفتيش ١ / ٣٣٨ ، ٢٥٨ ، معجم البكري ٣ / ٧٩٨ ، ياقوت ٨ / ٢٨٤ ، صحيح الأخبار ١ / ١٧٥ ، ٢ / ٧٩٠ .

ثم . فطلبهم ثم فتراحت جماعة الرباب ، فلبثت بني أسد وهم يومئذ حلفاء لبني فزيان . فنادى صارخ بني ضبة : يا آل مختلف ، فاصرخهم بنو أسد ، واستملوا حليفهم طيئاً وخطفان ، فكان رئيس أسد يوم النصار عوف بن عبد الله بن عامر ، وقيل خالد بن نضلة ، وكان رئيس الرباب الأسود بن المنذر وعلى الجميع كله حصن بن حليفة بن بدر . ولما بلغ ثمم ذلك استملوا بني عامر ، فاسلموهم ، وكان حاجب بن زروة على ثمم ، وكان رئيس عامر جويأباً . وسار الجمعان فالتقوا بالنصار واقتتلوا ، فصبرت عامر ، واستحر بهم القتل ، وانقضت ثمم فنجت ولم يصب منها كثير ، وأخذ عدة من أشرف نساء عامر ، وغير فرسان عامر بذلك . وترجم بنو ضبة أن هذا اليوم قبل مجيئة بينا يؤكد أبو عبيدة أنه بعد .

ورغب ثمم في الثار لحليفها عامر التي قُتِلَتْ يوم النصار ، فكان يوم الجفار ، للأحليف في ضبة وأخوانها الرباب وأسد وطىء على ثمم ، فكانت الدائرة على ثمم واستحر القتل يومئذ في بني عمرو بن ثمم فقتلوا قتلاً فريعاً^(١) .

وعلمنا حُرمت ثمم يوم الجفار حلف ضمرة النهشل فقال : الحمر على حرام حتى يكون له يوم يكافئه . فأغار عليهم يوم ذات الشقوق ، فقتلهم واقتصر بذلك^(٢) .

ثم ينقطع الحيط الواصل بين الأيام للتالية ، ونجد أنفسنا أمام يوم الرقيم^(٣) وسببه أن عامراً غزت بلاد غطفان بالرقيم ، وهو ماء لبني مرة ، وزعم عامر بن الطفيل ، وركب عتيقة بن حصن في بني فزارة ، ويزيد بن سنان في بني مرة ويقال الحارث بن عوف ، فاهزم بنو عامر ، وزعمت غطفان أنهم أصابوا من بني عامر يومئذ أربعة وثلاثين رجلاً ، فدفعوهم إلى أهل بيت من أشجع كانت بنو عامر قد أصابوا فيهم ، فقتلوهم أجمعين .

واهزم الحكيم بن الطفيل في نفر من أصحابه ، حتى انتهوا إلى ماء يقال له البرولة فقطع العطش أصحابهم فماتوا ، وخيئ الحكيم نفسه تحت شجرة خافقة لثقلته ، وهرگهم عيس بذلك على لسان شاعرهما خروء بين الورء . وربما كان هذا اليوم هو نفسه يوم شمر أو يوم الضخائق أو يوم بالبحر .

(١) المصنف ٢ / ٢١٩ ، معجم البكري ١ / ١٣٠٦ .

(٢) العقد الفريد ٥ / ٢٤٨ ، معجم البكري ١ / ١٣٠٦ .

(٣) العقد الفريد ٥ / ١٦٠ ، مجمع الأمثال ٢ / ٥٣ ، الكامل ١ / ٦٤٢ ، معجم البلدان ١ / ٢٧١ ، معجم البكري ٢ / ٦٦٦ .

وفي يوم النُّشَّة أو النُّشَّة^(١) خرجت عامر تريد أن تترك بثارها يوم الرقم ، فجمعوا على بني عيس بالنُّشَّة وقد أنذروا بهم ، فالتفوا ، وعلى بني عامر عاصرين العقيل ، وعلى بني عيس الربيع ابن زياده ، فقاتلوا قتالاً شديداً فانهمزت بنو عامر ، وأُقِل منهم ، وطعن عامر ولكنه نجى ونُهِزمت عامر هزيمة قبيحة .

ثم غزت سرية من بني عامر بن صعصعة بلاد حطافان ، فالتفوت على إبل لبني محارب بن حصيفة فأحرقهم الطلب ، فقتلوا من بني كلاب سبعة وارثوا إليهم . فلما رجعوا من عندهم وشب بنو كلاب على جسر ، وهم من بني محارب ، كانوا حاربوا إخوتهم فخرجوا عنهم وحالفوا بني عامر فقالوا : تقتلهم يقتل بني محارب من قتلوا منا ، فقام خلدش بن زهير دونهم حتى منعهم من ذلك . وكان ذلك بشواحيطة^(٢) .

أيام حطافان والقبائل الأخرى :

وهذه المجموعة تعتبر القسم الأخير من حروب قيس في الجاهلية ، وهي أيام قيس مع القبائل الأخرى غير كنانة والحِمْيَرية وغيرهم .

وأيام هذه المجموعة التي بين أيدينا هي : يوم رَكْبَة - يوم عَدْنَة - يوم ذات الأثَل والأرطى - يوم حَوْزَة الأول - يوم حَوْزَة الثاني - يوم المَلَوَى - يوم المُنْعَاء - يوم زُرود الأول - يوم مَيْعَج - ويوم الفلج .

وبين بعض أيام هذه المجموعة أحداث مشتركة جعلت أمر ترتيب جزئي ممكناً لبعض الأيام حدثت للأخطل بدار أخرى كما سترى .

وأول يوم في هذه المجموعة يوم رَكْبَة أو يوم الرَّمِيَّة^(٣) ، ويحمل حديث أن بني بغيض غزوا بعد أن ظهروا على صُكَّة - وهي قبيلة من ملحج - وقرروا أن يفتحوا حرماً مثل حرم مكة لا يقتل صيده ، ولا يباح عائلته ، وأوليت ذلك بنو مرة بن عوف ، وكان القائم على أمر الحرم وبنائه حاططه ويباح بن ظالم ، وبلغ فعلهم زهير بن جندب ، سيد كلب يؤمنه ، فقال والله لا يكون ذلك أبداً ، وجمع قومه وسار بهم حتى غزا حطافان ، فقاتلهم وظفر بهم ، ثم من على حطافان ورد النساء واستاق الأموال .

(١) العقد الفريد ٥ / ١٦١ ، معجم البلدان ٨ / ٢٥٠ .

(٢) العقد الفريد ٥ / ١٦٢ ، معجم البلدان ٥ / ٣٠٣ .

(٣) الألفي / ثقافة ١٨ / ٣٠١ .

وفي يوم عَدْنِيَّة أو يوم وَلَحْدَان^(١) الذي يرويه أبو عبيدة ويقول في بداية الحديث أنه كان قبل يوم ذات الأئمل ، غزا صخر بقومه بني سليم وترك الحيّ خلواً ، فأغاروا عليهم فطفلوا ، فثاروا إليهم فحلبواهم ومن كان تحلف عنهم قتل من غطفان نحر وأهزم الباقون .
ويوم ذات الأئمل والأرضي كان لجشم على حيس^(٢) ، لم تظفر بشيء غير الإسم والفريقين . ولكننا نجد يوماً آخر بنفس الإسم ولكنه لسليم على بني أسد^(٣) ، وربما هو الذي عنه أبو عبيدة حيناً حدثنا عن يوم عَدْنِيَّة ، فقد غزا صخر بن عمرو بن الشريد بني أسد واكتسح إليهم ، فأتى الصريخ بني أسد فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأئمل ، فاقبلوا قتالاً شديداً ، وطمع ربيعة بن ثور الأسدي صخرأ في جنبه ، وفات القوم بالغنمة ، ومرض صخر حتى مله أهله ، ومات بعد مرض دام أكثر من سنة ، ولكن هذا اليوم يخرج من هذه المجموعة .

وفي يوم حَوْرَةَ الأول^(٤) ، كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد السلمي وبين هاشم بن حرملة أحد بني مرة بن غطفان كلام بمكاظ ، فلما كان بعد ثيباً ليغزو هاشمياً . فنهاه أخوه صخر ، فأتى معاوية وغزاهم يوم حَوْرَةَ^(٥) . واقتل القرقيان وقتل معاوية ثَرِيدَ بن حرملة .

ثم غزاهم الحو صخر ، يوم حَوْرَةَ الثاني^(٦) ، فلما دنا منهم مضى على الشاء التي غنمها قومه يوم حَوْرَةَ الأول ، فسود غزتها وتجميلها ، فلم يشعر ثَرِيدَ بن حرملة حتى طعته صخر ، فثاروا وثاروا ، وولى صخر ، وطلبته غطفان يومها ، وغارض دونه ابن أخته الخنساء أبو شجرة بن عبد العزى ، فرد الشبل عنه حتى أراح فرسه ونجا إلى قومه .

وغزا عبد الله بن العَصَمَة الجشمي ، فأغار على غطفان فأصاب منهم إبلا عظيمة فأطردوا . فقال له أخوه حريد : النجاة النجاة ، فقد ظفرت . فأتى وقال : لا أبرح حتى أتضع فجيح^(٧) ، فأقام وعصى أمه ، فبعته فرارة وقتلوه وهو باللوى^(٨) ، فقتل عبد الله ، وأرث حريد فبقى في القتل ، فلما جن الليل أفاق من وخزة فارس له ، وعثرت به امرأة من قومه ،

(١) العقد الفريد ٥ / ١٦٧ ، معجم البكري ٣ / ٩٢٥ .

(٢) جميع الأمثال ٢ / ٥٣٥ .

(٣) العقد الفريد ٥ / ١٦٦ - ١٦٧ ، معجم البكري ١ / ١٠٧ .

(٤) العقد الفريد ٥ / ١٦٣ ، الأغاني / ثلاثة ١٨ / ٢٢ .

(٥) معجم البلدان ٣ / ٣٦٢ .

(٦) العقد الفريد ٥ / ١٦٤ .

(٧) الناقة : ناقة يتجرها من وسط الأبل فيصنع منها طعاماً لأصحابه ويقسم ما أصاب على أصحابه .

(٨) معجم البلدان ٧ / ٣٣٩ ، صحيح الأئمة ١ / ١٥٨ .

فعاجلته حتى أنفق^(١) وفي التفافض أن هذا اليوم هو يوم واردة أو اللوى ، فقد عارض رجل من بني جشم ، ويقال بل من بني ثعلبة بن سعد بن ثبيان وكان أخا رجل بني يربوع يوم واردة فقتله أبو مكيل . والبدائي يقول عن هذا اليوم : رجعوا إنه يوم واردة لبني تغلب على بني يربوع ولا يزيد على ذلك شيئاً^(٢) .

فلما كان العام للقبل بعد يوم اللوى ، غزاهم فريد بن الصمة بالصلعاء^(٣) ، فخرجت إليه خطفان : خزارة وأشجع وجيس ، وأمرهم فريد بالثبات ، فالتفوا بالصلعاء فكان الظفر هو وزن على خطفان . وقتل فريد ذؤاب بن أسياء بن زيد قارب^(٤) .

ويوم زروود الأول^(٥) ، كان بين بكر وجيس ، فقد غزا الحوزان حتى انتهى إلى زروود^(٦) ، فأغاروا على نعم كثير صادر عن لواء لبني عيس فاحتزروه ، وأتى الصريح فركبوا . ولحق حمارة بن زياد العيسى الحوزان فعرفه . وقال حمارة : يا بني شريك قد علمتم ما بيننا وبينكم ، قال الحوزان : صدقت يا حمارة ، فانظر كل شيء حولك فخذ ، ثم حصل حمارة لبعض النعم ليرده ، وحال الحوزان بينه وبين النعم ، فعشرت بعمارة فرسه ، فقلعه الحوزان ، ولحق به ثعلبة بن شريك فقلعت أيضاً .

وأمر لبنا حمارة : سينان وشنداد ، فقتلتها بكر برجل لم يظنوا أن حمارة قتله . وعندما يرى حمارة أبا طيفاً فقال : أذهبوا إلى هذا الكلب الذي قتلنا به : فقال الطائي لأوس : ادفع إلى بني عيس صاحبهم . فقال لهم أوس : أألمروني أن أعطي بني عيس قطعة من دمي ، وأن لبني أسير في بني يشكر ؟ فوافد ما أوجب ففكاته إلا حبلاً .

وأقبل شمس بن زهير من عند النعمان بن المنذر ، وكان قد سباه بعباد جزيل قورود متعجب^(٧) ، وهو ماء لغتي ، فأناب راحته إلى جانب الرقعة وعليها رباح بن الأسمل الغنوي ، وجعل يقتل ، وامرأة رباح تنظر إليه ، فانتزع رباح سهماً فقلته وشمر ناقة فاكلها ، ونظم

(١) العقد الفريد ٥ / ١٦٨ ، العملة ٢ / ٢٠٢ .

(٢) التفافض ١ / ١١٢ ، جميع الأشكال ٢ / ٥٢٣ .

(٣) العقد الفريد ٥ / ١٧٣ ، العملة ٢ / ٢٥٢ وسميه « الصلعاء » وهو نصيب .

(٤) ألفر معجم البكري ٣ / ٨٤٠ ، معجم البلدان ٥ / ٣٨٠ ، صحيح الأخبار ٣ / ١٨٤ ،

(٥) العقد الفريد ٥ / ٢٣٧ - ٢٣٨ ، جميع الأشكال ٢ / ٥٣١ ، العملة ٢ / ٢١٦ .

(٦) معجم البكري ٢ / ٦٩٦ .

(٧) ألفر معجم البكري ومعجم ياقوت .

مناحه ، وغيب كثره ، وفقد شاس ، حتى وجدوا القطيفة تبهما زوجة رباح بمكان فعرسوا صاحب ثأرهم .

فغزت حيس غنياً ، فلما بلغ ذلك غنياً قالوا لرباح : اتج لعلنا نصالح القوم على شيء .
ونحضي القصة تحدثنا كيف حرب وكيف حرقه حيس ، وطارده قتل اثنين منهم ، وعادت حيس خالية مولودة^(١) . وقد مضى الحديث عن يوم آخر بمنعج كان بين يربوع وبني كلاب .

ولما يوم الفلج^(٢) فقد كان بين بكر بن وائل وبني كعب بن ربيعة وهم فرع من عامر بن صعصعة^(٣) ، فقد بحث بكر حينا على بني كعب حتى جاءه الفلج ، وهو ماء^(٤) ، فوجد النعم قريبا بعضه من بعض ، ووجد الناس قد احتملوا ، فليس في النعم إلا من لا طيلخ به من راح أو ضعيف ، فجاءهم بذلك ، فركبت بكر يربوعهم حتى إذا كانوا منهم بحيث يسمعون أصواتهم سمعوا صهيل الخيل وأصوات الرجال ، فإرسلوا من يعلم عليهم لانية ، فرجع فأخبرهم أن الرجال رجعو ، ورأى جمعا عظيما وخيولا كثيرة ، ففكروا راجعين من لياتهم ، وأصبحت بنو كعب فرأوا الأثر فاتبعوهم ، فأصابوا من آخرياتهم رجالا وخيلا فرجعوا بها .

أيام القحطانية فيما بينها

أ - أيام الأوس والخزرج :^(٥)

يحدثنا صاحب الأغاني أن اليهود سكنوا المدينة ، وكان يسكنها قبلهم العماليق ، ثم أرسل الله سيل العرم على أهل مارب ، وهم الأزد ، ففرقوا في الجزيرة ، فأتاحت الأوس والخزرج بالمدينة ، وأقاموا في منازلها التي نزلوها في جهنم وضيق في المعاش ليسوا بأصحاب إبل وشاة ، وليسوا بأصحاب نخيل ولا زرع ، والأموال لليهود ، فلبثوا بذلك حينا^(٦) ، ثم إنهم سكتهم

(١) العقد الفريد ٥ / ١٣٣ - ١٣٥ .

(٢) الأغاني / كتب ٥ / ٢٢ .

(٣) معجم قبائل العرب ٩ / ٩٨٥ .

(٤) أنظر معجم البكري ، معجم البلدان .

(٥) مصادر هذه المجموعة : الأغاني / كتب ٣ / ١٨ - ٢٠ حرب سنج ، ١٥ / ٤٧ - ٥١ حرب كعب

ابن عمرو ، الأغاني / ثقافة ٢٢ / ٩٧ - ١٠٢ ، ١٧ / ٦٧ يوم ثعلث ، ولقاء الرقباء بأخيلدار

المصطفى - للسيهري ١ / ١٥٢ ، الكامل لابن الأثير ١ / ٦٥٨ - ٦٨١ ، عيون قيس بن

الحظيم ، الفضليات ، مجمع الأمثال ٢ / ٥٣٢ .

(٦) الأغاني / ثقافة ٢٢ / ٩٧ وليكسون ١٦ .

أن يملأوا بينهم جواراً وحلقاً ، يأمن بعضهم من بعض ويتجنون به من سواهم ، فتعاقبوا وتعاقبوا واشترکوا وتعاملوا واستمروا على ذلك زمناً طويلاً . وأقرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد ، فلما رأيت فرقة حلقهم خافوهم . . . فتشتمواهم حتى قطعوا الحلق . . . وأقامت الأوس والخزرج عاتقين من إجلاله اليهود ثم إلى أن ظهر مالك بن النجاشي الخزرجي^(١) .

ثم إن مالك بن النجاشي وفد إلى أبي جبيشة الغساني ملك غسان ، فأخبر ملك غسان بضيق حالهم ومعاشهم ، فوعده بالسير إليهم للفضاء على اليهود ونقل السبابة في المدينة إلى الأوس والخزرج . وقدم الملك الغساني بجمع كثيف ، ونزل بلي خرض ومكر بزعماء اليهود حيث دعاهم إلى وليمة وقتلهم رجلاً رجلاً حتى أتى على آخرهم . ولخصي الرواية فتذكر أن مالك النجاشي قضى عليهم بوليمة صنعها لهم . فسكن اليهود وهادوا إلى مسالمتهم للأوس والخزرج^(٢) .

ومحدثنا ابن الأثير رواية تختلف عن هذه في بدايتها ، فيذكر أن اليهود ملك عليهم الفطيون وكان رجل سوء وكانت اليهود تنين له بأن لا تزوج امرأة منهم إلا دخلت عليه قبل زواجها ، وقيل أنه كان يفعل ذلك بالأوس أو الخزرج . ثم أن أختاً لملك تزوجت ، ولما كانت ليلة عرسها أثرت أختها بحركة قامت بها مذكرة إياه بما سيفعل بها الليلة ، فتكر وأختها وقتل الفطيون لم يخرج هارباً حتى دخل الشام فدخل على ملك من ملوك غسان يقال له : أبرجيلة ، وقيل إنه كان عظيماً عند ملك غسان ، وهذا هو الصحيح ، لأننا لا نجد اسمه في ملوك غسان^(٣) .

وفي اعتقاد المؤرخين أن الأوس والخزرج فكروا في نقض حلقهم مع اليهود لتحقيق آمال ومطامع ، ولم يكن لهم من سبيل إلا بالأعهاد على حلف آخر ، وألوا أن الفرصة سانحة لعقد عاقبة مع ملوك غسان الذين كانوا يقودون حركة المنافسة الشديدة والفتن من اليهود من النصرانية ، وسمى الغساسنة إلى هذه الحادثة ليتمكنوا من القضاء على اليهودية في بلاد الحجاز ويعزز من الدولة الرومانية الشرقية التي أرسلت أسطولها لمساعدة الجبهة في كفاها ضد يهود اليمن . وقرر المؤرخ جبريتز أن بطون الأوس والخزرج لم تصالح اليهود بالعداوة إلا بعد النكبة التي حلت باليهود في اليمن^(٤) .

(١) وفاة الوفاء للسهودي ١/ ١٢٥ .

(٢) الأغاني/ ثقافة ٢٢/ ١٠٦-١٠٦ .

(٣) للكامل لأبن الأثير ١/ ٦٥٦ ، والمؤرخون يرى أن قصة الفطيون ملقطة لأنها توحي بجميلة العرب وأنهم لا أمة متحمة ولا طيرة من ٥٦ ويرى أن القصة مصنوعة لتبرير القدر بجيرانهم .

(٤) تاريخ اليهود لوفنسون ص ٤٩ - ٦١ .

وإنما بسطنا القول لتصل إلى أن اليهود كانوا وراء الحلاف بين الأوس والخزرج ، فقد عاش الأوس والخزرج حيناً دون أن يختلفوا ، ثم حين رأى اليهود أن زمام الأمور في المدينة قد أغلت من أيديهم ، وأن لا طاقة لهم بهم رأوا أن يفرقوا بين الحيين ، فدمسوا دسائسهم . وثارت الحروب بين الأوس والخزرج ودامت قرابة قرن ونصف من الزمن^(١) وحدها السبعهوي بمائة وعشرين عاماً تقارباً عن ابن اسحق .^(٢)

أما طبيعة هذه الأيام ، فقد روى عن الزبير بن بكار عن بن متعب قال^(٣) : « لم تكن بينهم في هذه الأيام حروب إلا في يوم بعث فيه كان عظيماً ، وإنما كانوا يخرجون فيترامون بالحجارة ويتضاربون بالحشب ، ولكننا نجد ونحن نقرأ أخبارها قتلاً وقتلاً وإن كان ليس عتياً بالقذرة التي شهدناها في بعض الأيام ، إلا أنه يتعدى الإقتال بالترامي بالحجارة والتضارب بالحشب .

وبعد السبب في هذه الحروب التي دامت أطول فترة عرفتها الأيام البلعالية إلى عوامل غير منظورة يعتقد بأن اليهود كانوا وراء تدبيرها ، كما أن « الصراع بين الطرفين كان صراعاً على الرئاسة »^(٤) ، فالخزرج ترغب في الاحتفاظ بما حققته على يد مالك بن العجلان ، والأوس ترى أن امتلاكها للبقاع الزراعية الخصبة وقربها للخزرج يجب ألا يضعها في المرتبة الثانية . فرفضوا منزلة الخزرج عليهم وساءهم اعتراف غير الشرعيين بزعامة الخزرج من القبائل البدوية المحيطة بالمدينة . ويرى بعضهم « أن العامل الاقتصادي هو العامل للتحكم في توجيه العلاقات العامة بين أهل ثريب وحتى بين بطون القبيلة الواحدة لو بين عشائر البطن الواحد لم تستطع لجنة الدم أن تغلب على الدوافع والاقتصادية »^(٥) .

ولكن الأسباب الظاهرية لحروبهم كانت لا تعدو أكثر لورعاية الجواز أو المطالبة بدية . وقد ظل اليهود طرفاً غير مشترك اشتراكاً فعلياً في هذه الحروب حتى كان يوم بعث ، فانضموا إلى الأوس في حريم ضد الخزرج ، وهذا ما دعا ولقسنون إلى القول بأن « اليهود ظفروا بحفظين بمكانتهم بين القبائل العربية ، حتى أن كلاً من الأوس والخزرج كانت كل منهما لمجهود في أن يميلهم إليها لمساعدتها في كفاحها ضد الأخرى »^(٦) .

-
- (١) الكامل لأبن الأثير ١ / ٦٧١ .
 - (٢) وفاة الرؤاء للسهودي ١ / ٦٥٤ .
 - (٣) الأختار / كتب ٣ / ٨ .
 - (٤) مجتمع للمدينة - أحمد الشريف ٣٣٩ .
 - (٥) مجتمع مكة والمدينة - أحمد الشريف ٣١٢ .
 - (٦) تاريخ اليهود - ولقسنون ٦٩ .

ويبدو أن أيامهم كانت كثيرة ، وأن الذي وصلنا منها هو المشهور منها ، وأن الذي عنه الزبير بن بكار هو تلك الأيام التي لم تصلنا ، يقول ابن الأثير: «وكان بينها أيام ذكرنا المشهور منها وتركنا ما ليس بمشهور»^(١) .

وعند حرويسم التي وصلنا هي بالترتيب : سُيَيْرٌ ، كُثْبٌ بن عمرو ، السُرَاةُ ، الحصين بن الأسَدُ ، ربيع النظري ، فلرخ ، قباء ، الدُرَكُ ، حاطب ، بُعْثٌ .

وقد انحصرت الأوس في أربع منها ، والخزرج في ست ولكن المعركة الفاصلة والاحيرة كانت بُعْثٌ وانحصرت فيها الأوس على الخزرج .

ولم يتوقف النزاع بين أهل المدينة ، بل تعداها إلى خارج حدودها ، فقد حاولت الأوس استمالة قريش ومخالفتها ضد الخزرج وحلفت ذلك فعلاً في غياب زعيم قريش ، وعندما عاد رفض أن ينضم قريش التي تستمع بمتزلة بين جميع القبائل فاستأجّل على الأوس حتى نقض ذلك الحلف ، وقد حدث ذلك يوم مُعَبَسٍ ومُطَرَسٍ وهو يوم من حرب حاطب^(٢) . كما حلفت مُزَيْنَةُ الأوس يوم بُعْثٌ ، وحالفت أَشْجَعٌ وجهته الخزرج في ذلك اليوم^(٣) .

ولم تعد هذه الحرب الوسطاء لوقفها من خارج المدينة فبعد أول وقعة في حرب حاطب سار إليهم عُيَيْنَةُ بن حصن بن حُلَيْفَةَ بن بَدْرِ الغزاري ونجار بن مالك بن عامر الغزاري فتحدثا إلى الحيين في الصلح وقسما كل ما يدعى بعضهم على بعض من الديارات ، ولكن الفريقين أيا^(٤) .

أما بطون الأوس فهي : بنو طَفَرٍ ومنهم قيس بن الخطيم ، وبنو وائل بن زيد وبنو عوف ابن مالك بن الأوس ، أهل قباء ، وبنو ضبيعة ، وبنو عمرو بن موفك ، وبنو جُحَشيّا ومنهم أُحَيَّةُ بن الجُلَاح ، وبنو عبد الأشهل ، وبنو حارثة بن الحارث وبنو امرئ القيس بن مالك ، وبنو مرة بن مالك ومنهم أبو قيس بن الأسَدُ .

أما بطون الخزرج فهي : بنو ملازم بن النجار وهم تيم الله ، وبنو الحارث وبنو مالك بن النجار ، وبنو مالك الآخر ومنهم عبد الله بن رَواحه ، وبنو عليّ ومنهم كَعْبٌ بن مالك .

وأما قبل هذه الحروب والتي ذكرت أسماؤهم في بطون الكتب لقلّة ، لم يتعدوا فيها أخصينا عشرة من الأوس وستة من الخزرج ، وغلّيان اليهود الذين قتلهم الخزرج .

- | | |
|--------------------------------------|--------------------------------------|
| (١) الكامل لابن الأثير / ١ / ٦٧١ . | (٢) الكامل لابن الأثير / ١ / ٦٧٩ . |
| (٣) الكامل لابن الأثير / ١ / ٦٨٠ . | (٤) الكامل لابن الأثير / ١ / ٦٧٢ . |

ولول حرب لهم هي حرب سُمَيْر^{١٢} ، وكان سيها أن رجلاً من بني ثعلبة من سعد بن ذبيان يقال له كعب بن العجلان نزل على مالك بن العجلان السلمي فحالفه ، وخرج كعب يوماً إلى سوق بني قتيقاع فرأى رجلاً من عطفان معه فرس وهو يقول : لياخذ هذه الفرس أحز أهل يثرب ، فقالوا كلاماً متعديداً ، فذفع الغطفاني الفرس إلى مالك بن العجلان ، فغضب من ذلك رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف يقال له سُمَيْر وشتمه واخرقه ، ثم تعلب سمير الغطفاني حتى خلا به فقتله . وطالب مالك بن العجلان بقاتله ، فأنكروه ، ثم عرضوا عليه الدية قبلها ، ولكنه أصر على دية الصريح ، وامتنعوا وبيع الأسر بينهم حتى آل إلى الحاربية ، فاجتمعوا والنوا قتلاً شديداً واخرقوا ، وكان الظفر أخيراً للأوس ، ثم حكموا بينهم المنذر بن حرام التجاري الخزرجي ، فحكم بينهم بأن يدا كعباً حليف مالك دية الصريح ثم يعودوا إلى ستمهم القديمة ، فرفضوا بذلك وحملوا الدية واخرقوا ، ولقد ثبتت البغضاء في قلوبهم وتكسنت العدواة بينهم .

ثم وقع بين بني جَحْجَحٍ من الأوس وبني مازن بن التجر حرب سيها أن كعب بن عمرو المازني^{١٣} كان متزوجاً امرأة من بني سالم ، كان يختلف إليها ، فامر أحيحة بن الجلاح سيد بني جَحْجَحٍ بالترصد له وقتله ، فترصدوا له وقتلوه ، وعلم أخوه حاصم بن عمرو ، فاستمد وقومه للقتال وأرسل إلى بني جَحْجَحٍ يطلبهم بالغرب . فالتقوا بالرحابة ، وانهمزت بنو جَحْجَحٍ ، وانهمز أحيحة وأخطاه حاصم ، ولكنه أصاب أخاه فقطله . ثم إن أحيحة أجمع أن يبيت بني النجار وعنده زوجته سلمى بنت عمرو النجارية ، فأخبرت قومها ليلاً بما يبيت فكسر يدها وطلقها عندما علم بما فعلت ، وسميت تلك الحرب بحرب كعب بن عمرو المازني .

ثم حدثت بين عمرو بن عوف من الأوس وبين الحارث من الخزرج حرب شديدة سيها أن رجلاً من بني عمرو قتله رجل من بني الحارث ، فعدا بنو عمرو على القاتل ليلة واكتشف أهله الأمر ، فتجهزوا للقتال ، وأرسلوا إلى بني عمرو يطلبونهم بالحرب فالتقوا بالسرارة^{١٤} ، وعلى الأوس حُسَيْر بن سهاك ، وعلى الخزرج عبد الله بن سكون ، فالتقوا قتالاً شديداً صبر فيه الطرفان أربعة أيام ، ثم انصرفت الأوس إلى دورها ففخرت الخزرج بذلك^{١٥} .

(١) التكميل لأبن الأثير ١/ ٦٥٨ - ٦٥٩ ، وفاء الوفا للسهمودي ١/ ١٥٢ ، الأغلاني/ كتب ١/ ١٨ - ٢٠ .

(٢) التكميل لأبن الأثير ١/ ٦٦٠ ، الأغلاني/ كتب ١٥/ ٤٧ - ٥١ .

(٣) معجم البكري ٣/ ٢٣١ السراة : موضع قرب من المدينة .

(٤) التكميل لأبن الأثير ١/ ٦٦٢ - ٦٦٤ .

ثم القى بنو وائل بن زيد الأوسيون وبنو مازن بن النجار الخزرجيون ، في حرب سميت بحرب الحُصَيْن بن الأَسَلْت^١ ، وذلك أن الحُصَيْن بن الأَسَلْت تازع رجلاً من بني مازن فقتله الحصين ثم انتصرف ، فجمعه نفر من بني مازن فقتلوه . فبلغ ذلك أبا قيس بن الأَسَلْت ، فجمع قومه وأرسل إلى بني مازن يعلمهم أنه على حريم قتلهاوا للقتال ، ولم يتخلف من الأوس والخزرج أحد ، فاقتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتل في الفريقين ، وقتلوا الذين قتلوا حصيناً ، وانهزمت الأوس .

ثم كانت بين بني قحط من الأوس وبين بني مالك بن النجار من الخزرج حرب وبيع القحطري^٢ ، سبها أن ربيعاً القحطري كان يمر في مال لرجل من بني النجار فتلزعا ، فقتله الربيع ، فالتقى الفريقان فقتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت بنو مالك بن النجار .

ثم التقوا في يوم يقال له يوم قارع^٣ ، سبه الغلام الضعيف الذي أتى زورعه جاز معاذ ابن النعمان الأوسي ، فقتله نجاري ، وطلب معاذ دية جاره ، أو قتله ، فأبوا . فهدد قوم معاذ بقتل سيدهم عامر بن الإطخية بهذا الغلام إن لم يعيروههم إلى طلبهم . ثم تهيأوا للحرب ، والتقوا عند قارع وهو أطم لحسان بن ثابت ، واشتد القتال ، واستمر حتى حل دية عامر بن الإطخية فماتوا إلى أحسن مما كانوا عليه .

ثم كانت بينهم حرب حاطب^٤ ، وحاطب هو حاطب بن قيس من بني أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسي ، وحرب حاطب آخر حرب بينهم قبل بعثت ، وبينها وبين حرب سُتَيْر مائة سنة .

وسبب هذه الحرب أن رجلاً من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان أتى حاطباً فزله عليه ، ثم غدا إلى سوق قينقاع ، قرأه يزيد بن الحارث المعروف بابن قُسْحَم ، فقال يزيد لرجل يهودي : لك ردائي إن كسعت هذا الثعلبي ، فأخذ رداءه وكسعه كساعاً سمعه من بالسوق . وصاح الثعلبي يا آل حاطب تُكسج ضيفك ونطخ ، وجاء حاطب فقتل اليهودي ، وأخبر ابن قُسْحَم

(١) الكلل لابن الأثير ١ / ٦٦٥ .

(٢) الكلل لابن الأثير ١ / ٦٦٦ .

(٣) الكلل لابن الأثير ١ / ٦٦٨ - ٦٦٩ ، معجم البكري ٣ / ١٠١٣ ، صحيح الأخبار ٥ / ٨٤ معجم البلدان ٦ / ٣٢٧ .

(٤) الكلل لابن الأثير ١ / ٦٧٩ وما بعدها .

بقتل اليهودي ، فثار الحرب بعد أن قتل ابن قشعم رجلاً من بني معاوية ، واحتشدوا وجمعوا والنضوا على جسر ودم بني الحارث بن الخزرج ، وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضي ، وعلى الأوس حضير بن سياك الأشجلي ، وسمعت العرب المحيطة بهم بحريهم فسعوا إليهم للمصالح ، سعى بذلك عينة بن حصن بن حليفة ، وخيار بن مالك بن حمار القزاري ، ولكن الفريقين رفضا .

وكانت لهم في هذه الحرب - حرب حاطب - عدة وقائع شهيرة أول يوم ، ونفرت فيه الخزرج ، ثم كانت بعده عدة وقائع منها : يوم الربيع ، ويوم البقيع ، ويوم التيجار الأول ، ويوم مغبس ومضرس ، ويوم التيجار الثاني .

ثم التقت الأنصار بعد يوم الجسر بالربيع^(١) ، وهو حائط في ناحية السفج ، فاقتلوا قتالاً شديداً حتى كاد يفتني بعضهم بعضاً ، فانهزمت الأوس وتبعها الخزرج حتى بلغوا دورهم . فلما تبع الخزرج الأوس إلى دورهم طلبت الأوس المصالح فالتصمت بنو التيجار عن إجابتهم ، على خلاف ما تعارفوا عليه ، فحصدت الأوس النساء والقلاري في الأظلم ، فكثفت عنهم الخزرج .

ثم التقوا ببقيع الغرقد^(٢) ، فاقتلوا قتالاً شديداً ، فكان الظفر يومئذ للأوس ، وكان رئيس الأوس في حرب حاطب أبو قيس بن الأسلت الوائلي ، فقام في حريهم حتى شحبه وتغير وأنكرته امرأته ، ثم جمع قومه وقال لهم : ما كنت رئيس قوم قط إلا هزموا ، فرموا عليكم من أحببتهم ، فراسوا عليهم حضير الكاتب بن السياك الأشجلي فالتقى الأوس والخزرج بمكان يقال له الغرقس ، فكان الظفر للأوس ، ثم تراسلوا في المصالح فاصطلموا على أن يحسبوا القتل ، فأفضلت الأوس على الخزرج ثلاثة نفر فدفعته الخزرج ثلاثة غلصة منهم رهناً بالذهبات ، ففقدت الأوس فقتلت الغليان .

وعندما قتلت الأوس الغليان جمعت الخزرج وحشدت والنضوا بالحدائق . وعلى الخزرج عبيدة بن أبي سكون ، وعلى الأوس أبو قيس بن الأسلت ، فاقتلوا قتالاً شديداً حتى كاد بعضهم يفتني بعضاً . وسمي يوم التيجار^(٣) لغزيرهم بالغليان ، وكان الظفر فيه للخزرج على الأوس ، وسمي أيضاً يوم الحديقة^(٤) .

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٢ ، معجم البكري ٢/ ٢٣٧ ، معجم البلدان ١/ ٢٢٥ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٢ - ٦٧٥ ، معجم البكري ١/ ٢٦٥ ، معجم البلدان ٢/ ٢٥٣ .

(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٦ .

(٤) الأغني/ كتب ٣/ ٨ - ٧ ، معجم البلدان ٢/ ٢٣٣ .

ثم التفتوا عند مُعَيْسٍ ومُعْرِسٍ^{١١} ، وهما جداران ، فكانت الخزرج وراء مضرس ، وكانت الأوس وراء معيس ، فالتاموا ألبماً يقتتلون ، ثم انهزمت الأوس حتى دخلت البيوت والأطام . ورواهت بنو عمرو بن عوف وبنو أوس مثلاً من الخزرج ، وانتمت بنو عبد الأشهل وبنو ظفر وغيرهم ، وأبوا المصالحة حتى يكرروا ثأرهم من الخزرج . فألقت الخزرج عليهم حتى أجبرت بعضهم على المهادنة . . . ثم سارت الأوس إلى مكة وحالفت قريشاً ، وأبى جهل غائب ، وعندما عاد كره أن تحشر قريش في حرب داخلية لا مصلحة لها فيها ، واحتال عليهم حتى ألغى هذا الجلف .

ثم دخلت اليهود الحرب ، حينما طلبت الأوس من قريظة والتضير مهادنتها على الخزرج ، وبلغ ذلك الخزرج ، فأرسلوا إليهم يؤمنونهم بالحرب . فقاتل اليهود : إننا لا نريد ذلك ، فأعلنت الخزرج منهم رهناً على الوفاء ، وهم لريمون غلاماً ، ثم سكر يزيد بن قُصم فتغنى بذلك ، فغضبت اليهود فحالفوا الأوس على الخزرج ، فقتلت الخزرج الرهن ، وقيل في قتلهم عيلاف ذلك : وذلك أن عمرو بن النعمان البياضي قال لقومه : والله لا يمس رأسي ماء حتى أنزلكم منازل قريظة والتضير أو أقتل رهنهم . وكانت منازل قريظة والتضير غير البقاع ، وأرسل إليهم : إما أن تخلوا بيتنا وبين دياركم وإما أن تقتل الرهن . وهبوا بانحلال ديارهم ولكن تخف ابن أسد منهم ، فقتلهم عمرو بن النعمان ، وخالفه عبدالله بن أبي بن سكون - وسمي هذا اليوم يوم الفيجل الثاني^{١٢} .

ثم كان بينهم يوم التركة^{١٣} ، ولم نثر على تفاصيل هذا اليوم إلا اسمه . ثم كان يوم قيادته^{١٤} ولم نثر على شيء خلا اسمه .

وأخيراً كان بينهم يوم بُعث ، ونقول صاحب الأغاني في سببه : وكان سببه أن الحروب المتقدمة كلها كان القفر في أكثرها للخزرج على الأوس ، حتى ذهبت الأوس لتحالف قريظة ، فأرسلت إليها الخزرج لئن فعلتم فأذنوا بحرب فضربوا ، وأرسلوا إلى الخزرج إننا لا نحالفهم ولا ندخل بينكم^{١٥} . وعندما قُتل عمرو البياضي غلبتهم جندوا العهد مع الأوس على الموازنة والتناصر ، وأرسلت الخزرج حلفاءها من أشجع وجبينة وأرسلت الأوس حلفاءها من مزينة ،

(١) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٧٦ - ٦٧٨ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٧٨ - ٦٨٠ .

(٣) مجمع الأمثال ٢ / ٥٣٢ ، معجم البلدان ٤ / ٥٤ .

(٤) مجمع الأمثال ٢ / ٥٣٥ .

(٥) الأغاني / لُقاة ١٧ / ٦٨ .

ومكنوا أربعين يوماً بتجهيزون للحرب ، ثم التقوا ببعث وعمل الأوس حُضَيْرُ الكتائب وعمل الخزرج عمرو بن النعمان اليهاني ، وتخلّف ابن سَكول فيمن تبعه من الخزرج ، وتخلّف بنو حارثة من الأوس . وكانت الأوس أن تهزم لولا أن يرك حُضَيْرُ وطعن قدمه بستان رجمه وصاح : واعتزاه كعقر الجمل ، والله لا أعود حتى أقتل ، فإن شئتم أن تسلموني فاعلموا ، فمطفؤوا عليه وقتلوا وصيروا ، وانهمزت الخزرج ، ووضعت فيهم الأوس من السلاح ، فصاح صائح من الأوس : يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم غير من جوار الثعالب ، فانتهبوا ولم يسلبوهم ، وإنما سلبهم بنو قريظة والنضير . ومات في هذه المعركة قائد الفريقين حُضَيْرُ وعمرو بن النعمان ، مات الأول متأثراً بجراحه ومات الثاني قتيلاً^(١).

وكان من نتائج بُعث أن تسبقت روح العدوان والحقد في نفوس البطون البرية حتى أخذ الناس ينصرفون إلى أعمالهم ، ثم جاء الإسلام ، فدخلوا في هذا الدين الجديد الذي أزال ما بينهم من فرقة .

وحروب الأوس والخزرج تميزت بأعور منها : لا يعني طرف منها الطرف الآخر^(٢) ، ولا يدخلون على الفريق الآخر حصونهم وأماكنهم بل يكفون عنهم بمجرد الانصراف إلى دورهم ، يؤذّن الفريق منهم الآخر بالحرب قبل بدنها ، وحوادث القتل فيها قليلة .

ب - حروب القساسة والمتافرة :

عرضنا في الفصل الأول من هذا البحث لمائتين الدولتين ، وولاء أولاهما للروم والثانية للفرس ، وعرضنا للهدف من تليد الدولتين الكبيرتين لها ، وعرفنا مصير من يخرج عن السياسة الرسمية له كما حدث للنعمان بن المنذر ، وكان طبعاً أن تصطدم مصالحها تبعاً لاصطدام مصالح الروم والفرس ، إلا أنه لم يصلنا من حروبهم إلا ثلاثة أيام هي : حزن أبانج - مرج حليلة - شطب .

إلا أن هذه الأيام ، على الرغم من قلة عددها ، فقد داخل رواياتها الاضطراب والاختلاف ، فاعتقدوا في لي اليومين قبل الآخر عن أبانج لم مرج حليلة ، واعتقدوا في الملك المقتول ، ومنهم من جعلها يوماً واحداً . أما يوم شطب فلم يصلنا عنه الكثير .

(١) الأذني/ ثقلة ١٧/ ٦٨ وما بعدها ، الكامل لابن الأثير ١/ ٦٨٠ - ٦٨١ ، معجم البكري ١/

٢٥٩ ، معجم البلدان ٢/ ٢٢٣ ، معجم الأمثال ٢/ ٣٢٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٨٠ قول صائح من الأوس : يا معشر الأوس ...

واشتبك حرب العراق وحرب الشام في هذه الحرب ، فالتقاوة يقاتل معهم العرب الذين يتخضعون لهم ، وهم عرب العراق ، والغساسنة يقاتل معهم حرب الشام .

أما يوم عين أبياغ^(١) ، فيه أن المنذر بن ماء السماء سار من الحيرة في معد كلها حتى نزل بعين أبياغ^(٢) وأرسل إلى الحارث الأعمرج ملك الغساسنة يقول : إما أن تعطيني الفدية ، فأصرف عتقك بجنودي ، وإما أن تلذذ بحرب . فطلب الحارث مهلة ، ثم جمع عساكره وسار نحو المنذر ، وأرسل يعرض عليه أن يقاتل رجل من ولد المنذر رجلاً من ولد الحارث ، فإن فنى لولاهما القتلا فمن قتل صاحبه ذهب بالملك .

ولكن المنذر خدع الحارث فأثرك لجارزة ابن الحارث فارساً ليس ابنه وقتل أبنين للحارث إلى أن كشف الخدعة شعر بن عمرو الحنفي من جيش المنذر ، وكانت له غسانية ، وكان قد لام المنذر على فعله ، فأخرجه من عساكره وذهب إلى عساكر الحارث وأخبره بالخدعة . ولما كان الغد جمع الحارث جنده وحشهم ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، فقتل المنذر وهُزمت جيوشه ، وسار إلى الحيرة يحمل ابنه والمنذر قائمها وأحرقها ، ودفن ابنه وبنى الغريين عليها . وقد قدر بعض المؤرخين زمن هذه الحرب بحوالي سنة ٥٧١ م^(٣) .

ثم ملك الحيرة بعد المنذر ابنه المنذر الأسود^(٤) ، وعندها استقر حكمه جمع عساكره وسار إلى الحارث الأعمرج طالباً بذل أبيه ، وبعث إليه يثوره ، ورد الحارث بأنه مستعد للقاء ، فسار المنذر حتى نزل بمرج حلبيمة^(٥) ، ثم سار الحارث حتى نزل بالمرج أيضاً ، وصنع لعمل المرج الطعام لعساكر الحارث ، ودامت الحرب يوماً لم يتصف بعضهم لبعض ، ولما رأى الحارث ذلك دعا ابنه وأمرها أن تتخذ طياً في الجفان وتتطلب أصحابه ، وتأتي في المعسكر : من قتل المنذر زوجته أبشي هنداً . وتحرك ليبد بن عمرو الغساني ، فأخذ قوس أبيه ، ثم شد على المنذر فقتله ، ونزل فاحتر رأسه وأقبل بها إلى الحارث ، فلقى بالرأس بين يديه ، فقال له الحارث : شأنك بأبنة عمك فقد زوجتكما . قال : بل أنصرف فلواشي الرجال ، ورجع وقاتل فقتل ، وانهرمت لحم هزيمة ثالثة . وقتلوا في كل وجه ، وانصرف غسان بأحسن ظفر . وبعد ابن الأثير هذا اليوم من أشهر أيام العرب لأن كلاً من الملكين جاء بحشر عظيم .

(١) التكميل لابن الأثير ١/ ٥٤٠ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٥ .

(٢) معجم البكري ١/ ٩٥ ، معجم البلدان ١/ ٦٩ ، صحيح الأخبار ٢/ ٢٦ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسي - حسن إبراهيم حسن ١/ ٥٢ طبعه أول ١٩٣٥ .

(٤) التكميل لابن الأثير ١/ ٥٤٢ وما بعدها ، خزائن الأدب ٣/ ٣٠٣-٣٠٥ تحقيق عبد السلام

هارون ، أمثال الضمى ٦٩ ، مجمع الأمثال ٢/ ٥٣٣ مواضع أخرى .

(٥) معجم البلدان ٣/ ٣٣٠ ، صحيح الأخبار ٤/ ١٣ .

وقيل في سبب هذه الحروب إن الحارث الأخرج خطب ابنه المنذر ، وكانت لا تريد الرجال ، وصنعت بجلدها شيها بالبرص ، فقدم أبوها على تزويجها وأمسكها . فلزمت الحارث يطلب القتل فسمعا أبوها واعتل عليه ، ثم خرج المنذر غزياً ، فبعث الحارث إلى الحيرة جيشاً قتلها وأحرقها ، فانصرف المنذر من غزاته ، وسار يريد حسنة ، فمكثت وقعة عين أبيها .

إلا أنه مهما قيل عن الأسباب ، فإن السبب الحقيقي هو الخلاف بين الفرس والروم الذي كان ينعكس على الفساسة والنائرة ، وتشارك بعض القبائل العربية إلى جانب هذا أو ذاك .

حروب العرب مع الفرس :

وضحنا في الفصل الأول مدى العلاقات بين القبائل العربية والفرس ، بشكل مباشر وغير مباشر ، وطبيعة هذه العلاقات ، وتعاون الفرس وولايتهم في اليمن جنوباً ، وعما لهم في الحيرة شمالاً للضغط على القبائل العربية . وقد عرضنا لأيام القبائل العربية مع النائرة من ناحية ، ومع اليمن من جهة ثانية . ولم يبق إلا أن نتحدث عن الصدام المباشر بين العرب والفرس .

وذهب بعض الباحثين^(١) إلى أن الجزيرة العربية وقد أسهمت في العلاقات والاتصالات ، فلذا بها نتجته التهاق قوياً بتصاح له أشد الناس في الماضي تاريخاً لنز الخلاف بين العرب ، وهم ملوك النائرة . فترى النعمان الأخير يعطف على الوحدة التي عمل على تفكيكها أبلاًه . ويرى أن مقتل النعمان وهو نتيجة إحساس الفرس بهذا الخطر الداهم ، واحتها شعر العرب جميعاً بما لم يشعروا به من قبل ، واجتمعت كلمتهم بما لم تجتمع به من قبل ، وهبوا للقائه عدوهم الأول ، الفرس ، انتقاماً للنعمان .

أما أسباب هذا اليوم فقد ذهبوا فيها مذاهب مختلفة ، فالطبري^(٢) وأبو عينة^(٣) ذهبوا إلى أن الذي جرّ يوم ذي قار « قتل النعمان بن المنذر اللخمي عدو بني زيد العبدي ، أحد ثرائمة كسري ، وصاحب الأفاني^(٤) وابن رشي^(٥) يذكران أن « أخراع النعمان ، ولجروشات بكر بالسواد الذي تحميه كسري » هما سبب هذا اليوم . وذهب عبد القادر المغربي^(٦) إلى أن كسري طلب من هاني بن مسعود هنداً ابنة النعمان لاندروعه ، وهند زوجة عدو راعا عدو في كنيسة فتزوجها ويستدل على ما يقول بخطوط في مكتبة لندن اسمه : حرب شيبان مع كسري أموشروان في شأن الحرة بنت النعمان ، وذهب باحث آخر^(٧) إلى أن السبب الحقيقي « أن الفرس بدأوا يشكون في

(١) تاريخ الشعر العربي - البهني ٤٢ . (٢) تاريخ الطبري ٢ / ١٩٣ وما بعدها .

(٣) التتافي ٢ / ٦٣٩ . (٤) الأفاني / ثلاثة ٢٣ / ٢٢٠ .

(٥) العمدة ٢ / ٢١٨ . (٦) المصنفات المجمع العلمي بمشوخ ٢ / ٢٢ .

(٧) تاريخ الجاهلية - صفروخ ١٣٨ - ١٤٥ .

ولاء النعمان ، وبذلك يمكن أن يفرج قسماً من العرب من قبضتهم ليتقلص تقوؤهم عن جانب من بلاد العرب ، فأراد الفرس أن يعملوا عملاً يحاولون به دون تقلص تقوؤهم عن العرب ، ويرى جواد علي^{١١} أن سبب يوم ذي قار أن بكرأ أصريت بقسط ، فخرجت حتى نزلت بذي قار وأقبل حنظلة بن سيار العجلي ، حتى ضرب قبة بين ذي قار وعين سيد ، فالتهم عامل كسرى على السواد ليخرجهم منه ، فأبوا لقتالهم ، فهزموا وانتصروا عليه .

ولا نريد أن نستعمل في سرد الروايات والأسباب ، لانتنا نبين منها عنصراً بارزاً وهو أن الفرس دولة كبرى تعتبر أن حملها يجب ألا يقرب منه أحد كما أنها تعتبر القبائل يجب أن تدعى لها بالولاء ، وكانت الحيرة بأساليب مختلفة تلف طامعاً بين الفرس والقبائل العربية المجاورة وفي مقدمتها بكر ، وعندما ضيق طمعت بكر وغيرها في سواد فارس فللتحمته غير آية بالفرس ، كما أن العداء الذي يكنه العرب معها كان غير واضح ، كان له دور في هذه الحرب ، هذا إلى جانب عوامل أخرى ، كلها تتداخلت فكان يوم ذي قار .

واختلف الباحثون حول الأساس الذي قامت عليه هذه الحرب ، فبينما يرى بعضهم هذه حرباً مع الفرس في معركة مفتوحة^{١٢} ، يرفض آخرون اعتبارها أنها قامت على أساس جنسي أو قومي ، ويستدل الطرف الثاني بالقبائل العربية التي حاربت إلى جانب كسرى^{١٣} ويصف الميداني هذا اليوم بأنه من أعظم أيام العرب ، وأبلغها في ترويح أمر الأعاجم^{١٤} ويؤيد مثل هذا القول ، قول حنظلة بن سيار محرضاً^{١٥}

يا قوم طيبوا بالقتالِ نضاً أجدرُ يوم أن تغلُسوا القُرسا

والحقيقة أن يوم ذي قار لم يغل من عصبية جامعة ، عصبية أحست أنها أمام خطر داهم ، حقاً لقد حاربت قبائل إلى جانب كسرى كتغلب والقضاع وإياد وطلي ، إلا أن ذلك لا يضحك مما ذهبنا إليه ونذهب إليه آخرون قبلنا ، ويدعم ما ذهبنا إليه ، إذا صححت الروايات ، أننا نجد قيس بن مسعود ينسب من صفوف الفرس ليتصح لومه بتوزيع السلاح^{١٦} ، كما أننا نجد إباناً تنسحب من صفوف الفرس بناء على اتصال مسبق مع بكر ، لتوهن صفوف الفرس وتنظم

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي / طبعة ١٩٦٨ : ٣ / ٢٩٨ .

(٢) تاريخ الشعر العربي - نجيب اليهوتي ٤٢ .

(٣) الثقافى - أحمد الشليب ٦٥ ، العصبية لاحسان النسي ١٥٧ .

(٤) مجمع الأمثال ٢ / ٥١٩ .

(٥) الثقافى ٦٤٢ .

(٦) الثقافى ٢ / ٦٤٠ ، المقصد الفريد ٥ / ٢٦٠ .

إلى بكر^(١) ، كما أن أسرى بني عيم من بني يربوع نواهم يحاربون إلى جانب بكر يسالة^(٢) . وربما حاربت تلك القبائل خوفاً من بطش الفرس ، أو لأثر بينها وبين بكر كتغلب مثلاً .

أما زمن هذا اليوم فمختلف فيه أيضاً ، فمنهم من ذهب إلى أنه كان وقد بعث النبي ﷺ وغير أصحابه بها^(٣) . ومنهم من جعله في السنة الثالثة للهجرة^(٤) ، ومنهم من جعله عند منصرف الرسول من وقعة بدر^(٥) ، ومنهم من جعله قبل الهجرة^(٦) ، وحددها أبو الفرج بعد الهجرة بين بدر واحد ، وأنها كانت بعد بدر بأشهر^(٧) . وحدده بعض المستشرقين بحوالي سنة ٦٠٤ - ٦١٠م^(٨) ، أما من ذهب إلى أنها كانت يوم ولادة الرسول ﷺ فقد جادل الحقيقة^(٩) .

وفريقاً هذا اليوم : بكر جميعها إلا حنيفة ومعها أسرى بني رياح بن يربوع وحدهم ماثا أسير ، والفرس ومعها تغلب وقضاعة وأباد وطيء والنمر بن قاسط . وقد حدد عمرو بن الأسود للشعريين حين قال من أصغيه :^(١٠)

لما سمعتُ نداءً مرةً قد علّا	وابتسُ ربيعةً في الغبارِ الأتم
وعلمها يشون تحتَ لوائهم	والموتُ تحتَ لوائِ آلِ محم
وسمعتُ يشكر تدعى بحبيب	تحتَ العجاجة وهي تفسرُ بالدم
وحبيب يُزجون كل طمرة	ومن المهازم شئتُ غير مصرم
والجمعُ من فُعلٍ كأنَّ زهاءَ هم	جُرب الجمالِ يفودها ابنُا شعنم

وورد هذا اليوم في المصادر المختلفة بأسماء متعددة ، فهو يوم ذي قار ويوم قراقر ، ويوم حنوزي قار ويوم الجبابات ويوم ذات العجزم ويوم الفلوان ويوم البطحاء بطحاء ذي قار ويوم

(١) الكامل لابن الأثير ١ / ٤٩٠ .

(٢) النفاض ٢ / ٦٤٧ .

(٣) المقد الفريد ٥ / ٢٦٠ ، النفاض ٢ / ٦٤٠ ، الكامل لابن الأثير ١ / ٤٨٩ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٥٥٩ .

(٥) التنبيه والأشرف للمسعودي ٢٤٦ ، تاريخ اليعقوبي ٢ / ٣٤ .

(٦) للبحر لابن حبيب ٣١٠ .

(٧) الأختي / ٢٢٨ - ٢٣٦ .

(٨) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ٣ / ٢٩٤ .

(٩) معجم البلدان (طبعة بيروت) ٤ / ٢٩٤ .

(١٠) الأصمعية رقم ٢١ .

حيّد ويوم القبة . وهذا ما دعا بعض الباحثين^(١) للقول أنه لم يكن يوماً واحداً ، بل هو جملة معارك وقعت قبلها ، ثم ختمت بذى قار حيث كانت المعركة الفاصلة فنسبت للمعركة إلى هذا المكان .

وفي بداية الحديث عن هذا اليوم^(٢) نود أن نبين ثلاثة الطرفين : فعلى بكر هانيء بن قبيصة الشيباني ، ويزيد بن سُهر الشيباني ، وحظلة بن ثعلبة العجيلي^(٣) ، وزيد بن حسان السكوني حليف شيان الذي أشار بأن يكمنوا للقوس . وفي المعركة كان على البعثة : بكر بن زيد بن مسهر الشيباني ، وحظلة بن ثعلبة وهانيء بن قبة بن الميسرة ، وهانيء بن مسعود بن القلب .

وفي معسكر القوس وأشياهم كان النعمان بن زرعة التغلبي على تغلب والنعم بن فاسط ، وخالد بن يزيد اليهراني على قضاة ولاد ، وإليس بن قبيصة الطائي على جميع العرب ومعه كثير من الشهداء والذوكر ، والمهاجر على ألف من الأساورة وقيس بن مسعود مساعد لإليس .

وتعود إلى الخير منذ البداية ، فعندما هلك النعمان جعلت بكر تغير على السواد ، فوجد قيس بن مسعود بن خالد بن ذي الجثنين إلى كسرى ، وسأله أن يجعل له أكلاً وطعمه على أن يضعن له على بكر ألا يدخلوا السواد ، فاقطعه الأبله وما والاها ، له ولقومه . ولكن قيس بن مسعود لم يكرم قومه ، فاستمرت بكر تغير على السواد ، فلما بلغ كسرى ذلك اشتد حقه على بكر ، وبلغه أن حظلة النعمان وأهلك وولده عندهم ، وأمر بحبس قيس بن مسعود ، فأرسل قيس ينذر قومه سرا . ثم بعث كسرى إلى هانيء بن مسعود يخبره : إن النعمان كان عاملي ، وقد استودعك ماله وأهلك والحظلة ، فابعثها لي ، ولا تكلفني أن أبعث إليك ولا إلى قومك بالجند ، تقتل الحظلة ، وتسي الذرية . وأرسل إليه هانيء : إن الذي بلغك باطل ، وإن يكن الأمر كما قيل ، فإنما أنا أحد رجلين ، إما رجل استودع أمانة فهو حقيق أن يردّها على من أودعها إيّاها ، وإن يسلم الحرّ أمانته ، أو رجل مكلوب عليه ، فليس ينبغي للملك أن يأخذ به يقول عدو لو حاسد .

ودعا كسرى إليس بن قبيصة الطائي يستشيره في القلّة على بكر ، فأشار عليه بالأّ يعلم

(١) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي / ٣ / ٢٩٤ .

(٢) مصادر دراسة هذا اليوم النقائص / ٣ / ٦٤٨ - ٦٣٨ ، الطاريف ٦٠٣ ، الأغانبي / نقالة / ٢٣

٢٢٠ - ٢٤١ ، العهد القوي / ٥ / ٢٦٠ - ٢٦٨ ، تاريخ الطبري / ٢ / ١٩٣ وما بعدها ، العبد / ٢

٢١٨ ، التكمّل لابن الأثير / ١ / ٤٨٢ - ٤٩٠ ، مجمع الأمثال / ٢ / ٥١٩ تاريخ ابن خلّون / ٢ / ٥٥٩

وما بعدها ، معجم البكري / ٣ / ١٠٤٢ ، معجم البلدان / ٣ / ٤٢ ، ٤٤ / ٧ ، الفصل في تاريخ

العرب قبل الإسلام - جواد علي / ٣ / ٢٩٣ - ٢٩٨ .

أحداً لأى شيء عبر وقطع الثمرات ، ولكن ترجع وتضرب عنهم وتبعث العيون عليهم حتى ترى غرة منهم ، ثم ترسل عليهم الجيـش فيوقعون بهم وقعة الدهـر ، فلم يأخذ برأيه منها إياه بالعصب لأخواله بني بكر ، وأشار عمرو بن عدى العبادي بأن يرسل إليهم جنوداً يكفونـه شرهم ، وأشار النعمان بن زُرْعة التغـلي فقال : أياها الملك ، إن هذا الحـي من بكر إذا قاتلوا بذى قار قاتلوا نهاراً الجراد في النار . فعقد للقادة الذين سبق ذكرهم أئمة الجيوش ، وأمرهم إذا فرغوا من عدوهم أن يسيروا إلى اليمن ، وعهد إليهم إذا شافوا بلاد بكر ودنا منها أن يبعثوا إليهم ابن زُرْعة ، فإن أتركهم بالخلفة ومائة غلام منهم ، يكونون رهناً بما أحدث سفهائهم ، فاقبلوا منهم ، وإلا فقاتلوهم .

فلما بلغ بكر بن وائل الخبر سار هاتيه بن مسعود حتى انتهى إلى ذي قار ، فنزل به وأقبل النعمان بن زُرْعة ، فنزل على ابن أخته مرة بن عمرو . . . بن عجل ، وأخبرهم بإخبار كسرى ، فلم يقبلوا بما عرضه عليهم ، بعد أن تشاوروا فيها بينهم . وأشار حنظلة بن ثعلبة بن سكر العجـلي على هاتيه أن يخرج الخلفة ، ويوزعها على قومه ، فإن ظفروا ودعوا عليه ، وإن هلكوا فاعون مفقود ، ففعل بما أشير عليه .

ثم قبلت الأعاجم نحومهم في الصباح ، وأمر حنظلة بالظعن لوقعتها خلف الناس ثم قال : يا معشر بكر قاتلوا عن قلعتكم ، ولما رأيت بنو قيس بن ثعلبة الأعاجم انصرفوا ، فلم يشهدوا ذلك اليوم . وأشار حنظلة بمعالجة لقاء القوم لأن الشـلب الذي من الأعاجم ينكحهم ، وقال هاتيه بن مسعود مثل ذلك ، ثم قام حنظلة إلى وضوء أمراته فقطعه ، وتبع الظعن يقطع وقتنهن حتى لا يمر القوم ويدافعوا عن نسلهم . واقتتلوا صدر النهار ، ثم شد الحوفزان على الماسز فقتله ، ثم هزمت الفرس وولوا الأديار ولحقتهـم بكر تطارد فلوطنهم ، وقتل عمرو بن عدى ، وخالد بن يزيد البهراني ، ونجا إلياس بن قبيصة ، فأتى كسرى فسأله عن الخبر ، فقال هزمتا بكر بن وائل وأتيناك بنسلهم ، فسر كسرى وأمر له بكسوة ، ثم استأذنه في زيارة أخيه الـريـض يعين الثمر ، فأذن له كسرى ، ثم أتى رجل من الحيرة ، فسأله فأخبره الحقيقة ، فأمر به فترعت كنفه .

وروي أن النبي ﷺ مـلـت له الوقعة بالمدينة فرفع يديه ، فدعا لبي شيان أو لجماعة ربيعة بالنصر ، ولم يزل يدعو لهم حتى أري هزيمة الفرس^{١١٠} . وابن عبد ربه^{١١١} يروي أن بكراً تنازعت فيها بينها ، فهاتيه بن قبيصة هم بركوب الفلاة ، وأشار بذلك على بكر ، وقال حنظلة بن ثعلبة :

(١) الأغانى / ثلاثة / ٢٣٦ . (٢) العقد القريد / ٥ / ٢٦٠ .

لا أرى غير القتال ، فإنا إن وكبتا القلعة متنا عطشاً ، وإن أضلينا بأيدينا تقتل مقاتلتنا وتبني طرارنا .

قال أبو عبيد^{١٠٤} : لما كان يوم ذي قار كان في بكر أسرى من ثميم قريباً من مائتي أسير ، أكثرهم من بني دراح بن يربوع . فقالوا : خلّوا عنا تقتل معكم ، فإلّا نلب عن أنفسنا . فقالوا : فإنا نحاف ألا تناصحونا . قالوا : فدعونا نعلم حتى نروا مكاننا وغنائنا .

ويزعم البعض أن يوم ذي قار لم يشهده إلا بنو شيان وبنو حجل ، وقال آخرون بل شهدتها قبائل بكر وحلفائهم ، ويقول أبو عمرو بن العلاء : إن بشير بن سودة التغلبي فصل الأمر فحدد القبائل المشتركة^{١٠٥} .

أيام بين بطون القبيلة الواحدة :

وهذه المجموعة تشير بأصابع الاتهام إلى تلك العصبية الضيقة في المجتمع الجاهلي ، ومدى ما كانت تحدث في قسيت ذلك المجتمع العربي ، ولم تكف بذلك بل عملت حل تاريت الخلافات بين بطون القبيلة الواحدة . ويبدو أن هذه الأيام لم تحظ بأهم الرواة ، فلم تصلنا أخبارها مفصلة كما في المجموعات الأخرى ، وربما عملت لسبب ما ، لا نستطيع أن نؤكد بل نخمنه ، إما لأنها لم تكن عنيفة ، وإما لأن الرواة لم يرغبوا في روايتها .

ومن هذه الأيام يوم حرايب^{١٠٦} أو هرايب^{١٠٧} ، كما في بعض النسخ ، وكان بين الضباب وأخوتهم بني جعفر بن كلاب . وحرايب^{١٠٨} كما يحفلنا اللدائي ثلاثة أيار ، كانت بها وقعة بين الفريقين بسبب بثر أولاد بعضهم أن يحضرها^{١٠٩} .

وفي يوم القراع^{١١٠} ، وهي بقعة فيها ركابا لبني عدانة بن يربوع بن حنظلة ، وكانت هذه البقعة وقعة بين بني مالك بن حنظلة بن ثميم وبني يربوع بن حنظلة بن ثميم^{١١١} .

وفي يوم نياس^{١١٢} كانت أثناء من بني سعد بن زيد مناة وأثناء من بني عمرو بن ثميم التقت بنياس^{١١٣} ، فقطع غيلان بن مالك بن عمرو بن ثميم رجلاً الخلود بن كعب بن سعد بن زيد

(١) العقد الفريد ٥ / ٣٦٨ التفاضل ٢ / ٦٤٧ . (٢) نفس المصدر السابق .

(٣) جميع الأمثال ٢ / ٥٣٣ . (٤) معجم قبائل العرب ٢ / ٦٦٠ .

(٥) أنظر معجم البلدان ٣ / ٨٨٣ . (٦) معجم البلدان ٥ / ٥٥ .

(٧) جميع الأمثال ٢ / ٥٣٠ ، التفاضل ١ / ٢٩٤ .

(٨) التفاضل ٢ / ١٠٢٥ ، العقد الفريد ٥ / ٢٣٦ .

(٩) أنظر معجم اليكزي ١ / ٣٢٨ ، معجم البلدان ٢ / ٤٢٨ .

منة ، فطلبوا الخصاص ، فأقسم خيلان أن لا يعقلها ولا يخص بها حتى تحشى عيائه تريباً . فالتقوا واقتلوا ، فخرجوا خيلان حتى ظنوا أنهم قتلوه .

واختلف سعد والرياب على حفلة ، وكان بنو عمرو بن نعيم حلفوا بكر بن وائل فضاعت حفلة بسعد والرياب ، فساروا إلى عمرو بن نعيم ، فردوهم وحالفوهم ، ثم جمعوا لسعد والرياب ورئيسهم ناجية بن عقال ، ورئيس سعد والرياب نيس بن حاصم ، فقال ابن خفاف لسعد والرياب : من لعمال عمرو وحفلة إن قتلتم مقاتلتهم ؟ قالوا : نحن ، قال : فمن لعمالك إن قتلوا مقاتلكم ؟ قالوا ، هم قال : فدعوهم لعمالهم وليدعوكم لعمالك ، وتكلم الأهنم بمثل ذلك ، ورجال من أشرف سعد وساروا إلى عمرو وحفلة إلى أن لزم من حشى ضربة^١ ، فاجلبهم ناجية بن عقال والقعقاع بن معبد بن زرارة ، وسنان بن علقمة بن زرارة إلى الصلح ، وأبى ذلك مالك بن نويرة^٢ .

ولهذا الحزب الذي دار بين رؤساء الفريقين وحكمتهم دلالة ، فهو يشير إلى وعي هؤلاء وفهمهم لخطورة الصدام بين الأقارب وما يمكن أن يحدث .

ومن هذه المجموعة يوم الفتنة^٣ ، وهو يوم اُخارت فيه بنو عامر على بني خالد بن جعفر ، فانهم بنو عامر في ذلك اليوم بعد مقتلة عقيمة . ولم يجد لنا للمحدثي أي بطن من بني عامر .

ومن أيام هذه المجموعة حروب القضاة^٤ ، تلك الحروب التي وقعت بين بطون طيء ، وبين القوث وجذيلة ، ويسمونها زمن الفساد أو عام الفساد ، وقد أشار إلى هذه الحروب شاعر الحراسة قبصة بن الصراني الجرمي حين قال :

لم أرَ خيلاً مثلهما يوم أدركت	بني شجر خلف اللُهم على ظهر
أبر بأيمان وأجرأ مقدماً	وأنقض منا للسدي كان من وني
عشيّة قطعتا قرائن بيننا	بأسياقنا والشاهدون بنو بدر
فأصبحت قد حلت بيمني وأدركت	بنو ثعلبة قبله وراجمتي شجري ^٥

(١) انظر معجم البلدان ٥ / ١٣٢ ، صحيح الأخبار ٣ / ١١ .

(٢) العسلة ٢ / ٢٠٩ ، جمع الأشال ٢ / ٥٢٥ .

(٣) جمع الأشال ٢ / ٥٣١ .

(٤) جمع الأشال ٥٢٧ ، حلة أبي تمام - شرح الرزوقي ٢ / ٦١٠ ، ٢ / ٩٢ ، التيه والأشرف السعدي ص ١٧٦ .

(٥) شرح حلة أبي تمام للرزوقي ٢ / ٦١٠ .

ويعدد شاعر آخر من شعراء الحداثة أنواع النخعة التي كان الحيلان يترددان فيها، وعقب العيش ، والأمن الذي كانوا يعيشان في ظله قبل تلك الحرب وكثي بالشاعر عن خواطر جميع الإخوة الذين لم يبنوا من قمارهم إلا الوليات .

ولقد أرتأنا يا مُدسي بحائل
نرعى القريء فكاساً فالأصفرا
فالجزع بين ضباغة قُصافة
فعولارض جو البساس مُقفرا
لا أرض أكثر منك بيض نعلنا
ومذاتياً تُشذّي وروضاً أنغصرا
ومعينا يحمي الصوار كأنه
متخبط قطم إذا ما يبررا
إذ لا يخاف حُدوجنا قذاف النوى
قبل الفساد إقامة وتُدبراً^(١)

وعلى الرغم من تدرج أخبار حرب الفساد ، إلا أن السعودي يحددنا أنها دامت نحواً من مائة وثلاثين سنة^(٢) ، وفيها ولد حاتم الطائي وأوس بن حارثة وزيد الخليل ، ولهذا الخبر دلالة أخرى وهي قدم هذه الحرب لأن أوس بن حارثة كان زعيماً من زعماء طيء يوم ظهر الدهناء بين طيء وبني أسد .

أيام أخرى :

وهي أيام لم تدرج تحت أي مجموعة من المجموعات السابقة ، ولا يابط يجمعها ، لذا فإننا نؤثر ذكرها دون شرحها ، وهذه الأيام هي :

ذات الأمل^(٣) وكان لسليم على بني أسد ، ويوم المعاة^(٤) لبني عجل على بني أسد ، ويوم اللهباء أو اللهباء^(٥) ، واللهباء هي الصحبة لبني عمرو بن نعيم على بني عدي بن النضير بن بكر بن عبد منلة بن سعد بن هليل ، ويوم الحبيلاء^(٦) لبني الملات على بني عجماع ، ويوم البحاميم^(٧)

(١) شرح حملة أبي تمام للبرزوقي السابق ٥٩٢ / ٢ .

(٢) التيه والأشراف - للسعودي ١٧٦ .

(٣) العقد الفريد ١٦٦ / ٥ - ١٦٧ ، معجم البكري ١ / ١٠٧ .

(٤) العقد الفريد ٥ / ٢٤٦ ، معجم البلدان ٨ / ٩١ ، معجم البكري ١ / ١٢٤٠ ، صحيح الأخبار ٣ / ٢٢٢ .

(٥) العقد الفريد ٥ / ٢٤٣ ، معجم البكري ١ / ١١٦٤ .

(٦) مجمع الأمثال ٢ / ٥٢٣ ، معجم البلدان ٧ / ٣٤٦ .

(٧) معجم البلدان ٨ / ٥٠٠ .

ويوم صوّار^(١٥)، ويوم ذي خلق^(١٦) لبني أسد حل عامر، ويوم سيمان^(١٧) لقزارة على بني جشم بن بكر، أو لبني قشير على بني أسد كما يرى البكري، ويوم وَجَّ بين ثقيف ونخالة بن هوشة^(١٨)، ويوم حارث الجولان^(١٩) وهو يوم لفسان، ويوم يلدح ما يتحد^(٢٠)، ويوم القرن^(٢١)، ويوم تغشار^(٢٢)، ويوم الكعجل^(٢٣)، ويوم قارة أعوى^(٢٤)، ويوم حر اللوايز^(٢٥)، ويوم ساسوق^(٢٦)، ويوم ترج^(٢٧)، ويوم بارق^(٢٨).

-
- (١) معجم البلدان ٥ / ٣٩٥ ، معجم البكري ٣ / ٨٤٥ .
 (٢) المصنف ٢ / ٢١٧ ، معجم البكري ٣ / ٩٦٤ ، صحيح الأخبار ٥ / ٦٨ .
 (٣) التفاضل ٢ / ٧٦٠ ، جمع الأمثال ٢ / ٥٢٦ ، معجم البلدان ٢ / ١٨٢ ، معجم البكري ١ / ٢٥٠ .
 (٤) جمع الأمثال ٢ / ٥٢٩ .
 (٥) جمع الأمثال ٢ / ٥٣٦ .
 (٦) جمع الأمثال ٢ / ٥٣٧ ، معجم البكري ١ / ٦٧٣ .
 (٧) التفاضل ١ / ٤٠٥ ، جمع الأمثال ٢ / ٥٢٦ .
 (٨) جمع الأمثال ٢ / ٥٣٧ ، معجم البكري ١ / ٣٦٤ .
 (٩) التفاضل ١ / ٥٠٧ ، جمع الأمثال ٢ / ٥٣٧ ، معجم البلدان ٢ / ٢٢٠ .
 (١٠) جمع الأمثال ٢ / ٥٣٥ ، التفاضل ١ / ٤٠٥ .
 (١١) المصنف ٢ / ٢٠٦ .
 (١٢) معجم البلدان ٥ / ٨ ، صحيح الأخبار ١ / ٣٧ .
 (١٣) جمع الأمثال ٢ / ٥٣٤ ، معجم البلدان ٢ / ٣٧٥ ، معجم البكري ١ / ٣٠٩ .
 (١٤) معجم البلدان ٢ / ٣٢ .

الباب الثاني

شعر الأيام : دراسة موضوعية وفنية

الفصل الأول

مصادر شعر الأيام

حيثما عرضنا لمصادر الأيام في الباب الأول أوجزنا ما وسعنا الإيجاز ، وإنما فعلنا ذلك لأننا نستعمل بالبحث في هذه المصادر مرة أخرى ، فأخبار الأيام ليست منفصلة عن شعر الأيام ، وإن من يسمى لمعرفة أخبار الأيام عليه أن يبحث عن شعر الأيام أولاً ، فالحديث عن شعر الأيام والسمي وراء أخبار الأيام هدفان سيلهما واحد .

وأول مصادر شعر الأيام وأهمها وأوفرها بين أيدينا الآن دواوين الشعراء المقردة ، تلك الدواوين التي دونها علماء الطبقة الأولى من الرواة بناء على ما وصلهم من المدونات الشعرية - على رأي من قال بوجود تقييد للشعر الجماعي - وما أخذوه بالرواية الشفهية عن الرواة الأعراب الذين كان العالم يطمئن إلى صدقهم ، وبعض هؤلاء الأعراب كانوا من قبيلة الشاعر السليبي حرصوا على رواية شعر قبيلتهم لما له من أهمية عندهم ، وربما رحل العالم إلى غيره من العلماء ليسمع منهم شعراً لم يصله ، ثم يأتي دور هؤلاء العلماء في قراءة هذه الدواوين على تلاميذهم ، وتناول هذا الشعر بالشرح والتعقيب والنقد والتصحيح ، حدث ذلك كله في عصر التدوين في القرن الثاني الهجري .

وقد روى هذه الدواوين وجمعها ودونها رواة الطبقة الأولى ، البصري منهم والكوفي ثم رواها عنهم تلاميذهم من المحدثين . وأصبح للديوان الواحد أكثر من رواية . وقد ذكرنا ابن النديم العديد من هذه الدواوين التي رواها أولئك العلماء أمثال الأصمعي وغيره ، كما ذكرنا الكثير من الدواوين التي صنعها تلاميذ الطبقة الأولى والذين جاءوا بعدهم . وهؤلاء الذين جاءوا بعد الطبقة الأولى ربما جمعوا بين روايات غطفلة للديوان ، وهذا ما جعل للديوان الواحد له أكثر من رواية فمثلاً : ديوان امرئ القيس : رواه الأصمعي ، وأبو عمرو الشيباني ، وخالد ابن كلثوم ، وعبد بن حبيب . ثم صنعه من الروايات السابقة ابن السكيت ، وأبو سعيد السكري ، وأبو العباس الأحرول ، والأعظم الششمري ، والبطليمي ، وابن النحاس .

وهذا الذي ذكرناه جعل الديوان يضم قصائد اتفق عليها الجميع ، وقصائد أثبتتها هذا العالم ولم تثبت عند الآخر ، وذلك للمجموعة أضافها العالم الثالث . وهذا يتطلب أدلة وقطنة وعلمياً من محققي هذه الدواوين .

وبين أيدينا الآن عشرات من هذه الدواوين ، طبع بعضها أكثر من مرة ، منها الطبيعة الجيدة التحقيق ، ومنها الرديء ، وبعضها طبع طبعة تجارية لا تظهر النزعة العلمية فيها مطلقاً . ومن هذه الدواوين ما زال ينتظر التحقيق العلمي . والمستشرقين دور هام في تحقيق الكثير من دواوين الشعر الجاهلي في عهد مبكر ، ومنهم من وُقِن في هذا العمل ، ومنهم من لم يجافسه التوفيق . ويرجع السبب في رأينا - إلى أن عملية التحقيق تتطلب أدوات التحقيق العديدة عند المحقق ، من معرفة تامة باللغة ، وبالعصر ، وبالخط الذي كتب به المخطوط ، كما يتطلب ثقافة واسعة ، وأدلة شديدة . ومن الأسباب انتشار المخطوطات في مكتبات ومتاحف العالم المختلفة ، وإخراج نسخة قريبة من الأصلية يتطلب اطلاعاً على هذه المخطوطات المختلفة ، وتمييز الفث منها ، وهذا ما لم يفعله غالبية المحققين ، فمعظمهم يكتفي بمخطوطة واحدة ، وبعض المحققين يظلم الشاعر بحذف النصوص أو الأبيات التي يجد فيها مشقة في تحقيقها أو شرحها ، وربما استبدل بعض العبارات فيبدو النص مضطرباً غير واضح .

وفي رأينا ما زال أمامنا جهد كبير لإعادة نشر هذه الدواوين في صورتها السليمة الشرفة ، ومقابلة المخطوطات المختلفة للديوان الواحد لتخرج نسخة قريبة إلى النسخة الحقة . كما أننا نرى أن نشر هذه الدواوين يتطلب دراسة دقيقة لطبيعة الحياة في ذلك العصر والمعرفة الوثيقة بطبيعة العلاقات ، وبثقافة القبائل وقرباتها ، كما يتطلب دراسة تامة بالجزيرة العربية وأماكنها . كل ذلك ضروري لمحقق ديوان من دواوين الشعر الجاهلي ، لأن الشعر على بالأعلام والمواضع ، ولا يمكننا قتل ما يريد الشاعر أن يعبر عنه إلا إذا استطعنا معرفة دور أولئك الذين وردوا في شعره . ولم نستطع الكثير من حققوا دواوين لشعراء جاهليون ، بسبب جهلهم بطبيعة الحياة الجاهلية وبطبيعة العلاقات بين الناس ، أن يستوعبوا تماماً ما قصده الشاعر .

ولبرز ما تتميز به نصوص شعر الأيام التي تضمنتها دواوين الشعراء أنها وردت كاملة بمقدماتها الخلفية أو غيرها ، كما وردت بشروحها التي لازمتها منذ القرن الثاني للهجرة . وهذا القول ينطبق على الدواوين التي حققت تحقيقاً علمياً صحيحاً .

ونستطيع أن نزع أن القبائل التي وصلتنا دواوين لشعرائها كان حفظها من الشعر لوفر ، بينما نجد أن القبائل التي لم يبق شعرها إلا العناية الكافية ، فلم تصلنا دواوينهم ، نجد هذه القبائل لم يصلنا من شعر أهلها الكثير .

وإن هذه الدواوين لو وصلتنا كما جمعها الرواة العلماء ، وكما شرحوها وعلقوا عليها ، لوصلتنا أخبار الأيام واضحة ، ولوصلنا النص في إطاره التاريخي الصحيح ، لكن القسم الأكبر من هذه الدواوين وصلنا وقد جُزئت من هذه الشروح والتعليقات . إلا أن ذلك لا يعني أننا لا نجد بعض هذه الدواوين المحققة تحقياً علمياً سليماً ، وفي الصورة المقابلة لا نعدم بعض الذين نشروا هذه الدواوين وقد أضافوا إلى الديوان الأصلي بعض التحولات عندما يرى شعر الشاعر قليلاً ، كما فعل الورد حينما نشر دواوين الشعر الستة الجاهليين^{١٥} ، فهو لم يكتب برواية الأصمعي التي لحفظها شرح الأعلام الشنبري ، بل أضاف إليها زيادات هي في الأكثر منحولات .

وتنضم دواوين الشعر الجاهلي ، على الرغم مما أصابها من ضياع ولحريف ، قدراً كبيراً من شعر الأيام ، ويعتبر هذا الشعر بعد توثيقه وتوثيق روايته أقدم المصادر التي وصلتنا من شعر الأيام . وستعرض في موضع آخر من هذه الدراسة لبيان مقدار هذا الشعر في هذه الدواوين .

والمصدر الثاني من مصادر شعر الأيام دواوين القبائل ، ودواوين القبائل كثيرة جداً ، ولكن هذه الكثرة ليست بين أيدينا ، بل في بطون الكتب ، كتب القرن الرابع الهجري ، فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) أن الأصمعي جمع أشعار بني جعدة ، كما جمع أشعار الأنصار^{١٦} ، كما ذكر ابن التميم صاحب الفهرست (ت ٣٨٥ هـ) ثمانية وعشرين ديواناً من دواوين هذه القبائل منسوبة إلى صانعيها^{١٧} كما ذكر الأملاني في « المؤلفات والمختلف » ستين ديواناً من دواوين القبائل^{١٨} .

وعلى الرغم من هذه الدواوين الكثيرة ، وفلك الجهد الحصب الذي بذله علماءنا الأوائل في جمع أشعار القبائل ، فقد قال ابن كتيبة « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وبناتلهم في

(١) نشرة وليم بن الورد البروسي سنة ١٨٦٩ .

(٢) الأختاني / يولاتي ١٩ / ٨٦ ، ٨٣ ، ٨٤ / ٥ ، ١٧٦ .

(٣) الفهرست لأبن التميم ١٥٩ .

(٤) المؤلفات والمختلف للأملاني الصفحات : ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٢ .

الجليلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو ينف من وراء علمهم واقف ، ولو أنفذ عمره في التفكير عنهم ، واستخرج مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها^{١٧٤} .

ولكن هذه الكثرة من شعر القبائل ضلت طريقها إلينا ، ففقدت في الطريق ، ولو وصلت لكانت المصدر الأساسي للألحان ولشعرها ، والمصدر الذي لا يضاهيه مصدر لتاريخ تلك الفترة من حياة أمنا . فلم يصلنا منها إلا شعر هذيل ، أو قسم من شعر هذيل على وجه التحديد ، وقد طبع هذا الديوان ثلاث طبعات : الأولى في أوروبا ، والثانية والثالثة في مصر . وقد جاءت الطبعة الأوروبية في أربع مجموعات من صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري (ت ٢٧٥ هـ) طبعت الأولى في لندن ١٨٥٤ بتحقيق يوسف هل ، والرابعة في ليزر ١٩٢٣ بتحقيق يوسف هل وقد قامت دار الكتب المصرية بطبع القطعة الخامسة وتداخل معها القطعة الرابعة . لما الطبعة الثالثة فقد عني بها عبد الستار فراج بمراجعة محمود محمد شاكر وهي من صنعة السكري ، وقد نشرت دار العروبة جزءين منها .

وهذه القطعة التي وصلتنا ، شعر الفلّاحين ، حوت شعراً للألحان^{١٧٥} ولكنه قليل إذا ما قيس بالديوانين الأخرى .

ونتخل بعد ذلك إلى كتب المختارات ، وأقدمها المعلقات ، وقد سميت بذلك لنفسها أخذاً من كلمة (الملق) بمعنى التيس^{١٧٦} .

وأول من رواها في ديوان خاص بها حماد الرواية (٥٩٥ - ١٥٥ هـ) ، وهي سبع قصائد لسبع شعراء ، وهي عند الفضل القضي (ت ١٦٨ هـ) سبع أيضاً ، إلا أن الفضل أسقط من رواية حماد الحلوث بن حلوة وعنترة وأثبت بدلها الأعشى والناطقة . وقد شرحت هذه المعلقات أكثر من مرة ، شرحها الزوزني على رواية حماد (ت ٤٨٦ هـ) وشرحها التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) وجعلها عشرة أجزاً لروايتي حماد والفضل ومضيفاً غيد بن الأبرص . وأقدم من هذين الشرحين شرح للفصائد السبع لابن الأثير (٢٧١ - ٣٢٨ هـ) على رواية حماد .

ويستفاد من هذه المجموعة بمقابلتها على ديوانين أصحابها وروايتيها الوثيقة ، كما يستفاد

(١) الشعر والشعراء - ابن قتيبة ١ / ٦٠ .

(٢) نظير ديوان الفلّاحين - طبعة دار الكتب ١٢٤ ، ١٢٦ ، وشرح لشعر الفلّاحين ٨٤٩ .

(٣) العصر الجاهلي - شوقي صيف ١٧٦ .

من شرح ابن الأثيري لما ذكره يتضمنه الشرح من إشارات ترويض التصوص . وشعر هذه المعلقات فيه إشارات إلى أيام قياتهم ونجد ذلك في معلقات كل من : حنتر ، عمرو بن كلثوم ، الخلود ابن جولة ، وزهير ، ومحمد بن الأبرص .

ولاني هذه المختارات المفضليات ، وقد اختارها الفضل بن محمد الضبي ، رأس علماء الكوفة في عصره ، (ت ١٦٨ هـ) ، وتحتوي على مائة وست وعشرين قصيدة ، أنشيف إليها في إحدى النسخ أربع قصائد^{١١} ، وهذه القصائد لسبعة وستين شاعراً ، منهم سبعة وأربعون جاهلياً لم يدركوا الإسلام ، فهي تضم شعر شعراء يتسبون إلى قياتل بدوية في أواسط الجزيرة وشرايفها بين (٥٥٠ - ٦٥٠ م)^{١٢} .

ولم يشرح الفضل هذه المختارات ، لأنه كان يروي الشعر مجرداً^{١٣} ، وإنما الذي شرحها أبو محمد القاسم بن محمد الأثيري (ت ٣٠٤ هـ) وقد أخذها إملاء مجلساً مجلساً عن أبي حكمة عامر بن عمران الضبي (ت ٢٥٠ هـ) الذي أخذها بدوره عن ابن الأعرابي (ت ٢٣٢ هـ) تلميذ الفضل وريته . ولكن المجموعة مع ذلك لم تسلم من الشك في عند قصائدها^{١٤} ، وربما جاءها الاضطراب في روايتها من كثرة تلايف الفضل الذين رووها عنه .

ونذهب بلا شبهة إلى أن تنوع الطبعات يشير إلى أن غرض الفضل لم يكن تأليف مجموعة نهائية لا سبيل للتبديل فيها بل انتقلت عن طريق الرواية الشعبية .

ومن شراحها قديماً غير الأثيري ، اللداني (ت ٥١٨ هـ)^{١٥} ، والمرزوقي (ت ٤٢٦ هـ)^{١٦} والتبريزي (ت ٥٠٢ هـ) وميزة هذه المجموعة تكمن في أنها مجموعة مؤلفة لأن روايتها ثقة ، ولأنها وصلت إلينا كاملة ، غير مضطربة كغيرها ، كما أنها نصف تقاليد العصر الجاهلي والشعر الجاهلي ، وانطقت في كثير منها البيئة الجغرافية^{١٧} ، كما تعكس المجلعات الشعر العربي منذ عصور الجاهلية حتى منتصف القرن الأول للهجرة^{١٨} .

وقد طبعت المفضليات أكثر من طبعة ، اثنتان في أوروبا بتحقيق ليال وتويك ، وطبعت

(١) ابن التميم جعلها مائة ولاني وعشرين قصيدة قد تزيد وقد تنقص ص ١٠٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١٥٨ .

(٣) مراتب النحويين - أبو الطيب اللغوي ١١٥ .

(٤) أنظر الأمالي للذوالي ١٢٠/٣ ، الفهرست ١٠٢ .

(٥) بنية الرقة - للسيوطي ١٥٥ .

(٦) بنية الرقة ١٥٩ .

(٧) العصر الجاهلي - غريب ١٧٦ وما بعدها .

(٨) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١٥٨ .

في مصر أكثر من مرة آخرها بتحقيق : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . إلا أن الطبعة الأوروبية بتحقيق ليال فتاز بشرح كامل للقاصد ، كما رواها الأنباري ، وبها فهارس في آخرها للشعر وللأعلام ، بينا الطبعة الأخيرة في مصر حرص المحققان عل شرح المقدرات وتخصيص النص ، والإشارة باعتصار إلى جو النص .

وتضم المفضليات تسعة وثلاثين نصاً من شعر الأيام لاثنتين وثلاثين شاعراً ، وسبعتها في جدول خاص في آخر هذا البحث إن شاء الله .

وثالث هذه المختارات « الأصمعيات » من اختيار أبي سعيد عبد الملك بن قريش الأصمعي (١٢٢ - ٢١٦ هـ) ، وتحتوي عل اثنتين وتسعين قطعة^١ وقصيدة لواحد وسبعين شاعراً منهم أربعة وأربعون شاعراً جلعلياً ، وأربعة عشر غنصرون وستة إسلاميون وسبعة مجهولون .

وهذه المجموعة كالمفضليات في الثقة وعلو الدرجة ، إلا أنها تقل عنها في أمور منها : إن الإسناد غير متصل إلى الأصمعي ، ولا إلى الذين أخذ عنهم ، ومع ذلك ففي بعض المقطوعات ذكر لرواتها^٢ . ومنها أنه لم يرو في مجموعته القصيدة بكاملها وإنما اختار أحياناً أو قطعة صغيرة وأفضل باقي النص . وقد لاحظ القدماء اختصار الأصمعي روايتها فقال ابن النديم « وعمل الأصمعي قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالراضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها^٣ » .

وقد طبعت الأصمعيات في أوروبا ، طبعها الورد عن نسخة خطية سنة ١٩٠٢ في برلين ، وطبع في مصر عن نسخة خطية في دار الكتب بتحقيق عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر سنة ١٩٥٥م ، وهي أفضل بكثير من الطبعة الأوروبية .

وقد ضمت الأصمعيات اثنتين وثلاثين قصيدة ومقطوعة من شعر الأيام لثانية وعشرين شاعراً .

(١) في طبعة أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، أما في الطبعة الأوروبية فعندها سبع وسبعون ، وبلاشبس ١٥٩ يذكر عدتها بأنها اثنان وسبعون .

(٢) أنظر المصطلحات : ٥٣ ، ٧٩ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ٩٣ ، ١٧ .

(٣) القهرست لابن النديم ٥٥ .

ونتقل بعد ذلك إلى لون آخر من المختلطات ، ذلك الذي بني على أساس معين في اختياره ، ثم في تقسيمه وتبويبه . ولنعني به كتب الحياسة .

ولول كتب الحياسة ، حاسة أبي تمام (ت ٢٣١ هـ) ، وليست هذه الحياسة رواية انتقلت بها إلى أبي تمام ولا رواية أخذت بها عن أبي تمام ، وإنما أخذها أبو تمام من الكتب في ظرف اضطر للبقاء فترة من الزمن في المنزل بسبب الطلوج كما تذكر المصادر ، فلتقاها من الدواوين والمجاميع^(١).

وقد سمي بالحياسة لأن أكبر باب من أبوابه هو الحياسة ، وقد بني اختيار ما فيها من الشعر على أبواب المعاني ، ألوان الحياسة ، والمزاسي ، والألص ، النسيب ، الهجاء للشيخ ، والأضياف ، الصفات ، التماس والسير ، الثلج ، ملحة النساء .

وقد حاسة أبي تمام القية أنصفت من المختلطات التي سبقتها بسبب فقدان الرواية والأمانة ، وبسبب ما صنعه أبو تمام فيما اختاره من تغوير للنص الشعري^(٢) ، وما يعيها أن شواهدنا تُعطى بحجة^(٣) فقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية لأنها لا تعرف أصحابها ولعل أهم ميزة لها أنها أوردت نصوصاً لشعراء مضمومين لم يعرفوا إلا بالإسم وربما اختلف في الإسم .

وقد بنى الكتاب دعماً مطبوخاً ، لم يقرأ عليه أحد ، كما لم يقرأ هو على أحد ، إلى أن أتيح له النشر بعد وفاة أبي تمام بقرنين من الزمان ، حين شرحه المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) ثم شرحه بعد ذلك التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) .

وتقسم هذه الحياسة ثمانية وثلاثين قطعة من شعر الأيام معظمها لا يتجاوز عدد أبياته العشرة أبيات فهي مقطوعات وليست قصائد .

والحياسة بشرحها مطبوعة ، حققها بشارح المرزوقي عبد السلام محمد هارون ١٩٥١ وشرح التبريزي حققها الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي .

ولأبي تمام مجموعة أخرى هي « الوحشيات » قسمها إلى عشرة أبواب بدأها بباب الحياسة ويشغل هذا الباب حوالي ثلث الكتاب . أما الأبواب الأخرى فهي : المزاسي ، الألص ، النسيب ، الهجاء ، المساحة ، والأضياف ، الصفات ، اللص ، الثلج ، ملحة النساء . وهذه المجموعة مجموعة مقطوعات ، تضم شعراً قُبِلَ في الأيام ، ولم تَلِ غاية كما تالت الحياسة .

(١) شرح ديوان الحياسة للتبريزي ١/٢ - ٤ .

(٢) مقدمة المرزوقي ١٣ - ١٤ .

(٣) العصر الجاهلي - شوقي صيف ١٧٨ .

ومن الحماسات حماسة البحري (ت ٢٨٤ هـ) ، وهي تشبه حماسة أبي تمام من حيث أنها لا تعرف مصانرها ، ولكنها تكل أهدية من حماسة أبي تمام لأنها تضم مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين باباً ، ومما يضعف من قيمتها الفنية أن أكثر أبيوابيا في ترعات خلقية .

ولم يمن القدماء بشرحها كما عثوا بحماسة أبي تمام ، وأشعارها متخفية من أشعار الجاهليين . وقد طبعت أكثر من مرة : في بيروت بتحقيق لويس شيخو ، وطبعت في مصر بتحقيق كمال مصطفى سنة ١٩٢٩ م . وقيمتها بالنسبة لشعر الأيام تكاد تكون معدومة فهي لا تضم قصيدة كاملة أو مقطوعة تتعلق بالأيام ، وهذا عدا عن عدم توثيق العلماء لها . ولكنها مع ذلك حوت شعراً كثيراً يتصل بالأيام ، وتلحق القائمة منه إذا قورن بالمصادر الأخرى التي ذكرته . كما أن لها قيمة أخرى وهي أن صاحبها قد قسم الشعر على أبواب كثيرة بحيث يمكن الاستفادة منه بصورة أوضح . وهذا جلد أبي تمام بعد البحري الأخران الخالديان : محمد الخالدي (٣٥٠ هـ) ومحمد الخالدي (ت ٣٨٠) ، فجمعاً حماسة أسبوعاً (حماسة الخالدين أو الأشياء والتظاير) . وكان هذان من شعراء سيف الدولة الحمداني .

وتبعها حبة الله بن علي بن محمد أبو السعادات فأنف مختارات ابن الشجري (ت ٥٤٢ هـ) وهي ضميقة السند ، وتضم شعراً أغلبه جعليل ، وقد وزعها على أقسام ثلاثة هي : القسم الأول وقد ضم القسم التي عشرة قصيدة للمتلصص وطرفة ، وقسم القسم الثاني قصائد ليشر وعبيد وزهير ، والقسم الثالث من شعر الحظيفة .

وقد قال السيوطي^(١) عن ابن الشجري «إنه أوحى زملائه في علم العربية ومعرفة اللغة وأشعار العرب وأبائها وأحوالها . وقد ألف كتاب الحماسة ضلعي به حماسة أبي تمام وقد طبع هذا الكتاب مرتين في القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ ، وفي حيدر آباد سنة ١٣٤٥ هـ وقد حقق طبعة حيدر آباد المشرق كرتكو .

وأخر كتب الحماسة هذه ، الحماسة البصرية لصدر الدين علي بن أبي الفرج البصري (ت ٦٥٩ هـ) جمعها صدر الدين . وقدمها إلى الملك الناصر أمير حلب^(٢) . وتضم بين قصائدها قصائد من شعر الأيام ، ولكنها تقتصر إلى التوثيق لتأخر عمر جامعها .

ومن كتب المختارات كتاب جهرة أشعار العرب لمؤلف مجهول الترجمة ، ومجهول العصر ، ينقل عن رواة مجهولين . فتمن لا تجده بين الرواة المشهورين ، كل ما نعرفه أنه محمد بن أبي

(٢) تاريخ الأدب العربي - بركاتيان ٨٢ / ١ .

(١) بقية الوعاة للسيوطي ٤٠٧ .

الخطاب القرشي كما جاء ذلك في العمدة لابن رشي^(١)، أما عصره فيرجع أنه عاش قبل منتصف القرن الخامس لأن ابن رشي الذي ذكره مات سنة ٤٦٣هـ . فالدكتور شوقي شيف^(٢) يرى أنه عاش في أواخر القرن الثالث أو القرن الرابع ، ويقترب من هذا الرأي الدكتور ناصر الدين الأسد حيث قال إنه عاش خلال القرن الرابع^(٣).

ويبدو أنه عصفها في أواخر القرن الثالث معتمداً على ما رواه المدعو الفضل ولا تزال شخصية الفضل هذا مجهولة ، وينقل عن رواية مجاعيل لا نجد قسم فيها بين أيدينا من كتب التراجم .

والجمهرة تضم تسعاً وأربعين قصيدة موزعة على سبعة أقسام: المعلقات، المجهرات ، المتقيات، اللطعات، المراثي ، النشويات ، اللحنات. وقد جعل في كل قسم من هذه الأقسام قصائد سبعة .

وطبع كتاب الجمهرة عدة طبعات: طبعة بولاق ١٣١١هـ ، وهي الطبعة الأخيرة ١٣٣١هـ ، وطبعته المكتبة التجارية سنة ١٩٢٦ وطبعة الأخيرة بتحقيق علي البجاوي سنة ١٩٦٤ ، كلها طبعت في بيروت .

وتضم الجمهرة عدة قصائد من شعر الأيام ، وبعضها ذكر في المعلقات والمقتضيات والأصمعات ، ولكنها مع ذلك تصلح للمقارنة مع المصادر الأساسية لهذه النصوص .

ومن المعلقات تجد : معلقة زهير ، ومعلقة النابغة ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ومعلقة عنترة . ومن المجهرات : جمهرة بشر بن أبي خازم ، وجمهرة خنداش بن زهير . ومن المتقيات : متفلة المهلهل بن ربيعة ، ومتفلة زُرَيْد بن الصمة . ومن اللحنات : الحسان ، ولعبد الله بن رواحة ، ولما لك بن العجلان والقيس بن الخطيم ، ولأبيحة بن الجلاح ، ولأبي قيس بن الأسلت ، ولعمرو بن أمية القيس . ومن المراثي : مراثية متمم بن نويرة .

وهكذا فإن نصيب شعر الأيام من هذه المجموعة ست عشر قصيدة ، وتكمن أهمية هذه المجموعة - في نظرنا - أنها ضمت قصائد كاملة لم ترد في مصنفاتها الأخرى كاملة لطبيعة المصدر الذي أوردتها ، وينقل من قيمتها أنها غير موثقة الرواية^(٤).

(١) العمدة - لابن رشي ٧٨/١ - ٧٩ .

(٢) العصر الجاهلي - شوقي طبع ١٧٨ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي - ناصر الدين الأسد ٥٨٨ .

(٤) العصر الجاهلي - شوقي شيف ١٧٩ .

شعر الأيام في غير الدواوين والمختارات :

ونستطيع أن نميز من ذلك : كتب النحو ، وكتب اللغة ، وكتب السيرة ، والتاريخ ، وكتب الأدب العامة ، وكتب التراجم ، وكتب النقد ، والمعاجم . وفي الحقيقة إن هذه المجموعات تأتي في المنزلة الثانية بعد الدواوين والمختارات للوثقة . ولكن لهذه المجموعات أهمية في أنها تتضمن شعراً لم تروه الدواوين التي وصلتنا أو للمجموعات الشعرية الموثقة ، وربما ضمت شعراً لمصادر طويت وضاعت على أن نأخذها بحذر وتقتصر ، لأن لسنا فيها ضعفاً رفضناها .

أما كتب النحو ، فإن النحوي حينما يورد شعراً ليستشهد به ، فإنه لا يعنيه قلته ، ولا يعنيه أن يتحرى عنه ، وإنما الذي يعنيه أن يكون هذا الشعر مما يجوز الاستشهاد به ، وربما أورد البيت دون ذكر القائل . ومع ذلك فإن شرح الكتاب أو تلاميذ العالم ربما تولوا توضيح الشعر وشرحه وبيان نسبه كما فعل البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ) في خزنة الأدب حين شرح شواهد الرضي شارح كتاب الكافية لأبن الحاجب ، فقد استطرد عندما عرض للشواهد فأغنى كتابه بكثير من شعر الأيام وأخبارها ، وترجم لبعض الشعراء الجاهليين وعرض للشعر من حيث الاتساع والصحة .

ومثل ذلك نجده في شرح السيوطي على شواهد اللغني (ت ٩١١ هـ) .

ومن هنا فإننا لا نعبر هذه المؤلفات مصدراً أساسياً من مصادر شعر الأيام وأخبارها ، ولكنها إذا ما قورنت بغيرها في توضيح اللبس إن وُجد ، كما أنها ربما ضمت شعراً من مصادر ضلت طرقها إلينا .

وما قلناه من كتب النحو ينسحب على كتب اللغة ، فهي ليست مصدراً أساسياً لشعر الأيام ، ولكنها إذا حُوسبت بشيء من الحذر لن نحل من فائدة ، وبخاصة فيما يتصل بشروح أو استطراد أو مقارنة تلقي بعض الضو على ما غمض من جوانب النص .

أما النوع الثالث من هذه التصنيفات فهو أكثر التصنيفات اتصالاً بموضوعنا ، ونعني به كتب السير والتاريخ ، ولكنها في نفس الوقت أكثر المؤلفات من حيث احتوائها على شعر مصنوع . فقد كان بعضهم يحتاج ، إلى الشعر للاستشهاد به في قصصهم ، ولم يكونوا جميعهم متقنين في هذا ، بعضهم يعتمد إليه عمداً وبعضهم يهده مروياً أملاًه ، أو مدوناً فيضطرون إلى جمعه من غير تحفيظ لصحة الشعر ونسبه ، ويعتبر بأنه لا علم له بالشعر ، مثل ابن إسحاق .

ونستطيع أن نجد شعر الأيام مثبتاً في مصادر التاريخ التالية بنسب متفاوتة من حيث الصحة والحجم : سيرة ابن هشام (ت ٢١١ هـ) ، كتاب بكر وتغلب الذي يروي عن ابن اسحاق ، الأخبار الطوال للدينوري (ت ٢٨٢ هـ) ، تاريخ الطبري لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، ومروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ) ، والنتبه والأشراف للمسعودي أيضاً ، والروض الألف للسهيل (ت ٥١٨ هـ) ، والكمال في التاريخ لابن الأثير (ت ٦٢٢ هـ) ، والمختصر في أخبار البشر لأبي القلاء (ت ٧٧٤ هـ) ، والبداية والنهاية لابن كثير (ت ٧٣٢ هـ) ، وتاريخ ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ، وتاريخ ابن القرات (ت ٨٠٧ هـ) ، والإكمال الجامع لأخبار كثير من العرب ووقائعها وأشعارها ، وهو مخطوط مؤلف مجهول من القرن التاسع للهجرة محفوظ عهد المخطوطات ، وإتساع الأسجاع للرسول من الأبناء والأموال والحضرة والمتاع للمغربي (ت ٧٣٢ هـ) .

وهذه المصادر تصبح نافعة لنا عندما نتناول هذا الشعر الكثير المتصل بالأيام بالنقد والتحميص ، عندما لا بد أن تبدو نافعة لنا ، خصوصاً وأن بعضها ينقل عن مصادر هامة للأيام لم تصل إلينا ككتاب الأيام الكبير لأبي الفرج الأصفهاني ، وكتاب الأيام الكبير لأبي عبيد .

ويبدو كتاب الكمال في التاريخ لابن الأثير أكثر هذه الكتب أهمية بالنسبة لشعر الأيام بسبب ما ضمه من هذا الشعر ، وسبب الاختصار في احتواء هذا الشعر الذي حرص عليه المؤلف ، وللمكانة التي يتمتع بها صاحب الكتاب .

وسوف نعرض دراسة مقارنة للشعر الذي ضمته هذه الكتب في موضع آخر من هذا البحث إن شاء الله مبينين مصادر هذا الشعر الأخرى .

أما النوع الرابع من هذه المصادر فهو كتب الأدب العامة ، وبشكل هذا القطع من المصادر حجباً كبيراً في مكتبتي العربية ، وفي ثلثها هذه المؤلفات انتشرت قصص الأيام وأشعارها وأشعارها ، بل لعنا لا نبالغ إذا قلنا إن هذا النوع من المصادر هو مصدرنا الأساسي في دراسة أخبار الأيام ، وكما بينا سابقاً فإن دراسة أخبار الأيام متصلة بدراسة أشعارها فهي ثوابان لا ينفصلان عن بعضهما . ومن هنا نستكشف أهمية هذه المجموعة ، فهي قد حوت أخبار الأيام وحوادث أيضاً شعراً كبيراً .

وسيكفينا لدراسة هذا الشعر وتوثيقه أن نستخرجه ثم نرجعه إلى أصوله في الدواوين أو المجموعات الشعرية الموثقة ، فما وافق منه قبلناه ، وما لم يوافق عرضناه على محك النقد والتحصيص والمقارنة بشعر آخر للشاعر فإن وجدنا تشابهاً قبلناه وإلا فإنا نرفضه .

ولقد ضمت هذه المجموعة شعراً لا نجد له مصدراً آخر غيرها ، وهذه ميزة وعيب ، ميزة لأنها تلتقى مزيداً من الشعر على الأيام ، وعيب لأنها تخشى أن تكون موضوعة ، وخير مثال لهذا كتاب النقائض لأبي عبيدة (ت ٢٠٩ هـ) ، والعقد الفريد لأبن عبد ربّه الأندلسي (ت ١٢٨ هـ) .

أما بقية هذه المجموعة فهي : أمثال للعرب للمفضل القسي (ت ١٨٧ هـ) نقائض جرير والأخطل لأبي تمام (ت ٢٣١ هـ) ، المعرون والصبيا للسجستاني (ت ٢٥٠ هـ) ، المعارف لأبن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، عيون الأخبار لأبن قتيبة ، والكمال للمبرد (ت ٢٨٦ هـ) ، الحيوان ، والبيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، الأمالي لأبي علي الفضالي (ت ٣٥٦ هـ) ، وأمثال الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) ، وزهر الآداب للمحصري (ت ٤٥٣ هـ) وحطية الفرسان وشعر الشجعان لعلي بن عبد الرحمن الأندلسي ، مجمع الأمثال للميداني (ت ٥١٨ هـ) ، نهاية الأرب للزيري (ت ٧٣٣ هـ) ، وشرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لأبن نباتة المصري (ت ٧٦٨ هـ) ، صبح الأعشى للقلقشندي (ت ٨٢١ هـ) ، والأنوار ومحسن الأشعار وللشمشاطي .

وعلى الرغم من أن أصحاب هذه الكتب لا يرمون إل الفائدة العلمية وحدها ، وإنما يتهجون نهج الأسلوب الأندلسي ، ويلجأون إلى الاستطراد والتنوع والتقل ، فإن بعضهم لم يغفل نقد الشعر الذي يورده وبين رأيه في صحته ، ومع ذلك فبعضهم لا يكلف نفسه مشقة البحث والتنمحيص ، والمراجع إل المصادر الأخرى للتثبت . ولو أردنا بسط القول في هذا لما استعنا بالبحث وضيق المجال ، ومع ذلك فهي كتلي الجاحظ ، وفي نقائض أبي عبيدة ، وفي كتاب للمعمرين ، وفي أمالي الغالي ، وغيرها من المؤلفات الكثيرة من هذه الأشارات التي تنبه على ضعف هذا الشعر لو اضطرابه أو نسبته إلى أكثر من قائل .

ويحل أحد الباحثين^(١) عدم اهتمام أصحاب هذه المؤلفات بتوثيق الشعر الذي يوردونه بأن الشعر في هذه المؤلفات ليس غاية قصد ، وإنما هو وسيلة لتلمس لغيرها من الغايات ، فهو يساق حيناً للاستدلال والاحتجاج ، ويساق حيناً آخر للاستشهاد والتعويل وتقوية الخبر وتزينه .

ونتغل بعد ذلك إلى مجموعة أخرى من مصادر شعر الأيام ، وهي كتب التراجم . ومنها طبقات فحول الشعراء لأبن سلام (ت ٢٢١ هـ) ، والشعر والشعراء لأبن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، وكتاب الأغاني (ت ٣٥٦ هـ) ، والمؤلفات والمختلف للأندلسي (ت ٣٧٠ هـ) ، ومعجم الشعراء للمريزاني (ت ٣٨٤ هـ) ..

(١) مصادر الشعر الجاهلي - ناصر الدين الأسد ٦١٣ .

وهذه المجموعة تفيدنا في الترجمة لشعراء جاهليين بعضهم من الغموريين ، ولكن بعضها لا يستند إلى رواية في رواياته مثل كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة . أما الكتاب الذي يزعم بأخبار الأيام وشعرها من هذه المجموعة فهو كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، هذا الكتاب الذي يعرض خير اليوم كاملاً ، ويستند إلى روايته الذين نقل عنهم إلى أن يصل أحياناً إلى الرواة الأعراب من أبناء القبيلة ولا يستند إلى رواية واحدة بل يعرض لمختلف الروايات ، ويعتدها نقداً علمياً ، وأبو الفرج رائية ثقة نستطيع أن نطمئن إلى دقة ما ينقله عن الأئمة ، وله ذوق عالٍ ناقد بصير^(١) وقد احتفظ لنا الأغاني بشعر كثير فقدناه ، وبأخبار نقلها عن مصادر ضلت طريقها ولم تصل إلينا . ولها يتعلق بالأيام فقد أطلت الحديث عنها ، وهذا ما دعا أحد الباحثين^(٢) إلى القول بأن كتاب الأغاني الذي بين أيدينا أنشئت إليه إضافات من النسخ ، نقلوها عن كتاب أبي الفرج في الأيام ويورد أدلة على ما يقول .

وبلاشيز^(٣) رأى في الأغاني فهو يرى أهميته في احتوائه على ذكر كتب مفقودة ، لكنه يفسد ترتيبه باستطراداته ، ويأخذ عليه أنه لم يورد نصيحة كاملة بسبب ميله إلى الإيجاز على تقديم الأحسن .

وربما فعل أبو الفرج ذلك ، لأنه يعتقد بصحة هذا الذي أورده فقطعون باقي النص ، أو لشككه فيه ، فقد كان محتاطاً إزاء روايته أشد الحيلة ، فمن عُرف بكذبه تَبَّ عليه ، وحتى من عرفه بصدقه كان يراجع رواياته على روايات معاصريه ويوازن الشعراء مبالغة في الدقة والتحري . وقد تضمن كتاب الأغاني شعراً كثيراً من شعر الأيام ، ولعل من أهم مزاج شعر الأيام الذي تضمنه كتاب الأغاني ، أن هذا الشعر قد وصلنا مستقلاً إلى روايته ، كما أنه جاء في إطاره التاريخي مما يجعله واضحاً ضمن إطاره العام . كما أن ميزة أخرى هي أنه يؤثق الشعر أو يضعفه ويرده إلى مصنفه الأخرى ، ويقارنه بها حتى يطمئن إلى صحته .

أما المجموعة التالية ، والتي نجد فيها إشارات لشعر الأيام ، وهي إشارات صغيرة ، فهي كتب النقد مثله في كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) ، وكتاب الصناعاتين لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) ، وكتاب الوساطة للبرجاني (ت ٤٧١ هـ) ، وكتاب العمدة لابن رشي (ت ٤٦٣ هـ) . وهذه المجموعة لا تخلو من فكر لشعر الأيام ، ولكنه لا يتعدى البيت أو البيتين في مجال النقد ، أو المقارنة ، أو تمثيل بصورة من الصور . وعل الرغم من أن

(١) العصر الجاهلي - شوقي ص ١٦٣ .

(٢) أبو الفرج الرواية - محمد أحمد علق ل ٢٧٩ .

(٣) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١٤٥ .

العمدة تضمن فصلاً خاصاً من أيام العرب إلا أنه ذكرها مختصرة ، ولم يورد شعراً له قيمة فنية . ومع ذلك لفائدة هذه المجموعة في أن إشاراتها البسيطة ربما هدتنا إلى شعر ضائع من شعر الأيام ، وهو كثير ، أو ربما صححت لنا رواية بيت .

بقيت لدينا المجموعة الأخيرة وهي المعاجم على اختلاف أنواعها ، منها المعاجم اللغوية كلسان العرب والقاموس المحيط ، ومنها الجغرافية كمعجم البكري (ت ٤٨٧ هـ) ومعجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) . أما المعاجم اللغوية فقيمتها في الأبيات المرفوعة الكثيرة التي تنتشر على صفحاتها ، ومن هذه الأبيات ما كان من قصائد لم تصلنا ، كما أن وضع البيت في إطار معجم لغوي يوضح الكثير من جوانبه الغامضة ويظهرها ، وربما أشار للمعجم إلى اليوم الذي قيل فيه البيت ، أو وضَّح علماً ورد في البيت . ويحتاج هذا إلى عمل طويل في قراءة لسان العرب قراءة متأنية ، واستخراج الأبيات المتصلة بالأيام ، ويكون الأمر أكثر سهولة لو كان هذا المعجم الضخم يحتوي على فهرس في آخره للشعر الذي فيه .

أما المعاجم الجغرافية ، فهي أكثر فائدة من المعاجم اللغوية ، لأنها تترجم الأماكن كان قسم كبير منها مسرحاً لأحداث الأيام ووقائعها . وعندنا يجد المؤلف نفسه مضطراً للحديث عن اليوم ، ويضعن حديثه بعض الشعر الذي قيل ، ولكنه لا يورد القصيدة أو المقطوعة كاملة دائماً ، واكتفى بالبيت أو البيتين أو الثلاثة ، ولكن هذه المعاجم مع ذلك ، حفظت لنا الكثير من الشعر الذي فقد بفقدان مصلحه ، لأن هذه المصادر كانت في متناول أيدي مؤلفي هذه المعاجم في ذلك الزمن . ولم يورد أصحاب هذه المعاجم الشعر مجرداً من النقد والتعخيص ، بل أشاروا إلى صحته أو ضعفه ، وأكثرهم دقة البكري في معجمه : معجم ما استعجم ، لأنه كان عالماً بملك أدلاء التحقير والتبث من النص الذي يورده .

رواة شعر الأيام وأخبارها

لقد قطع شعر الأيام ، وهو جزء هام وكثير من الشعر الجاهلي ، رحلة طويلة منذ انطلق من أفواه قائله ، إلى أن استقر في بطون الكتب التي قلم بها رجال القرن الرابع في الجمع النهائي للألغاز والتراجم والشعر . وفي خلال هذه الرحلة الطويلة لا بد أن يكون قد نقل بوسائل كثيرة أسلمته كل وسيلة إلى الأخرى ، وستحاول في هذه الصفحات أن نتحدث عن أولئك الذين عُنوا بنشر هذا الشعر ونقله ، إلى أن استقر في أيدي أولئك العلماء الذين تناوبوه بالترتيب والنقد والتدوين .

أول من روى شعر الشعراء هم الشعراء أنفسهم ، وأبناء القبيلة الذي يعتزون بهذا الشعر ويعتبرونه مادة فخرهم وسجل تاريخهم ، ونرى ذلك واضحاً في الكتب التي حفظت لنا الإسهام مرفوعاً إلى عصر الشاعر ، جاء في الأغانى^(١) عن سبب مقتل قيس بن زهير العبسي : « ... قال الأصمعي حلفتي غير واحد من الأعراب ... ثم في موضع آخر » ... قال الأصمعي : ثم يرجع إلى حديث العيسين والعاصرين وبعضه من حديث أبي عمرو بن العلاء وفي حديث الأغانى عن أيام الأوس والحزرج وشعر تلك الأيام يقول^(٢) « حدثنا ... عن أيوب بن عبد الرحمن أحد رُفَظ بني » وفي حديثه عن يوم لواء الثاني يقول أبو الفرج^(٣) « نسخت من كتاب عمر بن محمد بن عبد الملك المزيت بخطه وذكر أن ... عن هشام بن الكلبي عن أبيه وغيره من أشياخ طيء » وفي حديثه عن زهير الكلبي وحرره بنظفان^(٤) « أخبرني محمد بن القاسم الأتباري عن أبيه ... عن أبي الكلبي عن أبيه عن شبيخة من الكلبيين » .

وفي أبناء القبيلتين يتناقلون هذا الشعر جهلاً بعد جهل ، حتى ظهر الرواة المحترفون للشعر ، وقد ظهوروا في الربع الثاني من القرن الأول للهجرة في مكة والمدينة ودمشق ، ويعتبر هذا الدور الثاني من أدوار رواية الشعر الجاهلي . ويقول الدكتور شوقي ضيف^(٥) « ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروي خلفهم شعر سلفهم ، ونص القدماء على ذلك في غير شاعر^(٦) » كما يؤكد في موضع آخر أن « كل قبيلة أخذت تعنى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومطالب خصوصها ، ويتناقله أبنائها ... وكان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي^(٧) » .

ولمذهب بلاشير^(٨) إلى أن القصيدة انتقلت بثلاث طرق : إما أن يحملها أفراد العشيرة الذين صيغهم أم القبيلة والشاعر ، وإما أن يستظهر القصيدة أصدقاء الشاعر ، وإما أن يلازم رواية الشاعر ، وقد يكون هذا الراوي ابن الشاعر أو أحد أقربائه ، وقد يكون غريباً عن القبيلة .

ثم نصل إلى الدور الثالث من أدوار رواية الشعر الجاهلي ، وفي هذا الدور ظهرت طائفة من العلماء عملوا بجد ولمسة في جمع الشعر من الشيوخ المختلفين ، ومن أقواء الأعراب ، ومن

-
- (١) الأغانى / كتب ٩١ / ٩٢ .
 (٢) الأغانى / ثلاثة ١٨٦ / ٢٢ .
 (٣) القصص الجاهلي - شوقي ضيف ١٤٣ ، وانظر الشعر والشعراء ١٢٧ / ٢ ، ٦٣٥ .
 (٤) نفس المرجع السابق ١٤٥ .
 (٥) نفس المصدر ١٥ / ٤٧ .
 (٦) الأغانى / ثلاثة ١٨٦ / ٢٢ .
 (٧) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١٠٠ .

بعض الصحف الملوثة ، ثم تدرس هذا الشعر وتقصصه وتقصصه وتليز صحيحه من فاسده ، والثابت النسبة من لشكوك فيه ، وهذه الطائفة من العلماء هم العلماء اللغويون والنحاة .

ولم تظهر هذه الطبقة من الرواة العلماء قبل مطلع القرن الثاني الهجري^(١) أو في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة^(٢) ، وقد كان هؤلاء العلماء يجمعون الشعر ومعطيات التاريخ والتراجم . وأول شيوخ هذه المرحلة الذين مهدوا الطريق لمن تلوهم : أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) ، وحاد الرواية (ت ١٥٦ هـ) يقول ابن سلام^(٣) : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : حاد الرواية » ويقول : الأنباري^(٤) « كان خلف الأحمر أول من أحدث السماع بالبحرة ، وذلك أنه جاء إلى حاد الرواية فسمع منه ، وكان ضئيلاً بأدبه » .

ثم أخذت عن هذين العالين سائر العلماء ، علماء الشعر واللغة ، كخلف الأحمر ، والفضل الضبي ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، وأبي عمرو الشيباني . وعن هؤلاء أخذ تلاميذهم : كاتين الأعرابي ، وابن حبيب والسجستاني . ثم أخذ عنهم السكري وشعلب وابن السكيت ومعاصروهم .

وانقسم العلماء إلى مدائس ، فَوُجِدَتْ مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، ومدرسة المدينة ، ومدرسة بغداد ، ولكل مدرسة تلاميذ يتعصبون لمدرستهم وشيوخهم ، ويؤلفون روايتهم ويعتقون في شيوخ المدرسة الأخرى ، ويتهم بعضهم بعضاً بالوضع والتحل .

ولكننا في دراستنا لرواة شعر الأيام سنهجع نهجاً زمنياً فتدرس هؤلاء الرواة حسب سنوات وفاتهم ، دون مراعاة تقسيم المدارس لأن رواية الخير الذي يتضمن الشعر ، والذين يذكرهم أبو الفرج ، أو ابن الأثير ، أو أبو عبيدة فيهم الكوفي والبصري والبيهقي وغيرهم ، ويستشير في أثناء حديثنا إلى المدرسة التي ينتمي إليها .

ورواة شعر الأيام كتبها وجدناهم في الكتب التي اعتمدت بالأسانيد هم : خلف الأحمر (ت ١١٥ هـ) ، وابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) ، وعبد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) ، وابن اسحاق (ت ١٥١ هـ) ، وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) ، وحاد الرواية (ت ٥٥٥ هـ) ، والشرقي القطامي (ت ١٥٥ هـ) ، والفضل الضبي (ت ١٦٨ هـ) ،

(١) مصنف الشعر الجاهلي - ناصر الدين الأسد ٢٥٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١٢٢ .

(٣) طبقات فضول الشعراء - ابن سلام ٤٠ .

(٤) نزعة الألباء - أبو يركات الأنباري ٣٧ .

وهشام بن الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) ، وأبو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ) ، وهشام بن عدي (ت ٢٠٦ هـ) ، وأبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ) ، وابن هشام (ت ٢١٣ هـ) ، وأبو زيد الأنصاري (ت ٢١٥ هـ) ، والأصمعي (ت ٢١٦ هـ) ، وأبو نصر الباهلي (ت ٢٣١ هـ) ، وأبو الحسن علي بن المقيرة (ت ٢٣٢ هـ) ، وابن سلام الجعفي (ت ٢٣٢ هـ) ، وابن الأعرابي (ت ٢٣١ هـ) ، وأبو عبيدة القاسم (ت ٢٣٠ هـ) ، والطوسي ، وابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) ، وعبد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) ، وأبو العباس الأحمك (ت ٢٥٠ هـ) ، وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) ، وأبوالفضل (ت ٢٥٥ هـ) ، والزيبر بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) ، وابن قتيبة (ت ٢٦٧ هـ) ، والسكري (ت ٢٧٥ هـ) ، والأبشاري (ت ٣٠٤ هـ) ، والهيثمي (ت ٣١٠ هـ) ، والأعشى علي بن سليمان (ت ٣١٥ هـ) ، وابن دُرَيْد (ت ٣٢١ هـ) ، وابن الأثيري (ت ٣٢٨ هـ) ، وابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) ، والأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) ، والحشمي (ت ٣٦١ هـ) ، وأبو أحمد العسكري (ت ٣٨٢ هـ) ، ومحمد بن كلثوم الكلبي الكوفي .

ابن شهاب الزهري (٥٨ - ١٢٤ هـ) ^{٥٥} .

محمد بن مسلم بن حبيب الله بن شهاب الزهري ، من بني زُهْرَةَ بن كلاب من قريش ، نزل الشام واستقر بها ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله : عليكم بأبن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنن الماضية منه .

محمد بن أسحاق بن يسار (ت ١٥٠ أو ١٥١ هـ) أ (١٥٢ هـ) : ^{٥٦} .

من علماء الناس بالسير ، مطعون عليه غير موثقي الطريقة ^{٥٧} ، روى الخطيب أن ابن أسحاق كان يدفع إلى شعراء وقتة أخبار المغازي ، ويسألهم أن يقولوا فيها الأشعار ليلحقها به ^{٥٨} . لقبه مالك بن أنس بالذَّجَال ^{٥٩} ، كانت تعمل له الأشعار فيضعها في كتب المغازي فنصار فضيحة عند رواة الأخبار والأشعار ، كما أخطأ في كثير من النسب الذي أورده ^{٦٠} .

(١) أنظر ترجمته في تاريخ الإسلام للذَّهبي ٥/ ١٣٦/ ١٥٢ ، وفیات الأعيان ١/ ١٥١ ، والإعلام للزركلي ٣١٧/٧ .

(٢) الفهرست ٩٢ . (٣) الفهرست ٩٢ .

(٤) تاريخ بغداد ١/ ٢١٤ . (٥) باقوت معجم الأبياء ١٨/ ٨ .

(٦) نفس المصدر السابق .

وبخلاصة الرأي فيه أنه غير موثق لإيراد الشعر الموضوع كثيراً ، وقد اعترف هو بذلك حين قال : لا أعلم لي بالشعر إلماً لوئى به فأحمله .^(٥٠)

محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) الكوفي^(٥١)

من علماء الكوفة بالتفسير والأخبار وأيام الناس ، ويقدم الناس بعلمه «الأنساب» ، يقول عنه ابنه هشام : قال لي أبي : أعطت نسب قريش عن أبي صالح ، وأعطته صالح عن عقيل بن أبي طالب . وأعطت نسب كندة عن أبي الكناس الكندي ، وكان أعلم الناس . . .^(٥٢) ولو أعلمنا هذا الخبر على ظاهره . لكانت دلالته أن أباه أعط علمه الذي اشتهر به عن رواية القبائل التي يحدث عنها ، وأن تسلسل الرواية عنده متصل .

الشرقي بن القطامي ، الوليد بن الحُصَيْن (ت ١٥٥ هـ)^(٥٣) الكوفي

كان كذاباً ، رُوِيَ عن الأصمعي أنه حدث قصة ثبت كذبه^(٥٤) ، كما كان أبو حاتم السجستاني يقول عنه : كان موهون الرواية^(٥٥) . وهو من أهل الكوفة ، استفاد منها أبو جعفر المنصور إلى بغداد ليعلم ولده المهدي الأدب ، وكان صاحب سحر .

حماد بن مسرة بن مبارك مولى بني بكر بن وائل ويعرف بحماد الرواية (٩٥ - ١٥٥ هـ)^(٥٦) الكوفي .

يقول عنه الأصمعي : « كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو من حماد إلا شيئاً سمعناه من أبي عمرو بن العلاء »^(٥٧) ويقول عنه يونس بن حبيب البصري « العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر »^(٥٨) ويقول عنه للفضل الضبي الكوفي : وقد سلط على الشعر من حماد ما أقصد فلا يصلح أبداً فليل له : وكيف ذلك ؟ أنظريه أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ، ويدخله في

(١) طبقات فضول الشعراء - ابن سلام ، ٨ . (٢، ٣، ٤) الفهرست ص ٩٥ .

(٥) الإيعان للزركلي ١٣٩ / ٩ . (٦) الفهرست ص ٩٠ .

(٧) طبقات الزبيدي ٢١٠ .

(٨) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ٢٤٥ / ١ ، معجم الأبياء لياقوت ١٠ / ٢٦٦ .

(٩) معجم الأبياء - ياقوت ١١ / ١٦ . (١٠) يونس بن حبيب - حماد نصار ٤١ .

شعره ويجعل ذلك حته في الألفاظ ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، ولين ذلك ٩٠ ،^(١) ويقول حته الأصمعي البصري : « كان حماد أعلم الناس إذا نصح فإنه كان متعباً يقول الشعر وينحله شعراء العرب »^(٢) ويقول حته خلف الأحمر البصري : كنت أخذ من حماد الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، وكان يقبل ذلك ، وكان فيه حق »^(٣) ويقول الجاحظ : كان مشهوراً بالكتف في الرواية ، وعمل الأشعار ، وإضافته إلى الشعراء للخدمين ، ودمته في أشعارهم^(٤) واتهمه الشريف المرتضي^(٥) بأنه كان منسلخاً من الدين ، وزارياً على أهله مدعياً لشرب الخمر وارتكاب الفجور . أما ابن سلام فلم يوثقه وقال حته : « كان ينحل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره »^(٦) ويزيد في الأشعار^(٧) ويورد قصة مدح أبي موسى الأشعري .

ويروي الفهرست^(٨) خبراً عن ثعلب الكوفي بأن الوليد بن يزيد طلب من حماد وحنبل ما احتجيا من هذا الديوان لأنه يعترم جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها . أما راوية الميثم حتى فقد وثقه فقال : « ما رأيت رجلاً أعلم بكتلام العرب من حماد »^(٩) ولعل مثله المذاقي فقال : « حماد من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها وإضافاتها »^(١٠)

وإذا ما انتقلنا إلى المحدثين وجدنا أن بلاشير يقول حته وعن خلف الأحمر : « حماد وخلف من الأماجم عدلاً على إظهار مقدراتهم أمام العرب في نظم القصائد والمقطوعات تنسوق في أصالتها تلك التي ارتحلها الجاهليون »^(١١) ويعتبره صاحب أول المجموعات الشعرية المعروفة^(١٢) . أما الدكتور طه حسين^(١٣) فلم يوثقه واتهمه بفساد الرواة والتزيف للحكام للكسب والثناية بالعرب كما اتهمه بالجنون والخروج على الدين .

ويوافق رأي الدكتور شوقي خليف^(١٤) رأي الدكتور طه حسين فإنه يعتبره متعباً ، ويروي قصته مع الهادي حين اعترف بإضافة أبيات لزهير بن أبي سلمى^(١٥) . وبعد الدكتور ناصر الدين الأسد^(١٦) أكثر ما اتهم به حماد موضوعاً . دعت إلى وضعه عوامل عدة منها : العصبية المناجيجة

(١) يونس بن حبيب - حسين نصار ٤١ .

(٢) معجم الأبيات ٢٦٥ / ٨ .

(٣) الألفاني ٩٢ / ٦ .

(٤) نفس المصدر السابق ٩٠ .

(٥) الفهرست ١٣٤ .

(٦) نفس المصدر السابق ٢٥٨ / ٨ .

(٧) نفس المرجع ١٠٨ .

(٨) المعجم الجاهلي ١٦٤ .

(٩) مصادر الشعر الجاهلي ٤٥٠ .

(١٠) معجم الأبيات ٢٦٥ / ٨ .

(١١) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١١٦ .

(١٢) في الأدب الجاهلي - طه حسين ١٩١ .

(١٣) الألفاني ٨٩ / ٦ .

بين المترسّنين ، والمناظرات والخصومات الشخصية بين الفضل وحماه ، والعصبية السياسية ، وسعة رواية حماد جعلته يروي ما لا يعرف غيره ويحفظ ما لا يحفظون ، ويرى أن الذي ساعدتهم على اتهامه بجوئه واستهزائه . الفضل الضبي الكوفي (ت ١٦٨ هـ)

الفضل الضبي الكوفي (ت ١٦٨ هـ)

عالم كوفي ، راوية للأدب والأخبار وأيام العرب ، قدم بغداد في أيام هارون الرشيد^(١) ، صادق في روايته ، حرص على التأكد من صحة ما ينقله أو يتناقله الرواة الآخرون من شعراء^(٢) ، وينبه إلى خطر صنع حماد بالشعر ، فيقول : قد سلط . . . إلى آخر الخبر الذي سبق بيانه ، وصله المهدي بخمسين ألف درهم الصدقة وصحة روايته^(٣) . وثقه الخطيب البغدادي ، وأبو حاتم^(٤) ، وابن سلام^(٥) كما وثقه من المحدثين الدكتور شوقي ضيف^(٦) ، واعتبره من الذين تقبل رواية شعرهم

أبو عمرو بن العلاء . زبكان بن هبّال البصري (ت ١٥٤ هـ)^(٧) .

ينتسب إلى خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، من الرواة الثقات ، لم يخرج أحد من العلماء ، كان يسلم للعرب ولا يطعن عليها . وثقه المحدثون وهذوّ والفضل والأصمعي من الرواة الذين لا نشك في ثقتهم وأمانتهم ، ويأخذ عنهم الشعراء مطعونين إلى صدقهم وتحريم الدقة فيها يروون : وهو أحد القراء السبعة أخذ عنه يونس وغيره من مشايخ البصريين . وكانت أخباره عن أمراء العرب لمركوا الجاهلية وللصوفي كتاب في أخبار ابن العلاء .

خلف الآخر ، مولى أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، البصري (ت ١٨٠ تقريباً)^(٨) .

أخذ عن عيسى بن عمرو النحوي ، وأبي عمرو بن العلاء . يقول عنه الأصمعي^(٩) : كان خلف يقول الشعر لهجيد ، وربما قال الشعر فحطه الشعراء المتقدمين فلا يتميز من شعرهم

(١) طبقات الزبيدي ٢١٠ . (٢) أنباء الرواة للقطبي ٢٩٨-٢٩٩ .

(٣) تهذيب اللغة للأزهري - المقدمة ١٠ . (٤) معجم الأسماء - الجزء ١٩/١٦٥ .

(٥) ميزان الاعتدال للذهبي ١٧٠/٤ . (٦) طبقات ابن سلام ٢١ .

(٧) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٦٥ .

(٨) للعراق لابن قتيبة ٥٤٠ ميزان الاعتدال ٥٥٦/٤ ، وفيات الأعيان ٤٦٦/٣ .

(٩) بنية الرعاة للسيوطي ٢٤٢ . (١٠) تهذيب اللغة للأزهري - المقدمة ص ٩ .

لشائكة كلامه كلامهم» ويقول عنه ابن سلام^(١) «كان خلف أبجع أصحابنا أنه كان لغرس الناس بيت شعر وأصدق لساناً ، كما لا يلبى إلنا أخذنا عنه خبراً أو أخذنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه» ويروي أبو حاتم أنه سمع الأصمعي يقول^(٢) «سمعت خلفاً يقول : كنا وضعت على النابغة قصيدته الميمية» ويقول عنه أيضاً أبو حاتم^(٣) «كان من العلماء بالشعر بالبصرة أبو عمرو وخلف والأصمعي وأبو عبيدة ، وكان وضع على عبد القيس شعراً مصنوعاً عيأته ثم قرأ فرجع عن ذلك وبته» ويخبره ابن ثنية^(٤) بأنه «كان يقول ويتحله للتقدمين» ويقول بذلك أيضاً القالي في أماليه^(٥) . ولخص القفطي^(٦) رأى القدماء فيه بقوله «ليس في رواية الشعر أحد أشعر منه ، يبلغ حد اقتداره على الشعر أن يشبه شعره بشعر القدماء ، كما فعل حين نحل ابن أنت نابط شراً قصيدة في رثاء عماله .

أما المحدثون ، فلم يوثقه الدكتور طه حسين^(٧) ، والدكتور شوقي ضيف^(٨) ، بيتا ذهب الدكتور ناصر الدين الأسد^(٩) إلى أن «كثيراً من الأخبار التي تنهم خلفاً بالرغم من أن روايتها بصريون يتهمون بصرياً فقد انتهت إلى غايتها وكشفت بذلك عن حوزها وهي : تهميرج الكوفيين» .

عشام بن الكلبي الكوفي (ت ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ) ١١١

عالم بالأنساب وأخبار العرب ووفائهم وأيامها ومثلها . أخذ عن أبيه وعن جماعة من الرواة ومن مؤلفاته في أخبار الشعر وأيام العرب : كتاب فاحس والغبراء وكتاب أيام فزارة ووقائع بني شيبان ، ووقائع الضباب وفزارة ، وكتاب الكلاب وطيرها^(١٠) .

ولم يتعرض له القدماء إلا من جهة رواية الأخبار ، ولكنهم لم يتعرضوا لموقفه بالنسبة لرواية الشعر وفي الحقيقة لم يكن عشام بن الكلبي (أبو المنذر) موثقاً كما يلزم ، إذ أخذ الكثير من القصص الشعبي ، ومن مواد أسطورية ، ومن بعض الأخبار الموضوعة عن شعراء

-
- (١) طبقات ابن سلام ٢٦ .
 (٢) نقل المصدر السابق ١٧٩ .
 (٣) طبقات الزبيدي ١٧٨ .
 (٤) المعصر الجليلي - طه حسين ٩١ .
 (٥) معاصر الشعر الجاهلي - ناصر الدين الأسد ٤٥٧ .
 (٦) الفهرست ٩٥ ، معجم الأندلس ٢٨٧/١٩ .
 (٧) الفهرست ٩٥ - ٩٨ ، ياقوت - معجم الأندلس ٢٨٧/١٩ وما بعدها .
 (٨) طبقات الزبيدي ١٨٠ .
 (٩) الشعر والشعراء - ابن ثنية ٢/ ٦٩٠ .
 (١٠) أيام الرواة ٣٤٨/١ .
 (١١) المعصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٦٤ .

الجاهلية^(١) ، أي أنه لم يكن يخضع ما يصل إليه شرع من النقد والتصحيح ليقف من خلال ذلك على الصحيح والموضوع . وذهب بعضهم إلى أن هاتين مؤلفاته لا توحي بكثير من الثقة^(٢) .

أبو عبيدة ، نعمان بن النخعي البصري (١١٠ - ٢٠٨ أو ٢١١ هـ)^(٣)

تلمذ على يونس بن حبيب ، وأبي عمرو بن العلاء^(٤) . أما تلاميذه فمن البصريين :
التوزي ، الجريسي ، قسلاً ، وابن سلام ، واليهاني ، والمزني ، والرياشي ، وأبو حاتم
والجاسق ، وعمر بن شبة . ومن الكوفيين : اللخثاني وسعدان . ومن البغداديين الأثرم ، وأبو
عبيد القاسم بن سلام ، والرشد وابن حبيب وحماد بن إسحاق اللخثاني^(٥)

له كتب كثيرة في الأخبار واللغة والشعر ، وفي أيام العرب ووقائعها أهمها فيما يتصل
بموضوعنا : شرح نقائض جرير والقزويني ، وكتاب الخيل ، كتاب أيام العرب الكبير ، كتاب
الأيام الصغير ، وقد قاربت مصنفاته لما كتبه^(٦) .

وسنعرض فيما يلي آراء معاصرة ومن جادلوا بعده إلى يومنا هذا في الرواية التي يعتبر
المصدر الأساسي في شعر الأيام وأخبارها .

تلميذه عمر بن شبة^(٧) يقول : كان أبو عبيدة يقول : « ما التقى فرسان في جاهلية ولا
إسلام إلا عرفتها وعرفت فارسيتها »

وابن كنية^(٨) يورد ما كان يقال عنه « كان شعوبياً يطعن في الأنساب المشتهر بأخبار العرب
وأخبارهم » كان يفضى العرب ، ألف كتاباً في مثالبهم ، « خارجي » ويقول عنه الجاسق^(٩) : « لم
يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة » كان شعوبياً يطعن في
الأنساب . »

والمبرد^(١٠) يقول عنه « كان ديوان العرب في بيته » عالم بالشعر والأخبار والنسب ،

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب - عبد العزيز الدوري ، ٤٦ .

(٢) دراسات عن المؤرخين العرب - مرجليوت ، ١٠٤ .

(٣) مختلف في وفاته أنظر المعارف لابن كنية ٥٤٣ ، معجم الأديب ١٩ / ١٥٥ ، أجيال الرواة ٣ / ٢٨٥ كما
اختلف في ولادته فذهب بعضهم قال ١١٤ وبعضهم ١١٠ هـ أنظر نفس المصادر السابقة .

(٤) ٣٩٥ ، بغية الوعاة للسيوطي .

(٥) أنظر الفهرست ٥٣ - ٥٤ ، معجم الأديب ١٩ / ١٦٢ .

(٦) للسيوطي ٤٠١ . (٨) معجم الأديب ١٩ / ١٥٦ .

(٩) معجم الأديب ١٩ / ١٥٦ . (١٠) الفهرست ٥٤ .

والأصمعي أعلم منه بالنحو ، له علم الإسلام والجاهلية » .

وصاحب الأغاني^(١) يراء : « من أعلم الناس بالأمم العرب وأعبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها .

وصاحب القهرست^(٢) يرى أنه « كان يرى رأي الخوارج ، واعتدما مات لم يحضر جنازته أحد ، ولم يكن يسلم منه شريف » .

أما الأزهري^(٣) فيذهب إلى « أنه كان مغرياً بشرب مثالب العرب ، جامعاً لكل فساد ومجون » وهو مذموم من هذه الجهة » .

وكان أبو عبيد القاسم بن سلام^(٤) يوثقه ، ويكثر الرواية عنه في كتبه .

والسيوطي^(٥) يقول عنه « كان في العصر ثلاثة هم أئمة الناس في اللغة والشعر وعلمهم العرب ، ولم يرد فيهم ولا بعدهم مثلهم ، أخذ عنهم جل ما في أيدي الناس من هذا العلم بل كله وهم : أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعي ... أما أبو عبيدة فكان أعلم الثلاثة بالأمم العرب وأعبارهم ، وأجمعهم لعلومهم ، وكان أكمل القوم » .

ويذكر أبو العيثاء^(٦) أن أبا عبيدة سئل عن أبيه فقال : « إنه كان يهودياً » .

ويراء ابن سلام^(٧) من أهل العلم ، ويوثقه الخلفاء الذهبي^(٨) ، وبراء الدررطوني^(٩) ، ولا بأس به إلا أنه يتهم بشيء من رأي الخوارج ويتهم بالإحداث « ويذكر ابن حجر عن أبيه^(١٠) أن أبا عبيدة « كان يكثر ذكر العرب حتى نسب إلى الشعوية » وله كتاب في ذلك » ويذكر السجستاني^(١١) أنه كان يكرمه على أنه من خوارج سجستان . كما يؤكد التنوخي^(١٢) خارجيته بحادثة يرونها .

ولنتقل للمحدثين فنرى أن فريقاً منهم^(١٣) لا يوثقه لأنه من الأعاجم الذين يحيطون من

(١) الأغاني السياسية ١٩ / ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) القهرست ٥٣ .

(٣) تهذيب اللغة للقسمة ١٤ .

(٤) معجم الأبناء ١٩ / ١٥٥ .

(٥) ميزان الاعتدال - للذهبي ١٥٥ / ٤ .

(٦) أنباء الرواة للقفطي ٣ / ٢٨٠ .

(٧) نفس المصدر السابق ٣ / ٢٨١ .

(٨) طبقات ابن سلام ٢١ .

(٩) نفس المصدر السابق .

(١٠) نفس المصدر السابق ٣ / ٢٨١ .

(١١) أنظر في الشعر الجاهلي - طه حسين ١١٤ ، ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢ / ٣٠٤ ، العصر الجاهلي لشوقي خفيف ١٥٥ ، نوادر المخطوطات لعبد السلام هارون ٧ / ٣٣١ - ٣٣٢ ، بويس بن حبيب حسين نصار ٨٣ .

شأن العرب ، وأنه وضع كتاباً في مثالب العرب وكتباً في فضائل الفرس بهذا نرى فريقاً يؤثقه ^(١) .

ومع ذلك فنرى بعض الباحثين من الفريق الذي لا يؤثقه يتراجع فيقول : إن الرواة من مثل أبي عبيدة كانوا يراجعون ما ترويه القبائل ، وكانوا يرفضون ما تبين لهم زيفه ، إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أدواتهم وما يحسون من فقد الشعر ومعرفةهم بالشاعر ونظمه ^(٢) .

أما المستشرقون فقد اختلفوا فيه أيضاً ، فلاشير ^(٣) يتهمه بأنه بذل جهداً مالياً بالتعصب في جمع الأساطير المتعلقة بالأمثال والمطبات عن أيام العرب ومثالبهم ومفاخرهم بينما يتهمه جولد سيهر ^(٤) بأنه كان يعمل بصورة جدية على نشر أفكار الشعوبية ، ويتهم القرص بالإشارة بفضل الأعاجم وكثرهم ، وأنه كان يسهب في الكلام على مواضع النقص في أنساب العرب .

وقعب يروكليان ^(٥) وشارل بلات ^(٦) إلى أن أبا عبيدة تكرر بنسب في موقفه من أنساب العرب فأنه إلى التأليف في المثالب والتعقيب عن الأخبار التي تحط من شأن العرب وكبريتهم .

أبو عمرو الشيباني الكوفي ، إسحق بن مراد (٩٦ - ٢٠٦ لو ٢١٠ ، ٢١٣ هـ) ^(٧)

رواية واسعة العلم باللغة ، ثقة في الحديث كثير السماع ، جليل بني شيان فنسب إليهم . روى عن أبي عمرو بن العلاء ، وروى عنه ابنه عمرو ، وأحمد بن حنبل ، وأبو عبد القاسم بن سلام وابن السكيت وأخذ عنه دواوين أشعار القبائل كلها ، جمع أشعار العرب وكانت تقرأ وثانين قبيلة ، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة ^(٨) .

قال عنه ثعلب ^(٩) : كان مع أبي عمرو من العلم أشعاف ما مع أبي عبيدة . دخل البادية وكتب عن العرب الكثير ، وقد قصر عند العلة لأشتهاره بشرب النبيذ .

(١) الثقات لأحمد الشاذلي ٦١ ، طه الحاجري . مقال في الكتاب المصري مج ٢ عدد ٦ ص ٢٨٤ ، نشأة علم التاريخ عند العرب . عبد العزيز الدوزي ٤٥ .

(٢) العصر الجاهلي - شوقي صيف ١٦٤ . (٣) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ١٢٧ .

(٤) الجاهلي في البصرة - شارل بلات ٢٠ ، ١١٢ p. 112 Encyclopaedia of Islam .

(٥) تاريخ الأدب العربي - يروكليان ١١٢ / ٢ . (٦) الجاهلي في البصرة - شارل بلات ٣٠١ .

(٧) المعارف لابن قتيبة ٥١٥ ، أنباء الرواة للقفطي ١ / ٦٢٤ ، ٢٢٩ ، فهرست ٦٨ ، بنية الرواة ١٩٢ .

(٨) الفهرست ٦٨ . (٩) ميزان الاعتدال للذهبي ٥٥٧ / ١ .

ويقول عنه ابن الأثيري^{١٠} : « كان أبو عمرو صاحب ديوان اللغة والشعر وكان صديقاً » وذكره الخطيب البغدادي^{١١} فقال عنه « كان رواية أهل بغداد واسع العلم باللغة والشعر ، وكان معه من السماع والعلم عشرة أضعاف ما كان مع أبي حنيفة » ، ويهمه الذكور طه حسين^{١٢} بفساد الرواية والتكسب والشكافية بالعرب وأنه كان يؤجر نفسه للقبائل يجمع لكل منها شعراً يضيفه إلى شعرائها .

الحشم بن علي (ت ٢٠٦ أو ٢٠٧ هـ)^{١٣}

عالم بالشعر ، والأخبار ، والشطب ، والمثاقب ، والمناظر ، والإنساب ، كان يطمع في نسب^{١٤} وقد قيل إنه كان يرى رأي الخوارج ، تعرض لمعرفة أصول الناس ، ونقل أخبارهم ، فوردت معالي المقوم مستورة ، فكرة ذلك^{١٥} . تقول عنه جاريته^{١٦} « كان مولاي يقدم الليل يصلي فلما أصبح جلس يكذب وتكلم على حماد الزونية . وقد وثقة بالقوت^{١٧} والنهي^{١٨} فقال عنه « إخباري علامة رواية ونقل من أخبار العرب وأشعرها شيئاً كثيراً » .

عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ)^{١٩}

هو أمير محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، تنازعه أكثر من بلد ، لم يحش حيث نشأ به ، وأقرت أسرته ، ثم لم يكن بيته من النسب بالثقلة التي يحرص الناس على حفظها وروايتها . نشأ بالبصرة ثم نزل مصر . كان إماماً في النحو واللغة العربية ، يحدّثنا القلمي^{٢٠} وابن كثير^{٢١} أنه جاء مصر واجتمع بالشافعي وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة ، « مع أننا تعلم أن ابن هشام حين كان ينقل عن ابن إسحاق أشعراً في السيرة ، ظاهرة الوضع فاسدة ، لا يستطيع أن يقطع فيها برأيه ويقول : هكذا حدّثنا أهل العلم بالشعر ، ناقلاً عنهم ، غير محكم فوفقاً اكتسب من هذا شأنه في استيعاب الأشعار^{٢٢} » ولكنه لم يكن هكذا دوماً في السيرة فقد

-
- (١) ميزان الإعتدال للذهبي ٥٥٧/١ . (٢) بغية الوعاة للسيوطي ١٩٦ .
(٣) في الأنساب الجاهلي - طه حسين ١٩١ ، الشعر الجاهلي - طه حسين ١٢٢ .
(٤) أبيات الرواة ٣/٣٦٩ ، ميزان الإعتدال للذهبي ١/٣٢٥ ، القاهرة ٩٩ .
(٥) القاهرة ٩٩ .
(٦) أبيات الرواة للقطبي ٣/٣٦٥ .
(٧) معجم الأبناء ١٩/٣٠٤ .
(٨) نفس المصدر السابق .
(٩) ميزان الإعتدال للذهبي ١/٣٢٤ .
(١٠) الروض الأثف - السهيلي ١/٥ ، وفيات الأعيان ٣/١٧٧ .
(١١) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/٢٦٧ . (١٢) نفس المصدر السابق .
(١٣) حقائق السيرة النبوية مصطفى السقا ورفاقه ١٨ .

أسقط بعض الشعر ، وذكر في بعض المرات أنها منحولة ، ونسب الشعر إلى خير قائله في مرات
ثالثة .

عبد الملك بن تريب الأصمعي البصري (١٢٣ - ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ هـ)^(١)

روى عن أبي عمرو بن العلاء ، وقرئ بن خالد وثالث بن أبي نعيم وشعبة وحماد بن سلمة ،
ووردى عنه أبو عبد القاسم بن سلام والسجستاني وأبو نصر الباهلي^(٢) . وثقة القدماء ، فقال
عنه ابن سلام^(٣) « كان الأصمعي من أهل العلم » وابن ثنية يقول^(٤) « كان صدوقاً في الشعر
» والميرد يصفه بأنه بحر في اللغة لا يعرف مثله فيها ، وفي كثرة الرواية^(٥) ، وكان الأصمعي قد
عمل قطعة كبيرة من شعر العرب ليست بالرخصة عند العلماء لقلة خرابتها واختصار روايتها^(٦)
ويصفه الذهبي^(٧) بأنه « أحد الإخباريين والأئمة الصدوقين » وغير الشافعي عن عصية
الأصمعي للعرب في وجه التيار الشعبي فقال^(٨) « ما غير أحد عن العرب بمثل عبارة الأصمعي »
ونقل الحاشي عن أبي حاتم^(٩) « الشعر للأصمعي والإخبار لأبي عبيدة » وأن أبا عبيدة أكثر علماً
من الأصمعي وأكثر أخباراً وأكثر كتباً ، والأصمعي أحضر جواباً وأرضى عند الناس ، ولم ينهم
في شيء من دينه .

ولم نجد من المتقدمين من يظن فيه إلا أبا زيد فقد قال عن أبي عبيدة والأصمعي إنهما
كذابان^(١٠).

أما الحديثون^(١١) فلم يظنوا فيه بل وثقوه . ويعتبره الدكتور شوقي خفيف أحد الثلاثة
الذين تقبل ما رويهم من الشعر ، ولم نسمع أحداً ظن في روايته منهم .

أبو زيد الأنصاري ، سعيد بن ثابت ، البصري (م ٢١٤ أو ٢١٥ هـ)^(١٢)

روى عن أبي عمرو بن العلاء وأخذ عنه ودؤبة بن المغجاج ، وعثرو بن
عبيد وأبو حاتم ، وأبو عبيد القاسم ، وعمر بن شبة ، وجده ثابت أحد اللذين جمعوا القرآن

-
- | | |
|---|-------------------------------|
| (١) الفهرست ٥٥ وبغية الرعاة للسيوطي ٣١٣ وفيات الأعيان ١٧٥/٣ . | (٢) تاريخ بغداد ١١٤/١٠ . |
| (٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢١ . | (٤) تاريخ بغداد ١١٤/١٠ . |
| (٥) ميزان الاعتدال للذهبي ٦٦٢/٢ . | (٦) الفهرست ٥٨ . |
| (٧) طبقات الزبيدي ١٨٣ . | (٨) بغية الرعاة للسيوطي ٣١٣ . |
| (٩) (١١) المعجم الجامعي - شوقي خفيف ١٧٥ ، ١٩٦ . | (١٠) ميزان الاعتدال ٦٦٢/٢ . |
| (١٢) المعارف لابن ثنية ٥٤٥ ، معجم الأدباء ٢١٦/١١ . | |

الكريم في عهد الرسول ﷺ ، غلب عليه الغريب والمفرد والتوافر^(١) ، نضب ابن كنية^(٢) إلى أنه كان يرى رأي القسرية ، مات وقد قارب المائة . ويعتبره الدكتور شوقي ضيف^(٣) من العلماء الأتباع .

أبو عبيد القاسم بن سلام الرمزي (ت ٢٢٢ أو ٢٢٤ هـ)^(٤)

أبوه مملوك رومي ، أخذ عن أبي زيد وأبي حبيدة والأصمعي واليزيدي وابن الأعرابي والكسائي والقراء وغيرهم^(٥) . قال القفطي^(٦) عنه : الرواة عنه مشهورون ثلاث : ووصفه ياقوت^(٧) بأنه : أبلج أهل عصره في فن من العلم ، وكان ثقة ثباتاً ، كذا وثقة أبو حاتم والبرود وسيبويه وآخرون .

محمد زاهد ، أبو عبد الله ، ابن الأعرابي (١٥٠ - ٢٣١ هـ أو ٢٣٣ هـ)^(٨)

مولد بني هاشم ، وربيب للفضل ، من علماء الكوفيين ورواتهم ، روى عن أبي عبيدة والفضل^(٩) ، وروى عن الفضل مفضلياته ، وسمع منه الدواوين وصححها^(١٠) .

وقد أخذ عنه أبو حنيفة النخعي ، وتعلب وابن السكيت^(١١) ، يقول عنه الجاحظ^(١٢) : « رواية الأشعر حسن الحفظ لها ، لم يكن أحد من الكوفيين أشبه برواية البصريين منه » ، كان رواية لأشعر القياتل ، كثير الحفظ ، وكان يتقل عن الكتب . وقد وثقه ثعلب فقال^(١٣) : « لم ير أحد في علم الشعر أغزر منه » والأزهري^(١٤) يوثقه أيضاً فيقول : « كانت له معرفة بالنسب العرب ونامها ، سمع من الأعرابي ، كذا سمع من الفضل دواوين الشعر وصححها » وقد كان ابن الأعرابي يزعم أن الأصمعي وأبا حبيدة لا يمتنان قليلاً ولا كثيراً^(١٥) ، ويذكر القفطي^(١٦) سبب

(١) بقية الوعاة للسيوطي ٢٥٤ ، معجم الأدياء ١٦ / ٢١٤ .

(٢) المعارف لابن قتيبة ٥٤٥ . (٣) المعجم الجامع لشوقي ضيف ١٧٥ .

(٤) أنباء الرواة للقفطي ٣ / ٢٣ ، معجم الأدياء ١٦ / ٢٥٤ .

(٥) بقية الوعاة للسيوطي ٣٧٦ ، أنباء الرواة للقفطي ٣ / ١٣ .

(٦) أنباء الرواة ٣ / ١٣ . (٧) معجم الأدياء ١٦ / ٢٥٤ .

(٨) بقية الوعاة للسيوطي ٤٢ ، معجم الأدياء ١٨ / ١٩٦ .

(٩) المقهرست ٦٩ . (١٠) معجم الأدياء ١٨ / ١٩٠ .

(١١) بقية الوعاة للسيوطي ٤٢ . (١٢) أنباء الرواة ٣ / ١٣٠ .

(١٣) أنباء الرواة ٣ / ١٣١ . (١٤) أنباء الرواة ٣ / ١٣٩ .

(١٥) أنباء الرواة ٣ / ١٣٣ . (١٦) معجم الأدياء ١٨ / ٢٠٥ .

خصوصة ابن الأعرابي والأصمعي بأنها كانت بسبب ولد سعيد حيث كان ابن الأعرابي مؤدياً لهم .

محمد بن سلام الجُمَحي (١٣٩ - ٢٣٢ هـ) ^(١).

من أهل اللغة والأدب ، روى عن الجُم الغفير ^(٢) وروى عنه ثعلب ومشايع الأصمعي ^(٣) كان له علم بالشعر والأخبار ، وكان صدوقاً ^(٤) وقد اتهمه الدكتور طه حسين ^(٥) بأنه إتخذ بالشعر المتحصل للتقصص . وله بيوتات العرب وطبقات الشعراء الجاهليين وطبقات الشعراء الإسلاميين ^(٦).

الطوسي ، أبو الحسن علي بن عبد الله بن ميثان التميمي

عالم راوية للقبائل وأشعار القبحول ، لقي مشايخ الكوفيين والبصريين ، وأكثر مجالسة وأخذ عن ابن الأعرابي . وكان عدواً لابن السكيت ، ويذكر ياقوت بسبب المداواة لأنها ، أخذنا عن نصران الخراساني ، واختلفا في كتبه بعد موته ^(٧) ، وقال عنه المرزباتي إنه لم يكن يرغب في الإكثار من توجيه الأسئلة إليه ، واتهمه بالعجز أحياناً .

يعقوب بن إسحاق بن السكيت (مت ٢٤٦ هـ أو ٢٤٣ أو ٢٤٤ هـ) ^(٨)

كان عالماً بتحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر ، من علماء بغداد ، راوية ثقة أخذ عن البصريين والكوفيين كالفراء وأبي عمرو الشيباني والأثرم وابن الأعرابي ^(٩) والأصمعي وأبي عبيدة ، كما لقي فصحاء الأعراب وأخذ عنهم ^(١٠) . يقول عنه ثعلب ^(١١) « كان متصرفاً في أنواع العلم وكان ليؤد رجلاً صالحاً ، حسن المعرفة بالعربية ، وكان يقول أنا أعلم من أبي بالنحو ، وأبي أعلم مني بالشعر واللغة » وقال عنه السيوطي ^(١٢) لم يكن يعد ابن الأعرابي مثله « وقد أخذ عنه أبو سعيد السكري ، وأبو عكرمة الضبي

(١) لُبَّاء الرواة للقطعي ١٤٣/٣ . (٢) نفس المصدر السابق .

(٣) معجم الأندباء ١٨/٢٠٤ . (٤) شعر الجاهلي ٩٩ .

(٥) الفهرست ١١٣ .

(٦) الفهرست ٧٢ ، معجم الأندباء ٢٠/٥١ . (٧) الفهرست ٧١ ، معجم الأندباء ١٣/٢٦٨ .

(٨) بقية الرواة للسيوطي ٤١٨ . (٩) بقية الرواة للسيوطي ٤١٨ .

(١٠) الفهرست ٧٢ .

(١٢) بقية الرواة للسيوطي ٤١٨ ومعجم الأندباء ٢٠/٥٠ .

محمد بن حبيب أبو جعفر البغدادي (ت ٢٤٥ هـ) ^(١)

عالم بالنسب وأخبار العرب ، يكثر من رواية اللغة ، من علماء بغداد ، مشهور الرواية ^(٢) ، ينسب إلى أمه ^(٣) . روى كتب ابن الأثيري وابن الكلبي وأبي حنيفة ^(٤) . أتته المزياني بأنه كان يغير على كتب الناس فيسقط أسماءهم ويضعها ^(٥) ، لكن ثعلب وثقه فقال عنه ، «وكان والله حافظاً» ، وكان يعقوب أجلم منه ، وكان هو أحفظ للأساب والأخبار منه ^(٦) . وله كتب في الشعر منها : كتاب الشعراء وأنسابهم ، ونفاثات جرير والفرزدق ، وأيام جرير في شعره ، وصنع شعر لبيد بن ربيعة وشعر الصنعة ^(٧) ، والمحرر .

أبو العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحمول (ت حوالي ٢٥٠ هـ) ^(٨)

من العلماء باللغة والشعر ، كان ناسخاً ، وله ذكر بين أئمة اللغة العربية ^(٩) ، وله رواية نقلت عنه بهذا الشأن في طبقة ثعلب ^(١٠) ، وقد روى عنه أبو عبد الله محمد بن العباس الفيزي . وقرأ عليه دينار عمرو بن الأحمق في سنة ٢٥٠ هـ ^(١١) . وقال عنه ياقوت ^(١٢) : «كان جيد الدراية حسن الرواية ، واسع الفهم» وأتته المزياني بقلة الحفظ واللمح ^(١٣) . وقد جمع أشعار مائة شاعر وعشرين شاعراً منها ديوان ذي الرمة ^(١٤) .

أبو حاتم السجستاني ، سهل بن محمد بن عثمان (ت ٢٥٥ هـ) ^(١٥)

تلميذ الأختل ، استمع إلى أبي حنيفة والأصمعي وأبي زيد ، ومن تلاميذه للبرد وابن يزيد ^(١٦) . ويعتبره ياقوت ^(١٧) بصرياً ، وإماماً في اللغة والشعر . تعلم النحو على مسبووه من

-
- (١) أئمة الرواة للقفطي ١٢٠/٣ ، ومعجم الأئمة ٥٠/٢٠ .
 - (٢) نفس المصدر السابق ١١٩/٣ .
 - (٣) معجم الأئمة ١١٢/١٨ .
 - (٤) نفس المصدر السابق .
 - (٥) أئمة الرواة ١٢١/٣ .
 - (٦) معجم الأئمة ١١٣/١٨ ، أئمة الرواة ١٢٠/٣ .
 - (٧) معجم الأئمة ١١٦/١٨ ، ١١٧ .
 - (٨) معجم الأئمة ١٢٥/١٨ .
 - (٩) أئمة الرواة للقفطي ٩٩/٣ .
 - (١٠) نفس المصدر السابق ، معجم الأئمة ١٢٥/١٨ .
 - (١١) ١١٢، ١١٣ ، معجم الأئمة ١١٦/١٨ .
 - (١٢) نفس المصدر السابق ١٢٦/١٨ ، والفهرست ٧٩ .
 - (١٣) الأعلام للزركلي ١٢٢/٣ دائرة المعارف ٩٢/١ أئمة الرواة ٦١/٢ .
 - (١٤) الفهرست ٥٨ ، بقية الوعاة ٢٦٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٩٢/١ .
 - (١٥) معجم الأئمة ١١١/٢٦٣ - ٢٦٤ وانظر أيضاً Basy. V. 1 p39 وانظر بروكلمان ١٥٩/٢ .

الأحفش ، ولكنه لم يستطع أن يكون علماً من علماء النحو . ويرجع جولد تسهير^(١) وفاته بين ٢٤٨ ، ٢٥٥ هـ ، ولكنه يرجح الرواية الثانية التي يروىها تلميذ السجستاني ابن فريد ويعتبره يروكلان^(٢) ثاني تلاميذ الأصمعي في الشهرة بعد أبي عبيد القاسم بن سلام .

عمرو بن بحر بن محبوب الكتاني ، الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)^(٣)

سمع من أبي عبيدة ، والأصمعي ، وأبي زيد الأنصاري ، كما أخذ النحو عن الأعشى^(٤) شهد له الجميع بسعة الاطلاع والعلم . وقد لا نجد في كتب التراجم ما ينس على مكانته في رواية الشعر ، ولكننا مع ذلك لا نجد ما يجعله متهماً في روايته ، ولكننا نلمس مما تحدث به القدماء عنه والمحدثون ، ما يدل على حرصه على الثبوت من صحة ما يروي ، وأنه حرص على تحري الصدق ، ولعل نلحظته للأصمعي تجعله أهلاً لذلك .

ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد^(٥) أن الجاحظ ، انطلاقاً من غايته في تأليف كتبه ، كان خليفاً أن يجمع بين دفتي كتابه ما يفتق له هذه الغاية ، ويستوي عنده في ذلك الخبر الصحيح والزائف ، والشعر الثابت والمشكوك فيه والموضوع .

الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ)^(٦)

صاحب النسب ، وقاضي مكة ، يعتبره الذهبي^(٧) ثقة من أوعية العلم ، ولا يلتفت إلى قول أحمد بن علي السليمان حيث ذكره لمين بضع الحديث . وهو صاحب كتاب نسب قريش وأخبارها . قال عنه ياقوت^(٨) : كان علامة نسابة إنجليزياً ، وحل كتابه أنساب قريش الاعجاز في معرفة القريشيين . كان ثقة من أوعية العلم وقد ولي قضاء مكة ومات بها وله كتاب أخبار العرب وأخبارها وكتاب الأوس والخزرج .

(٢) تاريخ الأدب العربي - يروكلان ١/٢ : ١٥٩ .

(١) Recy.V.I p 29 .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٣) معجم الأدياء ١٦٥ / ١١٤ .

(٥) مصنف الشعر الجاهلي - ناصر الدين الأسد ٦٠٨ .

(٦) معجم الأدياء ١٦٤ / ١١٤ ، وفیات الاعيان ٢ / ٣١٢ .

(٧) معجم الأدياء ١١١ / ١٦١ .

(٨) ميزان الاعتدال ٢ / ٦٦ .

الريائي العبلي بن القرج أبو الفضل البصري (ت ٢٥٧ هـ) ^(١)

عالم باللغة والشعر ، كثير الرواية عن الأصمعي ، وقد أخذ عن الطبري وابن خرداد ^(٢) وثقه الخطيب البغدادي ^(٣) ، كما وثقه ياقوت فقال ^(٤) : من كبار التحلة ، وأصل اللغة ، ورواية للشعر ، وكان يحفظ كتب الأصمعي وأبي زيد ، وقرأ الشعر عن المازني ، وقرأ المازني عليه اللغة ، وكان ثقة فيما يرويه .

وهو مولد محمد بن سليمان الهاشمي ، وقد مات مقتولاً في فتنه الزنج ^(٥) .

ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم الدينوري (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) ^(٦)

ولد بالكوفة ، وسمى الدينوري لأنه كان قاضي ديور ، كان لا يغلز في البصريين إلا أنه غلط اللذين ، البصري والكوفي ، وسكن في مذهبه عن الكوفيين ^(٧) . ثم سكن بغداد ، وحدث عن أبي حاتم السجستاني ^(٨) . عنه الزبيدي ^(٩) من الطبقة السادسة . قال عنه الخطيب ^(١٠) : كان صادقاً وثقة دينا فاضلاً وعالمياً باللغة والأخبار وأيام الناس . وقال عنه ابن النديم ^(١١) : كان صادقاً فيما يرويه ، وحللاً باللغة والشعر وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه . ونقل الذهبي ^(١٢) عن الحاكم أنه قال عن ابن قتيبة : أجمعت الأمة على أنه كذاب ، ولكن الذهبي يقول ^(١٣) : ما علمت أحداً اتهم ابن قتيبة في ثقته مع أن الخطيب قد وثقه .

السكري ، أبو سعيد الحسن بن الحسن (٢١٢ - ٢٧٥ أو ٢٩٠ هـ) ^(١٤) الكوفي

سمع السجستاني والريائي وابن حبيب وعمر بن شيه ، كان ثقة ودينياً وصدوقاً ^(١٥) ، عمل أشعار جماعة من الفحول ، وقطعة من القبائل فمن عمله : شعر امرئ القيس ، والنايفتان ، ونيس بن الخطيم ، ونعيم بن أبي مخنف ، وأشعار النصوص ، وأشعار هُكَيْل ، وهذيلة بن

(١) معجم الأدباء ١٦/١٢ ، وأنباء الرواة ٣٦٩/٢ .

(٢) بنية الرحلة للسيوطي ٢٧٥ .

(٣) تاريخ بغداد ١٢/١٣٨ .

(٤) معجم الأدباء ١٢/٤٥ - ٤٦ .

(٥) نفس المصدر السابق ١٢/٤٤ .

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ١٦/٥٧ ، تاريخ بغداد ١٠/١٧١ .

(٧) الفهرست لابن النديم ٧٧ .

(٨) طبقات الزبيدي ٢٠٠ .

(٩) الفهرست لابن النديم ٧٧ .

(١٠) أنباء الرواة للقطعي ١/٢٩٢ ، معجم الأدباء ٨/٩٤ .

(١١) نفس المصدر السابق ١/٢٩١ .

عشرم ، والأعشى ومزاحم العقيل ، وزهير وغير ذلك^(١) . وثقة ياقوت فقال^(٢) « ولوية ثقة مكثر ، انتشر عنه من كتب الأدب ما لم ينتشر عن أحد من نظرائه ، وكان إذا جمع فهو الغاية في الاستيعاب والكثرة » وقد قدم بغداد وأقام بها^(٣) .

ثعلب . أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار . أبو العباس (٢٠٠ - ٣٩١ هـ)^(٤) الكوفي

إمام الكوفيين في النحو واللغة ، سمع محمد بن سلام وابن الأعرابي والأثرم وسلمة بن عاصم والزبير بن بكار وغيرهم . وقد روى عنه محمد بن العباس النيزكي ، والأعشى والأباري^(٥) . وثقة الثَّقَطِيّ فقال « كان ثقة صالحاً ديناً مشهوراً بالحفظ وصديق اللهجة بالمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم ، وهو مقدم عند الشيخ^(٦) » وقال عنه السيوطي^(٧) « هو أعلم الكوفيين » . وقد عمل قطعة من أشعار الفحول وغيرهم ، منها : الأعشى والنايفتان وحفيل الغنوي والطرماح^(٨) قال عنه المرزباتي^(٩) « إنما فضل أهل عصره بالحفظ ، لا يسى كتاباً يده ، إنما يتكل على حفظه » .

الأباري . أبو محمد القاسم بن محمد بن يشار (ت ٣٠٤ أو ٣٠٥ هـ)^(١٠)

من أهل الأنبار ، لقي سلمة بن عاصم وأمثلة من أصحاب الفراء ، كما لقي جماعة من النحويين^(١١) كان إخبارياً ومحدثاً ثقة وصاحب عريّة^(١٢) . وقد سكن بغداد ، وروى عنه ولده . وثقة الثَّقَطِيّ^(١٣) وياقوت^(١٤) . وله شرح السج الطوال^(١٥) .

(١) الفهرست ٧٨ .

(٢) معجم الأدياء ٩٨ / ٨ .

(٣) نفس المصدر السابق ٨ / ٩٥ .

(٤) أنباء الرواة للثَّقَطِيّ ١ / ١٤٤ ، ١٥٠ معجم الأدياء ٥ / ١٠٣ .

(٥) أنباء الرواة ١ / ١٣٨ ، معجم الأدياء ٥ / ١٠٢ .

(٦) نفس المصدر السابق ١٤٦ .

(٧) نفس المصدر السابق ١٤٢ .

(٨) الفهرست ٧٤ .

(٩) معجم الأدياء ١٦ / ٣١٦ ، أنباء الرواة ٣ / ٢٨ .

(١٠) الفهرست ٧٥ .

(١١) الفهرست ٧٥ ، ومعجم الأدياء ١٦ / ٣١٦ ، أنباء الرواة ٣ / ٢٨ .

(١٢) أنباء الرواة ٣ / ٢٨ .

(١٣) معجم الأدياء ١٦ / ٣١٦ .

(١٤) معجم الأدياء ١٦ / ٣١٦ وما بعدها .

محمد بن العباس الزبيدي (ت ٣١٠ هـ)^{١٥}

روى عن ثعلب ، كما روى عن السكري ديوان الأخطل^{١٦} . قال عنه ابن خلكان^{١٧} « كان إماماً في النحو والأدب ونقل الأخبار وأخبار العرب ، حدث عن عمه عبيد الله والرياضي وثعلب وغيرهم . وثقه الخطيب البغدادي^{١٨} فقال : كان رواية للأخبار والأدب مصدقاً في حديثه ، شغل عن الرواية بطلب ولد الملوك^{١٩} . له أمالي المعروفة بأمالي الزبيدي .

الأعشى ، أبو الحسن علي بن سليمان (ت ٣١٥ هـ)^{٢٠}

لما علي ثعلب والبرد وأبي العيثاء والزبيدي^{٢١} ، كان يصحح كثيراً إذا سُئِلَ عن شيء من النحو ، كما كان حافظاً للأخبار^{٢٢} . قال عنه الرزباني^{٢٣} « لم يكن يتسع في الرواية للأخبار والعلم والنحو ، وكان إذا سُئِلَ عن مسائل النحو ضجر . قدم مصر سنة ٢٨٧ هـ وخرج منها إلى حلب سنة ٣٠٠ هـ^{٢٤} .

ابن الأبرار ، محمد بن القاسم (٢٧١ - ٣٢٨ هـ) الكوفي^{٢٥}

كان صدوقاً زاهداً متواضعاً فاضلاً ، وأديباً ثقة غيراً من أهل السنة ، أخذ عن ثعلب ، وكان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشعر شاهداً في القرآن الكريم^{٢٦} . وثقه الجميع ، وقال عنه ابن النديم^{٢٧} « ولا تعرف له زلة » عمل عدة دواوين من أشعار العرب الفصحى ومنهم : زهير والنبغة الجعدي والأعشى والنبغة الذبياني وغير ذلك . وله من الكتب السبع الطوال في سيمانة وربة ، كما شرح لقصائد^{٢٨} .

-
- | | |
|---|-----------------------------------|
| (١) الفهرست ٥١ . | (٦) أنباء الرواة للقفطي ١٩٨ / ٣ . |
| (٣) بقية الزوائد للسيوطي ٥٠ . | (٨) تاريخ بغداد ١١٣ / ٣ . |
| (٥) الفهرست ٥١ . | (٦) معجم الأدباء ٢٤٦ / ١٣ . |
| (٧) نفس المصدر ١٣ / ٢٥٥ . | (٨) الفهرست ٨٣ . |
| (٩) معجم الأدباء ١٣ / ٢٤٧ . | (١٠) نفس المصدر السابق ١٣ / ٢٥٥ . |
| (١١) أنباء الرواة ٣ / ٢٠١ والفهرست ٧٥ . | |
| (١٢) معجم الأدباء ١٨ / ٣٠٦ - ٣٠٧ ، أنباء الرواة ٣ / ٢٠١ . | |
| (١٣) الفهرست ٧٥ . | (١٤) الفهرست ٧٥ . |

ابن عبد ربه ، أحمد بن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ)^{١٠١}

ابن سالم ، مولى هشام بن عبد الرحمن الأموي ، من أهل العلم والأدب والشعر ، من أهل الاندلس ، ليس من الرواة ، لأنه أكثر من يعول حل ما يقع إليه من الكتب ، إنما هو أديب شاعر متخير .

وينبغي استقبال الأخبار والأشعار التي رواها بحرص شديد ، ولا ترفضها ، لأنه نقل عن بعض الذين لا يوثق بهم . فحين نقبل منه ما تؤيده الروايات الصحيحة ، أما ما لم تذكره تلك الروايات فتقف منه موقف الشك . وابن عبد ربه لم يبن كتابه الذي اشتهر به حل الرواية .

أبو علي القتالي ، اسماعيل بن القاسم (٢٨٠ - ٣٥٦ هـ)^{١٠٢}

قرأ حل عدد من العلماء منهم ابن خريد ، والأخطش والأديباري^{١٠٣} . جمع بين العلم والسعة في الرواية ، فكان من أروى أهل زمانه للشعر الجاهلي ، وأحفظهم له ، فضلاً عن ثقة العلماء بما يصدر عنه . وثقه الزبيدي فقال عنه^{١٠٤} : « من أحلم الناس بنحو البصريين ، وأرواهم للشعر واللغة ، وقال عنه القفطي^{١٠٥} بأنه كان يتعصب للبصريين . وقال عنه ابن خلكان « كان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين^{١٠٦} »

أبو الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦ أو ٣٥٧ هـ)^{١٠٧}

كان عالماً عالياً في الرواية ، حسن الرواية^{١٠٨} . أكثر مروياته أنقلت عن الكتب المنسوبة المخطوط ، أو غيرها من الأصول الجيدة ، ولم تؤخذ عن الرجال^{١٠٩} . أخذ عن الذين سبقوه من العلماء والرواة ، وكان يصعد في روايته إلى كبار الرواة وغيري الأعراب . وكان حرصاً على الأ

(١) معجم الأدياء ٢ / ٢١٢ ، وفيات الأعيان ١ / ١١٢ .

(٢) إنباء الرواة ١ / ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

(٣) وفيات الأعيان ١ / ٢٢٧ .

(٤) معجم الأدياء ٧ / ٣٩ .

(٥) الرواة ١ / ٢٠٤ .

(٦) وفيات الأعيان ١ / ٢٢٦ .

(٧) الفهرست لأبن النديم ١١٥ .

(٨) معجم الأدياء ١٣ / ١٠١ .

(٩) الفهرست ١١٥ .

(١٠) أبو الفرج الرازي - محمد أحمد خلف الله ٢٢٤ .

بفرته شيء مما يعرفه الناس ، كما كان « يذهب ملعب الرواة »^(١) يأخذ عن الجميع ولكنه يتروى العدالة والقدرة على ضبط . فكان محتاطاً إزاء « الرواة أشد الخبطة » فمن عرف بكتابه ثبته عليه ، وحتى الذين عرفوا بالصدق ، كان يراجع روايتهم عن روايات معاصريهم ويتأوين الشعراء^(٢) . وكان حرصاً على الإسناد ، ولعل هذه الصفة جادته لأنه كان من المحدثين ورواة الحديث . وثقة القدماء باستثناء غير نجده في تلويخ بغداد متقولاً عن الخشنى بتمعه فيه « بالكذب والأساخ في الرواية »^(٣) .

أما المحدثون فقد وثقوه أيضاً ، إلا أن المذكور حمد أحمد عطف الله يقول فيما يتعلق برواية أخبار الأيام^(٤) « نستطيع أن نجد تدوينه لأخبار أيام العرب في الجبلية وأخبار بعض الجاهليين كان من قبل تدوين الشافعات ، وقد نص أبو الفرج نفسه على ذلك في ترجمته لعبد الله بن هارون بن السميع » واعتبر بلاشير كتابه مهياً لأحواله على مقتضات من كتب مفردة ، ولا يراه التراجيح ، ولكنه قال إنه أفسده باستطراداته^(٥) .

الخشنى ، محمد بن عبد السلام (ت ٢٨٦ هـ)^(٦) .

محمد عبد السلام بن ثعلبة القرطبي الخشنى ، أبو الحسن ، لغوي من حفاظ الحديث من أهل قرطبة ، رحل إلى الشرق ، وأقام فيه خمساً وعشرين سنة متجولاً في طلب الحديث ، واشتهر علمه ، كان ثقة كبير الشأن^(٧) . قال عنه ابن الفريسي^(٨) : الغالب عليه حفظ اللغة ورواية الحديث ، وهو ثقة لغى أبا حاتم والعباسي بن فرج والريثاني فأخذ عنهم ، ودخل بغداد فسمع بها من غير واحد الحديث والشعر الجليل^(٩) .

خالد بن الكلبى الكوفى

من علماء الكوفة^(١٠) ، ومن رواة الأشعار للقبائل ولأخبارها ، عارف بالأنساب وأيام الناس^(١١) ، وقد ذكره الزبيدي في طبقة أبي عمرو الشيباني^(١٢) . له صنعة في شعر القبائل ، وله من

(١) المعصر الجاهلي - شوقي ص ١٦٣ .

(٢) تلويخ بغداد ١١ / ٣٩٨ .

(٣) أبو الفرج الرواية - محمد عطف الله ٢٣٤ .

(٤) تلويخ الأدب العربي - بلاشير ١٤٥ .

(٥) بغية الرعاة ٦٧ .

(٦) الأعلام ٧ / ٦٦ .

(٧) الفهرست ٦٦ .

(٨) بغية الرعاة للسيوطي ٢٤١ .

(٩) بغية الوعاة للسيوطي ٦٧ .

(١٠) إنباء الرواة للنفطى ١ / ٣٥٢ .

الكتب : الشعراء المذكورون ، كتاب أشعار القبائل ، ويحتوي على عدة قبائل ^(١) .

أبو أحمد العسكري ، الحسن بن عبد الله بن سعيد (٢٩٣ - ٣٨٣ هـ أو ٣٨٠ هـ) ^(٢)

أحد الأئمة في الآداب والحفظ ، وصاحب أخبار ونوادر ، وله رواية متسعة ، وهو يعتبر من المشهورين بجمعة التأليف وحسن التصنيف اشتهر في الأفاق بالرواية والافتان ، وانتهت إليه راية التحديث والإملاء للأدب والتدريس بقطر حوزستان ^(٣) . وثقة القطني ونعتة بالرواية المتقن ^(٤) . روى عن ابن حريد وغيره من الأدباء ، وتلمذ عليه أبو هلال العسكري ^(٥) . له كتاب صناعة الشعر ^(٦) .



والآن وقد فرغنا من هذا العرض المستفيض لرواية شعر الأيام وأخبارها ، والشين ورد ذكرهم في المصادر التي نقلت إلينا تلك الأخبار وأشعارها ، نريد أن نناقش هذه الآراء التي تكونت لدينا عن هؤلاء الرواة نتحقق من كان ثقة ، ونحذر من رواية الضعيف الرواية .

ومن الواضح من خلال عرضنا لتراجم هؤلاء الرواة أن غالبيتهم موثقون ، أو على الأقل لم نجد بين أيدينا من المصادر ما يبرح روايتهم ، ولذا قلنا سنقتصر على ذكر الذين شك البعض في روايتهم وعلمهم ، سواء منهم من طعن في روايته القديما أم المحدثون .

فمن طعن في روايته ابن اسحاق ، والكلبي ، والشرقي القطامي ، وحامد الرواية ، وخلف الأحمر ، وأبو عبيدة ، والحيثم بن عدي ، والطوسي ، وابن خنبة ، والأعشى ، وأبو العباس الأحمول .

ومن هؤلاء الرواة من اتفق الجميع على أنه غير موثق في روايته كإبن اسحاق والشرقي القطامي ، ومنهم من طعن البعض في روايتهم ووثقتهم الباقون كالكلبي ، وحامد الرواية وخلف الأحمر ، والحيثم بن عدي والطوسي ، وأبو العباس الأحمول ، وابن خنبة ، والأعشى .

(١) أئمة الرواة للقطي ١ / ٣٥٢

(٢) معجم الأدباء ٨ / ٢٣٣ ، أئمة الرواة للقطي ١ / ٣١١ .

(٣) معجم الأدباء ٨ / ٢٣٦ .

(٤) أئمة الرواة ١ / ٣٦٠ .

(٥) نفس المصدر السابق ١ / ٣٦٠ - ٣١١ ، وفيات الأعيان ٢ / ٨٤ .

(٦) معجم الأدباء ٨ / ٢٣٦ .

وأكثر الرواة الذين أثير حولهم جدل كبير في القديم والحديث فيما يتعلق بروايتهم أبو عبيدة ، وحمل الرواية وخلف الأمر ، وابن الكلبي . ولقد عرضنا آراء مختلف الباحثين فيهم ، ولكننا بعد دراسة مستفيضة حول هؤلاء وغيرهم رأينا أن طعن القدماء في بعضهم كان سيئه التعصب لإحدى المدرستين ، وتعني مدرستي البصرة والكوفة ، فمن وثقة المتقدمين إلى مدرسته طعن فيه أصحاب المذهب الآخر . أو أن يكون الطعن بسبب منهج كل من للمدرستين واختلافه ، فبيّنا توسع مدرسة الكوفة في الرواية لتشمل مدرسة البصرة . وقد يرجع إلى اختلاف على كسب عاصي ، وروى لنا القفطي^(١) أن ابن الأعرابي كان يقول عن الأصمعي وأبي عبيدة إنهما « لا يمتنان قليلاً ولا كثيراً » ويذكر القفطي السبب بأنه كان بسبب ولد سعيد بن سليم حيث كان ابن الأعرابي مؤدباً لهم ، وتلقاه عليهم الأصمعي . وقد يكون مصدر الخصومة تنافساً على الشهرة ، فقد طعن أبو زيد الأنصاري في الأصمعي وأبي عبيدة واتهمهما بالكذب^(٢) ، كما كان الطوسي حليماً لابن السكيت لأنها أخذت عن نصر الحارثي ثم اختلفا في كنهه بعد موته^(٣) .

وقد لحقت التهمة ببعضهم لأنه عرف عنهم التعصب ضد العرب ، ومن هؤلاء أبو عبيدة ، فقد اتهم بأنه من أصل يهودي ، وبأنه كان يتهم بالطعن في العرب وأناسيم ، وقد أثير جدل كبير بين القدماء والمحدثين حول أبي عبيدة . وبخلاصة ما نراه في هذا الرواية أننا لا نستطيع أن نرفض روايته تماماً لأنه المصدر الأساسي لرواية أخبار الأيام وأشعرها ، ونقل حته كل من جاء بعده ، كما أننا لا نقبل روايته قبرلاً مطلقاً ، بل نلخصها للتدقيق ، ولكننا مع ذلك لا نقبل التجريح الشديد الذي خالي به بعض الباحثين في أحكامهم ، وحيثهم في ذلك أنه من المألوف وتعصب لغير العرب ، ولما أخذنا هذه القاعدة لأسقطنا الإفادة بالكثير من علياننا في العصر الذهبي - العصر الذهبي .

إن الأحكام التي أصدرها علياننا في القديم على بعض الرواة أحكام عامة ، إما أن يؤثرها الرواية أو يبرحها . وإن حاولوا التفصيل في الأمر ، قلن يزيدوا على ذكر حادثة معينة تؤيد وجهة نظرهم . ولكننا لا نجد نقداً مستفيضاً لأحدهم . كما أن الصراع بين المدرستين من جهة ، وبين العرب وغيرهم المتمثل في الحركة الشعرية من جهة أخرى ، والصراع بينهم على مكاسب مادية ، كل هذه العوامل وغيرها تجعلنا نتوعد كثيراً في إسقاط رواية أحدهم لشدة تهمة بلصقتها أحدهم به . وبشيء أن نرجع إلى آراء مختلف العلماء فيه ، ثم نتألف الدلويع الحقيقية للكافة وراء كل مدح أو قبح فيه .

(٢) ميزان الاعتدال ٢ / ٦٦٢ .

(١) أنباء الرواة ٣ / ٦٢٩ .

(٣) معجم الأندلس ١٣ / ٦٦٨ .

شعر الأيام وقضية الانتحال

قبل الخوض في قضية الانتحال وشعر الأيام ، نود أن نفرق بين اصطلاحين ، يتداولان فيلجس الأمر علينا ، ويختلف الاحكام التي تصدرها تبعاً لتوضيح مفهومها . واول هذين الاصطلاحين : الشعر المنحول :

فكيف أننا وانتحالي القوا في بعد المشيب كفى ذاك عارا^(١)

وثانيها : الشعر الموضوع ، ونعني به الشعر الذي وضعه أحد الرواة ، وهو مولد ، ونسبه إلى شاعر جاهلي .

وقد اختلف العلماء قديماً في استعمال هذين الاصطلاحين ، فابن قتيبة^(٢) عنى بقوله نحلها للثقتين : أن يقول بعض رواية الشعر ، أو بعض المولدين شعراً ، ثم ينسبه إلى الثقتين من الشعراء . أي أنه يستعمل اللفظ على أصل وضعه في اللغة .

أما ابن سلام^(٣) فإنه قصد أن ينحل الراوي الرجل شعر غيره ، وينحل غيره شعره ، وذلك عند كلامه عن خلط الأحمر ، فإنه أشبه بالاصطلاح ، ويراد به ما يكون عند أحد الرواة من شعر معروف لشاعر متقدم بعينه فينسب الراوية إلى شاعر متقدم آخر .

وشكأن بين اللفظين : فالذي قصده ابن قتيبة هو الذي يلحق التهمة بالشعر الجاهلي ، أي أنه من صنع مولدين . أما الذي عناه ابن سلام ، فهذا خلط في نسبة الشعر لا أكثر ، وهذا الخلط يقدح في صحة نسبته ولا يقدح في صحته .

فليكن الشعر المنحول هو ذلك الشعر الذي يضعه الراوية المولدة أو غيره ، وينسبه إلى شاعر جاهلي . ومنعروض النسخ الثاني وهو الشعر الذي اختلف في قائله ، وخلط الأمر فنسبوا الشعر إلى غير صاحبه .

والقضية الثانية التي يجب أن تكون واضحة في أذهاننا قبل الدخول في تفاصيل هذا البحث ، هي موطن الشعر الجاهلي الذي وصلنا ، واللهجة التي وصلنا بها . إن جميع ما نعرفه

(١) أنظر ملحة نحلة في اللسان .

(٢) أنظر كتابه الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٩٩ .

(٣) طبقات ابن سلام ٨ .

من شعر اجتماعية إنما هو لأهل نجد والحجاز والبحرين ، أولئك سكن في هذه الأقطار ، وإن كان أصله من قبائل اليمن^{١١} . وإن لهجة قرش عمت في الجزيرة العربية منذ أوائل القرن السادس الهلالي وتغلغلت الشعراء لغة أدبية لهم^{١٢} ، ويرى بروكلمان^{١٣} أن النقص في كثرة لغة فنية قائمة فوق اللهجات ، وإن غلبتها جميعاً ، وإن هذه اللغة تولدت من إحدى اللهجات النجدية وتطورت في زمن كئيد حينما جمع ملوكها قبائل معد تحت لواء واحد قبيل منتصف القرن الخامس الهلالي . وقد حاول بلاشير تحديد منطقة اللهجة التي ذكرها نالينو معتمداً على القبائل التي كان اللغويون يأتفون عنها مادتهم . وجعل هذه الحدود معصورة بين خطين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبي مكة متوجهاً شرقاً إلى الخليج العربي في البحرين ويمتد لثانيها في الشمال من حضرموت يترقب إلى شمال الجزيرة .^{١٤}

وقد أثار المستشرقون وبعض المحققين العرب ضجة أخرى لتصل بعرب الجنوب ، والشعر الذي وصلنا منهم ، ورد عليهم بعض الباحثين^{١٥} بأن أولئك الشعراء من أصل يمني ، ولكنهم أقاموا في الشمال وتربوا هناك .

وقد رد الأستاذ عباس محمود العقاد^{١٦} على أولئك الذين يزعمون أن لغة قرش لم تكن سائدة ، وأورد أدلة على فهم الجميع لها : وأول الأدلة أن وفود اليمن فهمت عن النبي ﷺ ، ونظمت بكلام يفهمه أهل الحجاز ، وثاني الأدلة رحلة الشتاء والصيف مع اليمن والشام ، وثالث الأدلة أن النبي ﷺ سمع قصيدة كعب بن زهير ، وقد نظمها بلغة أبيه ، ولا يحتمل أن يكون التغوير في لغة النظم قد طرأ عليه فجأة في مدى سنوات معدودات . وآخر هذه الأدلة : الأوزان العروضية فهي لا تختلف بين يوم وليلة ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعراً غير شعر اللغة الحجازية لما غلب خبره ، وإن غلب لفظه ومعناه .

دوافع الانتحال في شعر الأيام :

لقد عرض القدماء لقضية الانتحال في الشعر عامة ، وتنبهوا إلى الرواة الرضاة وغيرهم الذين يضيفون إلى شعر شعراء جاهليين . وإن تعرض لهذه القضية تاريخياً ، ولو فحسنا ذلك

(١) تاريخ الأدب العربي ١ / ٤٢ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية - نالينو ٥٤ .

(٣) تاريخ الأدب العربي - بلاشير ٧٧ .

(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلي - أحمد الخولي ٤٤ .

(٥) اللغة الشاعرة - عباس محمود العقاد ١١٩ - ١٢١ .

لاستغرق ذلك منا حيزاً كبيراً من هذا البحث . ولكننا سنحاول أن نتلمس دوافع الانتحال فيما عرضوه لنا من شواهد ، ثم نتقل إلى ما قاله المحققون العرب ، والمستشرقون في هذه القضية ونخرج بنتائج في نهاية الحديث عن هذه النقطة من البحث

وأول هذه الدوافع رغبة المقاتل في التزيد من شعرها لتزيد في مناقبها ، ولتتضح معالم تاريخها في الجاهلية لتتخذ مادة لفسرها على القبائل الأخرى . يقول الجاسقاص^(١) : « وهو الخوارث ابن كعب قبيل شريف ، يهرون بجاري اليمن ، وبجاري سادات أعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر ، ولهم في الاسم شعراء ملفنون » ، وهؤلاء الشعراء في الإسلام منهم تعصبهم إلى التلقين حتى يفنى قبيلتهم شريعة عزيزة بين القبائل . ويقول ابن سلام الجهمي^(٢) : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها ، استغل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقللوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا في الأشعار التي قيلت »

ومن دوافع الانتحال أن الرواة الأعراب الذين كانوا يفتنون الخواصر ليردوا شعر الشعراء المتقاعين من شعراء قبائلهم كانوا إذا ما انتهى شعر الشاعر ربما زادوا على أشعاره طمعاً في الكسب . وربما ربطت بعضهم بالشاعر صلة قرابة ، فهو يحقق مجداً لقبيلته وللشاعر ويمضي الريح . يقول ابن سلام^(٣) : أخبرني أبو عبيدة أن داود بن منجم بن توبة قدم البصرة . . . فلما نفذ شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا ، . . . فلما توالى ذلك منه علمنا أنه يفتعله .

وربما عمدوا إلى الشعر يتحلونه الشعراء الجاهليين لتزيين القصص ، وبخاصة قصص الأيام ، فالقصة كانت في الأصل ثراً وشعراً ، وربما سقط هذا الشعر في أثناء تلك الرحلة الشاقة الطويلة التي قطعها الشعر حتى شَوَّن ، فيعمد القصاصون إلى وضع الشعر المناسب للقصة . وأصحاب هذا اللون هم كتاب السير والتاريخ ، وقد نص على ذلك ابن سلام في طبقاته^(٤) . فابن إسحاق في سيرته أورد شعراً لكل شخصية في سيرته تقريباً ، وعندما سئل عن ذلك قال : « لا علم لي بالشعر إنما أوتي به فأحلته^(٥) » وهذا الشعر يزين القصص ويجعل التاريخ مادة محبة إلى نفوس السامعين .

- (١) الحيوان للجاسقاص ١/ ٣٨١ . (٢) طبقات فحول الشعراء ٣٩ - ٤٠ .
(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٤٠ . (٤) نفس المصدر السابق ص ٧ .
(٥) نفس المصدر السابق .

وشبه بهذا تلك الشخصيات التي حيكّت حولها الأساطير وصور البطولة المخارقة فتحت شعراً كثيراً ، فقد أكثر القصاصون من الشعر المتصل بعثرة والمهلل وحاتم الطائي . وقد نص بعض القدماء على ذلك فقال صاحب الموضع في غير يرفعه إلى الأصمعي^(١) وأكثر شعر المهلهل حصول عليه .

وربما كان الدافع إلى الانتحال إثبات حقيقة متصلة بالأهلام أو تلقيها لتجلب فخر الفريق أو علواً لفريق آخر . فقد لورد أبو عبيدة^(٢) البيت التالي ، دلالة على أن الأسود كان رئيس القريب لعوف بن عطية التميمي :

ما زال حيثكم ونقص حلوكم^(٣) حتى بلوكم كيف وقع الأسود
وقبائل الأخلاف وسط بيوتكم^(٤) يغفلون هامكم بكل مهتور^(٥)

ثم أضاف : ويتوأسد وخطبان تقول هذه مصنوعة لأن الأسود لم يشهد التسلح . ويقول أبو عبيدة في موضع آخر^(٦) «وقد حلت على بشر بن أبي حازم الأسدي هذه القصيدة ، والذي قالها كعب بن ربيعة الأسدي في الإسلام» .

وهم تركوا رئيس بني قشير^(٧) شريعاً للضباع وللشور^(٨)
وفكر أبو الفرج صاحب الأغاني^(٩) يبين قال إنها لرجل من بني بكر بن وائل في الإسلام وهي تحل للأعشى :

ونحن قهرنا تغلب ابنة وائل بقتل كليب إذ طغى وتغلا
أبائنا بالناب الذي شق ضرعها فأصبح موطوء الحيتى متغلا
وأجل عامر بن الطفيل البيت التالي ليزهو عامر على نهم يموت معبد بن زهارة أسيراً من بلاد ، لأن أمه ونفس دفع القديرة التي طلبها عامر ، ونص أبو الفرج على أن صاحب هذا البيت نافع بن المنجزة بن الحكيم .

قضيتا الجون عن عيسر وكانت مينة معبد فينا هزالا^(١٠)

- (١) الموضع - للمعري بالي ١٠٦ .
(٢) الشافعي ١/ ٢٤٠ .
(٣) الخيون : الملائك ، قبائل الأحلاف : القبائل التي تحلفت ضد عامر ، الأسود : الأسود بن النضر .
(٤) الشافعي ١/ ٢٤١ .
(٥) شريح : شريح بن مالك القشيري كان رأس بني عامر .
(٦) الأغاني ١/ ٦٥ ، ٣٨ : أبائنا ، تغلبها ، الناب : الناقة وهي التي قتلها كليب موطوء الحيتى : مستباحه .
(٧) نفس المصدر السابق والعقد الفريد ٥/ ١٤٠ تب إلى عامر بن الطفيل وانظر ديوان عامر ١٠٣ .

ونستطيع أن نقول إن العصبية كانت وراء هذه الدوافع ، أو وراء معظمها ، وربما برزت هذه الدوافع عندما اتضح الأمريون للعصبيات للظهور والتأخر مرة ثانية ، كما كانت عليه في الجاهلية . ونشأت عصبية للعرب أمام تلك الشعور في العصر العباسي .

مظاهر الانتحار في شعر الأيام :

يتخذ الانتحار مظاهر مختلفة في شعر الأيام ، ولعلنا نستطيع تمييز المظاهر التالية

(١) يعمدون إلى النص ويضيفون إلى أبياته أبياتاً أخرى رغبة في الكثرة وتوضيح الصورة ، ومثال ما نجده في النفاذ ، فقد أورد أبو عبيدة الأبيات التالية لعزك بن عطية التيمي :

هَلَا فَوَارِسَ رَحْرَحَانَ مَهْجُوئُكُمْ عُسْرًا تَسْلُوحُ فِي سِرَاقِ وَادٍ^(١)
لَا تَأْكُلُ الْأَيْلُ الْغِيَرَاتُ نَبَاتَهُ مَا إِنَّ يَقُومُ عِيَادَهُ بِعِيَادِ^(٢)
هَلَا تَحَزَّرْتُ عَلَى ابْنِ أَمَكْ مَعْبُو وَالْعَامِرِيُّ يَقُولُ بِصِفَائِهِ^(٣)
وَذَكَرْتُ مِنْ ابْنِ الْمُحَلِّسِ شَرَّةً وَالْحَيْلُ تُعَدُّو بِالْمُشْعِرِ بِدَائِهِ^(٤)

ثم قال : وبقيت هذه القصيدة مصنوعة .^(٥)

وأورد أبو الفرج في أغانيه أبياتاً لذي الإصبع العدواني يرثى فيها قومه ويطلبها :

وَلَيْسَ لِلْمَوْتِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَسْرَامِ وَالنُّفُوسِ

وقد اعترف أبو عمرو بن العلاء بالأبيات الثلاثة الأولى وقال إن باقي هذه القصيدة منقول^(٦) .

وقد أذكر حمير بن عبد الملك وأخوه مسعم بن عبد الملك ما أنشيف إلى قصيدة الخلود بن عباد ولم يصححها منه غير أبيات ثلاثة^(٧) .

(١) قضينا الجون : ولينا بين الجون عن بني عيس ، أي لتقمنا لبني عيس ، معبد : معبد ابن زوراء ، هزل : ضد السمة ، الجون : الجون الكندي .

(٢) فوارس ورححان : فرسان اليم ، تسالوح : تتقاتل ، سرارة الوادي : بواسطة .

(٣) الغرات : الحمصة البطن ، لا يقوم عياده بعياد : كتابة عن ضعفه .

(٤) العامري : الرجل العامري الذي أسره ، صفاء : وثاق .

(٥) المحلق : سمة أهل زوراء .

(٦) النفاذ ١ / ٢٢٨ . (٦) الأغانى / ط ٣ / ١٠٦ .

(٧) الأغانى / ط ٥ / ٤٧ - ٤٨ .

(٢) وقد يحمل النص بأكمله على شاعر جاهلي لسبب من الأسباب التي سبق ذكرها ، وأمثلة ذلك كثيرة منها ما رواه أبو عبيدة^(١) من أن المفضلة التي يرثي بها السُّلَحُجُ بن بكير^(٢) بن معدان التميمي يحيى بن شداد أحد بني ثعلبة أحد بني يربوع ، هي لرجل من بني قريظ يرثي يحيى ابن مسرة صاحب مصعب بن الزبير .

وورد في النفاذ أن القصيدة التي مطلعها^(٣)

وهم تركوا ديس بني قُشَيْرٍ شَرِيحاً للضباع وللشور

ليست لبشر بن أبي خازم ، وإنما حُلت عليه ، وأن الذي قالها كعب بن ربيعة الأسدي في الإسلام .

ومن هذا اللون أيضاً البيتان اللذان لحلا للأعشى ، وهما لرجل من بني بكر بن وائل قالهما في الإسلام^(٤)

(٣) ومن مظاهر الالتحال أن يتولى رواية أو مجموعة من الناس عملية التزييد في شعر شاعر جاهلي ، لتحقيق غرض ، ومن أمثلة ذلك ما فعله داود بن متعم بن نويرة حينما قدم البصرة وجعل يزيد في شعر أبيه عندما تقلد شعره ، ويحظي على شعره فيذكر المواضع التي ذكرها متعم ، والوقائع التي شهدها^(٥) . ومن هذا الغيل ما ذكره صاحب الموشح من « أن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه^(٦) » والشعر الذي حُكي على المهلهل ، ورواه الرواة على أنه له ، على الرقيم عما يبدو عليه من التوليد^(٧) . ومثله ما لحل عترة بن شداد العبي .

(٤) ومن مظاهر الالتحال أن بعض الشعراء القليلين كانوا يتعرضون لعملية سطو على شعرهم من قبل شعراء قبائلهم المشهورين ، فكانوا يسطون على الشعر وينسبونه لأنفسهم ، فقد حدث ابن سلام عن أبي عبيدة قال : « كان أفراد بن الحنشل الكوفي من شعراء غطفان ، وكان قليل الشعر جيدة ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره ، فتأخذوه وتُدأبه ، ومنهم زهير بن أبي سلمى^(٨) »

(١) المفضلة رقم ٩٢ .

(٢) النفاذ ١ / ٢٤١ .

(٣) الأغانى / ط ك ص ١٥ / ٣٨ .

(٤) طبقات ابن سلام ٤٠ .

(٥) الموشح للمزني ٣٧ .

(٦) انظر الموشح للمزني ١٠٦ ، والأصمعية رقم ٥٤ ، كتاب بكر وتغلب في مواضع كثيرة .

(٧) الموشح للمزني ٥٩ .

اختلاط هذا الشعر بين الشعراء : أسبابه ومظاهره :

فلما في بداية الحديث عن الانتحال وشعر الأيام ، إن هناك فرقاً بين الشعر الذي يضعه الرواة بعد الإسلام وينسبونه إلى شاعر جاهلي ، وبين الشعر يكون لشاعر جاهلي فينسب إلى شاعر جاهلي آخر ، وأسما هذا الأخير اختلاطاً في الشعر ونسبه إلى صاحبه .

ونستطيع أن نقول إن هذه الظاهرة تفوق ظاهرة الانتحال في شعر الأيام ، وسبب وجود هذه الظاهرة هو الحياة الجاهلية نفسها وطبيعتها ، وعدم التمييز لهذا الشعر في حينه ، ولكن هذه الظاهرة أيضاً ، بالإضافة إلى هذا أسباباً نذكرها فيما يلي :

فمن أسباب الاختلاط اتحاد القصيدتين في الوزن والقافية ، مما يلبس الأمر على الرواة عبر الطريق الطويل الذي تقطعه القصيدتان . ومن أمثلة ذلك قصيدتا تيس بن الخطيم والربيع بن أبي الحقيق اليهودي^(١) .

ومن أسباب الاختلاط تشابه الغرض ، مما يسبب اختلاط القصيدتين ، ومثال ذلك ما رواه صاحب الأغاني من أبيات للخنساء ومطلعا :^(٢)

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا التَّقَعُّ مَهْرَاقٍ سَحَبًا فَلَا عَارِبُ لَا وَلَا رَاقٍ^(٣)

وتنسب هذه الأبيات أيضاً لعمرة بنت مكرم^(٤) . ومن هذا النوع من الاختلاط بعض أبيات بشر بن أبي حازم الأسدي التي تنسب مشهورة إلى أوس بن حُبَيْر لوجه الموضوع والروي^(٥) .

وقد يقع الاختلاط بسبب تشابه الأساء مما يوقع الرواة لو الشماخ في اللبس فهاضمة بنت الشريد السلمية زوج زهير بن جذيمة رثت ابنها مالك بن زهير ، والخنساء فهاضمة رثت أختها صخرأ ، فتشابه الغرض وتشابه الأساء ، فحدثت الاختلاط :

كَأَنَّ الْعَيْنَ خَالَطَهَا قَدْ أَحَا لِحْزَنٍ وَاقِعٍ الْفَنَى تَوَارَهَا^(٦)

فروثها بعض المصائر على أنها للخنساء وروثها أخرى على أنها لأم مالك بن زهير .

(١) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٦٨ ينسبها للربيع ، والقيوان ينسبها لنفسه ص ٩٦ .

(٢) الأغاني / ط ٢٩ / ١٦ .

(٣) مهراق : نازل منها بغزوة ، سحا : يسيل متتابعة - عارِب : بعيد . راق : صانع الرقية .

(٤) الأغاني / ثقافة ١٦ / ٢٩ .

(٥) ديوان بشر بن أبي حازم ١٢٣ الأبيات ١٦ - ٢٩ .

(٦) دلائل الأكاب - شيلو ٤٣ .

وربما وقع الاختلاط بسبب قرابة بين الشاعرين ، فتمتص بين نُورَة ومالك بن نُورَة
أخوان ، فالآبيات التالية اختلف في تحديد نسبتها ، فبعض المصادر نسبتها إلى متمم والأخرى
نسبتها إلى مالك بن نُورَة :

ونحنُ عَفَرْنَا مَهْرَ قَابُوسَ بعدمَا رأى القومُ منه الموتَ والحيلُ لُحْبُ^(١)
عليه دَلاصُ ذاتُ نُشْجَرٍ وَسَقَ جُزَارُ من الجُنُتَى أَيْضُ وَمَقْصَبُ^(٢)
طَلَبْنَا بِهَا إِنَّا مَدَارِيكَ قَبْلَهَا إِذَا طَلِبَ الشَّأُو البَعْدُ الْمَقَرُّ^(٣)

وأورد أبو نغم الآبيات التالية في حاشيته عل أنها ليزيد بن حيَّان السكوني حليف بني شيان مدح
بني شيان ومطلعها :

إِنِّي حَيْدْتُ بَنِي شِيَّانَ إِذْ حَقَّدْتُ نِيرَانُ قَوْمِي وَفِيهِمْ شَبْتُ النَّارُ^(٤)

وقال التبريزي^(٥) في شرحه للحجاسة إن هذه الآبيات لابنه عدى الذي كان مقبياً في بني شيان .

ويختلف الرواة والمصادر في نسبة الآبيات التالية في قتل فروان العبسي التي مطلعها^(٦)

وَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّي فإِنِّي وَجِسْرَةٌ لَا تَرُودُ وَلَا تُعَارُ^(٧)

فقد رويت لعترة كما رويت لشداد بن معاوية ، والد عترة .

ومما يزيد الأمر تعقيداً تشابه الغرض والصلة بين القائلين ، فمعجم البكري^(٨) يورد
الآبيات التالية التي قيلت في يوم تُرَج ومطلعها :

وَكَانَ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْحَيْلُ بَيْتَهُ إِلَى خَضْبِ اشْرَاثِ أُنَامِ فَالْجَمُ

(١) قابوس : ابن النعمان بن الشأو ، تلعب : تضرب بالسياط ، دلاص : درج . جزاز : مقطوع
من . الجُنُتَى : الحداد . مقصب : قاطع . مداريك : نذرك طلبنا . الشأو : الشوط ، ورجل
بعيد الشأو بعيد المسافة . القرب : اللصق في السفر بعيداً .

(٢) أَتَقَدَّضُ ١/ ٦٩ ، الكامل لابن الأثير ٦٥٠ ينسبها لشم ، والعلك الفرید ٥/ ٢٢٤ ينسبها لملك
ابن نُورَة .

(٣) حاشية أبي نغم شرح الرزوقي ١/ ٣٠٠ .

(٤) حاشية أبي نغم شرح التبريزي ١/ ١٦٤ .

(٥) ديوان عترة ٧٨ .

(٦) جررة : فرس شداد . ترود : التحول .

(٧) معجم البكري ١/ ٢٩٣ .

ويذكر أبو حنيفة أن هذا الشعر لربط بنت عباس بن الأصم الرعلي تولى به أهلها الذي قلته ختم ، فأترك بثرتها عباس بن مرداس ، كما أن هذا الشعر يروى للخنساء تولى به أهلها .

وأخر هذه الأسباب وأكثرها حدوثاً في الشعر هو أن هذا الاختلاط يقع نتيجة سهو يقع فيه الرواة والناسخ ، وبعضهم ، أي الناسخ ، لا يدققون في هذه الأعلام التي قالت الشعر ، وبعضهم يلتبس عليه الخط الذي ينسخ منه ، كما أن بعض الرواة قد يقعون في الخطأ فيخلطون في نسبتهم للشعر لأحد الأسباب التي سبق بيانها .

مظاهر الاختلاط في هذا الشعر :

أكثر الاختلاط وقع في نسبة القطعة أو القصيدة أو البيت لأكثر من شاعر ، فقد روى أبو الفرج الأبيات التالية في رثاء ربيعة بن مكرم الذي قتل يوم الكفيد .

ولأصرفن سوى حذيفة يذخني لفتى الشناء وفارس الأجراف
ماوى الضربك إذا الرياح تلوح ضخم الدسمعة علفو يثلافا^(١)

..... الخ الأبيات ، ونسبها إلى كل من : حسان بن ثابت ، ورجل من بني الحارث ابن الخزرج ونيس بن الحطيم^(٢) .

وفي يوم الكلاب الثاني قبلت هذه الأبيات عندما لوشكت جموع اليمن أن تسوق نعم نيم :

في كل عام نعم تحووة يلقحهُ قوم وتنجونه^(٣)
لرباه نوكس فلا يحمونه ولا يلاتون طبعاً دونه^(٤)
انعم الأبناء تحبونه هيات هيات لما ترجونه^(٥)

(١) الضربك : الضرب بالأس ، تلوح : تلهج ، الشناء : الدسمعة والماتمة الكريمة .

(٢) الألفاظ : ثلاثة ٢٧ / ١٦ .

(٣) تحووة : تستلزون عليه . يلقحه : يحميه ، تنجونه : تأخذونه .

(٤) لرباه : أصحابه ، نوكس : حقى .

(٥) الأبناء كل بني سعد بن زيد مناة إلا بني كعب بن سعد .

وقد نسبها أبو عبيدة إلى رجل من خيبة^(١) ، بينما نسبها ابن الأثير إلى قيس بن عاصم^(٢) .

ولعلنا هذا النوع من الاختلاط كثيرة لا نستطيع الاسترسال في عرضها لكثرةها .

ومن مظاهر هذا الاختلاط أن يشترك النصفان في بعض الأبيات ، وذلك ما نراه في نصيب^(٣) ، الأول لعنترة يروي مالك بن زهير^(٤) ، والثاني لأبنة مالك بن بدو القزاري فقد اشترك النصفان في البيتين التاليين :

فلله عينا من رأى مثل مالك
عقيرة قوم أن جرى فرسان^(٥)
فليتبعها لم يشرب قط قطرة
وليتبعها لم يرسل لرهان

ولعل تشابه المرثيين في الأسم هو الذي ساعد على الاختلاط ، بالإضافة إلى أن النصيب قبلا في حرب واحدة هي حرب داحس والغبراء ، وأسهم في ذلك تشابه الغالبية والوزن .

وفي ديوان بشر بن أبي خازم نسب بيتان من بانية له إلى لؤس بن حجر ، والبيتان هما :

إذا ما علّوا قالوا : أبونا وأما
وليس لهم عالين أم ولا أب
لهم طعنات يستدين برأيه
كما يستقبل الطائر المتقلب^(٦)

وقد ذكرهما صاحب المصاحف منسوبين إلى لؤس بن حجر التميمي^(٧) ، وتكرر هذا في قصيدة أخرى لبشر ، وهي تلك التي يروي بها أخاه سَعْدًا الذي قتله شراحيل بن الأصهب الجعفي^(٨) ، حيث تدخلت ستة أبيات مشهورة النسبة إلى لؤس بن حجر مع قصيدة بشر . وقد حدث هذا للوحدة الموضوع والروي في النصيب .

وقد يقرئ شاعران شعراً في يوم واحد فيخطط الأمر على الرواية ، كما حدث في يوم عكاظ ،

(١) النفاذ ١ / ٦٥٠ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٢٤ .

(٣) ديوان عنترة ١٧٦ ، المعقد الفريد ٥ / ١٥٢ ، أمثال الضبي ٣٣ .

(٤) أمثال الضبي ٣٣ .

(٥) العقيرة : الرجل الشريف يقتل ، فرسان : داحس والغبراء .

(٦) ديوان بشر بن أبي خازم ١١ .

(٧) كتاب المصاحف لأبي هلال العسكري ٣١٥ .

(٨) ديوان بشر ١٢٩ .

فالتفضل الضمي يروي الآيات التالية التي مطلعها :

قلنا دَتَوْنَا لِلْقِيَابِ وَأَهْلِهَا أَتَيْحَ لَنَا ذَنْبٌ مَعَ اللَّيْلِ فَاجِرٌ^(١)

لعوف بن الأحوص ، بينما يقول الأثيري إنها لجندب بن زهير^(٢) .

وفي يوم الفجار الأول حينما ضرب رجلٌ رجلٌ بَنَدَرٌ بن مَعْنَرِ الكِنَانِيّ وأُشْد :

نَحْنُ بَنُو دَعْيَانَ ذُو التَّغَطُّرِ بَحْرٌ لِحِمِي زَاخِرٍ لَمْ يَتَوَفَّوْ

نَبْنِي عَلَى الْأَحْيَاءِ بِالْمُغَرَّرِ^(٣)

واعتطف في نسبتها فبعضهم^(٤) نسبها للأحر بن ملازن ، والبعض الآخر^(٥) نسبها لرجل من هوزان .

ولعل من أكثر مظاهر الاختلاط في شعر الأيَّام القصيدة التي رواها أبو الفرج في أغانيه ، وأبو تمام في حماسه في رثاء ربيعة بن مكنم فارس كنانة ، الذي قطعه سُلَيْمٌ في يوم الكَلْبِد . فقد لوردها الأغاني في موضعين في الموضع الأول ذكر منها ثمانية أبيات ، أولها :^(٦)

نَسَرْتُ فَلُصُوحِي عَنْ حَجَلَةٍ حَرَّةٍ بُنَيْتَ عَلَى طَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهَوْبِ^(٧)

ونسب القصيدة إلى الرواية أبي عبيدة ، وإن أبا عبيدة قال عن الشعر إنه لضرار بن الخطاب بن مرداس أحد بني محزوب بن نهر . وقال الأثرم نقلًا عن أبي عبيدة ينسب أحد أبياتها إلى مَكْرُزَ بن حَفْصِ بن الأَثَيْفِ أحد بني عامر بن لؤي ، من قريش الظواهر . وذكرها أبو الفرج ، ذكر بعضاً منها ، في موضع آخر نسبها إلى حسان بن ثابت ، وذكر منها أبياتاً ثلاثة ، أولها :

(١) القضيبيات - القضيبيات رقم ١٠٨ .

(٢) شرح القضيبيات - قضيبيات رقم ١٠٨ .

(٣) بنو دعيان : هم بنو دعيان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوزان ، التغطري : الأختيال في الشيء . لم يتوف : لم يقد ، الثغري : الوقف بعرفات .

(٤) العقد الفريد ٥ / ٢٥١ .

(٥) الأغاني / ثلاثة ٢٠ / ٦١ .

(٦) الأغاني / ثلاثة ١٦ / ٢٦ .

(٧) اللصوحى : الناقة النخية ، الحرة : الأرض ذات الحجارة ، طلق : كريم .

فَقَرَّتْ قَلْبِي مِنْ حِجَارَةٍ حَرَّةٍ بُيِّتٌ عَلَى طَلْقِ الْبَيْتِ وَهَوْبِ^(١)
 أما أبو تمام فقد رواها على أنها لخص بن الأحنف الكتاني وذكر منها بيتاً أربعة أولها :^(٢)
 لَا يَمَعْدُنْ رَيْعَةً بِنُ مَكْدَمٍ وَسَقَى الْغَوَاثِي قُبْرَةً بِذَنُوبِ^(٣)
 ونسبها التبريزي إلى حسن بن ثابت^(٤)

لكن كل هذه الأمثلة التي عرضناها وغيرها لا تثبت من قيمة هذا الشعر الذي ندرسه لتدورها إذا ليست بحجم الشعر الذي يدرس . وقد لاحظنا أن أكثر هذا التداخل يكون اختلافاً على نسبه إلى صاحبه ، وأن بعض هذا الشعر لم يغير موضوعه أو زمته ذلك الخلط في نسبه إلى قائله .

ضياع شعر الأيام

سبق أن لاحظنا إلى أن الشعر الجاهلي قد سقط منه الكثير في أثناء رحلته الطويلة التي قطعها قبل أن يستقر بين أيدي الرواة العلماء الذين عنا به ، ودونوه . وسنحاول الآن أن ندلل على هذا الضياع فيما يتعلق بشعر الأيام بأدلة استنباطية واحدة صريحة .

فلما الأدلة الاستنباطية فهي : أننا نسمع ونقرأ في المصادر عن كثير من الأيام ولا نجد لها شعراً ، وهذا بخلاف ما يعرف عن العرب من أنها غطت مآثرها ووقائعها ، ومفاخرها بالشعر ، فإن تلك الأشعار ؟

وإذا فحصنا تلك الأشعار التي وصلتنا نجد أنها ليست كاملة ، فبعض المقطوعات نرى أن أول بيت فيها لا يشير إلى بداية طيبة ، وإذا يشير إلى أنه مبشر من قصيدة ضاعت ولم يبق إلا هذه الأبيات القليلة . يقول ربيعة بن مكرم الضبي في يوم بُزْأَةَ مفتخراً ، ومبتدئاً بهذا البيت :

وَأَلْ مَرْثِيَاءٌ وَقَدْ تَدَاعَتْ حَلَاثَتُهُمْ لَنَا حَتَّى قَرِنَا^(٥)

(١) الألفي / ثلاثة / ٣١ .

(٢) الحماسة شرح الرزوقي / ٢ / ٩٠٥ .

(٣) ربيعة بن مكرم : فارس بن فارس من كتابة ، غنوب : دلو عظيمة .

(٤) الحماسة شرح التبريزي / ١ / ٥٣٧ .

(٥) الطلائع / ١ / ١٩٦ .

ويقول سحيم بن وكيل الرياحي معبراً طارفاً ليريومي يقتله جارية الغسانيين في يوم قول الثاني .
ولا نجد من هذا الشعر إلا بيتاً واحداً هو :

لقد كنت جارا بنسى هجيمة قبلها فلم تغن شيئا غير قتل المجاور^١

ولا نستطيع أن نتصور أن الشاعر قد ألغى ما كان يتوي أن يهاجم به أولئك الذين غدروا ، بيت
من الشعر .

وورد النص في مصادر مختلفة بأعداد مختلفة يشير إلى أن هذه المصادر نقلت النص عن
مصادر ضلت الطريق إليها ، وأن النص بكامله لم يصلنا منه إلا تلك الأبيات المشورة في تلك
المصادر ، مع أنه يمكن أن تكون المصادر قد تعلمت إبراز بعض أبيات النص لأن طبيعة المصدر
لا تهتم بالنص الشعري كاملاً ، فكتب التاريخ تعنى بالشعر لغاية غير تلك الغاية التي تهدف
إليها التي يهتمها الشعر للاستشهاد على قاعدة أو قصة . والمصدر الوحيد للنص كاملاً هو
الدواوين ، ولكننا مع ذلك نجد أن هذه الدواوين تنقل النص بروايات مختلفة ، حسب الروايات
التي تبهرها .

والأعداد الكثيرة للدواوين الشعرية التي صنعها العلماء في القرنين الثالث والرابع ، والتي
نصحتها كتاب الفهرست ، ومعجم الأنبياء ، وكشف الظنون ، وغيرها من المؤلفات التي
حرصت على ذكر تلك الدواوين والذين صنعوها ، أين هي ؟ إنها لا تلك منها إلا القليل .
وحى هذا القليل الذي وصلنا فلنا لا نطمئن إلى أنه وصل إلينا سلباً بل تميل إلى أن بعضه قد
سقط منه الكثير . وشاهدنا على ذلك تلك الكثرة من المقطوعات التي ترزح بها الدواوين ، وذلك
التداخل في المقطوعات بين الدواوين .

وأما التصوص الصريحة التي تشير إلى ضياع قسم كبير من شعر الأيام فتتمثل فيها
سعره :

١) جاء في سيرة ابن هشام ما يلي : «قال أبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب .
أبلغ ، إن عرّضت ، بنى كلاب وعامر والخطوب لها موال
وبلغ إن عرّضت ، بنى ثبير وأخوال القليل بنى هلال
بأن الوافد الرجال أسى مقياً عند تيمن في هلال

(١) العقد الجديد ٥ / ٢٣٩

ثم يعقب : وهذه الآيات من أبيات له فيها فخر ابن هشام^١

٢) وجاء في طبقات ابن سلام^٢ ذكرنا العرب وأشعارها ، والشعراء المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرفها وأيامها ، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها .

٣) ويقول في موضع آخر في خبر مرويه ابن عون عن ابن سيرين عن عمر بن الخطاب^٣ : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم أصبح منه ، فجاء الإسلام . . . قلها كثر الإسلام ، وجاءت الفتح ، وأطمانت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر . . . فحفظوا أقل ذلك ، ونعسب عليهم منه كثير

٤) وجاء في موضع ثالث من نفس المصدر في خبر مروى عن أبي عمرو بن العلاء^٤ : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو شاءكم وانفرا لجاءكم علم وشعر كثير

٥) ويقول في موضع آخر^٥ : وما يدل على زهاب الشعر وسقوطه . . . قل ما بقي بأيدي الرواة للصحيح لطرفة وعبيد

٦) جاء في « الشعر والشعراء » لابن قتيبة^٦ قوله : « الشعراء المعروفون بالشعر عند قبائلهم أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يلقب من وراء علمهم والقب ، ولو أنفذ عمره في التفتيش عنهم . ولا أحب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها .

ثم أورد خبراً عن الأصمعي مضمونه أن قتيبة جلا إلى أبي غسنة ، وقد شاخ فأنشدهم مائة شاعر اسمهم عمرو . . . هذا إلى من سقط شعره من شعراء القبائل ولم يحمله إلينا العلماء والنقلة

٧) جاء في جميع الأمثال للميداني^٧ في حديثه عن يوم القضاء « ولم فيه أشعار كثيرة ولكن أين هذه الأشعار الكثيرة ؟ لم يصلنا من هذا اليوم إلا اسمه . أما أسباب ضياع هذا الشعر فيمكن تلخيصها في أربعة أسباب : عوائق الزمن والاضطرابات السياسية ، وهيب المراكز

- | | |
|---------------------------------------|--|
| (١) سيرة ابن هشام ١ / ١٨٦ | (٢) طبقات ابن سلام ٥ . |
| (٣) نفس المصدر السابق ٢٢ . | (٤) نفس المصدر السابق ٢٣ . |
| (٥) نفس المصدر السابق ١١٦ . | (٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٦٠ . |
| (٧) جميع الأمثال للميداني ٢ / ٢٨٨ . | |

الحضارية على أيدي المغول والغرب ، ولعمدتها تلك الرحلة الطويلة التي قطعها الشعر منذ الجاهلية حتى عصر التدوين .

وعلى الرغم مما أصاب الشعر الجاهلي من عوامل الضياع إلا أن الذي وصلنا منه كثير ، وكانت عوامل تعمل على صونه ، أو صون ما يمكن صيادته ، ولعم هذه العوامل :

العصية فقد عنت بالشعر وحفظته لنا ، وحافظت كل قبيلة على شعرها واعتبر الفرد منهم حلفاء هذا الشعر والمحافظة عليه واجباً مقدساً ، ولكن هذه العصية عشت به كما عنت به أيضاً^(١) ، وقد اعتنت القبائل بحفظ شعرائها الذي يصور مناقبها ومطالب خصومها ، كما عنت بالشعر الذي يصور واقعها وأيامها فهو تاريخها .

ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن شعر الأيام قد سلم من الضياع أكثر من أي لون آخر من ألوان الشعر الجاهلي لحرس القبائل على روايته وحفظه ولأنه سجل حياتهم في الجاهلية ، ويجب ، كما يقول الدكتور شوقي ضيف^(٢) « أن لا نبالغ مبالغة أبي عمرو بن العلاء ، فقد بقي منه كثير ألقت فيه مجلدات ضخام^(٣) » .

توثيق شعر الأيام :

وأخيراً ، وبعد أن عرضنا لمصادر شعر الأيام ، وأرواقه ، وعرضنا القضية الانتحال في شعر الأيام ، ومواقع الانتحال في هذا الشعر ، وفرقنا بين الانتحال والاختلاط ، ثم عرضنا لضياع قسم كبير من هذا الشعر . بعد كل هذا نود أن نخرج بما بقي لنا من هذا الشعر ، وكيف توثق هذا الركام الذي وصلنا ؟ وإلى أي مدى نستطيع أن تلقى بهذا الشعر أو نشك فيه ؟ ومن يدأ العلماء يتعمقون بتوثيق هذا الشعر ؟ وما المنهج الذي يمكن أن نضعه لدراسة هذا الشعر وتوثيقه ، وإزالة كل ما علق به من تهم وشبهات .

وأول من عرض لفضية توثيق هذا الشعر وتميز غته من سمينة القدماء من علمائنا ، والنصوص التالية تلقى الضوء على منهجهم ، تعرضها وبعد ذلك نحاول استخلاص منهج متكامل .

(١) يقول ابن سلام^(١) توفي الشعر المسموع ففتعل موضوع كثير لا غير فيه ولا حجة في

(١) تلويح الشعر والعربي - نجيب البهيني ٥١ .

(٢) المعصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٨٨ .

(٣) طبقات شعراء ٦٠٥ .

عريته ، ولا أحب يستفاد . . . إل أن يقول « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه - أن يقل من صحيفته ، ولا يروي عن صحفي . وقد اختلف العلماء في بعض الشعر ، كما اختلف في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه »

٢) ويقول ابن سلام^(١) وقال خلاد بن يزيد الباهلي لخلق بن حبان الآخر: بأي شيء تريد هذه الأشعار التي تروي؟ قال له: هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه؟ قال: نعم، قال: أتتعلم في الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال: نعم. قال: فلا تذكر أن تعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت.

٣- وقد روى ابن سلام البيت التالي لعباس بن مرداس :

وفيك بنو عدنان الذين تلمعوا بلحسج حتى طردوا كل مطرد

ويعقب عليه ابن سلام أو رواية كتاب ابن سلام : والبيت مرعب عند أبي عبد الله^(٢)

٤- ورفض كل من ابن سلام والأصمعي الشعر الذي كانت الرواة قد لحقته ونسبوه إلى الجاهليين ، ونعني الرواة الوضاعين أمثال ابن إسحاق وحماد الرواية إلا إذا كان يأتهم من مصادر موثقة .^(٣)

٥- وجاء في موضع آخر من الكتاب بعد الحديث عن تزيد الغياثي من أشعار في الواقع . . . وتزيد الرواة قال^(٤) : « وليس يُشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما صنعوا ، ولا ما صنع المرثدون ، وإنما عطل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال . . . »

ويذكر بعد ذلك قصة مروية عن أبي عبيدة ولعلق بأبي عبيدة ودلود بن متمم بن ثوبرة . . .

(١) نفس المصدر السابق ، ٨ .

(٢) طبقات لحوال الشعراء ، ١٦ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) طبقات ابن سلام ، ٣٩ .

٦- وقال ابن سلام في حديث يرويه عن أبي عبيدة ، ومضمون الخبر أن داود بن متعم بن نيرة وفد على البصرة فأكرمه أبو عبيدة ، وقضى له حاجاته ، وأخذ يشدهم شعر أبيه ^{١٠} فلما قد شعر أبيه جعل يحتذي على كلامه فيذكر المواضع التي شهد بها ، فلما توالى ذلك متعلماً أنه يفعلها .

٧- ويقول ابن سلام عن علي بن زيد ^{١١} « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه وسهل منطقته ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد »

٨- وذكر ابن هشام في شرحه لتلخيص الكتاب ^{١٢} . . . وتارك بعض ما ذكره ابن اسحاق في هذا الكتاب ما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأله فيه ذكر . . . وأشعر ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يهرقها . . .

٩- ولورد ابن قتيبة ^{١٣} الآيات التالية للأصفي :

إن محلاً وإن مرغلاً وإن في السفر ما مضى مهلاً
استنكر الله بالوفاء وبالخمس ولى اللامة الرجل
والأرض حالة لما حل الله وما أن تؤد ما فعلا
يوماً تراها كشيء أريد العصب ويوماً أديها فولا
وعقب ابن قتيبة بعد ذلك قائلا : « وهذا الشعر منحول ، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله :

يا خير من يركب الطي ولا يشرب كأساً يكف من بخلا

١٠- ولورد في موضع آخر آياتاً للبيد بن ربيعة مطلعها : ^{١٤}

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

(١) طبقات ابن سلام ٤٠

(٢) طبقات ابن سلام ١١٧

(٣) السيرة النبوية - تحقيق مصطفى السقا ورفاقه ١٠ / ١

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٤ / ١

وأخر بيت فيها :

وكلُّ امرئٍ يوماً سيُعلمُ متعتهُ إذا تَشَقَّقتْ عند الإلهِ المحاصِلُ

ثم يضيف ابن تيمية قائلًا : « وهذا البيت الآخر يدل على أنه قيل في الإسلام ، وهو شيء يقول الله سبحانه وتعالى : وَحُفِّلْ مَا فِي الصُّدُورِ ، أو كان ليبد قبل إسلامه يؤمن بالبعث والحساب ، ولعل البيت متحول » .

وحسبنا هذه الأمثلة ، ولو استرسلنا لطلق بنا الحديث ، وسنحاول أن نتفحص هذه الأمثلة لاستخلاص بعض ملامح منهج في توثيق النص .

١ - وأول ما يطلعا من منهجهم في توثيق الشعر هو أنهم كانوا يقولون ما اتفق العلماء عليه ، فإذا ما اختلفوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه ، وهذا أوثق الدرجات عندهم ، أن نجيع الرواة عليه .

٢ - قلنا ما تعلم إجماع الرواة عليه فإنهم يرفضون شعراً يأتيهم من رواة غير موثقين كابن إسحاق وحده ، إلا أن يأتيهم من مصنف موثقة ، أي أن القدماء لم يكتفوا برفضون الشعر من الراوي الذي عرف عنه الكذب لجرد صدوره عنه ، بل كانوا يحاولون البحث عنه في المصادر الموثقة . فليس الأمر سهلاً أن نرفض رواية الراوية للشعر بأكملها بمجرد أنه أخطأ مرة فكذب ، لو زالت به قدمه ، إنما نقف منه موقف التشكك الذي يحاول الوصول إلى اليقين . وهذا ما فعله القدماء ، يتركون الشعر الذي يذكره الرواة غير الثقات إذا لم يروا أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، ولم يجدوها في مصدر موثق . فسيطلبهم لتوثيق الشعر إذن إما أن يأتيهم من مصادر موثقة ، وإما أن يُروى عن أحد من أهل العلم أنه يعرفه .

٣ - ولم يكن القدماء يرفضوا الشعر بمجرد أنهم لم يسموه ، أو أنهم يعتقدون أن فيه مصنوعاً لا خير فيه . بل يمتنعونه للتقد والتحميص ، فربما كان الآخرون يعرفون الرواية بذلك شعر فليلاً على اعتحاله لهذا الشعر ، بل ربما كانت في حوزتها مصنف لهذا الشعر لم تيسر للمجموعة الأخرى . ومن هنا نجد للشمس بن الواحد للشاعر الواحد روايات بصرية ، وأخرى كوفية وبينها تباين ، مما يوحي للوهلة الأولى بأن بعض هذه الروايات ليست صحيحة ، ولكن القول القائل في ذلك كله لإيضاح هذه الروايات للتدق من قبل أهل العلم ومناقشة رواياتها وأسانيدها .

(١) الشعر والشعراء لابن تيمية ١/ ١٩٩

٤ - ولم يكن القدماء ليقنعوا ويرضوا بأخذ الشعر من بطون الكتب والمصنف ، ولم يكتفوا بأن يذكر الرواية أنه أخذ هذا الشعر من كتاب كذا لو من صحيفة كذا ، بل لقد عدّوا ذلك عبثاً ، ولا يحسن ذلك أنهم يرفضون الشعر المذنون في الكتب بل اشترطوا شرطين آخرين ليصلوا إلى شعر موثق ، أولهما : أنه يجب أخذ هذا الشعر عن أهل البادية ، أصحاب هذا الشعر ورواته ، وأصحاب اللسان القويم الذي لم تتداخله العجبة وأصحاب الذوق الفطري السليم الذي يتحمل النص ويستطيع وضعه في إطاره الصحيح .

وثانيهما : أن هذا الشعر المذنون في الكتب ينبغي عرضه على العلماء ليقولوا رأيهم فيه ويصححوه إذا وُجد فيه تحريف أو تصحيف .

٥ - ولم يكن القدماء ليقنعوا بالشعر لمجرد وثوقهم من روايته فحسب ، بل كانوا يخفضونه لمقياس تاريخي بالنظر في مضمونه ، هل ما فيه لا يتعارض مع ما كان الجاهليون يعرفونه ؟ وهل فيه بعض الإشارات الإسلامية ؟ وهل ذكر أحداثاً لم يشهدها العصر الجاهلي ؟ إلى غير ذلك من العلامات التي كانت تثير لهم الطريق للحكم على هذا الشعر ، فقد شك ابن قتيبة ^(١) في البيت الأخير من أبيات أوردناها للبيد ، لأنه لم يجد فيه تشابهاً بينه وبين مضمون الآية الكريمة : « وحصل مال الصدورة » كما رفض الجاسط ^(٢) توثيق أبيات رولها الرواة على أنها جاهلية ، لأنها ذكرت إقتضاض الكواكب ، والجاسط يرى أن اقتضاض الكواكب كان معروفاً في الجاهلية قبل مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويذكر أن يكون معروفاً في الجاهلية البعيدة عن مولد الرسول الكريم .

٦ - وآخر مقلبي القدماء ، مما كانوا يحكمون به على الشعر الجاهلي ، هو اقتضاض الفتي ، وقد كانوا يملكون الذوق الشعري السليم ، كما كانوا متمكنين من لغتهم ، حافظين للشعر العربي الذي سبقهم ، كل ذلك أنسبهم ملكة النقد الفطري السليم ، يقرأ الواحد منهم الأبيات من الشعر أو يقرأ عليه فيحكم عليها حكماً مقارباً للصواب .

والإشارات التي نطالعنا في هذا الدجال كثيرة ، منها ما رواه ابن سلام عن أبي عبيدة عنهما بدأ بلود بن متمم بن نويرة يروي لهم شعر أبيه وعندما نقد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضرمها لهم ، وقد عرفوا ذلك من معرفتهم لشعر متمم وأسلوبه وصوره التي يستخلصها وطايعه العام ، فليلاً هم أمام كلام دون كلام متمم ، عرفوا حل الرغم من أنه كان يحتل على كلامه

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ١٤

(٢) الحيزان للجاسط ١/ ٢٧٢ - ٢٧٦

مقلداً، فيذكر للواضع التي ذكرها والده والوقائع التي شهد بها، فلما علموا ذلك، منه انكروا انه يفتعله^(١) فأولئك العلماء إذن ، لم يكونوا يبالغون بها يفتعله بعض الرواة من الشعر وللهم أنوار النقد ، ومملكة تلوق الشعر ومعرفة الجاهل منه من المولد .

وهم يذكرون أيضاً أن الشاعر الذي يسكن المراكز الحضرية يكون لسانه وسهل منطق ، فيعرب بذلك من شعر المولدين ، فيسهل عليه الإلتصاح ، ويصعب تنقية شعره وتخليصه . وهذا ما حدث لعدي بن زيد فقد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهل منطق ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد^(٢) وهذا فهم واضح للغة الشعر في العصر الجاهلي المعين في البداية والقطرة ، له لسانه الخاص ومنطقه الخاص ، وطابعه الخاص ، وصورة الخاصة ، ونصوره الخاص ، فيسهل كل هذا عملية مقارنته بأي شعر مولد ، فيتكشف الشعر النحول ، أما أولئك الشعراء أمثال عشي فليس يتعلمون تخليص شعرهم وتنقيته ولكنه صعب على النقاد العلماء .

ومن البداية جاء الخطر يحدق بالشعر الجاهلي لأن الرواة الأعراب الذين طبعوا بطابعها ، قادرون على نحل الشعر لشعرائهم الأقدمين أو أتاليهم ، دون أن يفتن إليهم غير العالم ، ويحتاج العالم إلى أدلة وروية لكشف زيف هذا الشعر ، ونحن لم نقف مثل أولئك العلماء الذين وقفوا لهم بالمرصاد يكتشفون أمثال أبي عمرو بن العلاء والأصمعي والفنضل وأبي عبيدة وابن سلام ، ولعل حادثة أبي عبيدة مع داود بن متعم بن تويره تعطينا الدليل على ذلك . فلم يكن يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما صنعوا ، ولا ما صنع المولدون لذلك كله يمكن كشفه ويبان زيفه للناس ، وتطهير الشعر العربي منه . ليعود إلى نقائه وصفائه وإثبات عطشهم وأنشغل عليهم بعض الشيء أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم^(٣)

وكان علماءنا الأقدمون يرفضون النص لو أقيمت أو لقطوعة إذا أحسوا أي غلط فيها يجعلهم يشكون في أمر صحتها ، وكما قلنا لم حاستهم للتميزة والفرزهم حل وضع أصابعهم على مواطن الخلل والضعف في النص الشعري فورد تأملهم له . فالأصمعي يورد أبيات للهليل في أصمعيته ثم يقول إنها مولدة^(٤)

(١) طيفات ابن سلام ٤٠

(٢) نفس المصدر السابق ١١٧

(٣) طيفات ابن سلام ٣٩

(٤) الأصمعية رقم ٥٤

وهكذا نخلص إلى أن علماء الطبقة الأولى والطبقة الثانية كانوا بالمرصاد للرواة السليين ينحلون الشعر ، شعراء الجاهلية ، كما كانوا بالمرصاد للأعراب وأبناء الشعراء الذين يتزبدون في شعر شعراء قبائلهم . وإن أولئك العلماء كانوا يخضعون النص لنقد خارجي يتناول الرواية وجو النص وإطراره العام . كما يخضعونه لنقد داخلي يتناولون فيه أفكار النص وملاستها لذلك العصر ، وألفاظه وصوره وروحه . وكانوا يستندون في عملهم هذا إلى نتائج رواية النص الشعري عن رواية ثقات ، ومباحه مشافهة من الأعراب بالإضافة إلى وروده في مصادر وثيقة .

وسار الشعر الجاهلي عامة وشعر الأهم خاصة عبر قرون طويلة ، تناولها العلماء والشعراء بالنسخ والنقل والاختصاص والدراسة والشرح ، كما تناولها بعض العلماء بالجمع في دولتين شعرية وجموعت شعرية ، واستمرت مسيرته إلى يوم ظهور المطابع فزابة عشرة قرون من الزمن ، لحق الشعر فيها ما لحقه من الآفات ، وأصابه التحريف والتصحيف .

وأول ما أصاب هذا الشعر فقدان الأصول المقتضى التي أبحاث على استقرار الشعر في الجاهلية وصلو الإسلام .

وثاني ما أصاب هذا الشعر ، هو ما أصاب الأصول التي صنعتها الرواة العلماء من جهل النسخ القدماء ، فأحدثوا خللاً شديداً في دولتين الشعر ، من إسقاطهم إسناده الرواية ، إلى إسقاطهم اختلاف الرواية المثلين في الأصول ، إلى إسقاطهم نسبة كل رواية إلى صاحبها . وبعضهم أسقط تعليق القدماء من العلماء وجردوا الشعر منها . وكثير من النواوين التي وصلتنا ، هي من هذا القبيل الذي دخله تصرف النسخ وجعلهم وجهل بعضهم .

هذا ما أصاب الشعر في القديم قبل أن يصل إلى عصر المطابع ، فلماذا ما استقرت بعض أصوله التي وصلتنا في أيدي مَنْ يُعَيِّن نشرها وَمَنْ لَا يحسن حدث البلاء الأعظم فقد تولى تحقيق هذه الأصول ونشرها من يحسن النشر والفهم ومن لا يحسن ، غير مبالٍ إلا باللكسب والشهرة . وغير مبالٍ بمقارنة مخطوطات عدة لديوان واحد ليصل إلى النسخة الأقرب إلى الأصل ، وليسهل عليه فك بعض الخاز للخطوط ، بل وربما عمد بعضهم إلى حذف قصيدة بأكملها أو بيت أو حدة أبيات لا لسبب إلا لأنه أشكل عليه أمره ، وربما عمد إلى التحريف تجنّباً لأشكال . فاختلط الأمر اختلاطاً شديداً ، وداخل الدواوين فساد جديد بالإضافة إلى فساد لحقها من النسخ . وقد أسهم بعض المستشرقين في طبع بعض هذه الدواوين طبعاً مغالياً ، بسبب وفرة ما لديهم من الأصول التي تقتضها ، ولو تسنى لأولئك المستشرقين ملكة الفوق الشعري ، ومثل إطار النص وجوهره وروحه ، ولو كانت لهم دراية تامة باللغة العربية ، واستعمالات ألفاظها المجازية والحقيقية ،

لوصلنا منهم خبر كثير . ومع ذلك فلهم بعض الفضل في وضع اللبنة الأولى في بناء نأمل أن يستمر وينتهي من الشواذب ويتولاه علماء لهم القدرة على تحقيق تراثنا الشعري وعرضه في صورة مشرقة مشرفة للقارىء القارئ له الاتصال ثانية بتراثه .

وبعد ، فإلى المنهج الذي نقترحه لتوثيق شعر الأيام بعد كل ما عرضناه ؟ في محاولتنا لتوثيق شعر الأيام ينبغي أن لا يخيب عن عيوننا طرقات القضية ، وهما الرواة والشعر ، ولنبداً بالرواة أولاً ، وأول ما يجب الاهتمام به التحقق من الرواية وإسنادها ، ووضع رواية السند موضع الدراسة والنقد ، والتحقق من نزاهتهم ومصداقيتهم ، فإذا لمنا خطأ في إسناد الرواية يتعلق بإسناد الرواية ينبغي أن لا نطمئن إلا عندما نجد مصدراً آخر يوثق هذا النص .

ولقد يكون هذا الأمر سهلاً لو وصلنا للمصادر متضمنة الرواية بإسنادها ، ولكن الذي وصلنا خليط من هذا وذلك ، ولقد ينقطع إسناد الرواية فهنا نرفع إلى رواية الطبقة الأولى . كما أننا ينبغي أن نلاحظ الطعن الذي وصلنا عن هذا الرواية أو ذلك ، فلا يجب أن يخيب عن يائنا الصراع والتنافس بين مدرستي البصرة والكوفة ، وأثبت الشعر ما أجمع عليه رواية للمدرستين ، وأثبت الرواة ما وثقه الطرفان ، فالفضل النصي وثقة الكوفيون كما وثقة البصريون .

ونستطيع أن نميز أنواعاً أربعة من الرواة : رواية عدولاً موثوقين ، ورواية متهمين ، ورواية وسطاً بين هذه الفئة وتلك ، ورواية مجهولون ليسوا بموثوقين لأنهم مجهولون ولا نعلم من أمرهم شيئاً .

ولقد خلعت كتب تراجم الرواة بالكثير من الأعيان عن أولئك الرواة ، والقارىء السامع لتلك التراجم يستطيع أن يخرج بصورة قريبة من الحقيقة فيما يتصل بتوثيق أولئك الرواة أو ليرجمهم ، بعد أن يلاحظ الذين يقدحون أو يوثقون لهم في صف الرواية ومن مدرسته ، أم من خصومه من المدرسة الأخرى ؟ وهل هنالك مصلحة شخصية في هذا العدد ؟ وهل أورد من الأدلة ما يثبت بتجريح الرواية أو يوثقه ؟ كل هذه التساؤلات ينبغي لنا أن نبررها ونحن نقرأ عن أولئك الرواة الذين حلوا لنا شعر الأيام .

ولقد لاحظت من خلال دراستي لرواية شعر الأيام ، أن نسباً كثيراً من أولئك لبعضهم في بعض إلا تتبع من منبع واحد تقريباً هو التعصب لرواية مدرسته ، فالبصري يتعصب للبصري ، والكوفي يتعصب للكوفي ، إلا أن بعض الرواة تناولوا احترام وتوثيق الفريقين . كما لاحظت أن الذين وجه إليهم الطعن من رواية الأيام وأشعارها وأشعارها قلة قليلة ، إذا نسبوا إلى ذلك العدد الضخم من الرواة . وهل رأسهم حماد وخلف وشرقي بن القطامي وابن الكلبي .

ثم إن هنالك أمراً لا بد من ملاحظته عند دراستنا لموضوع الرواية وهو شبهوخ كل رواية وتلازمه ، لأن ذلك يهتدنا في كشف ريف بعض الروايات ، فقد يذكر رواية أنه سمع من العالم كذا ، وبعد البحث والتحري يتبين أن هذا الرواية لم يدخل تلك البلاد ولم يعاصر ذلك العالم ، ولم يرد اسمه بين قائمة تلاميذه . وهذا يتطلب منا إلقاء بحية أولئك الرواية بذاتها وانتهائها حتى يتسنى لنا نقد سند الرواية .

والرواية لم تصلنا بعد انتشار التنوين ، مشافهة ، وإنما نقلت إلينا على صفحات المؤلفات التي حالفها الخط ووصلت إلينا ، وهذا أمر آخر متصل بالرواية ، فالعالم الذي ألف الكتاب ينبغي أن نخضعه للنقد ، هل ينقل نقلاً أميناً ؟ هل يتسم بالأسناد ؟ هل يور الروايات المختلفة ؟ هل يخلط من الرواية ما يحولله ويثني منها ما يريد ؟ هل ينقل عن رواية مدول ؟ أم إن روايته مجهولون لو غير ثقات ؟ کیا أنه ينبغي معرفة المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها ويتعصب لها . وأمر آخر ينبغي عدم تجاهله هو زمن تأليف الكتاب ومكانه لما لذلك من أثر في تحديد معالم الكتاب ، کیا يجب ألا نغفل عن الهدف من تأليف الكتاب ، لأن الهدف يحدد الأسلوب .

وإن قراتنا حينئذ نحاول توثيق نص شعري من نصوص الأيام ينبغي أن ننظر في المصدر ونلم بكل شيء عنه ، عن مؤلفه وغرضه من تأليفه وأسلوبه ، کیا ننظر في الرواية اللين نقل عنهم مؤلف الكتاب ونخضعهم للنزج والتعديل . فإذا انتهينا من هذا نكون قد انتهينا من النقد الخارجي للنص وهو ما يتصل بمصدره وروايته .

ونتقل بعد ذلك إلى النص نفسه ، وأول ما يجب أن نعرفه هو المصادر التي بين أيدينا والتي أوردت النص أو أجزاء منه ، ثم لا بد من ترتيب تاريخي لهذه المصادر . وبعد ذلك لا بد من توثيق هذه المصادر وروايتها کیا ذكرنا من قبل . ونصطدم هنا بمشكلة هي أن هذه المصادر لم تورد جميعها النص كاملاً ، فمنها من يورد نسباً من النص ، ولا يورده المصدر الآخر . وذلك عائد إلى طبيعة مادة المصدر أولاً ، وإلى الرواية أو المصدر الذي نقل عنه المؤلف . وهنا أثبتت مشكلة دعوى الاختلال بترتيب الآيات ، إذ ما دام الأمر ليس واحداً في جميع المصادر فستحتاج إلى ترتيب لآيات القصيدة ، وربما أهملت بعض المصادر أهمية ترتيبها ، وربما أساء الدارس فهم الترتيب واعتقد بوجود اضطراب في ترتيب الآيات ، فالاختلال في ترتيب آيات القصيدة موقه إذن إلى عاملين : أولهما اختلال الترتيب في رواية الرواية تبعاً لمصادرهم الأولية ، وثانيهما : التشعب الذي هو سر من أسرار البيان الإنساني ، والذي يزخر به الشعر الجاهلي^(١) وهذا التشعب ربما أساء فهمه الناقد واعتقد أن في القصيدة اضطراباً في ترتيب آياتها .

(١) مجلة المجلة - مقال لمحمود شاكر عدد مايو ١٩٧٠

وينبغي أن نسلم ببعض ما حدث للشعر عبر ذلك الذوب الطويل الذي تطعه حتى وصل إلينا ، يجب أن نسلم بإحتمال لسان بيت من الشعر ، كما نسلم بإحتمال تقديم بيت لو تأخيره ، كما نسلم باستبدال كلمة بأخرى ، كما نسلم بإحتمال الخلط في نسبة القصيدة بسبب الحيلة غير المستقرة التي كان يجاها للجمع الجاهلي ، وسبب أن شعر الأيام قبل معظمه في ساحات القتال ، وربما سقط قاتله صريعاً ، ولم يكن من الشعراء المشهورين فنسب إلى غير صاحبه ، وقد أسهينا في أسباب الخلط في شعر الأيام فيما مضى من البحث . وهذا يضع أمامنا النص في روايات مختلفة في بعض الجزئيات ، الأمر الذي كان موضع تهمة وليس دليلاً على نعله ، كما يقول الأستاذ العقاد ^(١)

ونشأ مشكلة أخرى تعرض سبيلنا ، وهي أنه كثيراً ما يصادفنا ونحن نجمع مصادر النص أن نجد هذا النص منسوباً لأكثر من شاعر ، وعندما ينبغي أن نتوقف قليلاً لتحقيق من صاحب النص الحقيقي ، ورسيلتنا في ذلك هي تنقية تلك الروايات والأخبار على لوتفها للمقارنة ، ثم الرجوع إلى خبر ذلك اليوم في مصادرنا الموثقة لمعرفة فرصاته وشعراته وقلائد ، والأماكن التي دارت رحى المعركة عليها . كل ذلك سيعين في تعيين صاحب النص الحقيقي ، فالإعلام في الأيام علامات ، إن صحت روايتها ، تبرلنا الطريق لتوثيق التصور ، كما أن عدداً آخر يمكننا من تحقيق نسبة النص وهو شعر خصومهم في ذلك اليوم الذي يفند مزاعم هذا الفريق ويرد عليهم وربما كان فيه إشارة إلى صاحب النص تعييناً على معرفته . إن شعر الأيام لو وصلنا كاملاً لأسهمت الإعلام التي تملأ أنيابها في حل كثير من المشاكل التي تعرض سبيل الباحث ، ولا يمكن ترتيب تلك الأيام تاريخياً ، وبالتالي لا يمكن تحديد حقيقة الأوضاع في تلك الحظبة من الزمن .

ونصل بعد ذلك إلى الشعر نفسه ، هذا الشعر منه الجاهلي الأصيل ، ومنه ذلك الشعر الذي انفرد بروايته راوية واحد ، ومنه ذلك الشعر المتصل بالشخصيات التي نالت شهرة في للجمع الجاهلي والإسلامي كمعترة ومهلل وحاتم ، ومنه الشعر الإسلامي النزعة ، ومنه الشعر الموشل في القدم في نسبه ، فكيف نفني هذا الشعر ؟ كيف نستطيع أن نحصل على شعر الأيام الحقيقي دونما شائبة تشويه ؟ لقد حاول كثير من الباحثين وضع منهج لذلك ، ومنهم من أسهب ، ومنهم من أوجز ، وسنحاول أن تعرض لبعض هذه المناهج قبل اقتراح منهج لتوثيق شعر الأيام مستأين بما عرضوه من آراء .

فالأستاذ العقاد ^(٢) يقول في كتابه اللغة الشاعرة : لا بد من حيلة ناجعة لغير حيلة الرفض

(١) اللغة الشاعرة - عباس محمود العقاد ١٣٣

(٢) اللغة الشاعرة - للعقاد ١٣٤

الطلق أو القبول للطلق أو الفظن المفرد بين الطرفين - كلها عرضت للنقد مشكلة من مشكلات الأعيان الأدبية أو التاريخية التي يختلط فيها الصدق بالكذب والخرافة بالواقع والحقيقة بالخيال ، ولا يغفل عنها مرجع من مراجع التاريخ القديم أو من المراجع العصرية في كثير من الأجيال ، ثم يضيف : «ويعتقد أن التقيد العلمي في العصر الحديث وشيك أن يعتمد على وسيلة من أوثق الوسائل التي تستند إلى الحجمة المقنعة ولا تكفي بتوجيهات الفظن أو الذوق على حين النقاد قبل العصر الأخير » وهو يختار سيرة امرئ القيس لإخضاعه لطريقته ، لأنها - كما يقول - أكثر السير قبولاً لتطبيق تلك الطريقة على وجه واضح . . .

والدكتور طه حسين^{١٥} يتخذ المفهوم المركب وسيله ومنهاجه ، وهو عنده يذوق بأمرين أولهما ملازمة اللفظ والمعنى ملازمة ظاهرة للحياة البدوية في آخر العصر الجاهلي ، ثانيها : متصل بالخصائص الفنية ، وهي أن يثبت وجود عدة خصائص فنية مشتركة بين طائفة من الشعراء .

ويعرض الدكتور شوقي ضيف^{١٦} خلاصة ما يراه بأنه : يجب أن نشك فيما يشك فيه القدماء ونرفضه ، أما ما وثقوه ورواه الإثبات مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل والأصمعي وأبي زيد ، فحري بنا أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته . ومع ذلك ينبغي أن نخضعه للاحتحان ، وأن نرفض بعض ما رويته على أسس علمية منهجية لا مجرد الفظن ، كأن يروى لشاعر شعر لا يتصل بطروقه التاريخية ، أو تحري فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته ، أو يضاف إليه شعر إسلامي المنزعة ، وغير ذلك مما يجعلنا نلتمس الوضع لما :

ويعرض الأستاذ محمود شاكر^{١٧} في أثناء دراسته لقصيدة ابن أخت تأبط شرأ في رثاء حلاله ، طلع القضية فبرى فيها طرفين : أولهما منهج المقارنة بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي ، والأمور بعد ذلك كله يجب أن يسبق بدراسة لكلا الشعرين للمخرج بالخصائص الفنية ، والفروق بينهما ، تلك الفروق التي تجعلنا نميز هذا من ذلك . وفي رأيه أن هذا المنهج يحتاج لإيضاح معناه وتأسيس حدوده إلى جهد جليل في تلخيص زيف ما يروى من صحاحه ، قبل البدء في الحديث عنه . أما المنهج الآخر الذي يجهده وهو أهم باب من أبواب المنهج الأول ، وهو « باب دراسة الشعر ونقده »

(١) (الأدب الجاهلي - طه حسين ٢٦٥ وما بعدها)

(٢) (العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٧٥)

(٣) (مجلة المجلة - عدد يونيه ١٩٧٠ ص ٩ وما بعدها)

وبخلاصة ما يراه الدكتور ناصر الدين الأسد^(١) الاعتراف على آراء القدماء بصحة ما اتفق عليه العلماء الرواة جميعهم ، ثم أخذ هذا القدر المشترك للتحقق عليه أصلاً لديوان الشاعر ، ثم يدرس هذا الأصل دراسة دقيقة لتستشف منه روح الشاعر وعصاخصه الفنية ، ثم نستخرج من ذلك للمقاييس الذي نتخله حكماً تعرض عليه القضايا الشفرقة التي انصرف بها كل راية عالم بروايتها ، فلما استقام منها مع مقياسنا ورجحنا صحته ، وما لم يستقم رجحنا أنه مما اختلطت نسبه على الرواية العالم ، وأوضح أن هذا الشهج خاص بتحقيق شعر شاعر ، لتوثيق ديوان شعره .

ونستطيع ، من خلال ما عرضنا لأراء القدماء والمحدثين في توثيق هذا الشعر ، أن نخرج بصورة واضحة عن توثيق هذا الشعر بالإضافة إلى ما قلنا عليه من خلال دراستنا الميدانية لهذا الشعر ، ولطبيعة شعر الأهم للتميزة .

وفي رأينا أولاً : أن نوثق هذا الشعر ما ورد في الديوان الذي وصلتنا أصوله صحيحة دون تشويه ، ولديه شعر المجموعات الموثقة ، عل أن يوضع هذا الشعر أيضاً بالإضافة إلى المطبوعات إلى صحة روايته على محك النقد ، ومعركة مدى مطابقتها لأحداث اليوم ولناشجه . ونستعين في استكمال صورة اليوم بمقارنة عدة روايات له مع مراعاة ترتيب روايتها زمنياً وأهوائهم ، ودرجة توثيقهم .

ويأتي بعد ذلك الشعر الذي ورد في كتب السير والتاريخ واللغة والأدب والتحو والمعاجم والمجموعات غير الموثقة ، أو التي لم تصل درجة توثيقها إلى درجة المفضليات والأصمعيات ، وهذا الشعر إما أن يكون قد ورد في الديوان الذي بين أيدينا أو في المفضليات أو الأصمعيات ، وحيث فإن ورود هذا الشعر في إطار الخبر يوضح جو النص وإطاره العام ويكون أكثر جدوى من ورود الشعر في الديوان دون جوه وإطاره ، وربما ورد الشعر في هذه المؤلفات بعدد أكثر في الأبيات، وعندما ننظر في هذا الشعر الفاضل وندرسه بعناية وندرس راية الشعر والخبر ونحكم عليه على ضوء ذلك . وأما أن يكون هذا الشعر مما لم يرد في ديوان الشاعر أو مجموعتي المفضليات والأصمعيات، وهذا الشعر كثير، وهو بشكل صحيح لا يستهان به .

ويبقى أن نبحث في عدة أمور قبل البت في هذا الشعر ، نبحث أولاً في روايته وفي مصدره ، وفي موقعه في إطار الخبر العام ومدى موافقته أو عدم مطابقتها لسياق الخبر ، كما نبحث عن العصبية له ، فإن وجدناها لكنم وراء إبراز هذا الشعر وفضائه ، ثم نبحث عن البطولات

(١) مصادر الشعر الجاهلي - ناصر الدين الأسد ٥١٤

الخلقة التي هي أشبه ما تكون بالأساطير فإن وجدت ورفضته أيضاً ، ثم تنظر في الأماكن الواردة في هذا الشعر ، فإن كانت من الأماكن التي ارتادها الشاعر أو قبيلته لو عاشت عندها أيضاً ملنا إلى قبوله بشرط أن يتخلو من اللوائح الأخرى ، إما لأن ودهت فيه أماكن لم يمهدها الشاعر ، ولم تعدها قبيلته ملنا إلى القول بصلحه ، ثم نبحث عن إمكانية وجود الشاعر في ذلك اليوم ، فرمما يثبت لدينا أنه كان قد مات ، وأن عهداً طويلاً بين هذا اليوم وذلك الشاعر . ويمكننا في هذه الناحية أن الأعداء لم يكونوا ليسكنوا عن أي تزوير في نتيجة اليوم وشعره ، والشواهد على ذلك كثيرة في الغنائص والأغاني .

وبعد ذلك يأتي دور نقد الشعر داخلياً ، بالبحث في ألفاظه وملاحظتها لذلك العصر والموضوع الذي نظم فيه الشعر ، وهل فيها ألفاظ إسلامية ، ثم نبحث في صحتها ، مدى تناسبها لموضوع النص وروح العصر الذي نظمت فيه ، فها وجدنا فيه أفكاراً إسلامية ورفضه . وأخيراً فإننا ننظر إلى الشعر ككل لثري روح العام ومدى تسجيلها مع الروح العامة للشعر الجليل .

ومن الشعر الذي ينبغي تناوله بخطر ذلك الشعر الذي يشعرنا بوضوح العصبيتين العذائية والقحطانية ، والشعر الذي يشير إلى مفهوم العصية الجائحة ضد غير العرب كالفرس مثلاً ، والشعر الذي يسيء إلى العرب ، لا نقول برفض هذا الشعر ، ولكن ندرسه بآداة وحرص شديدتين قبل أن نقول كلمتنا فيه ، وفي الغالب يكون من الشعر المبحول .

الفصل الثاني

موضوعات شعر الأيام

تقديم

إن التراث الشعري للأمة العربية هو أهم جوانب تراثها تعبيراً عن جوهر نفوسها ، وتصوير الحقائق في حياتها الماضية في عصر لم يجد فيه أداة لتاريخ حياتهم وجوانب هامة ينقل إلينا من أحوال أممنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ما لم نجد مصدراً آخر نقلها إلينا على نحو ما فعل الشعر ، وهو من ناحية أخرى نقل مباشر يتحدث أصحابه إلينا بالشعر دون وسيط ، والوسيط ربما خضع لمؤثرات وربما لم يستطع أن يعطينا الصورة الواقعية التي ترصد الواقع بدقة « فالشعر - كما يرى أحد الباحثين - أدخل في الحقيقة من التاريخ »^١ « لأن التاريخ لا يعطي الحقيقة مباشرة إلا نادراً ، وهذا القول لا يتعد كثيراً عن ظروف العصر الذي تدرسه لقلة مصادر التاريخ » .

وشعر الأيام هو أكثر ألوان الشعر الجاهلي التصاقاً بما نقول ، فلقد أبدعته الأمة من نفسها حيث يودع الثمين القيم من حياتها ، واحتفظت به وحفظته ، لأنه يصور مفانئرها وبطلانها في سبيل الذود عن كرامة القبيلة ضد أي خطر خارجي ، وفي سبيل صون كرامة الفرد في القبيلة ، والتغني بالجلد وإعلان ذلك لباقى القبائل حتى تفكر ملياً قبل أن تقدم على الاعتداء على القبيلة .

وشعر الأيام تراث ينبع من الضمير الجاهلي في شتى تكويناته الاجتماعية ، وامتلاء بالحموى الفكرية الذي يشكل تشكيلاً قومياً لم تشاركه فيه أمة من الأمم الجاهولة . وذلك لأن الأيام تتضمن خلاصة الثقافة العربية الأولى بمنزلة الأساطير والقصص الخرافية ، وملاحم الأيام زاهرة بإشارات ورموز حول أئمة الشخصيات الأسطورية المفروضة والبلدان الطامسة أنشال

(١) مجلة المحلة يناير ١٩٦٥ (مقال للدكتور شوقي ضيف بعنوان « تقييم تراثنا الشعري » ص ٢١)

العماليق (يوم الهامة) ومعمرى حرب البسوس ، وأبينة يوم المشفر .^(١)

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن شعر الأبيات لو وصلنا كاملاً لوصلنا لتاريخ تلك الفترة واضحاً مشرقاً ، ولربما أعطانا تفسيراً آخر لتلك الأبيات وأسبابها ووقائعها . ولكن الكثرة من هذا التراث ما تزال مخطوطة ، أو أنها برزت للثور مشوهة مرققة ، تنقصها العناية والأمانة في التحقيق . ومن هنا جاء حكمنا القاسي على هذا التراث ، ولعل من أكثر الأحكام فساداً على هذا التراث ما يقال من أنه ليس إلا مدحاً ومجداً وراثاً ، فهو « حكم ناشئ عن نقص في فهم هذا الفن ونقص في استقصاء تلخيصه »^(٢)

ودراستها دراسة مستأنفة متعمقة تكشف بواطن هذا التراث وأصاته ، وهو في الحقيقة تمجيد لبطولاتنا في تلك الحقبة من الزمن ، وعلى الرغم من أنها بطولات محلية لم تتعد نطاق الجزيرة ، وكان المصطرحون فيها عرباً من الطرفين المهزوم والمتصر ، إلا أنها إذا قيست بمقاييس تلك العصر فإنها تبقى من المنزلة بمكان لأنها تكشف عن نفسية الفرد في ذلك الحين . وهي في نفس الوقت تشخص لنا صور زعماء أمثا في المصور الغابرة ، وصورهم في ساحات الوعى ، وصورهم الإنسانية الرفيعة التي تتجل في القيم والمثل التي آمنوا بها ودافعوا عنها .

وإذا ما حاولنا تصنيف هذا الشعر فهيداً لدراسة فلا بد من ذكر أمور قبل البدء بذلك فجنباً لأي لبس يقع أو إيهام يسيء إلى الدراسة ويجعلها عامة غير محدودة المعالم . أولها : أن الشعر الذي نتحدث عن الحروب والمعارك والبطولات ، وفي تناول أيدينا ضربان : ضرب يتحدث عن معارك أيام عتدة المعالم ، عرف فيها الفريقان واسم اليوم والدافع . وهذا هو الذي سيشكل العمود الفقري لهذه الدراسة . والضرب الثاني هو ذلك الشعر الذي يتحدث عن وقائع وحروب بشكل عام لا يشير إلى حادثة معينة ، ولعل هذا هو تدخل في التصور والتفكير والفخر منه في باب الوصف الحقيقي للأبيات ، ولعله هو الذي عناه الدكتور علي الجندبي حيناً قال إن العرب لا يميون الحروب ، وأما شعرهم الذي يمثل بذكرها فهو من قبيل الفخر . ومن المحتمل أن يكون هذا الشعر هو شعر أيام حضيبة ضلت الناسية والشروح طريقها إلينا ، بقي الشعر ميتاً لا حراك فيه .

وثانيها : أن هذا الشعر الذي سندرسه ليس كله شعراً قيل في ساحة الوعى ، وليس كله قيل على لسان الفارس الذي يخوض ساحة القتال ، بل منه ما قاله بعض الشعراء بعد انتهاء الأيام بكثير ، ربما يجيل ومته الشعر الذي قيل من على صهوات الجليد ووسط الغبار المتصاعد في ساحة القتال ، وبعضه قيل والفارس يلفظ أنفاسه الأخيرة . إلا أننا مع ذلك نستطيع إذا توسعنا في

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٣

(٢) دراسات في النقد الأدبي - أحمد كمال زكي ص ١٥٧ - ١٥٨

مفهوم اليوم والحرب أن نوسع إطاره الزمني فيشمل ما قبل الحرب والاستعداد لها وحالة التوتر والعداء الذي يسبق القتال ، وكما يشمل حالة الفرح أو الكآبة بعد انتهاء القتال وعودة كل فريق ظهراً أو مهزوماً . إذا اعتبرنا هذا ، فإن غالبية الشعر النبطي تدورمه يدخل في مجال الشعر الذي قيل أثناء القتال أو الاستعداد للقتال ، أو التهيؤ لقتال جديد للأخذ بالثأر .

وننتقل بعد ذلك إلى محاولات تصنيف هذا الشعر ، فترى الأستاذ الشبيب^(١) يرد هذا الشعر إلى أبواب أربعة :

- ١ - شعر يقال في تأييد القبيلة والتحقى بها وبكآء موتائها ووصف مرابعها ونحو ذلك عما هو تاريخ حياتها الخاصة .
- ٢ - شعر يقال في الثورة عليها والهجاء إذا قصرت في رعاية الفرد ، أو في الاحتفاظ بملكيتها وشرفها .
- ٣ - شعر هو فخر بالقبيلة وهجاء لأعدائها وتوعدهم بالويل والتبور ، ثم تأييد مكانة القبيلة عند الاحتكام أو للمقاومة .

٤ - شعر هو ثورة على النظام الاجتماعي كله ولا سيما ذلك النظام الاقتصادي الذي يكون في النفوس الغفيرة تروماً ، فكان منهم الصماليك .

وموضوعات الشعر الجماعي عامة والأبام خاصة عند البستاني^(٢) استأثرت بها المهمة القبلية ، أو على الأقل استأثرت بالأبواب الرئيسية في هذا الشعر وهي : الفخر والحماسة والمدح والرتاء والهجاء .

والأمر مختلف عند القدماء أيضاً فبعضهم يكثر في العدد مثل صنيع أبي تمام في الحماسة حيث قسمها إلى أبواب عدة ، وبعضهم ينتصب مثل لقمان بن جعفر^(٣) وأبى هلال العسكري^(٤)

وتقسيم الشعر إلى موضوعات أمر فاسد مرفوض عند بعض الباحثين^(٥) ، لأن الشاعر يتحدث من خلال الغرض . عن الجوهر ، ومن خلال للمدح والهجاء والرتاء عن مشكلات الإنسان التي يواجهها باستمرار على الرغم من اختلاف الزمن والثقافة . ويرى الدكتور مصطفى

(١) تاريخ الشعر السياسي - أحمد الشبيب ٣٧

(٢) الشعراء الفرسان - بطرس البستاني ١٢

(٣) نقد الشعر - لقمان بن جعفر ١٣٣

(٤) الصناعين لأبى هلال العسكري - طبعة أولى - مصر ١٣٢٠ ص ٩٩

(٥) دراسة الأدب العربي - مصطفى ناصف ١٣٢

ناصف أن الشعر وفقاً لفكرة الموضوعات التقليدية ضرب من الخلق أو جنس من التصوير ، وأن فكرة الموضوعات غير منبثقة من الشعر نفسه ، وإنما هي منبثقة من خارجه ، أو المجتمع الذي يتطلب الحماسة والمدح والإقتدار^(١) ، وحججه في ذلك أيضاً ، أن الفكرة لا تقوم على تميز حقيقي ، ويمكن ملاحظة ما فيها من تداخل أحياناً ، وهذا التداخل يعني أننا نقسم الشعر نفسياً سطحياً ولا نتعمق بحث مادته^(٢) ، وعلاصة رأيه : أنه على الباحث أن ينظر إلى الشعر على أنه وحدة واحدة وقد تختلف وجهة النظر ، ولكن ينبغي أن تبحث عن التيار الأساس الذي يربط الأشياء كثيرة^(٣) ، وعندما يتجملت عن حتم تحركة القصيدة من مقدماتها إلى آخرها يعطى قالباً ، وهكذا تبدو القصيدة مزقة ويبدو عقل الشاعر مفككاً ، ويصور العقل العربي في صورة ساذجة تخلص من الرطب والوحدة ، وينسجم هذا عند الباحثين مع قضايا أخرى سرقة عن سطحية العقل العربي في العصر الجاهلي . وهذه السطحية هي التي نجعل فيها يقولون - يقف عند ظواهر وعوالم حسية لا يتجولها في كثير ، ويروح التقليد ويستشهدون لقضاياهم من خلال معلومات خارجية عن البيئة . هذه المعلومات تؤكد عندهم فكرة التناول الحسي وتمزق جوانب التفكير والبساطة^(٤) ، ويرى هذا الباحث أخيراً أنه : من الممكن أن يدرس الشعر الجاهلي بمعزل عن فكرة الموضوعات التقليدية ، وبعبارة أخرى بمعزل عن فكرة الساذجة العقلية التي تملأها البيئة الخارجية على عقول الباحثين ، فالشاعر ليس مرآة يسه ، وعقل الشاعر ليس سليماً موقوفاً على تحليل عناصر خارجية ، والشاعر الجاهلي قد يبدو أروع وأصدق مما تصور لأول وهلة ، ولكن صعوبات كثيرة تقف دون جلاء هذا المستوى الخاص الذي نزعجه ، وقد نعتزفت بعض الصعوبات فيها يتعلق باللغة وبالأساطير والملاحم ، ولكن على الرغم من ذلك كله لا يزال أماننا الأمل بالقياً من أجل قراءة أثر عقلية أطيح وأوفى مما رسخ في أذهانتنا عن فكرة البداوة ولزبائطها ،^(٥)

وفي دراستنا لشعر الأيام سوف نسلك الطريقتين معاً ، نسلك الطريق الأول ، فكرة تقسيمه إلى موضوعات ليسهل تحديد معالنه وأثره التي غررك فيها ، ونسلك الطريق الثاني في محاولة ربط هذه الموضوعات بالفكر رئيسية لجمعها ، ونزيل عنها سطحياتها بجمعتي آخر لا بد أن نجد ربطاً بين هذه الأغراض ينطلق من وجدان الشاعر والفنية التي ينطق بلسانها . لا بد أن يجد الشاعر حافزاً ، ويجد القاري هذا الشعر تفسيراً لوجود أكثر من غرض في القصيدة

(١) نفس المرجع ٢٣٣

(٢) دراسة الأدب العربي - مصطفى ناصف ٢٣٣

(٣) نفس المرجع ٢٣٢

(٤) نفس المرجع ٢٣٢

(٥) دراسة الأدب العربي - مصطفى ناصف ٢٣٥

الوحدة ، لا بد ان نجد التعبير لم يحبا الشاعر ثم الفخر وما الدافع لذلك ؟ ولا بد ان نعرف لماذا يمدح الشاعر ثم ينتقل إلى الفخر بعد ذلك .

وبعبارة أخرى فإن الدراسات الحديثة للشعر القديم خاصة ، والجاهلي خاصة ، قد استقرت على وجود وحدة تنظم القصيدة ، ولكنهم حاروا بعد ذلك في تسميتها ، فسموها بعضهم الوحدة الموضوعية ، وسموها آخرون الوحدة النفسية ، وسموها فريق ثالث الوحدة الحزبية . ومنها اختلفت هذه التسميات فإن (الوحدة) تبقى قاسماً مشتركاً لها بينها ^(١) .

وموضوعات شعر الأيام التي سنتربسها كلها موضوعات ، في مضمونها العام ، تتصل بالقبيلة ، يتبادل فيها الشعر الفردي بل ويتعدى أسباطاً ، وإن وجد فهو لحقة القبيلة . ولا تعدو موضوعات شعر الأيام أن تكون كما يلي : شعر الفخر والحماسة ، حديث المصارك ، حديث الفروسة ، الرثاء ، التهديد والوعيد ، نداء الثأر ، المنصطات ، الرغبة في السلم ، للتيح ، الاعتذار ، لئال العلما والقيم الأخلاقية .

شعر الفخر والحماسة

لقد جرت عادة شعراء الحرب أنهم عندما يفتخرون لغناهم يضمنون معانيهم عبارات الحماسة ، لأنها مادتهم في حروبهم وإلا فبم يفتخر الفارس ؟ ولذلك يصبح الفخر والحماس شيئاً واحداً يتعذر فصلها ومن هنا أثرنا تناولها معاً كفرض واحد من أغراض شعر الأيام .

إن الشعر الجاهلي عامة ، وشعر الأيام خاصة ، لو شئت إسقاطاً ما فيه من شعر الفخر والحماسة ، وروح الفخر والحماسة لما تخلص إلينا منه سوى التزو اليسير ، الذي لا يصور لنا شيئاً من حياة العرب قبل الإسلام ، لأن الحياة الجاهلية كانت تفرض على أبنائها تقليد البطولة ، لما هم عليه من التنافس والحروب المستمرة والتحرك المستمر وقد ولد الفقر وجذب الأرض حياء مستمراً ونزاعاً بين القبائل ، وفتش هذا باب التنافس القبلي والمفاخرة بالانكسارات ، والتهابي بالانكسارات ، وبكاء الإبطال القتل في ساحة الرعى .

وقد كان فرسان الجاهلية يترغون بأشعار حماسة ينظمونها وهم على ظهور جيادهم في ساحة الكر والفِر ، ويقولونها وهم يسعدون ومأجهم إلى نحو الأعداء غير عابئين بالموت ، فلما حلة كريمة وإما الموت تحت ظلال الرماح في حزة وشرف .

(١) انظر طه حسين - حديث الأرياء ، محمد النويهي - الشعر الجاهلي ، منهج في دراسة وتاريخه ، نوري حمودي القيسي - الوحدة الموضوعية في القصيدة الجاهلية ، مصطفى الحافظ - قراءة ثانية لشعرنا القديم وغيرهم .

وقد عرف العصر الجاهلي التمجيد للفخر : فخر قبل وهو الأعم والأكثر انتشاراً في شعر الأيام ، وفخر فردي شخصي نجد منه البيت أو البيتين يتخذ إليهما الشاعر من خلال فخره بشجاعة قومه وكفائاتهم في ميدان القتال ، أو ربما وجدناه عند شاعر فارس طريد تخلت عنه قبيلته .

والفخر والهجاء شديد الاتصال بالعصية والروح القتيلة ، فالقصر صدى احتزاز القبيلة بنفسها وإيمانها بجنتها وفضلها على سائر القبائل حسباً ونسباً وبطولة ومروءة وكروماً ، كما أن الهجاء هو صدى شعور العداة الذي تكنه القبائل المختلفة بعضها لبعض .

والقصر ظاهرة طبيعية بين الجاهليين انقضت حيلة القبائل التحذرية ، والأفراد المتناحسين . بل هو ظاهرة اجتماعية عامة يحاول كل أن يثبت امتيازَه وتفوقه على غيره إشباعاً لشهوة العزة وإرضاء لحب التسمي والشرف .

ولم تعرف النزعة الفردية المطلقة التي تصور احتزاز الشاعر بشخصه وشعوره باستقلال شخصيته عن شخصية جماعته ويستغنى عنها في شعر الأيام ، وحينما ينزع الشاعر إلى الفخر بنفسه ، فإن فخره في الغالب يكون صدى عصبيته إذ هو يفخر ببلوذه عن حياض قومه ومناخته عنهم وولائه لهم .

ودواعي الفخر في شعر الأيام كثيرة نعل أبرزها نشوة النصر وبما تحلته من غيلاء وزهو في نفس الشاعر ، وإحساس بالعزة والقوة والمكانة الرفيعة التي تحتلها قبيلة بين القبائل ، في عصر لا يقدس إلا القوة ولا يعترف إلا بها . كما أن ثورة الغضب ربما أدت إلى الفخر كما حدث مع الشاعر عمرو بن كلثوم حينما استغزه عمرو بن هند . فقال معلقته الشهيرة . وربما كان داعي الفخر الرغبة في ذكر الأجداد المحربة وهذا ما كان يحدث بعد انتهاء المعارك بزمان ، ويشود إليه المفاخرة ، فينزع الشاعر إلى أجداده وأجداد قبيلة الحربية يفخر به ، وربما لجأ إلى هذا عندما يحس منزلة قومه بدأت تتضاءل فيهب مذكراً بأجداده الماضية .

وكان الشاعر عندما يفخر فإنه يفخر بالمعارك وببطولات قومه ، ولذلك نرى أن الشعر الحماسي الذي يعتبر المادة الأساسية للفخر في شعر الأيام ، استغنى معظم الشعر ، شعر الأيام ، وشغل حيزاً كبيراً منه ، لامتلاء تاريخ القبيلة بالكفاح البطولي الشاق ضد قوى متعددة تحاول حرمانها من الحياة وسلبها حريتها وهزتها . ولعل في تسمية أقدم المختارات في الشعر العربي بالحماسة أكبر دليل على الاهتمام بهذا النوع من الشعر ، ولأن باب الحماسة كان أغزر الأبواب مائدة ، وهو باب التعبير عن ضروب الشجاعة المختلفة .

ومستحلول الآن ، وبعد هذا التعريف بهذا اللون من شعر الأيام ، أن تعرض لمعاني الفخر

والحماسة عندهم ، لعلنا نستطيع رسم صورة قريبة من واقع عيشه العرب رويداً من الزمن .

والصورة الأولى التي تطالعنا في شعر الأيام هي لغير الشاعر بشجاعة قومه وشدة بأسهم في الحروب ، وهذا اللون كثير في شعر الأيام ، فهذا ربعة بن مقرّم الضبي يذكر أيام قومه ، ويفتخر بقومه ، ويشجاعتهم فهم بنو الحرب يخلفوا لها ، إذا لبسوا الدروع حسبتهم قروماً ، وأنهم أقاموا بغير يخلف غيرهم الإثامة به ، ولم يخافون السيوف والرماح معاقبتهم ، ولحقتهم الخيول الجرد التي تكرر في ساحة الوغى مسرعة لا تبالى ، كما أنها لا تبرح ساحة الوغى ، ولم تعود الشكوى ولو يترج بها الأمم :

بنو الحرب يوماً إذا استلأموا حَيَّتَهُمْ في الحديد القروما
فدى يزراعة أهل لهم إذا ملأوا بالجسور الحزوما
إلى أن يقول :

ونفى عوفو أفتنا به صاب يد غيرنا أن ينجيا
جعلنا السيوف به والرماح معاقلنا والحديد النطيا
وجرداً يقرن دون العيال خلال البيوت يكتن الشكيا
تعود في الحرب أن لا يراج إذا كلست لا تشكى الكلوما^{١١}

وهذا فارس آخر يكرر نفس الصورة في بيتين فيقول يوم رخرحان :

ومعى أسود من حنيفة في الوغى للبيض فوق رؤوسهم تسويم
قوم إذا لبسوا الحديد كأنهم في البيض والحلق الدلاص تجوم^{١٢}

وتزيد بن الصمّ يدعو قومه لقتال الأعداء فيجيبه منهم الشبان والشباب ، يحثونه مليون على جرد

(١) الفضيلة رقم ٢٨ ربعة بن مقرّم الضبي : استلأنا : لبسوا للأمة ، السلاح ، القروم : فحول الأبل ، الحزوم : الصلب من الأرض ، يزراعة : موضع النحر : موضع الخلفة ، النطيم : المنحدر ، الجرد : الخيل القصيرة الشعر ، يقرن دون العيال : يقرن بالأكرام . يكتن : يمسح . الشكيم : اسنان النعام ، كلست : جرحت

(٢) كتابه بن مسلم الخطي حماسة أبي تمام ٢ / ٢٧٠ : حنيفة : من بني بكر ، الوغى : الحرب ، البيض : جميع بيضه وهي الخوذة ، تسويم : علامة وتغيير ، الحلق : الدروع ، الدلاص : اللبنة اللساء

كالمعالي ، ولا ياتيه الفرسان فحسب بل ياتيه الراجلة أيضاً ، ولا يجتئون ولكنهم يأتون شجعاناً
غير أبيين بالموت .

دَعَوْتُ الْحَسِيَّ نَصْرًا فَاسْتَهَلُّوا بِشَبَابٍ ذَوِي كَرَمٍ وَحَيْبٍ
عَلَى جُرْدٍ كَأَمْشَالِ السَّعَالِ وَرَجُلٍ يَمْلِكُ أَعْمِيَّةَ الْكَتِيبِ
فَمَا جِئُوا وَلَكِنَّا نَصَبْنَا صُدُورَ الشَّرْحَةِ لِلْقُلُوبِ (١)

وطرفة بن العبد البكري الشاعر الذي عُرف ببلاتية مفرطة ما هو يتنقح ببطولة قومه يوم قبضة ،
تخلق اللثم فيقول طلباً منهم أن يسألوا الذين عرفوهم وعرفوا شجاعتهم في هذا اليوم :

سَأَلُوا عَنَّا الَّذِي يَعْرِفُنَا بِقِيَانَا يَوْمَ تَخْلَقُ اللَّثَمُ
يَوْمَ تَبْدِي الْبَيْضُ عَنْ أَسْوَحِهَا وَتَلْفُ الْحَيْلُ أَعْرَاجَ النَّعَمِ
وَنُكِرَ الْحَيْلُ فِي أَذْيَارِهَا يَوْمَ لَا يَمُطُّ إِلَّا ذُو كَرَمٍ
أَجْدَرُ النَّاسِ بِرَأْسِ صُلْدَمٍ حَازِمُ الْأَمْرِ شَجَاعٌ فِي الْوُثَمِ

إلى أن يقول :

غَيْرُ حَيٍّ مِنْ مَعْدُ عَلِمُوا الْكَفْسُ وَالْجَارُ وَابْنُ عَمٍّ (٢)

وشعر هذا اللون من الفخر القبلي أكثر من أن يحصى .

وفتخر الشاعر قومه بأنهم يلبون نداء التجدة دونما إعطاء ودون أن يسألوا مَنْ دعاهم
وعمل من استصرهم ، وغير من غير عن هذا المعنى وذلك المألوف حين قال :

إِذَا اسْتَجَبَدُوا لِمَنْ سَأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لَا يُؤَيِّرُ حَرْبٍ أَمْ لَا يَمُكِّنُ (٣)

وهذا شاعر يفصل في جزئيات الصورة فيعرض لنا حال الذين استصرعوا قومه ليعين فضل
قومه ، ويرون حال أولئك من الضيق والشدقة ، وقد عبر عن هذا بكلامه بن جندب التميمي يوم
جشود عندما أتاهاهم صريخ الزباب .

(١) الأغانى / كتاب ١٠ / ٢٧

(٢) ديوان طرفة - أميل على الجندى ١٢٢ - ١٢٣

(٣) العقد الفريد ٥ / ٢٠١

غداةً أنا صرَّحُ الرِّبابِ ولم يكُ يَصْلُحُ عِزْلًا
صرَّحُ لُصْبَةً يَوْمَ الْهَدَلِ وَصِبَةً تَرْفُ نِسْوَانًا
تَدَارِكُهُمْ وَالضُّحَى غَدَاةً عَنَانِيْدُ تُشْعَلُ أَصْطَانًا
بَأْسَرٍ مِنَ الْغُورِ غَلَبَ الرُّقَابِ مَصَالِيْتُ لَمْ يَنْشُرْ إِدْهَانًا^(١)

وكانت قمة القصر عندهم أن تكون لعشيرته رئاسة القبائل في الحروب إذا دعا داعي الحرب ، فهي قمة الشرف عندهم ، أن تعرف له القبائل بالرئاسة ، فسهلهم يخاطب ابن عَنَن الحَيَّة متحدثاً عن يوم السَّلاَن مقتطراً برئاسة القبائل يوم السَّلاَن غد غُمان :

يَوْمَ لَنَا كَانَتْ رِثَاةٌ أَعْلَى دُونَ الْقِبَائِلِ مِنْ بَنِي عَدْنَانَ
خَضِبْتُ مَعْدُ فَتَهَا وَسَيِّئَهَا فِيهِ مُمَالَاةٌ عَلَى غُمانِ
فَأَرَاهُمْ عَنَا كَلِيبٌ يَطْمَعُو فِي عَسْرِ بَابِلَ فِي بَنِي قَحْطَانَ^(٢)

وقيل أن مجتهد القتال وتعلو الرماح ، لا بد من نقطة حكيمة يضعها أحد المشهورين بالحزم والتدبير لتحقيق النصر للقبيلة في صراعها ، وكان هذا مجال فخر لدى الطبقة الجُمُعِيَّة ، الطيِّب المتخير بالحكمة الحكيمة لرجل من قومه يوم جَلَّة ، فقد أشار عمرو بن عبد الله بن جعدة على عيس وعامر بأن يضعوا النساء داخل الشَّعْب ثم للقائلين ثم النعم ...

وَنَحْنُ حَيَّنَا الْحَيَّ عَيْسًا وَعَامِرًا لِحَسَنٍ وَابْنِ الْجَسُونِ إِذْ قِيلَ أَقْبِلَا
وَقَدْ صَبَّغَتْ وَالَّذِي يَحَارُ نِسَاؤُهُمْ كَأَصْصَانٍ نَسْرٍ لَا يَرُومُونَ مَنَازِلَا
عَطَفْنَا لَهمْ عَطَفَ الضُّرُوسِ فَصَادَفُوا مِنَ الْمُضْطَبَّةِ الْحَقَرَاءَ عِزًّا وَمَعْقِلًا^(٣)

وعندما يتحدث الشاعر عن المعركة ، فإن الصور تتلاحق كثيرة ومختلفة منها اللوجزة كالومضة ، ومنها السهبة التي لا تترك جزئية إلا ذكرتها . ولكننا سنرجى هذا حتى نتحدث عن حديث المعارك .

(١) التناقص ١/ ١٤٨ : الرِّباب : مجموعة القبائل : غيبة وتقيم وعدي وهكل . ترفل نِسْوَانًا : تجعلها علفها . عَنَانِيْدُ : جمع عَنَانِيْدُ ، الطويل الضخم من الخيل ، أَصْطَانًا : جمع عَطَن وهو ميرك الإبل . الْغُورُ : سعد بن زيد مناة ، طلب الرِّقَاب : خلالها (الواحد أَغْلَب) ، مَصَالِيْتُ : الصلت البرز والاملس : ادعائها : عُدَّاعِهَا وُجْهَهَا .

(٢) البحار الزاخرة ٢٩٧

(٣) الأغاني / كتب ١٦/ ١٣٦

وعندما تتجلى المعارك ، وتنتهي بجزية فريق وانتصار الفريق الآخر ، يشرع الشاعر للتصريح
بصور نتائج المعركة بجميع تفاصيلها لا يترك شيئاً إلا التحضر به وذكره في شعره . فهو يسجل
قتلهم لسيد القوم وتركه صريعاً تأكل لحمه السباع ، تستمتع إلى ربيعة بن مقروم الضبي بقول
يوم اغنم :

وَعَاذَرْنَا قَرِيْبَهُمْ صَرِيْعاً عَوَالِدُهُ سِيَاغَ يَعْنِيْنَا^(١)

وهذا شاعر آخر يصور نفس المشهد ، وهو عامر بن الطفيل فيقول يوم الغار :

لَمَّا رَأَيْتُ رَيْبَهُمْ فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّبَاعِ كَأَنَّهُ هَدًى
وَتَوَى رِيْبَةً فِي الْمَكَرِّ مَجْدَلًا فَعَلَا الشَّوْبِيُّ بِمَا جَدَا الْجَدُّ^(٢)

وعبد بن الأبرص يفخر بأن قومه قتلوا كثيراً من الرؤساء ، وتركوهم جثثاً تنهش لحمتها السباع :

كَمْ مِنْ رَيْبٍ قَدْ قَتَلْنَاهُ	وَضَمِيمٌ قَدْ أَتَيْنَا
وَلَرَبُّ سَيْرٍ مَعْشَرٍ	ضَخْمٌ الدَّمِيعَةُ قَدْ رَمَيْنَا
عَقْبَانُهُ بِظِلَالٍ عَقْبَانٍ	تَبِعْمُ مَنْ قُوَيْنَا
حَسَى تَرَكْنَا خِلْوَةً	جَزَرَ السَّبَاعِ وَقَدْ مَضَيْنَا ^(٣)

وعندما يذكر بعض الشعراء قتل هذا السيد ، لا ينسى أن يذكر بكاء نسوة عليه وتقجيعه
عليه ، يقول عامر بن الطفيل :

يَا رَبُّ قُرْبٍ قَدْ تَرَكْتُ مَجْدَلًا ضَخْمٌ الدَّمِيعَةُ وَأَمْرٌ حَيٌّ جَحْفَلٌ
وَتَرَكْتُ نِسْوَتَهُ لَمَنْ تَطْجَعُ يَتْلُبْنَهُ أَصْلًا يَنْزِعُ مَعْوِلٌ^(٤)

والشاعر الجاهلي كان يقصر حوماً يقتل اللقائين فقط وترك غيرهم . لأن من الغار عليه قتل غير
اللقائين ، لا مجال للتضرع بذلك ، فحرص على رصد ذلك في شعره ، وقد سجل ذلك عمرو بن

(١) القاتن ١٩٦١ : قريتهم سيدهم ، عوائله : زواره ، يحطين : يزورنه طلباً للحصه

(٢) حيوان عامر بن الطفيل ٤٣ جزر السباع : لحم لحم يزورنه ، اللهد : القوم ، أي أنه انتلخ ، توى :
أقام ولم يرج ، للمكر : مولى القتال ، جدا : كسب ، الجد : الخط

(٣) ديوان عبد ١٣٨ : الضميم : الضخم . الدميعة : العطية الجزيلة ، الدامة الكبيرة . العقبان :
الرايات ، تبعم : تقصد ، الشلو : العطر من الجسم ، جزر السباع : قطعاً تأكلها السباع .

(٤) ديوان عامر بن الطفيل ٩٢ : قرن : مثله في الشجاعة ، رأس الهي : سيده ، الجحفل : الضخم
المنزول . أصلاً : مفرداً أصلياً ، الوقت بين العصر والمغرب

معد يكرب الزبيدي يوم كيف الريح :

فلم تقتل شرارهم ولكن قتلنا الصالحين ذوي السلاح
قتلنا مطعم الأضياف منهم وأصحاب الكربة والصباح
فأنتكنا الحليلة من بينها وعزلنا الحريدة للكباح^(١)

وفي يوم الكلاب الثاني جعل قيس بن حاصم يقول لتميم :

لما تولوا عصاً شوازبا ألفت لا طعن إلا وإكبا
إني وجدت الطعن فيهم صائبا^(٢)

وعندما يؤرم الأعداء شر هزيمة ، ويتمكن الفريق المنتصر من قتلهم من بلادهم ترى الشاعر يفتخر بذلك مسجلاً هذا في شعره ، فهو يمثل ذروة الانتصار على الأعداء ، وهذا عامر ابن الطفيل يفتخر بأنه وقومه أكثرنا من هزيمة مدحج ونفيها عن بلادها وفرقوا فرسانها يوم كيف الريح :

ونحن نقينا مدحجاً من بلادها نقتل حتى عاد فلأ شديدها
فلما فرقنا بالمصاصر منهم ففرروا وأخرى قد أيررت جدودها^(٣)

ونتيجة لهزيمة الأعداء لا بد من إرغامهم على طبع الأثوية ، إيماناً في إذلالهم واعترافاً منهم بالهزيمة ، وابتصار الأعداء عليهم .

فإن لا يزهق الحدثنان نفسي يؤدوا الخرج في حاماً فعاما
يؤدوه على زلم صغاراً ويعطونا القفلة والزماما^(٤)

وبهزيمة القوم ومقتل سيدهم ، وثبتت مقاتلتهم ولورهم ، تبلى النساء فراسة سهلة يسيهين الفريق المنتصر ، ففي سيهين إذلال لقومهن وجلب العار لهم لما كان للمرأة من مكانة في

(١) (١) نيل الامالي ١٤٢ : أصحاب الكربة : اللقفلون . الحليلة : الزوجة الحريدة القذ بكر ، والحريدة : اللؤلؤ لم تلب .

(٢) (٢) المقاتل ٥٢/١ : عصاً : جمع عصة وهي الجماعة ، شوازبا : ضاربة .

(٣) (٣) ديوان عامر بن الطفيل ٤٦ : مدحج : بطن من اليمن . فلأ : منهم . المصاصر : فرس ، أيررت : أهلك

(٤) (٤) ديوان عامر بن الطفيل ١١٥ : يرمق : يمحط ، الحدثنان : اللوت ، الخراج : الخراج . الصنار : الدل ، القفلة : القفلة .

نفس العربي الجليلي ، يقول عبيد بن الأبرص مفتخراً :

وأوتسِرَ مثلَ الدَّمَى حُورِ العُيُونِ قَدْ اسْتَبَيَّتَا^(١)

وهذا امرؤ القيس يقول لشهاب بن شداد بن ثعلبة ولعاصم بن عبيد بن ثعلبة :

إِنَّا تَرَكْنَا مِنْكُمْ قَتْلَ بِخَوٍّ عَصَى وَصِيًّا كَالسَّمَاءِ
بِمَشِينِ حَوْلِ وَحَالِنَا مُعْتَرِفَاتٍ بِجُوعٍ وَهَزَلٍ^(٢)

ويزعم مشهور بن يزيد الحارثي أنه أخذ امرأة عامر بن الطفيل سبية يوم قبض الريح ويصور ما آلت إليه من ذل ومهانة في السبي :

وَكُنَّا إِذَا قَبِيَّةٌ ذَهَبَتْ بِنَا جَرَى دَمْعُهَا مِنْ عَيْنَيْهَا فَتَحَدَّثُوا
غَالَةً مَا لَاقَتْ حَلِيلَةَ عَامِرٍ مِنَ الشَّرَائِدِ سَرِيحًا قَدْ تَغَفَّرَا^(٣)

وربما في إطلاق الأعداء يصح الشاعر كما سيقبل هو ولقومه بالخرائد السبايا فيقول عمرو بن معد يكرب يوم قبض الريح :

فَاتَكَلْنَا الْحَلِيلَةَ مِنْ بَيْنِهَا وَخَلَّيْنَا الْحَرِيدَةَ لِلتَّكَاخِ^(٤)

ويصور عامر بن الطفيل مشهد السبايا وهن مردقات ، وراء القوم المتصرين يوم شجبت جبلة وجلسا بالنساء مردقات وأذوان فكن لنا طعاما^(٥)

وقد أسهب عمرو بن الرود العبسي في رسم الصورة لأولئك النسوة بعد السبي

رَحَلْنَا مِنْ أَجْبَالٍ ، أَجْبَالٌ طَرِيٍّ نَسَوْنَ النِّسَاءَ عَوْنَهَا وَعَمَلَهَا

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣٨ : لواس : جمع نسوة ، الطيبة الخديجة ، الدمي : الصور مفتوحة للزينة فيها حمة الدم ، حور العيون : شديدة البياض مع شدة السواد . استبينا : أسرنا .

(٢) ديوان امرؤ القيس - طبعة دار المعارف . ٢٦ : جوع : مواسع ، السعالي : الغيلان مفردة معالة .

(٣) العقد الفرید ٥ / ١٣٦ : قبيصة : امرأة من قيس ، ذهبت : أصيبت ، سريحا : توجها

(٤) قبل الأمالي ١٤٧

(٥) ديوان عامر بن الطفيل ١١١ : مردقات : مراكبات خللتها ، الذود : الطليح من الأبل بين الثلاث إلى العشر

ترى كلُّ بغياء العوارض حَفَلَةً تُسَوِّي إذا شأَن السَّيِّئِ حِدَارَهَا
وقد علمتُ أنَّ لا انفصافَ لرحلتها إذا تركتُ، من آخر الليل ، دارَهَا^١

ولا ينسى شاعر القبيلة ، وهو الخريص على إعلاء شأن قبيلته ، والخط من شأن غصومها أن
يفتخر بأن قومه أجبروا الخصم على الحرب وتسليم زوجته للسي ، وهذا علم بين الطفيل يصور
ذلك يوم ثوبت حِفْلَةً :

وأفَلَتْنَا على الحِوَمَانِ قَيْسُ وأسلمَ حِمْرُهِ ثم استقامَا
ولو آتَى حِلْيَتَهُ أَفَلَأَقَى هنالك من أسْرِيْنَا حِلْمَا^٢

وبلغ الحقد والتشفي والفك بالتهزم أن افتخر شاعرهم بفر بطون الجبال ، إسماعاً في قتل الأجمة
حيث لا يعودوا في المستقبل إلى محاربتهم :

بقرنا الحَبَائِي من شَتْوَةٍ بَعْدَمَا عَيَّبْنَا بِقَيْمِ الرِّيحِ نَهْدَا وَجَنَّمَا
مُجَبَّةٌ قد لاحها الغُرُؤُ بَعْدَمَا تُبَارِي مَرَاغِيهَا الوُشَيْجُ المَقُومَا
ونحن صَبَحْنَا حِي نَجْرَانُ غُلْرَةً ثَبِيلُ حَبَالَاهَا عَفَلَتْنَا دَمَا^٣

وحى القبيلة كالوطن ، مقدس في نظر أبناء القبيلة ، عليهم ألا يدهوا أحداً غيرهم بدمه أو
بدمه ، والقبيلة المنيعة هي التي تحمي حلمها ، ولكن ذلك لم يكن يمنعها من استباحة حى
غيرها ، فهذا حقها ما دامت قوية منيعة ، فحى القبيلة حرام على غير أبنائها ، ولكن حى غيرها
مباح لها ، وهذا شريح بن الحارث البرمعي يفخر بذلك يوم طِبَحْلَةً :

(١) ديوان عمرو بن الورد ٨٦ : حَفَلَةً وعشارها : هذا مثل ، وهما في الأهل ، الواحد عائل وعسى
الحفيدة المنج ، والعشار التي تربت أن تضع وأراد أن من النساء حوامل ومنهن
مراضع ، العوارض : الأسنان الطواحيك . الطفلة : أئنة الرطبة . لقرى : لشق صدرها ،
السَّيِّئ : القبيح ، شاك : ارتفع ، العصار : شيء تلبسه المرأة على صدرها ، إذا تركت من آخر
الليل دارها : كأنها سبت في الليل من آخر ، ليس لها رجوع . ولقد تركت لأن الغارة إنما تكون في
وجه الصبح

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ١١١ - ١١٢ : الحِوَمَان : في طريق القهارة من البصرة ، العرس : المرأة .
استقام : أفلت ، آتَى : قاتل عنها . حِلْم : موت .

(٣) ديوان عامر بن الطفيل ١١٨ : نهد ونحلم : حيان من اليمن ، عيبتنا : ضربنا ضرباً شديداً ،
لاحها : غيرها ، المرابي : جمع مرابح وهي الناقة السريعة تشاطأ ، استمارها للمضيول ، الوشيج :
شجر الرماح ، نجران : موضع باليمن ، ثبيل : تجعلها يقول من الحلف دما

حيانا حينئذ الأسد التي لشبولها
وكتنا إذا قوم رمتنا صفائهم
ونرعى حينئذ الأقوام غير محرم
علينا ولا يرعى حيانا الذي نحصى^(١)

وعمر غيد بن الأبرص عن قات المعنى فقال :

ولقد أبحثنا ما حيث ولا مبيح لنا حينئذ^(٢)

وكان العرب في أيامهم يحرمون على أسرى القوم لما في ذلك من هزيمة معنوية لحصونهم
وفخرهم ، ولما في ذلك من كسب عاني يحققونه بالندية التي يلتذونها . ولقد اختار شعراؤهم
بذلك ، وكان يثير حماسهم أسرى القوم وأبنائهم ، فهو قمة النصر عندهم ، قال عمرو بن كلثوم
عن يوم خزاز :

فأبوا بالهباب وبالشباب وأبنا باللوثر مصفدين^(٣)

واختار قرة بن قيس بن عاصم يوم الشجاع بأسر حران وجشامة الذئلي فارسي بكر فقال :

وحمران أفتنه إلهنا رماحنا فنسارع غللاً من ذواعيه أسعرا

وجشامة الذئلي قدنله عتوة إلى الحلي مصفود اليدين مفعرا^(٤)

وكان القوم للتصرون إذا ما أسروا أنعموا على الأسرى من غير الرضاء . وعلى أولئك
النعيم عليهم أن يعترفوا بالفضل والنعيم ، ولكن بعضهم لم يكن يفعل ، وكان هذا بشر
الشاعر القليل . هذا محمد بن الكعبر الضبي يفخر بأنهم أنعموا على سبعين من بني شيان يوم ثقا
الحسن ، يوم قتل إسحاق بن قيس وغرمت بنو شيان :

أطلببت من شيان سبعين راجيا فأبوا جميعاً كلهم ليس يشكر

إذا كنت في أنعام شيان متعياً فجزّ اللحنى إن النواصي تكفر

فلا شكرهم أبغي إذا كنت متعياً ولا وثقهم في آخر الدهر أخير^(٥)

(١) التفتازي ٦٩/١ : الأقران : مفردا قرن . الليل في الشجاعة . الصفلة : الحجر العريض
الأمس ، قلت صفلة : طبعفت

(٢) ديوان حيد بن الأبرص ١٣٥

(٣) الكندي لابن الأثير ٥٢٢/١ : شرح القصائد السبع الطوال ٤١٢ : الصفد : الغل وجمعه أصفاد

(٤) الكندي لابن الأثير ٦٥١/١ : العقد الفريد ١٨٧/٥ : أدته : توصلته إلهنا ، نازع غللاً : أصبح
أسيراً ، أسعر : فرسراً ، مصفود : مواتر ، عتوة : قسراً .

(٥) العقد الفريد ٢٠٤/٥

وحل الرغام من أن قسماً كبيراً من الأيام كان دافعها الغزو من أجل السلب ، إلا أننا نجد شعراءهم يقولون رغبهم في النهب والأسرى ، ولم يوجب إلا في كسر شوكة القوم ، يقول الخنات ابن ظالم المرّي عند فتحه بطالد بن جعفر :

وإني يوم غميرة غير فخر
تركْتُ النُّهْبَ والأسرى الرُّغاباً^(١)

وعبر عترة عن نفس المعنى فقال :

يُفْرِسُكَ مِنْ شَهْدِ الْوَكَيْعَةِ أَنَّنِي
أَهْشَى الْوَهْشَ وَأَعْفُ عِنْدَ الْمُغْنَمِ^(٢)

وقال عمرو بن كلثوم التغلبي :

فَأَبَا بِالْهَبَابِ وَبِالسَّابَا
وَأَبَا بِالْمَلُوكِ مُصْغَرِيَةً^(٣)

والعربي كان يدرك أن الفخر إن لم تستد الأفعال ، فلن يكون للكلام أي مقبول أو اثر ، لذلك نرى شاعر القبيلة يوضح هذه الحقيقة ، ويفرق بين فخر بالكلام وفخر بالأفعال ، يقول الأعشى يوم ذي قار ، جيباً أبا كلمة عندما افتخر هذا :

أَبْلَغُ أَبَا كَلْبَةَ التَّيْمِيِّ مَالِكَةً
فَأَلَسْتُ مِنْ مَعَشَرٍ وَافِرٍ أَشْرَارٍ
شِيَانٌ تَذْفَعُ عَنْكَ الْحَرْبُ أَوْثَةً
وَأَلَسْتُ تَبِيعُ تَبِيعَ الْكَلْبِ فِي الْغَارِ^(٤)

وفي نشوة الانتصار وقمة الفخر والزهر ، لا يسي الشاعر حقوق قرابة الدم التي تربطه بالقبيلة الأخرى التي هزمها ، إن كانت هناك صلة قرابة ، فيذكر أنه لولا هذه القرابة لأمن في التتكيل بهم ، ولكن للمشيئة حقوقاً ، ولتستع إلى صخر بن سُلَيْمَانَ الْيَافِي يقول للأوس يوم الربيع عندما خفروا بهم حتى حصروهم :

أَلَا أَبْلَغُ عَنِّي سَوْدَةُ بْنُ حَمَامٍ
وَرَقِطُ سَوْدَةٍ بَلْعَا وَابْنِ الْأَسَلِ
بَأَنَا قَتَلْنَا بِالرُّبَيْعِ مَرَاتِكُمْ
وَأَقْلَسْتُ بِمَجْرُوحاً بِهِ كُلِّ مَقْلٍ
فَلَوْلَا حَقُوقُ فِي الْعَشِيرَةِ إِنِّي
أَدْلَسْتُ بِحَقٍّ وَاجِبٍ إِنْ أَدْلَسْتُ
لِنَاقِمٍ مِنَّا كَمَا كَانَ نَاقِمٌ
مَقَاتِبُ غِيَلٍ أَعْلَسْتُ حِينَ حَلَّتْ^(٥)

(١) القصيدة رقم ٨٩ : غمرة : جبل كان به يوم ، الرغاب : الكثيرة جمع رغب

(٢) شرح القصائد السبع الطول ٣٤٤

(٣) الكامل لابن الأثير ١/ ٢٢٢

(٤) الألفاظ / مادة ٢٣ / ٢٣٧ : أبو كلمة : أحد بني قيس بن ثعلبة ، ماله : رسالة

(٥) الكامل لابن الأثير ١/ ٦٧٣ : ابن الأسلت : قيس بن الأسلت ، الربيع : يوم من أيامهم ، مراتكم : ساداتكم ، أدلت : فرضت ، أوجبت .

وكان العربي يعتز بنسبه ويعتز بعشيرته ، ولا يرضى أن يعلو عليه نسب ، وكان يحلوه الانتظار بهذا النسب وهو على ظهر فرسه وسيفه في يده ، كما يحلوه الانتظار في لوقات السلم في المواسم والأسواق ، ولم يكن ليرضى أن يلحق بنسبه مهانة أو يثراً منه لو ينكره في أكثر اللحظات حرجاً . ففي يوم أول مرة الثاني عندما فلتك عمرو بن هند بني قهم وجيء بالعمراء بنت ضمرة بن جابر ، وسألها : إني لأظنك أعجمية ، فقالت بحجة :

إني لبنتُ ضُمرةَ بنِ جابرٍ سادَ مَعْنًا كَبراً عن كابرٍ
إني لأعْتُ ضُمرةَ بنِ ضُمرةٍ إذا البلادُ لُقِمتُ بِجُمرةٍ^(١)

والفخر بالنسب يكون أقوى لو ذكر الشاعر نقرأ من قومه قاسوا بأعمال جليلة للقبيلة كان يكونوا قتلوا رؤساء من قبيلة أخرى لو كان الفضل لهم في النصر وإلحاق الغزوة بالأعداء ، يقول سحيم ابن وكيل قرطبي مقتطراً بقومه يوم رأس العين :

أليسَ الأكرمون بنو رباح كُنُوسِي منهم عَمِي وخالي
هَمْ قَتَلُوا الْمُجَبَّةَ وابْنَ قَهمٍ تَسُوخُ عليها سود الليلي
وهم قَتَلُوا عَمِيَّ بني فِرَاسٍ برأسِ العينِ في الحجِجِ الخوالي
وذَنُوا يومَ طَخِفةَ عن حِيَاهُم ذِيادَ غُرَابِ الأملِ الثَّهَالِ^(٢)

وقرة بن قيس بن عاصم المختار بأبيه لأن أباه كان قد شق المزداء لجبر فرسان قومه على القتال والنصر ولا ماتوا عطشاً قتال قرّة :

أنا ابنُ السَّيِّ شَقَّ المَزْداءَ وقد رَأَى يَشْتَلُ أحياءَ المهَازِمِ حَضراً
وصَبَّحَهُمْ بالجيشِ قيسُ بنَ عاصِمٍ فلم يجدوا إلا الأُسنةَ مُصَدِّراً^(٣)

وهذا شريح بن الحارث اليربوعي يقطر بكاء يربوع أولي الشرف الضخم الذين يتسبون إلى فرع عالي الشرف والهمة ، كما أنهم ملكوا أملاك النخاسة وأرغموا للناصرة على الاعتراف بفضالهم وجعل الرداقة فيهم :

(١) الأغاني / ثلاثة ١٩٢/٢٢ : ضمرة بن ضمرة : أحد الحكام الجاهليين من بني هاشم ، لقبت بجُمرة : أصابها عطش عظيم .

(٢) العنقد القريد ١٩٢/٥

(٣) الأغاني / طكتب ٨١ / ١٤ : المزداء : جمع مزادة ، وهي وعاء يجعل فيه الماء في السفر ، ثقل : مكان لهم فيه يوم ، المهازم : المهازم : بنو قيس بن ثعلبة ومزنا وعجل وثيم اللات ، صبحهم : تاجلهم صباها ، مصدرا : ما يصدر عنه .

وكنْتُ إذا ما بابُ ملكك قرعته قرعْتُ باباً أولَ شرقهِ ضخم
باباً يرمو وكان أبوهُم إلى الشرقِ الأعلى باباً يثنى
هم ملكوا أملاك آل عرقير وزادوا بها قابوسَ رغباً حل رغبهم
حلا جنحهم جدُ الملوكة فاطمغوا بطخفة أبناء الملوكة على الحكم

وعلم الشاعر الفارس ، وهو يفخر ويذكر بطولات قومه ، وانتصاراتهم أن يفخر
بالفضائل التي يمتاز بها قومه ، ولتكون صورهم أكمل ، فهم فرسان شجعان ، كما أنهم يتحلون
بالفضائل التي تعارف عليها المجتمع الجاهلي :

ومن هذه الفضائل الكرم وإتلاف المال لحفظ العرض من الذم ، يقول الأعشى معبراً عن
ذلك يوم نواراة :

إذا رَوَّحَ الراعي الفصاح مُعْجِلاً وأُنْسِتْ على آفاقها غَبْرانها
أعنا لها أموالنا عندَ حقها وعزَّتْ بها أعراسنا لا نُقَالها

والكرم أجلى في وقت الشدة عند ما تبخل السماء بالداء ، ويحف الزرع والضرع عندها
يصبح الكرم مفخرة ، يقول عامر بن الطفيل معبراً عن هذا المعنى يوم فكَّ الريح :

إذا سَنَ عزَّتْ وطالَ طوائها وأحْطَ عنها القَطَرُ وأصفَرُ عُرودها
وَجَدْنَا كِرْماً لا يُحَوُّ حَقْنَا إذا جَفَّ فوقَ المنزلاتِ جَلِيدُها

والعرض في الجاهلية معاطة ساج قوي ، يحفظونه ويحفظون عليه ، ويشهرون سيوفهم
دفاعاً عنه ، أو ليجرد المحاولة للمساس به ، يقول عمرو بن خنيس الرياحي يوم طيخة :

فما قومٌ كقروى حين يثنى على الخوِزِ المخْدَرِ الفيصاح
لذَّبُ عن الحفايفِ في معدٍّ إذا ما جدَّ بالقومِ التطاح

(١) التفاحس ٦٨ / ٦ : ملك : يعني لها قابوس . آل عرق : القيسية .

(٢) ديوان الأعشى ٨٧ : أنا ابتلي أموالنا في السنة الشديدة القحط ، حين تغير آفاق السماء ، وصرع إلى
أفلاكه يوم جاء غشية البرد .

(٣) ديوان عامر بن الطفيل ٤٦ - ٤٧ : عزت : غلبت ، أهدبت ، طال طوائها : طال مكثها وشدتها ،
أحط : التقطع ، المنزلات : الواحصة منزلة وهي الدار موضع النزول .

(٤) التفاحس ٦٩ / ١ : الخوِز : الشاة الناصية ، حنة الخلق ، الفيصاح : كسب العليب ، الحفايف :
أعمال الحفايف للذالمون عن أعراسهم ، التطاح : المنزلة .

ويستخر سلامة بن جندل التميمي بأنه وقومه منعوا نساءهم وحفظوا أعراسهم يوم تلزق :

بأننا منعنا بالفروقِ ونساءنا ونحن قتلنا من أئانا يملزق^{١٥}

ويعبر عن هذا المعنى ربيعة بن مقروم الطي فيقول بأن قومه طوال الرماح غداة الصباح وهم ذوو لجة ويمنون حريمهم :

طوائن الرماح غداة الصبح ذوو تجدة يمنعون الحرمة^{١٦}

والعربي يأبى الذل ولا يقبل أي شكل من أشكاله ، وهم يرفضون المقام بدار الحوان ، وكانت حروبهم بسبب هذا الرفض لذلك ، والثورة عليه ، يقول عمرو بن كلثوم التغلبي :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أينما أن نُقِرَ الذلُ فيها^{١٧}

ويعبر عن رفض الذل والإقامة بدار الحوان ، شاعر قبيلة ربيعة بن مقروم حيث يقول :

ودار حوان أينما المقام بها فحللنا محلاً نحرماً
إذا كان بعضهم للهوان خليط صمام وأما رزوما^{١٨}

والخليفة يحمونه بما يجمعون أنفسهم ، وهو في منعة بينهم ، والاعتداء عليه بمثابة اعتداء عليهم ، وقد تشب الحروب بينهم بسبب الاعتداء عليه . يقول عبيد بن الأبرص :

إنا لعمررك لا يُضامُ حليفنا أبداً لدينا^{١٩}

ويقول في موضع آخر :

نحمي حقيقتنا ونمنع جارنا ونلف بين أراييل الأيتام^{٢٠}

وحسان بن شيبه العدوي يمدح قوماً ويغديهم بنفسه لأنهم أبوا أن يبيحوا جوارهم لعديهم حل الرقيم من استخدام القتال وسقوط القتلى :

(١) ديوان سلامة بن جندل التميمي ص ١٦

(٢) القضيبة رقم ٣٨ : النجدة الربيعة في كل أمر ، الحرير : ما يجب عليهم منعه

(٣) شرح القصائد السبع الطوال ٤٢٥ مام : أول الناس الحسف وأرايه منهم . الحسف : القلم والقضبان .

(٤) القضيبة رقم ٣٨ : الرزوم : التي تطف على ولدتها .

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣٥

(٦) ديوانه ١٢٣ : الحقيقة : ما يحق على الإنسان أن يحميه . تلف : نجح ونظم

إني وإن لم أقد حياً سيولعُمُ فداءً لثمن يوم كلبٍ وخيرٍ
أبو أن يُبَحِّروا جلودهم لعدوهم وقد ثارَ نَقْعُ الموتِ حتى تُكُوَّرًا^(١)

ولعل هذا النص لعبدالله بن رواحة يحمل لنا بعض ما كان الهذلي يفخر به من مكارم فهو يقول :

وقد علم القبائلُ غيرَ فخرٍ إذا لم تُلقَ مائلاً ركوداً
بأننا نُخرُجُ الشتاتُ منا إذا ما استحكمت حباً وجوداً
قدورُ تفرقُ الأصال فيها خطيبُ لوبُها : يبطأ وسوداً
متى ما ثلث يشرب أو تزرها عهدنا نحن أكرمها وجوداً
وأغلظها على الأعداء رُكناً وألينا لباعى الخير عوداً
وأعطها إذا اجتمعوا لأمر وأقصدها وأولها عهداً
إذا لدغى ليل أو بلجار فنحن الأكثرون بها عهداً
متى ما تدخ في جشم بن عوفو نهدني لا أغم ولا وسيداً^(٢)

ويخلط الفخر القبلي بالفخر الفردي عند بعض الشعراء الذين لا يقبلون بالوفاة شخصيتهم فربما تأمأ في شخصية القبيلة قبلوا منهم فلمات لسان ، يقول عبيد بن الأبرص مخاطباً حجير بن الحارث وإسنوته ، وكان حجير يتوعدده في شيء بلغه عنه ثم استصلحه .

أذهب إليك فإني من بني أسد أعلل القباب وأعلل الجرد والنادي
قد أترك القرن مصفراً أتابله كأن أنوابه مجت بفرصا
أوجرتة ونوامي الحيلر شاحبة سمره عابلهما من خلفه يابى^(٣)

(١) حسانة أبي تمام ٣٣٧/١ : نقيح : حيار ، تكوثر : تراكم بظروقة

(٢) جهرا أشعار العرب ٢٣٩

(٣) دبران عبيد بن الأبرص ٤٩ : أعلل القباب : يستفهم بأنه ساعد ، الجرد : الخيل القليلة الشعر ، مصفر الأتامل : من الترف ، مجت ، صيفت ، الفرصا : التوت ، أوجرتة : طعنة ، شاحبة : متغيرة اللون ، سمره : حربة ، الناميل : ما سفل عن السنان من الرميح يطراخ حيث يمشد اللواء ، يابى : ظامر .

وعند ما ينتشر عترة العبي يوم الحباة فإنه ينتشر بفرسان قومه أولاً وتحدث عن شجاعتهم فيقول :

فجاءوا عارضاً يرداً وجئنا خريقاً في غريف ذي هرام
وأشكت كل صوت غير ضرب وعترتني وترتبي ورابي^(١)

ثم ينتقل إلى الفخر بنفسه وشجاعته فيقول :

وزعت رعيها بالرمح شقراً على زبد كمرحان الظلام
أقر عليهم مهري كلياً قلائد سائب كالغرام

والفخر الفردي أيضاً له مكان في شعر الأيام ، وعلى الرغم من ضلالتة إذا ما قيس بالفخر القبلي ، إلا أنه لم يخف تماماً ، فالشخصية مهما تقاض صاحبها في سبيل قومه لا بد أن تنزع إلى الأثرة وحس الظهور ، ثم إن هذا الفخر الفردي ، كما بناه هو فخر قليل ، إذ أن هذه الشجاعة مسخرة لمصلحة القبيلة تقتل أعداء القبيلة وتولد عن القبيلة ، والفارق هنا هو أن الشاعر يتحدث عن نفسه وليس عن أبطال آخرين من قومه ، ففي يوم الكلاب الثاني أسرت تميم عبد يشوت بن الحارث فجعل يغنى بما كان عليه من شجاعة ومنعة في قومه فقال :

وكتت إذا كما الحيل شمعها الفتا أيقاً بتصريف الفتاة بئانيا
وعادية سقم الجوارح وزعتها بكفى وقد انحوا إلى العواليا
كأني لم أركب جواداً ولم أكل لحية كربي نفسي عن رجاليا
ولم أستب الزق الروي ولم أقل لأيسار صيدني : أعظيما ضوء ناريا^(٢)

وهذا فارس عامر يوم فيف الريح ، عامر بن الطقيل ينتشر بشجاعته ، ويكره على الأعداء ، ويكره يوم فيف الريح ، ولم يزل كذلك حتى بل نحره وصدر حصانه دم الأعداء :

- (١) دوران عترة ١٥٨ - ١٥٩ : الغريف : الشجر اللطيف ، العترة : العنق والشدة ، وزعت كفتت ، ريد : الخفيف القوام في منبه ، الكليم : المخرج ، سائب : جمع صبية وهي الشقة الرقيقة ، الغرام : ثوب من صوف غليظ يفرش في الخوج ، وهو السر الرقيق الأحمر .
(٢) للمفصلة رقم ٣٠ : شمعها : نهرها ، اللبس : الظنوب والرفل ، عادية : حبل عادية ، سقم الجواد : انتشاده في طلب للرعي . وزعها : كلفها . انحوا إلى : وجهوا إلى ، السباء : اشتراء الحمر ، الروي : للعتل ، الأيسار : الذين يسهرون اللذاح .

وَلَقَدْ عَلِمُوا أَنِّي أَكْثَرُ عَلَيْهِمْ غَيْثٌ فَيَقِرُّ الرِّيحُ كَثْرُ الْمُنْدَرِ
وَمَا دِمْتُ حَتَّى بَلََّ نَحْرِي وَصَدْرِي نَجِيعُ كَهْدَابِ الدُّنْقَسِ الْمُسَيَّرِ^(١)

وهذا شاعر عاصري آخر يفخر بأنه حرر قبيلة من تسلط الآخرين عليها يقتله زهير بن جندبة العبي الذي كانت عامر تخضع لسلطانه وتُدفع الإتاوة كل عام ، فلك هو خالد بن جعفر الكلبي قاتل زهير بن جندبة العبي ، وقتل الحارث بن ظالم المري فيما بعد

بَلْ كَيْفَ نَكْفُرُ نِسِي هَوَازُنْ بَعْدَمَا أَعْتَقْتُهُمْ فَتَوَالَدُوا أَسْرَارَا
وَقَتَلْتُ رَيْحُمُ زُهَيْرًا بَعْدَمَا جَدَّعَ الْأَنْوَفَ وَأَكْثَرَ الْأَوْتَارَا
وَجَعَلْتُ مَهْرَ بَنَاتِهِمْ وَوِيَاثِهِمْ عَقْلَ الْمُلُوكِ هَجَاجِيئًا وَبِكَارَا^(٢)

والفخر عند فارس عيس بفخر بفضائل يعتز بها ويجعلها قوام شخصيته ، وفخر بطوكة في المعركة ، فعترة فارس شجاع يغشى الوغى ولكنه يعف عند المغنم :

يُحِبُّكَ مَنْ شَهِدَ الرُّقِيعَةَ أَنِّي أَغْنَى الْوَغَى وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
فَلَزِي مَغْنَمٌ لَوْ أَشَاءَ حَوَاتِمُهَا لَيَصُدَّنِّي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكْرُمِي^(٣)

وهو يرفض حياة اللد ويفضل الميت حل الطوي حتى ينال كرم المأكول :

وَلَقَدْ آبَيْتَ عَلَى الطَّوِيِّ وَأَطْلُدُ حَتَّى أَنْالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكُولِ^(٤) .

وعترة ساعدة اللقاء غير من فارس معم قول ، ربح النسب ، وهو بذلك يؤكد قيمة اعمارس بشجاعته لا بنسبه :

إِنِّي أَسْرُوٌّ مِنْ خَيْرِ عَيْسٍ مَنصِبًا شَطْرِي وَأَخْوِي سَائِرِي بِالتَّصَلْرِ
وَإِذَا الْكَثِيرَةُ أَحْجَمْتُ وَتَلَاخَطْتُ الْفَيْتُ خَيْرًا مِنْ مُعَمِّ نُحُولِ^(٥)

(١) الفضيلة رقم ٦٠٦ : للحدود التي يطوف بالدوار وهي أعمدة كانوا يتخذونها بحذاء لواناسم .
رمت : برحت ، التجميع : الدم للصوب ، الدنقى : الخمر ، السير : برود من اليمن فيها عطور

(٢) العقد الفريد ١٣٧/٥ : ربحهم بالأوتار: جمع وتر وهو النخل ، عقل الملوك : ذنوبهم ، هجائن : الأبل البيض الكرام . بكار : أغنى من الأبل .

(٣) ديوان عترة ١٥٠

(٤) ديوان عترة ١١٩ : الطوي : الجوع

(٥) ديوان عترة ١١٩ المصعب : الأصل والحسب ، التصل : السيف ، تلاخط : من الملتصق وهو القنظر ، لعم النحول : الكرم الأصل .

ويمكننا ملاحظة بعض الخصائص التي تتضح في شعر الفخر والحجاسة ، فالفخر يقوم على الفضائل الاجتماعية التي أقرتها الحياة العربية ، وإن الفخر كان يستقى مادته الأساسية من تلك الحروب التي همت الجزيرة العربية ، وإن الفضائل التي كان الشاعر الجاهلي يفخر بها كان يأتي بها لتصادف فخره بشجاعة قومه ، وإن تلك الشجاعة وإن كانت تكسبهم الهابة والاستقلال ، إلا أنهم يكتسبون احترام الآخرين أيضاً بغير القوة ، يكتسبونه بما يتمتعون به من فضائل تجعلهم في الصدارة بين القبائل . ومن الباهر أن نجد قصيدة خصصها الشاعر للفخر بهذه الفضائل منفصلة عن الفخر بطولات قومه .

كما نلاحظ أن الفخر في ذلك العصر كان قليلاً ، وإن الفخر الفردي كان يلجأ إليه الشاعر حينما يحاول انتزاع اعتراف قومه به ، أو حينما يحاول أحد أفراد القبيلة النيل منه ، ومع ذلك فإن هذا الشاعر كثيراً ما كان يمزج الفخر الفردي بالفخر القبلي ، وترد عنه خواثل الدهر . وتبرز هذه الظاهرة في شعر عشرة .

وكان قوام الفخر في ذلك العصر : الوقائع والأنساب والأحساب والمآثر ، يمزجها الشاعر بنسب متقارنة حسب ما يقتضيه المقام .

ولكي يحقق الشاعر الغرض الأساسي الذي من أجله المتختر كان يستخدم ألفاظاً قوية ، ويركز على ما كان يلمسه ذلك المجتمع ، وما كان يتعارف عليه ، وكان يختار الوزن المناسب والمقابلة المناسبة ، ويصنع الصور التي يرضىها بأصابع لتحديث التأثير الذي يتطلبه الموقف .

حديث المعارك :

لقد كان الفخر ظاهرة طبيعية بين الجاهليين اقتضتها حياة القبائل الصحراوية والأفراد المتنافسين ، ولذا أكثر مدار الفخر كان حول المناقب والمآثر التي كانوا يفاخرون بها . وكان من أبرزها الفخر بالوقائع والأبام التي انتصرت فيها القبيلة والأبام التي خُزمت فيها القبيلة فيمكن الرجوع إليها من أعاجيب خصوصها . ومن أولئك وأعاجيب هؤلاء ينظم تاريخ القبيلة الحربي . وكان الفخر بالوقائع والأبام يشكل غالبية شعر الفخر والحجاسة في ذلك العصر .

وقد عرضنا في حديثنا عن الفخر والحجاسة لبعض نواحي فخر الشاعر بلسان قبيلته بأبياتها وما تحققة من انتصارات على الأعداء ، وأسرها كبار القوم ، وسبيها النساء وتغريمهم أعضائها الأثامات، كل هذا وغيره عرضناه في مجال حديثنا عن الفخر . ولكننا أجبنا الحديث عن المعارك ، كيف كان الجاهليون يفرضونها ، وكثر الفرسان وفرهم ، وتساقت القتل ، وهزيمة الجيائن ، وفرار

للشعوب ، وهويل النساء ، وحال السبيل من الأعداء ، كل هذا لم تعرضه ، وأجشاه إلى حين
إفراذ حديث خاص له وهذا هو دوره الآن :

وأول ما حرص عليه الشاعر الجاهلي ، شاعر القبيلة ، أن يصوره لنا هو رحلة جيش قومه
ورحلة جيش الأعداء قبل اللقاء واستخدام القتال ، ولقد صور لنا ذلك أوس بن خلفاء ،

جَلَبْنَا الحِيلَ من جَنَبِيْ أَرِيكَ	لِي أَجْلِكَ إلى ضِلْعِ الرِّجَامِ
بِكُلِّ مُتَّفِقِ الجُرْثُمَانِ عَجْمٍ	شَدِيدِ الأَسْرِ للأَعْدَاءِ حَامٍ
أَصَبْنَا مَنْ أَصَبْنَا ثُمَّ فُتْنَا	عَلِ أَهْلِ الشُّرْطِ إِلَى شَأْمٍ
وَجَدْنَا مَنْ يَقُوذُ بِزَيْدٍ مِنْهُمْ	ضِعَافَ الأَمْرِ غَيْرَ قُوِيْ يَغَامِ
فَأَجَسَ يَزِيدُ مَذْمُومًا يُوْا اثْرُغَ	عَلِ عُلْبٍ بِأَنْفِكَ كَالْخَيْطَامِ (١)

فأوس بن خلفاء في الأبيات الثلاثة الأولى يتحدث عن جيش قومه العظيم ، كما تحدث عن
الوضاع التي سلكها هذا الجيش إلى أن لقي الجيش الذي يقوده يزيد ، وتحدث عن جيش يزيد
الضعيف السيء النظام ، ولم ينس الشاعر أن يسخر من يزيد بن الصوق الكلابي ويصوره بالضعف
والحق .

وهذا شاعر آخر هو أُنَيْف بن رُبَاح النبهاني الطائي يتحدث عن استعداد قومه لهاجمة
وملاحقة بني أسد يوم ظَهَر الدُّعْنَاء ، وهو هنا يفصل في جزئيات الصورة أكثر من سابقه ، فقد جمع
لحم من جيش خوفه ومالك ككتاب تورود الأعداء موارد الهلاك وأن هذه الكتاب كثيرة العدد
والعنة ، فقد جاوزت سوابق هذه الكتاب وأواشلها بلاذ طسم وجديس ، ولواحقها قد شحت
بها هذه الواضع ، وبين ملتعة هذه الكتاب ولواحقها مسافات بعيدة دلالة على كثرتها ، وتحت
صبور هذه الدواب قطعة من الرحالة تغدو نياها للقلوب الخافقة ، وقد منعهم معرفة الضيم
كثرتهم وترفهم ، وأنهم عندما بلغوا أسفل الجبل من بطن هذا الوادي بحيث التقى هذان
الجسنان من الشجر ، وهذه إشارة إلى مواضع العراك والقتال ، دحرا والتزار ، وقلنا نحن :
بالطية ، لم يستمر في عرض الصورة :

جَمَعْنَا لَحْمَ من حَتَّى عَوَّضُوا وَمَالِكِ	كُتَابِ يَزِيدِي المُقْرِبِينَ نَكَاحًا
لَحْمَ عَجَزَ بِالْحَزَنِ فَالْقُرْمَلِ فَالْقُوِي	وَقَدْ جَاوَزَتْ حَتَّى جَدِيسَ رَعَالًا

(١) القصيدة رقم ٢١٨ : أريك وأجل وضلع والرجام : مواضع ، متفق الجوزان : يفرجهما من اللذان ،
البحر : الجيش العظيم لا يبين حركته إذا سار ، الأمر : الشدة ، فتنا : وجعنا ، يزيد : يزيد بن
الصقل ، العلب : أن تؤخذ حديدة ليشر بها الأتق حتى يفسد العظم .

وَعَثَتْ لُحُودُ الْخَيْلِ حَرْشَفٌ وَجَلَتْ
أَبْسَى لَمْ أَنْ يَعْرِفُوا الضِّمَّ أَنْهُمْ
قَلِمَا أَيْتَا السَّفْحَ مِنْ بَطْنِ حَائِلٍ
دَعَا لِنَزَارٍ وَاتَّصَبَا لَطِيْمٍ
ثَمَّاحٌ لَغِيْرَاتِ الْقُلُوبِ نِيَاهُ
بَسُو نَاتِقٍ كَانَتْ كَثِيْرًا عِيَالُهَا
بَحِيْثٌ ثَلَاثِي طَلْحُهَا وَسِيَالُهَا
كَأَمْدِ الشَّرَى إِقْدَامُهَا وَفَرَاهُ (١)

فالشاعر هنا تحدث عن البطون المشتركة في القتال ، كما صوّر لنا كثرة جيش قومه ، وأسلحتهم
وبأن هذا العدد كان له أثر في منع الضيم عنهم ، ثم تحدث عن ساعة اللقاء بين الفريقين ،
وانهاء كل فريق إلى عصبته ، ولذاتهم لبث الخماس في نفوس المقاتلين .

ولعل ملك بن ثورثة كان أكثر تفصيلاً في وصف حركة جيش قومه يوم غلظت ، وحركة حير
الطريق الطويل حتى وصل ديار الأعداء ، ولم ينس الشاعر أن يبين لنا لحظة الإعداء عن تحركات
هذا الجيش ، وكيف وقعت عليهم تلك المفاجأة فيقول :

إِلَّا أَكُنْ لَأَيْتُ يَوْمَ غَلْظَتْ
أَتَيْتِي بِتَغْيِرِ الْخَيْرِ مَا قَدْ لَقِيْتُهُ
يَلُونُ عَهَارًا ، إِذَا مَا تَقَوَّرُوا
بِأَنْفَاءِ حَيٍّ مِنْ قِيَائِلٍ مَالِكُو
وَرْدَ عَلَيْهِمْ سَرَحَتُهُمْ حَوْلَ دَارِهِمْ
حَلُولُ بِفَرْدُوسِ الْإِيَادِ وَأَهْلَتْ
بِالْقَيْنِ أَوْ زَادَ الْحَمِيْنُ عَلَيْهَا
ثَلَاثَ لَيَالٍ مِنْ سَلَامٍ كَانِهِمْ
قَلِمَا رَأَوْا أَدْنَى السَّهَامِ مُعْزِيَا
وَكَانَ لَهُمْ فِي أَهْلِهِمْ وَنَسَائِهِمْ
لَفْكَالِ السَّرِيْسِ الْخَوْفِزَانُ تَلَبَّيُوا
فَمَا فَيَسُوا حَتَّى رَأَوْنَا كَانَنَا
فَقَدْ خَيْرُ الرُّجْبَانِ مَا أَتَوَدُّ
رَزِيْنٌ وَرُكْبٌ حَوْلَهُ مَتَعَفِدٌ
وَلَاقُوا قُرَيْشًا عَبَّرُوْهَا فَالْجِدُّوا
وَصَمَرُوْا بَيْنَ يَرْبُوعٍ أَقَامُوا فَالْخَلْدُوا
عَيْنَاً وَلَمْ يَسْتَأْذِنُوا الْمُتَوَحِّدُ
سِرَاةً بَنِي الْيَرْشَامِ لَمَّا تَأَوَّدُوا
لِيَسْتَرْعُوا مِرْكَابَنَا ثُمَّ يُرْعِدُوا
بَسْرِيْدٌ ، وَلَمْ يَتَّقُوا وَلَمْ يَتَرَوَّدُوا
بِهَاهُمْ ، فَلَمْ يَلَوْا عَنْ النَّهْمِ أَسْوَدُ
مَيِّتٌ وَلَمْ يَدْرُوا بِمَا يَحْدُثُ الْغَدُ
بَنِي الْحَيْصَنِ إِذْ شَلَوْقَتُهُمْ لَمْ جَدُّوا
مَعَ الصَّبْرِ أَنْيًى مِنَ الْبَحْرِ مَزِيدُ (٢)

(١) جملة أبي تمام ، شرح المزدولي ١/١٦٩ : القرقف إذا كان أحد أبويه حريراً والآخر غير حر ،
تكالفاً : عتقها ، عجز : مؤخر ، رجلة : موضوعة لأدنى العدد ، تلحاح : تغلظ ، حَرْشَفٌ : قطعة
من الرجلة ، النفاق : الفرقة الكثيرة الأولاد . الطلح والسيال : شجران ، الشري : موضع كثير
الأمم .

(٢) الأصمعي رقم ٦٧ ، المعتمد القريظ ١/١٩٨ : يلعون : يرغمون أصواتهم بالقلبية ، عهارة :

فالشاعر هنا لم يفقه شيء لم يذكره ، ذكر اسم اليوم ، وذكر جيش قومه ، والبطون التي أسهمت في تشكيله ، ولم يفقه ذكر عدد الجيش ، وكم صار هذا الجيش ، حتى وصلوا أرض الأعداء ، وحال الأعداء قبل أن يواجهم جيش قبيلة الشاعر ، وما أصابهم حين رأوا هذا الجيش . ثم يستمر الشاعر في وصف المعركة ونتائجها بعد هذه الأبيات .

ويعرّض الأعرابي على أن يبدأ بوصف جيش الأعداء مفصلاً قبل أن يتحدث عن جيش قومه يوم التقى الجيشان بذكر وفارس يوم ذي قار :

أُخَانَا عَنْ بَنِي الْأَحْرَا وَ قَوْلٌ لَمْ يَكُنْ أَمَّا
أَرَادُوا نَحْنُ أَتَيْنَا وَكُنَّا غَنَمٌ اخْطَأَا



فَبَاتُوا لِيْلِهِمْ سَمَرًا يُسَدُّوْا حَيْبًا مَا نَجِيَا
فَقِيُوا نَحْنُوْنَا بَيًّا يَسُدُّ السَّهْلَ وَالْأَكْمَا
سَوَابِغٌ حُكْمُ الْمَا يَسُدُّوْا لِقَائَهَا الْحَزْمَا
فَجَاءَ الْفَيْلُ هَامِرٌ عَلَيْهِمْ يُقِيمُ الْقَسْمَا
يَلْدُوْا مُنْعَمًا حَتَّى لِقَايَةِ السَّبِي وَالنَّعْمَا

وبعد ذلك يقرر في أبيات قليلة مصير هذا الجيش بينا العدة وهذه العدة ولولتلك القادة ، وبذلك الأمانى التي كان يمتنى نفسه بها فيقول :

فَلَا قِيَ الْمَوْتَ مَكْتَبًا وَذُقْنَا دُونَ مَا زَعَمَا
أَبَاةَ الْعَصِيمِ لَا يُعْطُو نَ مَنْ عَادُوْهُ مَا حَكَمَا
أَبَتْ أَعْنَاقُهُمْ عِزًّا فَمَا يُعْطُونَ مَنْ غَشَمَا^(١)

معصمين ، تغوروا : أتوا الغور ، اتجدوا : أتوا نجداً ، السرح : الأبل الراعية ، الضناك : المرائق الشديدة ، التوحيد : التفرّد ، الشفوة : بنو الرشاد ، فعل وشيان ونيس أبناء نعلبة والرشاد لقب لهم . تلوّجوا : كثروا ، عرقلتا : شاكنتا ، يرفعدوا : يخلصوا ، سنام : إسم جبل ، يريد : رسول الحواريان : الحوثر بن شريك الشيباني ، تلبوا : لبسوا السلاح ، الأثني : الفرج ، مضمومة : يجمعان .

(١) ديوان الأعشى ص ٣٠٦ ، الفائق ٢/ ٦٤٥ : بنو الأحرار : يخصص القرمس . أمّا : عظيم بعيد عن القصد والرشاد ، تحت أثلتنا : استصعّل شاكنتا ، الخطم : جمع الخطام وهو الزمام ، سمرا : صاعرين ، يسدوا حيب ما نجم : يذهبوا ما اهزموا عليه ، سوابغ : خروج ، مشتمعاً : الحمر التي مزجت باللّاء ، مكنت : جاتم في انتظاره ، غشم : الظلم .

ويعصور لنا الأعشى حال جيش الأعداء ومقدمهم يوم ذي قار، ويرقرن بتلك الصورة صورة ظعن قومه وهم يسرون خلفهم تحري مدافعهم جزءاً وخوقاً من مصير المعركة ، ولكنه لا يلبث أن ينتقل إلى وصف المعركة التي جرت لصالح قومه . وهو لا يظلم الأعداء بل يصور جيشهم اللجج كأنه قطعة من الليل ، تقوده البطريقة وأبناء الملوك من الأعاجم .

لَا أُنَوِّسَا كَانَ اللَّيْلُ يَقْدُمُهُمْ مُطِيقَ الْأَرْضِ يَحْشَاهَا بِهِمْ سَدَفُ
بَطَارِقَ وَبَنُو مُلْكُ مَرَارِبَةٍ مِنْ الْأَعَاجِمِ فِي أَذَانِهَا التُّطْفُ

ثم يصف ظعن قومه :

وَطُعْنَا خَلَقْنَا تَحْرِي مَدَائِعُهَا أَكْبَادُهَا وَجَلًّا عَمَّا تَرَى تَحْبُفُ
يَحْسِرُنْ عَنْ أَرْجَمٍ قَدْ عَلِيَتْ عَيْرًا وَلَايُهَا عَيْرَةُ الْوَانِثَا كُسُفُ^(١)

وعندما يتحدث الشاعر الجاهلي عن سير المعركة ، فإن الأمر يختلف عند الشعراء ، فبعضهم يسهب في رسم صورة اليوم كاملة ، ومنهم من يكتفي ببعض الصور المركزة ثم ينتقل بنا إلى النتيجة ، نستمع إلى الأعشى يوم ذي قار يقول :

لَا أَمَالُوا إِلَى الثُّنَابِ أَتْلَبُهُمْ بَلْنَا بِيضَ فُظْلٍ الْهَامُ يَنْتَطِفُ
وَعَيْلُ بَكْرٍ لَهَا تَصُكُ تَلَحُّهُمْ حَتَّى تَوَلَّوْا وَكَذَا الْيَوْمُ يَنْتَصِفُ^(٢)

ويرسم الأعشى صورة للمعركة أكثر ولحرواً وتفصيلاً في نصيدة أخرى عن يوم ذي قار مصوراً ما أصاب فرسانهم ونساعهم بعد الفزيمة التي منوا بها فيقول :

تَنَامَتْ بَنُو الْأَحْرَارِ إِذْ صَبَرَتْ هِمُّ فَوَارِسُ مِنْ شِيَانِ غُلَبٍ قَوْلَتْ
وَأَقْلَنَتْهُمْ قَيْسُ قَفَلْتُ لَمَلُهُ يَمْلُ لَكِنْ كَانَتْ بِهِ النَّمْلُ زَلَتْ
فِيهَا بَرَحُوا حَتَّى اسْتَوْفَتْ نِسَاؤُهُمْ وَأَجْسَرُوا عَلَيْهَا بِالْهَامِ فَذَلَّتْ^(٣)

(١) الأَخْشِي / تَقَالِيدُ ٢٣ / ٢٤٠ ، وَالظَّرِيرُونَ الْأَخْشِي ٣٦١ : سَدَفُ الطَّلْعَةِ ، التُّطْفُ : لَوَالِةُ تَعْلَمُهَا الْأَعَاجِمُ فِي الْأَنْدَلُسِ : ظَعْنٌ : جَمْعُ طَلْعَةٍ وَهِيَ الزَّوْجَةُ ، مَدَائِعُ : عِيُونٌ ، تَحْبُفُ : تَخَفُّقٌ يَسْرُدُ : يَكْتَفِيهِ ، الْغَيْرَةُ : لَوْنُ الْغَيْلِ ، كُسُفُ : جَمْعُ كَاسَفٍ وَهُوَ ظَلْهُمُ الَّذِي تَغْيِرُ لَوْنَهُ .

(٢) الأَخْشِي / تَقَالِيدُ ٢٣ / ٢٤٠ وَالظَّرِيرُونَ الْأَخْشِي ٣٦١ : الْبَيْضُ السِّيُوفُ ، الْهَامُ : جَمْعُ هَامَةٍ وَهِيَ الرَّمْسُ

(٣) دِيْرُونَ الْأَخْشِي ٦٦١ : تَنَامَتْ : كَفَتْ ، غُلَبٌ : جَمْعُ أَغْلَبٍ وَهُوَ الْغَلِيظُ الْعَقْلُ ، قَيْسُ : هُوَ قَيْسُ بْنُ مَسْعُودٍ ، بَلُ : ذَهَبٌ ، اسْتَوْفَتْ نِسَاؤُهُمْ : سَبَقُوا أَمَامَ الْقَوْمِ وَقَدْ أَمْلَكُوا سَبَاحًا ، يَدْلَعُنْ طَلِبًا لِلْإِسْرَاعِ ، أَجْسَرُوا عَلَيْهَا بِالْهَامِ : اقْتَرَعُوا عَلَيْهِمْ

وفي يوم عَطَّطَ التقت بنو نعيم وبنو شيان ، وهُزِمَت بنو شيان ، وصور فارس ليم مالك بن
 نُؤَيْدٍ لنا ذلك اليوم عندما أطلق فرسان نعيم عليهم بالسهام والرماح حتى يندوهم واستأمر
 القوم ، وأعمل كياتهم في الأعداء سوفهم وكان بين أسنة الرماح والنية مرعداً في ذلك اليوم فلم
 تقب لهم طلعة :

ضمنا عليهم طابئهم بصائب	من الطعن حتى استأسروا وتبدوا
يسرى كأشطان الجرور نواهل	يمور يا زو المنايا ويقصد
ترى كل صدق زاعبي سبائ	إذا بكى الأعداء لا يتأوه
تقعن معاً فيهم بأيدي كياتنا	كان المنون للأستق موجد
ثأر العروق الأيات طبائنا	وند منها طر ووقع ويرد

وعندما يعرض الشعراء نتيجة المعارك ، فإن بعضهم يفتز إلى النتائج قبل الحديث عن
 المعركة نفسها وكأنه بذلك يسرع إلى النتائج قبل عرض المقدمات ، فالذي سيشع بين القبائل هو
 النتيجة ، وهو ما يفي في الأعداء ، ويتناقله الناس . ففي يوم عكاظ صور لنا عامر بن الطفيل
 العامري حل صورة نتائج متتالية دون أن يقدم ذلك اليوم فيقول :

ونحن صبحنا حي أسماء غارة	أبالت حبال الحسي من ولعها دما
ويوم عكاظ أنتم تعلمونه	شهدنا فأقدمنا بها الحسي مقدما
ونحن فعلنا بالخليفون فعلة	فقت يمدنا عنا الظلوم الغشمشما ^(١)

ويخبر ضرار بن الخطاب النهري يوم عكاظ ، فيحدثنا أولاً عن القبائل التي جاءتهم
 وهي هوازن وسليم ، ثم ينتقل مباشرة إلى نتيجة اللقاء ، وهو أنهم أذاقوهم طمعاً يسر
 الرماح ، وفرت سلكهم ولم تعبر في المعركة ، كما تبددت عامر ، وفرت ثقيف آل الطائف
 محاصرة ، أما العنيس فقد قاتلت نصف النهار ثم تولت :

(١) العقد الفريد ٥/ ١٩٨-١٩٩ ، والأصمعية ٦٧ : طابئهم : جائبهم ، الجرور من الأبلر : الجيدة
 العفر - زو المنايا : أعدائنا ، الصدق : المرح البالغ غاية المرحمة ، فراضي : مشوب إلى زاجب
 المزوجي كان يعمل الأسنة ، يتأوه : يثور ، يثني : الطر : التحديد ، الوقع : التحديد بالقبضة ونسي
 الطريقة .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل : ١٢٩ : يوم عكاظ : من حروب الجبل ، الخليقان : أسد وطفيلان ،
 الغشمشم : من الغشم وهو الظلم

فلما اتينا لقتلهم
ففررت سليم ولم يصروا
ولمرت نكف إلى لائها
وقالت العيس شطر لائها
طعنا بقر القنا العائم
وطارت شعاعاً بنو عامر
بثقل الحاسب الخاسر
ب ثم تولت مع الصائير^(١)

وهذا شاعر ثالث يتحدث عن نفس اليوم ، يوم عكاظ ، وهو عبد الله بن زهير ، فيقول :

أئتينا قرش حائلين بجمعهم
فلما دقنا للقياب وأعلها
أيمت لنا بكر فلم نستطعهم
وما برحت خيل تنور وقدعي
لذنا غداة حتى أتى الليل وانجلت
وما زال ذلك الدأب حتى تمادلت
عليهم من الرحمن والقر وناصر
لجح لنا ريب مع الليل ناجر
كانهم بالشرية سائر
ويلحق منهم أولون وأخير
حياة يوم شره متظاهر
هوأزن وأرفضت سليم وعمار^(٢)

وحرص بعض الشعراء على ذكر نتيجة اليوم موجزة مركزة لا إسهاب فيها ، فهي لا تتجاوز في صورتها بيتاً واحداً ، وقد صورها أحد شعراء الحياصة ، أنيف بن زيان الطائي فقال بعد أن تحدث عن اللقاء وضرر السيوف والتلوي بالرماح قال :

فولوا وأطراف الرماح عليهم
قواوز مربوعلها وطولها^(٣)

وبعض الشعراء حرص على ذكر قتلهم للقوم ونشر بدعهم هرباً من ضرب سيوفهم وكثرة الأسرى الذين استسلموا لهم صائرين ، وقد صور هذا أوس بن مقرن التميمي يوم الكلاب الثاني فقال بعد أن حشد القبائل المشتركة في هذا اليوم :

فلما لا أوزا لم نكذب
قلنا منهم قتل وول
ولم نألفم لا يهلونا
شرلعم شعاعاً حارينا
ونافقت منهم قنا أسرى
لدينا منهم متخمين^(٤)

(١) الأغاني / ثلاثة ٧٥ / ٢٢ : شعاعاً : متفرقاً ، لائها : ألها ، متقلب : مرجع ، حياة ، العيس : قتل من قتل ، الصائير : الناصير

(٢) الأغاني / ثلاثة ٧٥ / ٢٢ : ناجر : كل شعر في صميم الخمر ، سائر : مجلس سمر ، حياة : حمى ، ليج : ليج في الباطل وغوى ، متطاعر : واضح ، الدأب : العادة والتشأن

(٣) حسانه أبي تمام ١ / ١٧٣ : قواوز : قتلهم عليهم ، مربوعلها : قصارها

(٤) الأغاني / ط ٣٢٨ / ١٦

وفي يوم العرثوب بين بني كلاب بن عمرو واليمن ، هُزمت جموع اليمن ، ومع ذلك رفض
شاعر مرثاة اليمنى معاوية المرادي هذه الفريضة ، ووجد ما يفخر به ، فتحدث عن ذلك غائطاً بيني
عمر بانه وقومه لم يناموا الحرب ، وبأنهم تركوا هناك قتل من عمر وقد توسدت خدودها
التراب وكذلك فقد أسر لبناً طقيقاً :

لقد حلم الحيان كعبٌ وعمرٌ وحيا كلاب جعفرٌ وعيها
بأننا لدى العرثوب لم ننام الوهي وقد قلعت تحت السروج البوها
تركنا لدى العرثوب ، والحيل عكفت أساية قتل لم نؤسد خدودها
ورحنا وفيها ابن طقيق بيلو بمافر حيا عاد قلاً شريها^(١)

وفي يوم الكلاب الثاني حرص ربيعة بن مقروم النفسي على ذكر بعض القتل من القادة والأسرى
من قادة الأعداء إمعاناً في إلال أعدائهم وإعلان ذلك للناس فهم أسروا ساداتهم وقاتلوا
فرسانهم ، وتركوهم طلعاً للضباغ والذئاب :

ويوم جرادة استلحمت أسلحتنا يزيد ولم يمسز لنا قرن أنقضنا
وقاط ابن جسر عتياً في يوتنا يعاليج فدا في خرايم مصحبا
وفارس مرقوم أضافت رماحنا وأجسزنا مسعوداً غياها وأذيا^(٢)

وهذا ربيعة بن مقروم نفسه يتحدث عن نفس اليوم ، يوم الكلاب الثاني ، في قصيدة
أخرى مفصلاً في عرض لقاء الجريشين بعض التفاصيل ، ولكنه حيناً يتحدث عن النتيجة يوجزها
في بيت واحد فيقول :

لدارت رحاها بفرسانهم فعانوا ، كأن لم يكونوا ، رميا
بطعن بجيش له عائد وضرب يخلق هاماً جثوما
وأضحت بيمن أجسادهم يشبهها من رأها الخشيا^(٣)

(١) معجم البلدان : ١٠٨/٤ : البوها : جمع ليد وهو ما يوضع تحت السرج ، خلة : الغل : العدو
والخلة الكامن ، قلاً : منهزماً

(٢) للفضلية رقم ١١٣ : استلحمت : جعلته لحياً ، الأسلات : القنا الواحدة سلة . الأنقض :
الكنسور أحد القرنين والعرب تشادهم به ، قاط : أقام القيل كاله ، اللد : السر من الجلد ،
مصحب : عليه صوفه أو شعره ، مرقوم : اسم فارس صاحبها زيد الغساني ، أضافت : عرفت
القتل ، أنقض : جمع قنب :

(٣) الفضلية رقم ٢٨ : رميم : عظام بالية ، بجيش : يفرز لكرته ، العائد : ما سال من الدم فلم يرقا

ويعرض لنا مالك بن نويرة التميمي يوم حُطِط ، وما أسفرت عنه المعركة في ذلك اليوم مبتدئاً بأن ما رأته عينه في ذلك اليوم قد جعلها قريبة ، فقد ظل القوم هناك كأنهم خشب أثل مسند ، والظير يجعل فوق جثث قتلاهم ، والظيرة تكيل أيدي أسراهم ، وعندما جن الليل كانوا فريتين ، فريقتاً أثل وفريقتاً في الأسر .

فَأَسْرَدَتْ عَيْشِي حِينَ ظَلُّوا كَانَهُمْ
صَرِيحٌ عَلَيْهِ الظُّرُ بِجَعْلٍ نَوَافِ
لَدُنْ حُلُوتِهِ حَتَّى أَمْسَى اللَّيْلُ دَوْنَهُمْ
فَصَبَحَ مِنْهُمْ يَوْمَ نَبَأَ لِقَائِهِمْ
إِذَا مَا اسْتَبَالُوا الْخَيْلَ كَانَتْ أَكْثُهُمْ
كَانَهُمْ إِذْ يَعْصِرُونَ فَطَرَفَهَا
بِطَسْرِ الْأَيْدِي غَضَبٌ لَقَلَّ مُسْتَدٌ
وَأَخْرَجَ مَكْبُولُ الْبَيْتِزِ مَقْبَدٌ
وَلَا تَنْتَهِي عَنْ بَيْتِهَا مِنْهُمْ يَدٌ
بَقِيَانَةُ الْبُرْدَيْنِ فَأُفْطَرَةُ
وَقَاتِحٌ لِلْأَسْوَالِ وَالذُّ لِيَّةُ
بِدِجْلَةٍ أَوْ فَيَضِرُ الْحَرِيَّةُ مَوْدَةً

وإذا كان الشعراء الذين عرضنا لهم قد أثاروا الإيجاز والتركيز في عرض صورة المعركة وصيحتها ، لما فعلوا ذلك ، إن كان ما وصلنا من شعرهم كاملاً ، لأن ما يعينهم من المعركة النتيجة وما يتناقله الناس ، يوم الشاعر أن يسمع بانتصار قبيلة ومنعتها ، وربما وجد من الأفضل أن يذكر بعض القتل من ساحة الأعداء وفرسانهم ، ليكون ذلك دليلاً على انكسار شوكتهم ، وليكون دليلاً دامناً على هزيمتهم ، فقد كان إعلان قتل سيد القوم وفرسانهم مؤثراً في معنويات فرسان القبيلة .

ولكننا نلجأ إلى تفسير آخر ، وهو أن الشعر الذي قيل في ساحة المعارك أو بعدها أو قبلها يميل إلى الإيجاز ، أما الشعر التسجيلي ، إن صح التعبير ، الذي يقوله شاعر القبيلة مسجلاً أيام قبيلته ومفاتيحها بعد أن تنضح معالم الصورة أمامه فإنه يسهب في عرض تفاصيل الصورة وظلالها ، ولعل ما سنعرضه من الشعر لسلامة بن جندب التميمي يُلْهِد ما نذهب إليه ، فقد صور لنا كيف جاءهم الأعداء يوم ملزق في أبيات ، ثم انتقل يَصَوِّرُ لنا كيف أحبطوا عليهم فيقول :

فَمَنْعْنَا عَلَيْهِمْ حَاقِيَهُمْ بِصَادِقٍ
كَانَ مَنَاحاً مِنْ قُبُورٍ وَمَنْزِلٍ
كُنْهُمْ كَانُوا ظِلَاءَ بِصَفَصِصٍ
مِنْ الطُّغْغَانِ حَتَّى لَزِمْنَاهُمْ بِتَفَرُّقٍ
بِحَيْثُ الْفَيْلَا مِنْ أَكْثَرِ وَأَسْوَفِ
أَحْصَا عَنْهُمْ قِيَّةً ذَاتَ بَصَدَقِ

(١) المجلد الرابع ٥ / ١٩٨ - ١٩٩ ، الأصححية رقم ٩٧ : حب للناهم : بعيد ، الفيلانة ، الأرض الغليظة ، البردان : خديوان بجند ، الوقائع : جمع وقعة وهي الغزاة في الجبل يستطلع فيها الماء ، التطوط : جمع لظ ، وهو الماء يخرج من الكرش .

كان احتلاء الشرق رؤوسهم
لئن غداة حتى ألى الليل دونهم
ومستوحب في الجزري فضل عثائه
فألقوا لنا أرسان كل نجوة
ومن يك ذا قوب ثقله رماحنا
تركنا بجيراً حيث أرحف جدّه
ولسولا سواد الليل ما أب علمه

ويستمر الشاعر في رسم صورة المعركة ونتيجتها بحيث تكتمل صورتها ، وتحدث أثرها الطالوب في نفس السامع .

ويخلو لبعض الشعراء الفرسان ، وهم في ساحات الوغى أن يشحنوا عن بطونهم في المعركة ، كما يحرصون على تسجيل حوار ينور بين هذا الفارس وفروسه الذي يلازمه في القتال ويخلف عنه ضربات السيف ، وقد فعل هذا عامر بن الطفيل العمري يوم فكّ الرياح يوم فكت عت :

وقد علم المزنوق أني أكثره
إذا الزود من وقع الرماح زجره
وأبأته أن الفرس خزاية
أست ترى لرماحتهم في شرعاً

عل جمعهم نحر النج الشهر
وقلت له : أرجع مقبلاً غير مذبر
عل المرو ما لم يبل جهداً ويعلير
وأنت حصان ما جد العيرق قاصير

ثم يتحدث عن كره يوم فكّ الرياح يقول :

وقد علموا أني أكثر عليهم
وما رمت حتى بل نخري وصدره
أقول لنصر لا يهاد يثليها

عنيّ ليضد الرياح نحر المنور
نجيع كهذاب الدقصر المسير
أقل المراح أني غير مقصر

ولا ينسى الشاعر أن يصف الأعداء ويحدث عن قوتهم ، ولا تملأ في ذلك مع عصيته لقيك فني إنصافهم رفع لقدرك قبلك لأنهم لا تروا جمعاً عظيماً وهزموه :

فلو كان جمعٌ مثلنا لم ليالميم ولكنْ أُنْشَأَ أُسْرَةً ذَاتُ مَفْخَرٍ
فجاءوا بِفَرَسَانِ العَرِيضَةِ كُلِّهَا وأُخْلِجَ طَرَأً فِي لِبَاسِ السُّتُورِ^(١)

وفي يوم الكلاب الأول انفتحت تغلب والنعم وجرأ ومالك بن حنظلة بيكر وضبة والرباب ويريوج ، وكان سلمة وشرجيل العوين من بني بكتة ، أحدهما كان على رأس الفريق الأول وهو سلمة ، وأخوه شرجيل على رأس الفريق الثاني ، وقتل في ذلك اليوم شرجيل الكندي ، فحرص جابر بن سفيّ التغلبي على تصوير مقتل هذا القائد فقال :

ويوم الكلاب قد أزلت رماحنا شرجيل إذ ألن أليّة نفيس
ليستلين أذراعنا فازاله أبو حنشر عن ظهر شقاء يلدّم
تناوله بالرمح ثم نسي له فخر صريعاً للبدن وللنفس
وكان معايننا تهر كلابه مخافة جمع في زهاء عزم^(٢)

لما الالتل بين الأكلوب ، فكان الشاعر حين يتحدث عنه لا ينسى صلة الرحم ويذكرها عند النصر وعند الخزيمة ، يبين أثرها في كبح شهوة القتل والانتقام ، وفي حروب الأوس والخزرج ، وحبس دحيان ، ويكر وتغلب ، نجد الأمثلة الكثيرة ولكن هذه الأيام أيضاً فيها التشبي والتشابة بالمهزمين لأنهم أصروا على حرجم ، وهم أقاربهم . يصور لنا قيس بن الخطيم نصراً أحرزه قومه على الخزرج فقال :

زُرْنَاكُمْ بِالْخَمِيسِ ضاحيةً نُرْجِي إِلَى اللَّوْبِ جَحْفلاً لجبا
جاءت بنو الأوس عارضاً برداً تحلّية السريح مقبلاً حلباً
إن بني الأوس حين قسّموا الح رب لكائنار ناكل الخطباء
إن بني الأوس معشر صدّقوا الفد رب وسئوا الإساء والتدبا
فصعدوا رأس كيشد إختوتهم حتى فوّلوا واستضروا هرباً
قالت بنو الأوس من عفايتهم مروا ولا تأخذوا هم سلباً^(٣)

- (١) الفصيلة رقم ١٠٦ : المزونق : اسم فرسه . الشيخ : الملح لكثرة القلق لا حظه ، خزابة : استحياء ، يعلو : يأتي يعلو ، ومت : برحت ، التجميع : تقدم للصوب ، المراح : للمرح ، العريضة : الأرض كلها ، أكلب : حي من خثعم ، السطور : الدروع .
(٢) التلغاط ١/ ٤٥٨ : أبو حنشر : قاتل شرجيل ، يلدّم : الدابة القوية المفاخر ، ذي زهاء : ذي علة
(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١١٦ : ضاحية : جهازاً ، لجب : كثير الأصوات ، الاساء : السواء ، التدب : آثار المراح .

فيس بن الخطيم يتحدث عن بطولة قومه ، وعن صدقهم في الضرب يوم اللقاء وأنهم قتلوا سيد الخزرج فهورب الخزرج من المعركة ، ومع ذلك فإن الأوس من حقاقهم ، ولأن ربيعة تربطهم بالخزرج ، فإنهم أبقوا أن يسلبوهم كما يتعلق المنتصر بالهزم في الحروب .

وفي يوم البقيع بين الأوس والخزرج ، وقد هُزم فيه الخزرج ، وقف عبيد بن نافع الأوسي يفتخر بقتل قومه على الخزرج ، وقتلهم الخزرج وهم أولو رحم ، ثم يلير حواراً على لسان نساء الخزرج حول غياب أزواجهن ويسألن هل كل من تخلف من الخزرج قُتل في هذا اليوم ، ويذكر الشاعر على لسان أولئك النسوة أن القتل كان كريماً ، جزلاً ، حلوا الشياطين . وكانت ي بالشاعر لو أن يصل إلى مدفن أوليها لا يقتلون إلا السادة وفي هذا مطخرة لهم ، وقائدها أن هذا الكلام الذي جاء على لسان نسوة الأعداء يعترف به الشاعر ، فالقتل تربطه بالشاعر ويقومه صلة رحم ولولا الحصة الضيقة لما قتلوا ، يقول عبيد بن نافع الأوسي :

جلدتْ بأَنْفُسِهَا من مَالِكٍ عَصَبٌ	يومَ اللِّقَاءِ فَمَا خَافُوا وَلَا فَتَّلُوا
عَلَوْكُمْ كَلُوسُ المَوْتِ إِذْ بَرَزُوا	شَطَرَ النِّهَارِ وَحَتَّى أَدْبَرَ الْأَصْلُ
حَتَّى اسْتَقَامُوا وَقَدْ طَالَ المَرَامِسُ بِهِم	فَكَلَّهْمُ مِنْ دِمَاءِ القُصُومِ قَدْ عَمَلُوا
تَكشَّفَ البَهْشُ عَنْ قَتْلِ أُولَى رَجِيمٍ	لَوْلَا المَسَالِمُ والأَرْحَامُ مَا تُفِلُّوا
تَقُولُ كُلُّ نَسَاءٍ غَابَ قَيْمُهَا :	أَكَلُ مَنْ عَظَفْنَا مِنْ قَوْمِنَا قُتِلُوا
لَقَدْ قَتَلْتُمْ كَرِيماً ذَا عَاقِلَةٍ	قَدْ كَانَ حَالِفَهُ القَيْنَاتُ وَالْحِلَالُ
جَزَلٌ نَوَاقِلُهُ حَلَوُ شِمَائِلِهِ	رِيَانٌ وَاعْلَاهُ تَشَقَّى بِهِ الْإِيَالُ ^(١)

وفي يوم بُدئت ظهرت الأوس على الخزرج فحرم يس بن الخطيم على تسجيل هذا النصر والشهادة بالخزرج ، وتصوير تطاير رؤوس الخزرجيين ، ويحذروهم من عدم التصدي للأوس ومحاولة التعدي عليهم ، ويذكروهم ببطرتهم لأنهم أولوا مالا ، ولا ينبغي أن يعيرهم كيف فرأوا وتركوا نساءهم بلا حيلة قريبة للأوس :

مَعَاقِلُهُمْ أَجَامُهُمْ وَنَسَائُهُمْ	وَأَيَّامُهَا بِالمَشْرِقِ مَعْقِلُ
كُلُّ رُؤُوسِ الخَزْرَجِيِّينَ إِذْ بَدَتْ	كَتَائِبُنَا تَسْرَى مع الصَّبْحِ حَظْلُ
فَلَا تَقْرَبُوا جُدْمَانِ إِنْ حَامَهُ	وَجَنَّتْ تَأْفَى بِهِ فَتَحْمَلُوا

(١) الكامل لابن الأثير ٦٧٤/١ : عصب : جمع عصبه وهي الجماعة من الناس ، عاور : أعطاهم كزوس الموت عارية ، الأصل : جمع أصيل ، قَيْمُهَا : سيدها ، الحلال : جمع حلة وهي إزار معدني يطحن فيه الطعام ، وأعلاه : الواقع بالداخل على طعام القوم وشراهم من غير دعوى .

إلى أن يقول :

كَانَا وَتَدَّ أَجْلُوا لَنَا عَنْ نَسَائِهِمْ أَسْوَدَ لَهَا فِي عَيْسٍ يَشَّةَ أَشْبَلُ

ويذكرهم بأن يتأملوا ما حلَّ بهم وإلا فليستعدوا لمثلها فيقول :

يِشْرُ الدَّرِيكُو فَاسْتَعْدُوا لِمِثْلِهَا وَأَصْنَعُوا لَهَا أَفْأَلَكُمْ وَتَأْمَلُوا^(١)

وتقتل بنو العشراء قرواشاً العيصي بحذيفة الذي كان قد قتل قرواش في يوم الهبامة ، ويتصدى عبيكة الغزاري ليرصد هذا الحدث ، وليذكر عيساً بالأرحام ، ويأن قتل قرواش كان طبعياً لأنه قتل حليكة :

صَبْرًا يَغِيضُ بَنَ رَيْثٍ إِيَّهَا رَحِمٌ حَيَّتُمْ بِهَا فَأَنَا حَقَّكُمْ بِمِثْجَاعٍ
فَمَا أَشْطَطْتُ سُمِّيَ إِنْ هُمْ قَتَلُوا بَنِي أَسْتَمُ بِقَتْلِ آلِ زُبَاعٍ
لَقَدْ جَزَلَكُمْ بَنُو ذِييَانَ ضَامِحِي بِمَا فَعَلْتُمْ تَكْكِيلِ الصَّاعِ بِالصَّاعِ
قَتَلًا بِقَتْلِ وَتَعْقِيرًا بِعَقْرِكُمْ مَهْلًا حَيَّضُ فَلَا يَسْعَى بَنَا السَّامِي^(٢)

ولا تظهر رابطة القرابة في شعر السوس مثل وضوحها في الحروب الأخرى بين القبائل التي ترتبط برباط القرابة ، ومع ذلك فإننا نسمع مهلهلاً يتحدث عن يوم حَيَّزَةَ معترفاً بالقرابة ومعترفاً بتكاثرهم في ذلك اليوم .

كَانَا عُدُوَّةً وَبَنِي أَيْنَا بِجَوْفِ عُنَيَّرُو رَحِمَا عَدِير^(٣)

ويحدث الحديث عن المعارك طابعاً آخر يشتمل في حديث الشاعر عن جملة من أيام قومه ، وهو في هذه الحالة لا يتحدث إلا عن أبرز حدث في اليوم ونتيجته ، وقد فعل ذلك شعراء كثيرون ، ونحن واجدون منهم في القضايات والمعلقات الكثير من الأمثلة فريضة بن مزيوم^(٤) ، يتحدث في القضايات عن أيام بُزَاعَةَ والنَّسَارِ بِطَلْحَةَ والكَلَابِ وَفَاتِ السُّكَيْمِ ، وحيد ابن الأبرص^(٥) يتحدث عن حروب قومه بني أسد مع غسان وغيرها ، وحامر بن الطفيل^(٦)

(١) حيوان نيس بن الخطيم ٨٦ وما بعدها : للعقل : للوضع يلجأ إليه ، أجلم : حصون ، جلعان :

نخل ، العيص : أصول الشجر

(٢) أمثال الضبي ٣٩ ، القفاص ١/١٠١

(٣) الأسمعية رقم ٥٣

(٤) القضاية رقم ٣٨

(٥) الديوان ص ١٣٥

(٦) حيوان حامر بن الطفيل ١٠٥

يتحدث عن أيام قومه ، والحارث بن حلزة البشكري^(١) يتحدث عن وقائع قومه في معقلته التي أنشدها على مسمع من الملك ، ولعل مثله عمرو بن كلثوم^(٢) التغلبي حيث تحدث عن أيام قومه واقترع بها .

ونحن نميل إلى أن هذا اللون من حديث المعارك هو من قبيل المفخر أكثر منه وصفاً للمعارك على الرغم مما يتضمن من تصوير يقي بعضها ، ولكنه تصوير سريع غير مستقل بيوم من الأيام ، إذ ربما أجمل الشاعر الحديث عن أكثر من يوم في بيت شعر واحد ، أي أن هذا الشعر يفقد في رأينا - صفة الحيوية والواقعية - بالانحلال إلى أنه يقال بعد هذه الوقائع يزمن قد بطرك وقد يقصر .

وشبه بهذا ، أو قريب منه تلك الشعر الذي تمثل به النواوين والمجموعات الشعرية ، ويحدث فيه الشعراء عن بطولات واقتال ، ولكن هذه الأشعار خالية من معالم قبعتها ، فلا نجد يوماً قيلت فيه أو أبطالاً خاصوها ، أو قتل أو أسرى ، لأن هذه المعالم تجعل الشعر شعراً يفيض حيوية وأصالة .

ولعل من أبرز ما يمتاز به شعر المعارك ما تزدهم به من ذكر الأعلام ، أسماء القريسان وخيولهم وأسماء أماكن اللقاء ، والفتائل المشتركة ، ونكاد نزعج بأنه لو جرّد حديث المعارك من هذه الأعلام لما بقيت له سعة من سمات شعر المعارك ، كما أن هذه الأعلام لا يمكن تفسير هذا الشعر على حقيقته وفهمه إلا بعمل رموزها وما تحض منها ، فلكل علم منها دلالة ، ومكانته في ذلك اليوم أو تلك الغزوة .

والجزء الأخرى لشعر المعارك أن هذا الشعر تظهر فيه ملامح قصصية ، ولكنها تكون منفردة ، قبي بعضه وبخاصة إذا سلم الشعر من شياخ بعضه ، تبدو قصة اليوم والصحة المعالم ، أو يبدو جانب منها على الأقل ، وفي معقلته لا يعرض إلا لحداث خائفة من ذلك اليوم ، وربما تدخل عامل آخر في ذلك وهو السرعة الفنية ، حيث لم يكن لدى الشعراء الوقت للإطالة والصناعة ، كما أنهم لا تهتمهم التفاصيل بطرما يهمهم إعلان انتصارهم على الأعداء ، وعندما يسهون فلاهم عندها يرون في ذلك ضرورة ملحة ، وغماً يبرء على قياتهم .

(١) معقلته الحارث بن حلزة

(٢) معقلته عمرو بن كلثوم

المهجاء :

عرف ابن رشيق القيرواني المهجاء فقال « المهجاء هو الشتم بالشعر ، وهو خلاف المدح والمهجاء ظاهرة السخط أو السخرية . . . يتخذ معانيه من سومات المهجو أو مثالب لومه . فالمفخر يلتفت إلى نفسه ليستق منها مادته ، والمهاجي ينظر إلى خصمه لينشر مساويه مفرراً أو ساعراً . ويفضل النقاد السابقون ما كان من المهجاء حقاً خالياً من الفحش بحيث تنشده العذراء في خلدها فلا ينجح بمثلها»^(١) .

وأكثر الأعراس الشعرية اتصالاً بالعصية والروح القبلية المهجاء والفخر ، فالمهجاء هو صدى شعور العداة الذي تكته القبائل المختلفة بعضها لبعض ، والفخر هو صدى اعتزاز القبيلة بنفسها ونفسها وفضلها على سائر القبائل . ومن هنا كان تلازم الغرضين في كثير مما انتهى إلينا من شعر الأيام ، لصدورها عن منبع نفسي واحد وهو الشعور العvisي .

ويرى الدكتور شوقي خيف أن المهجاء قد يكون « ظاهرة إحصاء للعيوب والمثالب التي هي في حقيقتها مثالب المجتمع وعيوبه ، ويريد الشعراء من أسلافنا أن يطهروا المجتمع من نقائصها ويستقلوه من برائتها » ولذا فهو « في حاجة لدراسة كوثيلة اجتماعية وسياسية»^(٢) .

ونعوم المهجاء على عكس الفضائل الاجتماعية التي أقرتها الحياة العربية في الجاهلية^(٣) كالكرم والسيادة والشجاعة والتجفة وكثرة العدد والقفز في الحروب والمروية والشرف والأحساب وشرف الأسلب . ولذا فهو فن قديم أوجدته المناقشات القبلية التي أوتها السمي وراء الكلا والماء ، كما صغره الحروب المستمرة بين القبائل .

والمهجاء في شعر الأيام كان يتخذ طريقين ، كان بعضه هجاء للخصم ، لسبب قبل لا شخصي فقد يهجو شاعر القبيلة أعداء قبيلته لأنهم أسلموا نساءهم وهربوا من ساحة القتال . وقد يهجوهم لغدرهم ، أو لقتلهم أسيراً ، أو لضعفه نسبيهم ، أو لمزيمتهم في الحروب ، وقد يهجوهم لضعفهم وقلة عددهم . وكما كان المهجاء هجاء للخصم فقد كان أيضاً هجاء لأبن القبيلة أو فارسها أو أي فرد منها يخرج عن خط سير القبيلة الذي يمشق لها عزتها . وقد كثر هذا اللون من الهجاء في شعر الأيام بحيث نراه يفرق اللون الأول من المهجاء ، وسبب ذلك أن القبيلة الأخرى تستطيع القبيلة أن تهجوها بطريقة أخرى وهي الحروب ، لو تهديدها بالحرب ، أما فارس

(١) العمدة لابن رشيق ١٣٨/٢

(٢) مجلة المجلة - عدد يناير ١٩٦٥ ص ٢٧

(٣) المبتدأ ص ١٠

الثقيلة الذي قرّ وأسلم نساء الثقيلة للأعداء ، لو نعم الثقيلة خبيثة سهلة لهم ، أو ذلك الذي نقاص من القتال ، أو ذلك الذي غفل عن قائد فرسان الثقيلة فجعله فريسة للأسر ، كل ذلك يستحق الهجاء الشديد .

وسنحاول في الصفحات التالية استعراض دوافع الهجاء في شعر الأيام مع عرض لصور هذا الهجاء ، أما الهجاء الشخصي والذي نجده كثيراً في الشعر الجاهلي فليس لنا شأن به إلا إذا اتصل بالأيام .

ولعل أكثر صورة للهجاء تطالعنا في شعر الأيام هي هجاء حامل اللواء أو قائد الفرسان إذا قرّ يوم الثلاثاء مما ينتج عنه هزيمة الجيـع ، ففي يوم شيب جيلة قرّ النعمان بن قهّوس التميمي حامل اللواء ، وكان يعمد هزيمة غيم وجموعها فقاتل ذكئوس بنت لقيط بن زارة التميمي تهجوه ولكنها لم تنس شجاعته :^(١)

قَرَّ ابْنُ قَهَّوسٍ الشَّجَا	عُ بِكَفِّ رَمَحٍ مَتْلُ ^(٢)
يَعْدُو بِهِ حَاطِيسُ الْبُضَيْعِ	كَأَنَّهُ سَمْعُ أَرْزُلٍ ^(٣)
إِنَّكَ مِنْ تِهْمٍ فَدَخَ	شَطَفَانِ إِنْ سَارُوا وَحَلُّوا
لَا مِنْكَ عِدَّتُهُمْ وَلَا	أَبَاكَ إِنْ حَاكُوا وَذَلُّوا

إلى أن تقول له مذكرة إياه بابه :

وَلَقَدْ رَأَيْتَ أَبَاكَ وَسَطَ	الْفُؤْمِ يَزُو أَوْ يَجِلُ ^(٤)
مَتَقَلِّدًا رِيثَ الْقَرَا	رِ كَأَنَّهُ فِي الْجَيْدِ خِلُ ^(٥)

وفي يوم الأسر كانت سلمى بنت الحُلَـلِّ العامرية عن سباع بن أسد ، وكان الطفيل وجواب فلوسا بني عامر قد قرّ ، فقاتل تهجوها بفرارها وبأنها بفرارها أوقعت النسوة في الأسر^(٦) .

(١) (الأطحي / كتابه ١١ / ١٣٤)

(٢) مثل : منصـب

(٣) سمع أرزل : نائب أرمج يتوالت بين الضيع والضبـب .

(٤) يزوز : يخطئ ، يطارق ، يجل : يهضم

(٥) ريث : حبل

(٦) (الخطابي ١ / ٢٤٢)

لَحَى الْإِلَهُ أَبَا لَيْلٍ بِفَرَسِهِ يَوْمَ النَّسَارِ وَقَتَبَ الْعَمِيرَ جَوَاباً^(١)
 كَيْفَ الْفِيخَارُ وَقَدْ كَانَتْ مُجْتَرِكُهُ يَوْمَ النَّسَارِ بِسُوفِيَانٍ أُولِيهَا
 لَمْ تَعْمُوا الْقَوْمَ إِذْ شَلُّوا سَوَامَكُمْ وَلَا النَّسَاءَ وَكَانَ الْقَوْمُ أَحْزَاباً^(٢)

ويعزّ على الشاعر العربي أن يجد قريقاً من قومه يفرون عن أصحابهم ويصرفون عنهم
 ويسلمونهم للأعداء ، فقد حدث يوم نَعَفَ قَتَاوَةَ بَيْنَ بَكْرِ وَهَيْمٍ أَنْ انْصَرَفَ بَنُو سَكِيطَ بْنِ مَرْبُوعَ
 عَنْ أَصْحَابِهِمْ وَلَمْ يَقَاتِلُوا مَعَهُمْ فَقَالَ مَالِكُ بْنُ ثَوْبَةَ يَجْهَرُ لَانَّهُمْ تَرَكُوا الْقِتَالَ قَسَلُوا وَرَجَعُوا
 إِلَى قَبِيلَتِهِمْ ثُمَّ جَاءُوا يَطْلُبُونَ الْعَارَ ، وَيَذْكُرُهُمْ بِأَنَّهُمْ بَعَثْتَهُمْ هَلَاةً فَلَمَّا يَفْضَحُونَ ذَمُّهُمْ ،
 وَلَمَّا فَلَا عِتَابَ لَهُمْ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَفْرَارُهُمْ فِي تِلْكَ الْيَوْمِ قَدْ أَحْزَوْا قَوْمَهُمْ ، وَجَلَبُوا لِمِ الْعَارِ ، وَأَنْ
 الْقَبِيلَةَ لَنْ تَسْلَمَ مِنَ التَّمَرِضِ بِهَا سَبَبٌ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ لَوْلَيْكَ الْفَرَسُ^(٣) .

لَحَا اللَّهُ الْفَوَارِسَ مِنْ سَكِيطٍ خُصُوصاً إِيَّاهُمْ سَكِيسُوا وَأَبَا
 أَلْجَقْمُ تَطْلِبُونَ الْعُلُورَ عِنْدِي وَلَمْ يَخْرُقْ لَكُمْ فِيهَا إِيَابٌ^(٤)
 دَعْنَكُمْ خِلْفَكُمْ فَأَجْبِئْهُمَا عِجَارِيٍّ فِي أَعَالِيهَا الْجُبَابُ^(٥)
 كَفَيْتُكُمْ غَدَاةَ لُؤَيِ حَيٍّ فَهَذَا مِنْ لِقَائِكُمْ عَذَابٌ
 إِذَا لَا تَيْتُمْ أَبَداً فَضَحْتُمْ فَمَارِكُمْ فَلَيْسَ لَكُمْ عِتَابٌ
 فَكَيْفَ بِكُمْ وَقَدْ أَحْزَيْتُمُوهَا إِذَا ذُكِرَ الْحَقَائِظُ وَالسِّيَابُ^(٦)

ثم يذكرهم بأنه لو سمع الدُّعَاءَ للنجدة بنو رِيَاحٍ لَهَبُوا لِلنَّجْدَةِ غَاضِبِينَ :

وَلَوْ سَمِعَ الدُّعَاءَ بَنُو رِيَاحٍ لَجَاءَ فَوَارِسٌ مِنْهُمْ غِيْضَابٌ

ولم يكن يُرْفِضِي الْقَبِيلَةَ أَنْ يَعْتَزَلَ أَحَدُ رُؤُسَاتِهَا الْحَرْبَ لِأَيِّ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، وَكَانَ
 شَاعِرُ الْقَبِيلَةِ يَلْقَى مَرَضاً بِهَذَا الزَّعِيمِ لِحَبَّةِ حُلِّ الْعُودَةِ إِلَى الْقِتَالِ ، قَبِي حَرْبِ الْيَمُوسِ اعْتَرَلَ

(١) لَحَى : قَبَحَهُ وَلَعَنَهُ ، أَبَا لَيْلٍ : حَقِيلُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ ، جَوَابٌ : لَقِبَ لِأَنَّهُ كَانَ يَجُوبُ الْأَهْلَ
 بِفَرَسِهِ وَيَتَخَذُهُمَا نَفْسَهُ ، قَتَبَ الْعَمِيرَ : هَلَبَ الْأَسَدَ ، أَوِ الْبُرَابَ .

(٢) شَلُّوا : طَرَدُوا ، سَوَامَكُمْ : تَوَابَكُمْ

(٣) الْقَتَاوَةُ ٢٢/١

(٤) إِيَابٌ : الْجِلْدُ الْمَحِيطُ بِالْجَنْبِ

(٥) عِجَارِيٍّ : أَسْفِيَّةٌ مَعْلُومَةٌ ، الْجُبَابُ : شَيْبَةُ الزَّيْتِ يَمُوتُ فِي الْقَفَاحِ .

(٦) الْحَقَائِظُ : جَمْعُ حَقِيفَةٍ وَهِيَ التَّغْلِبُ وَالْحَمِيَّةُ ، السِّيَابُ : التَّشْتِمُ

الحارث بن عباد الحرب ، فلم ترض فيه بكر من هذا التصرف ، وإتهري سعد بن مالك بن ضبيعة اليكري يعرض به : (١)

يا يونس للحرب التي وَصَّيْتُ أُرَاحِطُ فاستراحوا^(٢)
والحرب لا يبقى لنا معها التَّخِيلُ والمِرَاحُ^(٣)
إلا الفَتَى الصَّبَّارُ في التَّجْدِ ذَاتِ وَالْفَرَسُ الْوَقَّاحُ^(٤)
والتَّشْرَةُ الْخَصْدَاءُ وَالْبَيْضُ الْمُكَلَّلُ وَالرَّحَامُ^(٥)

ثم يقول معرضاً به وعن تخلف عن الحرب معه :

يَسْ أَلْخَلَّافُ بَعْدَنَا أَوْلَادُ يَشْكُرُ وَالْمُفَاحُ^(٦)
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا لِمَنْ لَيْسَ لَا بَرَّاحُ^(٧)

فهو يجمع بين التعريض به والإكثار حتى يعود هذا الزعم إلى حظيرة الغيلة. وقد شغلت الإثارة الآيات الأربعة الأولى من هذا النص .

وكانت الغيلة في الجماعية تعتر بفارساتها ، وعلى الأخص بفارسها وقائدتها الذي يقودها من نصر إلى آخر ، وكان بسطام بن قيس الشيباني فارس شيان ، وفي يوم العُظَيَّانِ أسر هذا الفارس ، أسرته ثيم وأنهم شاعر شيان جماعته بأنهم يتخافون وجيحتهم أسلموا فارسهم بسطاماً فقال العزم الشيباني يبعوهم ، ولذكراً يعلم بشجاعتهم في الميقات ، ولكنهم في هذا اليوم كانوا نملأ :

قَبَحَ الْإِلَهُ عِصَابَةً مِنْ وَالِدٍ يَوْمَ الْأَفَاقِ اسْتَلَمُوا بَسْطَامَا
ورلوا أبا الصَّهْبَاءِ دُونَ سَوَامِيهِمْ عَرَكَا يُسَلِّي نَفْسَهُ وَزَحَامَا^(٨)
كُتِمَ أَسْوَدًا فِي الْوَعْسِ فَوُجِدْتُمْ يَوْمَ الْأَفَاقِ بِالْفَيْطِ نَعَامَا

(١) حاشية أبي تمام - شرح المزدودي ٢/ ٥٠٠

(٢) أراحط : ألتوم

(٣) جاعتها : جمعت النار اضطرت

(٤) الوقاح : قليل الحياء

(٥) التشرة : الفرج الواقعة للمحكمة الرد ، الخصداء : الجلداء

(٦) الخلائف : الذين خلفوه جبلا

(٧) لا برراح : لا الحراف

(٨) الفطاح ٢/ ٥٨٦ والكامل لابن الأثير ١/ ٦١٣

وكانت القيلة تجلب العار لنفسها إن هي تواطأت مع الأعداء ، ضد بطن آخر من بطون القيلة ذاتها ، وفي يوم جندود سحزوت يربوع الماء عن بني بكر ، ثم عادت فسمحت بوروده مقابل بعض الغنائم ، ويكرر عدواتهم ، فتصدى قيس بن حاسم المقرئ ليربوع يجهوها بسبب فعلها هذه^(١) .

جَزَى اللهُ رَبَّوعاً بِأَسْوَأِ مَعْبِهَا إِذَا ذُكِرَتْ فِي النَّاتِئِ أُمُورُهَا^(٢)
وَيَوْمَ جَنْدُودٍ قَدْ فَضَحْتُمْ أِبْهَاتَكُمْ وَسَأَلْتُمْ وَالْحَيْلُ قَدْ نَسَى لُحُورُهَا
فَأَصْبَحْتُمْ وَاللَّهُ يَفْعَلُ ذَاكُمْ كَمَهْنُوقِ جَرِيءِ أَبْرَزِ كُورُهَا^(٣)
وَأَصْبَحْتُمْ وَاللَّهُ يَفْعَلُ ذَاكُمْ كَمُؤَدِّدٍ لَمْ يَسَقْ إِلَّا زَفِيرُهَا

إلى أن يقول لهم :

أَفْخَرُوا عَلَى التَّوَلَّى إِذَا مَا يَطِيشُ وَلَوْماً إِذَا مَا الْحَسْبُ شُبَّ سَعِيرُهَا^(٤)

هذه هي أبرز دواعي الهجاء لفرد أو مجموعة من نفس القيلة ، ونلاحظ أن هذا اللون من الهجاء لا يستخدم إلا فحاش ، لأن الذين يجهوهم رحمه ، ولأنه يأمل في صلاحهم ومحو عنهم إلى حظيرة القيلة ، كما نلاحظ أن دواعي الهجاء كلها بسبب الإضرار بمصلحة القيلة وسمعتها .

ونتقل الآن إلى الاتجاه الثاني في الهجاء ، وهو هجاء الأعداء والخصوم . وهذا اللون من الهجاء اتخذ طابع العنف والفحش والتعور ، لأن الشاعر يمه تطعيم للهجو وإذلاله ، ولا يأمل بأن يكون في صفه وصف قبيح ، ثم يجهو على فعله قام بها ، أو يعيره لذلك بسبب زلة ارتكبها نسيه إليه وإلى قبيحته .

وأكثر صور هذا الهجاء هي تعيير الخصم بالفرار من القتال ، ففي وقعة السرارة بين الأوس والخزرج قال عتيبة بن نفذ الأوسي يرد على حسان ويذكره بفراره ، وأنه لولا الفرار لهلك :

لَكِنْ قَرَارُ أَبِي الْحَبَابِ بِنَفْسِهِ يَوْمَ السَّرَاةِ سَيِّءٌ مِنْهُ الْأَقْرَبُ
وَلِيَّ وَالْقَسَى يَوْمَ فَلَكَ دَرَعُهُ إِذْ قِيلَ جَاءَ الْمَوْتُ خَلْقَكَ يَطْلُبُ

(١) التكاثر ١ / ١٤٦ ، ١ / ٢٢٧ .

(٢) أسوأ سعيها : سبأها ليكم بوروده الماء .

(٣) مهنة : ماشية أصابت خطأ من القبل ولم تشع ، كورها : رحلتها .

(٤) يطيش : يطرقم ، كثر ملككم ، التولى : بين العم .

نَجَّكَ مِنْهَا بَعْدَ مَا قَدْ أَشْرَفْتَ فَبِكَ الرِّمَاحُ ، هُنَاكَ شَدَّ الْمَذْعَبُ^(١)

وَلِي يَوْمَ السُّبْحَانِ تَعَدَّتْ عَنْهُ الشَّاعِرُ الشَّمْسُ أَوْسَ بْنَ حَنْبَرٍ ، وَذَكَرَ طَهْلِيلُ بْنُ مَالِكٍ
الْعَامِرِيَّ وَغَرِيهَ ، وَقَدْ نَجَّاهُ يَوْمَئِذٍ حَصَانَهُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ خَيْلُ لَيْمٍ لَمْ أَبْقِهِ ، وَبَعِيرُهُ بَانَهُ فَرَّ وَأَسْلَمَ
عَامِرًا ابْنَ لَيْمٍ ، وَبَانَ زَوْجِيهِ تَعْلِيَانِ أَنَّهُ عَالِدٌ لِأَنَّهُ مَتَعُوذٌ عَلَى الْغَرَارِ^(٢)

وَوَدَّعَ إِعْصَانَ الصَّفَاوِ بِقَرْزَلٍ كَمَرُ كَمَرِيخِ السُّوَيْدِ الْمُرْزَعِ^(٣)

وَلَوْ لَمْ يَكُنْهُ الْحَيْلُ شَالَ بِرَجُلَيْهِ كَمَا شَالَ يَوْمَ الْحَالِ كَعْبُ بْنُ أَصْبَغٍ^(٤)

فِرَارًا وَأَسْلَمَتْ ابْنُ أُمِّكَ عَامِرًا يَلَاغِبُ أَطْرَافَ الْوُشَيْجِ الْمُرْزَعِ^(٥)

وَقَدْ عَلِمْتَ عَيْرُكَ أَنَّكَ أَبٌ تُخَيِّرُهُمْ عَنْ جِهَتِهِمْ كُلِّ مَرَبَعٍ^(٦)

وَبَعْدَ مَقْتَلِ وَالِدِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ وَشُرُوعِهِ فِي الْإِسْتِعْدَادِ لِلْأَخْذِ بِالْثَرِّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ تَصَدَّى
شَاعِرُهُمْ عَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ لِلتَّعْرِيفِ بِهِ وَهَيْئَتِهِ ، وَالسَّخَرَةِ مِنْهُ ، وَتَذَكُّيرِهِ بِأَنَّهُ لَوْلَا رَكْعَتُهُ لِلْقَيْسِ
مَا لَقِيَ أَبُوهُ وَأَخَاهُ الْقَلْبَيْنِ قَتْلَهُمْ بِتَوَاسُدٍ^(٧)

وَرَكْعَتُكَ لَوْلَا لَقِيتَ الَّذِي لَقُوا فَذَاكَ الَّذِي نَجَّكَ مِمَّا هُنَاكَ

ظَلَّلْتَ تُعْقِي أَنْ أَخَذْتَ ذَلِيلَهُ كَأَنَّ مَعْدًا أَصْبَحْتَ فِي حِيَالِكَا

وَأَسْرَعِيَّةُ بْنُ الْحَارِثِ الْبَرْبُوعِيَّ يَوْمَ الرُّعْلَامِ أَمْسَ الْقَوَارِيسُ بْنُ زَيْدِ الْعَبْسِيِّ ، وَكَانَ أَمْسُ
هَذَا قَدْ قُتِلَ عَمْرُ بْنُ عَدَى فِي يَوْمِ الْقَرْنِ ، فَقَالَ حَبَاسُ بْنُ مُرْدَاسٍ السُّلَمِيُّ : بَعِيرُهُ لَعْدَمِ
الْفَتْلَةِ بِهَاتِي بَعِيرٍ^(٨)

كَثُرَ الْفُجْجَاجُ وَمَا سَمِعْتُ بِغَادِرٍ كَعْبِيَّةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ

جَلَلَتْ حَنْظَلَةُ الْخَنَازَةِ وَالْحَكَا وَذَنُتْ أَنْعَرَ هَلْهُ الْأَحْطَابُ

(١) التَّكْمِلُ لِلْأَيْنِ الْأَخِيرِ ١/ ٦٦٤ .

(٢) حَيَوَانُ أَوْسَ بْنِ حَنْبَرٍ ٦٦ .

(٣) قَرْزَلُ : طَرَسَ طَهْلِيلُ بْنُ مَالِكٍ ، مَرَبَعُ الْوَلِيدِ : تَغْلِيْبٌ يَجْعَلُ الْعَصِيَّ فِي أَعْلَى شَجَرَةٍ وَطِيئَةٍ ثُمَّ يَرْمِي بِهِ
بِغَيْرِ دَيْشٍ .

(٤) شَالَ : وَقَعَ .

(٥) الْوُشَيْجُ : الرِّمَاحُ ، الْحَالُ : يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِهِمْ .

(٦) عَيْرُكَ : زَوْجُكَ . الْوُشَيْجُ : الْوُضْعُ يَقَامُ فِيهِ زَيْمُ الرِّبْعِ .

(٧) حَيَوَانُ عَيْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ ٩٤ .

(٨) الْأَغَانِي / كِتَابُ ١٥ / ٣٤٦ .

وَأَسْرَمْتُ أَنْسًا لَهَا حَاوِلْتُمْ بِإِسْلَرٍ جَارِئُكُمْ بَنِي الْقَيْقَابِ^(١)
بِاسْتِ التِّي وَلَدْتُكَ وَأَسْتِ مَعَاشِرِ تَرْكُوكِ تَحْرَمُهُمْ مِنَ الْأَحْسَابِ
وَالْأَفْحَاشِ بَيْنَ فِي التَّيْتَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ .

والأجذب بالثائر من الأمور التي يحرص القرد على القيام به ، وعدم التأخير في ذلك ، وإلا
لحقه العار إذا قعد عن الأخذ به ، ويضخذ الشاعر القعود عن الأخذ بالثائر حجة يوجو بسببها
القاعد عن الأخذ بالثائر والسخرية منه . وهذا عبيد ابن الأبرص يخاطب امرأ القيس معيراً إياه
لأنه يلهو ويعاقر الخمر وقاعد عن الأخذ بالثائر لأنه عاجز عن ذلك .^(٢)

وَأَنْتِ أَمْرٌ لِهَالِكِ زَيْقٍ وَتَيْقَنُ فَتَصْبِحُ غَمُوراً وَكَيْفِي مُدَارِكَا^(٣)
عَنِ الْوَيْثِرِ حَتَّى أَحْمَرَّ الْوَيْثِرُ أَعْلَهُ فَأَنْتِ تَبْكِي إِثْرَهُ مَتَهَالِكَا^(٤)
فَلَا أَنْتِ بِالْأَوْنَارِ أُنْزَكْتَ أَعْلَهَا وَلَا كُنْتَ - إِذْ لَمْ تَنْتَصِرْ مَتَهَالِكَا^(٥)

وكانت أقصى درجات الإهانة واللذة تلحق بالقمارس الذي يلهو عن زوجته أو عرضه
يسلمه للأعداء ، وقد فر أبو عمر بن الطفيل عن امرأته وغيره بذلك وبعده رجل من قبيان
فقال :

وَفَرَّ عَنْ ضَرْبَتِهِ وَجْهُهُ خَارِبُهُ وَمَالِكُ فَرَّ قَسْبُ الْعَسِيرِ جَوَابُ^(٦)

وعندما الفخر بنو عامر بأعلم سية من بني عيس اسمها ه اسماء فصلت شاعر عيس
عروة بن الورد يرد عليهم ويعيرهم بأخذه ليل بنت شعراء الغالية فقال :^(٧)

إِنْ تَأْخُذُوا أَسَاءَ مَوْقِفَ سَاعِقٍ فَمَا تَحْدُ لَيْلِي ، وَهِيَ عَذَاءُ ، أَعْجَبُ
لَبَسَا زَمَاناً حُسَّتْهَا وَشَبَاهَا وَرُدَّتْ إِلَى شَعْوَاءَ وَالرَّأْسُ أَشْبَهُ
كَمَا تَحْدُنَا حَسَنَاءُ كُرْهَاءُ ، وَدَمْعُهَا عُدَّةَ الْكُوفَى مَغْصُوبَةً ، يَنْصَبُ

(١) القَيْقَاب : التي تلد الخيل .

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ٩٤ .

(٣) منارك : ترك ثاره .

(٤) الْوَيْثِر : الثَّوَر .

(٥) لِهَالِكِ : للهالك نفسه .

(٦) التَّفَالُصُ ١ / ٢٤٢ .

(٧) ديوان عروة بن الورد ٢٨ .

وفي يوم النصار هزمت عامر ، هزمتها بنو أسد ، ووقف بشر بن أبي حازم الأسدي يجر بني عامر بأنهم تركوا تسامعهم سايلاً لدى بني أسد ، ترتعد فرائصهم من شدة الخوف ، وقلوبهم مفرجة خوفاً من المصير الذي ينتظرهم^(١) .

بنى عامر إنا تركنا نساءكم من الشلل والايهاف تلمس عجوباً^(٢)
عصاريطنا مستبطينو البهى كالدمى مضرجة بالعفسران ججوباً^(٣)
ثبتت النساء الأرضيات برهوقن ففرغ من خوفه الجنان قلوباً^(٤)

وتعتبر القبيلة كل من يعين خصومها أو يناصرهم عدواً لها ، ويتصدى شاعرها لعدلاء يجرهم ويخلصهم من مغبة التورط في ذلك ، ففي حروب الأوس والخزرج ناصرت بنو أسد الأوس فتصدى حسان بن ثابت لهم يجرهم سائراً منهم ومن قومهم^(٥) .

وما كثرت بنو أسد فتخشى لكثرتها ولا طاب القليل
قبيلة تلهذب في معد أنوفهم أذل من السيل
تمس أن تكون إلى قريش شية البغل شبه بالصهيل

وإذا ربطت بين قبيلة والشاعر والقيادة للهجرة وابطلة القرابة أحجم الشاعر عن التعرض للنساء لأنهن رهط ، فقد هجا حسان بن ثابت الخزرجي أبا قيس بن الأسلت الأوسي هجاء مزوجاً بالتهديد والوعيد والفخر إلى أن يقول في آخر القصيدة^(٦) .

وقد أكرمتكم وسكتت عنكم سراة الأوس لو نفع السكون
حياء أن أشاكم وصوتاً لغرضي إنه حسب سمين
وأكرمت النساء وقلت رطبي وهذا حين أنطلق أو أرين^(٧)

(١) للقبيلة رقم ٩٦ .

(٢) الشلل : الطرد ، الايهاف : السير الشديد ، المجوب : جمع حجب وهو آخر المعصص .

(٣) العصاريط الأجزاء ، البهى : أرواح النساء من اعدائه .

(٤) رهوة : ما ارتفع من الأرض وما انخفض ، الجنان : القلب .

(٥) ديوان حسان بن ثابت ٤٠٠ شرح البرقوقى .

(٦) ديوان حسان بن ثابت - شرح البرقوقى ٤٨٠ .

(٧) انطق أو أرين : حين أرين لكم عدوئى .

ويتخذ المجداء أحياناً صورة التفاضل ، والتفاضل من حيث الشكل تتألف من قصيدتين وفي العادة ينظم أحد الشاعرين التناقضين قصيدة من وزن خاص وقافية خاصة ، ثم يأتي زميله فينقض القصيدة بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية ، ويجادل الشاعر أن يتعرض لمعاني الشاعر الآخر فربما محاولاً نقضها ويفتخر بقيلته . ويكثر هذا اللون من المجداء أو الحروب القسائية في شعر الأيهم وبخاصة في شعر حروب الأوس والحزرج ، كما نلاحظ أن هذا اللون من المجداء يتخذ طابع المبالغة ، ويخرج بالقصر والحماسة .

ولا نريد أن نستمر في دراسة هذا اللون ، فقد سبقنا إلى بحثه مفصلاً أساتذتنا ووفروا البحث حقه من البحث والدراسة .

وقد يرفض الشاعر المجداء ويرفع عنه لسبب ما ، ففي يوم حوارة الأول طلبت بتو سكم من صخر بن عمرو بن الشريد السلمي أن يهجو بني ططفان ، فرفض قائلاً : ما بيني وبينهم أقطع من المجداء ، ولو لم أسك عن هجائهم لأصوتاً لنفسي عن الحنا لفعلت ثم قال :^(١)

وعاذلة هبت بليل تلومي ألا لا تلوميني كفى اللوم ما بها
تقول : ألا تهجو فوارس هاشم ومالي أن أعجوهم ثم مالي^(٢)
أبي الشثم أنى إن أصابوا كرمي وأن ليس إهداء الحنا من شألي^(٣)

وهكذا نرى أن المجداء لم يكن عميقاً ولا معقداً ، بل هو حماسة واضحة مستمدة من طبيعة الحياة ، يقف الشاعر فيها عند أفكار عابرة ، وصورة مأخوذة من القيم التي عاشها الجميع ، ويسر هذه الخصومات تاريخ القبائل . ولم يكن المجداء خالصاً معبراً عن غرض واحد ، وإن افتردت بعض القصائد بموضوع المجداء ، وإنما هو في الغالب مزيج من الانفعالات المختلطة بالحماسة والقصر في آن واحد . ويتضح هذا في التفاضل التي شهدتها بعض الحروب كحروب الأوس والحزرج .

ونلاحظ أن هذا المجداء كان يمتد إلى الإ-^(٤) أحياناً ، على الرغم من أن طابعه العام لم يتسم بذلك ، ولكن حدة الخصومة هي التي كانت تهيئ له إلى الإفحاش ، بل إن بعض الشعراء كان يتحاشى المجداء .

(١) المعتمد القزيرد ٥/ ١٦٥ ، التكميل للمعتمد - طبعة مصر ١/ ١٩١ .

(٢) هاشم : هاشم بن حرملة .

(٣) الحنا : القنص في الكلام ، شألي : أعلائي .

التهديد والوعيد :

الشاعر لسان القبيلة ، يعبر عما يختلج في نفوس أبنائها من سرور أو غضب أو حزن ، ولقد مر بنا أن الشاعر كان يلقي منشعراً بمقاب القبيلة وينسبها وبأفعالها إذا كان الشام مقام فخر ، كما كان يتصدى لهجاء كل من يحاول الانتقام من قبيلته سواء أكان من داخل القبيلة أو خارجها . وربما كان الأمر يتطلب أكثر من هجاء أو توبيخ فلهذا الشاعر إلى التهديد والوعيد ، تهديد بالانتقام منهم ، وتهديد بكل الصاع صاعين لكل من تسوّل له نفسه المساس بشرف القبيلة أو سمعتها . ولم يكن الشاعر ، في سبيل قبيلته ، ليحجم عن تهديد الملوك .

وربما اتخذ التهديد أسلوب التذكير بوقائع سبقت لهم ، فقد قتل بنو أسد حُجْرًا الكندي فتوعدهم امرؤ القيس ، فقال عبيد بن الأبرص الأسدي غاضباً لمرأ القيس ، وبهذه الأبيات ومذكراً بمصر أبيه الذي قتله بنو أسد فقال :^(١)

يا ذا المَحْوُونَا بمقتل شَهِيهِو حُجْرٍ قَتَلَنِي صَاحِبِ الْأَحْلَامِ
لا تَبْكُنَا سَهْياً وَلَا سَاعَاتِنَا واجعل بكاءك لابن أم قطام^(٢)
حُجْرٍ خَدَاءُ تَعْلَوْرَتُهُ رِمَاحُنَا بالقاع بين صفاصف وإكلام^(٣)

ويستمر في وصف مقتل والد امرؤ القيس إسماعيل في الخط من شأنه وشأن أبيه إلى أن يقول :

ونسير للحرب العَوَانِ إِذَا بَدَتْ حَتَّى ثَلَفْتُ خِرَامَهَا بِضِرَامِ^(٤)
لَمَّا رَأَيْتَ جَمْرَ كَيْسِدَةٍ أَسْجَمَتْ عَنَّا وَكَيْسِدَةُ غَيْرِ جِدْ كِرَامِ
أَزْعَمْتَ أُنْكَ سَوْفَ نَأْتِي قَيْصراً فَلَتهلكنْ إِذْنُ وَأَنْتَ شَامِي^(٥)

وامرؤ القيس يتهدد بني أسد لكثرة بينهم وبينه وهو لنهم قتلوا أبايه ، ويذكرهم بأنه لن يقدمه عن حرمهم حتى ولو رغبوا هم في السلم ، ويفخر بنفسه وقهره ، وبما أعد للحرب من عدة فيقول :^(٦)

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٢٦ .

(٢) ابن أم قطام : حجير .

(٣) تعاورته : تداوَلته ، الصفاصف : جمع صفصف وهو السعري من الأرض لا تبت فيه ولا علم ، الإكلام : جمع أكنه وهي الرقعة من الأرض .

(٤) العَوَان : التي يقاتل فيها مرة بعد أخرى .

(٥) شَامِي : في الشام .

(٦) ديوان امرؤ القيس - تحقيق أبو الفضل إبراهيم ١٩٥٥ .

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا تَحْقِرُوا
وَإِنْ تَقْتُلُونَا نَقْتُلَكُمْ

إلى أن يقول مع بدءاً ما أعده لحريم :

وَأَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ وَثَائِقَ
سَبُوحاً جَوْحاً وَإِحْضَارُهَا
جَوَادُ الْحَقِّ وَالْمَرْوِزُ^(١)
كَمَعْمَعَةِ السَّعْفِ الْمَوْفِرِ^(٢)

ويتخذ التهديد والوعيد الطابع القليل فيأتي على لسان سيد الخيلة ورئيسها ويأتي هذا التهديد عقب هزيمة حلت بفيلته ، وكأنه هذا التهديد يريد رفع معنويات فرسانه ، وإسعاد صوت قبيلته للمجتمع القليل حتى لا يطمعوا فيهم . فقد التقت بنو سليم وبنو فراس في أكثر من يوم ، وفي يوم الكليله هُزمت بنو فراس قتال رئيسهم بعد مقتل ربيعة وهو عبد الله بن جندل الطعان يتهدد بني سليم^(٣)

فَصَبِرْ يَا سَلِيمُ كَمَا صَبِرْنَا
فَلَا تَبْعُدْ رِبِيعَةً مِنْ نَدِيمِ
وَكَمْ مِنْ غَارِقٍ وَرَعِيلٍ عَمِلَ
وَقَالَ يَهْدِنَهُمْ لِيضَاءً^(٤)
وَمَا فِيكُمْ لَوَاحِدُنَا كِفَاءً^(٥)
أَخُو الْمَلَأْتُورِ إِنْ دُمَ الشَّوَاءُ
تَدَارَكُهَا وَقَدْ حَمَسَ الْفَقَاءُ^(٦)

وَلَسْتُ لِحَامِيسٍ إِنْ لَمْ أُرْدِكُمْ
عَلَى قُبِّ الْبَطُونِ مُضْمَرَاتِ
كَتَابٍ مِنْ كِتَابَةِ كَالْصُرِيمِ^(٧)
أَصْرٌ بَيْنَهَا عَمَلُ الشُّكِيمِ^(٨)

(١) اللحة : من الحث والسرعة ، اللزد : من إزادها في سيرها ،

(٢) سبرجاً : فرساً تسبح في سيرها ، الجموح التي تلعب على وجهها في السرعة . الأحطار : فوق الشرب ، العمعة : صوت الزل في السف .

(٣) المعند القريد ٥ / ١٧٥ .

(٤) كطاه : كقول .

(٥) رعييل : الجماعة القليلة من الرجال والخيول .

(٦) الأغاني / ثقاته ١٩ / ٣٠ .

(٧) الصريم : القطعة من الليل .

(٨) قب : جمع آقب وهو ما حل خصمه وضمر بطنه . الشكيم : الحديدة المعترضة في فم القرس .

وفي حرب داحس والغبراء يتهدد قيس بن زهير العبسي بني فزارة ، ويقول بأنه لم يعد مكان للسلم بيننا بسبب خسرتهم المتكررة ، ولم يعد مجال بينهم إلا القتال ولقاء الفرسان ، ويقسم بأنه ليهبطن بلادهم مع فرسان قومه حتى ترى بها منهم ملاحم تشيع غيا الأبصار غولها :^(١٥) .

إِن الْمَوَادَّةَ لَا هَوَادَّةَ بَيْنَنَا إِلَّا التَّجَاهُدُ فَاجْتَهِدُنْ فِرَارًا^(١٦)
إِلَّا التَّنَزُّوَارُ فَوْقَ كُلِّ مُقَلَّصٍ يَدِي الْجِيَادُ إِذَا اخْتَمِسُ أَغَارًا^(١٧)
فَلَا هَبْطُنَ الْحَيْلَ حَرًّا بِلَادِكُمْ حَقُّ الْأَبَاطِلِ نَبْدُ الْأَمْهَارِ^(١٨)
حَتَّى تَزُورَ بِلَادَكُمْ وَتُرَى بِهَا مِنْكُمْ مَلَاخِمُ تُغْنِيْعُ الْأَبْصَارَ

وعندما يقتل سيد من سادة القوم يتصدى شاعرهم مهلداً يقتل سادة القوم ثاراً لهذا السيد . ففي يوم يعن عاتل قتل الحارث بن ظالم المري خلد بن جعفر الكلابي ، فتصدى عبد الله بن جعدة للكلابي مهلداً خطفان :^(١٩)

فَلْيَقْتُلُنْ بِخَالِدٍ سِرًّا وَإِكْمِ وَلْتَجْمَعُنْ لِلظَّالِمِينَ تَكَالَا
فَإِذَا رَأَيْتُمْ عَارِضًا مَهْلِكًا مِنَّا فَإِنَّا لَا نَحَاوِلُ مَا لَا

ويلقى الفرسان في المعركة ، ويضمن أحدها الآخر برحمه فينجو من تلك الطعنة وينجو من الموت ، ويشور الفارس الآخر ويوجد هذا الفارس بأنه إن تجا هذه المرة قلن ينجو منها في المرة القادمة ، هذا عامر بن الطفيل يهذ ضبيعة بن الحارث فارس عيس الذي لحق عامراً يوم الحار على عيس واستاق إليهم وطعته برحمه فهاز فحمل عليه عامر فطعته ولكنه نجا فقال عامر :^(٢٠)

فَلَا تَنْجُ مِنْهَا يَا ضَبِيْعَ فَإِنِّي وَجَدْتُكَ لَمْ أَهْبِدْ عَلَيْكَ الْجَانِيَا^(٢١)
فَأَنْزَلْتُ إِنْزَالَ مِثْلِي مِثْلُهُ بَنَجْلَاءَ بَلَّتْ ظَهْرُهُ وَالْمَانِيَا^(٢٢)

(١) الطائفي ١/ ١٠٢ .

(٢) التجاهد : القتال .

(٣) مقلص : فارس طويل القوائم منضم البطن مشعر .

(٤) الأباطل : جمع لبطل وهو ما بين أمر الضلوع إلى الزور .

(٥) المقد القريد ٥/ ١٣٨ .

(٦) ديوان عامر بن الطفيل ١٢٣ .

(٧) الهاتم : العوزة .

(٨) نبلاء : واسعة ، للأكم : لحيات على رأس الزورك .

ويكون التهديد أحياناً بالمجاء بالشعر ، وهذا ما فعله حنتره حينما قُتل بنو العُشراء من مازن فِرَواشاً العَبَّيَّ بحذيفة ، فقال مهدداً بن العُشراء بأنه سيأتيهم عنه فصائد هجاء تعمدهم ونغمرهم وستكسبهم كالأردية ، وكالفلاحت في أعناقهم لسيهمهم ولميزهم :^(١)

سِيَّاتِكُمْ عَنِّي وَإِنْ كُنْتُ نَاقِيَا دُحَانُ الْعُلَّكِيِّ دُونَ بَيْتِي بِذُودِ
فَصَائِدٌ مِنْ قِيلٍ أَمْرِي بِهِ يَحْتَدِيكُمْ بَنِي الْعُشْرَاءِ فَارْتَدُوا وَتَقَلَّدُوا

ولم يكن الفارس ليخل من فروسيته وجريته حتى ولو كان مكبلاً ، وفي قبضة الأعداء ، فهو جدهم ويذكرهم من يكون ، أسر سَحِيم بن ذُكَيْل الرِياحِي يوم الشَّعْب فقال :^(٢)

أَقُولُ لِحِمِّ الشَّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونِي أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي ابْنُ فَارَسٍ وَهَذِمِ

ولم يكن الشاعر ليخف عند أحد في تهديده ووعده ، فهو يتوعد للوئك إن حاولوا تقض ما بينهم وبين قبيلته ، أو إن هم حاولوا الاعتداء عليها . وقد قتل الحارث بن عَاقِلَ لُثْرِي لَبْنُ الْمَلِكِ النعمان ، وفخر بذلك وتوعد النعمان فقال :^(٣)

فَالسِّمَ لَوْلَا مَنْ تَعَرَّضَ دُونَهُ لَخَالَطَهُ صَافِي الْحَلِيدِ صَارِمٌ
حَيَّتْ أَبَا قَابُوسَ أَتَكَ سَالِمٌ وَلَمَّا تُعْصِبُ ذُلًّا ، وَأَنْفُكَ رَاجِمٌ

ثم يتحدث عن كيفية قتله إبه ، وبأنه فُكَّ به كفا فُكَّ بخالد بن جعفر العامري ثم يذكر السب فيقول :

أَخْصِي حِمَارَ بَاتٍ يَكْدُمُ نَجْمَةً أَتَاكُلُ جِيرَانِي وَجَارَكَ سَالِمٌ
بَدَأْتُ بِهَذِي ثُمَّ أَتَيْتُ بِهَذِي وَقَالَتْ قَبِيضُ مَتَاهَا الْمَقَامُ

وهذا شاعر آخر يتوعد النعمان بن المنذر ويهجو ، وهو يزيد بن الحُلَاقِ الشَّيْبي فيقول له بأنه عائن خلدع يقضي ضميمه غير ما يبدى ، ويذكره بأنهم قوم يرفضون الخضوع ، وإن أصلهم

(١) ديوان حنتره - شرح عبد المتعم شلمي ٤٧ - ٤٨ .

(٢) نهاية الأرب للذَّهَبِي ١٥ / ٤١٨ .

(٣) الفضلية رقم ٨٨ .

(٤) من تعرض دونه : حرسه ، لخالطه صافي الحليدية : لقتله .

(٥) أبو قابوس : كنية النعمان .

(٦) أخصى حمار : يخاطب النعمان ، يكدم : يعض ، النجمة : التبت على وجه الأرض ليس له ساق .

(٧) الخلدع : التواصي .

لا يسمح لهم بذلك ، وأنه إن فكر في غزوهم فإن كتاب الموت مستفاد ، ثم يتساءل هل طمعت
لينا لأنك حبيبنا قوماً ضعفاً ولا نحسن الذكر والفر: (١٠)

نعمان إنك خائنٌ خديعٌ يخفي ضميرك غير ما تبدي
فلما بدا لك نحتُ ألقينا فليكنها إن كُنتَ ذا حرورٍ (١١)
يا بني لنا انا ذوو أنفد وأصولنا من عجب المجد (١٢)
إن نغر بالخرقاء أسرتنا نلقى الكتاب دوتنا تروي
أحييتنا لحماً على ونهم أم حيلتنا في الأسر لا تُجدي (١٣)

ويتهاد قوم توما على لسان شاعرهم ، فتصلي شاعر هؤلاء للرد على تهديد أولئك وبأنهم
مستعملون لوعيدهم ، ولهم ملائون خيلهم على سفوان ، وهو مكان تواجدوا عنده وأن الذين
سيلاوتهم هم قوم عرفوا هروب القتال كما عرفتها جياثهم ، فهم ليوت طمان في يوم الطمان ،
وستعرفون ضربات سيفهم الصارمة البترة ، هذا وذلك المألوف يد على وعيد بني شيان القوم
يوم سفوان فيقول: (١٤)

رؤيداً بنى شيان بعض وعيدكم تلاقوا غداً خيل على سفوان
تلاقوا جهاداً لا تحيد عن الوعى إذا الخيل جالت في القنا المتناهي
عليها الحكمة العزم من آل مازن ليوت طمان كل يوم طمان
تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم على ما جئت فيهم يد الخذلان (١٥)
مقاديم وصلون في الروح خطوهم بكل رقيب الشكرين يائي (١٦)

وكما مر بنا فإن التهديد والوعيد قد يأتي ضمن فخر أو هجاء ، فكتلك قد يأتي ضمن ولله
لقراس من قراس القبيح أو سيد من ساداتها ، فيتهاد الشاعر الأعداء بالشر منهم ، فقد قيل

(١) الفضيلة رقم ٧٨ .

(٢) الأكلة : الشجرة ، جعلها مثلاً لهم ، الحرد : القصد .

(٣) للحد : الأصل ، الخرقاء : الجهل ، تروي : من الريان ، وهو فوق الشئ وتون الملو .

(٤) الوهم : ما ولى اللحم من التراب من خشية أو حصر .

(٥) العقد الفريد ٥ / ٢٠١ ، حلسة أبي تمام شرح الفرزدق ١ / ١٢٧ وما بعدها .

(٦) الخذلان : الدهر .

(٧) مقاديم : جمع مقام ، الروح : الحرب .

لقبطين زُوراة يوم شُعب جيلة ، ورثته ابنته دَحْكوس وهدمت وتوعدت بني عامر جزء ما فعلوا
بأيها قتلت : (١٠)

فإن تُعقِب الأَيَّامُ من فارمر تَكُنْ عليك حريقاً لا يُرامُ إذا سَما^(١)
لتجزيكُم بالفصل قتلاً مُضَعُفاً وما في دماءِ الحُتسِ يا مالٍ مِن بُوا^(٢)
ولو قتلتُنا غالبُ كان قتلتُنا علينا من العارِ المُجَدِّع للعلل

وقد يخذ التهديد والوعيد أسلوب النفاقض ، ففي يوم تُعَب بن عمرو لما زني كان حاصم
يطلب أُمَيَّة بدم أخيه تُعَب ، فقال أُمَيَّة عندما بلغه ذلك : (١١)

لَبِثْتُ أُنْكَ جِلْتِ نَسْرِي بين داري والقَبْاةِ
فلقد وَجَدْتُ بجانبِ الضَّحْبِ لَينَ شَبَّاناً مُهابةً
فتيانَ حَربٍ في الحديدِ وشامسين كَأَسَدٍ غابةً
هم نَكْبُوكُ عن الطريقِ قِيتُ تَركبُ كُلَّ لَابة^(٣)
أَعَصِمَ لا تُجَزَّعُ فإن الحربَ لَيسْتَ بالدُّعابة^(٤)
فأنا الذي صَبَّحْتُكم بالقومِ إذ دَخَلُوا الرُّجابة^(٥)
وقلتُ كَما قَبَلُها وعلوتُ بالسيفِ الدُّوابة^(٦)

وقد أجله حاصم فقال : (١٢)

أبلغ أُمَيَّةَ إن عَرَضَ تَ بداره عَني جوابةً
وأنا الذي أَعَجَلْتُ عن مَقْعَدِ أُنْسي كِلابةً
ورميته سَهياً فَأَعْطاه وَأَخَذَ حَقَّ نَمِّ عَليهِ هابةً

(١) الأَخاني/ كـ ١١ / ١٤٥ .

(٢) تُعَب : تترك .

(٣) بُوا : قنصه ، نظير .

(٤) الكَفال لأين الأثير ١ / ٦٦٠ - ٦٦١ .

(٥) نَكْبُوك : تحوك ، اللابة : الحرة من الأرض .

(٦) عَصِم : تصغير حاصم استعمل هذه الصيغة للتحقير .

(٧) الرُجابة : الأرض الواسعة .

(٨) الدُّوابة : الرأس ، شعر مقدم الرأس .

(٩) الكَفال لأين الأثير ١ / ٦٦٠ - ٦٦١ .

وقد يمزج الرجل بالتهديد ، ولئلاهم ين يزيد يجرخصمه يوم شمر يعلم اليادي في الظلم
ثم يتهدد بغزوه إن لم يتعظ فيقول : (١)

يا مالٍ لا تغيبن ظلماتنا يا مالٍ إنا معشر أنف
يا مالٍ والحق إن قممت به فيه ولينا لأمرنا نصف
إن بجيراً عبداً فخذ ثمناً فالحق يوفى به ويعترف
ثم اعلمن إن أردت ضيم بني زيار فإني ومن له الخلف
لأصحن دلوكم بلي بليب جوني له من أمامه عزف (٢)

ونلاحظ أن أسلوب القسم بكاء يصبح صفة ملازمة لشعر التهديد ، وربما خال الشعر في
قسمهم ، كما يلاحظ أن شعر التهديد اتخذ الصور التالية : التذكير بوقائع سبقت لهم ، التهديد
القبل والتهديد الفردي وهذا اللون يلائم قصائد الفخر والرتاء ، والتهديد بالمجاهة بالشعر ،
والتهديد بعلم اليادي في الظلم على الظالم يرعوى ، التهديد للملوك إذا ما فكروا في غزو
القوم ، الرد على تهديد قوم ، التهديد بمزج برجاه .

وقد يستغل التهديد والوعيد بمقطوعة أو قصيدة ولكن الغالب عليه أن يأتي ضمن
موضوعات أخرى كالحياة والفخر والرتاء والمجاهة .

الرتاء :

وهو بكاء الميت ، والتغني بفضائله ، وإظهار القوّة والأي على قرائه ، كما أنه تبيان
لخسارة القوم بوقته . ولكن شعر الرثاء في مجموعة شعر الأليام هو صورة من الفخر والحياة في
تلك الحروب ، ولا نجد في رثائهم من التضجع والتوجع للقتل إلا ما جاء على ألسنة التوائج أو
نسوة القتل من أهله كزوج أو أمه أو شقيقته ، وحتى أولئك النسوة كن يتجلدن ولا يظهرن
الجزع والحزن ، لأن القتل مات في ساحة الشرف دفاعاً عن قبيلة وعن عرضه وجاه .

ولعل ارتباط هلاك القوم بالملامعات القبلية يجعل الشاعر لا يفتح بالتعبير عن حزنه وأساءه ،
بل يضيف إلى ذلك التعبير عن شدة مسخطه ويبلغ حقدّه على أعداء قومه الذين كانوا سبب

(١) الألفاني / كتب ٣ / ٢٦ .

(٢) ظلماتنا : ظلمات .

(٣) نصف : النصف .

(٤) بلي بليب : بجيش كثير العدد والقوة ، جون : أسود . عزف : صوت وبجة .

هلاكلهم ، ونرى الشاعر لا يلبث أن يخلع رداء الحزن والأسى ، ويثوب إليه تجمده وتنسطرم في صدره الأحقاد فيترعد القوم ببقاء قريب كما يذكرهم بما فعل بهم ، لقد قتلت نعيم ذؤاباً الأسدي يوم غزو ووقف أبوه يريته مذكراً بما فعله القتل بهم من هتك بيوتهم ، ويذكر بقتل حُنية بن الحارث بن شهاب فارس نعيم :^(١)

ولقد علمتُ على التجلُّدِ أن الرزيةَ كان يوم ذؤاب^(٢)
أذؤابُ إنسي لم أعبك ولم أقمُ للبيعِ عندَ تحضرِ الأجلاب^(٣)
إن يقتلوكَ فقد هتكتَ بيوتهم بعنيةَ بنِ الحارثِ بنِ شهابِ
بأحيمهم فقدأُ إلى أعدائهم وأشدنهمُ فقدأُ على الأصحابِ

وكان مقتل فارس من فرسان القبيلة يعتبر كرامة لها ، لأنها فقدت شجاعته ولونه ، كما أنها فقدت مثلاً يحتذى في الفروسية ، ووقف الشاعر عندها يرى هذا الفارس ويبين أثر ذلك الفارس ثم يقسم بأنه ليشرك في قتله ، وفي حرب داحس والغبراء قُتل مالك بن زهير العبيسي ، فوقف عشرة يسجل ذلك ويضمني لو لم يكن رهان حتى لا تتور الحرب ويقتل مالك ، ثم تراء بعد القتل بأنه لو بقي حياً بعده وأمكنه الشعر فيسفعل بالقوم ما نقر به عيائه :

له عينا من رأى مثل مالك حقيرة قوم ان جرى فرسان^(٤)
قلبتها لم يجرها نصف غلوة وليتها لم يرسلها لرهان^(٥)
وليها ما أجمعاً يلدو وأخطأها نيسُ فلا يران

ثم يقول :

لقد جلبنا حيناً لصرع مالكو وكان كرمياً ماجداً طيجان^(٦)
وكان لدى الغبياء يحسي ذملوها ويطعنُ عند الكركل طبعان^(٧)

(١) الامالي للخال ٢ / ٧٢ - ٧٣ .

(٢) الرزية : للنية الشديدة .

(٣) الأجلاب : جمع جلب وهي النعم لجلب من موضع إلى آخر .

(٤) دوران حتره - تحقيق عبد النعم الشامي ١٧٧ .

(٥) العقيرة : الرجل الشريف يُقتل .

(٦) الغلوة : الطلق .

(٧) ذملر : ما يهني حياته والولد عنه .

ثم بين ما فعله خير مقله :

فقد هذركني قصدة ومصابة
لوا أسفا كيف انتشى عن جوارحه
وعلى فزاعي دائم الحفظان
وما كان سيوفي عنده وسباني

ثم بعده بأن يشاركه منهم فيقول : (١٧)

فسوف ترى إن كنت بعدك باقيا
والسليم حقا لو بقيت لينظروا
وأمكنني دهر وطول زمان
لقرت بها عينك حين ترائي

وكان مقتل كليب بداية حرب البسوس الطويلة بين حتي ربيعة : بكر وتغلب ، وهجر مهلهل
آخره حيلة اللهو التي كان يجيها ، وانطلق يجمع تغلب للأخذ بالثار ، وقد رثاه بقصائد منها هذه
القصيدة التي يقطع في آخرها حل نفسه عهداً بهجر كل حيلة اللهو والدعة ، وبأنه لن يخلع درعه
وسيفه حتى تبيد سرأوة بكر فلا يبقى لها أثر أبداً . (١٨)

ختر العهد الأحمذ على عمري
وحجري الغلليات وشرب كائي
بسررتي كل ما حوت الديار
ولبي جنة لا تستعار
ولست بخالغ زوسي وسبي
إلى أن يخلع الليل النهار
ولا أن تبيد سرأوة بكر
للا يبقى لها أبداً أثراً

وحيناً أسرت بشو ملون فرواش بن حسي العبي ، وكان فرواش قتل خليفة بن بدر
الفزاري يوم الحفابة ، فقتله بحيلة ، فقال عشرة برقي فرواشاً ويغارن به وبين الذي قيل
به : (١٩)

هذركم خير أباً من أبيكم
وأطمعن في الهيجا إذا الخيل صدتها
أحف وأوفى بالجوار وأحد
عداء الصباح السهري القصد
فهدلاً وفي القفواء عثرو بن جابر
بلموس وأسن اللفيطر عصيدة

(١) الديوان - تحقيق عبد اللعيم شلي ١٧٨ .

(٢) أخبار الواقعة - حسن السنوسي ٢٧٦ ، بكر وتغلب ٤١ .

(٣) ديوان عشرة - تحقيق عبد اللعيم شلي ٤٧ - ٤٨ .

(٤) هدي : جاز يجر عليهم ما يحرم من الهدى .

(٥) السهري : الرمع الملب العود . القصد : الأكرع بتصفين حتى يرون ، أي حين يشتد الهاس
فتكسر الرياح في صدور الأقراس .

(٦) القفواء : أسم موضع ، عصيد : هو المليون ، الكره على الشيء .

ثم يتهددهم بأنه سيرسل إليهم قضاة يحجروهم بها على الرغم من بعده عنهم فيقول :

سَيَأْتِيكُمْ عَنِّي وَإِنْ كُنْتُ نَاقِيًا دُعَانُ الْعَلَنِيِّ دُونَ بَيْتِي مَلُودًا^(١)
قَصَائِدُ مِنْ قَبْلِ أَمْرِي وَيُحْتَلِيكُمْ بَنِي الْعُشْرَاءِ فَارْتَدُّوا وَيَقْتُلُوا^(٢)

ولم يكن مقتل سيد القبيلة وفارسها ليوهن العزائم ، ويجعلها تولول وتبكي ، ولكنه يشير
حقدًا وغضبًا على الأعداء ، ولا ينسى الشاعر وهو يري ذلك السيد أن يذكر القوم بأنهم أخذوا
بشره من القوم قتلاً ومن سلبتهم ، ففي يوم غَزَوْ قُلَّ حَتَّيَّةَ بْنِ الْحَارِثِ الْيَرْبُوعِي سِيدَ يَرْبُوعٍ
وفارسها ، فَرَنَاهُ مَتَمُّمُ بْنُ لُؤَيَّةٍ فَقَالَ : ^(٣)

وَنَحْنُ بِخَوْ إِنْ أَصِيبَ عَمِيدُنَا وَغَرَّدَ عَنْهُ كُلُّ بُكْسِرٍ مُرْغَبٍ^(٤)
أَبَانَا بِهِ مِنْ سَلْدَةِ الْحَسِيِّ مَيْتَةً وَكُنَّا مَتَى مَا نَطْلُبُ الشَّارَ نُلْغَضِبُ^(٥)

ولكن الحزن والجزع على الفارس السيد الذي رحل لا يد وأن يطغى على شعر بعضهم ، لما
لهذا الفارس من منزلة في نفوسهم ولما يتحل به من الفضائل ، فقد قُتِلَ رَيْبَعَةُ بْنُ مَكْنَمٍ وَصِيمُ بَنِي
فَرَّاسٍ وَسَيِّدُهُمْ ، وَقَدْ فَرَّسَاهُمْ بَعْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدَّلِ الطَّعَانِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا الْفَارِسَ لَمْ
يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْفِيَ حَزَنَهُ وَجَزَعَهُ عَلَيْهِ ^(٦) :

خَلَّ عَلِيٌّ رَيْبَعَةً بِنُ مَكْنَمٍ حَزَنًا يَكَادُ لَهُ الْقَوَادُ يَزُولُ
فَإِذَا ذَكَرَتْ رَيْبَعَةً بِنُ مَكْنَمٍ ظَلَمْتُ لِدُجْرَاءِ الدَّمُوعِ تَسِيلُ
يَغْمُ الْقَسَى حَيًّا وَفَارِسُ بَيْمَةٍ يَسْرِي بِشَكْوَى بَكْلِ ذَمِيلِ
سَقَتْ السَّكْدِيَّةَ وَمَنْ بِهِ رَجِيَّةٌ وَالنَّاسُ إِمَّا هَالِكٌ وَتَقِيلُ

إلى أن يقول وقد عاد إلى رشده وتذكر لحظة الضعف التي انبثت ، ويذكر واجبه :

كَيْفَ الْعِزَاءُ وَلَا تَزَالُ خَرَبَةً تَبْكِي رَيْبَعَةً - غَادَةً عَطْبُولُ
يَا بِي لِي اللَّهِ الْمَذَكَّةُ إِنَّمَا يُعْطِي الْمَذَكَّةَ عَاجِزٌ تَبِيلُ

(١) العَلَنِيُّ : ضرب من شجر الرمل له دخان شديد ، اللُودُ : اللسان .

(٢) يُحْتَلِيكُمْ : يحيطي فلان النعل إذا اتعله ، وهو هنا يحيط من شأنهم .

(٣) معجم ما استعجم - البكري ٢ / ٥٦٩ .

(٤) غَرَّدَ : أعجم وتكل ، تكس : ضعيف وجبان .

(٥) أَبَانَا : قلنا .

(٦) الأَخْفَى / قلعة ١٦ / ٢٩ .

وعندما قتل مالك بن زهير رثاه الربيع بن زياد الحنصلي ، وبين منزلة القتل في قبيلة وما فعلته نساء القبيلة عندما علمن بمقتله ، ثم يرى أن قتله لن يمر إلا بالويلات والحروب ، ويجترأ أولئك الذين مروا بمقتله بأن الأمر لن يكون سهلاً ، فليسوف تستمر الحروب وتطول ويذهب ضحيتها الكثيرون (١)

أقيعدُ مقتلُ مالك بن زهير ترجو النساءُ عواقبُ الأبطالِ
ما إن أرى في قتله لنوي الحيجا إلا الطليقُ تُشدُّ بالأكوارِ (٢)
ومساعيراً صدأ الحديدِ عليهم فكأنما طُلبَ الوجوهُ بفارِ (٣)
يا ربَّ سرورٍ بمقتلِ مالكِ ولسوفَ يصرفُ بشرَ عمارِ (٤)

وحياة الجاهلية كانت حياة قروسية وبطولات والبقاء فيها للأقوى ، لذا فقد كان الفارس يتزعزع إعجاب المدوق قبل الصديق ، فلما سقط هذا الفارس رثاه قبيلة ، كما يرثيه آخرون من غير قبيلة إعجاباً بفروسيته أو لرابطة تربطهم به ، فعندما قتل ربيعة بن مكرم رثاه رجل من بني الحارث بن الخزرج فقال : (٥)

أبلغ بني بكرٍ وخُصمٌ فوارساً لحقوا الملامةَ دون كلِّ لحائلِ
أنتنتم جندك الطعان أخاكم بين الكنديرِ وقلعةِ الأعرانِ (٦)
حتى هوى متزايلاً أوصاله للخصمِ بين جنادلٍ وقفاؤِ (٧)
له ذرٌ بني عليٍّ إنهم لم يثاروا عزفاً وحيً خفافِ (٨)

وعندما رثى كعب بن زهير ، وكانت أمه من كنانة ، وبيعة بن مكرم أحد بعض القوم حل بني سليم الذين قتلوه ، ويعني بالدماء التي أودها إلى بني سليم وهم لا يدركون قتالهم عندما

(١) الأعرابي / تقييد ١٧ / ١٢٠ ، التلخيص ١ / ٨٩ ، أمثال النسي ٣٠ .

(٢) الأكوار : جمع كور وهي الرجل .

(٣) مساعير : الشعر موقد الحرب .

(٤) عمار : مرجع .

(٥) الأعرابي / تقييد ١٦ / ٢٢ .

(٦) أخاكم / يعني ربيعة بن مكرم .

(٧) متزايلاً : تزايد ليلين ، جنادل : جمع جندل وهو الصخر العظيم ، خفاف : القف ما ترفع من

الأرض وصلبت حجارتها .

(٨) حي خفاف : يعني سليماً .

بدرك قتل ولا دية ، فبعد أن حبر عن همه وحزنه لقتله قال : (١)

أبلغ كينانة غنها وسميتها النازلين رباها بالفاطر
إن اللآلئ أن تطل دماؤكم ودماء عوفو ضامن في العاهر
أموالكم عوض لهم بدمايتهم ودماؤكم ظلف لهم بقعاين
طلبوا فادرك وثرهم مولاهم وأبت حملكم إباء الحارين
شدوا المائر واثاروا بأخيتكم إن الحفائظ نعم ربح الثامن

ويستزع الفارس إصجاب واعتراف خصمه بشجاعته ، فالفرسية والبطولة يقدرهما من كان فارساً مثله ، وعندما يسقط هذا الفارس صريعاً في ساحة الرمح ، يقف خصمه في الميدان بوليه ويعترف بشجاعته ، وهذا ما سطره له غرضاً عاماً وهو للتصفيات .

وعندما يلفد الأخ أعاء في ساحة القتال ، يقتله الأعداء ، فإن مزيجاً من الحزن العميق ، والنفقة على الأعداء ، يتجهان على نفس الأخ ، فقد أصبح وحيداً ، وإذا كان الفارس يعنيه أمر فقد فارس من فرسان قبيلة العنسية تجمع بينهما ، فكيف به إذا فقد أعاء ، وفي يوم اللوى قيل عبد الله بن الصمة ، وكان أخوه يزيد نصحه بأن يكفي بما ناله من القوم ويعود فلي ، وعندما علم يزيد بمقتل أخيه قال مصوراً لنا مشهداً حزيناً ، ومدحاً لذلك الفارس الذي تمجده في الميدان ولستمع إلى مطلع القصيدة يقول : (٢)

أمرتهمو أمري يتعرج اللوى فلم يستينوا النصح إلا ضحى الغر
وما أنا إلا من غزوة إن غوت غوت وإن ترشد غزوة أرشد
تصادوا فقالوا : أودت الخيل فارساً فقلت : أهد الله ذلكم الردي
غداة دعاني والرماح ينشئ كوقع الصياص في النسيج الممدود
وكننت كذات البور بعث فأقبلت إلى جدم من منلكو سقب مجلدود

(١) الأختي / لقطة ١٦ / ٢٨ .

(٢) الأصمعية رقم ٢٨ .

(٣) منبرج اللوى : اللوح الذي كانت به الوثقة التي تمل فيها عبد الله بن الصمة .

(٤) غزوة : أحد أجداده ، غزوة بن جشم .

(٥) الردي : المالك .

(٦) المياضي : جمع صيغة وهي شوكة الخناك التي يسوي بها السادة النخبة ، ينش : يتنوله .

(٧) البور : ولد الناقة يلبس ويخشي جلده تباً لتعلق عليه وتركه قدس عليه ، ربعث : فرعت ،

جدم : جمع جلده وهي القطعة ، المنك : الجلد ، السقب : ولد الناقة ، المجلد : السلخ .

فطاعنت عنه الخيل حتى تيددت وحس علاتي حالك اللون أسود
طعان امري و أمي أضاء بنفسه وأعلم أن المرة غير غلد

ثم يبدأ بذكر حاسن الخيل ومفاخره إلى أن يصل إلى نهاية الطواف فيذكر أنه بما يطيب
خاطره أنه لم يكذب في حياته ولم يدخل عليه بما ملكته يده :

وطيب نفسي أنسي لم أقل له كتبت ولم أبخل بما ملكت يدي

ومعرض لنا عبد الله بن عتبة رضي صورة لقارم يكر بسطام بن قيس الذي سقط قتيلاً
يوم نفا الحسن ، وكان عبد الله رضي منقطعاً إلى أخواله بني شيان ، ميتاً فيها ما انتاز به
بسطام من فروسية ونبل وكرم وشجاعة ، وكيف هوى صريعاً ، ويحق لقومه أن يحزوا عليه من
بعده لأنهم قتلوا بطلاً ومطعماً ومقدماً : (١)

لأم الأرض ويل ما أجت	غداة أضرب بالحسن السيل ^(٢)
نفسم ملكه فينا وتدهو	أيا الصهباء إذ جتح الأصيل ^(٣)
أجلك لن تراه ولن تراه	كحبا به غدا فرة فمولى ^(٤)
حقيه وحله بدن ومرج	لعارضة مرتبة ذول ^(٥)
لك المرباع منها والصفايا	وحكمك والنشيطه والفضول ^(٦)
لقد ضيحت بنو بدر بن عمرو	ولا يوفي بسطام قتل ^(٧)

وبين لنا كيف سقط صريعاً فيقول :

فخر على الألام لم يؤد كأن جيته سيف صقل^(٨)

(١) الأصمعي رقم ٨ ، التلخيص ١ / ١٩١ ، العقد الفردي ٥ / ٢٠٢ .

(٢) أجت : سرت ، الحسن : كتيب جديد ، أنسبه : دنامه .

(٣) لبو الصهباء : بسطام ، الأصيل : المعنى .

(٤) أجلك : أجعد منك ، العذارة : الشدة الضخمة واردة الناقة . المولى : السريعة .

(٥) بدن : خرج قصيره ذول : سرقة للشيء في حيلة .

(٦) المرباع : ربع الغنمة ، الصفايا : ما كان يعطيه الرئيس من خيار الغنمة ، النشيطه : ما

أصابه الجيش في طريقه ، الفضول : ما فضل فلم ينقسم

(٧) الألامه : شجرة من شجر الرمل .

ثم بين لنا لم جزع عليه قومه :

فإن تجزع عليه بنو أبيه لقد فجعوا وفاتهم جليل
يطمعهم إذا الأشوال راحت إلى الحجرات ليس لها فصيل^(١)
ويقدام إذا الأبطال خامت وعردت عن حليته الحليل^(٢)

ويكون الرثاء أحياناً بكاءً للقوم الذين تفرقوا وفُتوا ، فقد فكت أسد بأهل امرئ القيس عندما قتلت أباه حَجْرًا ، فقال يكيهم ويصور لنا أنهم قُتلوا غُثْرًا ولم يَقتلوا في معركة ، وكيف تلوش جشهم الطير ، وتشرع حواجبهم وعيونهم : ^(٣)

ملوكاً من بني حَجْر بن عَمْرٍو يساقون المنيّة يقتلونا
فلو في يوم مشركتكم أصبوا ولكن في ديار بني مرينا^(٤)
فلم تغسل جاجيتهم بغسل ولكن بالدماء مرمتنا^(٥)
نظل الطير عاكفة عليهم وتشرع الحواجب والغيرنا^(٦)

ويقف عبيد بن الأبرص الأسدي يكي قومه بني سعد بن ثعلبة الذين أبادتهم الحروب والمنايا في حروبهم مع الغساسنة ، وبلطت الشاعر إلى الذين سبقوه من الأقوام ، ويرى أن ما أصاب قومه هو ما أصاب من قبلهم ، ألا وهو خراس الحروب والمنايا العواقب ، ومثل هذه الإلفظة قلما تجدها في شعر الأيام ، لأن الحروب والصراعات لم تكن تسمح للشاعر بالتأمل فيها حوله وما قبله .

لئن طلل لم تعف منه الذائب فجنبنا حير قد تعفى فواجب^(٧)
ديار بني سعد بن ثعلبة الألي أذاع بهم دهر على الناس رائب^(٨)
فلأذهبهم ما أذهب الناس قبلهم خراس الحروب والمنايا العواقب^(٩)

(١) الأشوال : جمع شول وهي الأيل التي شالت اليد أي لوشتت ، الحجرات : حظائر الأيل ،

القصيل : ولد الذئب

(٢) خامت : جئت ، عرد : احجم وفر (٣) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٨

(٤) بنو مرينا : قوم من نعل الحيرة بتسمية الكوفة ، غسل : ما غسلت به رأسك أو ثوبك

(٥) الكامل لأبن الأثير ١/ ٥١٣ ، ديوان امرئ القيس ٢٠٠

(٦) الطير : جماعة النور والظبان

(٧) الذائب : جمع أقب وهو أسفل الرائي ، حير ، واجب : مكثان

(٨) بنو سعيد قومه ، أذاع بهم : فرقهم ، رائب : شديد ، أذهبهم : أقتلهم

(٩) العواقب : التي تأتي مرة بعد مرة

الأوبُ حَيٌّ قَدْ رَأَيْنا هُنَا لِكُمْ لِمِ سَلَفُ تَرَوُزُ مِنْهُ الْمُقَابِ^(١)
فَأَقْبِلْ عَلَى أَصْوَاقِ سَهْمِكَ إِذَا تَكَلَّفْتَ فِي الْأَشْيَاءِ مَا هُوَ ذَاهِبُ^(٢)

هَذَا مَا اتَّفَقْنَا إِلَى مِرَاثِي الشَّوَاهِرِ فِي شَعْرِ الْأَيَّامِ فَتَمَحُّنْ وَاجِدُونَ مِنْهُ الْكَثِيرَ ، لِأَنَّ لِلرَّأْيِ أَكْثَرَ جُزْأً ، وَأَقْبِرْ عَلَى إِخْلَافِ الْآخَرِ وَالتَّصِيرِ عَنْهُ ، وَلِأَنَّ قَلْدَ الْفَارَسِ الَّذِي رَجَعَا كَانَ وَلَدَهَا أَوْ أَخَاهَا أَوْ زَوْجَهَا أَوْ مِنْ قَرَبَانِ قَبِيلَتِهَا ، يَعْنِي قَلْدَ سَنَدِهَا وَمِدَافِجِ عَنْهَا .

فَلَمَّا حَرَّبَ عَاصِي وَالْغُبَرَاءُ قَتَلَ مَالِكُ بْنُ زُهَيْرٍ وَوَلَدَهُ الشَّعْرَاءُ ، وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ تَمَافِرُ بَيْتِ الشَّرِيدِ السُّلَمِيَّةِ ، فَاتَّظَهَرَتْ حِزْبُهَا عَلَيْهِ ، وَالْحَسَارَةُ الَّتِي كُنِيََتْ بِهَا عَاسِي بِفَقْدِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَتْ بَعْضُ مَا لَرَّ الْقَتِيلَ مِنْ قُرَى الضَّيْفِ وَفَرُوسِيَةِ ابْنَتِهَا ، ثُمَّ تَدَعَوْ عَلَى حَلِيفَةِ بَالَا يَسْقَى الْمَاءَ مِنَ الْعَوَادِي لِأَنَّهُ لَجِبَهَا بِابْنَتِهَا الَّتِي الْكَرِيمُ الَّذِي يَعْلُو عِصاً لَوْ وُزِنَ بِهَا . وَلَحَقَمَ لِلْقَطُوعَةِ بِأَنَّهُ لَنْ تَنْقَطِعَ عَنْ بَيْكَاةِ مَا عَاشَتْ : ^(٣)

كَأَنَّ الْعَيْنَ خَالَطَهَا قَلْدَاهَا حُزْنٌ وَاقِعٌ أَقْنَى كَرَاهَا^(٤)
عَلَى وَكَلْدٍ وَزَيْنِ النَّاسِ طَرَأَ إِذَا مَا النَّسْلُ لَمْ تَرَمَنْ صَلاَهَا^(٥)
أَيُّنَ حَزْنَتْ بَنُو عَاسِرٍ عَلَيْهِ قَلْدٌ فَقَدْتُ بَنُو عَاسِرٍ فَتَلَاهَا

ثُمَّ تَذَكَّرَ شِئَانَهُ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَخَاطَبَ حَلِيفَةُ فَتَقُولُ :

حَلِيفَةُ لَا سَكَيْتَ مِنَ الْعَوَادِي وَلَا رَوَيْتَ هَامِلَةً نَدَاهَا^(٦)
كَيْمَا أَفْجَعْتَنِي بِفَتْنَى كَرِيمٍ إِذَا وَزَنْتَ بَنُو عَاسِرٍ عَلاَهَا
فَدَمَعْتَنِي بَعْدَهُ أَبَدًا مَطُولٌ وَلَا يَرْقَأُ مِنْ عَيْنِي بَيْكَاهَا^(٧)

وَعِنْدَمَا يَسْفِطُ الْفَارَسُ الْأَخَ صَرِيحاً ، يَبْزُ هَذَا الْحَالُ الْبَلَلِ أَمَحَهُ ، فَتَرِيهِ بِالشَّعْرِ مَعْبُورَةً عَنْ لَوْعَتِهَا وَحِزْبِهَا لَفَقْدِهَا الْعَيْنَ وَالسَّدَّ وَالْفَارَسَ ، وَبَعْدَهُ عَزَّةُ بَيْتِ مَكْنَمٍ تَرْتِي أَخْلَافاً رُبْعَةً الَّتِي قُبِلَ بِرُوحِ الْكَتِيدِ ، وَهِيَ حِينَ تَرْتِيهِ فَمَازَا تَطْهَرُ جُزْءُهَا لَفَقْدِهِ ، وَتُذَكِّرُ أَنَّهَا بِلَا بِهَا ، وَتُزَكِّدُ لَهُ أَنَّهَا

(١) السَّلَفُ : الْجَيْشُ الْمُسَلِّمُ ، لَزُورِ مَنْهُ : تَعَدُّلُ عَنْهُ عَمَلًا ، الْمُقَابِ : جَمْعُ مُقَابٍ وَهِيَ مِنَ الْعَشِيرَةِ فُلَانِيًا فُلَانِيَّةً .

(٢) الْوَاقِ : جَمْعُ فَوْقٍ وَهُوَ مَوْضِعُ الْقَوْزِ مِنَ السَّهْمِ وَالْأَعْدَاءِ .

(٣) رِيَاضُ الْأَوْبِ - لَوَيْشُ شَيْخِ ٤٣ .

(٤) كَرَاهَا : تَوْبَاهَا .

(٥) صَبَلُ النَّارِ : انْفِئذَهَا .

(٦) الْفَتْنَةُ : السَّحَابَةُ تَصْبِطُ بِمَطَرِهَا غُصَّةً ، الْهَامِلَةُ : السَّحَابَةُ .

(٧) رَقَأَ الْبَعْعُ : جَفَّ .

مستبقى باكية له مدى الحياة ، ومما قاله : (١)

لو كان يُرْجَعُ مَيِّتاً وَجَدْتُ ذِي رَجِيمٍ
لو كان يَفْدَى لَكَانَ الْأَهْلُ كُلُّهُمْ
لَكِنْ سَهَامُ النَّبَايا مِنْ نُعْمَيْنِ لَهُ
فَاذْهَبْ فَلَا يَبْعِدُكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ
نُسِرَتْ أَبْكِيكَ مَا نَحَسْتُ مَطْوِقَهُ

أَهَيْسُ أَحْيَيْ سَالِماً وَجُنْدِي وَإِشْقَانِي
وَمَا أُتْسِرُ مِنْ مَالٍ لَهُ رَاقِي
لَمْ يَغْنِهْ طِيبُ ذِي طِيبٍ وَلَا رَاقِي (٢)
لَأَقْسَى الَّذِي كُلُّ حَيٍّ مِثْلُهَا لَا قِيَّ
وَمَا سَرَّيْتُ مَعَ السَّارِي عَلَى سَلَفِي

وعندما يغيب الأب ، وتنفذ ابنته ذلك الأب الفلوس ، فإنها تعزّن عليه ، ولا تجد الكلمات التي تعبر عن حزنها ولوعتها ، وهي حيناً ترضيه فإنها لا تنسى صولاته وجولاته حيناً كان يصول ويجول ، بكت ابنة عتيبة بن الحارث أياما يوم مقتلها في حَرْفَاتٍ : (٣)

عَلِ يَمْلِكُ ابْنُ مَيَّةَ قَانِعِيَةٌ
وَكُنْ أَبِى عَتِيبَةُ شَمْرِيًّا
ضَرْبِيًّا بِالْيَدَيْنِ إِذَا انْتَمَعَلَتْ
تَشْقُ نَوَاعِمَ الْبَشَرِ الْجَيُوبَا (٤)
وَلَا نَلْقَاهُ يَدْخِرُ النَّصِيَّا (٥)
عَوْنُ الْحَرْبِ لَا وَرَعاً هَيُوبَا (٦)

ويخرج ولده الأب بالتهديد والوعيد للأعداء الذين قتلوه ، فقد قتلت عامر وحبس أقيط ابن زُرارة يوم شُيْبَ جَبَلَةٍ ، لو فقت ابنته فثقتوس ترضيه وتتوعد قاتليه لأنه ضُربَ بعد قتله من قبل بني حبس : (٧)

أَلَا يَا هَا السَّوِيلَاتُ وَيْلَةٌ مَنْ يَكْفَى
لَقَدْ ضَرَبُوا وَجْهًا عَلَيْهِ مَهَابَةٌ
فَلَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ غَدَاةَ أَفْئِمِّمْ
غَدَرْتُمْ وَلَكِنْ كُنْتُمْ مِثْلُ خُضْبٍ

لِيُضْرَبَ بَنِي عَيْسَرَ لَقِيطاً وَقَدْ قَضَى
وَلَا تَحْضِلُ الصَّمَّ الْجَسَادِلَ مَنْ قَوَى
لَقِيطاً ضَرَبْتُمْ بِالْأَسِنَّةِ وَالْقَنَا
أَضَاعَتْ لَهَا الْقَنَاصُ مِنْ جَانِبِ الشَّرَا

(١) الأَخْيَالُ / ثَلَاثَةٌ ١٦ / ٣٩ ، الْأَمَلِيُّ لِلدَّعَالِي ٣ / ١٢ .

(٢) رَاقِي : صِلَاحُ الرِّقَّةِ وَهِيَ حَوْلَةُ يَرْقِي بِهَا الْمَرِيضُ .

(٣) رَاقِي الْأَب - لَوْحٌ شَيْخُو ١٠٦ ، الْعَدَدُ الْقَرِيدُ ٥ / ٢٥٠ .

(٤) نَوَاعِمُ : الْبَشَرُ : النَّسَاءُ ، مَيَّةَ : أُمُّ عَتِيبَةَ .

(٥) الشَّمْرِي : الرَّجُلُ الْحَازِمُ الْمُنْكَرُ ، لَا يَدْخُرُ النَّصِيبَ : كَرِهَ أَنْ يَحْفَظَ لِنَفْسِهِ مَا يَدْخُرُهُ لَوَلَدِهِ .

(٦) انْتَمَعَلَتْ الْحَرْبُ : إِذَا قَامَتْ عَلَى سَلَاقٍ مَعْظَمُ بِلَادِهَا ، الْعَوْنُ : التَّضَامُنُ .

(٧) الْأَخْيَالُ / ثَلَاثَةٌ ١٧ / ١٣٨ .

إِلَّا أَنْ تَقُولَ مَهْدَةً بِالْإِنْتِقَامِ :

لَنَجْزِيَكُمْ بِالْقَتْلِ قَتْلًا مُضْمَعًا وَمَا فِي دِمَاوِ الْخَمْسِ مَالٌ مِنْ بَوَا

وَيْكِي الزَّوْجَةِ زَوْجَهَا إِذَا افْتَقَدَتْ ، وَسَلَطَ فِي مِيزَانِ الشَّرَفِ ، فَقَلَعًا عَنْ الْقَبِيلَةِ ، وَهِيَ لَا تَخْتَلِفُ فِيهَا تَقُولُ عَنِ الْأُمِّ وَالْأَخْتِ وَالْبَيْتِ ، هَذِهِ سَهْمَةُ زَوْجَةٍ شَدَّكَدُ الْعَيْسِيِّ تَرْثِيهِ وَقَدْ قَتَلَهُ جَبَرُ الْعَامِرِيِّ يَمَدُّ يَوْمَ الْمَهَادَةِ يَمَدُّ أَنْ تَطْهَرَ حَرْبَهَا وَارْقَاهَا لِنَفْسِهِ^(١)

فَمَنْ يَمَدُّ شَدَادَ يَحْيِي الْحَرِيمَ إِذَا الْحَرْبُ قَامَتْ وَسَالَّ الْعَرَقُ
وَمَنْ يَرْدُعُ الْحَيْلَ يَوْمَ الْوَعَى وَمَنْ يَطْلَعُنُ الْخَصْمَ وَمَنْطُ الْحَدَقِ
وَمَنْ يَكْرُمُ الضَّيْفَ فِي أَرْضِهِ وَمَنْ لِلْمُنَادِي إِذَا مَا زَعَقُ

ثم تعود ثانية لإظهار جزعها عليه فتقول :

لَقَدْ صِرْتُ مِنْ يَمَدِيهِ فِي غَضَى وَقَلْبِي لِأَجْلِ الْفِرَاقِ احْتَرَقَ

وَيَمْتَزِجُ الرِّثَاءَ الْقُرْبَى وَنَعْنَى لِفَارِسٍ فِي الْقَبِيلَةِ تَرْبِطُهُ بِالنَّحْيِ تَرْثِيهِ صِلَةً ، بِرِثَاءِ فَرَسَانِ قَوْمِهَا الَّذِينَ اخْتَضَفْنَهُمُ لِلْوَتِّ ، وَتَكُونُ الْقَصِيَّةُ عَامَةً ، فَفِي يَوْمِ ثَلَاثٍ قَتَلَ زَوْجَ الْحَرْقِ بَيْتَ هَفَانَ وَقَتَلَ فَرَسَ مِنْ قَوْمِهَا فَقَالَتْ تَرْثِيهِمْ مَذَكْرَةً بِطَوْلَانِهِمْ وَشَجَاعَتِهِمْ

لَا يَتَعَدَّنُ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ سُمُّ الْعُدَاةِ وَأَقْسُ الْجَزْرِ
الْمُتَازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرِكَةٍ وَالطَّيْمُونَ مُعَايِدُ الْأَزْرِ^(٢)
الضَّارِبُونَ بِحَوْمَةِ تَرْكَتِ وَالطَّاعِنُونَ وَخِيْلُهُمْ تَحْرِي

ثم تصور مصارعهم يوم ثَلَاثٍ :

لَا قُوا عُدَاةَ ثَلَاثٍ حَقَّقَهُمْ سَوَقَ الْعَيْسِ بِسَاقٍ لِلْعَتْرِ^(٣)
هَذَا ثِنَائِي مَا بَقِيَتْ عَلَيْهِمْ وَإِذَا هَلَكْتُ أَجَنَّتْ قُبُورِي
الْحَالِطُونَ نَحْبَتُهُمْ بِضُلَامِهِمْ وَذَوِي الْغِنَى مِنْهُمْ بِزِي الْفَقْرِ^(٤)

(١) الْأَمَالِيُّ لِلْفَرَّاسِ ٢ / ١٥٨ .

(٢) مَعَادُ الْأَزْرِ : كِتَابَةٌ عَنْ عَقْبَتِهِمْ وَطَوْرِهِمْ .

(٣) الْعَتِيرُ : الْقَلْبَانِجُ الَّتِي كَانَتْ تَقْدِمُ لِلْإِلَافَةِ .

(٤) تَحْبِيَّتُهُمْ : عَسِيْبُهُمْ ، نَظَارُهُمْ : النِّظَارُ الْحَالِصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

وللأعداء الفرسان إن سقطوا رثاء من الذين سبق أن قدموا لهم هجراً ، ولو كانوا من أعدائهم ، ففي يوم الثلاثاء الثاني قُتل يزيد بن عبد اللذان ، وهو من أشرف لجران ، وكان أخا رجل قومه وأسر أخويها ثم أطلق سبيلها ، فلما قُتل تذكورت صنيعه ففالت زينب بنت مالك ابن جعفر بن كلاب ترثه على الرغم من أنه جاء غزياً لقومها بني تميم :^(١)

سكيتُ يزيدَ بنَ عبدِ المدا نَ خلَّكتُ بهِ الأرضُ انقلافاً^(٢)
 شريكُ الملوكةِ ومنَ فضلةُ يفصلُ في المجرى أنضالها
 فككتُ أسارى بني جعفر وكثدةُ إذ تلتُ أنوارها
 ورقتُ المجاليدُ قد جَلَّتْ فواضلُ نِعماكُ أجداً^(٣)

وبقي لدينا من صور الرثاء ، ثلث نائحة القارص الذي يُقتل ، وهو لا يخرج عن كونه تجميعاً وتوجعاً للقتيل ، وذكر ما أصابهم بعده ، وذكر بعض محاسنه .

ولتحلول أن نستخلص صورة الرثاء في شعر الأيام على ضوء ما عرضنا من شواهد فنرى أن هذا الرثاء في معظمه رثاء قبلي ، وهذا هو طابعه العام ، وعلى الرغم مما نرى من صورته على لسان النائحة أو الأخ أو الأخت أو الأم أو الزوجة وحتى ما جاء على لسانين قولاً بعضه أو معظمه مرتبط بالقبيلة أشد الارتباط .

ودوافع الرثاء كما لاحظنا ، قد يكون الدافع إليه حزن الشاعر لفقد شخص تربطه به رابطة الرحم ، أو رابطة الصداقة والمودة ، أو تربطه به عصبية وولاء الشاعر لقومه ، وانفعاله له بأحداث قبيلته .

وقد يكون المرثي واحداً أو جملة ، وقد يكون عاماً يقصد به الشاعر قومه الذين ذبحوا وقتلوا وشرعوا وتبدد شملهم ، كما قد يكون المرثي سيداً من سادة القبيلة وأشرافها .

ولعلنا نلاحظ أبرز الموضوعات التي دار حولها شعر الرثاء ، فنجد في مقدمتها التجميعية وإثراجها على النفوس ، وذكر صفات الفقيد ، وما كان يتحمل به من تيل الخلق ، ومن البطولة والشهامة ، ثم ما عرضه بعض الشعراء من تهديد لأولئك الذين قتلوه بأنهم سيلاقون من قومه

(١) رياض الأديب - لويس شيخو ٩٣ .

(٢) خلَّت الأرض انقلافاً : كان الأرض لم تمد لعميل يزيد على وجهها لما فيه من الخصال فتخلت بمرثته عن هذا الحمل المهبط .

(٣) رقتُ المجاليدُ : بنو يزيد بن عبد اللذان .

انتقاداً رهيماً ، وأحياناً يلجأ الشاعر إلى ذكر بعض ما فعله القتل في الأعداء من تقتيل ، أو ما فعله فرسان قومه بهم في محاولة للتخفيف من وقع المصيبة على النفوس ، كما أن بعض صور الرثاء كانت تظهر الجزع وحالة اليأس التي أصابت الشاعر بعد فقد ذلك الفارس . ولكننا قليلاً ما نجد الشاعر يلتفت إلى ظاهرة الموت ويفلسفها كما فعل حيد بن الأبرص حين رثى قومه الذين بانوا .

ويكثر شعر الرثاء بصدق العاطفة ، فالشاعر حين يرثى الفارس القليل ، فإنما يرثى فارساً مدافعاً عن القبيلة وحامها وشرها ، والقتيل قريب من نفس الشاعر ، فلا يحتاج الشاعر إلى اتصال العاطفة أو ترقيقها بل تتنازل العبارات انشباعاً دونما تكلف أو عناء .

واللاحظ أن شعر الرثاء الذي وصلنا ليس بالكثير إذا ما تبس بالشعر الكثير الذي وصلنا من تلك الأيام ، وربما كان السبب في ذلك أن القبيلة لم تكن تشغل نفسها برثاء قتلاها ، وإنما كانت تشغل بالأخط بالثر لحم ، كما أن حرص القبيلة على أن لا تبدو ضعيفة أمام باقي قبائل المجتمع القبل كان يمنعها من ذكر قتلاها ، لذلك فإن قصائد الرثاء ومقطعاته التي بين أيدينا هي رثاء لرؤساء أو فرسان القبيلة المشهورين . وربما عدت الشاعر بعض أهل قومه في قصيدة واحدة ولكن ذلك أيضاً قليل ونادر .

فداء الثار :

خضعت الجزيرة العربية في العصر الجاهلي لقانونين صارمين هما : قانون الثار وقانون الجوار . ولم يكن العربي يتساهل في أي منها ، فكان يحكم إلى السيف إذا قُتل فرد من قبيلته ، كما كان لا يتهاون بحقوق جاره ، ويستل سيفه إذا ما لحق بهذا الجار ضيم . وقد مر بنا فيما مضى أن للثار قانوناً صارماً بسلطانه في حقه ، كما أن للثار طقوساً يلتزمها كل موثق حتى يدرك ثاره .

وكان دور الشاعر هو الدعوة إلى الأخط بالثر ، وقد اتخذت هذه الدعوة صوراً عدة نحاول إجمالها الآن . ربما اتخذ الشاعر أسلوب تذكيرهم بقتيلهم حتى يهبوا للأخط بالثر إن كانوا قد قعدوا عنه ، كما فعل أبيد بن ربيعة العامري حيناً حتى حل الطلب بدم حررة الرجال الذي قتله البراء الكلابي ، فقال :

فأبلغ إن حررت بني عكر
وأحوال القليل بني هلال
بأن الوالد الرجال أخصى
مقياً عند تيمن في الظلال^(١)

(١) الاطلي / مجلة ٢٠ / ٦٦ .

وتحاول الحسد أن تذكر القوم ، قومها ، بما أعدت لهم ذبيان إذا ما لاقوها وهي إذا فعلت ذلك حتى يحدوا العدة الحقة للافقة الأعداء والأخذ بثأر أخيها ، وتذكرهم بأنهم على الرغم من ظلمهم هاشباً وابن اخته إلا أنه لا صلح حتى يسبوا الخرافة ، وتذكر بأن قومها فطروا على النصر إذا ما التقى الجمعان ^(١) :

ألا أبلغا عني سُلماً وعامراً	ومَنْ كان من عليا هوازناً شاهداً
بأن بني ذبيان قد أُرصدوا لكم	إذا ما تلاقيتهم بأن لا تعاولدا
فلا تفرَّين الأرض إلا مُسارِق	يخافُ خميس مطلق الشمس حارداً ^(٢)
فقد زاح عنا اللؤم إذ تركوا لنا	أروماً فأراماً فما آب وروفاً ^(٣)
ونحن قتلنا هاشباً وابن أخيه	ولا صلح حتى نستفيد الخرافدا
فقد جرت العادات أنا لدى الوغى	سنظنرُ والإنسان يفسى الفواهدا

وأكثر ما كان يثير فرسان القبيلة صوت السية وهي في الأخلال تستغيث بهم ، وقد أخذت ربيعة بنت حامية أسيرة في نساء من قومها في حالة وضعية ، أخذها بنو سليم ، فقالت تصور حالها وتعرض على الأخذ بثأر ، وتدخل خيل قومها وقد هبت للأخذ بثأر لنهداً تلك العيون التي طال بكأؤها ، وبغل العار الذي لحق بهم بسبب السبي :

ألمت سُلِّم في السباق وأفحشت	وأفرط في الشوق القبيح إسارها
لعل فتاة منهم أن يسوقها	فوالوس ميتا وهي بام شوارها
فإن سبقت حلها سليم بذحلها	خزامة أوفانت فكيف اعتلارها
ألا ليت شعري هل أرى الخيل شرباً	تسبر عجاجاً مستطيراً غيارها ^(٤)
فترقا عيون بعد طول بكائها	ويغسل ما قد كان بالأمس عارها ^(٥)

ولم تكن الأم لترضى أن يذهب دم ابنتها هدراً ، لا سيما إذا وجدت أنها له بأخذ لها بثأر ابنتها ، فقد قُتل عبد الله بن النعمان ، وشرعت أمه تحض خريداً ابنتها الثاني على الطلب بثأر أخيه

(١) ديوان الحسد - دار صادر - ٣٢ - ٣٣ .

(٢) مسارق : مستخف ، الحارث : القاصد ، الخميس : الجيش .

(٣) أروم وأرام : جيلان من أرض بني سليم ، وارب : جبل صغير في وسط وادي .

(٤) شرباً : ضاربة .

(٥) ترقا : تسكن ونهدا .

عبد الله ، ويرد عليها فريد في هذه الآيات بأنها لن يمر عليها طويل وقت حتى يثورها ، فقد شرب رأسه قبل وقت الشيب بسبب بكائها عبد الله ، ويعتد بأنها لن يمضي الموت بعد موت أميه :^(١)

كُتِبَتْ فَرِيداً إِنْ أَنْتَ لَكِ شَقَرَةٌ مَيَّوَى هَذِهِ حَتَّى تَتَوَرَّ الدَّوَابُّ
وَشَيْبَ رَأْسٍ قَبْلَ حِينٍ مَشِيٍّ بِكَأَلِ عَيْدِ الظُّرِّ وَالْقَلْبِ طَائِرُ
إِذَا أَنَا حَافِزْتُ الْمَيَّةَ بَعْدَهُ فَلَا وَأَلْتَ نَفْسُ عَلَيْهَا أَحَافِزُ^(٢)

وهذا شاعر قُتل أموه غيلة ، قتل قاتل أميه ظهراً في بعض الأسواق من الحضر ، ويبدو أن قاتل أميه هم بنو عمه كذا يبدو من مخاطبته لهم ، فيرد عليهم بأنه لم يعد مجال للشفاذي والكلام والشعر بعد أن قتلوا أمه وأن الاحتكام للسيف ، ولن نرضى حتى يرضى السيف ، أي حتى يشفي غليله ويأخذ بثأره ، هذا الشاعر هو شاعر الحياة الشنبلر الحارثي :^(٣)

بَنِي عَمَّنَا لَا تَذْكُرُوا الشَّعْرَ بَعْدَمَا فَلَتَكُنَّ بِصَحْرَائِ الْعُمَيْرِ الْفَوَائِدِ
فَلَسْنَا كَمَنْ كُنْتُمْ تُصَيِّبُونَ سَلَّةً فَتَقْبَلُ ضَيْقاً أَوْ تُحْكَمُ قَاضِيًا^(٤)
وَلَكِنْ حُكْمَ السِّيفِ فِكُمْ مُسَلَّطٌ فَتَرْضَى إِذَا مَا أَصْبَحَ السِّيفُ رَاضِيَا

ويخشى شاعر القبيلة الحريص على سمعتها وكرامتها أن يستجيب بعض ساداتها لنداء الثقل ويقبلوا الصلح ، فينبغي هؤلاء الشعراء ضامين إلى رفض الصلح والاستمرار في القتال حتى ياتعلوا بثأرهم وتعلو كلمتهم وتتسامع بهم القبائل . يقول عمرو بن بركة المثلثي :^(٥)

أَيُّ الْيَوْمِ أَدْعَى لِلْهَوَادِقِ بَعْدَمَا أَمِلَ عَلَى الْحَسَى الْمَذَاكِي الصَّلَاتِيمُ
فَلَا صَلِّحْ حَتَّى تُعْشَرَ الْحِيلُ بِالْفَتَا وَتَضْرِبَ بِالْبَيْضِ الْخِصَافَ الْجَحَائِمُ

وهذا شاعر آخر يذكر القوم بما أصاب نسوتهم ، وبأنه لا صلح حتى تساق نساء سوق نسوتهم ، لو يموتوا دون ذلك لو كانوا أحرارا ، يقول المروعي الكلبي :^(٦)

(١) شرح لسان المذاكين ١/ ٣٩٦ ، شاعرات العرب - عبد الباق صفر ١٣٤ .

(٢) الشعر والشعراء لأبن قتيبة ٢/ ٧٥٢ .

(٣) وأنت : خلعت .

(٤) حملة أبي تمام - شرح الرزوقي ١/ ١٢٤ .

(٥) سلة : سرقة .

(٦) حامة البحري ٣٢ .

لو كنتَ حُرّاً كريماً ذا عافظةٍ ما كنتَ إلا ونازُ الحرب تشتعلُ
حتى تُساقَ نساءُ سوقٍ يسوّيكنَّ بما أصابكنَّ أو يئُلُجْنَ الأجلُ^(١)

ويصر القتال الكلاهي على رفض الصلح حتى يضمن فيهم تقبلاً ويأخذ بثره منهم : ^(٢)

إني لعمَرَ أبيهم لا أصالحهم حتى يُصالحَ راعي الثلثِ الذيبُ^(٣)
أو تنجلي الخيلُ عن قتلٍ مُصرَّعٍ كأنها غُثبٌ بالقاعِ مقطوبُ^(٤)

ويقرن بالصلح ويقول قبول الدية ، ولم يكن قبولها في ذلك الحين أمراً مستملاً إلا من ابن القبيلة إن كان القتل من غير عمد ، أو تسامح أهل القتل ، وكانت في مقام آخر حير يطول أمد الحروب ويغلقم الشر فيتدخل الوسطاء ويصلحون بين الحيين ويمدوا جهات كل فريق ثم يدوا الفريق الذي زاد عدد قتلاه . أما في غير هذين الوضعين فكان قبولها علماً ، ولقد صور ذلك شاعر الحامسة حين قال ^(٥)

فلو أن حياً يَغْلُ المَالُ يَدِيَّةٌ لَسَفَا لَكُمْ سَيْلاً من المَالِ مَغْنَمًا^(٦)
ولسكن أبى قومٌ أصيبَ أخوهم ورضى العارِ واختاروا على اللين الدُّمًا^(٧)

ولقد وقف شعراء القبائل يحضرون حل عدم القبول بالدية ، ويعبرونهم بقبولها ويصفرونهم بأحط صفات الرجال ، هذا القتال الكلاهي يجر من قبول الدية ، فإن قبولها لوقا هم يشرمون فضول نساءهم عندما تختلط أحبايهم بالدم وذلك تضليماً للشان وتدنيهاً للماء : ^(٨)

فإن أنتم لم تفعلوا وأتديتم فمَشُوا بأطرافِ النعامِ المُصَلَّمِ^(٩)
ولا تردوا إلا فُضولَ نِسائِكُم إذا ارغلتِ أعتابهن من الدمِ^(١٠)

(١) حماسة البحري ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ٣٦ .

(٣) التلثة : جماعة الغنم .

(٤) مقطوب : مزوج .

(٥) حماسة أبي تمام - شرح الرزوقي ١/ ٢٩٦ .

(٦) مغنم : غنم ، كثير .

(٧) اللين : كناية عن الأبل .

(٨) حماسة البحري ١٤ وينسبها أبو تمام لكبيشة بنت عبد يكراب .

(٩) اتديتم : قيسم الدية ، الصلح : قطع الآن من أصلها .

(١٠) ارغلت : تطلخ بالدم ، تردوا فضول نساكنكم : كانت عانتهم في وريد الماء أن يقدم الرجال ثم العطاريط والرملة ثم النساء .

وعندما قُتل عمرو كبشة بنت معد يكرب ، قتله صاحب إيل من ملوك لاهم وأرض أن يسيقه
لبناً ، فجهاد أهل القاتل إلى أخيه عمرو فقالوا : إن أهلك قتله رجل منا سقيه ، ونحن بذلك
وعصيتك فسالك الرحم ألا أنطقت القوية ، وهم عمرو بذلك فغضب كبشة وقالت على لسان
القتيل عيالك : (١٠)

أرسلَ عبدُ الله إذ حانَ يومُه إلى قومِه لا تعقلوا لِمَ دُمي (١١)
ولا تأخذوا منهم إغصاً وإكراً والتركُ بيتَ بصعدة مُظلم (١٢)
ودعَ عنكَ عَمراً إنَّ عَمراً مُسالماً وهل بطنُ عَمرو غيرُ ثوبٍ يُطعم (١٣)

وهذا شاعر آخر هو عبد الرحمن الفزاري يبلغ قومه بأهم إن لم يثأروا لأنهم لم يكونوا
نسأً للجميل والتكحل ، وليبيعوا الرماح والسيوف بالحل ، وأبشعوا المغازل بدلاً من النيل ،
وهذا منتهى المهجاء لهم والاتهام بالتخلف وعدم الرجولة (١٤)

يا ركباً إما عَرَضْتَ قبلَهم مُغْلَغلةً عني القبائلَ مِن عُنكر
لئن أنتم لم تثاروا بأخيكم فكونوا نسأً للخلوق وللنكحل (١٥)
ويبيعوا الردييات بالحل والقعدوا عن الحرب وأبشعوا المغازل بالنيل

وحين كان القارص منهم يعتزم الأخذ بالثأر ، فإنه كان يضع نفسه للثبوت وتقاليد ، فهو
يحرم على نفسه الخمر والتبضع والنساء ، وبعضهم يحرم على نفسه كل ما يتطلب للثمة والسروء
نفسه ، حتى يدرك بثأره ، فلذا ما أنكر بثأره فإنه يتحمل بما حرم على نفسه ، ويشير إلى ذلك في
شعره مزهواً بالنصر وأخذ بثأره .

فامرؤ القيس حرم على نفسه الخمر سببها قتل والده ، وعندما حاجم بني أسد وقتلهم تحلل
بما حرمه على نفسه وقال في ذلك : (١٦)

(١) حاشية أبي تمام - شرح المزدلي ٢١٧ / ١ .

(٢) - تعقلوا دمي : تقبلوا دمي .

(٣) قال : جمع إيل وهي صغار الأبل ، الأكر : جمع بكر وهو الغني منها . صعدة : مكان باليمن .

(٤) هل بطن عمرو ... : تزهد في الدنيا . . .

(٥) حاشية البحري ١٦ .

(٦) الخلق : جمع خلق وهو كل شيء عاقل .

(٧) الردييات : الرماح .

(٨) ديوان امرئ القيس - تحقيق أبو الفضل إبراهيم ١٢٢ .

حَلَّتْ لِي الْحُمُرُ وَكَنتُ امْرَأً حَنَّ شَرِيحاً فِي شُكْلِ شَاغِلٍ
فَالْيَوْمَ أُنْقَى غَيْرُ مُسْتَحْقِبٍ إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَغَيْرِ^(١)

وحلف ضمرته بن ضمرة التَّهْلِيلِ التَّسْمِي ، عندما هُزِمَ يوم النصار ، حل الحمر إلا إذا ناز
من يوم النصار على بني أسد وحلفائهم ، فأغار عليهم يوم ذات الشقوق فهزموهم فقال : ^(٢)

الآن ساغر لي الشراب ولم أكن أنسي الشجار ولا أُنشدُ تكلمي^(٣)
حتى صبحت على الشقوق بغار كالتنير ينشر في حرير الحرير
وأهلت يوماً بالجفار بمثل وأجرتني نصفاً من حديث الموسم^(٤)

وكان الغار يمنع النوم عن عيون أبي تيس بن الأسات الأنصاري ، وهو وقومه لا يتألمون
من الحرب ولكنهم يحزون بها الأعداء كحل الصاع بالصاع : ^(٥)

قد حصت البيضة رأسي فيما أطلعتم غمضاً غير تهجاع^(٦)
لا نألم القتل ونجزى بها الأعداء كحل الصاع بالصاع

ويحرم مالك بن عمرو العادل اللهو على نفسه ولا ينام النوم الهادي حتى يقتل سيد بن
قُمَيْرٍ إيراكاً يثأره منهم ، وعندما أصبح وليناهم حل السواء ، فإن يعمدوا بعد ، ولا ينسى أن
يطلب من الراكب أن يلغهم بأنهم إن حزنوا وجزعوا فاته مر بهذه التجربة قبلهم فليجربوا الأمر
مثله : ^(٧)

يا راكباً بلغن ولا تدعن بني قُمَيْرٍ وإن هم جزعوا
فليجدوا مثل ما وجدت لاني كنت ممثلاً قد منسي جزع
لا اسمع اللهو في الحديث ولا يتغنني في الفراش مضطجع

(١) غير مستحقب : غير مكتوب ولا محظوظ ، الواغل : الداخل على القوم يهربون ولم يذبح .

(٢) العقد الفريد ٥ / ٢٤٨ ، معجم البكري ٣ / ٦٩٨ .

(٣) التجار : تسمى العرب بالغار الحمر تاجراً .

(٤) أهلت : أباه الذي رجعه .

(٥) الفضلية رقم ٧٥ .

(٦) حصت : أضعبت شعراً وثرته لغول السيف القاطع

(٧) حامية البحري ٣٥ .

جَلَّتْهُ صَارِمَ الْحَدِيدِ كَالْيَحْيَى فِيهِ سَفَافٌ لَمْ
بَنِي قُصَيْرٍ قَتَلْتُ سَهْدَكُمْ فَالْيَوْمَ لَا دِمْنَةَ وَلَا تَبِعَ
وَالْيَوْمَ لَمْنَا عَلَى السَّوَاءِ فَوَلَّانَ تَهَبَرُوا فَدَهَبَرِي وَدَهَبَرَكُمْ جَدَعُ

وقد يأخذ الإعراف بالثرث طلباً فرجياً ، فيلحق رجل يثار أخيه أو ابنه فقد قتل بنو أسيد بن عمرو بن ثميم وائل بن صريم اليشكري في يوم الحاجر ، فغزاهم باعث أخوه وقتل منهم مائة بأخيه وقال : ١٢١

سَأَلْتُ أَسِيدَ هَلْ ثَرَثَ بَوَائِلُ أَمْ هَلْ شَفِيتُ النَّصْرَ مِنْ بَلْبَالِهَا
إِذْ لَرَسُولُنِي مَالِحاً بِدَلَالِهِمْ فَعَلَّانَهَا عَقْلُاً إِلَى أَسْبَابِهَا
أَلَيْتُ أَتَقَفُّ مِنْهُمْ ذَا لِحْيَةٍ أَبَدًا فَتَنْظُرُ عَيْتُهُ فِي مَالِهَا ١٢٢

ويحلو لبعضهم للقلوبة بين من قتل وبين أخيه الذي قتل الأعداء فيفضل أعداء من جميع الوجوه ، ولا ينسى أن يبين للأعداء بأنه قلنر على الأعداء يثرك إن عادوا لها : ١٢٣

يقول قيس بن زهير في مالك بن زهير ومالك بن ينر :

أَخِي وَالْقَوَّ حَسِيرٌ مِنْ أَخِيكُمْ إِذَا مَا لَمْ يَجِدْ بَطْلُ مَقَامَا
أَخِي وَالْقَوَّ حَسِيرٌ مِنْ أَخِيكُمْ إِذَا مَا لَمْ يَجِدْ رَاعٍ مَسَامَا ١٢٤
أَخِي وَالْقَوَّ حَسِيرٌ مِنْ أَخِيكُمْ إِذَا الْخَفِيرَاتُ أَبْدَيْنَ الْخِلَافَا ١٢٥
قَتَلْتُ بِهَ أَخِيكَ وَخَيْرٌ سَعْدُ فَإِنْ حَرِباً حُلَيْفٌ وَإِنْ سَلَامَا ١٢٦
تَرَدُّ الْحَرْبُ ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدٍ بِحَمَلِ الْقَوَّ يَرْحُونَ الْبُهَامَا ١٢٧

(١) جلته : جلل الشيء عنه ، صارم الحديد : السيف المقاطع ، سفاف : جمع سفاف وهو ما فوق بين الثراب ، والرجي : من كل شيء

(٢) دمنة : حقد قديم دائم .

(٣) الحقد القريد ٥ / ٢٦١ ، حاسة لمي قام شرح اللزوقي ٢ / ٥٣٩ .

(٤) أسيد : أراضي به قبله أسيد بن عمرو بن ثميم ، بلبالها : حزنها .

(٥) اللانح : الذي يدخل البئر فيملأ النحر عند قلته الماء فيها . أسبابها : أعاليها ، علقا : صا .

(٦) أليت : أقمعت ، ألق : أترك . (٧) اللخافى ١ / ١٠٢ - ١٠٣ .

(٨) مساما : مرعى للثنية .

(٩) الخفريات : جمع خفرة وهي الشديدة الخفاء ، الخدام : جمع خدامة وهي الخليلك .

(١٠) حليفة : تزعيم حليفة .

(١١) ثعلبة بن سعد : بطن من ذبيان .

وعندما يُنكَل حُلَيْفَةُ عَلَى جِغْرِ الْقَبَاءَةِ ، وَكَانَ قَدْ خَدَرَ بِالصَّبِيَةِ مِنْ عَيْسٍ وَيُمَثِّلُ بِهِ تَتَقَلُّعَاتِهِ
لَا فَعْلَهُ بِالصَّبِيَةِ ، تَفْرَحُ عَيْسٌ وَيَعْبِرُ شَاعِرُهُمْ عَنْ أَنَّ حُلَيْفَةَ نَالَتْ الْجَزَاءَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ ، خَيْرٌ مِنْ
ذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ الْأَشْفَعِ الْعَبْسِيِّ حِينَ قَالَ : ^(١٧)

إِنْ السَّمَاءُ وَإِنَّ الْأَرْضَ شَاهِدَةٌ وَاللَّهُ يَشْهَدُ وَالْإِنْسَانُ وَالْيَلَقُ
أَنْسَى جَزَيْتُ بِنَسِي بَشَرٍ بِسَعْيِهِمْ عَلَى الْمَهَامَةِ قَتْلًا مَا لَهُ قُوَّةٌ ^(١٨)
لَمَّْا التَقَيْنَا عَلَى أَرْجَاءِ جَنَّتِهَا وَالْمَشْرِقِيَّةُ فِي أَمْهَانِنَا نَقْدٌ ^(١٩)
عَلَوْنَهُ بِخُصَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ خُلْدُهَا إِلَيْكَ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ ^(٢٠)

وَقَدْ قَالَتْ شِعْرَاءُ عَيْسٍ فِي قَتْلِ حُلَيْفَةِ شِعْرًا كَثِيرًا مَعْلُومُهُ فِيهِ إِقْحَاشٌ لَهَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ
غِلٍّ عَلَيْهِ لَهَا فَعْلُهُ بِهِمْ ، وَلَئِنَّهُ كَانَ سَبَبَ الْحَرْبِ بَعْدَهُ فِي الرَّحْمَنِ .

وَيُعْرَضُ الشَّاعِرُ خَزِيدُ بْنُ الصُّنَّةِ عَلَى الْفَضْلِ بِظَفَرِهِ بِثَأْرِهِ مِنْ قَاتِلِي أُمِّهِ ، وَيُخْفِي مِنْهُمْ
لَئِنَّهُ قَتَلَ بَعْدَهُ اللَّهُ خَيْرَ لِدَائِهِ فُؤَادُ بْنُ إِسْمَاءَ بْنِ زَيْدٍ بْنِ قَلْبِ بْنِ مَعْبِدَةَ الْعَدَوَانِ عَلَيْهِ
وَعَلَى قَوْمِهِ ، فَأَمَّا الْجَهْدُ سَبَجُوا فَرَسَانًا يَشِيْعُونَهُمْ طَعْمًا وَخَلًّا ^(٢١)

قَتَلْتُ بِعَبْدِ اللَّهِ خَيْرَ لِدَائِهِ فُؤَادُ بْنُ إِسْمَاءَ بْنِ زَيْدٍ بْنِ قَلْبِ ^(٢٢)
فَلِلْيَوْمِ سُمِّيْتُمْ فُؤَادُ فَاصْبِرُوا لِيُوقِعَ الْقَتْلُ تَتَزَوَّنَ تَزَوُّ الْجَنَادِ ^(٢٣)
تَكْرُرُ عَلَيْهِمْ رَجُلَتْنِي وَفَوَارِسِي وَأَكْرِهَ فِيهِمْ صَعْدَتْنِي غَيْرَ نَاكِبِ ^(٢٤)
فَإِنْ تُثْبِرُوا بِأَعْدَانِكُمْ فِي ظَهْرِهِمْ وَإِنْ تُثْقِلُوا بِأَعْدَانِكُمْ فِي التَّرَائِبِ ^(٢٥)
وَإِنْ تُسْهَلُوا لِلْخَيْلِ تُسْهَلْ عَلَيْكُمْ يَطْعُنُ كَلْبُزَاغُ الْخَاضِرِ الصُّوَارِبِ ^(٢٦)

(١٦) (العقد الفريد ٥ / ١٥٨ .

(١٧) قود : قصاص .

(١٨) جنتها : معظم السماء ، الشرقية : الرياح .

(١٩) انظر الشعر في العقد الفريد ٥ / ١٥٧ .

(٢٠) الأصمعي رقم ٢٩ .

(٢١) القلة : تريك الذي ولد معك .

(٢٢) التزو : التوثان .

(٢٣) الرحلة : جمع راجل وهو الذي ليس له ظهر يركبه . الصعنة : القلة للشوية . ناكب : عاتل
عنهم ، اكترأعها فيهم : احتفظا بقوته

(٢٤) الترائب : عظام الصدور تسهلوا : تزلوا السهل من الأرض

(٢٥) كلبزاغ : انزعاج اليول دفعة دفعة ، الصوارب : القوايح . الخاضع : الخوايل من التولى

ويقف بعض الشعراء ناصحاً القوم بأن يكفوا عن القتل طلالاً أنهم قتلوا قاتل سيدهم ،
وطلالاً أن الحزين تربطها صلة قرابة ، فلم البغضاء والشناس ؟ ولم القتل ؟ فقد قتل قرواش
العبيسي حليفه بن بدر الفزاري يوم المعادة ، وقتلت بنو العشاء قرواشاً بعد يوم جيلة بحليفة ،
فوقف نيكمة بن الحارث الفزاري يدعو الحزين إلى الشرف طلالاً أن كلاً منهم قد أهدى بشرفه
ويلزمهم بصلة الرحم : (١)

صَبْرًا بَغِيضَ بِنِ وَبَيْتَ إِهْمَا رَحِيمٌ حَيْثُمْ بِيَا فَأَتَانَاكُمْ بِجَمْعٍ
فَمَا أَشْطَطْتُ سَمِيَّ إِنْ هُمْ قَتَلُوا بِنِي أَسِيرٌ يَقْتُلُ أَلِ زُبَاعٍ
لَقَدْ جَزَّيْكُمْ بِنُو ذِيَّانَ ضَاحِيَةً بِمَا فَعَلْتُمْ كَكِيلِ الصَّاعِ بِالصَّاعِ
قَتْلًا بِقَتْلٍ وَتَعْقِيرًا بِعَفْرِكُمْ مَهْلًا حَيْضُ فَلَا يَسْتَعِي بِنَا السَّاحِي

وتسهم الثارات في إذكاء نار الحروب واشتداد اشتعالها ، فلا ينقضي نار حتى يتلوه نار
أخر ، وتستمر الحروب حتى يدخل أحد الحكماء من أحد الفريقين فيصلح بينها ، وقد عبر عن
أثر الثارات في إذكاء الحروب بشر من أبي عازم الأسدي حين قال (٢) :

إِذَا مَا لَحِقْنَا مِنْهُمْ بِكَيْتِيذٍ نَذْكُرُ مِنْهَا فَحْلَهَا وَذُنُوبَهَا
ويصر حامر بن الطفيل العسري على استمرار القتال فلا هوادة بينه وبين الأعداء بعد أن
توى الفرسان بالرصد ، ولئن يفصل بينهم إلا القتال على صهوات الجياد ، وسوف يذار بمالك
ويكلى قتل قومه الذين قتلهم عيس بن وهظقان كلها في حروبها مع حامر ، وسيظل يغزو طلالاً أن
المرء غير غلب (٣) :

وَلَا تُرْدُ بِمَالِكٍ وَمَالِكُ وَأَعْيَى الْمَرْ وَدَاؤُ السُّلَيِّ لَمْ يُسْتَلْ
وَقَتِيلٌ مَرَّةً تَكُونُ فِيهِ فَرَحٌ وَإِنْ أَخَافُ لَمْ يَقْصُدْ

(١) التناقض ١/١٠٦

(٢) حَيْثُمْ بِيَا : دونهم . جَمْعِيَّ : جميعاً من الأرض معركة الحرب .

(٣) أَشْطَطْتُ : أبعثت ، أبعثت ، جرت . سَمِيَّ : بطن من فزارة وهي سمي بن مازن ، أَلِ زُبَاعٍ بن
جليلة بن رباح العبيسي

(٤) ضَاحِيَةً : يقال قتل ضاحية : قتلته علانية

(٥) تَعْقِيرُ : العقر ترك الخنزير في قوائم الدابة . حَيْضُ : ترعيم حيفة الحب إحدى بطون عيس ، الساحي :
الوائي .

(٦) بِالْقَضِيَّةِ وَرَقْمُ ٩٦ (٧) الْقَتْلُ : القتل (٨) الْقَضِيَّةِ وَرَقْمُ ١٠٧

(٩) مَالِكٌ وَمَالِكٌ : رجلا من قومه أصابتهما غطفان . أَخُو الْمَرْوَةِ : الحكم بن الطفيل ، لم يستد : لم

يذبح ، قَتِيلٌ مَرَّةً : حنطة بين الطفيل امرأة

(١٠) فَرَحٌ : رأس عال في الشرق ، يَقْصُدُ : يقتل

يا أَسْمَ ائِمتْ بنى فزارَةَ اِنْتِ غانمَ ، وَإِنَّ اللِّمَّةَ غَيْرُ حُكْمَرٍ^(١)
 فِىنِى إِلَيْكَ فَلَلا هَرادَةَ بِيئَنَّا بَعْدَ الفَوارِسِ إِذْ ثَوَّوا بِالرَّصَنِ
 إِلا بِكُلِّ أَصَمٍ نَهْدٍ سابعِ وَعَلالَتِهِ مِنْ كُلِّ أَسْمَرٍ مِلْوَ^(٢)

التصنيفات :

والصفة مقطوعة أو قصيدة من الشعر يقرؤها الفارس مصوراً خصمه أو خصوم قومه ،
 ومحاولاً إقصائهم بإعطائنا صورة حقيقية لشجاعتهم وبهائمهم .

وقد عُرف هذا اللون في شعر الأيام منذ عهد مبكر ، منذ النضى القرسان في ساحات
 الوضى ، ويعتبر المهلهل أول من أنصف في شعره حين قال في يوم حُتيرة في حريم مع بكر :

كَانَا غَدَوَةً وَنِى أَبِينَا بِجَنَبِ حُتِيرَةٍ رَحِيًّا مُدِيرٍ^(٣)

ومعنى هذا أن هذا اللون من الشعر عاصر شعر الأيام منذ طلوته ، باعتباره حرب البسوس
 قديمة العهد في ذلك العصر وهذا يقودنا إلى دواعي ظهور التصنيفات في شعر الأيام .

كان الفارس العربي في الجاهلية وبعد الإسلام يحرص على احترام تقاليد معينة آمن بها
 والترم بها نحو خصمه ، فهو لم يعود طعته من الخلف وهو مدبر ، ولم يعود الغدر ، ولم يقتله
 طاملاً أنه رضى أن يستأثر له ، وكانوا إذا تناحروا يوقف القتال التزم به الطرفان . وهذا الفارس لم
 يكن ليرضى أن ينازل إلا تده لأن في منازلة من هو دونه إهانة لفروسيته . فالحصم يجب أن يكون
 من درجة الفارس ، وقد عرفنا من نصص الأيام أنهم كانوا يرفضون منازلة الفارس إن اعتقدوا أنه
 دونهم في الفروسية . فهم الفارس أن يتسامع العرب في مجالسهم ونواصيهم أنه نازل فارساً بدأ ،
 فغلبه ، وإذا قتل فيهجه أن يتسامع العرب أن الذي قتل فارس له قدره .

ومن هنا كان الفارس يجد نفسه أمام خصم قوي الشكيمة ، ونتيجة اللقاء لا تتجاوز أحد
 المحالين ، إما يتصر عليه ، أو يجرم . فلذا انتصر هو عليه فيهجه أن يذكر أن هذا الخصم كان
 شجاعاً صلب العود يحسن مقارعة الأبطال ، وأن الغضاء عليه لم يكن سهلاً . وإذا ما هُزم أمامه
 فيهجه أن يفهم الناس أنه لم يجرم أمام فارس عادي بل هزمه فارس قوي الشكيمة . ولذا فإن هذا

(١) أَسْم : لرقيم أسماء .

(٢) الأَصَم : فارس لونه بين الكميث والأدهم ، النهْد : الغضخم الترفع ، السابع : السريع ،
 اللِّمَّة : صفة للرُمح .

(٣) الأَصمعية رقم ٥٣ .

الفارس الشاعر كان يحرص على إتصاف هذا الخصم في شعره ، ففى الحالين سيكون هذا الشعر يجدم غرضه .

ويجب ألا يغيب عن يافنا أن الفارس كان يعز عليه أن يرى خصمه الفارس الشجاع مجتلاً ، على الرغم من أنه هو الذي قتله ، لأنه فارس ويقتل الفارس الشجاع ولكنها الحرب ، ثم هو لا ينيها عن وعده أنه سيقتل مثله في يوم من الأيام ، فليحرص على إتصافه على خصمه يتصفه عندما يلاقي نفس المصير .

ويطول للشهد عند شاعر من شعراء الحسانة ، وهو زاهر أبو كرام التميمي ، فقد يلزم رجلاً من لرسان الجملية يقال له تيم ، فقتله زاهر فلعن يعظم أمره لأن ثلثه عليه وإتياره له راجع إليه إذ صار قتله ، ونسعه يقول عن خصمه^(١)

لَقِيَ الْحَيَامَ بِهِ وَتَصَلَّى جَلالاً ^(٢)	لَمْ تَيْمُ أَيُّ رُمَحٍ طَراوِ
لِلْمَوْتِ غَيْرِ مَعْرُوفٍ حَيَاوِ ^(٣)	وَيَحِشَ حَرْبٍ مُقَدِّمٍ مَقَرَّضِ
عَوَفُ الرُّقَى وَقَعَائِجُ الْأَعْمَالِ	كَالْثَلِثِ لَا يَشِيرُ عَنْ إِقْدَامِهِ
عَوَفُ الْفَيْدِ نَجْدَةُ الْأَنْجَالِ ^(٤)	مَذَلَّ يُمَهِّجِيهِ إِذَا مَا كَذَّبَتْ
ذُلُّ مَوْلَاةِ الشُّغَارِ حُودَالِ ^(٥)	سَاتَرَتْهُ كَأَنَّ الرُّقَى بَأْسَتْ
نَجْلَاءُ تَنْفَحُ مِثْلَ لَوْنِ الْجَاوِي ^(٦)	لَطَمَتْهُ وَالْحَيْلُ فِي رَهْجِ الرُّوْحِ
لَا أَتَشَبَّهُ لَهُ عَلَى مِيعَادِ	فَكَأَنَّمَا كَانَتْ يَدِي مِنْ حَتْمِهِ
مِنْ جَوْفِهِ مُتَدَارِكِ الْإِزْبَالِ ^(٧)	فَهَوَى وَجَانِبُهَا بِغُورٍ يُزِيلُ

ويظهر القتال الكلامي لفارس لم يكن يرغب في تلك المزاولة وتصور الدائرة على خصمه فيقف القتال الكلامي يتحدث عن ذلك اللقاء وعن إصرار ذلك الخصم على اللقاء ، وعن

(١) حسانة أبي تمام - شرح التوزيلى ٢/ ٦٧٢ .

(٢) المهام : الموت .

(٣) معرد : تارك القصد ، حياو : الذي يجهد عن موضع القتال كثيراً .

(٤) مذل : يلج .

(٥) ذلق : محملة ذلق كل شيء : حتمه ، المولدة : المحلقة .

(٦) الرهج : الغبار .

(٧) وجانبها : الدم الذي يحش من نجيده .

قله إياه ثم بين لنا ندمه على مقلته ندماً شديداً: (١)

نَشَدْتُ زِيَاداً وَالْقَامَةَ بَيْنَا وَذَكَرْتُ أَرْحَامَ سِقْرِ وَمَيْتَمِ (٢)
وَلَا دَعَانِي لِمَ أَجَبْتُ لِأَنْتِي خَشِيتُ عَلَيْهِ وَقَعَةً مِنْ مُضْغَمِ
فَلِمَا أَعَادَ الصَّوْتَ لَمْ أَكُ حَاجِزاً وَلَا وَكَلًا فِي كُلِّ دَعِيَاءَ صَيْلَمِ (٣)
وَلَا رَأَيْتُ أَنَّهُ غَيْرَ مَتَمِّ أَمَلْتُ لَهُ كَفْسِي بِلَدُنْ مَقُومِ (٤)
وَلَا رَأَيْتُ أَنْتِي قَدْ قَتَلْتَهُ نَدِيتُ عَلَيْهِ أَيُّ سَاعِدِ مُتَدَمِّ (٥)

ويترجم الفارس المقدام إعجاب خصمه ومثله ، فلقد رأى دريد بن الصمة ربيعة بن مكرم فارس كفاً وقد انكسر رعدة بعد أن صرخ ثلاثة من أصحاب دريد الفرسان ، فقال دريد : أيا الفارس إن مثلك لا يقتل ولا أرى ملك رعداً ، قدونك هذا الرمع ، ورجع يبط أصحابه عن ربيعة ، فانصرف القوم ونجا ربيعة وقال دريد مبرراً عن إعجابه بذلك الفارس المخلص (٥)

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ حَامِي الظَّمِينَةِ فُلُوساً لَمْ يُقْتَلِ
أَرَدَى فُلُوساً لَمْ يَكُونُوا مِيزَةً ثُمَّ اسْتَمَرَ كَأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلِ (٦)
مَتَهَلَّلٌ تَبْدُو أَسْرَةً وَجْهُهُ مِثْلَ الْحَمَامِ جَلَّةَ كَفِّ الصَّيْقَلِ (٧)
يُزَجِّسِي ظَعْمَتَهُ وَيَسْحَبُ رُحْمَهُ مَتَوَجِّهاً يُنْهَاهُ نَحْوُ الْمَنْزِلِ
وَتَرَى الْفُورَاسَ مِنْ خَافَةِ رَعْدِهِ مِثْلَ الْبُعَاثِ عَشِيرَ وَقَعِ الْأَجْدَلِ (٨)
يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ أَبْوَهُ وَأُمُّهُ؟ يَا صَاحِبَ مَنْ يَكُ مِثْلُهُ لَمْ يُجْهَلِ

وعندما ثارت حرب داحس والغبراء بين حيي خطفان : عيس وفحيان بسبب الرهائن ، وقُتل من الفريقين فرسان كثيرون ، وكانت صلات الفريقين وثيقة قبل الحرب ، ومكنت في

(١) - جملة أبي تمام - شرح المزدودي ٢٠١ / ١ .

(٢) - نشدت : سألت .

(٣) - وكل : عاجز جبان . دعاء : شديدة جداً ، صليم : داعية .

(٤) - لندن : صفة الرمع ، وهو اللين ، مقوم : مظف .

(٥) - الأثافي / طالكتب ٦٦ / ٦٦ .

(٦) - نهزة : صيد لكل واحد .

(٧) - الصيقل : الخداع .

(٨) - البُعَاث : طائر صغير يطير الطيران ، الأجدل : الصفر .

نفسهم بعد أن خففتها صيحات الثور والعصية الضيقة ، ومع هذا قبلنا نرى قيس بن زهير العبيسي ما إن يرى حل بن بدر صرعاً حتى تهيج به الذكريات ويذكر صلوات القرى ، ثم هو يذكر ظلمه ، ولولا ظلمه لما حدثت تلك الحروب بينهم ، فإذا هو يرثيه فيقول^(١)

تَعْلَمُ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا عَلَى جَنْبِ الْمَبَاةِ مَا يَرِيهِمْ^(٢)
ولولا ظلمه ما زلتُ أبكي عليه الدهرَ ما طلعَ النجومُ
ولكنَّ النفسَ حَمَلٌ بَيْنَ بَدْنِ بَغْيِ وَالنَّفْسِ مَرْتَعَةٌ وَنَحِيمٌ^(٣)
أظُنُّ الْجَلْمَ ذِكْرٌ عَلَى قَوْمِي وَقَدْ يُسْتَضَعُّ الرَّجُلُ الْجَلْمُ^(٤)
وملأست الرجالَ ومارسوتي فَمَعْرُوجٌ عَلِيٌّ وَمُسْتَقِيمٌ^(٥)

تلك هي الصورة الأولى من صور المصنفات ، فارس يصنف فارساً آخر نازله لقتله أولم نازله ولكنه من فرسان خصومه . أما الصورة الثانية فهي صورة القارص الشاعر يسير مع فرسان قومه للغزو قوم ، فالتصغر قومه أو التزموا ، ثم يصف هذا الشاعر لصور لنا كيف كان اللقاء ، ويعظم لنا براعة الأعداء وبراعة جيش قومه ، نفس الغاية التي سبق وبينها .

غزا عباس بن مرداس السلمي وقومه بنو سُلَيْمٍ مراداً ، ووصف لنا هذا الشاعر قوة الأعداء وقوة قومه ، كما وصف لنا كيف كان اللقاء ، وكيف أنهم وجدوا مشقة في الضيق عليهم ، ثم علموا متصرين ومما قاله :^(٦)

فَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْحَيِّ حَيًّا مُصْبِحًا وَلَا مِثْلَنَا لِمَا تَلَقَّيْنَا قَوَارِصَا^(٧)
أَكْثَرَ وَالْحَيِّ لِلْحَقِيقَةِ مِثْلَهُمْ وَأَصْرَبَ مِنَّا بِالسَّيُولِ الْقَوَائِصَا^(٨)
وَأَخْصَنَّا مِنْهُمْ فَمَا يُلْعَوْنَا قَوَارِصُ مِنَّا يَجْبِسُونَ الْمَحَابِصَا^(٩)
إِذَا مَا شَدَدْنَا شِدَّةً نَصَبُوا لَهَا صُدُورَ الْمَذَاكِمِ وَالرِّمَاحَ الْمَدَاغِصَا^(١٠)
إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرْعِ تَكْرُهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْتَجِعْنَ إِلَّا عَوَابِصَا

(١) المعتمد الفريد ٥/ ١٥٧ ، حاشية أبي تمام - شرح الرزوقي ٦/ ٤٢٨ .

(٢) يريم : يفلح ، تعلم : أعلم .

(٣) ونعيم : لا يستمر .

(٤) مارسوت : جريت .

(٥) الأصمعية رقم ٧٠ .

(٦) القوائس : جمع قرنس ، وهو أهل بيضة الرأس .

(٧) المذاكي : جمع ملك وهو ما جاوز القروح ستة وهو فرح الفرس ، إذا دخل في الساحة ، المذاكي : الرماح الغليظة الشديدة التي لا تنبني .

ثم نراه يشتم في وصف اللقاء والقتل والجرح من القرينين ، ولكنه يختم المشهد بفخر بقومه وبنتيجة المعركة وهي لصالح قومه حيث يقول :

فأَينما وأَبقى طَعْنًا من رماحنا مَطَارِدَ خَطِيٍّ وَخَرًّا مَدَامِيا^(١)
وَجُرْدًا كَأَنَّ الْأَسَدَ فَوْقَ مَتَوَحِّها من القوم مرؤوساً وأَخسر رايها .

وهذا شاعر آخر من شعراء عبد الغيس ، المُفَضَّل الثُّكْرِي يصور لنا لقاء الجيشين جيش قومه ، وجيش الأعداء ، وينصف أولئك الأعداء ، وهو ينقل صورة متقلبة ، ويصور الأعداء ، ثم يجمعها بصورة لقومه ، فيقول منها : ^(٢)

فَمُ صَبَرُوا فَصَبِرْهُمْ ثَلِيدٌ على العزائم إذ بَلَغَ المصِيقُ^(٣)
وَهُمْ دَلَعُوا المَيَّةَ فاستَقَلَّتْ ذِراكاً بعد ما كانت تَحِيقُ
تَلَاقِينَا بِمَقِيَّةٍ ذِي طَرِيضِ وبعضُهُمْ على بعضٍ حَيِّقُ^(٤)
فَجاءوا عَارِضاً يَبْدَأُ وَجِئنا كَسِيلِ العَرَضِ ضَلَقَ به الطريقُ^(٥)
مَشِينًا شَطْرَهُمْ وَمَشَوْا إلينا وَقُلْنَا : اليَوْمَ ما تُقْضَى الحَقُوقُ

إلى أن ينتقل إلى تصوير مشهد القتل من القرينين فيقول :

وَقَمُ من سَيْدٍ منا وَمِنْهُمْ يَلِي الطَّرِيقَ مَطْلُقُهُ شَهِيقُ
بِكُلِّ مَجَالَةٍ طَارَتْ خِرْقًا من الفتيان تَبِيهُ رَقِيقُ^(٦)
فَأَتَبَعْنَا البَّاعَ وَأَتَبَعُوهَا فَراحتْ كُلُّها تَيْقُ بِقُوقُ^(٧)
تَرَكْنَا العُرْجَ حاكِفَةً عَلَيْهِم وللغُريبانِ من شِعَرِ نَعِيقُ^(٨)
فَأَبَكِينَا نَدَامُكُمْ وَأَبَكُوا نساءً ما يَسُوعُ لَهْنُ رِيقُ

(١) الطلوع : ما يبقى من الرماح إذا انكسرت .

(٢) الأصمعيه رقم ٦٩ .

(٣) التلبد : التلصص ، المزاء : الشدة .

(٤) الغيبة : الأرض المنبسطة ، ذو طريق : موضع .

(٥) عارضا : ما اعترض الأتق فسد ، القيد : السحب ذو القيد العرض : الواسي

(٦) الحرق : التكرم للتحرق في الكرم

(٧) التلق : الللق .

(٨) المريج : الضباع عبق : صياح .

ولكن هذا الشاعر لا يلبث أن يعطينا نتيجة اللقاء في ختام قصيدته وهو هزيمة أولئك الأعداء الأشداء الشجعان فيقول مبيّناً أنهم ألقوا على لجئهم ولم يرضوا بفنائها .

فلما استيقنوا بالصبر منا ثُدَّتْ العِشائرُ والحُرُيقُ^(١)
فأبقينا ولو شيئاً تركنا لجئاً لا تقوُّ ولا تسوقُ^(٢)
وأبقينا وأبأنا عليهم لنا في كل أياتٍ طليق

ويحدث شاعر آخر من شعراء الحجاز ، وهو عبد الشارق بن عبد العزى الجُهني عن لقاء بين قومه ورتبة ، وكيف أن أولئك الأعداء استنشقوا بهني هبة عندما شارفهم قوم عبد الشارق ، ويصور لنا في الأبيات الخمسة الأخيرة من القصيدة المرحلة الحاسمة من المعركة ، ويكاد يطلق على لسانه يتعامل الفريزين ، فالأعداء أقرباء ولسان قومه أقرباء ، وأولوا البيت الأخير الذي ينتهم به الشهد لعلنا أن أسداً لم يتصر :^(٣)

شددنا شدةً فقتلتُ منهم ثلاثةً فقيّةً وقتلتُ قينا^(٤)
وشددوا شدةً أخرى فجروا بأرجلٍ مثليهم ورموا جؤينا
وكان أخسى جؤينٍ ذا حِفَافٍ وكان القتلُ للفتيانِ زِيناً^(٥)
فلبوا بالرماحِ مكسراتٍ وأبنا بالسيوفِ قد انحنا
فبأنا بالصعيدِ لهم أحاحُ ولو خُفَّتْ لنا الكَلَمَى مرّةً^(٦)

فلك ما عرضه لنا شاعر انتصر لربه ، فأ نصف القريق الآخر اعترافاً منه بفضلهم وبغروسيهم من جهة ، ورفعاً لقيمة انتصار قومه من جهة أخرى . أما ما عرضه الفارس الذي هزم قومه ، ومع ذلك تحدث عن المروعة ، وأ نصف الأعداء ، واعترف بتفوقهم على قومه ، كما اعترف بهزيمة قومه صراحة ، ونحن هنا أمام احتالين لا ثالث لهما : إما أن يكون هذا الشعر صحيح النسبة إلى صاحبه ويكون قاله انطلاقاً من مفهوم الفروسية العربية الثيلة التي تعترف

(١) الحريق : الجحاحة من الناس .

(٢) القود : قبض السوق .

(٣) حاشية أبي تمام - شرح اللؤلؤني ٤٤٨/١ .

(٤) قين : اسم رجل كان مشهوراً بينهم بالبأس .

(٥) جرين : أخو الشاعر .

(٦) الصعيد : وجه الأرض ، الاحاح : العطش ، أو شدة الوجد من الخيف حتى يسمع له من الصبر صوت .

بقوة الخصم وشجاعته معها كانت النتيجة ، وإما أن يكون هذا الشعر منحولاً قصد به رفع شأن القبيلة ليزاد شعر على لسان الأعداء يعترفون بفتوتها وصمودها . ولا بد لنا من التحري حول هذا اللون من المصنفات قبل أن نتقبله ، نستوثق من رواته ونستوثق من مصنفه .

ففي حرب كانت بين زيد وجرم من جهة ولهد وبني الحارث بن كعب من جهة ثانية ، انهزمت زيد في هذه الحرب وانخللت عنها ، ووقف شاعر زيد عمرو بن معد يكرب يسجل بأمانة قوة أعدائه ، وبين لنا كيف أنه تقبل تلك الصلعة بأس شديد .^(١)

لَحَا اللهُ جَرْمًا كُلَّمَا فَرَّ شَارِقُ وَجُوءَ كِلَابٍ هَارِشَتْ فَارِثَاتُ^(٢)
ظَلِلْتُ كَانِي لِلرَّمَايحِ ذُرَيْفَةً أَتَانِلُ عَنْ أَبْنَاءِ جَرْمٍ وَفَرَّتْ^(٣)
فَلَمْ تُفْنِرْ جَرْمٌ نَدَحَهَا إِذْ ثَلَاثَا وَلَكِنْ جَرْمًا فِي اللَّسَاوِ ابْدَعَرَتْ^(٤)
قُلُوبُ أَنْ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنْ الرَّمَايحُ أَجَرَتْ^(٥)

وهزمت جموع اليمن يوم الكلاب الثاني بعد أن جازوا طامعين في القضاء على نعيم ونهبها بعد أن أنهكت يوم الصفقة وقُتل فرسانها ، وأسر البراء بن قيس الكتلي ، ووقف يسجل لنا تلك النتيجة معترفًا بهزيمة قومه ، ومعترفًا بالهدف من غزوهم نهباً ، ومسجلاً ما آل إليه مصيره^(٦)

فَكُنَّا نَعِمْ يَوْمًا جَدِيدًا قُلْ هَانِ وَذَاكَ يَوْمُ الْكِلَابِ
يَوْمَ جِئْنَا يَسُوقَنَا الْحَيْنُ مَوْتًا نَحْنُ قَوْمٌ كَأَنَّهُمْ أَمْدٌ غَابِ^(٧)

ثم بعدد القبائل اليمنية التي سارت إلى نعيم ، وبين لنا بعد ذلك هدف الحملة :

وَحَشَدْنَا الصِّمِيمَ نَرْجُو نِيَابًا فَلَقِينَا الْبَوَارِ دُونَ الثَّهَابِ^(٨)

(١) الأصمعي رقم ٣٤ .

(٢) لحا الله : أهلكه ، والمحرز نزع الشعر العود . أزارت : انتفضت حتى ظهر أصول شعرها وتجمعت للزوب .

(٣) الذريرة : الخلفة التي يعلم الرامي الطعن والرمي عليها .

(٤) لم تنهها : لم تقلوبها ولم تكفها ولكنها فرحت منها . ابدهرت : نطرت وتهددت .

(٥) أجرت : قطعت لساني عن مدحهم لفرارهم .

(٦) الأغاني / كتاب ١٦ / ٣٣٩ .

(٧) الحين : الموت ، الملاك .

(٨) الصميم : القصيم من كل شيء المحض الخالص . البوار : عديم تحقيق المقصود .

لَقِيتُ أَسْوَدَ سَعْدٍ وَسَعْدُ خُلِقْتُ فِي الْحُرُوبِ سَوَاطِ عَذَابِ
تَرَكُونِي مُتَهَدًّا فِي وَثَاقِ أَرْقُبُ النِّجْمَ مَا أَسْبَغَ شَرَابِ

ثم سمعه بين لنا عوقه واختلاء نفسه وإلا لسنى الرضى كفومه :

خَالِصاً لِلرَّضَى وَلَوْلَا دِفَاعِي بِمَشْرِقٍ عَنْ مَهْجَتِي كَالْمُطَابِ
لَسَفِهْتُ الرِّضَى وَكُنْتُ كَقُومِي فِي ضَرْبِ مَغْتَبَا فِي التُّرَابِ
تَذْرِفُ الدَّمْعَ بِالْعَرِيلِ يَسَائِي كَنَسَاءٍ بِكَتِّ قَهْلِ الرِّبَابِ^(١)

المديح :

يعالج البعض تصوير شعر المديح في الشعر العربي عامة والجاهلي خاصة بأنه شعر الترفل والتملق للتمسك بالثاني ، وأن ما يذال من شعر المديح لا يمت إلى الحقيقة بصلة ، فكله يقوم على المبالغة طبعاً في نيل العطاء ، وكان بعضهم يرمي من وراء هذه التهمة التمل من قيمته . ولكن هؤلاء الذين أباحوا لأنفسهم القبح في هذا اللون من الشعر العربي ، لمعلمهم لم يصلوا إلى شعر المديح الذي يتصل بالأيام ، فالشعر الممدوحون هنا تراهم يسجلون بطولات زعماء القبائل وآثارهم في السلم وحقن الدماء ، وهم في مديحهم إنما يصورون مثابهم تصويراً يملأ النفس العربية عجة للمثل الخلقية العليا التي كانت تقدرها في شيوخ القبائل وساداتها وزعمائها ، وكان الشاعر الجاهلي يبتغي تسجيل المآثر والمفاخر ، وفتح هؤلاء الزعماء والسادة إلى التخلق بأجمل الخلق الكريم ، كما تدفع إلى البلاء أروع البلاء في حماية القبيلة يوم يلم بها طائف أو خطر أو حرب ويملك تكون المنحة في تشاتها تربية قوية وسيرة ذكية وصوتاً قوياً يحفز إلى الدفاع عن حسي القبيلة وقتال أعدائها أحر ما يكون القتال^(٢).

استمرت نثر الحرب بين حثي عيس وثبيان ، وكان بعضهم يفتي بعضاً ، وطولت عيس أنحاء الجزيرة ، فهاجر كل يوم قوماً غير جيرانها بالأمس ، ثم تقرر أن تعود إلى قومها بناء على نصيحة رؤسائها وعلى ما رأته من غدر من جاورت ، وتعود ويسعى سيدان كرميان في الصلح ويتحاملان نيات القتل من مالها الخاص ، وهذا عمل عظيم يستحق المديح من شاعر عظيم

(١) قبيل الرباب : النعمان بن جساس لو عيد بطون الحارثي .

(٢) مجلة المجلة عدد يناير ١٩٦٥ مقال للدكتور شوقي ضيف بعنوان : تقويم تراثنا الشعري ص ٢٣ .

لسيدتين عظيمين ، فيقف زهير يسجل هذا الحدث وليمدح السيدتين بما هما أهل له فيقول : (١)
 مَعَى سَاعِيَا غِيظٍ بَنَ مَرَّةً بَعْدَهَا تَسْأَلُ مَا بَيْنَ الشَّعْبَةِ وَالْهَمِ (٢)
 فَاتَّسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ وَجَاءَ بَقْوَةٌ مِنْ قَرِيضٍ وَجَرَّ قَسَمِ
 بَيْنَا لَنَيْسَمِ السَّيْدَانِ وَجِدْنَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمَيِّمِ (٣)
 تَدَارَكِيَا عِيَا وَذِيَانِ بَعْدَهَا تَفَاسَا وَبَقَا بَيْنَهُمَا عَيْطَرُ مَيْمِ
 وَقَدْ قَلْبَا إِنْ تَلَوَّكَ السَّلَمُ وَاسْعَا بِحَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نُسْلِمِ
 فَأَصْبَحْنَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنِ بِعِيدَتَيْنِ فِيهَا مِنْ عَفْوَكَ وَمَأْتِمِ
 عَظِيمَيْنِ فِي عَلَيَا مَعْدُ هُدَيْنَا وَمِنْ يَسْتَبِيحُ كَنْزَا مِنَ الْمَجْدِ بِعَظَمِ
 ثَعْنَى الْكُلُومِ بِالْمَشِينِ فَأَصْبَحَتْ بِتَجْمُعِهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِمُحْزِمِ
 يَتَجَمُّعُهَا قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرَامَةٍ وَلَسِمَ يَرْتَفِقُوا بَيْنَهُمْ عَلَى عَجَمِ
 فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمْ مِنْ يَلَاؤِكُمْ مَغَانِمُ شَيْءٍ مِنْ إِفَالِ مَزْمِ

ويتقرب عمرو بن هند الأحداث الجارية بين أحياء غطفان ، ويرى حليمة زعيم فزارة
 وقد قتله عيس يوم الحياطة ، وخطفه حصن ابنه ، فطمع فيه عمرو وطمع في غطفان أن يصيب بها
 حاجته ، فأرسل إلى حصن يتوعده ، وأقبل حصن بالحليفين أسد وغطفان حتى نزل زباله فصد
 عنه عمرو بن هند فوقف زهير يسجل هذه الحادثة فيقول : (٤)

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي الْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ لَا تَكَاوِرُ ضَيْمٍ لَوْ لَأَمَرِ بِحَاوِلَةٍ
 أَبَى الضَّيْمِ وَالنَّعْيَانِ بِحَرْقٍ نَاهِهِ عَلَيْهِ فَأَقْطَعِي وَالسَّيْفُ مَعَانِلُهُ
 إِذَا حُلَّ أَحْيَاءُ الْأَحْيَاءِ حَوْلَهُ بِذِي لَجَبٍ أَصَوَالُهُ وَصَوَائِلُهُ
 عُدُّ لُهُ مَا بَيْنَ رَمْلَةٍ وَهَالِحٍ وَمَنْ أَعْلَاهُ بِالْعُزْرِ زَالَتِ زَلِيلُهُ

وفي يوم ذي قار ، يوم اللقاء بين بكر وجهوش القرس ، صمدت بكر وحلفائها من
 القبائل ضد جيوش القرس وهزموهم شر هزيمة ، ويقف شاعر بكر الأعشى ، يسجل هذا

(١) معلقة زهير بن أبي سلمى - شرح القصائد السبع الطوال ٢٥٢ وما بعدها .

(٢) تَبْرُلُ : تَشَقُّقٌ وَتَفْطَرُ .

(٣) السَّيْدَانِ : الْحَرْثُ مِنْ حَوْفٍ وَهَرَمٍ بَيْنَ سَنَانٍ ، مِنْ سَحِيلٍ وَمَيِّمٍ : لِمُرَشِيدٍ أَوَّلِينَ .

(٤) ديوان زهير ١٣٩

النصر ، ولبيدح بني شيبان الذين قاتلوا تلك الحرب فيقول : ^(١)

فَدَىٰ لِبَنِي فُحُلٍ بَنٍ شَيْبَانٍ نَاقِي وَرَاكِبُهَا يَوْمَ الْقِصَاوِ وَقَلَّتِ ^(٢)
هُمُ خَرَبُوا بِالْجُنُودِ جُنُودَ قُرَاقِي مُقَدَّمَةَ الْهَامِزِ حَتَّى تَوَلَّتِ ^(٣)
فَلَمَّا عَيْنَا مَنْ رَأَى مِنْ عِصَابَةٍ أَشَدَّ عَلَى أَهْلِ السُّعَاوِ مِنَ الَّتِي ^(٤)
أَتَتْهُمْ مِنَ الْبَطْحَاءِ يَسْرُقُ بِيضُهَا وَقَدْ رُيِّعَتْ رَايَافُهَا فَاسْتَفَلَّتِ ^(٥)
فَنَارُوا وَتَرَبَّا وَالْقَيْدُ بَيْنَنَا وَهَاجَتْ عَلَيْنَا لُحْمَةٌ فَتَجَلَّتِ ^(٦)

ولا يجد الشاعر بُدًى ، وهو يجد أمامه فارساً شجاعاً ، إلا أن يمدح تلك الشجاعة وهو يرجو أن يكون الجميع مثلاً في الحفاظ على شرف القبيلة وسمعتها ، والقبيلة حينذاك وطن البدوي وتوكله ، فقد أبل أسيد بن حنيفة البربري يوم العطال بلائاً حسناً فوقف منهم بن نوبة يمدحه ويتغنى بشجاعته : ^(٧)

لِعَمْرِي لِنِعْمِ الْخِيِ اسْتَحَ لُحْمَةٌ أَسِيدٌ وَقَدْ جَدَّ الصَّرَاحُ الْمَصْدُقُ ^(٨)
فَاسْمِعْ فِتْيَاناً كَجَنَّةٍ عَجْرٍ لِمِمْ رَيْقٌ عِنْدَ الطَّعْمَانِ يَصْنُقُ ^(٩)
أَعْلَدَ بِهِ جَبِيْ أُنَاقٍ وَيَطْنُهَا فَمَا رَجَعُوا حَتَّى لَوْقُوا وَأَعْتَقُوا ^(١٠)

ويغري لريق من قبيلة طيء بشرّاً الأسدي بهجاء أحد زعماء طيء ، وهو أوس بن حارثة ، بدافع الحسد والتنافس ، ويستجيب لهم فيهجوه ، ويطلبه أوس وتوابعه ويظفر به يوم ظهر اللعناء ويأسره ، ثم يطلق سراحه بناء على نصيحة من والدته ، ويغمر حلم أوس وعفوه نفس الشاعر فيفيض شعره بمدح هذا الزعيم ومما قاله فيه : ^(١١)

(١) حيوان الأعشى ٢٥٩ .

(٢) قلت : علت .

(٣) الفهرست : أحد قاتل كسرى .

(٤) السملة : الذين يسمعون للحرب ويصحبونها وهم القرمس .

(٥) استقلت : علت ، وارتفعت .

(٦) الغمرة : الشدة الزحام . لجلت : اكتشفت .

(٧) الشقائق ٥٨٤/٢ ، الكامل لابن الأثير ٦١٣/١ .

(٨) جنة عجلر : عجلر موضع لزعم العرب أنه موطن الجن ، ريق : قوة .

(٩) لوقوا : أسروا .

(١٠) الكامل لابن الأثير ٦٢٧/١ والنظر حيوان بشر ٤١ .

إني لأرجو منك يا أوسُ نعمةً وإني لأعزو بالذي أنا صادقُ
 به كلُّ ما قلتُ إذ أنا كاذبُ فهل نالني في اليوم عندك أنني
 سأشكرُ إن أنعمتَ والشكرُ واجبُ فإني لأين سعادتي اليوم كلَّ حشريتي
 بني أسدِ أفضالهم والأقاربُ^(١) تداركني أوسُ بنُ سعدني بنعمته
 وقد أمكنته من يدي العواقبُ

وسلت الكارثة بأسرة امرئ القيس، فقد فكتك بنو أسد بوالده، ونشئت أسرته ومنع
 عوذهم من شجرة هذلاً امرئ القيس، بعد مقتل أبيها، فسجل الشاعر هذا العمل القليل
 لعمري ومدحه فقال^(٢)

ثيابُ بني عوفٍ طهاريَ نقيّةً وأوجهُهم عندَ المشاهِدِ طُرَانُ^(٣)
 همُ أبلغوا الحيَ الفضلُ أهلهم وساروا بهم بينَ العراقِ ونجرانِ^(٤)
 فقد أصبحوا والله أصفاهمُ بو أبرُّ بمشاقِرِ ولوقي بجزيرانِ

وقد حث بنو سعد امرأ القيس بعد مقتل والده ريثما يستعد للأخذ بشار أبيه فمدحهم
 لعملهم هذا فقال :^(٥)

منعتُ الليثَ من أكلِ ابنِ جُحَرٍ وكأذِ الليثِ يوزي بامرئِ حُجَرٍ
 منعتُ فأنتَ ذو منٍّ ولُغَمي عليّ ابنُ الضبابِ بحيثَ تلذّي^(٦)
 سأشكركَ الذي دافعتَ عني وما يحزبكُ عني غيرُ شكري
 فما جزأُ بأوثقِ منك عهداً فنصركَ للطريدِ أعزُّ نصري

وهمزج المدح بالإستعطاف حين يكون عهد يغوث أسيراً بعد هزيمة يوم الكلاب بيد أحد
 بني قيس ، وهو خائف وجل ، يخشى أن يقتل بالشعبان بن جساس ، فقال مخاطباً أم أسره يطلب

(١) والعاب : خائف .

(٢) ابن سعدني : أوس بن حارثة ، وسعدني أمه .

(٣) ديوان امرئ القيس - تحقيق أبو الفضل إبراهيم ٨٣ .

(٤) ثيابهم نقية : برء من القذر والدم ، قرآن : مستبشرة ، وهي جمع امر وهو الأبيض .

(٥) الحي الفضل : عوف ربه عوف بن شجرة ، الفضل : المحير الذي لا يعرف ابن بنجي .

(٦) فديوان ٢٦٠ .

(٧) ابن الضباب : سعد بن الضباب الذي أجازه .

معا أن يرسله إليها وينطلق به إلى الأمان : (١)

ألهنهم يا خير البرية والدأ ورهطاً إذا ما الناس عثوا المساهيا
تدارك أسيراً عانياً في حبالكم ولا تكفني التيم ألقى الدواهي (٢)

ويضطر الشاعر ، وهو الشاعر القليل ، الملتزم بخط سير قبيلته ، يضطر إلى مدح الأعداء إذا كان قوم من قبيلته أسارى في قبضة الخصم . ولا يجد أمامه من سبيل إلا مدح لوثة الأعداء لإطلاق سراح المسي والأسرى ، فذلك مهمة تقتضيها مصلحة القبيلة . أخيراً النعمان بن قائل بن الجراح الكلبي قائد الحارث النخعي على بني ذبيان وسى منهم النساء ومنهن بنت النابغة ، ولما عرفها أطلق سراحها وسراح سبي غطفان ، فقال النابغة بمدحه : (٣)

فسكرت نفسي بعدما طار روحها وأبستني نغسي ولست بشاهد
وكنت أسوداً لا أمدح الدهر سوقة فليست على خير أذاك بحاسر (٤)
سبقت الرجال الباهشين إلى العلن كسرت الجوار أصطاد قبل الطوار (٥)

وربما كان آخر الشاعر أسيراً فيمدهح الشاعر أمره من أجل إطلاق سراح أخيه ، كما فعل عطفة بن عبدة التميمي حيناً مدح الحارث النخعي الذي كان قد أسر أخاه يوم حليلة فقال : (٦)

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي لكللها والقصرين وجيب (٧)
إبستني دار أسرى و كان ثانياً فقد قرئتني من نذلك قروب
إليك أبيت اللعن كان وجيهاً بمشبهات هوكن مهيب (٨)

(١) التفاض ١/ ١٥٣ .

(٢) عانيا : مها . تكفني : تكف الرجل في الحرب : أفرقه ، التيم : بنو التيم الذين تكلوا بالنعمان بن جساس .

(٣) ديوان النابغة ١٧٦ .

(٤) سورة : دون اللوك .

(٥) الباهشون : القتلون الطالبون للعروف .

(٦) الفضيلة رقم ١١٩ .

(٧) كللها : صدرها ، الوجيب : اضطراب من شدة السير .

(٨) الوجيب : ضرب من السير .

إلى أن يقول مصرحاً بمطلبه :

فلا تحرمّني فالساً عن جنابك فإني أسره ومسطّ القيساب غريب

وهكذا نرى أن ذوات المدح في شعر الأيام تلتخص في تخليد عمل جليل كمدح زهير لسدي خطّان ، أو أن يكون المدح تصويراً لبطولة وتجبداً لها ليحتفي حلوها الفرسان ، وهذا كثير في شعر الأيام ، أو إعتزافاً بجميل كفعلة امرئ القيس عندما مدح من منح أخته وحملها ، أو توطيداً للصلة ، أو رغبة في إطلاق أسير .

المثل العليا والقيم الأخلاقية :

لقد فرقت الصحراء على العرب أخلاقاً خاصة ، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولاً ، ثم صارت لهم على مر السنين جيلاً ونظرة ، صولت لهم عنواناً بين الناس . وفي الحروب مران على الصبر ، وإظهار المزايا الفرسان وحسن بلاهم ، ولقد كان الفارس منهم يخوض غمرات القتال وهو مدرك أنه قاتل أو مقتول ومع هذا فإنه يقتحم الموت ، فشجاعته شجاعة فيها قوة وفيها تحد للموت ، ولكنها فيها أيضاً إنسانية وكرم وإتصاف للأعداء ووفاء للوعد . نسوي لنا بأن أولئك الناس كانوا يعيشون من القراخ ، ومن الطمأنينة ما يجعلهم يشغلون تلك الأسواق بالبيع والشراء والأسماج إلى الخطب والأشعار وتبادل الخبرات والخروج من العزلة .

ولقد تعارف العرب في جاهليتهم على أشهر أسموعها الأشهر الحرم ، لا قتال فيها ، وإنما يفرغون للاتصال ببعضهم في المواسم والأسواق ، ويحجون إلى بيت الله الحرام ، كما تعارفوا أيضاً على قوانين تنظم أفعالهم في هذه الأسواق ، فعرفوا مواعيد لبدءها وانتهائها ، كما عرفوا قوانين لها يلتزمون بها ، فلا أحد يحمل السلاح في السوق ، بل تودع هذه الأسلحة عند رجل يتعارفون عليه وله مكانة ، والفرسان يتنزلون إلى هذه الأسواق ملثمين حتى لا يعرفهم أعداؤهم فيقتلونهم إذا ما التخوا في ساحة القتال . وتبادل الأسرى يتم في هذه الأسواق ، والتظلم للذي تعجز القبيلة عن حله يحله حكام هذه الأسواق .

وفي غير أوقات الأشهر الحرم كان العربي يجد لديه متسعاً من الوقت غير الحرب يقتضيه في الصيد والتهو ، وكسب قوته بغير طريق الغزو والتهب ، كما كان يجد لديه الوقت لينظم الأشعار التي تعبر عن وجدانه وأحلامه وآماله ولم كانت الحروب تشغل وقته كله فاصلنا ذلك الشعر الجليل الكثير المتعدد الأغراض والطعوم .

وقد بينا سابقاً أن الصلوات التي كانت تحكم القبائل فيما بينها لم تكن صلوات حرية بل منها الصلوات السلمية أيضاً ، ولعل الصلوات السلمية كانت توافي وتعالق الصلوات الحربية ، ولم يكن يمنع أن تقوم صلوات سلمية في فترات متقطعة بين قبيلتين متحاربتين ، فلم يكن العداء مستديماً ، فلقد شهدنا الأوس والخزرج قبيلتين متحاربتين ، ثم اختلفتا فتحلستا ، ولكن تلك الحرب لم تمنع المصاهرة والتجارة بينهما . بل عمل إلى أن فترات السلم بين القبائل كانت أكثر من فترات الحرب بين هذه القبيلة وتلك .

ويدعو أن طبيعة الحياة في ذلك العصر ، وجذب الأرض وسهولة التحرك والإحكاك وتلك الحروب بينهم التي كانت لجهل غالب الأسس مغلوب اليوم ، يدعو أن هذه الحياة أجبرتهم على الاعتراف بقيمة ومثل تعارفوا عليها وعملوا بها ، ثم صارت مثلاً يمشرون بها ويقتاضون بها غيرهم ، ولقد سبق أن عرضنا لها من خلال حديثنا عن القبيلة ومقوماتها وعن دوافع الحرب في المجتمع الجاهلي ، وفي حديثنا عن الفرائض الشعر في هذه الحروب ، ولكننا مع ذلك نرغب في إيجالها هنا لنبين وضحة المعالم ، ولتبدو نوراً وضياً وسط تلك الحروب التي أوشكت أن تدفع العصر كله بالمدوان والدم والشر .

وأول تلك الفضائل التي حرصوا عليها ، ومدحوا التمسك بها ، وضعوا المتخلف عنها الكرم . وقد تحدثنا في غير هذا الموضوع عن ظلمة الكرم ورأى بعض الباحثين في وجودها . يقول الأعشى يوم أواره مفتخراً بتلايف المال لحفظ العرض :^(١)

إِذَا رَوَّحَ الرَّاغِبِي الْمَفْصَاحَ مُعْجِلاً
وَأَمْسَتْ عَلَى أَقَاتِهَا خَبَرَاتُهَا
لَعْنًا لَهَا لِمَوَالِنَا عِنْدَ حَقِّهَا
وَعَزَّتْ بِهَا أَعْرَاضُنَا لَا تَقَاتُهَا

والكرم عند الشدة أكبر وأعظم أثراً في النفس ، هذا عامر بن الطفيل يفتخر في يوم فيه الريح بأن بني عامر يكرمون في سعة القحط الشديدة ، والتي لا يجد فيها الضيف قري :^(٢)

إِذَا سَنَةٌ عَزَّتْ وَطَالَ طَوَالُهَا
وَأَقْبَحَتْ عَنْهَا الْقَطَرُ وَاصْفَرَّ حَوْثُهَا
وَجِدْنَا كِرَاماً لَا يَحْسُونُ ضَيْفَنَا
إِذَا جَفَّ فَوْقَ الْمَنْزِلَاتِ جَلِيدُهَا

وربيعة بن مفرم الضبي يفتخر ببني غبة بأنهم يبيتون لمواهم في الحق إذا لحت على

(١) ديوان الأعشى ٨٧ .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ٤٦ - ٤٧ .

الناس لزمة شديدة تسببهم عقوبهم : (١)

أَلْيَسُوا الَّذِينَ إِذَا أَرَمَهُ
يُؤْنِسُونَ فِي الْحَقِّ أَمْوَالَهُمْ
أَلَحْتُ عَلَى النَّاسِ ثَلَاثِي الْحُلُمِ (٢)
إِذَا اللَّزِيَمَاتُ النَّحِينَ أَلَسَا (٣)

وحرص العرب على المرأة شديد ، وكثيراً ما تقنوا بالحفاظ على العرض ، وكثيراً ما نشبت الحروب بينهم بسبب محاولة قوم الإغتداء على المرأة من قبيلة أخرى ، وكانت معظم القبائل تأخذ النساء معها في الحروب حتى لا تخلفها في الخي فباتي قوم ويسرقوا النساء ، فيجلب ذلك العار للقبيلة . وحياة النساء مجال فخر لدى الشعراء ، يقول سلامة بن جندل التميمي : (٤)

بَأْسًا مَنَعْنَا بِالْفُرُوقِ نِسَاءَنَا
وَنَحْنُ قَتَلْنَا مَنْ أَتَانَا يَمْلُزِقُ

ويستخر عمرو بن حوط النجاشي في يوم طخفة فيقول : (٥)

فَمَا قَوْمٌ كَقَوْمِي حِينَ يَجْتَنِي
عَلِ الْخَوِزِ الْمُخْدَرَةِ الْفِضَاحُ (٦)
أَذْبُ عَنْ الْحَفَائِظِ فِي مَعْدُ
إِذَا مَا جَدُّ بِالْقَوْمِ الْتَطَاحُ (٧)

ويقول ربيعة بن مفروم الضبي مفتخراً بقومه بأنهم يمنعون الحريم : (٨)

طَوَالَ الرِّمَاحِ غَدَاةَ الصَّبَاحِ
فَدَوَّ نَجْدُهُ يَمْتَنِعُونَ الْحَرِمَ

ولكن ذلك لم يمنع بعض الشعراء اللوذين أن يفخروا بما فعلوه بالنساء السبايا بل نجد عامر بن الطفيل مفتخر بغير بطون الحلال ، ولكن ذلك قليل إذا ما قيس بغالبية الشعر ، وتلك المواقف التي تتعدد كشف ستر المرأة بالشعر ، والمواقف والتصرفات قليلة .

والذل مفروض لدى العربي الجاهلي ، وهو يدفع دمه وخصيصاً في سبيل دفعه ، وهو يحارب

(١) الفضيلة رقم ٣٨ .

(٢) ألحيت : لزمت وتتابعت ، الحلوم : العقول .

(٣) يؤنس في الحق أموالهم : يفتقرون أموالهم في الحقوق التي تعترضهم ، اللزيمات : جمع لزية وهي القنط ، التحين : تشرن . القسم : صاحب الأيل والغنم .

(٤) ديوان سلامة بن جندل ١٦ .

(٥) الفتاوى ١ / ٦٩ .

(٦) الخوذ : الشاية الناعمة حسنة الخلق ، الفِضَاح : الفضيحة .

(٧) الحفائظ : الأعراس . التَطَاح : القتال .

(٨) الفضيلة رقم ٣٨ .

خصمه على الرغم من اعتقاده بتفوق خصمه عليه لنفع اللذ الذي يحاول أن يجعله يعيش فيه .
يقول ربيعة بن مقروم النفس :^(١)

وَدَارِ هَوَانِ أَنْفَسَا الْمَقَامَ يَا لِحَلَّتْنَا عَلاً تَرَمَا
إِذَا كَانَ بَعْضُهُمْ لِلْهَوَانِ خَلِيطُ صَفَاءٍ وَأَمَّا رَوْمَا

ولقد مر بنا في حروب حبس وضيان أن حبساً تنقلت في أرجاء غطتة من الجزيرة العربية ، لأنها كانت تسمى اللذ ، فكلها جاورت قوماً لا تلبث أن ترحل عنهم لاحساسها بأنهم يحاولون التيل منها ، والانتفاخي من منزلتها ، ومحاولة إلحاق اللذ بها .

وقد مر بنا أن القبائل جميعاً تعارفت على قانون الجوار ، وكانت القبيلة تجتد حيلة الجوار مصدر فقرها ، وبأن منعة منعة لها ، وأن أي أنقى يلحق به يلحق بها . وتغني الشعراء بذلك طويلاً ، يقول عبيد بن الأبرص :^(٢)

إِنَّا لَعَمْرُكَ لَا يُضَا مٌ حَلِيقُنَا أَبَدًا لَدَيْنَا

ويقول حيد أيضاً في موضع آخر :^(٣)

لَحْمِي حَقِيقَتُنَا وَلَمَحْ جَارُونَا وَتَلَفُ يَسِينِ أَرَامِيلِ الْأَيْتَامِ^(٤)

ويقول شاعر الحماسة حسان بن ثابت العنثوي مبرراً مدحه وقطره بنتم بأنها أبت أن تبيع جارها لعدوها على الرغم مما جهزه العدو لها من العدد والعدة^(٥)

إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَقْدِرْ حَيًّا مِوَاهُكُمْ فِدَاءُ لَتَيْمِ يَوْمَ كَلْبٍ وَخَيْرِ
أَبَا إِنْ يُبَيِّحُوا جُلُوهُمْ لَعَدُوهُمْ وَلَقَدْ ثَارَ نَفْعُ الْمَوْتِ حَتَّى تَكُونُوا

وتحرص القبائل على صون الأمانة ، وعدم التضييق بها ، منها كانت التضحيات ومنها بلغ الشعن ، ولعل صورة يوم ذي قار تعطينا الصورة المشرقة لتحمل القبيلة مسؤولية صون الأمانة ، ولو لئلا الأمر إلى ملاقة جيوش الفرس البخرية . وقد تغني شعراء بكر كثيراً بذلك ، وأقسموا بالآلا

(١) المقضية رقم ٣٨ .

(٢) ديوان حيد بن الأبرص .

(٣) ديوانه ١٢٣ .

(٤) الحقيقة : كل ما يفتن على الإنسان أن يحميه ، تلف : تجمع ونظم .

(٥) حاسة أبي تمام شرح المرزوقي ١ / ٣٣٢ .

يفرطوا بذلك الأضرع التي أودعها النعمان عندهم ، وأن نجم السماء ، اقرب إلى كسرى من تلك الأضرع ، يقول الأعشى :^(١)

لما خلقت النعمان يوم طلبتها بأقرب من نجوم السماء ثراقية^(٢)

ويقول من قصيدة أخرى نفساً على الحفاظ على الأضرع فيها كلف القوم الثمن :^(٣)

حلفت بالملح وبالرماد والعزى وبلايات نلسم الخلفة
حس يظل الهام متجبرلاً ويقرع النبل طرة الدرة^(٤)

والخليف له حقوق وعليه واجبات ، لا يجوز فض الخلف أو الغدر بالخليف ما دام الخلف معقوداً ، ويحرص المجتمع الجاهلي على الحفاظ على قداسة الخلف ويعتبر الناس به علواً الصق بالقوم ، ويشبهه التابعة بالقجور ، يقول النابغة عندما قتلت عيس نضلة الأسدي وكان بين أسد وقيبان حلف ، وأراد عينة بن حصن الفزاري عون بني عيس ، فذهب النابغة محطراً^(٥)

إذا حاولت في أسد فجوراً فإني لست منك ولست مني
هم فيرمي النبي استلامت فيها إلى يوم النصارى وهم عجنى^(٦)

وإذا كان العربي حريصاً على الأخذ بالثأر فذلك لأنه لا يجب أن يضع دم ابنه أو قريبه هدراً ، فتعبر القبائل بذلك ، وتطعم في ماله وعرضه ، ولكن هذا الحرص على الأخذ بالثأر يتناساه العربي حينما تصدر عنه كلمة أمان يعطيها لواقفه دون أن يعلم أنه الذي يطلبه ، ولا يتزحزح عن موقفه . ففي حرب البسوس ، وفي يوم قصة أسر الحارث بن عبد الملهل كما تقول بعض الروايات ولكنه لم يعرفه ، فطلب منه أن يئله على الملهل وأعطاء وعداً بإطلاق سراحه ، فقال له : أنا مهلهل ، وكان مهلهل قد قتل ابنه أو ابن أخيه بغيراً ، ومع ذلك لم يقتله وأطلق سراحه .^(٧)

(١) الأعشى / ثقافة ٢٣ / ٢٢٩ .

(٢) حلقة النعمان : ابرعه .

(٣) الأعشى / ثقافة ٢٣ / ٢٢٩ .

(٤) طرة الدرة : طرف الترس .

(٥) ديوان النابغة ١٩٩ .

(٦) قجور : خنجر ، الحين : الترس ، اللامة : المدرع .

(٧) أمثال النبي ٥٨ .

ومما تعارف عليه ذلك المجتمع من مثل إطلاق سراح الأسرى والسبايا ، وعدم المساس بكرامتهم في الأسر والحفاظ على حياتهم ، وفيما يتعلق بالسبي كانوا يطلقون دون فدية ، أما الأسرى فكانوا يملكونهم أو يملكون فدية . وكانت الأسواق ، وليرزها عكاظ مكاناً مناسباً لتبادل الأسرى في الأشهر الحرم . وكانوا لا يقتلون الأسير إلا استأسره لم إلا إذا كان قد قتل لهم رجلاً عظيماً أو كان قد كتمن فيهم . كما كانوا لا يقتلون الرسول مهما كانت رسالته . ففي يوم ذي قار أرسل كسرى النعمان بن زُرعة التغلبي يحمل تهديداً إلى بكر وسج ذلك رده سائلاً ولم يقتلوه .

ومن المثل التي برزت وسط عظم الحروب والغزو الذي سادت الجزيرة العربية أنهم كانوا يحرصون إلى المصالحة والسلام ما وسعهم ذلك ، وما دام ذلك لا يلحق بهم علواً . بل أننا رأينا أن عبا في حرب داحس حاولت تجنب الحرب أكثر من مرة ، ولكن تعنت حذيفة والنخوة هو الذي دفع بالقبيلتين إلى الحرب ، ولا حظنا مثل ذلك في حروب الأوس والخزرج ، وفي حرب البسوس حينما أرسلت تغلب ونداء إلى بكر تسألها أمورا منها أن تسلمها جساسا أو هاما ما تقتله بكليب ، ولو قبلت بكرة ما حدثت حرب البسوس ، ولكن الذي كان يفسد الحرب هو العصبية وخوف القبيلة الأخرى من أن يفسر قبولها لشروط الطرف المتصور على أنه تخاذل أو استسلام . وأكثر ما تبرز هذه الظاهرة ، وهي حب المصالحة ، عند القبائل التي ترتبط برابط القرابة ، أو عند القبائل التي ترتبط بمصالح كقريةش ومنازلن في حروب النجد .

وقد أجمع المجتمع على اعتبار الفرار سبة في جيون الفارس الذي يفر ، ولكن ذلك لم يمنع بعضهم من الاعتراف بذلك ومحاولة تبريره ، بل ويحدثنا كيف تمكن من الفرار . يقول عامر بن الطفيل في يوم ليف الربيع :^(١)

إذا ازور من كمر الرماح زجرته وقلت له ارجع مقبلاً غسراً مذهباً^(٢)
وأنبأه أن القيسار خزابة على المرو مالم يسر عنراً فيعتل^(٣)

لعامر يعترف بأن الفرار خزابة وعار ، ولكنه يبيحه إذا وجد عنراً لذلك الفرار ويميراً ،

(١) حيوان عامر بن الطفيل ٦٢ .

(٢) ازور : مال إلى ناحية أخرى .

(٣) عزابة : عار .

وهذا البرد ذكره لنا شاعر آخر من شعراء يوم الكلاب الثاني وعنه بن عبد الله الجعفي حيث يقول :^(١)

عَدَا نَفْسِي نَهْدٌ فَكَلْتُ لَنَهْدٍ حِينَ جَاسَتْ عَلَى الْكَلَابِ أُنْهَاهُ^(٢)
يَوْمَ كُنَّا عَلَيْهِمْ طَيْرَ مَاءٍ وَتَمِيمٌ صَقُورُهَا وَيَزَاهَا
لَا تَلُومُوا عَلَى الْفِرَارِ فَسَعْدُ بِأَلْ كَلْبٍ يَخَافُهَا مَنْ يَرَاهَا

وهو يفخر بنجاةه في ذلك اليوم ، ويحدثنا كيف تمكن من الإفلات من الأسر فيقول^(٣)
نَجُوتُ نَجَاءً لَمْ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُ كَأَنِّي خُصَابُ عِنْدَ تَيْمَنٍ كَاسِرُ^(٤)
خُدَارِيَّةٍ سَعَفَاءُ لَيْدٍ رِيثُهَا مِنَ الطَّلُ يَوْمَ ذُو أَلْهَاضِيبَ مَاطِرُ^(٥)
إلى أن يقول موضحاً صورته وهي عارب تطارده قرسان تميم :

كَأَنَّا وَقَدْ حَالَتْ حَدَكَةُ دُونَنَا نَعَامٌ تَلَاؤُ فَا رَمْنُ مَتَوَاتِرُ^(٦)

موضوعات أخرى :

وثمة موضوعات أخرى لم تعرض لها ، وأثرنا أن نجعلها هنا لقلة الشعر الذي قيل فيها ، بحيث لا يشكل غرضاً بارزاً من أغراض شعر الأيام :

ومن أبرز هذه الموضوعات الرغبة في السلم والدعوة إليه ، وهذا اللون من الشعر لا نجده في شعر الحروب التي لا نسمع فيها إلا صوت الحُص على القتال ، ولكننا نسمعه في شعر الحروب بين القبائل التي تنتمي إلى أب واحد كحرب داحس والغبراء ، وحرب اليموس ، والحروب بين بطون القبيلة الواحدة ، فهي حروب بين أخوة ، ومن الطبيعي أن تولد أمام هذا الشعور برابطة القرابة والدم فكرة تبغض الحرب وتزيين السلم بين الفريقين ، ولكن ليس في بدايتها وإنما بعد

(١) الألفاظ / كتب ١٦ / ٣٤٠ .

(٢) حلتشي : لانتحي ، نهْد : قبيلة من اليمن ، جاست : ترددت ، جاست .

(٣) القصيدة رقم ٣٢ ، المتأخر ١ / ١٥٥ .

(٤) تيمَن : موضع باليمن ، الكاسِر : الذي يضم جناحيه يريد الانعطاف إلى الصيد .

(٥) خُدَارِيَّة : يضرب لها إلى السواد وهي صفة للعقاب ، السَعَفَاء : سواد يضرب إلى الحمرة .
الأهاضيب : جمع أعضرية وهي الطرة العقابمة .

(٦) مَطْنَةٌ : لغز ليبي علمر ، متواتر متابع ، صفة للثمام .

أن يكتوي الحيات بتارها . ومن الشعراء دغلة السلم : الربيع بن زياد ، وزهير بن أبي سلمى وقيس بن زهير .

يلول الربيع بن زياد عندما عاقد قيس بن زهير ضد فزارة وخططان ^(١)

فإن نكح حربيكم أدبت عواناً فإني لم أكن ممن جناها ^(٢)
ولكن ولد سوفة لزوجها وحشوا نازها لمن اصطلاها ^(٣)
فإني غير خافلكم ولكن سأمتعي الآن إذ بلغت مناها

ويطرد زهير بن أبي سلمى حيي خططان من العوة إلى الإقتال ويذكر بما ذاقوا من وبلائها
نهم قد جربوها : ^(٤)

وما الحرب إلا ما علمتم وذقمتم وما هو عنها بالحديث المريج ^(٥)
منى تبثوها تبثوها ذمية * ونصر إذا ضربتموها فتضرم ^(٦)
فتعرككم عرك الرجل تبث لها وتلفح كشفا ثم تتج فتسم ^(٧)
فتتج لكم غلمان أناس كلهم كأحر عدا ثم ترضع فتضطم ^(٨)
فتفلل لكم مالا تغل لأهلها قسرى بالعراق من تغير ودرهم

ويقع خلاف بين حيي من خططان بسبب مثل جوار لأحد الحيين ، ويشد الخلاف بين
الحيين ، ويقف الخصم بن الحمام الرزي يدعو إلى التمثل وعدم الاقتتال ويتخاطبهم بصفة
القرابة ^(٩)

يا أخوتنا من أيننا وألنا قروا مواليتنا من قضاة يذهبها

(١) العقد القرئذ ٥ / ١٥٣ ، فضال القاضي ٤٣ .

(٢) حرب عوان : الحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى ، ولد سوفة : حليقة وأخوته .

(٣) لزوجها : اشعلوا نازها ، حشوا نازها : جمعوا لها الوليد .

(٤) معالقة زهير - شرح للعلاقات الطوال ٢٦٧ .

(٥) المريج : الذي يرمي فيه بالطن .

(٦) ذمية : مملوومة ، القسرى : تشدد .

(٧) التفل : جلدة للهل تحت الرحي ، كشفاً : تحمل على التفل في كل سنة لتفطح وذلك لإزالة التلج .
تسم : تتج الثين في بطن .

(٨) أحر عدا : أرك أحر شموه .

(٩) القضيالية وتم ٩٠ .

فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَفْعَلُوا لَا أَبْالَكُمْ فَلَا تُعْلِقُونَا مَا تَحْمِلُنَا فَتَنْضَبُوا^(١)
مَنْ تَنْتَسِبُ تَلْقُوا أَبَاءَ أَبَائِكُمْ وَلَنْ تَجِدُونَا لِلْفَوَاحِشِ أَقْرَبَا

وليل إتهام حرب داحس والغبراء ، وقد أوشك القوم على التصافي ، كثر حصين بن
ضمضم عبياً خذراً ، فغضب حصن بن حليفة ، وغضب عبس ، ووقف شيم بن خويلد
الغزاري يدعو إلى السلم ويذكر الطرفين بصلة الرحم وقال في ذلك : ^(٢)

يَا قَوْمَنَا لَا تَغْرُونَا بِمُظْلَمَةٍ يَا قَوْمَنَا وَادْكُرُوا الْآلَاءَ وَالذُّمَمَا^(٣)
فِي جَارِكُمْ وَابْنِكُمْ إِذْ كَانَ مَقْتَلُهُ شِعَاءَ شَيْتِ الْأَصْدَاغِ وَاللَّيْمَا^(٤)
عَيُّ الْمَسْرُودِ بِهَا وَالسَّائِدُونَ فَلَمْ يَوْجِدُوا غَيْرَنَا مَوْلًى وَلَا حَكَمًا^(٥)

وفي يوم شُوحيظ القتل الأخوة فوقف غيلاش بن زهير يحول دون المضي في هذا العمل ،
حتى منعهم من قتل إخوانهم ، وسجل ذلك في شعره فقال مخاطباً المعتلين عليهم^(٦) :

فَيَا أَخَوْنَا مِنْ أَيْنَا وَأَمْنَا إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ لَا سَبِيلَ إِلَى جَسَرٍ
بَيْنَكُمْ مِنْ خَيْرِ قَوْمٍ لِقَوْمِكُمْ عَلِ أَنْ قَوْلًا فِي الْمَجَالِسِ كَلْمُجَرٍ
دَعُوا جَانِبًا إِنَّا سَتَرُوا جَانِبًا لَكُمْ وَاسْعَأْ بَيْنَ الْهَامَةِ وَالْقَهْرِ

ويجتم هذه الأبيات مستكراً قتل الأخ لأخيه :

وَإِنِّي لِأَشْفَى النَّاسِ إِنْ كُنْتُ غَارِمًا لِعَاقِبَةٍ : قَتَلَ عَدِيْمَةً وَالْخَضِرَ
أَكْلَفُ قَتَلَ مَعْشَرٍ لَسْتُ مِنْهُمْ ؟ وَلَا أَنَا مَوْلَاهُمْ وَلَا نُصْرَتُهُمْ نُصْرِي

ومن هذه الموضوعات الاستعطاف ، وهو قليل في شعر الأبيات لأنه لا يليق بالفارس الذي
يمتلي صهوة الجواد ويمتشق الحسام ، ولكن بعض الشعراء هم الذين ورد هذا الشعر على

(١) لا تعلقونا : لا تتوطأ بنا ماكرتنا .

(٢) الطقاتي ١ / ١٠٦ .

(٣) الآلا : التعم ، الذمم : العهود .

(٤) الأصداغ : جمع صدغ وهو الشعر فوق جانب الوجه ، اللمم : جمع لمة ، وهي شعر الرأس المجاور
سحنة الأذن .

(٥) عي : عجز .

(٦) المحدث القريدي د / ١٦٢ ، جهرة الشعر العرب ١٩٢ .

أستسلمهم ، يلجئون إليه لئلا يصرّف ملكك عن غزو قومهم ، أو لإطلاق سراح الأسرى ، من قومهم ، وغالبية هذا الشعر مرتبط بالخيرة أو مملكة غسان أو ملوك اليمن ، لما كان لهذه الدول من قوة وسيطرة على بعض القبائل العربية . أما استعطاف فارس لأسره فهذا ما لا نجد له ، ولو كان الأسير فتاة ، فهي تغفل أن يطر يطعها كما فعلت المرأة النخعية مع عمرو بن هند يوم لوكرة .

ومن شعراء هذا اللون الممزق العبدى ، وعبيد بن الأبرص ، والثابتة الليثي . لقد علم الممزق العبدى بأن عمرو بن المنذر اللخمي قد همّ بغزو قوم الشاعر عبد المطلب ، فقال يستعطفه بهذه القصيدة ، فلما بلغته القصيدة التصرف عن غزوه ، ومما قاله الممزق العبدى : (١)

أرقتُ قلمَ عُذْرٍ بعينيّ ومَن يَلْسُقْ ما لا يَتَّ لا يَدُ يَأْرِقُ (٢)
تَبَيْتُ المَهْمُومَ الطَّارِقَاتِ يُعَذِّبُنِي كَمَا تَعَذِّبُي الأَهْوَالُ رَأْسِي المَطْلُوقُ (٣)

ويستمر في تصوير حاله ، ثم يلجأ للملك بمجده وعزه ونفاذ وقوة سلطانه وشجاعته وبيوته وريائه .

علوتم ملوك الناس في المجد والفضى وقرب ندى من عروة العز يستغنى (٤)
وانت عبود الدين مها ثقّل بقل ومهما تَضَحَّ من باطل لا يُلْحَقُ (٥)

ثم يستعطفه في أسلوب طريف معلنًا ولاءه وولائه فيقول :

أحسأ ليت اللعن أن ابن فرثنا على غير إجرام يريقى مُشْرِقِي (٦)
فإن كنت مأكولاً تكن غير أكل ولا تداركنسي ولما أنزق (٧)
أكلنسي أدواء قوم تركتهم ولا تداركنسي من البحر أغرق (٨)
فإن يتهمروا أنجد خلافاً عليهم وإن يعينوا أستحقني الحرب أغرق (٩)

(١) الأصمعي رقم ٥٨ .

(٢) الرمة : ثقل النوم .

(٣) المطلق : اللغز .

(٤) القرب : اللو العظيمة .

(٥) الدين : السلطان والملك مها تضح من باطل : مها تسلط من شيء وتبطله .

(٦) ابن فرثنا : يراد به اللخم . مشرقى : من الشرق وهو بلاد الرقيم كالخصص بالطعام .

(٧) يتهم وينجد ويعمن وعرق : يأتي تهامه وينجدا وهما والعراق . مستطحي الحرب : حامل جثها .

فَلَا أَنَا مَوْلَاهُمْ وَلَا فِي صَحِيفَةٍ كَفَّلْتُ عَلَيْهِمُ الْكَفَالَةَ تَعْنِي (١)
وَلَقَدْ بَيَّهَ أَن لَا يَكْذُرَ نَعْمَةً وَلَا يَغْلِبُ الْأَعْدَاءُ مِنْهُ يَعْتَبِرُ (٢)

وحاول بنو أسد منع الإتاوة التي كانوا يدفعونها لحُجْر الكندي ، فسار إليهم ببضد من ربيعة وكثانة وقيس ، فأتاهم وأخذ سرقاتهم ، وأباح الأموال ووقف شاعرهم يستعطف لذلك بهذه القصيدة ، فرق لهم حجر حين سمع قوله وعفا عنهم ، وبما قاله عبيد : (٣)

إِذَا تَرَكْتَ تَرَكْتَ عَفْوَاً أَوْ قُلْتَ فَلَا مَلَامَةَ
أَنْتَ الْمَلِكُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الْعَبِيدُ إِلَى آيَامِهِ
ذُلُّوا لَوَطْنِكَ مِثْلَ مَا ذُلَّ الْأَشَقَرُ ذُو الْخِزَامَةِ (٤)

(١) تعني : الخبيث .

(٢) لا يكثر نعمة : يعني بالاعتذار ، معني : لا يدع لأعدائه مستقرا .

(٣) حيوان عبيد بن الأبرص ١٢٦ .

(٤) الأشقر : لصغير الأشقر ، وهو الأحمر من الدواب ، الخزامة : حلقة من شعر الجمل في وقر أنف الجمل يشد بها الزمام .

الفصل الثالث

خصائص شعر الأيام الفنية

تمهيد :

خلصنا في الفصلين السابقين من الحديث عن مصائر شعر الأيام وروائه ، كما عرضنا للأغراض التي نظم فيها شعر الأيام ، ولكننا لم نتعرض لمشكلة هامة من المشكلات التي تعرض دارس الشعر الجاهلي عامة والأيام خاصة . فلن كانت بداية هذا الشعر ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ أسئلة ينبغي الإجابة عليها أو محاولة الإجابة قبل الحديث عن خصائص هذا الشعر الفنية .

إن بداية هذا الشعر تتعين بتعيين بداية أيام العرب في ذلك العصر ، ولقد عرضنا فيما سبق لأراء مختلفة في تحديد بداية تلك الحروب بأنها كانت مع ضعف سلطة اليمنيين على قبائل الشمال ، مما جعل تلك القبائل تنسرد على حكمهم أولاً ، ثم تنصارع فيما بينها . ولكن لا نجد لنا الفترة الزمنية تحديداً دقيقاً .

ولقد عرض بعض القدماء لهذا الموضوع بشيء من التلميح ، فقال المرزباني وهو يحددنا عن عمرو بن أمية بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكري أنه عاصر مهلهل بن ربيعة ، وأن بكرنا نزعهم أنه أول من قال الشعر وقصد القصيد^(١) .

وعند الجاحظ أن أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة^(٢) . وعند ابن خالويه أنه ابن حذام^(٣) ، ويرى السيوطي أن أوائل العرب لم يكن لهم إلا

(١) معجم الشعراء - المرزباني ٤ .

(٢) القروان - للجاحظ ٧٤ / ١ .

(٣) الزهر للسيوطي ٢ / ٤٧٧ .

أبيات بقولها الرجل في حاجته ، وقد قصدت القصائد طول الشعر على عهد عبد المطلب أو هاشم ابن عبد مناف .^(١)

وعندما عرض الباحثون لهذا الموضوع ، ربطه بعضهم بالرجز ، فقال بعضهم عن امرئ القيس أنه قول من قصد القصائد ووضع قواعد الشعر العربي ، وأنه يمثل روحاً جديداً في الشعر القديم الذي كان مقصوراً على الرجز^(٢) . وأجمع الباحثون تقريباً على أن البحث عن أوليات الشعر الجاهلي كالضرب في صحراء مجهولة لا معالم بها ، لأنه يبحث في عصور ما قبل التاريخ الأدبي ، وأن ما يسمى بطغولية الشعر الجاهلي ليس إلا مجرد آراء تخمينية لا تعدو الحدس والرجح بالغيب ، وأن ذلك الشعر قطع مراحل عديدة حتى استوى في صورته الجاهلية التي وصلتنا ، وليس يبرز أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا صورة تامة للقصائد المقيمة بالتقاليد الفنية المعتادة في الوزن والقافية والموضوعات والأساليب والصيغيات المحكمة .^(٣)

ونستطيع أن نخلص عما ذهب إليه الباحثون أن أولية الشعر الجاهلي غامضة ، وأن وضع تاريخ معين يحددها أمر متعذر ، وأن القلب على الظن أن أوائل هذا الشعر لا يتخطى أقدم اللونيات التي بلغت بزمان طويل وهي الشعر الذي حاصر حرب البسوس .^(٤)

ولما كانت دراستنا متعلقة بالأيام فإننا نرى ألا تعارض بين أقدم نصوص شعر الأيام التي ترتبط بحرب البسوس أو قبلها ، وبين أولية الشعر الجاهلي التي يظن أنها لا تبتعد كثيراً عن تلك الحرب .

أما من زعم بأن الشعر القديم ، قبل أن يستقر على صورته التي وصلتنا إلينا ، كان مقصوراً على الرجز ، فذلك أمر سنعرض له بالتفصيل حيناً نعرض للرجز .

أما المشكلة الثانية التي نعرض دراستنا فهي أن الشعر الذي نجمع لدينا شعر مقطوعات ، إذ أنها تشكل نسبة كبيرة من مجموع الشعر الذي جمعناه ويتصل بالأيام العرب في العصر الجاهلي . ودلالة هذا الأولية أن النتائج التي ستوصل إليها ليست قطعية ، ولا تعطي الصورة الحقيقية لشعر الأيام الذي ندرسه .

(١) الزهر للسيوطي ٢ / ٤٧٤ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية - النسخة المراجعة ٢ / ٣٢٣ .

(٣) انظر العصر الجاهلي - فهد ١٨٣ ، موسيقى الشعر لإبراهيم النسي ١٨٤ ، دراسات في الأدب العربي - غريبانوم ١٣٥ ، مجلة الجلة فبراير ١٩٦٥ - مقال للدكتور يوسف عفيف ص ١٩ .

(٤) مجلة للجلة - فبراير ١٩٦٥ - مقال للدكتور يوسف عفيف ١٩ .

ولا يؤثر تداخل هذا الشعر واضطرابه في النتائج التي نتوصل إليها ، لأننا ندرس شعر الأيام عامة ولا ندرس خصائص شاعر بعينه ، فيما يؤثر الشعر للوضع على هذه النتائج فيما لو اختلط بشعر الأيام الحقيقي .

لغة شعر الأيام

الشعر هو النوع الرئيسي لصياغة اللغة وتجهيزها ، ويحضر تاريخ الشعر في صورة من صور تاريخنا متعاليها لأدوار من ولادة الفاظ الشعر وتضجها وفنائها ، وهي دائما تولد في ثورة ثم شعر يفتقر تطورها واتساعها قبل أن تصير إلى الجمود والقوالب الآلية .

والشاعر - كما تقول الزبائيت درو - هو أبداً القلب المنفتح الذي لا يتجعب بشيء ، ولكن ذلك قد لا يكون كذلك ، بل قد يستعمل كل حيل اللغة من البساطة الكاملة إلى البلاغة المعقدة فيلجئ في حرارة عاطفة قفا من خلال الإيجاز ، وأحياناً من خلال الإطناب ، وطوراً من طريق حذف التفاصيل ، وطوراً من طريق الابتكار^(١) .

وليست الألفاظ في بساطتها أو جلالها هي المحك ، وإنما العاطفة أو العاطفة أو الحركة التي يسبقها الشاعر عليها هي التي تحدد قيمتها ، فكلمة عذاب كلمة تدل على طائر معين هو النسر ، ولكن وعلة الجرمي عندما استخدمها ليصور لنا فراره من يوم الكلاب الثاني ونجاته قد استعمالها لتوصي لنا بالحركة السريعة الحاططة التي تصور فراره ونجاته فقال :

نَجُوتُ نَجاةً لم يرَ الناسُ مثله كأنني عذابٌ عندَ قَيْسَنَ كاسرٍ^(٢)

ولقد عترة أن يصور حاله عندما يقلم وكيف يلقى ظلاله الموت ، ولم يجد غيراً من كلمة العلقم يصور بها مصير ظله فقال :

فإذا ظَلِمْتُ فإن ظلميَ باسٌ مُرٌّ مذاقُه كطعمِ العلقمِ^(٣)

وعندما أراد الربيع بن زياد العبسي لوم قيس بن زهير على تسليمه وهاتين بيتي فرارة ، فلم يستمع إليه وحدث ما حدث لهم ، قال يصور الحرب وما تفعل بالفرم ، ولاحظ كيف استخدم لفظة « حش » استخداماً يبين ما تفعله الحرب بالفرم

(١) الشعر كيف نفهمه ونفوقه - الزبائيت درو ٨٧ .

(٢) النضلية رقم ٣٢ .

(٣) ميوان عترة ١٤٨ .

أَتَبَيَّنَ عَلَى قُبَيَّانٍ فَكَلِمٌ مَالِكٌ فَقَدْ حَسَّ جِئَانِي الْحَرْبِ نَاراً تُضَرِّمُ^(١)

وأراد ضرار بن الخطاب الفهري أن يعبر عن غرق بني عمر وهزيمتهم هزيمة منكورة أمام قومه في حروب القجر ، يوم عكلا فاختار كلمة « شعاعا » لتوصي بالسرعة الحاططة التي تلاشي بها بنو عمر وقروا .

فَقَرَّتْ سُلَيْمٌ وَلَسَمَ يَصْصِرُوا وَطَارَتْ شُعَاعاً بَنُو عَامِرٍ^(٢)

وعندما هجا يزيد بن الصعق الكلبي بني يربوع وعمرهم ، لم تجد العواء اليرموعية لفظة تصور بها عطف بني يربوع وفنكهم بساعة بني كلاب قوم يزيد ، غيراً من كلمة « تسع » التي توصي بالضرورة القاضية المبينة لذلك الشيخ الفخور المتعالي :

أَلَمْ تَعْلَمْ قَعِيدَكَ يَا بَنِي عَمْرٍو بَأَنَّا تَسْمَعُ الشَّيْخَ الْفَخُورَ^(٣)

ولم تكن لغة شعر الأيام لغة جارية في الاستعمال العام ، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غدتها جميع اللهجات ، فاستمدت ألقاها من بيته الجماعية ، واستعملتها للتعبير عن الدلالات الحسية والمعنوية للفظ الواحدة . فعندما أراد عنزة أن يتهدد بني العشرة ، أهددهم بأنه على الرغم من بعد الشقة بينه وبينهم إلا أنه سيهجوهم بلسانه شعراً يخفر من شأنهم وبين مثاليهم فاختار كلمة « ملود » لتعبر عن معنى الهجاء ، كما أنه استعمل كلمة « تقلدوا » الدالة أصلاً على ارتداء الشيء لتعبر عن أن هذه القصائد ستعهم وستكون كالقلائد في أعتاقهم تسهم وتيزهم :

سَيَاتِكُمْ عَنِي وَإِنْ كُنْتُ نَائِياً دَعَاكَ الْمَلَكُودِي دُونَ بَيْتِي مِذْوَةً

قَصَائِدُ مِنْ قَبْلِ أَمْرٍو يَحْدِيكُمْ بَنِي الْعُشْرَاوِ قَارُودُوا وَتَقْلُدُوا^(٤)

وقد أدرك الشعراء سلاح القصيدة ، وما يمكن أن تسهم به في السلم والحرب ، فرب قوم يخفهم الشعر فيرموا ولا يتعدوا حل حى القيلة ، أولاً يعودوا إلى الغدر ، وكان سلاح الشعر فتاكاً في تلك البيئة ، كما كانت للشاعر منزلة . وهذا ما جعل الشعراء لا يتصمون بالصنعة

(١) العقد الفريد ٥ / ١٥٥ .

(٢) الألفاظ / ثمانية ٢٢ / ٧٥ .

(٣) الألفاظ ١ / ٧٢ ، العقد الفريد ٥ / ١٨٠ .

(٤) ديوان عنزة ٤٧ .

اللقطة كثيراً ، فهمهم منحصر في التعبير بلسان القبيلة عن مفاهيمها ، أو مشاكلها التي تعانيها من قبائل أخرى ، أو ليرد على شاعر قبيلة أخرى إلى غير ذلك من افراض شعر الأيام . وشعر هذه طبعته لا بد وأن يكون واضحاً سهلاً بليغاً ينفذ إلى قلوب الناس فيؤثر فيهم ، ولا يمكن حدوث ذلك التأثير إلا إذا كان مفهومهما واضحاً . نشاعر الأيام لا ينظم قصائد معتنى بها لسابقة شعرية بينه وبين آخرين ، بل هو ينظم شعراً يؤرخ به لأحداث قبيلته .

إذن فقد كان الشعراء هؤلاء يعتمدون إلى الإيالة والسهولة معبرين ذلك جزءاً من معاركهم وسلاحاً يصل بهم إلى النصر ، ولولا أسماء الاعلام وبعض الألفاظ المتصلة بتلك البيئة الجبلية لغدا شعر الأيام سهلاً واضحاً أو بمعنى أدق لكان معظم شعر الأيام واضحاً سهلاً .

ولكن هذا الوضوح لا يقلل من شأن هذا الشعر ، فلم يكن الشاعر ليلجأ إلى الوضوح على حساب الصورة ، فقد عرض شاعر الأيام صور تلك المواقع وأوثق الفرسان المجتهدين في ساحات القتال ، ولولت الآخرين المكبلين في صورة مشرفة انحطت ببعضهم الفخر والمزهر ، وبالفريق الآخر المللة والمهوان وسعترض لهذا عند حديثنا عن الحيل .

ولكن بعض قصائد شعر الأيام وبخاصة تلك التي احتوتها بصورتها القضيائية والتفاضلية تبدو أكثر إغراباً من غيرها ، وهذا يدفعنا إلى التساؤل والبحث عن إجابة على ذلك التساؤل . وفي رأينا أنه يجب التمييز بين الشعراء الفرسان والشعراء من غير الفرسان ، كما يجب التمييز بين شعر يقال أثناء المعركة ، وشعر يقال بعد ذلك بزمان قد يطول وقد يقصر .

فالشعراء الفرسان الذين خاضوا غمار تلك المعارك وتأثروا وأثروا في إحداثها ، إنما تكون الصورة أكثر صفاً عندهم ، ويرجع الاعتقال أوضح عما يدفعهم إلى اختيار القاط أكثر تعبيراً عن الحالة أو الصورة ، أما الشعراء غير الفرسان فإن حديثهم عن المعارك يكون مدفوعاً بولائهم للقبيلة ومعتمداً على ما يروى لهم وعلى الصور العامة ، ولذا فقدرتهم على اختيار الألفاظ ذات الدلالات القوية تكون أقل من شاعر فارس خاض غمرات القتال ، كما أن الشعراء الفرسان يميلون إلى السهولة ، بينما يميل الآخرون إلى التعقيد والصناعة .

وفي يوم الثلاثاء الثاني هزمت قيس جموع اليمن ، ومنحاز شاعرين قدشا عنها ،
الأول : حمزة بن المكتمر الضبي^(١) ولم يشهد ذلك اليوم ، والثاني ربيعة بن مقروم الضبي^(٢)

(١) الفضلية رقم ٦٠ .

(٢) الفضلية رقم ٣٨ .

وقد شهد ذلك اليوم . وإن القراءة الأولى للثانية للتصوين سوف يعطينا القرق واضحاً بين
الصورتين ، صورة ذلك اليوم عند ربيعة واضحة تنقل إلينا واقع ذلك اليوم وما أحرزته بهم ،
ويختار الشاعر العبارات والألفاظ المعبرة عن المعركة . والثاني لم يشهد ذلك اليوم فجاء حديثاً
غيراً . وما يجعل المقارنة أكثر جدوى أن الشاعرين اللذين اخترنا نصيهما من شعراء
المقبليات .

لما وجه المقارنة بين شعر شاعر فارس ، خاض المعارك ، وشعر شاعر لم يفضها ولكنه
وصفها ، فستحضر عترة كمثال للنوع الأول ، والأعشى كمثال للنوع الثاني فإن مقارنة بين ما
قوله عترة في يوم الحياة ومطلع قصيدته :

نأسك رعاش الأ عن لمام وأسى حيلها خلق الزمام^(١)

لو معلقتة التي يتحدث فيها عن يوم المُنْقِيب ، وبين قصيدة للأعشى في يوم ذي قار ،
ولكن الثانية والتي مطلعها :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقي وراكبها يوم اللقاه ومَلَّتْ^(٢)

إن المقارنة الأولى الأولية تكشف لنا أن الأعشى صرف همه إلى المشاهد العامة الخارجية ،
كوصف جيش كَلْبٍ ، وحالة الإستنفار عند كَلْبٍ ، وساعة اللقاء وما آلت إليه المعركة في ذلك
اليوم . أما عترة فإنه كفارس لا يكون همه مركزاً بالدرجة الأولى على الإطار الخارجي للمعركة ،
بل ينتقل إلى الجزئيات ، فيوصف الأسلحة ، ومضامعها ، وكر الفرسان ، والضرب والطعن ومصير
الفرسان في المعركة ، ويصور لنا لقاءه مع الفرسان ، ولا يهمل الخيل فهي أداة حاسمة من أدوات
القتال ، وينقل إلينا مشاهد مختلفة للقتل والجرحى الذين يسيل منهم الدماء ، كل ذلك يهيم
المعركة ، ويغلبها حية ماثلة أمامنا ، تفضج بالحركة ، وتضطرب فيها النفوس .

ونلاحظ كذلك أن الشاعر الفارس نفسه ، حينما يقول الشعر قبيل المعركة أو بعيداً نراه
يميل إلى الأمانة والإيجاز ، بينما نراه يميل إلى الإطالة والتفحيط وتظهر في شعره بعض آثار الصنعة في
اختيار الألفاظ عندما يميل إلى الإطالة والتفحيط وتظهر في شعره بعض آثار الصنعة في اختيار الألفاظ
عندما لا يشهد ، ففي يوم نَعَبْ فُشْكَوَة فر بنو سليط والصرفوا عن أصحابهم ، وكان مالك بن نويرة
مشاركاً في ذلك اليوم فقال بهجوعهم^(٣) .

(١) حيوان عترة ١٥٦ - ١٥٩ .

(٢) حيوان الأعشى ٢٥٩ .

(٣) انقلاص ١ / ٢٢ .

لما اشد الفوارس من سيطر خصوصاً أنهم سلكوا وأبوا
اجتتم تطلبون العذر عندي ولم يترق لكم فيها إهاب^(١)
دعكم غفلكم فاجتمعوها عجزم في أعاليها الجباب^(٢)

ومالك بن نويرة نفسه ، يقول في يوم حطط ، ولم يشهده ويؤكد هذا في أول بيت حيث يقول : ^(٣)

إلا أكن لاقيت يوم حطط فقد خسر الركبان ما أوردت
أناسي بنقر الخير ما قد نفيتم رزق وركب حوله متعصفت
يملون عياراً ، إذا ما تفرروا ولاقوا قريشاً عبروها فأنجدوا
ورد عليهم سرحتهم حول دارهم ضياعاً ولم يستأنفوا المتوحد^(٤)
حلول بفرودوس الإهوا وأقبلت سركاً بنسي البرشاء لما تلودوا^(٥)
بالفين أو زاد الخميس عليها لينتزعوا عرقابنا ثم يترجدوا^(٦)

ولا اعتقد أننا بحاجة إلى المزيد من التوضيح لتلاحظ الفرق بين ألفاظ النصين ، والأمثلة حل ذلك كثيرة في شعر الأيام .

وتختلف لغة شعر الأيام باختلاف الغرض ، فالشاعر عندما يقتصر يبحث عن ألفاظ تلائم غرض الفخر ، فيختارها ألفاظاً مجزلة معبرة عن معاني القوة ، ذات جرس خاص يوسي بالغرض الذي استعملها الشاعر من أجله ، هذا بخلاف بن زهير يقتصر بيوم شطة فيقول : ^(٧)

بأنا يوم شطة قد أقمتنا عمود الجسر إن له عمودا
جلينا الحيل سامعة إليهم عوايس يفر عن النقع قودا^(٨)

(١) إهاب : جلد ، عجزم : استعيا عذوة .

(٢) الجباب : شبيه بالزبد يعلولين التلاحح .

(٣) الأصمعية رقم ٦٧ .

(٤) السرح : الأبل الرامية ، الضناك : الطوق الحلق الشديد . التوحد : للتفرد .

(٥) تلودوا : تكوا ، ينز البرشاء : هم فعل وثمس وشيوان أبناء ثعلبة ، والبرشاء لهم .

(٦) حرقنا : شأنا ، يترعدوا : يتحسروا .

(٧) الأختالي/ خلافة ٢٢ / ٧٠ .

(٨) سامعة : ضامرة ، قودا : جمع قود وهي الفرس الطويلة الظهر والعتق .

فَيْتَا نَعْقِدُ السِّمَا وَيَاتُوا وَقَلْنَا أَصْبَحُوا الْإِنْسَ الْحَدِيدُ^(١)
فَجَاءُوا عَارِضاً بَرْدًا وَجِئْنَا كَمَا أَضْرَمْتَ فِي الْغَسَابِ الْوَقُودَا^(٢)
فَعَارِضْنَا الْكُمَاءَ وَعَارُكُونَا عِرَالُكُ الثُّغْمِ عَارِكَتِ الْأَسُودَا

ولكني تكون الصورة أكثر وضوحاً ، لنختر لشاعر كمعتزاً مقطعين من نصين لولهما برقي
مالك بن زهير فيقول :

أَلَا يَا غَرَابَ الْهَيْجِ فِي الطَّيْرَانِ أَعْرَسِي جَنَاحاً قَدْ عَدِمْتُ بَنَانِي
ثَرَى هَلْ عَلِمْتَ الْيَوْمَ مَقْتُلَ مَالِكِ وَمَصْرَعَهُ فِي ذُلِّهِ وَهَوَانِ
ثم يقول :

فَلَلَّ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَ مَالِكِ عَقِيْرَةٌ قَوْمٍ أَنْ جَرَى قَرَسَانِ
فَلَيْتَهَا لَمْ يَحْسِرَا نِصْفَ ظُلُومِ وَلَيْتَهَا لَمْ يَرْمَسَلَا لِيَهَانِ
وَلَيْتَهَا مَا جِئَا جِيعاً بِلَدِّهِ وَأَعْطَاهَا قَيْسٌ فَلَا يُرِيَانِ^(٣)

ولكن حيناً يفترق فإن الألفاظ التي يختارها تعبر عن ذلك تختلف ، فسمعه يقول :^(٤)

لَمَّا سَمِعْتُ دَعَاءَ مَرَّةٍ إِذْ دَعَا وَدَعَاءَ عَبْسٍ فِي الْوُغَى وَحَيْكِرِ
نَادَيْتُ عَيْباً فَاسْتَجَابُوا بِالْفَنَا وَبِكُلِّ أَيْهَضٍ صَارِمٍ لَمْ يَتَجَكَّرِ^(٥)
حَنَسٍ اسْتَبَاحُوا آلَ عَوْفٍ عَقَوَّةً بِالشَّرْقِيِّ وَالْوُشَيْجِ الذُّبُكِرِ^(٦)
إِنِّي أَسْرُؤُ مِنْ حَسِرٍ عَبْسٍ مَتَّعِيَا شَطْرَيْنِ وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمُتَّصِلِ^(٧)

فالفرق واضح بين الألفاظ ونسجها عندما رثى ، والألفاظ وتناسقها حيناً حاول أن
يفتخر ، ففي الحالة الأولى اختار الألفاظ التي توحى بالأسى والتأثر بحيث تخلق جوّاً مناسباً
للحزن ، بينما في المقطوعة الثانية اختار ألفاظاً تبض بالقوة التي تعبر عن عترة الفارس الشجاع .

(١) السِّمَا : العلامة .

(٢) حَيْرَانُ عَتْرَةٌ ١٢٦ .

(٣) حَيْرَانُ عَتْرَةٌ ١١٩ .

(٤) لَمْ يَنْجَلْ : لَمْ يَنْجَلِدْ .

(٥) الشَّرْقِيُّ : السِّيفُ ، الْوُشَيْجُ : شَجَرُ قَرْوَمَاجٍ ، الذُّبُكِرُ : الْقَضَارَةُ .

(٦) الْمُتَّصِلُ : الْأَصْلُ وَالْحَبْ ، الشَّصِلُ : السِّيفُ .

ولن نطيل الحديث ، فإن أي فاحص لشعر الأبيات ، ولشعر عامة يلحظ هذا ، كما يلحظ أن مجموعة المقدرات التي يستخدمها الشاعر في غرض معين تختلف عنها في غرض آخر . وإن أجود الشعراء كان ناتجا من تناسب أجود اللفاظ المناسبة للغرض الشعري الذي ينظم فيه الشاعر .

ويمكننا القول إن شاعر الأبيات ، أو بمعنى أدق الشاعر الذي صور لنا جانباً من جوانب تلك الحروب ، قد خص بالفاظ معينة متصلة بالحرب وبأحداثها ووصفاتها . فالفارسي أسد وابت ، والجيش سرب قطا ، أو عصائب طير ، والفيل في المعركة اختار له الشاعر أكثر من لفظة لتعبر عن حالته ، وسيد القيلة خصه الشاعر بأكثر من لفظ للدلالة عليه ، والسبايا كالسباعي ، والجرحى يمجرون نساءهم ، ويخيطون لها نصيب وافر من الأهتمام عندهم ، والمذروح تلمح كلها التجوع .

وبكذا فلشاعر الأبيات قاموس ألفاظ خاص ، والألفاظ التي يستعملها لها دلالات معينة ، متعارف عليها ، وتستحق الدراسة والتوسع فيها ، كما أن هذه المجموعة تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة الحياة في ذلك العصر . ويمكننا القول بأن كثرة الألفاظ التي تدل على معنى واحد ، كلها كانت أكثر كلما دلت على مدى أهمية ذلك عند شعراء الحرب . ومن السهل إثبات ذلك بإحصاء الألفاظ الدالة على السف ، والفارس الشجاع ، والذرع والجيش ، وحصر الصور التي حيياها لها الشاعر . فإن تلك كفيلا يبين قاموس الفاظ وصور شاعر الأبيات ، كما هو كفيلا يكشف مدى قدرة الشاعر الجاهلي على التصوير والتجسيم .

والأسلوب هو إطار الفكرة ، وهو القالب الذي يصب فيه الأديب أفكاره . والافتكار هنا متصلة بالحرب وما يفرع عنها . والتعبير عن هذه الأفكار يحتاج إلى أسلوب ربما يختلف عن أسلوب الشعر غير المتصل بالحرب . والشاعر هنا يحتاج إلى التعبير عن تلك الأفكار تعبيراً دقيقاً ومؤثراً .

وبما ساعد الشعراء على ذلك أنهم كانوا يعبرون عن أفكار محددة متصلة بالأبيات ، وأكثر الأفكار التي كانت تدور في شعرهم متصل بالفارس وهو بصول ويحول ، ويتصل به وهو صريع ، ويتصل به وهو يفلح بطلاً أسير ، كما يتصل شعرهم بالجيش وهو زاحف نحو الأعداء ، كما تصوروه وهو يتبع قلوب الأعداء المهزيمين ، أو وهو يفر هارباً تحت وطأة ضربات سيوف القوم . ويتصل شعرهم بأحداث القتال كالسيوف والرماح والذرع والحيل ، تلك هي أبرز عناصر شعرهم التي استعملوا أساليب مختلفة للتعبير عنها . ولكن تلك الأساليب كانت تشترك في قدر مشترك ثم تختلف في بعض التفاصيل . وسوف تعرض لهذا حيناً تعرضاً للخيال والصور الفنية في شعر الأبيات . ولقد عبر عن هذا الذي نلعب إليه شاعر الجاهلية حين قال :

ما أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مُعَلِّدَا أَوْ مُعَلِّدَا مِنْ لَفْظَيْنَا مَكْرُورَا^(١)
وعترة العبي قال في معقته أيضاً :

هَلْ غَامَرُ الشُّعْرَاءُ مِنْ مَقَرَّرٍ أَمْ هَلْ جَرَفَتْ الدَّارُ بَعْدَ قَوَّهِمْ^(٢)

وإن شعر الأيام الذي بين أيدينا كامل الصياغة ، فقصاد القرن السادس الهجري تنبئ
بأنها شجرة صناعة طويلة^(٣) كما يقول جويندي فالتركيب تامة ، ولها رصيد من الدلولات تعبر
عنه ، والمعبلة تستوفي لتمام مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز^(٤) . وقد التزم شعراء الأيام بحض
الاساليب ، التزموها في قصائدهم ، وأصبحت منهجاً يتبعونه في الأداء والتعبير .

وأول ما يظلمنا في شعرهم أنهم يستخدمون في مطلع قصائدهم ألفعلاً مشتقة من صيغ
التبليغ ، وكأنهم بذلك يبررون إضاعة الخبر ، أو يطلبون من السامع أن يبلغه الناس . يقول
صخر بن سليمان الخزرجي في مطلع قصيدته

أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي سُوَيْدَ بْنَ صَامِتٍ وَرَهْطَ سُوَيْدٍ بَلَّغَا وَابْنَ الْأَسَلْتِ^(٥)
ويقول حسان بن ثابت كذلك :

أَلَا أَبْلَغُ أَبَا قَهْمِرٍ رَمَولَا إِذَا أَلْقَى لَهَا سَمْعاً قُبِعَ^(٦)
ويقول خلش بن زهير :

فَأَبْلَغُ إِنْ أَعْرَضْتَ بِهِ هَشَامَا وَعَبْدُ اللَّهِ أَبْلَغُ وَالْوَلِيدَا^(٧)
ويقول لبيد بن ربيعة :

أَبْلَغُ إِنْ أَعْرَضْتَ بَنِي كَلَابٍ وَهَامِرَ وَالْخَطُوبَ لَهَا مَوَالِي^(٨)

(١) العصر الجاهلي - شوقي ص ٢٢٦ .

(٢) ديوان عترة ١٤٢ .

(٣) الفن ومطالعته في الشعر العربي - شوقي ص ٤ .

(٤) العصر الجاهلي - شوقي ص ٢٢٦ .

(٥) الكامل لابن الأثير ١ / ٦٦٣ .

(٦) ديوان حسان - دار صادر ٢٥٥ .

(٧) الألفاظ / ٢٢ / ٧٠ .

(٨) الروض الأثف - للسيوطي ١ / ٦٢١ .

ويستخدم الشعراء أسلوب الاستفهام للإظهار عن بطولات ومعارك ، وكانهم يريدون إيصال هذه الحقائق للناس ، ونسبتها ، يقول أوس بن حجر التميمي يوم السويان :^(١)

ألم تر أن الله أنزلَ مُرَّةً وعَصْرَ الظُّبَا في الكِنَاسِ قُتْمَعُ^(٢)

ويقول عامر بن الطفيل عكاظ :^(٣)

السَّنا نَقُودُ الحَيْلَ قِيًّا عَوَابُ ونخضب يومَ السَّوِجِ أَسْيَافَنَا دَمًا^(٤)

ويقول ضرار الفهري مقصداً يوم عكاظ :^(٥)

ألم تَسألِ النَّاسَ عَنَّا شَأْنَنَا ولم يَنْتَبِهْ الأَمْرُ كالحَايِرِ^(٦)

ويقول خنساء بن زهير :^(٧)

ألم يبلِّغْكَ مَنْ لَفِيتُ قَرِيشُ وحسبي بني كنانة إِذْ أُبِيرُوا^(٨)

وتوكيداً لما يقولون ويعلنون للناس ، فإنهم يستخدمون القسم أيضاً للتأكيد ، وحتى لا يكون أدنى مجال للشك في نفوس السامعين . يقول أوس بن حجر يوم السويان .

لعمرك ما أسي طفيلٌ بن مالكٍ بني عامرٍ إِذْ ثَابَتِ الحَيْلُ قُدْهِي^(٩)

ويقول أسيجة بن الجلاح أيضاً :

لعمرك أيبك ما يغني مكاني من الخلفاء أَكَلَةُ عَقْوَى^(١٠)

(١) ديوان أوس بن حجر ٥٧ .

(٢) قُتْمَعُ : تطرد عنها القمعة وهو زياب الزرق .

(٣) ديوان عامر بن الطفيل ١٢٨ .

(٤) الغب : من الحيل الضواير يطون مفرداً فاقب .

(٥) الأعرابي / ثقافة ٢٢ / ٧٥ .

(٦) الحايِر : العليم .

(٧) الأعرابي / ثقافة ٢٢ / ٧٢ .

(٨) أُبِيرُوا : اهلكوا .

(٩) ديوان أوس بن حجر ٦١ .

(١٠) الكافل لأبي الأثير ١ / ٦٦١ .

ويقول حسان بن ثابت أيضاً :

لعمري أليك الخير يا شعث ما نبا عليّ لسان في الخطوب ولا يدي^(١)

ويقول حسان بن ثابت أيضاً :

لعمري أليك الخير بالحق ما نبا عليّ لسان في الخطوب ولا يدي^(٢)

وكما استخدم شاعر الأهم القسم لتوكيد ما ينقل إلينا ، فانه استخدم أحياناً تكرار بعض الكلمات لتوكيد ما يقول . كما استخدم تكرار لنصاف أبيات أو عبارات معينة لها دلالة في ذلك العصر . عندما أراد عبيد بن الأبرص أن يصور لنا الفلح الذي أصاب جموع كندة حينما أحاطهم بنو أسد قال :

هلاً سالت جموع كندة إذ تولوا : أين أين^(٣)

ولقد فعل الشيء ذاته مهلهل بن ربيعة حينما أراد أن يظهر بكرة من القرار لأنهم لا مفر لهم من بطشه :

يا لبكر أنشروا لي كليباً بالبكر أين أين الفجرا^(٤)

وعندما أراد أن يؤكد منع القوم من نسايم استعمال نفس الأسلوب في مطلع البيت فقال :^(٥)

أيننا أيننا أن نصيب إنائكم على مرشقات كالظباو عواطيا^(٦)

أما ورد نصاف أبيات مكررة في الشعر فنلاحظه أيضاً كثيرة ، منها ما قاله قيس بن زهير حينما ذكر مقتل مالك بن زهير :^(٧)

أخسي والله خير من أخيكم إذا ما لم يجد بطل مقاما

(١) ديوان حسان بن ثابت ١٨٣ .

(٢) الكلل لأبن الأثير ١ / ٦٦٣ .

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ١٣٦ .

(٤) الأغاني / كتاب ٥ / ٥٩ .

(٥) ديوان حنرة ١٩٣ .

(٦) مرشقات : نساء طوال الأعناق ، نصيب : تسيل ، عواطيا : التي تقوم على أرجلها وتخطف بأيديها ثمر الشجر .

(٧) النفاذ ١ / ١٠٢ .

أخسى والله خبير من أخبركم إذا ما لم يجد راع^(١) مسلما
أخسى والله خبير من أخبركم إذا الخضرات أهدين^(٢) الخداما^(٣)

وعندما عبر النابتة بني عيس اغترابهم في بني عامر قال : (٤)

فأصبحتم والله يفعل فلکم يعزكم^(٥) مولى موالیکم حجيل^(٦)
وأصبحتم والله يفعل ذاکم .. النساء المرضعات بنو شكل^(٧)

ولنا ندعي أن هذه الظاهرة ، أو هذا الأسلوب مقصور على شعر الأيام ، ولكنه أسلوب من أساليب طرقها الشعراء الجاهليون ولكن شاعر الأيام أكثر من اللجوء إليه لما له من أهمية في خدمة مهمة شاعر الأيام الذي يهدف إلى توكيد ما ينقل ، ولإيصاله للناس ليتساءلوا به ، فيرتفع شأن القيلة .

وحديث شعراء الأيام متصل بالحرب ، والحرب متصلة بالقتل والقناء والدمار ، ومتصلة بتغلب فريق على آخر ، لذا فقد كان طبعاً أن يستعين الشاعر بما وصل إليه من أخبار التاريخ ، لتريخ الأتواء الذين سبقوه ، ووصلته أخبارهم من أصحاب الديانات السايوية كاليهود والنصارى ، أو من الأساطير التي يتألفها الناس . فالتحق من هذه الأخبار ما يعينه في توضيح الصورة التي ينقلها وتعميقها ، لتساعد في التأثير على السامع . أراد عامر بن الطفيل أن يصور لنا ما لاقى بنو عبد القيس من قومه بني عامر ، فلم يجد إلا مصير تمود يضرب به المثل .

وعبدُ القيس بالرداء لاقى صيحاء مثل ما لقيت تمود^(٨)

واستعان بشموذ وإرم شاعر آخر ليعبر مصير أعداء قومه ، وهو سلمة بن الحارث فقال :

حتى تزود الضباغ ملحمة كأنها من قمود أو إرم^(٩)

(١) مسلما : مرعى .

(٢) الخضرات : الشجيرات الحياء ، الخدام : الخلائع .

(٣) ديوان النابتة ٢١٤ .

(٤) حجيل : من بني عامر ، يعزكم : يغلظكم .

(٥) بنو شكل : بنو كعب بن الحارث بن كعب بن ربيعة .

(٦) ديوان عامر بن الطفيل ٤٩ .

(٧) الغنائف ١/ ٤٥٣ ، المخذ المفرد ٥/ ٢٢٣ .

وأكثر الشعراء من ذكر ثمود في شعرهم ، فذكر سعد بن مالك البكري حين قال :

إِنَّا وَإِخْوَتُنَا غَدًا كَثُودٌ حَيْثُ يَوْمٌ طَاحُوا^(١)

وذكرها جرير بن الكعير الغنوي فقال :

فريقان منهم من أتى البحرُ دونه ومروء كما أودت لعمود وئج^(٢)

كما وردت إرم في شعرهم أيضاً ، وإرم هي ذات العماد التي وردت في القرآن الكريم ، ويبدو أن لها ذكراً في الكتب السايية الأخرى ، يقول رشيد بن رميض الغنوي

مَنْ بَلَقْنِي يَوْمَ كَمَا أَوْدَتْ إِرْمُ^(٣)

واستخدمها الأغلب المعجلي حينما تحدث عن يوم الزُّقُوتَيْن فقال : ^(٤)

جاءوا بزُويرهمُ وجلسنا بالأصمَّ شيخٌ لنا قد كان من عهدِ إِرْمُ^(٥)

وقد ذكروا عاداً في شعرهم كرمز لقوم ملكوا ، فقال الأسود بن يخر :
وأسابُه أعلـىكن عاداً وأنزلتْ

عزيراً يُعنى فوقَ هُرَقةٍ موكِلُ^(٦)

وأخيراً نستطيع أن نلاحظ في شعر الأيام عامة أن الشاعر لم يكن يعنيه أن يتدرج في رسم أجزاء الصورة ، بل كان يفتقر إلى القطع جزء من المشهد ليكون أكثر وقعاً على النفس ، فربما رأى أن مشهد مصرع القارص تنهش لحمه السباع يثير الجزع في نفوس الأعداء فيكتفي بذكره ، ويعتقد أحياناً أن منظر السبيل أشد تأثيراً في النفس فيصوره . وقد يقتصر الشاعر على وصف للنظر الخارجي للجيش مصوراً ضخامته وكثرة عدته وأسلحته ويرى أنها تبعث الرعب في نفوس الأعداء ، وقد يفتقر من ذلك إلى تصوير تشتت الأعداء وتقتيلهم دون أن يذكر تفاصيل ما

(١) الأخطي / كتب / ٤٦ / ٥ .

(٢) الغالب / ١٠٢٢ / ٢ .

(٣) حماسة البحري / ١ / ١٩٨ .

(٤) الكامل لأبن الأثير / ١ / ٦٠٦ ، العقد الفرید / ٥ / ٢٠٦ .

(٥) زويرهم : بعيرهم . الأصم : رئيس بكر في هذا اليوم وهو عمر بن مسعود .

(٦) معجم البلدان / ٤ / ٢٠٥ .

حدث . وقد عرضنا لبعض هذه المشاهد حيناً درسنا أغراض الشعر ، ولن نستطيع الإطالة في ذلك ، لئلا يخرج البحث عن حجمه الطبيعي .

وإخلاصة القول في الأسلوب أن الشعر الذي بين أيدينا يصور لنا شعراً خائفاً يتسم بالرفق اللغوي ، الذي سبقت تجارب طويلة قبل أن يستوى على هذه الصورة . وإن الشاعر كان يعرف ما يهدف إليه ولم يكن ليأتيه ذلك عفواً دون قصد إليه ، بل كان يقصد إليه قصداً ، ليوصله إلى هدفه في التكبير .

الخيال والصور الفنية

ينبع الشعر من مصدرين ، من جبرية غامضة تكمن في اللاوعي ، ومن تنظيم صناعي تام الوعي . فهو عملية تختلط فيها الحياة باللغة ويتزاوج فيها اللحن والمبنى ، ويلعب فيها كل من التنتيح والطبع ودورها^(١) . فالشعر إذن صناعة معقدة تخضع لقواعد صارمة في دقتها بحيث لا يتحرف عنها صناع الشعر . ومن الخطأ الظن بأن الحياة الأدبية في العصر الجاهلي كانت سلاجة بسيطة ، وأعلى في أسماء بعض الشعراء ما يوحى بذلك . فقد سمي بعضهم بمجاهل ، والجهير ، والناقة ، والرفش ، وهي أسماء تصور مهارتهم^(٢) .

والشعر من غير المجاز يصبح كتلة جامدة ، وبذلك لأن الصور المجازية جزء ضروري من الطاقة التي تمد الشعر بالحياة ، وأن القدم لتلاخ الشعر العربي عامة لا تخلو من الخيال والتصوير ، ولكن ذلك لا يعني أن جميع الشعراء على درجة واحدة من الأهمية به ، فقد يتخذ شكلاً بسيطاً عند بعضهم ، بينما يتعمد تعمداً شديداً عند الآخرين .

وجاء الخيال : تحليل وتركيب ، لأنه تحصيل وإشباع ، ثم راحة وسكون ، ثم يأتي دور التركيب حيث تبرز أبعادها العناصر التي ينحصر فيها الإتمام ، ثم يأتي اختياراً تركيب الصورة^(٣) . ولربما لم يخلو الخيال بالواقع ضروري ، وألاً أصبح وهماً . فليس الخيال مجرد تصور أشياء غريبة عن الحس ، بل هو حدث معقد ذو عناصر كثيرة ، ويضيف إليه تجارب جديدة ، بل إن الشاعر يستطيع أن يحقق التوازن بين كيفيات متناقضة في ظاهرها .

(١) الشعر كيف تفهمه وتتلوه - الزيات - ص ٢٥ .

(٢) اللحن وملاعبه في الشعر - شوقي - ص ٢٢ .

(٣) الصورة الأدبية - مصطفى ناصف - ص ١٣ .

وقد منحت البيئة الصحراوية الشاعر الجاهلي وضوحاً وبساطة في رؤياه الشعرية وتصوره للأشياء ، وأصبحت الأمور العامة واضحة لا تعقد فيها ، فهو لا يرد فشله ، أو نجاحه ، أو قوته ، أو فروسيته ، أو أي مظهر من مظاهر تتصل به ، أو بقيته إلا لعوامل يعرفها ويعترف مسيئتها . وقد سبب هذا كله وضوح الفكرة عند العربي وصفاءها ، فقصده في التعبير عنها إليها قصداً دون التواء أو غموض ، وفي أوجز عبارة ومن النصير طريق ، فجاءت معانيه حية واضحة . كما يقول الدكتور شوقي ضيف - لا غموض فيها أو اشتراك ذهنية تفصل في مرآتها وشعبيها الفكرية (١) .

ولم يفرج الشاعر الجاهلي في تصوره وتخيله إلى أبعد من حدود قبيلته أو الجزيرة العربية حل أكثر تقدير ، ولم يتخيل إلا ما يراه حوله ، وما يراه ماثلاً أمامه ، كما أنه لم يستطع أن يتخيل صورة مركبة معقدة من عدة صور ، بل إن صوره وأخيلته بسيطة غير معقدة . ولا نجد شيئاً لذلك إلا طبيعة الحياة الخلقة التي كان يحياها ، والتي كانت ترتبط بالنامية ارتباطاً وثيقاً .

وإذا كان هذا الخيال المحدود قد اعتبره بعض النقاد عيباً ، فإنه كان خيراً على شعر الحرب ، فإن الشاعر الذي حرص على انتزاع صوره وأخيلته من واقعته الملمية ، وإن كانت قد جعلته لا يتسع بمعانيه ، فإنه جعله يقتصر في عرض الصورة الواحدة ، وأتاح للشعراء المتأخرين في عرض الصورة الواحدة ، ومحاولة كشفها وجلالها ، والتفنن في عرضها ، وحرص كل شاعر على أن يضيف على الصورة شيئاً من شخصيته .

وستحاول أن تعرض لصورة واحدة عند شعراء مختلفين لئرى كيف عرضها كل منهم ، وما الذي أضافه ، والصورة هي صورة الفارس القاتل في ساحرة القتال : يقول عبيد بن الأبرص (٢) :

قد اشتراك القهرن مُصَفَّرًا أَنَامِلُهُ كَأَنَّ الثَوْبَ جُمْتُ بِفَرْصَانِ (٣)

وعندما عرض امرؤ القيس للقتل ركز الصورة على أرجلهم فهي قد أصبحت كالخشب السائل بعد أن كانت صلبة قوية تحمل قارساً شجاعاً (٤) :

(١) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ٢٢٠ .

(٢) عبيد بن الأبرص ٤٩ .

(٣) القرن : القتل في الشجاعة ، جمت : صبغت ، الفرصان : الخيول .

(٤) ذبيان امرؤ القيس ٢٥٨ .

نعلوهمُ بالبيضِ مسنونةٌ حتى يُروا كالحشيب السابل^(١)

واعتم أربعة بن مقروم الضبي بعرض صورة أجساد القتل ، وقد أصبحت متاثرة هنا وهناك في ساحة للمركبة وكانها الحشيم :

واضحت بينهم أجسادهم يُشبهها من رآها الحشيب^(٢)

وحرس عامر بن الطفيل على التركيز على جثة الفارس وقد تعاونت لحمة السباع ، واتسمت فيها بينها لأكله :^(٣)

لما رأيت رؤيتهم فتركتهم جرز السباع كأنه لحد^(٤)

وعندما رأيت أم فليس أن تصور أنها قتلاً لم تشأ أن تصور جثة ، وإنما تخيلت منزلته بين فرسانه وكانهم نجوم سماء ، وهو هلالهم الذي اقتنوه .

إذا ما غدا فيها غداً وكانهم نجوم سماء بينهم هلال^(٥)

والقتل عند أوس بن حجر الصبي يوم زينة كأنهم نور ولكنها سلبت السم بالسيوف فيانت ، وكان السيف سم نافع يأكله الفارس فيموت :^(٦)

وقتل بجنس القوتسب كأنها نسر سقاها بالدماء مُشَب^(٧)

وهم عتده في موضع آخر مثل جذوع النخيل حين غشيتها مطر غزير فالتلها من جذورها ، فهوت بعد أن كانت متصبة شاذة^(٨) .

وقتل كمثيل جذوع النخيل نفاهم سبل متهم^(٩)

(١) السابل : المطروح في الطريق ، مسنونة : ممددة .

(٢) الحشيب : رقم ٣٨ .

(٣) ديوان عامر بن الطفيل ٤٣ .

(٤) لحد : ورم .

(٥) النر للنسر ٥٥ .

(٦) ديوان أوس بن حجر ٦ .

(٧) يقال قشبت للنسر : جعلت السم على اللحم فيأكله فيموت .

(٨) ديوان أوس بن حجر ٣٠ .

(٩) سبل : مطر .

ويعلو عترة أن يتصور ذلك الفارس نضلة الذي قتله ورد بن حابس العبسي ولقد
تلاوته الرماح والهام فغادرته في المعركة يتزف دعاً من مواضع الطعن الكثيرة في جسمه ، وكأنه
محتطب يمر الأسمه خلفه فترك آثار النداء على الأرض :

وَعَادُونَ نُضْلَةً فِي مَعْرَكِهِ يَجْرُ الْأَسْبَةُ كَالْمُحْتَطِبِ^(١)

ويعرض لنا عترة صورة أخرى لفارس خيل هو مسعود الكلبي وكان فرسان عبس ورماحهم قد
غادرت مسعوداً وكان بنحره سبية مستطيلة من الثوب البياضي الرقيق الذي يشتمل على خطوط
بيضاء ، وهذه الخطوط البيضاء هي الرماح التي تلحقت من فرسان عبس فأردته قتيلاً :

وَعَادُونَ مَسْعُوداً كَانَ بِنَحْرِهِ شَبِيحَةُ بَرْثَمٍ مِنْ عِمَانٍ مُتَوَكِّراً^(٢)

والقتيل في صورة نالته عند عترة عليه سباب من النداء لونها كلون الأرجوان .

وَقِسْرُنٌ قَدْ تَرَكْتُ لَدَى مَكْرٍ عَلَيْهِ سِبَابٌ كَالْأَرْجَوَانِ^(٣)

ولا يشير اهتمام قيس بن الخطيم إلا رؤوس الخزرجيين وقد تطايرت بفعل ضربات فرسان الأوس
المؤلفة كحبات الخنظل .

كَانَ رُؤُوسُ الْخَزْرَجِيِّينَ - إِذْ بَدَتْ كَتَائِفُنَا تَتْرَى مَعَ الصَّبْحِ - حَتَّطَلْ^(٤)

وحرص شاعر الخيامة على ذكر لغة القتل قبل أن يصور لنا القتل وكيف سقط كجذع
التخل المشذب الذي يسقط بقوة دون ترويح أو تلخير عما يشير إلى شدة الضربة وتحكمها :

أَقْبُولُ وَسِيفِي فِي مَفَارِقِ أَغْلَبٍ وَقَدْ خَرَّ كَالْجَذْعِ السَّحُوقِ الْمُشَذَّبِ^(٥)

وعرض البراء بن الكنانة قتله عروة الرحال في صورة مشابهة للصورة السابقة حين قال :

جَعَمْتُ لَهُ يَدِي بِتَصَلِّ سِيفِي أَقْلٌ فَخَرُّ كَالْجَذْعِ الصَّرِيعِ^(٦)

ونكتفي بما عرضنا لصورة الفارس القتيل ، ولعلنا نلاحظ أن كل شاعر حرص على إضافة

شيء ، أو التركيز على جزء من الصورة معتقداً أن هذا الجانب أشد تأثيراً في النفس ، كما نلاحظ أن

(١) ديوان عترة ١٢ .

(٢) نفس المرجع ١٠٨ .

(٣) نفس المرجع ١٧٩ .

(٤) ديوان قيس بن الخطيم ٨١ .

(٥) حماسة أبي تمام شرح للرؤمي ٢ / ٦٩٠ .

(٦) الأغانى / ثلاثة ٢٢ / ٦٥ .

الشاعر الجاهلي في جميع هذه الصور ينزع متزناً حسياً ، يجعله لا يتغفل في عفايا الإنسانية ، ولا حتى في أحماق الأتلياء الحسية ، كما أن الشاعر انزع عيالاته وتشبيهاته من العالم المادي المحيط به . كما نلاحظ أن الشعراء حينما عرضوا هذه الصور لم يعرضوها جامدة ، بل بشوا فيها الحركة ، ولا حظنا كذلك أن هذه الصور تسم بالابحجر الذي يتلاءم مع الموضوع الذي يعرضونه وهو حرب وكر وفر وضرب وقب .

ونستطيع أن نطمئن إلى هذا إذا تبعنا صورة أخرى لو أكثر من الصور التي عرض لها شعراء الحرب ، فنلاحظ قدراً مشتركاً وهو المعنى المشترك ، ثم نرى شاعراً يتم بجزئية من الصورة ، ويضفي عليها شيئاً من شخصيته ، وظلالاً من نفسه .

والتشبيه أكثر الصور دوراناً في شعر الأليام ، وهو حافل بضروب منها ، وهو شكل من أشكال الصنعة الفنية البسطة . ويصل الشاعر دائماً على تركيز لفكرته وأوصافها وتكتيفها ، ووسيلة إلى ذلك تشبيه شيء بأخر في صور جديدة ، أما استعمال التشبيه العادي ووجه الشبه فيه ظاهراً ، أو باستعمال الاستعارة ووجه الشبه فيها ضمنياً .

ويرى قدامة أن التشبيه من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون النقطة والبراعة عندهم ، وكلما كان التشبه منهم في تشبيهه أظف كان بالشعر أصرف ، وكلما كان أسبق كان بالخلق أليق^(١) .

وقد عد القدماء من العلياء التشبيه المصيب من أركان الشعر ، والتشبيه المصيب هو التشبيه الذي يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً ، فقد أراد عمر بن الطفيل أن ينقل إلينا صورة التفاء جيش ثومه بجيش الأعداء ، وكيف نفر الأعداء وتشردوا ، فلم يجد صورة ماثلة في ذهنه العربي أوضح من صورة الضأن وقد حلت فيها الذئب ، فأكد مزينة الأعداء وفرعهم وتشتهم وانتصار ثومه^(٢) .

لقينا جمعهم صبحاً فكاثوا كمثل الضأن عاداهن سيد^(٣)

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن التشبيه لا يحتاج بعداً في الخيال ولا عمقاً في التصوير ، وهو لون مفرد بل هو صيغ من أصباغ لون مفرد هو لون التصوير^(٤) . ولكن ذلك لا يعني أن

(١) نقد النثر - قدامة بن جعفر ٥٨ .

(٢) ديوان عمر بن الطفيل ٥٠ .

(٣) سيد : ذئب . عاداهن : من العلى .

(٤) الفن وملاحقه في الشعر - شوقي ضيف ١٤٥ - ١٥٢ .

صور التشبيهات متشابهة ، بل أنها تختلف في التعقيد والبساطة ، وتختلف أيضاً في العمق والسطحية من صورة لأخرى ، وربما تعددت أجزاء الصورة حتى استغرقت من القصيدة عدة أبيات .

ولكني يتضح ما نذهب إليه تعرض ثلاث صور لفكرة واحدة ، ونلاحظ الفرق بينها في السطحية والعمق ، وفي التعقيد والبساطة وفي اكتمال بعضها بيت واحد بينما احتاجت الأخرى أكثر من بيت شعر :

يقول بشر بن أبي خازم مصوراً للجيش^(١):

فإن أهلك صبر قريب زحمتو شبه نغمه علواً ضباباً^(٢)

وصور الأملح الجيش فقال يوم ذي قار :

فصبّحهم بالخنو حنو قرأقر وفي قارها منها الجنود فقلت
على كل محبوبك السراو كانه عذاب هوت من مرقب إذ تعلت^(٣)

وصور عمرو بن الأسود الجيش يوم ذي قار فقال^(٤):

وكانما أقدانهم وأكفهم كرب تساقط من خليج مضم^(٥)
والجمع من ذهلر كان زهدهم جرب الجبال يقردها ابننا قشعم^(٦)

وتحدث الصمة الجشمي عن جيش قومه يوم الفجار فقال :

وجشنا إليهم كموج الأني يعلو التجاد ويملا المسلا^(٧)

فيشر بن أبي خازم يلد الأعداء بجيش كثير العدد بشر غباراً يوجب الأنظار كما يجب الضباب الرؤيا . وعندما أراد الأملح أن يصور فرار جيش القيس إلى السواد بعد هزيمتهم

(١) حيوان بشر بن أبي خازم الأسدي ٢٧

(٢) الزحف : الجماعة يزحفون إلى العدة .

(٣) حيوان الأملح ٣٦١ .

(٤) الأصمعيه رقم ٢١

(٥) الكرب : أصول السحب الغلاظ التي تيس فتصير مثل الكتف ، ملمع : ملو

(٦) زهدهم : قندهم لورشوفهم .

(٧) الأملح / كتب ٢٧ / ١٠ .

وتصبح بكر فرسانها لهم تقتلهم ، وكان فرسان بكر يتبعونهم على حيول محكمة الحلق ، وكان هذه الحيول وعليها فرسان بكر وقد اندفعت صوب السواد تتعقب قلوب للتهزيين بسرعة ، كأنها العقبان حين تنفض على فريستها من مرقبها العالي .

وحينما تحدث عمرو بن الأسود عن الجميع صور أقدامهم وأكفهم وكأنها أصول سعف خلاط حراش وقد يست فاصبحت مثل الكتف ، وسقطت في خليج ملو ، وصور الجميع من فعل في كثرته وكأنه جمال حرب يقودها أبناء شعتم .

أما الصمة الجشمي فقد صور لنا جيش قومه حينما أتى لمحاربة كتانة في حروب الفجل ، فكان كالفرج الضخم الصاعب في كثرة عدده وعدته وما يشبه حوله من نفع ، وأن هذا الجيش ليخطي كل مكان ، فهو لا يعجزه مكان من الوصول إليه ، يعلو التجل ، ويملأ الأودية ، وقد أعطانا الصمة في هذا البيت فكرة واضحة عن قوة هذا الجيش الذي لا يقف دونه عائق ، وعن كثرة عدده بحيث يملأ كل الأمكة والتجاد والسهول .

وربما اختار الشاعر الفرج لما له في نفس العربي ، بدوي الصحراء ، من رعية ومن إحساس بالقوة والخوف منه .

وفي حالة ورود تشبيهات حرية ومعقدة ، فإن الأمر لا يتعدى حدود الطبيعة والبيئة ولذا فإن الأمر يحتاج إلى جلاء خموض بعض المفردات والدلالة الحسية لها أو المعنوية ، ثم يحتاج الأمر إلى مثل للبيئة الجاهلية ، ونضج الصورة بعدها ، وتصبح سهلة واضحة .

يقول الفُكْدُ الزُماني أحد فرسان وقادة حرب البسوس^(١) :

لَقَتَيْتُ بِهَا إِذْ كَرِهَ الشُّكَّةَ أُمَثَالِي^(٢)
كُتَيْبِ الدُّنَسِ الْوَرْدَا^(٣) رِيْعَ بَعْدَ إِجْثَالِي^(٤)

فهذه صورة تبدو غامضة ولكنها مستطع إذا عرفنا معاني المفردات الصعبة فيها ، وعرفنا مدلولاتها ، وتصبح الصورة أن الفد يريد أن يقول أنه تكلف بثلث الطعنة واحداها لعل الغنجان ، ولبل فيها بلاد الشبان وفي وقت كبر فيه وأصبح أمثاله من الشيوخ يكرهون حمل السلاح ، وشبه الطعنة . واتساعها وسرعة خروج الدم منها باتساع جيب المرأة الحبياء وتزورها

(١) حملة أبي تمام - شرح المزوني ٢ / ٤١١ .

(٢) الشكة : ما يلبس من السلاح ، تكتف : تكلفت .

(٣) الدنس : المرأة ، الحبياء : الوراء : الساطعة العقل .

في ربهوعها واضطرابها في متخرف لميصها . ونخص جيب الورهاء لأن عادة مثلها أن تخرج اليد منه ، فينتع خرقه ، وجعلها مروعة لتندفع في الأبطال وتترز .

ولا تغلر بعض الصور والتشبيهات من الغموض كهذه الصورة التي عرضها ليس بن الخطيب^(١) :

فلا تجعلوا حزنًا بكم في نحوركم كما شدَّ السواح الرنّاج المسامر^(٢)

ولا يقصد الشاعر من التشبيه مجرد التسجيل البارد لوجوه التشبه الملتصقة بها يكن من دقتها ، بل هو يستعين به لنقل عاطفة إلى السامع في تمام قوتها وحرارتها ، فعندما شبه لنا خلفاء ابن المظفر بن أكل المرار وقد هجر حبه الفرائس بسبب ما يعاني من هموم مثل تحالي المعير الذي به ودم في جوفه بسبب له ألى ، لم يهدف إلى نقل تشبيه شيء ، بل حمل لنا مع التشبيه عاطفته الخفية لمصرع أنه شرحيل^(٣) .

إن جئسي عن الفرائس لناب كتجاني الأسر فوق الطراب^(٤)

وفي يوم الحديد قتل ربيعة بن مكدم فارس ثلاثة ، وأعجب به كثير من الفرسان حياً وميتاً ، ولسمع دريد بن الصمة يتحدث عنه فيقول :

متهللاً تبدو أسرة وجهي مثل الحسام جلتة ليدي الصيقل
وترى الفوارس من غفلة رنجيو مثل البغاث خفيين وقم الأجدك^(٥)

ولا شك أن أبي قاربه لهذا الشعر يحس بأن دريد بن الصمة يمكن احتراماً وإعجاباً بهذا الفارس ، وأن هذه العاطفة وصلتنا عبر ذلك التشبيه الذي صور به شجاعته وخوف الفرسان منه .

والتشبيهات التي ترد في شعر الحروب والأيام كثيرة ، وقد احتاج إليها الشعراء لتقريب الصور التي يتخللونها للناس ، وإذا ما قممنا تلك التشبيهات عل كثرتها نرى أن الصورة البصرية فيها تشكل غالبية تلك التشبيهات . وسبب ذلك أن الشاعر إذا نقل صورا من بيته ،

(١) ديوان ليس ابن الخطيب ١٤٦ .

(٢) الرنّاج : الباب الكبير يكون عليه باب صغير ، المسامر : المسامر .

(٣) الوحشيات ١٣٣ .

(٤) الأسر : الرجل المطمون في سريره .

(٥) الأغاني / كتب ١٦ / ٥٦ - ٦٤ .

يرأها بعينه ، وينقلها لأناس يستطيعون أن يروها بعيونهم ، وما يرى بالعين من البيئة لا يحتاج إلى تحليل . وبإل الصورة البصرية الصورة اللوتية ، ثم السمعية .

ويمكننا أن ندين من خلال التشبيهات التي عرضها شاعر الأيام أنه استخدم التشبيه لتحقيق واحد من الأهداف التالية أو أكثر من هدف في آن واحد . أولاً وأهمها البيان والتوضيح ، فقد استغل الشاعر التشبيه ليزيل به اللبس والغموض عن المعنى ، وليجلبه للانتظار ، ويقره إلى الأذهان . وعندما أحب قيس بن زهير تصوير العلاقة بين عيس وذبيان ، وما وصلت إليه الحال بينهما من العداوة^(١) .

لقد جعلتُ أكيادنا تحتملكمُ كما يحتمل سؤفُ الميضاء الكَرَّازنا^(٢)
تذرُوننا بالثُّكراتِ كأنما تذرُون ولدنا ترمس الرهانا^(٣)

ونأتي هذه الأهداف التي يحققها التشبيه الملائمة ، والملائمة أمر بالغ الأهمية لشاعر ناطق بلسان قومه ، مصوراً نصراً أصابوه على أعدائهم ، أو مهدداً خصوماً يهش جوارياتهم ، أو مصوراً بطونه في المعارك ليخيف الأعداء .

تحدث القصيدة عن جيش قومه الذي غزوا به الأعداء تشبیه بروج البحر العالي التي لا يحول مكان أو قوم دون أن يعاودهم :

وجئنا إليهم كحُمُوجِ الأثني يعلو التجاذ ويملا السبلا^(٤) .

وقد أكثر الشعراء من تشبيه الجيش الكثير العدد بالبرج تصويراً لقوته التي لا تغلب وكثرة عدده ، ولما كان البحر من هيته في قلوب العرب في تلك الحين ، تقول ذرة بنت أبي حطب عن جيش قومه في حروب الفجلاء :

مَلُومَةٌ غَرَمَاءُ تحسبها لما بدت موجاً من البَحْرِ^(٥)

وشبهوا كثرة الجيش بالنظا أيضاً ، لما كان له من دلالة على الكثرة في ذلك العصر يقول قيس بن الخطيم^(٦) :

(١) أمثال الصبي ٣٨ ، الفخاض ١/ ١٠٠ .

(٢) تحتملكم : اجترى نزع إلى وطنه وكره المكان الذي هو فيه ، المضاء : كل شجر له شوك ، الكَرَّاز : جمع كراز وهي القارورة .

(٣) تذرُوننا : تخطُوننا .

(٤) الرهانيات لأبي تمام ٦٦ .

(٥) ديوان قيس بن الخطيم ٧٢ .

وَأَقْبَلْتُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ بَجَلَّةً نَعَمُ الْقَضَاءُ كَالْقَطَا الْمُتَبَدِّلِ^(١)

وتألف هذه الأهداف التي يحفظها التشبيه التوكيد ، لأن من شأن التشبيه تقرير شكل الشيء في الذهن ، وتعميق معناه ، والإيحاء عليه بالتثبيت ، وبالتالي فهو يرسم له صورة بارزة للعالم في ذهن السامع ، وبذلك يحقق شاعر الأبيات هدفه وهو أن تثبت الخليفة التي يقرؤها في نفوس السامعين وأقربائهم . لقد صور ياجث بن صرّتم البشكري كخليفة من فرسان قومه فتعتها بأن فرسانها بواسل عند اللقاء وسبق الوجوه ، ولكن يؤكد هذه الصورة ، ويوضحها للسامع رسم صورة ثانية لهم بأنهم كالأسد حيناً تنف بشجاعة واسهامة للدفاع عن أشبالها ، ولأنها بذلك إنما تضيف ضراوة إلى ضراوتها وشجاعتها الأصلية .

وَكَتَيْتُ سَقَمَ الْوُجُوهِ بِوَأَسْلٍ كَالْأَسَدِ حِينَ تَذُبُّ عَنْ أَشْبَالِهَا^(٢)

وقد اشتهر الشعراء من تشبيه الفرسان بالأسد لما عرف عن الأسد من شجاعة ولوعة بضول حاجب للزني يوم السل :

عُتَاءُ قُرْأَةً فِي الشَّوَارِ سَاعِرٌ حُمَاةُ كُفَاءٍ كَالْيَبُوتِ الضَّرَائِمِ^(٣)

ويرسم لنا شاعر آخر قتادة بن سَلَمَةَ الخنفي صورة الفرسان وقد لبسوا دروعهم ، ويصعب أن يؤكد لنا الصورة لتستوفي نفوسنا ، ولنعلم بأن أولئك الفرسان وهم في البيض والخلق المصفولة الجديدة كأنهم النجوم اللامعة المتلألئة^(٤) .

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ كَانَتْهُمْ فِي الْبَيْضِ وَالْخَلْقِ الدَّلَاصُ نُجُومٌ^(٥)

ورابع هذه الأهداف الإيجاز والاختصار ، والإيجاز من أبرز ما كان يهدف إليه شاعر الحرب ، لأنه يريد اتصال الصورة بأبسط صورة لها ويأوِجها بعبارة ، فلا أهمية للإطالة عندئذ لأن هدفه الأساسي الدعاية لقومه ولفرسانه ، ولا يلجأ إلى الإطالة إلا إذا كانت تحقق له شيئاً . أراد شدائد العبي أن يصور لنا ملازمته لظهر فرسه بجروء ، وذلك دليل على أنه فارس حرب لا يكل ولا يستكين ، فصور لنا كل ذلك بعبارة موجزة فقال^(٦) :

(١) حلبة : جماعة من الخيل ، التليدد : المتفرق ، القضاء : موضع بالمدينة لبني عظمه .

(٢) حسانة أبي تمام - شرح المزدولي ٢ / ٤٣٦ .

(٣) الطند الفرزدق ٥ / ٢٠٢ .

(٤) حسانة أبي تمام ٢ / ٧٧٠ .

(٥) الدلاص : الدية للنساء ، الخلق : النروج .

(٦) الطند الفرزدق ٥ / ١٥٩ .

فمن يك سائلاً عني فليحي
وجزوة كالشجاء تحت الوريد^(١)

وتحدث الفكد الزماني عن الطعان في القتال ، وقوته وآثره ، وكيف يسيل الدم غزيراً من موضع الطعنة ، فقال ذلك في أوجز عبارة تاركاً لنا تحليل كل ما يريد أن يعبر عنه :

وطعن كقسم الرزق غدا والرزق مسلان^(٢)

ولعل هذه الصورة التي رسمها قيس بن الخطيم لرؤوس الخزر جيون حينها بدت كتائب الأوس ، من أكثر الصور إيحاءً ، إذ اختصر الشاعر الصورة ولم يذكر منها إلا كتائب الأوس ورؤوس الأعداء من الخزر ، أما اللقاء والقتال ، وما السلي جعل الرؤوس تنفصل عن أجسادهم فذلك ما لم يذكره وتركه لحيال السامع :

كان رؤوس الخزر جيون إذ بدت كتائبنا تقري مع الصبح ستفل^(٣)

ونستطيع أن نخمن - استناداً إلى ما جمعنا من شعر - أن أكثر عناصر الحرب التي استأثرت بتشبيهات الشعراء ، هو القارص ، دعاية الحرب الأساسية ، فقد عرض له الشاعر وهو يقاتل ، ثم وهو صريح ، ثم وهو مؤكّد الأتيار ، ثم وهو جريح . ونأتي الصور التي اعتم بها الشاعر هي صورة الجيش ، وثليها الخيول ثم أدوات القتال التي كانت معروفة في ذلك الوقت وهي السيف والرمح والفرع . ولم يجعل الشاعر تصوير اللقاء بين المتقاتلين ، والطعنة التي كان يسندوها القارص إلى صدر خصمه أو شعره ، كما اعتم بتصوير السبايا .

ويستطيع الدارس الفاحص لهذه التشبيهات أن يخرج منها بصورة واضحة للبيئة الجاهلية ، لأن الشاعر استعان بمواد تلك البيئة لتكوين تلك التشبيهات وصيغها بألوان مختلفة من تلك البيئة .

وإذا ما انتقلنا إلى شكل آخر من أشكال الصورة ، وهي الاستعارة ، نلاحظ أنها واردة في شعر الأيام ولكن ليس بالقدر الذي استعمل فيه التشبيه . ولعل السبب يكمن في طبيعة الاستعارة نفسها ، فهي تحتاج إلى آداة وجه ، وتطلب من صاحبها الدقة في الفكر والجهد في الصياغة . والاستعارة تعتمد على ما في الكلمة من حمل أو خصب كالمن^(٤) . وحينا تستخدم الكلمة

(١) الشجاء : ما اعترض وتلب في الحلق من عظم ونحوه .

(٢) حيلة أبي تمام - شرح الرزوقي ٣٧ / ١ .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ٨٢ .

(٤) الصورة الأدبية - مصطفى طامب ١٣٥ .

استخداماً مجازياً فإنها تكتسب قوة لم تكن فيها قبل هذا الاستخدام المجازي . وفي الإستعارة
نضطر إلى التعبير عن إشارات غير حسية بأصطلاحات وحدود حسية ، وبمعنى آخر تصور
العواطف والانفعالات بأشياء من العالم المادي .

حيناً أراد الشاعر الجاهلي بشر بن أبي خازم الأسدي أن يصور اشتعال الحرب بين حين ،
والحرب كلمة ذات مدلول معنوي ، وعواطف الناس نحوها أيضاً معنوية ، ولذا فإن الشاعر لم
يجد هذا من تصورها يوحش كاسر يقترب الناس وعندما يبدأ اقتراسه فإنه يبدى ناجذيه . وبهذا
فإن الصورة تتضح للسامع لأنه قادر على تصور الوحش المفترس :

إِذَا مَا الْحَرْبُ أَبَدَتْ نَاجِذِيهَا غَدَاةَ الرَّوْعِ وَالثَّقْبَ الْجُمُوعِ^(١)

والحين لا يستطيع الإنسان تصويره إلا عندما ينقله شاعرنا في صورة شخص له القدرة
على سرق الناس ، وهذا ما فعله البراء الكندي حينما قال يوم الكلاب الثاني :

يَوْمَ جِئْنَا بِسَوْقِنَا الْحَيْنَ سَوْقاً نَحْوَ قَوْمِ كَاهِمِ أَسَدُ غَابِ^(٢)

والحرب تقطع الوشائج والأحلام بين ذوي القربى ، وحتى يوصل زهير بن سلمى هذه
الصورة على بشاعتها للناس حتى يغفروا من الحرب ولا يعودوا إليها ، وحتى يقدروا عمل سامعي
خيض بن مرة اللخمي سعيه في الصلح بين عبس وثبيان فقال :

سَمِعَى سَاعِيَا خَيْضَ بَنِ مَرَّةٍ بَعْدَمَا قَبِزَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالدَّمِ^(٣)

ويحذر لشاعر آخر أن يصور تلك الوشائج وكأنها حيال ، فعندما اختلف الحليان وتخلوا
تقطعت هذه الحبال بالسيوف التي رفعت في ساحة الوغى يقول أتيق النهاي مصوراً ذلك :

وَلَا عَضْبِنَا بِالسِّيُوفِ تَقَطَّعَتْ وَصَائِلُ كَاتِبٍ قَبْلُ سَيْلِهَا حِيَالُهَا^(٤)

وأكثر الصور دوراً في شعر الأبيات ، على الرغم من قلتها بالقياس إلى التشبيه ، صورة
الحرب ، فهي وحش يكسر عن أمنائه ، وهي شر ، وهي تكشف عن ساقها ، وهي تبدي
أسنانها ، وهي تلفح وتنتج ، وتتصل بالحرب الموت الذي تجلبه الحرب كما يتصل بها وشائج
القربى وصلاتها ، فالحرب تقطع هذه الوشائج .

(١) ديوان بشر بن أبي خازم ١٣٤ .

(٢) الألفاني / كتب ٣٣٩ / ١٦ .

(٣) شرح اقتصاد السبع الطول ٢٥٢ .

(٤) حسانة أبي تمام شرح للرزوقي ١ / ١٧٣ .

وتكون الاستعارة أكثر عمقاً في الشعر حين تلتم الفكرة أو العاطفة مع الصورة الحسية ،
 ولتحتاج إلى صناعة مثالية ، ولذا فإنها تكثر في شعر مدرسة الصنعة ، ولكنها أقل دوراً في
 أشعارهم من التشبيه . ولعل هذه الصورة التي عرضها زهير للحرب في معلقته من أصدق صور
 الاستعارة وأكثرها تعقيداً ، وإغراباً في التصوير :

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتفر إذا خربتوها فتظرم
 فتعرككم عرك الرحى بشغالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتثم
 فتتج لكم غليان أشام كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتظلم
 فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قري بالعراقي من قمير وردهم^(١)

وهي أبيات ترسم صورة بشعة للحرب وما تحدثه من آثار سيئة لا يلتصغر ضررها على جيل
 واحد ، ولكن ضررها يمتد إلى الأجيال التالية ، وقد ساعد زهيراً على رسم الصورة ، ما شاهده
 بنفسه من ريلات تلك الحرب ، وقدرته على التنظيم واختيار المناسب من الألفاظ ، والإتقان الذي كان
 معروفاً بها ، فهو من أصحاب الطواريات .

وضم شعر الأيام من الصور البيانية الكتابيات ، والكتابة تعتمد على التركيز والإيجاز ،
 والإيجاز من أبرز خصائص شعر الأيام ، لذا فإنه لم يعدم كتابات بارعة تزد بين الحين والحين .
 فحينما أراد بشر بن أبي خازم أن يصور هرب بني عامر أمام فرسان بني أسد قال إيهم كانوا
 كالنعام ، والنعام سريع الجري حين يحس بالخطر :

قاموا بنو عامر بالنسار طفاقة لقونا فكاثوا نعاماً^(٢)
 ولواد أن يصور لنا قتل سيد القوم الذي يسمو إلى الجعد ، كما تأوى إليه الأرامل في الشتاء
 طلباً للنعون فقال دون أن يذكره :

فكلنا الذي يسمو إلى المجعد منهم وتساوى إليه في الشتاء الأرامل^(٣)

ولواد عييد بن الأبرص تذكير امرئ القيس ببني أسد وشجاعتهم وكثرة عددهم ومكانتهم
 بين القبائل فقال :

أذهب إليك فإني من بني أسد أهل القباب وأهل الجُرُوم والنادي^(٤)

(١) شرح القصائد السبع الطوال ٢٩٧ وما بعدها .

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم ١٩٠ .

(٣) ديوان بشر ١٧٦ .

(٤) ديوان عييد بن الأبرص ٤٩ .

وأراد عترة أن يسخر من بني مرة فيعبرهم بجنتهم ويأثمهم يقرون من الممارك فتصيب الطعنات في ظهورهم وأكتفهم فقال :

إن الكريم تدوبه في وجهه وتدوب مرة لا تزي في التحجير
لكن في أكتافهم وظهورهم فهذا فافخر بش ذلك المفخر^(١)

وهكذا نرى أن شاعر الأيام لم يحمل الاعتناء بصورة ، ولكنه لم يجعلها هدفاً بل وسيلة لنقل ما يعتل في نفسه من أحاسيس ، ولا نستطيع إنكار أنه يعصد إلى تشبيهات فيختارها لتسكنه من تقريب الصورة ، أو تجسيما ، أو ليهول من شأنها يفعل كل ذلك من أجل خدمة الغرض الذي من أجله نظم شعره .

ولكن ذلك الخيال الذي نراه في شعر الأيام خاصة ، والشعر الجاهلي عامة لم يكن من نمط الخيال الابتكاري ، أو المركب ، بل كان حسيّاً بسيطاً مرتبطاً بالواقع ، وصورة منتزعة من بيئته في شبه الجزيرة للتراثية الأطواف ، طفرة الفارس تشبه قوة الأسد أو لي وحش ضار يخشاه ذلك العربي في صحرائه ، وقد ربط التقادير هذا النوع من الخيال وعدم وجود شعر ملحمي في الشعر الجاهلي ، لأن الشعر الملحمي يتطلب عيلاً غصباً لا حدود له ، وهذا ما لا نجده في شعر الأيام .

الأوزان والقوافي

ليس بين ليلتنا من الأدلة المادية التي تعيننا على تصور طفولة الشعر الجاهلي ، وكل ما عرضه الباحثون من آراء إما هي آراء تعتمد على الخدس والتخمين ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول أن الشعر الجاهلي في لقدم صورة التي وصلتنا والتخلتة في شعر امرئ القيس وخاله مهلهل ، وهو شعر مكتمل الوزن ، خاضع للأوزان التي وضعها العلماء للشعر الجاهلي عامة . فإذا ما عرفنا أن التطور في الأوزان يسير بطيئاً لأن ألفه الوزن وشبوحة في الهيئة اللغوية يتطلب زمناً طويلاً وإنتاجاً شعرياً كثيراً حتى تتسيفه الأذن .

ومعنى هذا أن الشعر العربي مرفعل أوائل الشعراء الذين وصلنا شعرهم ، بمراحل عديدة تعرض أثناءها للتضيح والتطور حتى وصل إلى درجة عالية من القوة الفنية إلى أن تهبأت البيئة العربية لحولاء الرحلة الموسيقية .

(١) ديوان عترة ١٩٩ .

ويتفق بروكلمان وجورجي زيدان على أن العرب بدلوا بالسجع بلا وزن ، ثم تطور النظم فنظموا بالرجز ، الذي يعتبر أقدم أوزان الشعر ، وهو يتفق مع السجع بأنفراد كل بيت بثلاثية ، ويختلف عنه بأنه موزون ، ثم وضعوا الأوزان والبحور حسب الحاجة ، وجعلوا كلاً منها لحال من الأحوال . ويرى الباحثان أنهم كانوا ينظمون أولاً المقاطع الصغيرة حتى إذا تحركت نفوس العرب بالحرّيب بعد استقلالها من اليمن ، وظهر فيها الأبطال والفرسان احتاجوا إلى الشعر فأماطوا فيه^(١) .

ويتفق هذا الرأي مع ما ذهب إليه الباحثون في الأدب العربي دون تحميل لما كان عليه الشعر العربي قبل أن يستقر على الخانة التي وصلنا ، لأن كل ما يمكن قوله في هذا المجال هو مجرد حدس أو تخمين .

ويقول الدكتور شوقي ضيف « ولعل موسيقى شعر لم تتظم نسبها وتكامل كما تكاملت وانضمت في شعرنا العربي منذ أقدم عصوره ، إذ تتساوى الحركات والسكنات في كل بيت من القصيدة مثقبة دائماً عند قافية توثق وحدة النغم وتتيح القرعة للوقوف عند أي بيت وتريدته على السمع » ثم يضيف « إن هذا التكامل والانتظام إنما جاءا من تماثل للحنن الغناء وحركات الرقص وضرباته في شعرنا مع نشأته ، مما جعله يستوفي النغم الطوال والقصار ومواقع الثبرات والثغرات ويتسكك بقرار القافية الثابت »^(٢) .

وإذا استثنينا الرجز من شعر الأيام ، فلنأخذ أن الشعراء لم يستخدموا الأوزان القصار إلا نادراً ، ويعمل الدكتور شوقي ضيف هذه الظاهرة بأنه « كان يميل في تقنيه إلى الرصانة والوقار »^(٣) .

ونستطيع - استناداً إلى تحليل لأوزان حوالي مئة قصيدة ومقطوعة من شعر الأيام - أن نرتب البحور التي استعملها شعراء الأيام على النحو التالي :

الطويل ، الوافر ، الكامل ، البسيط ، الرجز ، المتقارب ، السريع ، الخفيف ، الرمل ، المزج . وكان نصيب البحر الطويل منها حوالي ثلث هذه القصائد ، وتلاه الوافر فنظموا عليه خمس هذه القصائد . وحتى تتضح الصورة التي نعرضها فلنأخذ لم تأخذ في اعتبارنا عدد

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - زيدان ١/ ٦٤ - ٦٧ ، تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ١/ ٥١ .

(٢) مجلة للمجلة مارس ١٩٦٥ ص ٤ .

(٣) مجلة للمجلة مارس ١٩٦٥ ص ٦ .

أهيات الفصيدة أو المقطوعة ، لأننا لا نجزم بأن المقطوعة هي في الأصل مقطوعة ، أو أنها فقدت بعض أجزائها قبل أن تصل إلى أيدينا .

ومن المشكلات التي أثارت اهتمام الباحثين فيما يتعلق بأوزان الشعر ، صلة الأوزان بالمعاني . تقول الباحثة الزيات درود الجرس يجب أن يكون صدى للمعنى^(١) ، وتري : أن الوزن سيظل دائماً خاضعاً للمعنى الذي قصد إليه الشاعر ، والأوزان الزعرية المختلفة التي يتطلبها الفكر والإحساس^(٢) . ويربط الغربيون بين وزن الشعر وبين نبضات القلب ، وهم يرون صلة وثيقة بين نبضة القلب وما يقرم به الجهاز الصوتي ، وقدرته على التعلق بمصدر من المقاطع . وتزداد نبضات القلب كثيراً مع الانفعالات النفسية ، تلك الانفعالات التي قد يتعرض لها الشاعر في أثناء نظمته . ولذلك عقد الباحثون الصلة بين عاطفة الشاعر وما ينتج به من أوزان الشعر .

وإذا ما رجعنا إلى الشعر الذي ندرسه وسألنا أنفسنا : هل كان الشعراء يتخيرون الشعرهم من الأوزان ما يلائم عاطفتهم ؟ ويجب على هذا التساؤل ثلاثة من الباحثين الحديثين . أما جورجى زيدان^(٣) فيرى أن كل بحر له غرض يلائمه فالطويل يوافق الحماسة ، والوافر يوافق الفخر . بينما يرفض الدكتور شوقي ضيف هذا الرأي^(٤) . أما الأستاذ إبراهيم أنيس فقال : « قد يكون من العسير الإجابة على مثل هذا التساؤل إجابة مقنعة »^(٥) .

وقبل أن نحاول تحليل الأوزان المستعملة في شعر الأيام وتعليقها ، نود أن نقرر أن الفصيدة الواحدة تشغل على أكثر من غرض ، وبالتالي فإننا لا نستطيع أن نقرر الغرض الذي لاصه الوزن . والمقطوعات هي التي يمكن إجراء مثل تلك الدراسة عليها لو غدا أن تكون مقطوعات في الأصل .

وقد أثار بعض الباحثين وجود صلة بين عاطفة الشاعر وما ينتج به من أوزان الشعر ، ولكن الدكتور إبراهيم أنيس يرد على هذا الرأي بأنه « قد يكون من المغالاة تصور اشتراك الشعراء في العاطفة لمجرد اشتراكهم في موضوع الشعر ، فالحالة النفسية للمخسدين كانت تربي أفعالها غير الحالة النفسية التي تحدثت أصحاب المراتي فربها ، لشعر الشاعر إذن وإن توقف إلى

(١) الشعر كيف تفهمه وتطوقه . الزيات درود ٤٩ .

(٢) نفس المرجع ٥١ . (٣) تاريخ أدب اللغة العربية . زيدان ٦٦ .

(٤) نفس المرجع السابق . حاشية ص ٦٧ . (٥) موسى الشعر - إبراهيم أنيس ١٧٦ .

حدد ما على موضوع الشعر يختلف باختلاف الشعراء ، واختلاف تأثيرهم بمواسل أخرى لا تحصى^(١).

وبما يزيد الأمر تعقيداً أننا لا نملك تحديداً دقيقاً للوقت الذي نظم فيه الشاعر النص ، فإننا طالعنا نص شعري يرثي فيه الشاعر فارساً من فرسان قباية ، فإننا في الغالب لا نملك تحديد زمن الرثاء ، هل كان وقت المصاب ؟ أم بعد أن هدأت ثورة القزع وشدة الانفعال والحزن ؟

لقد يقول البعض أن الشعر الذي يقال وقت المصاب يكون متأثراً بالانفعال النفسي ولذا فإنه يتطلب بحراً قصيراً يتلاءم وسرعة التنفس ويكون في صورة مقطوعة قصيرة لا تزيد عن عشرة أبيات . ولكن هذا القول يحتاج إلى التثبت من أمرين : الأول تعيين وقت نظم النص ، والثاني : التثبت من أن للمقطوعة التي بين أيدينا هي مقطوعة أصلية وليست منقوعة من قصيدة طويلة .

ونعتقد أن كلا الأمرين ليس هيناً . وقد يتحقق الضر في معظم النصوص التي قلت في الرثاء في حرب داحس ، ومع ذلك فإن بعضها قيل وقت الانفعال والتأثر وبعضها ، بعده بقليل . ومع ذلك فكلها من حيث العدد يدخل في عداد المقطوعات وإذا تأملنا البحور التي نقلت عليها وجدناها من البحور الطويلة قيم تفسر هذا ؟

لقد اخترنا ثمانية نصوصاً بين مقطوعة وقصيدة تشترك في موضوع واحد تقريباً هو الحماسة وحديث المعارك ، وهما موضوعان متداخلان ، ونظاريان فالشاعر حينما يفتخر فإنه يذكر معاركه ومعارك قومه ويتحدث عنها . فكانت النتيجة أن البحر الوافر جاء في مقدمة البحور ، وقد غاى نسبة عالية حيث خص بست وعشرين قطعة ، وتلاه الطويل وخص بخمس وعشرين ، ووزعت الفصائد الباقية على البحور التالية مرتبة حسب وطأة نصيبها :

المتقارب - البسيط - الرجز - الكامل - الرمل .

وعندما أجرينا تجربة مماثلة على فصائد في الرثاء كان ترتيب البحور على النحو التالي :

الطويل - الوافر - الكامل - البسيط - المتقارب .

وسنحاول أن نثبت في نهاية هذه الدراسة جداول إحصائية تشمل جميع شعر الأبياتيين لوزان كل غرض شعري وفلنته كمحاولة أولية لاستنباط أي رابط أو علاقة بين الوزن

(١) موسيقى الشعر - الدكتور إبراهيم أنيس ١٧٧ .

والموضوع . لأن هذه الدراسة الأولية التي أجريتها على عدد محدود من القصائد جاءت بنتائج تختلف من موضوع لأخر فيما يتعلق ببحور الشعر .

وسنحاول الآن أن نذكر خصائص أهم بحور الشعر ، والتي استلزت بهذلية قصائد شعر الأديام ، وهي الطويل ، والوافر ، والكمال ، والبسيط ، والمتقارب ، والخفيف . فالطويل وجدنا أنه يصلح لغالبية عظمى من الموضوعات والأغراض ، وهو أكثر البحور صلاحاً لتلك التي تتعلق بالحروب ، وقد وجدنا أنه جاء في المرتبة الأولى في قصائد ومقطوعات الرثاء ، كما تساوي تقريباً مع الوافر في شعر الحفاصة والمعارك . وقد وجدنا أنه نظم عليه ما يقرب من ثلث قصائد الأديام . والبحر الطويل تناسبه الأغراض الجليلة الشأن ، كمواقف المفارقة والمهاجرة والرثاء ، وذلك لكثرة مقاطعه . ويرى الدكتور النويحي أنه « يعاقده البيط » الحادي يلائم العاطفة المدانة المسترجة يقدر من التفكير والتأمل سواء أكانت حزناً هادئاً لا صراخ فيه أم سروراً هادئاً لا صخب فيه^(١) « ولكننا كما بينا فإنا لا نستطيع تحديد درجة الانفعال ولا زمن النص ، ومع ذلك فلو تتبعنا القصائد التي نظمت على هذا الوزن فإن النتيجة لن تكون مطابقة تماماً لما ذهب إليه الدكتور النويحي ، فليس من المعقول أن ترمي ابنة أباها وتكون هادئة الانفعال ، فلسى بنت مالك بن بدر عندما رثت أباها الذي تكلته عيس يوم المعنقة ، نظمت شعرها على هذا البحر فقالت مقطوعة مطلعها :

فلله عينا من رأى مالك عشيّة قوم أن جرى فرسان^(٢)

كما أننا لا نعتقد أن درجة انفعال عامر بن الطفيل في يوم طيف الريح وهو يوم فقت فيه عيه ، لا نعتقد أنها ستكون هادئة ، ولا نميل إلى أن حديثه سيكون متسماً بالتأمل والتفكير الحادي ، ونحن نعلم أمرين من ذلك اليوم الأول :

إن عين الشاعر الفارسي قد فقت ، والثاني أنهم هزموا جموع اليمن ، والنصر يرتبط بالزهر والنيامي والانفعال :

لقد علمتُ علياً هوازن أنني أنا الفارسي الحامي حقيقة جعفر^(٣)

ومع كل هذه الظروف التي نعلمها فقد جاءت قصيدته من الوزن الطويل ومطلعها :

وكنْتُ إذا ما بابُ ملَكْ قرحته قرحتُ بأبَاءِ أُولَى شَرَفِ خُصْمِ^(٤)

(١) دراسة الشعر الجاهلي - محمد النويحي ١/ ٦١ . (٢) أمثال الضبي ٣٣ .
(٣) الفضلية رقم ١٠٦ . (٤) العنابي ١/ ٦٨ - ٦٩ .

وفي يوم طمحة تنصر لهم انتصاراً بامراً على الشارة ، ويفتخر شريح الهروسي بذلك
فيقول :
وكنْتُ إذا ما بابُ ملكٍ قرعته قرعْتُ بآباءِ أولى شرَفُو عَنَحُم^(١)

ويبحث عن البحر فتجد الطويل . ولن نستعمل في عرض الأمثلة ، ولكننا نكرر ما قلناه
سابقاً ، وهو الصلة بين الموضع والوزن أمر لا يمكن التجزم به ، ويحتاج إلى دراسة مستفيضة قبل
أن نطرح نتيجة نهائية .

ونستطيع أن نقول - استناداً إلى دراسة ما بين أيدينا من شعر الأيام - أنه استعمل في
الإنشائات والموضوعات التالية : القنصر ، وصف المعارك ، الرثاء ، المدح ، الهجاء ،
الإستعطاف ، إنذار القوم ولعنهم ، التهديد والوعيد ، التصوير ، التخريل . ولكن القنصر
يستكثر بتصويب والمر من هذا الوزن ويلاه وصف المعارك والرثاء .

ونستعمل بعد الطويل إلى الواحر ، وهو يحاثل المزية الثانية في مجموعة شعر الأيام ، وكان
نصيبه خمس ذلك الشعر الذي جمع . ويمكن التعميم بأن وزن هذا البحر يتميز بخلق ، وروية
قوية ملائمة لروح الحماسة ، وتصوير الغضب ، والتعبير بقوة عن معاني القنصر والهجاء ، وقد
دلينا أنه جاء في المزية الأولى عندما أجرينا دراسة على ثمانين نصاً شعرياً كان موضوعها القنصر
والحماسة وحديث المعارك ، كما جاء في المزية الثانية في مجموعة قصائد الرثاء .

ونستحاول عرض بعض الأمثلة لإثبات ما قلناه أرفقه ، في حروب القنصر يصور لنا
الحارث بن كلدة الغلي مقتل فارس على يده فيقول من قصيدة مطلعها :^(٢)
تركتُ القارصَ البذائخَ منهم عَجْجُ حروقه علقاً عبيطاً^(٣)

وقد اختار لها هذا الوزن ، للملائمة حركة هذا البحر لذلك فشهد الذي يتميز بالحركة
والقوة .

وتكرر عامر لمثل حروء الرحى غداً ، ويغضب ليد بن ربيعة لمثله ويحضر قومه على
الطلب بدم حروء فيقول :

(١) التناقص ٦٨/١ - ٦٩ .

(٢) المعقد القريد ٢٥٩/٥ .

(٣) البذائخ : العظيم ، عَجْج : ثققت . علقاً عبيطاً : صاعاً طرياً .

أبلغ إن عرضت بني كلاب
وعامر والخطوب لها موال
وبلغ إن عرضت بني نجير
وأحوال القتيل بني هلال
بأن الوافد الرحال أسى
مقيماً عند تيمن ذي طلال^(١)

وكان همارة بن زياد العنسي يحسد عترة ، ويعتب على قومه لأنهم أكثروا من ذكر عترة ،
وبلغ ما يقوله عترة ، فقال يهجو بقصيدة اختار لها البحر الواقف ومطلعها يشير إلى حدة التعلل
عترة ، ومبلغ غضبه :

أحوالي تنقض أسنك بفرزجها
لتقتلني فيها أنا ذا عماراً^(٢)

ولعترة قصيدة أخرى من هذا البحر قالها وقد أغارت عليه سليم وهو يرعى في جبل له ،
فقاتلهم حتى كسر رعد ، وكان سامراً ، فطردوا إليه وذبحوا بها ، وقد ثارت نفس عترة غضباً
والألماء حل به من مزجعة وغير من ذلك بأبيات من هذا البحر مطلعها :^(٣)

شكوا ما أسأرت منها قدامي
ورقد الضيفر والأنس الجميع^(٤)

ومعلقة عمرو بن كلثوم التي ملاحا قهراً وزهواً وحديثاً عن أجداد قومه ، كما تعلم جيداً
ظروف قولها جاءت من الواقف .

وتفتى شعراء يربوع يوم طخفة يوم استردوا رداثة الملك التي كانت أن تنزل منهم إلى
غيرهم ، وهزموا جيش الملك وأسروا قاتله ، وكان ذلك اليوم مصدق فخرهم ، ومن الذين لغتوا
بذلك اليوم عمرو بن حنظل بن سلمى بن هرم بن رباح ، قال في هذا اليوم :^(٥)

قسطنا يوم طخفة غير شك
لعمر أبيك والانباء تنحى
أبواهم اللولؤ فهم لقاح
على قابوس إذ كسرة الصباح^(٦)
لنعم الحق في الجلى رباح^(٧)
إذا هيجوا إلى حرب أشاحوا^(٨)
..... الخ الأبيات .

(١) الأخاني / ثلاثة ٢٠ / ٦٦ ، الرواس الألف للسهلي ١ / ١٢٦ .

(٢) ديوان عترة ٧٥ .

(٣) الديوان ١٠٤ - ١٠٥ .

(٤) أسأرت : ألفت ، الأسى : الناس . (٥) التفتيش ١ / ٦٩ .

(٦) قسطاً : قسط لها معنيان متضادان عدل وجار .

(٧) تنحى : تشيع ، تنتشر ، الجلى : الأمر الشديد والخطب العظيم .

(٨) لقاح : قحول ، أشاحوا : اعرضوا الزمراء .

ولكننا مع ذلك لا نستطيع تعميم هذا القول إلا باستثناء دقيق لشعر الأيام الذي يرون
أيدينا ، فقد وجدنا أن الأغراض والوحدات التي نظمت من هذا الوزن هي التالية مرتبة حسب
أكثرها :

الفخر والحماسة ، وصف المعارك ، الهجاء ، الرثاء ، التهديد والوعيد اللوم .

لما تكامل فيتسم بطابع الجد ، وهو بعيد عن القدوة والتأمل ، وهما صفتان متضبتان عن
الحرب ، وتتميز موسيقاه بالصخب والجلجلة ، وهي صفة تنطق وروح المعارك والحروب .
ويحتل هذا البحر المرتبة الثالثة ، نظمت من هذا البحر خمس وسبعون قصيدة ومقطوعة ،
وتشكل ثمن ($\frac{1}{8}$) شعر الأيام الذي جمعناه . وتأخرت مرتبته حينما اخترنا ثمانين قصيدة
موضوعها واحد يتصل بالحرب ، فقد رأينا نعيه منها أربع قصائد فقط . ويقول الدكتور
التويهي عنه : أنه يسجم مع العاطفة القوية النشاط بالحركة سواء أكانت فرحة قوية الأهتزاز أم
كانت حزناً شديداً للجلجلة (١) .

وقد وجدنا الأغراض التالية في شعر الأيام نظمت من هذا الوزن : الفخر والحماسة ،
حديث المعارك ، الرثاء ، التهديد والوعيد ، المدح ، التحريض على الأخذ بالشار ، اللوم ،
الهجاء .

لما البسيط فقد احتل المرتبة الرابعة في مجموعة شعر الأيام ، وكان نسيبه عشر المجموعة ،
وقد نظمت من هذا الوزن الأغراض التالية حسب أكثرها :

الفخر والحماسة ، التهديد والوعيد ، حديث المعارك ، الرثاء ، المدح ، التحليل ،
الاعتذار ، السخرية من الأعداء .

لما المتعارف ففيه دقة وفنرة على سرد الأحداث ، فهو ملائم لسرد المعارك ووصفها بعد
الفرار منها ، ولكنه غير مقتصر على سرد المعارك ، إلا أننا اخترنا أن نرى موضوع يتصل بالأيام لا
بد وأن يتطرق إلى ذكر المعارك ، ففي يوم الكلاب الثاني قتل يزيد بن عبد اللطيف قتله نعيم ،
وكان قد أسرها مضي لخميين لزيته بنت مالك ، فقالت تزيته :

بكيْتُ يزيدَ بنَ عبدِ اللّدا نِ حَلَّتْ بِوِ الْأَرْضِ أَفْداها
شريكُ اللّلوِ وَمَنْ قُضِلَ يقضِلُ في المِجدِ أَنْفِداها

(١) دراسة الشعر الجاهلي - محمد التويهي / ١ / ٦١ .

ورقَطُ المُجَالِدِ قد جَلَلَتْ فَوَاضِلُ ثَعْمَاكَ أَجْبَاهَا^(١)
وهي من الوافر .

وفي يوم عكاظ من أيام الفجر الآخر يقتخر شرار بن الخطاب النهدي ويسرد أحداث
ذلك اليوم من قصيدة مطلعها :

ألم تسأل الناسَ عَمَّا شَأْنُنَا ولم يَنْبِتِ الأَمْرَ كالحافير^(٢)

وكذلك نجد ربيعة بن مقروم الضبي يقتخر يوم الكلاب الثاني ، ويختار هذا الوزن^(٣) .

ويستطيع أن يميز الأغراض التالية التي نظمت من هذا الوزن : حديث المعارك للفخر
والحماسة ، الرثاء ، التهديد والوعيد .

ولم يخل الشعر الجاهلي عامة ، وشعر الأيام خاصة من بعض عيوب الوزن ، ولعل أبرزها
كثرة الزحافات ، واضطراب الأوزان في بعض الأبيات . ولكن هذين العيوبين وغيرهما لا
ينتقصان من قيمة هذا الشعر في جملة ، وإن شعرأ حملته البنا لقرون طويلة ، بوسائل مختلفة ،
ليس يستهجن أن تظهر فيه بعض هذه العيوب ، فمرد بعضها كما يقول استاذنا الدكتور شوقي
ضيف إلى الرواة والنساج^(٤) . وقد تبنت الدراسات الحديثة المتصلة بالوزن والموسيقى صلة ما بين
الزحافات والعلل ومحاكمة الشاعر وحالته النفسية خلال ولادة العمل الفني.

القوافي :

القافية هي تكرار عدة أصوات في أواخر الأشرطة أو الأبيات من القصيدة ، وتكررها هذا
يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية ، لأنها بمثابة الفواصل الموسيقية التي يتوقع السامع
تردها . ويذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أن القافية هي أهم البقايا التي احتفظ بها من ثقافة
الغناء والموسيقى^(٥) .

ونعت القوافي - كما يراه قدامه - أن تكون علبة الحرف سلسلة المترج ، وأن يقصد بتعبير
مقطع المصراع الأول في البيت الأول مثل قافيتها ، فالقحول من الشعراء يتوخون ذلك ، ولا
يكتفون بمدلول من^(٦) .

-
- | | |
|-------------------------------|--------------------------------------|
| (١) مراثي العرب - فيخر ٩٣ . | (٢) الأملح / ثلاثة ٢٢ / ٧٥ . |
| (٣) القصيدة رقم ٣٨ . | (٤) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٨٥ . |
| (٥) العصر الجاهلي ١٩٤ . | (٦) نقد الشعر - قنمعة بن جعفر ١٩ . |

ومثال ذلك قول عنترة :^(١)

طربتُ وهاجَّتْكَ الطَّبَاءُ السَّوَارِحُ عُدَاةُ لُحْدَتِ مِنْهَا سَتِيجُ وَيَارِحُ^(٢)

ولكن ما يقوله قدامه فيها يخمس تشابه قافية للمصراعين في البيت الأول ليس شرطاً ، فكثير من الشعر الذي وصلنا لا ينطبق عليه هذا الشرط ، ومع ذلك فهو شعر جيد .

ولكن العلماء اتفقوا على عيوب للقافية إن ظهرت فإنها تعتبر عيباً ، وأهمها الإقواء ، وهو أن يختلف اعراب الشواقي ، فتكون مرة مرفوعة وأخرى مجرورة ، والإقواء في شعر الأيام ظاهرة لا تستطيع إخفاءها ، فقد ورد في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي وامرئ القيس ، وعبدة البربري ، مهلهل بن ربيعة ، وأبيس بن زهير ، وعنترة . يقول عنترة في يوم جفر العبادة مرتجلاً مقطوعة مطلعها :

إني أنا عنترةَ البهيجُ نَحَّ الأتَانِ قد حَلَا الأَثَرُ

ويقول منها :

فيشظى مما به الحزِينُ دارتْ على القومِ رَحَى المَنُونِ^(٣)

ويرثي قيس بن زهير قتل جفر العبادة بقصيدة مطلعها :

تعلم أن خيرَ الناصرِ ميتٌ على جُفْرِ الطَّبَاءِ ما يريم

ويقول منها :

ولا تعجلْ بأمرِكَ واستدِمْهَ فَمَا حَلَى عَصَاكَ كُتَيْدِمِ^(٤)

ويقول امرئ القيس مادحاً عُوَيْرَ بن شَيْحَةَ بن خُطَارِدِ التميمي بمقطوعة مطلعها :^(٥)

أَلَا إِنْ قَوْمًا كُتِمَ أَسْرُ دُونَهُمْ هُمْ مَنَعُوا جَارَاتِكُمْ أَلَّ عُدْرَانِ
عُوَيْرٌ وَمَنْ مِثْلَ الْعُسُورِ وَرَهْطِهِمْ وَأَسْعَدُ فِي لَيْلِ اللَّيْلِ صَفْوَانِ^(٦)

(١) ديوان عنترة ٤١ .

(٢) السوارح : الزامية بالفتحة إلى الضمي ، السواحج : مفردة سائح وهو ما أتاك عن بيتك من ظبي لو طائر ، اليارح : ما أتاك عن يسارك .

(٣) ديوان عنترة ١٩٨ .

(٤) أشبال الفبي ٣٥ ، الأغاني / كتب ١٧ / ٢٠٦ .

(٥) ديوان امرئ القيس ٨٣ .

(٦) الليالي : الأحران والفكر ، أسعد في ليل الليالي : واقع وساعد على ما لوحت .

ويقل الموزوني خيراً عن أبي عمرو بن العلاء أن الناهضة وبشر بن أبي خازم كانا يقولان ، فلما الناهضة قد دخل بشر فغشي شعره فقطن ، فلم يعد إلى إقواء . ولما بشر فقال له سواة أخوه : أنك تقوي ، فسأله : وما الإقواء ؟ فأنشده من شعره ، فقطن بشر فلم يعد^(١) .

ولمذا الجبر دلالة كبرى ، وهي أن الإقواء عيب من عيوب القافية ، ينكشف إذا ما أنشد الشعر أو غنى به ، كما أنه يثبت لنا أن القافية من أهم بقايا الغناء والموسيقى التي احتفظ بها الشعر . ولهذا هذه النقاد من عيوب القافية .

لما تأتي عيوب القافية فهو الأخطاء ، وهو تكرار كلمة معينة في أبيات في القصيدة ، وقد أجاز العلماء تكرار الكلمة في القافية إذا اتفق اللفظ واختلف المعنى . ومثال الأخطاء قول قيس بن زهير :

وعيسها هل القرشي ثري بأنزاع وأساف حداد
ويقول في نفس القصيدة :

كرهنا أن يقر الخسف فيما دلفنا بالمهيدة الحداد^(٢)

وتكثر هذه الظاهرة عند قيس بن زهير في أكثر من قصيدة من شعره ، كما نجد في شعر مهامل أمثلة لذلك ، وفي معلقة عمرو بن كلثوم ، ومن أمثلة النوع الثاني قول عمرو بن كلثوم :^(٣)

ونحن إذا حماد الحسي خرت على الأحقافس غنم من يلمينا^(٤)

فإن قناتنا يا عمرو أعيت^{***} على الأعداء قبلك أن تلينا

وقد اعتبر الأخطاء عيباً لأنه يدل على عجز الشاعر عن الإتيان بكلمة تناسب القافية فيكرر كلمة مما أوردته قبل هذا البيت ، حل الرغم من غنى اللغة بالمقدرات وضاعا بالتراوفا الذي يمكن الشاعر من اختيار الكلمة المناسبة .

وثالث هذه العيوب التخصيع ، وهو أن تكون القافية للمصراع الأول من البيت الأول على

(١) الموضح للموزني ٨١ . (٢) أمثال الطبري ٣١ .

(٣) شرح القصائد السبع الطوال ٣٩٣ ، ٤٠٤ .

(٤) الأحقافس : الأبل التي تحمل الشاح .

روي متي، لأن يكون ثانية آخر البيت بحسبه ، فتلى بخلافه . يقول وعَلَّه بن عبد الله الجرمي
يوم الكلاب الثاني تصيدة مطلقها :^(١)

يَدِيْ لِكَمَا رَجَلِيْ أُمِّيْ وَخَالَتِيْ عِدَادَةُ الْكَلَابِ إِذْ تَحْمَرُّ الدُّوَابِرُ^(٢)

فقافية المصراع الأول وهي التاء توحي بأن تكون فاعلة المصراع الثاني هي التاء أيضاً ،
ولكنها جاءت مخالفة لها ، بعد أن تهيات الآن للقافية الأولى .

ورابع الميوب السناد ، وهو اختلاف نصريف القافية أو اختلاف ما يرأس قبل الروي من
الحروف والحركات يقول عمرو بن كلثوم :^(٣)

إِذَا وَضِيعَتْ عَنِ الْأَبْطَالِ يَوْمًا رَأَيْتَ لَهَا جِلْدَ الْقَوْمِ جُوثًا^(٤)
كَأَنَّ مَتَوَسِّنْ مَثُونْ غُدْرَ تُصَفِّقُهَا الرِّبَاحُ إِذَا جَرَيْنَا
وَتَحْمِلُنَا عِدَادَةُ الرُّؤُوسِ جِرَّةً عَرَفْنَا لَنَا نَقَائِدَ وَاقْتِلَانَا^(٥)

فقد اختلفت حركة ما قبل الروي وهي حركة (الواو) في جوثا ، (والراء) في جرينا ، (واللام)
في اقتلينا فهي في الأولى ضمه ، والثانية فتحه ، والثالثة كسرة . وأمثلة السناد في مجموعتنا كثير ،
وذلك لا يتعارض مع السرعة الفنية التي طبعت معظم شعر الأيام .

وقد استعمل شعراء الأيام القوافي التالية مربة حسب استعمالها وورودها في شعرهم :
الراء والميم واللام والياء والذال والتون والفاء والتاء والعين والحاء والقاف والكاف والسين
والياء . ووردت اللام والراء والميم قوافي لتصف هذا الشعر كما نلاحظ أنهم استعملوا نصف
حروف الهجاء .

ويتوينا هذا الذي عرضناه إلى أسرهام وهو علاقة القافية بحالة الشاعر النفسية ،
وبالموضوع الذي يطرقه الشاعر ، وهو موضوع بدأ بعض النقاد المعاصرين يتجهون إليه . ولكن
الأمر ما زال بحاجة إلى التأمّل والاستقراء قبل التصرّح في إصدار الأحكام الفنية وتعميمها .

لقد اشترطنا موضوعين من أبرز موضوعات شعر الأيام هما : القنصر وحديث المعارك

(١) القصيدة ٣٢ .

(٢) نحر : تطعم ، الدوابر : الأصول .

(٣) معلقات العرب - بدوي طباعة ٣٨٧ ، شرح النصائد السبع الطولاق ٤١٦ - ٤١٧ .

(٤) جون : سود .

(٥) نقائد : ما استنك من قوم آخرين ، قتلين : قطن من امهاتهن .

والرثاء ، وبدلتا تستعرض هذين اللونين في مجموعات أربع من مجموعات الأبيات هي : البسوس
وداحس والفجار وفوقار . فكانت النتيجة أن القصر وحديث المعارك قد نظم على القوافي
التالية : الراء ، اللام ، والميم ، التون ، الناء ، العين ، والطاء ، الدال ، القاف ، الخاء ،
الياء ، الياء ، الخاء ، وقلك دون ترتيب حسب عدد القصائد .

أما الرثاء فقد نظم على القوافي التالية : الياء ، الراء ، الدال ، العين ، الميم ، الخاء ،
اللام ، القاف ، التون .

وبمقارنة ما حصلنا عليه تبين لنا أن القصر يزيد في القوافي التي استعملت على الرثاء ،
القوافي التالية نذكرها مع حركاتها لما لفظك من أهمية : (ناء) ، (طاء) ، (قاف) ، (ح) ،
(يا) ، (ل) ، (ف) .

كما أن الرثاء زادت فيه القافية التالية : (عا) .

ولعلنا نقرب من الصواب إذا قلنا أن هذا المقطع (عا) يوحى بالقصيدة والحزن الشديد ،
وأن الشعر الذي ينظم في هذه القافية يكون أكثر تأثيراً وأكثر دلالة على الموضوع الذي نظم الشاعر
فيه ، فإذا ما اختر الشاعر بحراً مناسباً ، والفاظاً ملائمة فإن هذا الثلاث : الإيقاع والوزن
والقفلية مع باقي العناصر المكونة للمعملة الشعرية تحدث التأثير المطلوب وهو نقل ما يحس به
الشاعر إلى الآخرين .

أما القوافي التي اختص بها القصر دون غيره فإن النظرة الأولى إليها توحي بالقوة والحركة
والاضطراب ، كما توحي بالزهو ، وتحدث وقماً ينهي جميع أبيات القصيدة بتلك التفعلة القوية
التي تناسب وموضوع الشعر . ولو نستطيع لاستعرضنا الأمثلة التي توضح ما نذهب إليه . ولكن
الشعر الجاهلي في دواوينه ومجموعاته في متناول اليد وتستطيع التثبت مما نذهب إليه أو نخبه .

ونثبت في آخر هذا الفصل جدولاً تبين أغراض الشعر التي وردت في الشعر الذي تناولناه
والقوافي التي نظمت عليها .

انتشار الرجز

الرجز لغة^(١) تنابع الحركات ، ومن ذلك قولهم ناقة وجزاء : إذا كانت قوائمها ترتعد عند قيامها . ويقال للريح أيضاً إذا كانت دائمة أنها رجزاء ، وقد رجزت وجزاً . وقال ابن سيده : والرجز شعر ابتداء أجزائه سبباً ثم وقد ، وهو وزن يسهل في السجع ويقع في النفس ، ولذلك جاز أن يقع فيه للشطور ولتنهوك .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن كلمة الرجز في حقيقتها صوت الرعد ، أو مرض يصيب الأهل ، وأن استعمالها في هذا اللون من الشعر إنما هو استعمال مجازي اصطلاح عليه فيما بعد على أساس أن أغلب الألقاظ على المحسوس أولاً ، ثم قد تستعمل في الغراض معنوية . ويرى أن هذا المصطلح لم يستعمل قبل أغلب المعجمي الذي استشهد بال الكوفة ما نظم في الأسلام فقال :
أرجزاً تريد لم قصيداً لقد طلبت هيناً موجوداً^(٢)

وقد سمي الرجز رجزاً لأنه يتوالى فيه حركة وسكون ثم حركة وسكون إلى أن تنتهي أجزاؤه . وهو بذلك يشبه بالرجز في رجل الناقة ورعيتها ، وهو أن تتحرك وتسكن ، ثم تتحرك وتسكن . وقيل أيضاً أنه سمي بذلك لاضطراب أجزائه وتناوبها .^(٣) وروي عن الأحمش قوله :

سألت الخليل عن البحور . . . قلت فالرجز ؟ قال : لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام^(٤) .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن نشأته ، فإن البحث يشعب ويتضارب فيه الأقوال والآراء . وتثار تساؤلات عدة ، وأول ما يثار حوله هل هو متطور عن السجع ؟ وقد حاول كثير من الباحثين الأجانب عن هذا التسؤل ، وأجابوا بالإيجاب . فيروكلمان^(٥) يعتبر الشعر الجاهلي في أقدم صورته متطوراً عن السجع ، وترقي السجع إلى بحر الرجز للتألف من تكرار سيبين ووتد يسهل على السامع ، وبلغ أثره في النفس . ويعتبره معروف الرصافي^(٦) حلقة اتصال بين الشعر

(١) اللسان مادة رجز .

(٢) الرجز - شاعر الجوهري ٦ - ٩ .

(٣) اللسان مادة رجز .

(٤) المعتمد لابن رشيق ٩ / ٨٩ .

(٥) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ١ / ٥٦ .

(٦) الأدب الرفيع في ميزان الشعر ونواحيه ١٢ .

والنظم ، وأن وزنه متولد من السجع . ويفق احمد حسن الزيات وعبد سميت الأثري^(١) على أن العرب قد عطلوا من المرسل إلى السجع ، ومن السجع إلى الرجز . ومن المستشرقين قال جولدم تسهر^(٢) ينشأه عن السجع .

ومن التسلاطات التي أثبتت حوله أيضاً : هل الرجز أقدم الأوزان الشعرية ؟ وقد أجاب كل من : بروكلمان وجولدم تسهر وجورجي زيدان والرصافي والزيات والأثري وعبد الرحمن بلزود ، بنعم ، بينما رفض هذه الفكرة كل من الباحثين : شوقي ضيف وإبراهيم أنيس وشاكر الجودي ونولدكه .

فبروكلمان^(٣) يعتبر الشعر الجاهلي في أقدم صورته متطوراً عن السجع الذي تولى بعد ذلك ال بحر الرجز . وجولدم تسهر^(٤) يعتبر امراً القيس باعث روح جديدة في الشعر العربي بعد أن كان مقصوراً على الرجز .

واعتبره جورجي زيدان^(٥) أبسط النظم وأقدم لوزان الشعر الجاهلي . والرجز عند الرصافي أول مولد من الشعر^(٦) . والشعر الجاهلي - عند كل من الزيات والأثري - متلوخاً ومتطوراً عن الرجز^(٧) . ويوسط عبد الرحمن بلزود لنا السبب ، فيرى أن الرجز أقدم وأعمق من الشعر ، لأن الأبسط في العادة ينشأ قبل المعقد الراقى^(٨) .

لما التفتين رفضوا فكرة أقدمية الرجز على الأوزان الأخرى فقد رفضها - إبراهيم أنيس - لعدم وجود دليل على ذلك ، بل أنه يرجح أن البحر الكامل قد سبق الرجز في الوجود ، وذلك لأن المقاطع العربية بوجه عام قد تطورت من النوع المتحرك إلى النوع الساكن^(٩) . ويعتقد شاكر الجودي أن الرجز نشأ صدفة . شأنه في ذلك شأن غيره من أوزان الشعر^(١٠) . ويرفض شوقي ضيف الربط بين شيوخ الرجز في العصر الجاهلي وسبقه على الأوزان الأخرى ، وإثارة ذلك

(١) تاريخ الأدب العربي - الزيات ١٧ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية - رجز .

(٣) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان ٥١ / ١ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية - رجز .

(٥) تاريخ أدب اللغة العربية - زيدان ٦٥ - ٦٦ .

(٦) الأدب الرفيع في ميزان الشعر ١٢ .

(٧) تاريخ الأدب العربي - الزيات ١٧ .

(٨) الرجز - عبد الرحمن بلزود - رسالة ماجستير ص ٣ .

(٩) موسيقى الشعر - إبراهيم أنيس ١٣١ .

(١٠) الرجز - شاكر الجودي ٢٨ .

الشروع إلى شعبيته^(١) وذهب تولده إلى أن العرب أخذت الرجز من الهزج .^(٢)

وبما أثر حول هذا الوزن ارتباطه من حيث نشأته الأولى بتوزيع سبيل الجملال في الصحراء ، وقد ربط جورجى زيدان^(٣) بين الرجز وسبيل الجملال فقال بأن الوزن مأخوذ في الأصل من توزيع سبيل الجملال في الصحراء ، وأجد ذلك بأن الرجز أول ما استعمله العرب لسوق الجملال ، وهو الحذاء . ولكن الرصافي^(٤) رفض تلك الفكرة لأن حذاء الأبل ووقع الجملال يناسبها التكامل أو عجز ووه .

ويتصل بما نحن في صدد بحثه تساؤل آخر هو : هل كان الشعر في بدايته مقصوداً على الرجز ؟ وقد ليد القنصل الشعر الجملالي في بدايته على الرجز ثم تطور إلى الأوزان الأخرى جولة تسير وزيدان والرصافي والزيات ، بينما رفض هذا الأمر شوقي ضيف وإبراهيم أنيس وشاكر الجودي .

وعلاصة ما نراه ، بعد أن عرضنا لمختلف آراء الباحثين ، أن الرجز وزن من أوزان الشعر العربي ، له وزنه الخاص كسائر البحور الأخرى ، لا يختلف عن شعر القصيد إلا في شعبيته . وأنه واقع الأوزان الأخرى منذ أقدم المجموعات الشعرية التي وصلتنا ، وهي شعر حرب البسوس فقد وصلنا الرجز وغيره . أما ما زعمه البعض عن أولية الشعر التي تسبق ذلك فذلك مجرد حلس وتخمين ولا يستند إلى أدلة مادية ، لأنه ليس بين أيدينا شيء ، ولا يغير من واقع الشعر الذي ندرسه . ونحن نعتقد أن الرجز لو اعتنى الشعراء به ولم يفضلوا غيره من الأوزان عليه ، ولو حاولوا الارتفاع بمستواه الفني كما حدث للشعر من الأوزان الأخرى لسار الرجز جنباً إلى جنب مع باقي أوزان الشعر . ولذلك كله لا نستطيع أن نجزم بأي الأوزان كان أسبق ، كما لا نستطيع أن نجزم أن الرجز متطور عن السجع أو غيره ، كما أننا نرفض لربط هذا الوزن بواقع أقدم الأبل وغير ذلك من الفرضيات التي لا تملك الدليل على صحتها .

وقد تور كثير من الباحثين شيوخ هذا الوزن في العصر الجملالي ، وعرض بعضهم لأسباب هذا الشروع ، وقبل الخوض فيها قلوه نود أن نشير إلى حديث ابن مسعود حين قال : الرجز أعنف

(١) العصر الجملالي - شوقي ضيف ١٨٦ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية « رجز » .

(٣) تاريخ أدب اللغة العربية ١ / ٦٥ - ٦٦ .

(٤) الأديب الرابع ١٢

على لسان المنشد ، واللسان به أسرع^{٥٩} فهل كانت خلفه على لسان المنشد هي الصفة التي جعلته شائماً في ذلك العصر ؟

لقد أجاب بروكلمان على هذا بأن الرجز المتكلف من تكرار سببين ووند سهل على السامع ، ومؤثر في النفس ، كما أن وزن الرجز يليح حاجة الأرتجال^{٦٠} . وزعم جولدشبيهر بأن الشعر العربي قبل امرئ القيس كان مقصوداً على الرجز ، ولم يكن يشترك في ذلك وزن آخر^{٦١} . أما الدكتور شوقي ضيف فقد وصف هذا الوزن بالشعبية ، وأن تلك الشعبية جعلته أكثر الأوزان شيوعاً في ذلك العصر ، وكان الجاهليون يرحلون في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب^{٦٢} . وربط شاعر الجودي بين نوع هذا الوزن وتطوره وبين عوامل وانقراض تلامم معها في تقطيعه التميز بالسرعة والحركة والاضطراب كالحروب^{٦٣}

وعلى الرغم مما قيل عن شيوعه وكثرته في هذا العصر ، إلا أن الذي وصلنا منه لا يرقى إلى منزلة الشيعر . فقد جاء ترتيب هذا الوزن الخامس في محور الشعر وقد نظم شاعر الأيام من هذا الوزن خمسين مقطوعة ، كلها مقطوعات صغيرة ، لم يتجاوز أبياتها وأسطروها مائة وخمسين .

ولا يثنى أمانا إلا احتمال واحد وهو أن شعراً كثيراً من هذا الوزن قد ضاع ، ولعل في قول الجاحظ وابن حبيب ما يدعم وجهة نظرنا . يقول الجاحظ « كل شيء للعرب قديماً هو يديعة وأرتجال . . . وإنما هو أن يصرف وعنه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أو حين يمشح على رأس يتر أو يعبر أو عند المقابلة أو عند صراع أو في حرب . لها هو إلا أن يصرف همه إلى جملة اللعب وإلى العمود الذي يقصد إليه فتأنيه للمعاني إرسالاً وتتنال عليه الألفاظ اثباتاً^{٦٤} » ويقول ابن حبيب « كانت العرب تقول الرجز في الحرب والخصاء والمقابلة وما جرى هذا المجرى فتأني منه بأبيات يسيرة فكان الأغلب أول من قصد الرجز ثم سلك الناس بعد طريقتة^{٦٥} » .

وقد حاول إبراهيم أنيس^{٦٦} تعليل ضياع معظم الرجز ، فقال بأن الجاهليين نظموا منه مقطوعات قصيرة شاعت بين الناس وتناقلتها الألسن ، ولكنها لم تدون فيما بعد ، وربما لم يرها الرواة مما يستحق أن يدون وأن يثقب بها ، لأنها تمثل الأصب الشعبي عند الجاهليين ، ومن

(١) اللسان « مائة رجز » . (٢) تاريخ الأدب العربي بروكلمان ١ / ٥٩ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية « رجز » . (٤) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٨٦ .

(٥) الرجز - شاعر الجودي ٢٨ .

(٦) البيان والبيان - الجاحظ ٣ / ١٣ . (٧) الأغاني / السلي ١٨ / ١٦٤ .

(٨) موسيقى الشعر - إبراهيم أنيس ١٢٨ - ١٢٩ .

المحتمل أن تكون الأراجيز تحمل معها في الجاهلية صفات اللهجات العربية .

ويذهب الدكتور شوقي صيف^{١٨} إلى أن الشعراء المتأخرين في الجاهلية لم ينظموا فيه ، وربما كان هذا سبباً في إهمال الرواة له .

وفي رأينا أن الرجز الذي وصل إلينا قليل بالنسبة لما نظموا في حروبهم فقد كانوا يرتجزون وهم على صهوة الجبل ، كما يرتجزون وهم يطردون النعم أمامهم ، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن السبب في عدم وصول كل ما نظم من هذا الوزن يرجع إلى طبيعة الرجز أولاً ، فهو مقطوعات صغيرة ، ثم أنه يمثل الشعر الشعبي الذي يجري على كل لسان ، فهو ليس بملحة فخر ، ولا مجال للتفاخر به ، لأنه لا يروى إلى الشعر الذي ينظم من الأوزان الأخرى . من أجل هذا لم يكن ليصل إلى منزلة رفيعة تجعلهم يشقونه في الأسواق التي كانت السبب في انتشار الشعر بين القبائل وروايته ووصول بعد ذلك إلى عصر التدوين .

ولما أضفنا إلى ذلك أن طبيعة شعر الأيام يمثل شعر طبقة معينة من السادة والشعراء الفرسان ، أدرت أن أولئك كانوا يدركون أن هذا اللون من الشعر لا مجال للتفاخر به . ولا ابتعد عن الحقيقة إذا قلنا أن احتمال أن يكون الرجز قد حل بعض خصائص اللهجات قد جعل الرواة يجمعون عن روايته ، على الرغم من أن بعضهم قد حملوا بعض شعر اللهجات . وينبغي ألا يفوتنا أن هذا اللون نظم فيه الشعراء الجاهليين من مختلف الطبقات ولكن ما وصلنا لا يجعلنا نحكم حكماً دقيقاً على حجم ما نظم كل شاعر منه ، ولكننا واجدون من هذا الوزن في شعر امرئ القيس وعنترة وأبيد وغيرهم .

وقد برزت ظاهرة في هذا اللون من الشعر تستحق الدراسة وهي أن كثيراً من الرجز الذي بين أيدينا مجهول القائل ، ولعل السبب متصل بشعبية وانحطاط منزلة الفقيه ، فإن رواية أو شاعراً لا يعيه كثيراً أن ينسب إلى شاعره أو إلى أبياته .

لما الأغراض التي كان ينظم فيها هذا الوزن فكثيرة ، ونستطيع أن نقول أنه يتناسب كل فرض ينسم بالسرعة والحركة والاضطراب كالحروب والصيد والنوح والمناصرة . ويذهب الدكتور شوقي صيف إلى أنه استخدم في كل حركة من حركاتهم ، وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب^{١٩} . وحدد كاتب مادة « رجز » في دائرة المعارف الإسلامية أغراض الرجز في الحياة والرشاة ، وذلك في لئد قصائد الرجز التي بقيت ، ومع ذلك فإنه لم يقتصر على الحياة

(١) العصر الجاهلي - شوقي صيف ١٨٦ . (٢) العصر الجاهلي - شوقي صيف ١٨٦ .

وما يشبهها وقتاً طويلاً ، فقد أصبح يستعمل في شعر الثنايات وفي وصف الأيام ، وفي المدح والفخر وفي الأمثال الموجزة .

تلك هي استعمالات الرجز بشكل عام ، كما حددتها القدماء كالجاحظ وابن حبيب ، والمحدثون من الباحثين . أما في شعر الأيام فإتينا لا نملك إلا طريقاً واحداً إذا شئنا الاستناد إلى أدلة مادية ، ونعني دراسة ما بين أيدينا من رجز متصل بالأيام . أما أن نستند إلى أحكام عامة قلها قدماء أو محدثون فلأن يكون منها جدوى ، أو فائدة علمية .

ونستطيع أن نقول على ضوء دراستنا لما بين أيدينا من هذا الوزن أنه استخدم في الأغراض التالية حسب كثرتها : الارتجاز ساعة اللقاء ، والمجزم على الأعداء ، وتعميق الغم ، وحثهم على الثبات والفخر ، ووصف المعارك واللقاء بين الجيشين ، والتهديد والوعيد ، والرد على شعراء الأعداء وتفنيد ادعائهم ، والمجاء والمدح والثناء .

وتختلف انفعالات القُرَّان في ساعات اللقاء واستخدام المعارك ، فقد يكون الشاعر والقاتل من قوته وقوة قومه فيرتجز مفتخراً . ففي يوم قبضة كان جندل بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة البكري يهجم على الأعداء وهو يرتجز :

قد يَمَعَتْ بِشِيءٍ وَأَنْتَ كُنْتِي	وَشَوَقَتْ بَعْدَ الرَّهَانِ جُنِي
رَفُّوا عَلَيَّ الْحِلَّاءَ إِنْ أَلَيْتِ	إِنْ لَمْ تَنَاجِزْهَا فَجُزُّوا لُنِي
قَدْ عَلِمْتَ وَالسُّدَّةَ مَا ضَمَّتْ	مَا لَفَقْتَ فِي خَيْرٍ وَلَمَّتْ
إِذَا السُّكَّاءُ بِالسُّكَّاءِ التَفَّتْ . . .	أَخْرُجْ فِي الْحَرْبِ أَمْ أَلَيْتِ ^(١)

وفي يوم القهجار الأول ضرب رجلٌ من هوازن رجلاً بدر بن معشر الكنتي وقتل مرتهزاً مفتخراً :

نَحْنُ بَنُو دُهَيَّانَ ذُو النُّطْرِفِ بِحَرِّ لِهَجَرٍ زَاغَرٍ لَمْ يَنْتَرَفِ
تَبَيَّنَ عَلَى الْأَحْيَاءِ بِالْمَعْرِفِ^(٢)

وفي يوم شغب جبلة يستقبل معاوية بن عباد بن غفيل بني أسد وهو يرتجز :

(١) حاشية أبي تمام - شرح المزدودي ٢ / ٥٠٧ .

(٢) المعتمد المغربي ٥ / ٢٥١ ، الأتاني / ثلاثة ٣٠ / ٦١ .

أنا الغلام الأعسر الحيرُ فيُ والشرُ والشرُ فيُ أكثرُ»

وفي يوم شُعب جيلة كانت بنو أسد تقاتل حبساً وعامراً إلى جانب حليفتهما عجم ، وروى رجل من بني أسد الأهل التي حبسها بنو عامر وبنو عيسى بالشُعب ، تحضر عليهم من الشُعب ، فقال مرثجواً ومصوراً هول وقع المفاجأة على نفسه :

رعمتُ أن العيرَ لا تُقاتلُ بلُ إذا تفعلعُ الرجالُ
اختلفه الحنديُّ والدوابلُ وقالت الأبطالُ مَنْ يُنزلُ
بلُ وليها حَسْبُ وناتلُ^(١)

ومن الأعراس التي استخدم فيها الرجز لحريض الناس على القتال والنيات في المعركة لإحراز النصر ، ففي يوم ذي قار ثبتت امرأة من عجل في المعركة وكانت تقول :

إن يظفروا يُسرُّوا فينا الغُرُل إلى فدى أبي لكم بني عجل
وتقول أيضاً عذرة القوم ومشجعة لهم :

إن تُهزِّموا تُعائِنُ ونفرش الخارقُ
أو تُهزِّموا تُقَارِقُ طراقَ عيرٍ وامي^(٢)

ويحاول عمرو بن جيلة بن باعث بن صريم الشكري رفع الروح المعنوية عند قومه ، فيهن من شأن جيش الفرس على الرغم من كثرة عددهم وعلتهم ، ويطلب منهم أن لا يكرهوا إلا الذي ثبت عند لقاء الأعداء :

يا قوم لا تغسروكم هذي الخرقُ ولا وميض البيض في السمسر بَرَقُ
مَنْ لَمْ يُفَاقِلْ منكم هذي العنقُ فحُبِّبوه السراحَ واسقوه المرقُ^(٣)

ويذكر الشاعر قومه بنسائهم وعلمهم وكل ماله منزلة في نفوسهم حتى لا يفرؤا من ساحة الوضي . ففي يوم ذي قار ، وحيث رأى العرب جيوشاً لم يلقوها في أيامهم وفي هذا اليوم فكر

(٢) الأعراس / كتب ١١ / ٦٤١ .

(٤) الأعراس / ثلاثة ٢٣ / ٣٣٢ .

(١) الأعراس / كتب ١١ / ١٩٠ .

(٣) التناقص ٢ / ٦٤١ .

بعض الفاتنة في تجنب قومهم الملاك ، فتكروا في الاتجاه إلى الصحراء ليحتموا بها من فتك تلك الجيوش الجواراة . وعندها تصدى لهم يزيد بن الكُسر بن حنظلة بن سيار يذكرهم بأهمية صمودهم ، كما يذكرهم بماضيتهم :

مَنْ قَرَّ مِنْكُمْ قَرٌّ عَنْ حَرَمِيَّةٍ وجارِهِ وَفَرٌّ عَنْ نَدِيَّةٍ
أَنَا إِبْنُ سِيَّارٍ عَلَى شَكِيمَةٍ إِنَّ الشُّرَكَاءَ قَدْ مِنْ أَدِيمَةٍ^(١)

وأما وصف المعارك ، ولنا نظم بأن يصادفنا وصف مهيب لتلك الوقائع كما رأينا في شعر الجحور الأخرى ، فقد جاء منه على ألسنة الشعراء الكثير . ففي يوم زُرود الأول يقول لعلامة ابن شريك مرثعياً :

استنزَلْتُ رِمَاحَنَا سِيبَانَا وَشِخْطُهُ بِطَيْخَتِهِ عِيَانَا
ثُمَّ انْصَوَّه قَدْ رَأَى هَوَانَا مَا فَقَدْنَا بَيْتًا مَعْدَانَا^(٢)

وفي يوم ملزق يقول الأندلس بن أخي ربيعة بن جواد عندما أسر عمرو بن أبي ربيعة ، وقُتل منهم قتل كثيرون :

ذَاكَ وَصَمِي يَوْمَ جَيْشٍ مَلَزَقٍ لَاقَى قَطِيناً فَوْقَ ظَهْرِ الْأَبْلَقِ
فَاحْتَلَفْنَا الطَّعْنَ وَضَرْبَ الْأَسَاقِ ثُمَّ عَلَاَ بِحَسَامٍ حَقِيقٍ
يَحِثُّ كُلُّ سَاعِدٍ وَمَوْقٍ^(٣)

ومن أطول المقطوعات التي بين أيدينا مقطوعة للأغلب العجلي في يوم الزُوزَيْن وتحدث فيها عن هجرة القوم ، وهجرة قومه ، وعرض لنا بعض أحداث ذلك اليوم ونتيجته :

جَاءُوا بِزُوزَيْنِهِمْ وَجَنَّا بِالْأَصْنَمِ شِخْ لَنَا قَدْ كَانَ مِنْ عَهْدِ إِزْمِ
فَكَرُّ بِالسِّيفِ إِذَا الرَّمْحُ انْحَطَمَ كَهَمَةِ اللَّيْلِ إِذَا مَا اللَّيْلُ هَمٌّ
كَانَتْ عَيْمٌ مَعَثَرًا ذَوِي نَحْمٍ عُلُصَةً مِنَ الْغَلَاصِمِ الْعُظْمِ
قَدْ نَفَخُوا لَوْ يَنْفَخُونَ فِي قَحَمٍ وَصَبَرُوا لَوْ صَبَرُوا عَلَى أَمَمٍ
إِذْ رَكِبَتْ ضَبَّةٌ أَحْجَازَ النِّعَمِ فَلَمْ تَدَعْ سَاقاً لَهَا وَلَا قَدَمَ^(٤)

(١) العقد القرئد ٥ / ٢٢٨ .

(٢) العقد القرئد ٥ / ٢٠٦ .

(١) الشفايض ٢ / ٦٤٣ .

(٣) ديوان سلامة بن جندل ٦٦ .

ونظم الشعراء من هذا الوزن شعراً في التهديد والوعيد ، فعندما قتلت بنو أسد حُجْرًا ،
وعلم امرؤ القيس بذلك قال مهدداً بني أسد :

والله لا يذهب شيخي باطلا حتى أيسر مالكاً وكاهلاً
القاتلين المليك الحلالجلا خير منعد حنباً ونائلاً
يا لحق هنذر إذ خططين كاهلاً نحن جلبنا القرح القواللاً^(١)

وحالقت عيس بني كعب ، وحاولت الأنثيرة الغدر بحلفاتهم ، ففطن لهم بنو عيس
وتصدى عشرة لهم يهتدعهم ويحلوهم من منية غدوهم بقومه .

قلتُ من القوم فقالوا سقره والقوم كعب يتغفون المنكرة
ثم ذهبي مني وكوني حليلة^(٢)

واستعمل هذا الوزن في النقائص ، ففي يوم شيب جيلة جعل قنيط بن زُرارة التميمي
يقول :

عرفتكم والدمع م العيون يكف لفارس أتلقتموه ما شؤف^(٣)
فقال شريح بن الأحوص العامري عبياً :

إن كنت ذا صفق فأقحمه الجرف
وقرب الأشرحتى تعترف
وجوهنا إنا بنو البيض العطف^(٤)

ومن الأغراض أيضاً الهجاء ، يقول بشر بن أبي خازم الأسدي هاجماً أوس بن حارثة
الطائي ، ذلك الهجاء الذي جر يوم ظهر الدعاء :

إنك يا أوس اللثيم عتده
عيد لعيد في كلاب تستده
..... الخ الأبيات :^(٥)

(١) ديوان امرؤ القيس ١٣٤ .

(٢) الأضاني / كتب ١١ / ١٤٢ .

(٣) ديوان بشر بن أبي خازم ٥٩ .

(٤) ديوان عشرة ٢٠٠ .

(٥) نفس المرجع السابق ١١ / ١٤٤ .

وسمى هاشم بن حرملة في الحيلة للصلح بين عيس وفيان ، فقال أحدهم مرثعاً وماحاً
ذلك العمل العظيم فقال :

أحيا أباه هاشمُ بن حرملة يوم الرماحون ويوم اليعملة
ترى الملوك حوله مرحلة يقتل ذا الذنب ومن لا ذنب له "

وللرثاء نصيب من هذا الوزن ، على الرغم من ندرته ، ففي يوم شعب جيلة قُتل لقيط بن
زولة التميمي . فجعل لقيط يقول قبل موته متصوراً ما سفعله ابنته دحنتوس :

يا ليت شعري عنك دَحْنَتُوسُ إذا أَلَاكَ الحَيْرُ المرسوسُ
أَلْخَلَقُ القُورُونَ أَمْ عَيْسُ لا بل عَيْسُ إِبْهَاعُروسُ "

وهكذا فتح أمام مقطوعات من الرجز ، نظمها الشعراء في آخر " ن خنلفة هي نفس
أغراض البحور الأخرى ، ولكنها تتميز في أنها أكثر التصاقاً بساحات الوخي فهي مقطوعات قالها
أصحابها في ساحات القتال ، ووسط غبار المعارك . ولعل هذا من ضياع قسم كبير منها ونسيان
قالها .

وتتميز هذه المقطوعات التي نظمت من هذا الوزن بسهولة اللغة إذا ما قورنت بغيرها ،
كما أنها لا تحمل طبعات قبلية ، كما أنها تكاد تخلو من أثر العسنة أو التصحيع ، كما تكاد تخلو من
الصور البيانية ، فقد نظمها أصحابها وأرتجزوها في لحظات انفعال ، فلم يتأثروا في نظمها بل
أرتجزوها ارتجالاً .

الخصائص المعنوية

١ - الواقعية :

لقد عاش الشاعر الجاهلي أحداث الأيام ، وكان بين مشترك اشتراكاً فعلياً فيها ، وبين
مناظر بأحداثها ، ولكن الشعر الذي ندرسه يشير إلى أن غالبية الشعراء الذين شهدوا تلك
الحروب ، وتأثروا بها وأثروا فيها ، هم الذين صوروا لنا أحداثها ، وهم الذين وقفوا مع قبائلهم
يلدعون عنها بالسبهم قبل أيديهم .

(١) العهد القديم ٥ / ١٥٨ .

(٢) الألفاظ / ١١ / ١٤٤ .

ولقد خلقت تلك الأيام مواقف شتى لأولئك الشعراء ، وكان ينبغي أن يعبر الشعراء عن تلك المواقف ، فالفيلة كان لها أعداء ومصرع ، كما أنها كانت تحتاج إلى من يدافع عنها ، كما كانت بحاجة إلى من يفتنى بمشاعرها ، ويرثي قتلها ، ويقوم المحزونين من أبنائها بتذكيرهم بالواجب القليل .

وكان الشاعر حينما يلتفت أو يهجو أو يرثي يلبي حاجة أساسية من التزامه نحو قبيته ، ولكنه التزام ارتضاء الشاعر ورضي به ، ولم يفعله موقفاً ، وفعله وهو مؤمن بذلك الذي يفعله إيماناً حلو ، ويكون متفعلاً بتلك الأحداث متفاعلاً معها . فهو حينما يهجو قبيلة متأثرة لقبيلته فإنما يفعل ذلك لإحساسه بأن تلك القبيلة تحاول الإساءة إليه كما تحاول الإساءة إلى قبيته . وهو حينما يرثي بطلاً من أبطالنا استخففته يد المنون ، فإنما يرثي رقيب درب ، وأخاً في السلاح ، نستمع إلى عترة يرثي مالك بن زهير :

وقد جلبنا حينئذٍ بمصرع مالك
وكان كريماً ماجداً طويلاً
وكان لدى الهجاء يحمي ذمارها
ويطعن عند الكفر كل طعان
به كست أسطوح حينما جذت العبداء
غداة اللقا تحوي بكل مكان
فقد هذ ركني فقده ومصابه
وعلى فؤادي دائم الحفنان^(١)

عترة حينما رثاه كان يتألمه دلجان ، دافع قبل ، ودافع مباشرة بتصل بإحساسه نحو ذلك الغارس الذي سقط ، وكان همه حينما رثاه أن ينفس عن الانفعال الشائني الذي طغى على مشاعره . ولعل هذا ما دعا المذكور التوبي إلى القول بأن الشاعر الجاهلي « لم يكن مأجوراً لقبيلته ، بل إنه اعتم بأن يصور ما وجدته في صميم عاطفته هو ، وكان دافعه الأول أن ينفس عن هذا الشعور الشخصي القوي . ولم يكن همه أن يفوز برضى قبيته ، ولو كان كذلك لما أنتج أدباً يستحق البقاء والخلود .

ونعتياً على هذا الرأي نقول إن الشاعر الجاهلي حقق بالتزامه المبدئي فهو قد عبر عن ذاته التي هي جزء لا يتقسم من قبيلته ، وهو أيضاً قد عبر عن قبيته ووجدانها .

ونستطيع أن نقول إن نوعين من الصديق يتصلان فيما سوف نتحدث عنه فيما بعد مما يتصل بالواقعية ، وهما : الصديق القني والصديق الواقعي . .

والشاعر حيناً يقول الشعر فإن الملحنين يلزماته : الرقبة في التنفيس عن عاطفته نحو ما رآه وتكرهه ، ثم رغبته في وضع هذا التنفيس في صورة تشير في كل من يتلقاها نظير عاطفته . ويتمتع الشاعر بميزتين لا يتمتع بها الفرد العادي في القبيلة ، فهو مرهف الحس ، ولديه قدرة انفعالية أقوى وأعمق ، ثم لديه القدرة على نقل عاطفته في نوع من الأداء ليثير فيها نظيرها .

والشاعر حيناً ينقل إلينا واقعاً من الواقع الكبير الذي يعيشه ويعيشه قبيله ، فإنما ينقله وينقل معه عاطفته التي ثارت فيها ذلك الواقع .

وهنا نشور أمامنا مشكلة الصدق بشفة الفني والواقعي ، ونجد أنفسنا أمام آراء متضاربة في هذا الصدد ، سنحاول أن تعرض لها باختصار .

يقول قدامة^(١) هو الخلو عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً ، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال : أعذب الشعر أكذبه ، وكذا يرى فلاسفة اليونان في الشعر .

ويقول في موضع آخر^(٢) : إن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً ثم يذمه بعد ذلك ذمّاً حسناً بينا غير منكر عليه ولا معيب من فعله إذا أحسن الذم والمخج بل ذلك عندي يدل على قوة الشاعر في صناعته والتقدير عليها .

وواضح من هذين التصريح أن قدامة وغيره من النقاد العرب القدماء كانوا يهتمون بشرف المعنى والأصالة في الوصف ، فدعوا إلى احتجاز غير الصفات بحيث يصور المدح أو المجهول ، أو يصف الموصوف على غير ما يؤلف من الصفات ، دون مبالاة بما يتطلبه صدق الموقف ، أو مراعاة الواقع .

وانطلاقاً من هذا المفهوم عندهم حكموا من عمر أنه أتى على زهير بن أبي سلمى ، لا مدحه هرم بن سنان بما كان فيه من صفات ، بل لأنه مدحه بما كان يجب أن يكون في الرجال^(٣) .

فالغرض لو أنك لم يبالغوا الشاعر عندهم بالصدق الواقعي ووصف واقعته كما يراها الشاعر لو كنا يشعر بها ، وكان رأي أكثرهم ألا ينقذ الشاعر بالصدق أو الكذب ، بل أن يهتم بالصياغة فهي مفاتيح براعته .

(١) نقد الشعر - قدامة بن جعفر ٣٤ ، ٣٦ .

(٢) نقد الشعر - قدامة بن جعفر ١٤ ، ١٦ . (٣) زهر الأداب - للحصري ١ / ١٠١ .

وإطلاقاً من مفهومهم هذا فإنهم لم ينكروا المبالغة ، بل رأى فيها أغلبهم غير مذنب ،
لها يرد جملة مثلاً لكي تبت الصفة ويحد بها كما أنهم لم ينكروا الغلو ، فللهم عندهم
الصياغة ، ولا ضير على الشاعر فيها يسوق من معان.

وإذا انتقلنا إلى النقد المحدثين ، فإننا نجد الأستاذ العقاد يرى أن الصديق يتمثل في تعبير
الشاعر عن عاطفته بقاء من حرارتها لا بوقود من خلوها^(١) . وأن الصديق القضي عنده هو
صديق الشعور الذي يعبر عنه وصدور تلك الشعور منه عن مزاج أصيل لا تكلف فيه ولا
اختلاف^(٢) . ويميز الأستاذ العقاد بين الصديق في التجربة ومطابقة الواقع ، فيرى أن الصديق في
التجربة هو النفاذ إلى روح الموضوع والإحاطة بأصوله ومقوماته ، بخلاف مطابقة الواقع فهي
جمع معلومات خارجية حول الموضوع لا لمس روحه ولا تدخل منه في مقوماته^(٣) .

فالعقاد يطالب الشاعر بالصديق القضي من غير أن يكلفه صحة الواقعة وصحة الصناعة
أيضاً . ويقول « يجب ألا يتخلف الشاعر ظاهراً الحقيقة إلا ليكون كلامه أوثق لباطنها^(٤) » وأية
الصديق عنده أن تكون نماذج شعر الشاعر تترجم لكل خالقة من خوالج نفسه الشاعرة وأثر تلك
الحياة الباطنة والظاهرة .

ويرى في المبالغة ألا تعارض بينها وبين تضمين الشعر الصحيح لها ، وهو يتعمق على
الشعراء فهمهم لاجتناب المبالغة بأنه هو التزام الصحة والنظم في العلم والتحقيق ، لا في الخيال
والأوهام . فالمبالغة ليست عيباً في الشعر ما دام الشاعر ملتزماً بالحقيقة الفنية^(٥) .

والدكتور النوبي يرى في الصديق الذي يتطلبه في الأدب أن يصدق الأديب في التعبير عن
عاطفته التي أحس بها فعلاً ، وإعلان عقيدته ، وليس معناه أن يكون نقلاً حرفياً للواقع الخارجي
بشكل حذوهم . ووظيفة الأديب عنده أن يصور عاطفة الإنسان نحو واقع ما ، ونظرة الخاصة
الشخصية إليه ، وموقفه منه ، ورده عليه . ويعني أسر فإن الصديق الذي يعنيه هو إخلاص
الأديب لمعاقته وتحرره الإنفعالية فهو مطابقة الكلام لعقيدة المتكلم^(٦) .

(١) مطالعات في الكتب - العقاد ٢٨٦ .

(٢) شاعر الغزل - العقاد ٨٦ .

(٣) سماعات بين الكتب - العقاد ٤٦ .

(٤) القصود - العقاد ٢٩٠ .

(٥) سماعات بين الكتب - العقاد ١٢٢ .

(٦) وظيفة الأديب محمد النوبي ٤٩ - ٥٠ .

والفنان - في رأي النوبي - لا يحاول تصوير الواقع كما هو ، بل كما يراه ويعتقده ، ولا يصف جزئيات الطبيعة في تمام حقيقتها بل بمزوجة بعاطفته ومن خلال مزاجه الخاص . ولكنه ليس معنى هذا أن تطلق حرية في التصور إلى حد الانقصاص التام عن الحقيقة المادية ، وإلا صار ضرباً من تصورات المس^(١) .

وعندما يتحدث عن الصنعة ، يرى أن الأدب يقوم عليها ، وهي ركن أساسي فيه ، لأنه - أي الشاعر - لا يستطيع بدونها أن يخلق نقل العاطفة إلى الآخرين ، والصنعة لا تتعارض مع الصدق ، وإنما تتألف معه حين يبالغ فيها حتى يصير هي الهدف ، وينسى أنها لم تأت إلا لتمكنه من إبراز عاطفة صادقة إبرازاً يثير نظيرها في نفس السامع أو القارئ^(٢) .

ويضع شروطاً أربعة لكي نصف أدباً بالصدق :

الأول : أن تكون عاطفته التي يدعيها قد لبت به حقاً ، وأن تكون عقيقته التي بينها هي عقيقته الحق في الموضوع الذي يتلوه .

الثاني : أن تكون حدة تصويره ناشئة من حدة شعوره وقوة حساسيته ، لا عن رغبة في المبالغة والتحويل .

الثالث : ألا يخالف تصويره التواميس البدائية لتكون كما نعرفه ، ولا حقيقة السلوك الإنساني لها بخبره من البشر في تجاربهم ومواقفهم .

الرابع : أن يكون من شأن الصنعة فيه أن تزيد عاطفته جلاءً وقرباً ، لا أن تقف أمامها حجاباً يشغلنا بشأنه عن النظر فيها .

ويرى أن التقدير النهائي مرته إلى اللوق الفني الذي ينمو وينضج بإيمان القراء والتأمل والتفكير^(٣) .

وخلاصة رأيه عرضته في مقدمة كتابه فقال أنه يحاول أن يجد قصد السبيل ، بما يكفل للأدب غياله الخالق ، ويقيه في نفس الوقت متصلاً بجذور الحقيقة المعاشية التي يحياها الإنسان . وبذلك يكون الأدب قد احتفظ بحريته الفنية والتزم برسالة الإنسانية دون ما تعاليم دين الجائعين .

(٢) نفس المرجع السابق ٧٣ .

(١) نفس المرجع السابق ٦٠ .

(٣) وظيفة الأدب - محمد النوبي ٧٨ .

وإذا ما انتقلنا إلى ناقد آخر هو الدكتور محمد غنيمي هلال نرى أنه يرى أن الصدق الفني أو الاصالة هو الأساس في تقدم الفنون جميعاً ، وأن الفصل بين العمل الفني والصدق بتوجيه الفني والواقعي فيه مأسى عظيم بأسس الفن الجوهري ، إذ لا يستطيع فنان أداء رسالته إلا بالتزام الصدق الواقعي على حسب ما يراه هو أو يفكر فيه كما يعتقد ، أو ما يشعر به ، ثم بالتزام الصدق الفني والتعبير عن حقيقة أصيلة يرجع في تصويرها إلى ذات نفسه ، لا إلى ما حفظ من عبارات وسرق من جمل . وهو يرى أن هذا الصدق من الفنان قد يتطلب من الفنان أن يصحر في فنه وأعباء من عقائد سائدة ، أو مزاعم أخلاقية واجتماعية قائمة^(١) .

لما لبالغة يرى فيها أنه ليس من الصواب قبولها على وجه الإطلاق ، ولا رفضها كذلك ، ولا تعميم القبول بقبولها في حال الاعتدال والتوسط كما قالوه بل الصواب قبول هذه الوجوه وسواها على أساس الصدق ، فإذا لم تزيّف الحقائق ، ولم تصور غير الواقع ، ولم توهم الخيال ، كانت مقبولة ، بل قد تكون دعامة الصدق الفني لتصوير المعنى ، وإثارة الفكر والخيال ، وتوصيل أعمق الحقائق إلى العقل والقلب^(٢) .

وبخلاصة ما يراه أن ما قاله القدماء ، واستندوه إلى أرسطو من أن « أحسن الشعر أكذب » لا أساس له من الصحة ، فالصدق الفني والواقعي دعامة الخلق ، وبدونه لا يوجد فن يعتد به ، وهذا - كما يقول - رأي الفلاسفة جميعها ، في كل عصر وزمان^(٣) .

وهكذا يتفق كل من الحفلة والتوبيخ وغنيمي هلال على أن البالغة ليست محظورة في الشعر ، ولكن وظيفتها أن تكون دعامة للصدق الفني لتصوير المعنى وإثارة الفكر ، ولكن وظيفتها أن تكون دعامة للصدق الفني لتصوير المعنى وإثارة الفكر والخيال لا لتزييف الحقائق وتصوير الواقع تصويراً خاطئاً . وهذا الرأي قال به قديماً الجرجاني^(٤) حيث قال بأن الاستعانة بالبالغة لا تنس بحال قضية الصدق في الأدب والقرن إذا كان الكاتب يقصد بإيرادها تأكيد المعنى .

وقبل أن نختم حديثنا عن الصدق نود أن نشير باختصار إلى رأي آخر هو الدكتور مصطفى تاسف ، وهو يرى أن الصدق قد رافق الجودة وصاراً معاً في كل مكان ، وأن العناية

(١) في النقد الأدبي - محمد غنيمي هلال ٢٢٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ٢٣٦ .

(٣) نفس المرجع السابق ٢٣٠ .

(٤) أسرار البالغة - عبد القاهر الجرجاني ٢٢٨ - ٢٢٩ .

البالغة بالصدق صرفتنا عن تحليلي الشعر ذاته ، وهو يرى أن العمل الأدبي ليس ترجمة للعاطفة وإنما هو توليد لها ، وما يعمل القول في الصدق والكذب مجرد تعبير عاطفي لا غير فيه تعقيد البواعث الإنسانية واختلاطها ، وما يغطي عن كثير من شؤون النص ذاته السؤال عن صدق الشاعر في حدوده البسيطة^(١) .

وبعد ، لقد فصلنا القول في الصدق بشقيه الفني والواقعي ، وعرضنا لمختلف ما ذهب إليه النقاد ، حتى يكون ما سنعرضه تطبيقاً عملياً لذلك .

للاواقعية مدلولها اللغوي تعني تصوير الواقع والتعبير عنه ، وهي قديمة قدم الأدب والفن ، وموجودة قبل أن يكون لها أنصار وخصوم . وكانت أدب العصور الزمانية والمكانية التي نبع منها وغير عنها بصدق .

والواقعية الماددة تتحقق بكل تعبير فني عن الواقع الاجتماعي يستهدف تثبيت ما فيه من قيم أصيلة صالحة وتعميق ما انحطت فيه أو تصبو إليه الجماعة أو الإنسانية من قيم مشوهة ، وتغيير ما في المجتمع من قيم فاسدة وأوضاع سيئة ومفاهيم مضللة .

وقد قال معظم الباحثين بواقعية أدبنا العربي في العصر الجاهلي قبل أن توجد الواقعية كمنهج بمئات السنين ، كما كان الشعر بعيداً عن التكلف والإغراق في الخيال ، وكان الشاعر يحاول نقل الأحاسيس والأشياء نقلاً أميناً^(٢) .

وسنحاول في محاولة أن ندلل على ما أجمع عليه الباحثون من واقع الأيام الذي هو موضوع دراستنا هذه . فقد حاول أولئك الشعراء نقل طبيعة حياتهم اليها كما كانت دون محاولة لتزيين قبحها أو تغيير واقعها . يقول دريد بن الصمة مصوراً حياة القليلة الدميمة ، ويعترف بأن قومه ليسوا محرمين على القتل بل هم اللحم السيف:

فإِذَا تَرَّيْنَا لَا تَزَالُ ذُمَاؤُنَا	لَدَيْ وَائِرٍ يَسْتَفِي بِهَا آخِرَ الدَّهْرِ
فإِذَا لِللَّحْمِ السِّيفُ غَيْرَ كَبِيرَةٍ	وَتَلَجُّنَا حِيناً وَلَيْسَ بَدِي نُكْمَرُ
يُنَاوِرُ عَلَيْنَا وَائِرِينَ فَيُشْتَفَى	بِنَا إِنْ أَحْيَيْنَا أَوْ نَعْمِرُ عَلَى وَائِرٍ

(١) دراسة الأدب العربي - مصطفى ناصف ٣١٢ - ٣٢٢ .

(٢) أنظر العصر الجاهلي - شوقي خليف ٢١٩ ، تاريخ الشعر العربي - نجيب البهيشي ٦٠ وما بعدها ، الواقعية في الأدب - عباس خضر ٦ .

فسمنا بذلك الدهر شطرين بيتا فما ينقضي إلا ونحن على شطْر^(١)

ولم يكن الشاعر ليحاول إغناء ضعف الوحي في قومه ، حتى ولو كان يصور في قومه قصة الانتصار ، ففي يوم ذي قار يخشى الأعداء بذلك النصر ، ومع ذلك لا ينكر حالة الدهر والخوف التي أثابت النسوة وهن خلف الجيش يشهدن تدفق جيوش القرس :

وظلعتنا خلفنا فنجري مدامعها أكبادها وجلأ ما نجف
يمسرن عن أوجه قد عابست عبراً ولاحها حبرة الزاها كشف^(٢)

ويرثي امرؤ القيس أعله الذين قتلهم بنو أسد ، ويصور ما أصابهم تصويراً لا تزيين فيه ولا مبالغة ، ولم يحاول أن يخفي النهاية غير الملائمة بهم كمثلك :

فلم تفعل جاجهم بفعل ولكن بالدماء مرملينا
نظل الطير عاكفة عليهم ونترزع الحواجب والعيونا^(٣)

ولم يغفل شاعر الأيام نفسه ، والتعبير عن واقعه ، وقد نقله إلينا غزلاً أميناً ، فلم يحاول إغناء ما يفتل من قدره . فعامر بن الطفيل يعترف يوم فيف الريح بضرارة المعركة ويأن النداء قد بكت نحره . وصدر حصاته :

وما رمت حتى بل نحرى وصدره نجيع كهذاب الدمقس المسير^(٤)

ويعترف قبل ذلك بشركة المعركة ، ويأن لم يرحها حتى بل نحره وصدر حصاته الدم الغزير .

ويقول عامر نفسه يوم فيف الريح حديثاً قومه ومعترفاً بالرمح التي تتأوش :

ألمست ترى أرماحهم في شرعاً وأنت حصان ماجد الصرق قاصبر^(٥)

وهذا عبد الله بن جندب الطعان يصور حال قومه بعد مقتل ربيعة بن مكرم فارسهم ، ويعترف بكاء نسوة قومه ولكن نسوة الأعداء قد بكت قبلهن على قتلائهن :

فإن تك نسوانسي بكين ففسد بكت كها قد بكت أم لكرز ومالك^(٦)

ويعترف عترة بن زينة أمام بني سليم لأنه كان حاسراً ويتوعدهم لو كان عليه درعه ،

(١) حاشية أبي تمام ٢ / ٨٢٥ (٢) الأغلبي / ثلاثة ٢٣ / ٢٤٠ .

(٣) دبران امرؤ القيس ٢٠٠ . (٤) للفضلية ١٠٦ .

(٥) للفضلية ٦١ ، التبريز ص ٦١ . (٦) الممد الفريد ٥ / ١٧٥ .

ويعترف لهم بالنصر ويحفظهم في الأهل :

دخلوا ما أسارت منها قداحي ورفد الضيف والانس الجميع
فلو لا قبضي وعلى درعي علمت علاماً تحتمل الدروع^{١١}

ولعل من أبرز للظلم التي تتجلى فيها الواقعة في شعر الأياد اعتراف الشاعر القمارس
بشجاعة خصمه، فمهلهل الذي يملأ قلبه حقداً على بكر يعترف مع كل هذا الحقد بشجاعتهم
في يوم حنيزة :

كنا ملدوة ونسي أيننا بجوف حنيزة رَحياً مُدير^{١٢}

وفريد بن الصمة يتحدث عن ربيعة بن مكرم وهو فارس من أعدائه وقد قتل من فرسان
تريد ثلاثة ومع ذلك فهو يقول عنه :

وترى الدوارس من غفلة رعيه مثل البغاث حشون وقع الأجل
يا ليت شعري من أبوه وأمه يا صاح من يك مثله لا يجهل^{١٣}

وإذا قتل خصمه فلا يفتنى أن يعترف صراحة بتدمه على قتله ندماً شديداً ، يقول القتال
الكلابي :

ولما رأيت أنسي قد قتلته ندمت عليه أي ساعة مندم^{١٤}

ويعترف الشاعر بتفريط الأعداء قومه ، يقول الفراء بن قيس الكتلي في يوم الكلاب
الثاني :

فَكُنَّا لِمُ يَوْمًا جَدِيدًا قتلَ عامٍ وذلك يوم الكلاب
يوم جتنا يسوقنا الحزن سوقاً نحو قوم كأنهم أسد غاب^{١٥}

ولم يكن الشعراء ليخفوا عيوب قلائهم إذا لم يكشفها أولئك القادة الفرسان أنفسهم ،
ولو أن في إظهار تلك العيوب خطأ من شأنهم وشأن قبيلتهم ، في يوم السلوق العتيل وجوآب
العامريان ، فنصدت سلمى بنت الحلق العامرية تعبرها بذلك :

(١) ديوان حنيزة ١٠٥ .

(٢) الأغاني ١٣٠ / ٢ ، الأصمعيه رقم ٥٣ .

(٣) الأغاني / كـ ٦٦ / ١٦ .

(٤) الحماسة البصرية ١٠٥ / ١ ، الأغاني ١٥٩ / ٢٠ .

(٥) الأغاني / كـ ٣٣٩ / ١٦ .

لم يمتنعوا القوم إذ شلّو سؤالكم ولا النساء وكان القوم أحزاباً^(١)

ويعتد العوام الشيعاني قومه بني شيان بالنعام لجبنهم وهرهم يوم القتل.

كنتم أسوداً في الوغى فوجدتم يوم الأفاقة بالغبيط نعلماً^(٢)

وعندما يقف الشاعر مدافعاً عن قبيله فإنه ، حل الرغم مما عرف عن ولائه لها ، لا يتأخر في تبصيرها بما هي مقدمة عليه وتذكيرها بقوة الخصم أو للصير الذي ينتظروهم . فالنابغة هي لومه عن الاقتراب من الراعي التي حاربا الفساسة وحلدهم ، ولم يقف ما ينتظروهم لو فعلوا ذلك فقال :^(٣)

لقد هيئت بني ذبيان عن أثر وعن نريمهم في كل أصفار
وتلت يا قوم إن الليث منقيض على برائته لمدوة الضاري^(٤)

ويستمر فيصور حال نساء قومه في حالة غزو ملك الفساسة بجيشه وأسرهم :

لا أعرفن ورباً حوراً مدامعها كأنهن نجاج حول دوار^(٥)
يتظنون شزراً إلى مرّ عن حرصير بأوجه منكرات الشرق لحرار^(٦)
خلف المضاريط من عوذني ومن غمم مردفات على أحناء أكلوار^(٧)
يلهين دمع مزاد دمعها درر يأملن رحلة حصن وابن سيار

ويصور لقطعة بن زلولة الشيعي ما فعل عمرو بن هند بقومه يوم لوزة الثاني فيقول^(٨)

بين مراتكم عامداً ويقتلكم مثل قتل الكلاب
فلو كنتم أبلاً أسلحت لقد نزعست للمياه العذاب^(٩)
ولكنكم غمم تصطفى ويترك سائرهما للذئاب

(١) التفتيش ١٤٢/١ .

(٢) التفتيش ٥٨٦/٢ .

(٣) ديوان النابغة ٨٠ - ٨٢ .

(٤) منقيض : جميع مستعد متهيء للوثوب .

(٥) ويرب : قطع من البحر ، النجاج : إناث بقر الوحش . دوار : نسك يدور حوله .

(٦) حرص : إشتراش .

(٧) المضاريط : الباع ، أكلوار : رحل ، عوذني وهم : من غم

(٨) الأغاني / ثلاثة ١٩٣/٢٢ - ١٩٤ . (٩) أسلحت : أسرعت .

ولكن الشاعر حياً يفتخر بقيته وبأجسادها فإنه ينقل الصورة التي يمتثلها هو لقبته :
 عزيزة متبعة ، لا يظاً جامعا أحد ، وتستريح حى غيرها ، فرسها ليوث ونهى . ولكنها ليست
 مبالغة مرفوضة فهي تصور حرص القبيلة على كل ما يرفع من قدرها ، ولا تسمح بما يقلل من
 قيمتها ، ويثقل دعاء نبيها في سبيل ذلك . فالشاعر هنا يسمد إلى المبالغة لثبوت واقع محاول القبيلة
 المحافظة عليه ، ويستلهم مبالغته من واقع الحياة الاجتماعية . هذا شريح بن الحارث اليربوعي
 يتحدث عن قومه مقتضراً بيوم طحفة :

حاناً حى الأسد التي لشبوها تجر من الأقربان لها على لحم
 علا جدهم جد الملوك فأطلقوا بطحفة أبناء الملوك على الحكم^(١)
 ويختر حريد بن الصعة فرسان قومه الشيب منهم والشباب ، الفرسان منهم والراجلة ،
 فيقول :

دموت الحى نصراً فاستهلوا بشبان ذوي كرم وشيب
 على جرد كأشبال السعالي ورجل مثل أهمية الكتيب
 لعددهم كما ترى كثير جداً ، وكذلك فإن القتل الذين يتركوبهم من الأعداء كثيرون :
 فكهم غادرون من كاب صريع نصح نجيع جافضة ذئوب^(٢)
 وفرسان القوم ، عند قتالة بن مسلعة الخنفي ، وعليهم الحديد الصفول كأنهم النجوم ،
 وهم أسود في الوعى :

ومعى أسود من حنيفة في الوعى للبيض فوق رؤوسهم نسويم
 قوم إذا لبسوا الحديد كأنهم في البيض والحلق الدلاص نجوم^(٣)

وانتصرت علم في يوم فيف الرياح على قبائل اليمن ، وصور لنا علم بن الطفيل ما فعله
 هو وفرسان علم بنساء القوم ، فقد بقروا بطون الحباقي ، ولم يحاول الشاعر إغفاء تلك الصورة
 القبيحة من المثلة بالنسوة ، كما يعترف في القصيدة نفسها بأن حبالى نجران كانت تبيل دماً من
 خوفهن من فرسان علم ، ولا يخفى ما في هذين المشهدين من قبح ، ولكن واقعية الشاعر للسرفة
 وحرصه على رصد الواقع لو ما يتخيله وألماً أجبره على ذلك .

(١) النفاذ ٦٩/١ .

(٢) الأغانى / كتب ٢٧/١٠ .

(٣) حسانه أبي تمام ٧٧٠ / ٢ .

يقرنا الحيالي من شدة بعدما خبطن بفيف الريح نهداً وعثما
ونحن صبحنا حي نجران غارة ثيل حبالها غافتنا دما^(١)

ويتصدى شاعر الأيام لجاء كل من يملوك النيل من قيه ، وأهم ما يتميز به هجلاهم أن الشاعر كان حريصاً على كل ما يحطم معنويات المهجو ، فغارة هجو الخصم معبراً إياه بالسب وبعال السبا كما فعل امرؤ القيس حين قال :

إننا تركنا منكم قتل وجرح حسي ومسيا كالسعال
يمشون حول رحالنا معترقات بجوع وهزال^(٢)

وغارة يرى أن يستثير المهجو بتصوير حال نسائه ونساء قومه مع الأعداء ، فقد هجا النابتة الذيباني عباً لجاورهم بني شكل فقال^(٣) :

إذا شاء منهم ناشيء دريخت له لطيفة طلى الكشح رائية الكفل^(٤)
وأصبحتم والله يفعل ذاكم ... النساء الرضعات بنو شكل

ويستعمل الكثير من شعراء الأيام ، للتلذذ من غصوم قياتهم ، الألفاظ السهجة والجلوحة ، والتي يقدش بعضها الحياء وهو إنما يفعل ذلك ليحطهم معنوياته ، ولتذكيره البالغ من ذلك الخصم . ففي يوم الميادة قتل حليفة بن بدر وكان قبلها قد قتل القلعة من حمير ، وشفى قتله صدر العيسيين على الرغم من اعتراضهم بأن غطفان خسرت لأعداء من قوادها ، وعبروا عن ذلك بالذبح للجاء ، يقول الربيع بن معناب :

خلق المخالزي خير أن يذى حسا لبني لوزة غزية لا تخلق
تيان ذلك أن في است أبيهم شتعا في صحف المخالزي تبرق^(٥)

ولا نستطيع هنا في عرض هذه البلاغ ، ولكننا نشير إلى بعض الأمثلة لمن شاء الرجوع إليها ، فمن الهجاء المقلع قول قيس بن عاصم^(٦) ، ورجل من ذبيان^(٧) ، وشر بن أبي خازم^(٨) ، وعقيل بن خلف المري^(٩) ، والعباس بن مرداس السلمي^(١٠) .

(١) ديوان حاتم بن الطويل ١١٨ .

(٢) ديوان امرؤ القيس ٢١٠ .

(٣) ديوان النابتة ٢١٤ .

(٤) دريخت : قامت حل أربعة ليحل ما يريد بها .

(٥) الممد القريد ٩٦ .

(٦) الشافعي ٢٤٢/١ .

(٧) الفضلية رقم ٤٦ .

(٨) الممد القريد ١٥٧/٥ .

(٩) الأغلبي / كتب ٣٤٦/١٥ .

وحين ارتقى الشاعر الجاهلي وسمت نفسه في تكفيرها ، وأراد تبخيس الناس بالحرب ، لجأ إلى نقل صورة واقعية حية مستمدة من واقعهم ليظل صورة لها ولائها ويوصل إلى غايته . فعل ذلك زهير بن أبي سلمى حين قال عنها وعن أثرها :

فتعرككم عرك الرحى بظالمها وتلفح كشافاً ثم تنسج فتشم
فتسج لكم غلمان أثنام كلهم كأحر عاد ثم ترضع فتظلم
فتغلي لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قضير ودرهم^(١)

ويقل لنا امرؤ القيس لو عمرو بن معد يكرب صورة من الواقع للحرب ونطو . نشوبها :
الحرب أول ما تكون فتية تسمى بزيبتها لكل جهول
حتى إذا استعرت وشب أهرامها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتكرت مكروهة للشم والتقييل^(٢)

وفي الرثاء ، حيث يخرج القوم لقتل فارس من فرسانهم ، ولكنهم يحاولون إخفاء ذلك ليفتنخرون ويذكرون بطولات القتلى ، ويتوعدون ، ومع كل ذلك فإن بعض الشعراء لا يتورع على إخفاء مشاعره الخفية ، هذا الربيع بن زياد الحسبي يبلغه مقتل مالك بن زهير فيقول مصوراً أثر ذلك على نفسه وعلى القبيلة .

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نوتنا بنصف نهار
يمد النساء حواسراً بدهنه يكن قبل تبأج الأحبار
قد كن يخيان الوجوه تستراً فاليوم حين بدون للظفار
يتمشحن حرات الوجوه على امرئ سهل الخليفة طيب الأحيار^(٣)

والأمثلة على أن الشعر الذي قيل في الأهم واقعي في غايته كثيرة ، ولكننا اكتفينا ببعض الشواهد ، ولو شئنا استيفاء كل مظاهرها لما استغفنا البحث وحلوه .

(١) شرح القصائد السبع الطوال ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) ديوان امرئ القيس ٢٥٣ ، الحماسة البصرية ١٨/١ ينسبها إلى عمرو .

(٣) أمثال القيس ٣٠ .

القصصية

عرفنا أن شعراء الأيام كانوا ، في غالبهم ، من الفرسان المقاتلين ، وأن هؤلاء الفرسان قُرموا يقتون الحرب . ولقد كسبهم هذا التمرس وطول مشاهدتهم للمعارك دقة في وصف المعارك وفي حسن التصوير . ولقد كانت المعارك في حياتهم مناط عزيم ومطار فخرهم ، يرددونها ، ويرون كل شيء في سبيل الانتصار ونهباً حتى أرواحهم ولقد استعدوا الموت في سبيل الكرامة والعزة والشهامة ، ودفعوا أرواحهم نساءً لعزة قبائلهم واستقلالها الذاتي .

وكان شعراؤهم يصفون لنا تلك المعارك التي كانوا يخوضونها وصفاً دقيقاً يمتلئ حيوية ، ويسم بالواقعية ، فهو صوت شاعر عاش أحداث تلك الحرب وخاض غمراتها . وكان وصفهم لتلك المعارك مرتبطاً بهدفون :

الأول : قبل ، يهدفون من وراءه رفع أسم القبيلة عالياً بين القبائل ، حتى يباهي الجميع ، ويعلنوا بأسها ، وليفكروا كثيراً قبل أن يقدموا على غزوها .

والثاني : فردي متصل بالقبيلة ، يلجأ فيه الشاعر إلى الفخر بشجاعته وبيادته في تلك الحروب ، ومزجاً بالفخر القبلي أحياناً ، لومستظلاً ، وهو إنما يفعل ذلك تعبيراً عن ذاته التي لا يستطيع الغاءها ، وتصويراً لبطولة فرسان القبيلة مثلاً في بطولته .

والشاعر عندما يصف تلك المعارك ، ويصور تلك الأحداث ، فإنه يضع الهدفين السالفين نصب عينيه ، فهو يقص علينا المعركة في صور غطتة سمرقش قد بعد قليل ، طيفاً لما يراه أكثر تأثيراً في مجتمعه .

والحروب حركة وكثر زفر ، وضرب وسقوط فرسان ، وسرى سيوف ، وغبار يحجب الأبصار ، كل مشاهدتها حركة ، ولا بد أن يدخل هذا في أعيان الشاعر عندما يشرع في وصف المعارك ، وأن يختار من اللفاظ والأوزان ما يساعده في تجسيم الصورة بحيث تبدو وكأنها تفيض حركة وحيوية وتثير في نفوس السامعين ، ليحقق الغرض الذي يهدف إليه . ولعل ما نرمي إليه ، توضحه هذه الصورة السريعة في تنابع أحداثها والتي لم تزد على ليات ثلاثة ، وفيها يصور فيها عمرو بن كلثوم يوم عزاز فيقول :

ونحن خداة أوقد في عزاز ولقدنا فوق رفد الرافدين
فكننا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا

فَأَبَوْا بِالنَّهَابِ وَبِالسِّيَاةِ وَأُنْشِأَ بِالْمُلُوكِ مَصْفِدَيْنَا^(١)

فالشاعر انتزع بضعة مشاهد من اليوم ، إلقاء النار فوق خزلز ، ثم الإطباق على الأعداء ولم تكن إلا صورة واحدة لتصوير سرعة القضاء عليهم والفتك بهم ، ثم انفض إلى النتيجة الحاسمة وهي النصر الذي حرم عنه بالنتيجة وهي نهب وسمي وملوك مصفدون بالقبود كأسرى . فالشاعر اختار من أحداث ذلك اليوم ما هو كفيلاً برفع اسم ومكانة قومه في ذلك المجمع الذي قدس القوة وجدها .

وحينما عرض عتاش بن زهير ليوم العيلاء ، عرضه في لوجز صورة ، ولكننا عطفنا لمقدمه وهدف القبيلة فهو يقول :^(٢)

أَلَمْ يَلْغُلْكَ بِالْعِيْلَاءِ أَنَا ضَرْبْنَا خَتَفًا حَتَّى اسْتَفَادُوا^(٣)
ثُبْنِي بِالْمَنَازِلِ عَزَّ قَيْسٌ وَوَدُّوا لَوْ تَسِيخَ بِنَا الْبِلَادُ^(٤)

فقد حقق بملين البيتين الإعلان عن اليوم وهو يوم العيلاء ، يوم من أيام الفجار الآخر ، كما حدد النتيجة في تلك الرقعة وهي هزيمة ختف وخصوعها لقومه هوازن ، وألمح في البيت الثاني إلى أن قومه إذا يمتنون عز قيس ذلك الفرع الكبير الذي ينتمي إليه قومه .

وقد أجاد عترة العبي ، ذلك الفارس الذي ذاع صيته في تصوير مقاطع تفيض حيوية وحركة من تلك المعارك التي حاضها ، يقول في إحدى قصائده مصوراً اللقاء والافتتال :^(٥)
فَجَاءُوا عَارِضًا بَرْدًا وَجَنَّا حَرِيقًا فِي غَرِيفٍ ذِي ضَرَامٍ^(٦)
وَأَسَكَّتْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ ضَرْبٍ وَعَتَرَمَتْ وَمَرَمَيْ وَرَامِي^(٧)
وَزَعَتْ وَعِيلَهَا بِالرَّمْحِ شُدْرًا حَلَّ رَبَذَ كَسْرَحَانِ الْفَلَامِ^(٨)

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٥٢٢ ، المعقد المفرد ٥/ ٢٤٦ ، شرح الفصائل السبع الطوال ٤٠٩ .

(٢) الأغانى / مثناة ٢٢ / ٧٢ .

(٣) ختف : أحد قبضي مضر بن نزار .

(٤) قيس : قيس بن عيلان وهو القبيلة التي من مضر ، تسيخ : تحفف ، استفادوا : ذلوا واضعوا .

(٥) المبرور ١٥٨ - ١٥٩ .

(٦) الغرير : الشجر الكثيف .

(٧) العرمة : العف والشدة .

(٨) وزعت : كفتت ، الزيد : الخفيف القوائم في مشي .

ولن نحتاج إلى إيضاح اثنين كيف يتخلل عشرة بنا من زاوية إلى أخرى من زوايا صورة المعركة إلى أن يثبت أنهما لو عينا على صورة رحيل الغرم ، أي سيدهم وهو يطعن برمح عشرة .

وقد ربط أستاذنا الدكتور شوقي ضيف بين تلك الحركة التي تميز بها شعر المعارك ، وبين القصصية ، وبين ميل الشعراء إلى السرعة والابتجاز فقال إن تلك الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية ، ولكن هذه الروح لم تنسج عندهم لأن حركتهم وميلهم إلى السرعة والابتجاز أضعفت تلك الروح القصصية ولم تنسج عندهم . وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من غروب الشعر القصصي^(١) .

وقد ذهب نفس ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف ، الدكتور زكي المحاسني حيث يقول : « ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفاً مطولاً يأخذ بالكلام من لوائله حتى ينتهي إلى أواخره كما تدعو الحوادث . فليس لديهم لقائد تمسك بأوالها حتى تبلغ نهايتها فترك صورته معركة منذ بداية الوقعة إلى ختامها ، وإنما هي فترات شعر في لمحات وصف مقتضبة مجتزئة يبين فيها الروح العربي الياني الذي التطوى منذ كان على الاختصار في مرء الصور ، أو الزهد في القصي^(٢) .

ونحن لا نذكر أن الميان العربي يتسم بسمة كبرى واضحة هي الابتجاز ، ولكننا نتخذ أن شاعر الأيام كان مدركاً طبيعة مهمته القبلية ، متفهماً لمسؤوليته الإعلامية - إن صح التعبير - التي لو كانت إليه قبلته . ولئن كانت صورة تلك الحروب وطبيعتها ، على الرغم من الدراسات التي قامت حولها لا زالت غامضة . فإن الواضح في أذهاننا أن طبيعة العصر ، وعدم انتشار وسائل الكتابة ، واعتماد الشعر على الرواة في تناقله ونشره بين الناس . كل هذه العوامل أثرت على الشاعر ، وهو المدرك لهذه المؤثرات قبل أي مخلوق آخر ، فجعلت هذا الشاعر يعطي الصورة بلدر ما تقدم مصلحة القبيلة ، وبمحيط يتاح لها الانتشار . ولكن هذا الشاعر لم يكن ليتبرد في الاسهاب والإطالة أن رأى في ذلك مصلحة القبيلة ، أو رأى أن الأطالة تعطي صورة أوضح .

وأبسط مثال لما نقول أن خدائش بن زهير وصف أياماً من أيام القبحار وهي شمسطة ، والحريرة ، ونخلة ، والعبادة ، وبمكاف . وسلك في تصويره ثلاثاً من هذه الأيام الخمسة أسلوباً مختلفاً ، كما أن الأبيات التي شغلها هذا الوصف تتراوح بين الطول والقصر من حيث العدد ، وبلغت عدة أقلها بيتين ، وأكثرها اثني عشر بيتاً من الشعر .

(١) العصر الجاهلي شوقي ضيف ٢٢٥ .

(٢) شعر الحروب في أدب العرب - زكي المحاسني ٣٤ .

وإذا كنا نأخذ بعين الاعتبار ضياع وسقوط قسم من الشعر أثناء تلك الرحلة الشعرية ، فإننا نجعل إلى الاعتقاد بأنه لو وصلنا شعر الأيام كعلاً لتغيرت الصورة التي تمثلها عن تصوير الشاعر لتلك الأحداث ، وأملنا بعض المعلقات والمطولات في المنطقيات وفي دواوين بعض الشعراء ، التي أسهب الشعراء في وصف تلك المعارك وأجلوا . ولكننا مع ذلك نعترف بأن الصورة التي عرضها لولئك ما زالت موجزة إذا ما قارناها بتلك الملاحم في الأدب الأخرى .

وقبل أن نضع هذا الشعر في مكانته الحقيقية من ألوان الشعر ، وقبل أن ننفي عنه أو نؤكد القصصية وبين مدى بروزها فيه ، نود أن نعرض لأراء الباحثين الذين عرضوا لدراسة من هذه الزاوية .

فريق من الباحثين قال بغنائية الشعر الجاهلي ، ومن هؤلاء بطرس البستاني الذي قال أن الشعر الجاهلي كان ، غنائياً شخصياً غارقاً في اللذة ، قصير القصص ، موجز الوصف ، منقطع الأنفاس . وقد عزى ذلك إلى عوامل ثلاثة هي : أنثية الشاعر الجاهلي ، وصرفه عائلته إلى التحدث عن غزواته ومشاهداته لأنه يباشر الحرب بنفسه ، ولانحصاره ضمن الحدود الوجدانية ، وهو يشقى ببطولته ، ويردد ذكريات ماضية في لفات حماسية قصيرة^(١) .

والأستاذ أحمد حسن الزيات ينفي أن يكون للشعر القصصي والتمثيل أثر في الشعر الجاهلي ، وهو يؤكد غنائية ذلك الشعر بطريقة غير مباشرة . ويرى أنهم شغلوا بأنفسهم عن النظر فيما عداهم^(٢) .

ويقول الدكتور شوقي ضيف : « نحن لا نبعد حين نزع أن الشعر الجاهلي جميعه غنائي ، فهو يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وآحاسيس »^(٣) وذهب نفس المذهب الدكتور حسين نصار حين قال إن شعر الأهم كله شعر غنائي^(٤) .

وذهب فريق آخر من الباحثين إلى القول بوجود ملاصق قصصية في ذلك الشعر وأول القائلين بذلك الدكتور طه حسين الذي رجح وجود نوع من الشعر القصصي وهو البلاء ، أي القصة القصيرة^(٥) .

(١) الشعراء الفرسان - بطرس البستاني ١٦ - ١٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن الزيات ١٩ .

(٣) العصر الجاهلي - شوقي ضيف ١٩٠ .

(٤) مجلة الأتلام العراقية - عدد كانون ثاني ١٩٦٦ ص ١٠٨ .

(٥) حديث الشعر والشعر - طه حسين ٥٧ .

وقطع سليمان البستاني بوجود نوع آخر من الشعر القصصي ، واعتبر المعلقات وأمس الملاحم العربية ، وأنها ملاحم قصيرة مقولة في حوادث مخصوصة ، ومال إلى اعتبار شعر الأيام أقرب إلى القصص منه إلى الغنائي^(١) .

وقال الدكتور شوقي طيف بوجود روح قصصية في الشعر الجاهلي ، ولكن حركتهم وميلهم إلى السرعة والابتجاز أضغمت ذلك ، ولكنه جعل هذين العاملين عائقاً في سبيل ظهور ضرب من ضرب الشعر القصصي عندهم^(٢) .

واففق كل من أحمد حسن الزيات^(٣) ، وعبد الحميد بونس^(٤) ، وحسين نصار^(٥) على وجود الشعر القصصي من نوع البلاء في الأدب الرسمي ، ولطموا بمعرفة العرب للملحمة التي يتعاقب فيها الشعر النثر.

ويعتبر أحمد كمال زكي شعر الأيام شعراً ملحياً مستنداً إلى أن أبطال الأيام من الرجال والملوك والكهان ، إنما الآلهة فيدخل ذكرهم في باب الأساطير ، كما ترى في يوم الزويرين من قصة الجملين الصفيين الذين كانا يعبدان ، وفي يوم القجار قصة الصمم دوار . والبطل عند هو الإنسان الأساوي الذي حدثنا عنه الشعراء الجاهليون . وهو يؤكد بأن الأيام ركزت على الملك والتكاهن ! بل كثيراً ما فرت الملكية بالكهانة^(٦) .

واعتبر الدكتور المحاسني وسعد الدين الجيزاوي شعر الأيام ملحمة كبرى مقطعة الأوصال ، الأفكار متقاربة ، والخواطر متقاربة أيضاً ، بل متجانسة ومتشابهة ويرى بوجود شبه في النسيج والمعنى في المعلقات العشر مما يساعد على تكلف ملحمة عربية جاهلية تؤخذ من الشعر الجاهلي ، فتتطلب من مقاطع وقصائد لكل شاعر تمثل فروسياتهم ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب^(٧) .

وتنقى فزيق ثالث وجود ملحمة أو قصصية في الشعر الجاهلي ، ومنهم الدكتور طه حسين

(١) البغلة هوميرس - سليمان البستاني ١٧٠ - ١٧٢ .

(٢) العصر الجاهلي - شوقي طيف ٢٢٥ .

(٣) أصول الأدب - الزيات ٣٦٧ .

(٤) مجلة للكتبة العربية مجلد ٢ عدد ٣ ص ١٨ .

(٥) مجلة الأتلام العراقية ١٠٩ .

(٦) دراسات في النقد الأدبي - أحمد كمال زكي ١٥٨ .

(٧) شعر الحروب - زكي المحاسني ٦٤ ، الملحمة في الشعر العربي - سعد الدين الجيزاوي ص ٤ .

الذي عرض لذلك في كتابه « في الأدب الجاهلي »^(١) وبطرس البستاني^(٢) الذي عزا ذلك إلى ثلاثة أسباب عرضتها قبل الآن ، ومحمد مندور^(٣) الذي عرض وجهة نظره في كتابه « فن الشعر » .

ومنهم الدكتور ماهر حسن فهمي^(٤) الذي ينفي وجود ملاحم في الشعر العربي ، ويعمل ذلك بخصائص كانت في النوق الساسي ، أو لأن أصنام العرب ليست لها حياة لغة الأخرى والتي تطلق وراءها الخيال الحبيب ، ومن القائلين بذلك مرجليوث^(٥) ، كانت أشق كثيراً من أن تخضع لموضوع طويل ، ولكنه لا ينكر وجود بعض المحاولات ، وظهور بعض الملاحم ، ولكنها نادرة .

ونفي الدكتور علي الجندي وجود شعر ملحمي في شعر الحرب ، ويربط ذلك بأسباب ثلاثة ، أولها أن العرب لم يتبعوا لهم في جعلهم من ظروف البيئة والمعيشة ما يساعدهم على أن يوجد لهم الخيال الحبيب . وثانيها أن للأدب فضلاً كبيراً في الملاحم وهذه لم يعرفها العرب ، وثالث الأسباب قدسهم العظيم للقوانين الشعرية الخاصة بالوزن والقافية^(٦) .

وعمل الدكتور زكي المحاسني على الشعر العربي من الملاحم بسببين ، أولها حينم للقافية الواحدة التي يجري عليها روى القصيدة زعمهم في اللحمة التي تقتضي آلاف الأبيات . وثانيها : ميلهم إلى الإيجاز وقطوعهم في اختصار الكم ، والتزامهم مقاطع الجمل الضيقة التي تحمل غزير المعاني^(٧) .

وبخلاصة ما يمكن استنتاجه من آراء جمهرة الباحثين الذين عرضنا آراءهم أنهم يختلفون في فهمهم للشعر الغنائي والشعر القصصي والشعر الملحمي ، وأن الذين قالوا بوجود شعر ملحمي في شعر الحرب أو بعده ، إنما صدروا في آراءهم عن فهم معين لطبيعة الشعر الملحمي ، كما أن الذين قالوا بقصصية في هذا الشعر أو بعدم وجودها كانوا يصورون في ذلك عن تصور معين . فبعض هؤلاء الباحثين اعتبر كل قصيدة وحدة مستقلة حينما قال رأيهم ، وبعضهم اعتبر

(١) في الأدب الجاهلي - طه حسين - ٣٢٠ .

(٢) الشعراء القدماء - بطرس البستاني - ١٦ - ١٧ .

(٣) فن الشعر - محمد مندور - ٧ .

(٤) شوقي وشعره الأسلامي - ماهر حسن فهمي - ١٦٩ .

(٥) دراسات عن القرآن العرب - مرجليوث ترجمة حسين نظار - ٩٤ .

(٦) شعر الحرب في العصر الجاهلي - علي الجندي - ٣٧٦ .

(٧) شعر الحرب في أدب العرب - زكي المحاسني - ٢٣ .

شعر الحرب عامة وحدة متكاملة ، وتذهب فريق إلى اعتبار شعر مجموعة الأيام وحدة منفصلة ومستقلة ، كما أن هؤلاء الباحثين اعتقدوا في تحديد الشعر الذي يصدر عن الحكم عليه ، فبعضهم نسب بالشعر الرسمي ، وبعضهم^{١١} توسع فشمع الملاحم الشعبية التي اتخذت موضوعاتها عن القرسان الأبطال كملحمة الزير سالم المأخوذة عن قصة مهلهل بن ربيعة .

ولعل أن نحضي في تفصيل ما نراه في طيعة هذا الشعر نود أن نتحدث طبيعة وخصائص كل لون من ألوان الشعر الثلاثة : الغنائي والقصصي والللحمي .

لقد قسم النقاد الأوربيين فنون الشعر إلى ألوان ثلاثة هي : الشعر للحمي والشعر الغنائي والشعر الدرامي أو التمثيلي^{١٢} .

أما الشعر الغنائي فكان أسبق إلى الظهور لأن الإنسان البدائي قد ابتدأ يغني لنفسه قبل أن يتخذ الشعر وسيلة لحفظ ما ضيى وبطولاته في صورة الشعر للحمي . وكان هذا الشعر الغناء الروحي للحرى في عصوره الأولى .

أما الشعر للحمي فقد تلا الشعر الغنائي في مرحلة الظهور وإن سبقه في التدوين ، وسبب ذلك أن للجمع عندما يمي ما ضيى يحرص على تنويته في صورة ملاحم . ويرى الدكتور مندور أن الشعر للحمي « نشأ بعد أن أصبح للبشر ما ضيى بطولات يتناقلون أخبارها ، ويبالغون في تلك الأخبار حتى يؤولها الخيال الشعبي إلى حوارات أسطورية »^{١٣} .

واشترط النقاد والباحثون شروطاً ينبغي توافرها في الملحمة ، أول هذه الشروط أن يكون مضمونها قصة أو قصصاً بطولية قوية ، وأن تقوم هذه القصة على حوارات الأمور والبطولات ، وأن تكون أحداث القصة مختلطة بالأساطير والمعتقدات الدينية ، فجميع بذلك بين الأساطير التاريخية وأحداث التاريخ الواقعية .

وبالإضافة إلى المضمون اشترطوا فيها أن تكون طويلة ، بحيث يبلغ طول الواحدة منها آلاف الآيات ، كما اشترطوا فيها أن يغني الشاعر شخصيته إثناء تأمل أو شبه تأمل في الجماعة التي يصلها من جهة ، والجماعة التي يتشددا من جهة أخرى .

وهكذا فمن السهات البارزة للملحمة الفنية المكتملة الشروط : الطول ، والموضوعية ،

(١) الأديب الناقد - محمد طيمى - ملال ١٥٩ .

(٢) فن الشعر - مندور ٦ - ٧ .

(٣) الأديب وفنونه - محمد مندور ٥٤ .

والحديث عن الحروب ، والأبطال ، وإطلاق العنان للخيال في تصوير مشاركة الألهة للبشر في المعارك ، كما أن من سماتها الانتشار ، وأن يكون موضوعها مترجماً من حياة شعب بأسره لا حياة شخص بعينه ، ويعني أوضح التعبير عن وجدان جمعي^{١١} .

أما اللون الثالث فهو الشعر التمثيلي أو الدرامي ، وهو ينقسم إلى قسمين متميزين في المسرح اليوناني ، القديم هما التراجيدي والكوميدي ، وهذا اللون لا صلة له بموضوعنا .

وينتقل بعد ذلك إلى نقطة هامة أخرى وهي أن الباحثين قد رددوا عبارة الشعر القصصي والشعر الملحمي ، وأن البعض اعتبر الشعر القصصي مرادفاً للشعر الملحمي ، ومنهم من ميز بين اللونين . ومن الذين جعلوا التعبيرين مترادفين الأستاذ الزيات^{١٢} حيث قسم الملحمة إلى قسمين هما الملحمة الطبيعية ، والملحمة الصناعية ، كما أنه قسم الشعر القصصي إلى قسمين أيضاً ، هما الملحمة وهي القصة الطويلة ، والبالاد وهي القصة القصيرة .

ومن القائلين بذلك سليمان البستاني حين قال أن «شعر الأيام هو أقرب إلى الشعر القصصي منه إلى الغنائي وكل قصيدة منه قطعة من ملحمة»^{١٣} .

ويكاد الدكتور طه حسين يصرح بأن الشعر القصصي هو الشعر الملحمي حيث يقول « فلست أعتقد كل الثقة من أن الأدب العربي ينظر من القصص ، وأخشى أن يكون من يجد وجود الأدب القصصي عند العرب إنما جعلوه لأنهم لم يحفظوا بالضبط معنى الأدب القصصي . فالذين يفرعون الشعر الجاهلي أو ما صح منه يلاحظون أن مزايًا كثيرة من خصائص الشعر القصصي موجودة في الشعر العربي^{١٤} ويقول في موضع آخر من مؤلف آخر له « الشعر العربي ليس فيه قصص»^{١٥} .

ولا نريد أن نناقش عدول الدكتور طه حسين عن رأيه بوجود الشعر القصصي ، فقد نفى وجوده أولاً ثم تراجع فقال بوجوده ، ولكن الذي يعني أنه يكاد يصرح بأن الشعر القصصي هو الشعر الملحمي .

(١) أنظر في الأدب الجاهلي - طه حسين ٣٢٠ ، في أصول الأدب - الزيات ٣٥٠ ، الأدب وفنونه - هيد متلور ٥٤ .

(٢) في أصول الأدب - الزيات ٣٥٢ .

(٣) البائد هوميرس - سليمان البستاني ١٧٠ .

(٤) من حديث الشعر والنثر - طه حسين ١٥ - ١٦ .

(٥) في الأدب الجاهلي - طه حسين ٣٢٠ .

وبعد ، فأدعنا الآن الشروط الواجب توافرها في الشعر حتى يصح أن نسميه شعراً ملحياً ، وأدعنا شعر الأيام فلتحاول وضع هذا الشعر في المكان الصحيح من ألوان الشعر التي عرفناها . وقيل أن تعرض لذلك نود أن تشير إلى أمور تساعدنا في كشف القبس الذي يكتنف الموضوع .

ولول ما نريد توضيحه أن تصوير مشاركة الآلهة البشر في المعارك أمر درج عليه اليونان ولكن أوروبا لم تتقبل به فيما بعد في ملاحمها كملحمة رولان وغيرها ، وأنه من الممكن الاستعانة بالحواريق بدل الآلهة في شعر الملحم .

والأمر الثاني أنه يجب أن نعترف بأن بعض النقاد قالوا بأن الملحم اليونانية ، وهي التي حدا حلوها الشعراء فيما بعد ، واعتبرها النقاد النموذج الذي يحتذى ، هذه الملحم لم تكن من عمل شاعر واحد ، وأنه يمكن وصفها بالشعبية لأن الناس تداولوها رداً من الزمن قبل أن تكون .

والأمر الثالث أن محاولة تطبيق قواعد للملحة اليونانية على شعرنا فيه إجحاف ولحن عليه ، لأن لكل شعب مزاجه الخاص ويته المخططة ، وأدبه للتمييز سمات خاصة به تختلف عن أدب الآخرين .

والأمر الرابع أن ألفة اليونانيين والتي انشركت في حروبهم ، وعدت سعة من سمات الملحة إنما هي ألفة على شائكة الإنسان ، وقد ظلموا عليها صفات البشر ، فهي قوية ولكنها تضعف أحياناً ، وهي في طبيعتها تلك تختلف عن ألفة العرب في جعلهم ، كما أنها تختلف مع معتقدات المسلمين بعد ظهور الإسلام .

وأخيراً فقد حان لنا أن نسأل : هل نجد في شعر الأيام شعراً ملحياً ؟ وإذا حكمنا بوجوده فما طبيعته ؟ وما مدى اتفاقه مع شروط الشعر الملحمي ؟؟

إن أيام العرب قد خلقت لونين من ألوان الأدب ، الأدب الرسمي ويمثل في الشعر الذي وصلنا موثقاً ، ونستطيع أن نطمئن إلى أنه صدر عن الشاعر الذي ينسب إليه ويمتاز بهذا الشعر ترويض مناسب تلك الشعر والأحداث التي قيل فيها . واللون الآخر هو الأدب الشعبي ، وهو ذلك الأدب الذي استمد القصص بعد الإسلام أحداث قصصهم الرئيسية من قصص الأيام الحقيقية ثم نسجوا عليها من خيالهم ، وكلفوا البعض نظم الشعر المناسب لتلك الأحداث التي أضادوها . ونسبوا إلى أبطالهم البطولات الخارقة ، والشجاعة النادرة وللكل الأخلاقية التي يفخر بها كل إنسان . وقد زاد احساسهم بالحاجة إلى هذا اللون من الأدب في القرون الوسطى

لإعجابهم بالبطولة ، فرجعت الملاحم الشعبية التي تستوحى مادتها الرئيسية من أحداث الأيام والتي ثبتت للنقد التاريخي ، ولكنهم تناكروا حولها القصص ، وبالقوا في الأحداث والبطولات .

ولنأخذ مهلهلاً مثلاً لتلك الملاحم الشعبية ونرى مدى انطباق شروط الملحمة على ملحمة الزير سالم ، فقد استمد القاص أحداث ملحمة أو سيرته من مهلهل أبي كليب سيد تغلب ويكر الذي قتله بكر خدرأ ، فذهب أخوه مهلهل للاخذ بثأره وجرم على نفسه كل عيش طيب وبنيء حتى يأخذ بثأره ، ولكن القاص صور كلياً بطلاً قومياً حرراً معداً من سيطرة اليمن ليمهد بذلك إلى أن يقتله جرمة كبرى في حق القبيلة ، وليبرر ما سيفعله مهلهل ، ويأن ما سيفعله مهلهل بكر ليس عملاً انتقامياً شخصياً ، وإنما هو ثمر متهم لقتلهم سيداً وزعماً وحرراً . وجعل هذا القصاص يراوح بين الشعر والنثر ، ويطول الشعر الذي حصل منه على مقطوعات بحيث يصل بعض الفصائل إلى السبعين بيتاً فأكثر . وجعل يخلق للواقب البطولية لهذا القاص ، ويتنقل به من معركة إلى أخرى ومن مؤامرة إلى أخرى .

وإذا ما حاولنا تطبيق الشروط الواجب توافرها في الملحمة وجدنا منها في ملحمة الزير قصة تدور حولها الملحمة ، كما وجدنا بطولات خارقة ومعارك يتوخسها مهلهل ، ووجدنا أن تلك الملحمة تعبر عن وجدان جمعي ، فهو يثار لأخيه حقا ، ولكن كلياً كان سيداً وزعماً وحرراً فقتله خيانة . وقد شطح القاص أنطحات خيالية تكاد تصل إلى الأساطير ، وبالتالي فيكون قد جمع بين الأحداث التاريخية الواقعية والأساطير التاريخية ، فهي أخبار ولكنها مبالغ فيها حتى تحولت بفضل القصاص إلى خوارق ، كما نجد صفة الشعبية والانتشار متحققة في تلك الملحمة .

وهكذا تكون أحداث حرب الجوسم اللغة التاريخية لتلك الملحمة ، كما تكون لشعار مهلهل وباقي شعراء بكر وتغلب ، وما نسج على منوالها ليناسب ما خلق من أحداث شعر الملحمة .

ولعل سيرة عشرة وما لاقته من إهلام أكثر من مثيلها ملحمة الزير سالم تعطينا صورة أكثر وضوحاً لما تلعب إليه . فلعشرة في الأيام عهد من عهد حبس ، أوثى من القرة الجسمية ، وحسن استغلال الفرس ، ملكة وطاقة مكنته من الارتفاع إلى أعلى مراتب الفروسية ، كما مكنته تلك اللواجب والمزاييا من التراجع اعتراف أبه به واعتراف قبيلته به .

وعندما أحس العربي في القرون الوسطى بحاجته إلى الملاحم لإعجابه بالبطولة ، والنفت إلى ما لديه فوجد شخصية عشرة ملائمة كنموذج يحتذى ، وهب قصاصه الشعبي يخلق ملحمة بلغته

المدارجة مستعرباً بما بين يديه من ملاحم شخصية للملك البطل ، وما وصل إليه من اعتباره ، ومن أحداث حرب داحس والغبراء ، وتحمل ذلك البطل الذي استطاع أن يرقى بنفسه وبمنزلة من أوساط العبيد والخدم إلى فارس عيس بلا منازع ، تحيله القصاص ومزاً لقيادة حرب الشمال أولاً ضد حرب الجنوب الذين يسومونهم الذل ، ويوغمونهم على دفع أتاوة لهم . ولكن يؤهله لتلك المنزلة جعله يتغلب على كافة فرسان القبائل الشمالية ، ثم جعله يقود عيساً وحرب الشمال ضد اليمن ويتنصر عليهم . ثم انتقل به إلى محاربة الجحوس والانتصار عليهم ، ثم انتقل به إلى محاربة التنصاري والانتصار عليهم ، ولم يغفل اليهود ، وكأنه بذلك أراد أن يعرّض تلك القديسات ويمنعها من الزحف إلى الجزيرة إلهياً للبعثة النبوية التي كانت على وشك الظهور . ولم يكتف بذلك بل نقله إلى الحبشة وجعله يتنصر على ملوكها .

ولم يغفل القصاص دور الجن والسحرة وبقية القرى الخارقة ، فقد جعل عشرة يتنصر على كل تلك القرى ويهزمها .

كل ذلك فعله المؤلف في سيرة عشرة التي بلغت مجلدات عدة ، وانتشرت في طول البلاد ، والتي تنطق باللغة العربية ، وعرضها . ووجد فيها العرب أمانيهم ووجدانهم الذي أهله ما آل إليه والمهم ، وما انتاب الأمة من تفكك واضطرب قفزوا إلى ما همهم يحرصون على تدوينه في صورة ملاحم .

ونسأل أنفسنا لماذا تأخر ظهور الملاحم الشعبية قروناً عديدة ؟ ولعل الأقرب إلى تصورتنا أن ذلك يعود إلى عوامل منها عدم انتشار الكتابة وتأخر عهد التدوين ، ومنها أن مجيء الإسلام وبهية عن الظواهر بالجاهلية كان سبباً في عزوفهم فترة طويلة عن الاهتمام به ، ومنها أن المسلمين شغلوا بنشر الإسلام في أقطار الأرض الشاسعة ووجدوا في ذلك واجباً مقدساً يقومون به ، ولا يعدلون به عملاً آخر ، كما شغلهم عن التفكير في الماضي والرجوع إليه .

وإذا ما انتقلنا إلى الأدب الرسمي ، وهو المحتل في اللغة الأدبية ، فإن الأمر مختلف جداً . فنحن لا نرى أمناً إلا قصائد ومقطوعات شعرية ، تفتزح بقصص وأخبار عن تلك الأيام ، ونجد أن قسماً كبيراً من هذا الشعر قد ضاع ، فلا نجد لبعض الأيام شعراً ، كما أننا نجد بعض المقطوعات لا يزيد عدد أبياتها عن البيتين أو الثلاثة ، ونجد بعض الشعر المنسوب إلى بعض الأيام دون أن نجد إشارة من الشعر يتضمنها الشعر إلى ذلك اليوم ، واعتادنا في ذلك لتجديد اليوم للتصل بذلك الشعر على النثر الذي نقله الرواة توضحاً لذلك الشعر . ويزداد الأمر تعقيداً إذا سقطت تلك المتنوعة الشعرية وأصبح الشعر حالياً من أمة إشارة إلى اليوم المتصل بملك الشعر .

ولكننا واجدون في القصائد التي وصلت إلينا كاملة سليمة ملامح قصصية واضحة تحكي لنا قصصاً متصلة بالحروب وبأحداثها . وهذا امر ينكره الباحثون فشعر الحروب أكثر موضوعات الشعر اتصالاً بالقصصية ، ولكن السؤال الذي يلح علينا هو : هل نجد في شعر الأيام ملاحم ؟ أو بعبارة أخرى هل يمكن أن نكون ملاحم بشكل أو بآخر ؟

وفي رأينا أن مجموعات الأيام التي بين أيدينا أخبارها وأثرها ، وشعرها وصل إلينا منه قسم كبير ، هذه المجموعة تصلح كل منها أن تشكل ملحمة قصيرة أو متوسطة . ولكي يكون ما تلعب إليه واضحاً لناخذ مثلاً لذلك حروب العرب مع الفرس والمتعلقة في يوم الصفقة ويعزم ذي قار ، فإن الأخبار المتعلقة بها وبأحداثها وبمسيرات الاحتكاك وطيرة ، كما أن الشعر الذي قيل فيها لا بأس به . ألا يستطيع هذا الشعر وذلك النثر الذي يوضح المواقف المتعددة لكل من الفرسين أن يرسم لنا ملحمة حرة ؟ ولكن هذه الملحمة ستقصيها الألفاظ والخوارق وعندها يمكننا أن نستعين بخيال القصاصين . وعلى الأمل يمكننا القول بأنها تشكل قصة قصيرة ، وهي ما سماه النقاد بالبالاد .

وكذلك لو أخذنا مجموعة الأيام العذائية والضحطانية ، ونسقا شعر هذه الأيام ، وأخبارها المتفرقة هنا وهناك فإنها تشكل قصة صراع الشمال والجنوب في العصر الجاهلي على الرغم من عدم التصريح بذلك القصيدة الكبرى ، فلم يفسحوا عنها في شعرهم . ولكن الذي يدلنا إلى القول بذلك أن بعض أيام هذه المجموعة مثل يوم الكلاب الثاني وقبب الريح وخزاز قد استقطبت حولها الكثير من الشعراء الذين تغنوا بالبطولة في هذه الأيام .

وينطبق ما نقوله على حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، وهما حربان دامت كل منهما قرابة أربعين عاماً ، وهو زمن ليس بالقليل ، واشتركت في كل منهما قبائل محددة ، ونشبت كل منهما لأسباب محددة . ووصل إلينا من شعر كل حرب مقدار من الشعر له قيمته ، كما أن أخبارها في تناول أيدينا ، وقد أوحى كل منها بملحمة شعبية .

ولكن هذا الاقتراح الذي قد سبقنا إليه الدكتور زكي المحاسني يحتاج إلى شيء من التجاوز ، إذ أن القصائد والمخطوعات المختلفة التي منضمها مختلفة القافية والوزن ، كما أن الاضطراب يعتري بعضها ، كما نستخدم بضيق الخيال وارتباط أخبار شعراء الأيام بالواقع ، فخيالهم حتى ، ونجد أن شعراء الأيام لم ينجحوا إلى الإطالة إلا ناعراً ، فهم يميلون إلى الإيجاز .

كل هذه عيوب لا تجعلنا نعتبر شعر الأيام شعراً ملحماً ، ولعل هذه الأسباب كانت في أذهان أولئك الباحثين الذين رفضوا اعتباره شعراً ملحماً ، ولكن ذلك لا ينفي عنه صفات

يتصف بها ويجعله يقترب من شعر اللاحس الفنية ، وفي عداد اللاحس ، ان تجاوزنا عن بعض الأمور .

ولنأخذ أي مجموعة من مجموعات الأبيات المميزة ، فإنا واجدون فيها أحداثاً وحروباً ومعارك وإطالات كتصارع ، وقتل مجتدين في ساحات الوض ، كما نجد الصراع بين لوكك الأبطال في سبيل تحقيق مكاسب قومية في الإطال الضيق لظهورها أي في سبيل قياتهم . ونجد أن الشعراء قد جنحوا إلى المبالغة في تصوير شجاعتهم وشهائمهم ويقلعون عليهم الصفات الثقل . ونجد أن شعر أيام المجموعة مجتمعاً يبلغ للثلاث من الأبيات مع مراعاة أن ذلك يشكل جزءاً من الشعر ، وإن الكل يفوق ذلك بكثير . ونرى أن هذا الشعر في جملة يتحدث عن موضوع واحد متشعب إلى موضوعات متصلة كلها يعرضها ، فللموضوع الرئيسي هو الحرب وما يفرع عنها ، كما أن شعراء الأيام تخلوا عن فرديتهم تقريباً فحديثهم عن قياتهم ، ونقرأ ما يتحدثون عن أنفسهم وقواتهم وإن فعلوا فإنا يصورون بطولية فارس من فرسان القبيلة .

وعكذا فإن معظم سمات الملحمة تتوغل في شعر المجموعة ، ولكننا نعتقد شرطاً واحداً هو إطلاق العنان للخيال ، ومشاركة الألفة في المعلق إلى جانب الأبطال ، وذلك شرط أوضحنا أن الأوروبيين لم يفتقدوا به ، وإن خيال القصص أو المؤلف يمكن أن يعرضه بالحوار ، بل وإنا واجدون في الملحمة العربية - إن جزئ التعبير - سمة جديدة وهي امتزاج الشعر بالنثر ، والنثر فيها يحتل أكثر من هدف ولقطة ، أبرزها أنه يوضح بعض الوقائع ، كما أنه يطلع الملل الذي يحدثه الاسراع إلى آلاف الأبيات من الشعر ، وهي ظلمة موجودة في الأدب اليوناني فقد وكان ظهور النثر اليوناني في القرن السادس قبل الميلاد عندما سُمي اليوناني شعر الشعراء^(١) .

وعكذا نخلص إلى أن في شعر الأيام ملاحم شعبية عرفنا منها ملحمتين ، ملحمة الزبير سالم استقى المؤلف مادتها الأساسية من أحداث حرب البسوس وملحمة عنترة واستمد مادتها من أحداث حرب داحس . كما أننا يمكن أن نعتبر شعر كل مجموعة من مجموعات الأيام الواضحة المعالم ملحمة ، ولكنها ملحمة مقطعة بسبب عوامل بينهاها ، أهمها ضياع قسم كبير من الشعر ، ولقدان أجزاء كبيرة من القصائد .

ونميل إلى الاعتقاد بأنه لو لحق شرطان هما : وصول كمية أكبر من الشعر ، واتساع خيال

(١) من حديث الشعر والنثر - طه حسين ٥٧ .

شعراء الأيام ، لتكونت عندنا ملاحم كثيرة تحكي أحداث تلك الأيام التي انكبت الجزيرة بنارها قروناً ونصفاً من الزمن ، ويخافنا شك بأن طابع تلك الحروب العام ، وهو أنها حروب داخلية في معظمها قد أغدسهم عن الاهتمام بها والتطور بها ، وحفظ شعرها كاملاً ، بل أن بعض الباحثين اتهم أبا عبيدة وهو أكثر المهتمين بجمعها بالشعبية لأنه حاول أن يجمع مثالب العرب .

انتشار المقطوعات

يتفق العلماء على تسمية البيت الواحد بيتاً ، والإثنان والثلاثة نثقة ، والأبيات التي يتراوح عددها بين ثلاثة وتسعة قطعة من الشعر أو مقطوعة ، والعشرة قصيدة أو ما فوق العشرة قصيدة .

فالمقطوعة إذن أبيات من الشعر لا يزيد عند أبياتها على العشرة أو خمسة عشر ، وتعمل إلى الأبد بالرأي الأول وهو اعتبارها دون الأبيات العشرة .

ويطالعنا ابن سلام في طبقته برأي يثير الاهتمام لغرابته فهو يقول : « ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات بقولها الرجل في حديثه ، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وعاشم بن عبد مناف »^(١)

ولكن هذا القول يحتاج إلى تصحيح ، فقد وصلنا قبل عهد عبد المطلب جذّ الرسول صلى الله عليه وسلم ، قصائد مطولة من عهد حرب البسوس ، ويعلمها ، فإذا عرفنا أن حرب البسوس حدثت بدوايتها سنة ٤٨٥ م تقريباً^(٢) ، وعرفنا أن عهد المطلب قد كفل عمداً بعد وفاة أبيه عبدالله ، أفرقنا أن القصائد قصدت قبل عهد عبد المطلب بفترة ليست بسيطة إذا ما قيست بعمر الشعر الجاهلي .

والظاهرة التي تثير اهتمام الباحث في شعر الأيام كثرة عدد المقطوعات فيه بالنسبة إلى عدد قصائده ومقطوعاته . فقد تجمع لدينا أربعائة وخمس وسبعون مقطوعة من شعر الأيام بينما لم نحصل إلا على مائة وثمان وعشرين قصيدة ، وقد عملنا إحصاءاً لشعر خمس مجموعات من مجموعات الأيام هي : حرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، ويوم ذي قار ، وحرب الفجار ، وحرب

(١) طبقات لحول الشعر - ابن سلام - ٢٣ .

(٢) تاريخ العرب - فليب حتي ١/ ١٢٠ .

الأوس والخزرج قبلت في مجموعها قرابة مائتين وسبعين قصيدة ومقطوعة ، وكان عند المقطوعات فيها مائتي مقطوعة . وهو عدد كبير يزيد على ثلثي المجموع . بل إننا وجدنا في ديوان شعر شاعر وصلنا وهو عترة العبيس ، وجدنا هذا الديوان يضم مئة وعشرين مقطوعة من أصل ثلاث وثلاثين قصيدة ومقطوعة .

ومما لاحظناه في هذا الاستقصاء أن حروب الأوس والخزرج تساوت فيها للمقطوعات والفصائل من حيث العدد ، إذ ضمت لحساً وعشرين مقطوعة وخساً وعشرين قصيدة .

وقيل أن نطوئ في تبرير وجود هذا العدد الضخم من المقطوعات علينا أن نشير بين نوعين من المقطوعة : فالنوع الأول منها طبعي ، والثاني صناعي .

أما النوع الأول فيجوز أنه متعلق بطبيعة الموضوع ، فالشعر شعر حرب ، وهذا اللون من الشعر يتطلب سرعة في القول ، وسرعة في الإيصال ، وعدم اللبالة ، والإسراف في الوصف ، وإيصال المعلومات التي يريد الشاعر نشرها بين القبائل بأوجز عبارة . فالبراض الكتاني يريد أن يبرر قتله عروة الرحال ، ليعلم ذلك للناس ، فلا داعي للإطالة ، لذلك اكتفى بملين البيتين :

نقصتُ على المرو الكلابسي فخره وكنتُ قديماً لا أقرُّ فخاراً
علوتُ بحدِّ السيفِ مفسِّقاً رأسه فاسمعْ أهلَ السواديين خواراً^(١)

وعندما رأى العرب في يوم قتي قلة كثيرة عند وعدة جيوش القوس فكر بعضهم بعدم لغاتهم ، وانبرى الشعراء يثوبنهم على قتلهم ، ومن هؤلاء يزيد الكعسر بن حنظلة الذي حذر الناس من التمرار^(٢)

مَنْ قَرَّ مِنْكُمْ قَرٌّ عَنْ حَرِيَّةٍ وجارِه وفِرٌّ عَنْ نَدِيَّةٍ
أَنَا ابْنُ سِيَارٍ عَلَى شَكِيَّةٍ إِنَّ الشَّرَاكَةَ لَكُلُُّ مِنْ أَدِيَّةٍ
وَكُلُّهُمْ يَجْرِي عَلَى قَدِيَّةٍ مِنْ قَارِحِ الْمُجَبَّةِ أَوْ صَمِيَّةِ^(٣)

ولا نستطيع الخفي في عرض أمثلة مختلفة من المقطوعات التي تتلائم وموضوعات الحرب ، ومنها مثلاً مصرع فارس ، أول يوم فلوس لاعتزاله الحرب ، أو إعلان نتيجة يوم ، أو إنذار القوم .

(١) الألفي / ٢٢ / ٦٥ .

(٢) شتاتني / ٢ / ٦٤٣ .

(٣) للرح المجنة : الأصل الذي يشوبه ، صميحة : الصميم الخالص من كل شائبة .

ويربط بعض الباحثين بين طليعة أغراض شعر الحروب وقصر القصائد ، فالشعر إذا قيل وقت الانفعال النفسي فإنه يكون في صورة مقطوعة قصيرة لا تزيد عن عشرة أبيات^(١)

ويربط باحث آخر بين حال الجزيرة العربية وتطور القصيدة ، فقال إن العرب كانوا لا ينظمون من الشعر إلا للقاطع الصغيرة عند الحاجة ، حتى إذا تحركت النفوس بالحروب بعد استقلالها عن اليمن وظهور الأبطال والفرسان احتاجوا إلى الشعر فأطالوا فيه فظهرت القصائد ، وكان أول من أطالها المهلهل^(٢)

ولكن هذين الرأيين لا تطعن إليهما ، ولا يثبتان عند البحث والتحري ، فقالت لا يستطيع أن يقف على درجة الانفعال وضمن نظم الشاعر ، لأن ذلك لم يصلنا مع شعرهم ، وكل ما يمكن أن نقوله إنما هو مجرد تخمين ، كما أن ربط إطالة القصيدة بتحريك النفوس بالحروب مردود لأن المقطوعات استمر وجودها بعد ذلك التاريخ بنفس النسبة ، وربما زادت .

وتخلاصة القول أن المقطوعة الأصلية إنما أوجدتها ظروف الموضوع التي نظمت فيه ، وطبيعة الغرض ، ولا نستبعد أن يكون لدرجة الانفعال وطبيعته عند الشاعر أثر في طولها أو قصرها . أما حينما كان الشاعر ينظم ليبرهن على مقدوره الشعرية ، وبعد أن تهدأ نفسه ، فإنه كان يعمد إلى التخييل والإطالة . وتشتمل القصيدة عند ذلك على أغراض متعددة .

أما صلة البحر بالمقطوعة فلمر غير مقبول ، لأن البحور المختلفة منتشرة في المقطوعات بنسب متفاوتة ، وهي في ذلك مثل القصائد التي تتوزع على بحور الشعر العربي المعروفة بنسب متفاوتة .

والنوع الثاني من المقطوعات ، هو تلك المقطوعات للبصرة من قصائد ضاح باقيا . وهذا النوع من المقطوعات هو الأكثر بين ما نتجده من مقطوعات في شعر الحروب . وهذا الرأي الذي نلحظ إليه عظمي ، لأننا لا نزال نحتاج إلى المزيد من الدراسات المستفيضة عن الشعر الجاهلي ، والصلة بين البحور والأغراض وبين البحور والأفعالات النفسية . كما أننا ما زلنا بحاجة إلى المزيد من البحث في المقطوعات المنتشرة في مكنتات العالم قبل أن تصدر حكماً قطعياً .

ولكننا نستطيع أن نلتمس الأسباب لوجود مثل هذا اللون من المقطوعات . وأول الأسباب

(١) موسيقى الشعر - إبراهيم النسي ١٧٧ .

(٢) تاريخ أدب اللغة العربية - جورج زيدان ٦٧ / ٦٧ .

أن الرواة حينما نقلوا أخبار تلك الأيام ، فإنهم اختاروا من الشعر ومن القصائد ما بقي بغير ضياع اليوم أو الحادثة ، ومعنى آخر ما يحفظ الحبر ، وكانوا يقتطعون من القصيدة ما يليق هذا للطلب . أما باقي القصيدة فقد أهملوه ، ثم عدا الزمن على بقيتها فضاعت ولم تصلنا .

ومما يؤكد ما ذهب إليه أننا نجد بعض المقطوعات منتشرة في بطون الكتب التي عرضت لأخبار الأيام مثل كتب التفاضل لأبي عبيدة ، والألحاني ، والكامل لابن الأثير ، والعقد الفريد ، فلو أن ما رجعنا إلى دواوين الشعراء التي وصلتنا لولنا نجد هذه الدواوين قد أثبتت القصيدة كاملة . والأمثلة على ذلك كثيرة وليست مختصرة على لون معين أو على شاعر معين . وهذا ما يدعونا إلى القول بأنه لو وصلتنا تلك الدواوين التي صنعها العلمااء الرواة لتغيرت صورة شعر الأيام .

ويرد أحد الباحثين سقوط أجزاء من القصيدة العربية فيقول : كان الناس يحرصون على الشعر حرصهم على أهم الأشياء لديهم ، وأنعموا ، في حياتهم لأن في الشعر تنفيساً عن الكروب وغناء للآل ، ولكن ذلك لا يبعد بهم إلى حد الاحتفاظ بالقصيدة كاملة تامة الأجزاء والتفاصيل ، وإنما يبقى منها في النفس ما تستقيه النفس مما هو أولئك اتصالاً بحالتها القائمة بها ، وأصدق تعبيراً عنها . أما بقية القصيدة بما لا يت إليها بكثير سيب فليست إليه حاجة ، وهو لذلك أقرب إلى أن يضيع ويذهب ^(١٥) .

ولعل في شعر حرب الأوس والحزرج وارتقاع نسبة عدد القصائد للطويلة إلى عدد المقطوعات ما يؤكد ما ذهب إليه الأستاذ البهيتي ، فقد تناقل الناس ذلك الشعر وحفظوه ، وأسهمت التفاضل التي سادت ذلك الشعر في حفظ معظمه ، فوصل إلى أيدي الرواة الذين تولوا تدوينه ، ولولا هي الرسول لهم عن تدوين ذلك الشعر لو الشعر الذي يثر البغضاء لكان شعر تلك المجموعة أكثر المجموعات اكتمالاً .

ولما السبب الثاني لانتشار المقطوعات فهو نسيان الرواة ، وثقة العلم والرواية النسيان ، فقد تكلف أولئك الرواة حفظ مئات القصائد والمقطوعات وشعراء متعددين ، وكان ذلك في وقت كانت وسائل حفظ الشعر وتدوينه تتم في معظم حالاتها بالرواية ، كما أن الرواة الذين حلوا ذلك الشعر قد نسوا قصبا كثيراً منه ، كما أن أولئك الرواة نسوا قائل بعض هذا الشعر أو اختلط عليهم الأمر في نسبة إلى أصحابه . وأكثر الشعر الذي نسب الرواة أو نسوا بعضه هو ذلك الشعر الذي لا يتصل بحادثة أو خبر .

(١٥) تاريخ الشعر العربي - نجيب البهيتي ٤٨ .

وينبغي ألا يفوتنا أمر يتعلق بالناسخ والنسخ ، فبعضهم كان ينسخ المقطع الذي يناسبه أو المقطع الذي يريد ربطه بقصة ما . ونلاحظ هذه الظاهرة بوضوح عندما يتسمر لنا المقارنة بين نسخ مخططة الديوان شاعر ، كما أنها تكشف حتى في النسخ المختلفة لكتاب من كتب الأدب ، كما أن الناسخ والناسخين كانوا يتقلدون من الكتب أو العلماء ، ما يتقدم أغراض السالكين وتوجهه لديهم .

وتبقى لدينا بعد ذلك مشكلة التمييز بين المخطوطة الأصلية والمخطوطة المنتزعة من قصيدة طويلة .

إن التمييز بين المخطوطة الأصلية والمخطوطة المنتزعة من قصيدة أمر بالغ الصعوبة بعد أن ضاع الكثير من الشعر الجاهلي ، ولكننا مع ذلك لن نتردد في محاولة تلمس بعض الإشارات التي تعيننا في التمييز بينهما .

ولول الأداة على أن المخطوطة منتزعة هو وجود مقدمة لتلك المخطوطة فإن وجود المقدمة ، سواء أكانت طليقة أم غزلية ، يقطع بأنها كانت قصيدة في الأصل ، كما نرى في هذه المخطوطة لمترة ، والتي بدأها بمقدمة طليقة فقال : ^(١)

ألا يا دار عبلة بالطوى	كزجعر الوشم في كف الهدي ^(٢)
توخى صحائف من عهد حمري	فأهداهما لأعجم طينظمي ^(٣)
ألمن زو الحوادث يوم تسمو	بنوحرم لحرب بني عدي ^(٤)
إذا اضطربوا سمعت الصوت فيهم	خفياً غير صوت المشرقي ^(٥)
وغير نواله يخرجن منهم	يطعن مثل أشطان الرمي ^(٦)
وقد خللتهم نعل بن عمرو	سلاما فيهم والجروني ^(٧)

وما يزيد من اعتقادنا في أنها ليست كاملة ، أن رواية الديوان قدم لها بأنه قالها بعدد فيها

(١) ديوان عشرة ٦٩٠ - ٦٩١ .

(٢) الطوى : البئر ، الهدي : المرأة تهدي إلى زوجها .

(٣) الزو : القدر .

(٤) التواط : الطعنات تنقل إلى الجوف .

بلامه وأقاربه عند قومه حينما استلطفه ففر من قومه وبقاه آخرون . ولكننا مع ذلك لا يمكننا الجزم بذلك .

وشبه هذه المقطوعة مقطوعة للشاعر لقيط بن زرارة التميمي قالها بعير بني مالك بن حنظلة بأحراق عمرو بن هند لهم ، فقد بدأها بتقديم بسيطة قال فيها :

أمن دمنة أقصرتُ بالجَنابِ إلى الفجر بين الملا فالهضابِ
بكيك لعرفان آياتها وهاج لك الشرق نَعْبُ الغرابِ^(١)

ثم ينتقل إلى الغرض الرئيسي .

والأمر الثاني الذي ربما ساعدنا على التعرف على نوع المقطوعة يتعلق بالبيت الأول فيها ، فملاحظة بداية هذا البيت ربما أوحشتنا ، فإن وجدنا له صلة بغيره أفركتنا أن للمقطوعة ميسرة ، مثال ما نذهب إليه قول ربيعة بن مقروم الضبي في يوم بُراخة :

وَأَلْ مُزَيَّيَاءَ وَقَدْ تَدَاعَتْ حَلَايُهُمْ لَنَا حَسَى فَرِينَا
صَبْرُنَا بِالسُّيُوفِ لَمْ وَكَانَتْ مَعَاقِلُنَا يَمُنُّ إِذَا عَصَيْنَا
وَعَادَرْنَا قَرِيعَهُمْ صَرَبًا عَوَائِدُهُ مَبَاعٌ يَعْتَقِنَا^(٢)

ولكن هذا ليس قليلاً قطعياً لأن أساليب الشعراء متعددة ، وهي أوسع من أن نستطيع حصرها .

وأفراض الشعر التي تضمثها تلك المقطوعات التي تشكل نسبة كبيرة من شعر الأيام كثيرة ، ونستطيع أن نلم منها إذا استعرضنا مقطوعات شعر حروب الفجار ليرى أنها تضمنت الموضوعات التالية : الضحر ، وصف مشهد ضرب فارس ، حضي على الطلب بدم عرو ، وصف لمشهد مقتل فارس ، فخر بشجاعة فارس ، وصف اللقاء جيشين ، فخر بقتل عرو الرجال بغير قتل عرو ، ملح قوم حاربوا يمسالة .

والحقيقة أننا لا نستطيع حصر موضوعات شعر المقطوعات لأنها شملت أفراض شعر الأيام كافة ، ولكن هذه المقطوعات تميزت باستقلال كل مقطوعة بغرض واحد بعكس القصيدة الطويلة التي كانت تجمع بين أفراض عدة .

(١) الأعرابي / ٢٢ - ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) التفتازي / ١ - ١٩٩ .

تعدد الغرض في القصيدة الواحدة واختلاطها

عرف شعر الأيام شكلين من أشكال القصيدة ، المقطوعة التي لا يتجاوز عدد أبياتها التسع أو العشر ، والقصيدة الطويلة . وقد عرفها منذ القدم بمجموعاته وهي حرب البسوس ، والفردوس ، إلينا من شعر تلك الحرب كلا الشكلين ، على الرغم من خلية للمقطوعات .

وقد بدأت القصيدة العربية تطول تدريجياً حتى إذا شاربنا على حرب داحس والغبراء ، وبرزت مدرسة الصنعة بزعماء زهير بن أبي سلمى فأثرت بشكل غير مباشر على شعر الأيام الذي عاصرهما . ولا ريب أن هذه الإطالة قد رافقها اتساع في نطاق الموضوع دون أن يطرأ على سياق القصيدة الأساسي تغيير ما .

وقد رافق هذه الإطالة في القصيدة العربية تعدد في الأغراض الشعرية المتصلة بالحرب التي احتوتها القصيدة العربية . وعلى الدكتور شوقي شيف ذلك بأن الشعراء غلب عليهم الإيجاز ، فالشاعر لا يجعل القصيدة الطويلة تلم بموضوع واحد يرتبط به الشاعر^(١) .

وتصانف شعر الحروب نوعان ، نصوص تتناول غرضاً واحداً ، سواء أكانت قصائد أم مقطوعات ، فمن المقطوعات ذات الغرض الواحد قول هلال بن رزين أحد بني ثور بن عبد مناة إذ يصف لقاء جيش في ساحة القتال^(٢)

وبالبيداء لما أن فُلاقت	بها كلبٌ وحلٌ بها التَّنُور
فحانت حُميرٌ لما التقينا	وكانَ فمُها يومَ عَصِيرٍ ^(٣)
وأهقنت القبائلُ من جَنابِ	وعامرٍ أن سَمِعَتْها نُصِيرُ ^(٤)
أجسادتْ رَيلٌ مَدَجْنَتْ فُدرتْ	عليهم صَوْبٌ سارية ذُرُورٍ ^(٥)
فولوا تحت قُطُفِها سراها	تَكْبَهُمُ المَهْدَةُ الذُّكُورُ ^(٦)

(١) العصر الجاهلي - شوقي شيف ٢٢٤ .

(٢) حماسة أبي تمام شرح الرزوقي ١/ ٣٤٠ وما بعدها .

(٣) حانت : هلكت .

(٤) جناب وعامر : بطنان من كلب .

(٥) مدجنة : كثيرة الطلام ، سارية : سحابة تسري ليلاً ، ذُرُور : كثيرة القوم .

(٦) قُطُفِها : البرد الصلير ، تَكْبَهُمُ : تغطيهم لوجهم .

ومن القصائد التي انحصرت على موضوع واحد هذا النص لوعلة بن عبد الله الجرمي الذي قال حين أتى أهله بعد أن تمكن من الحرب في يوم الكلاب الثاني ، ويقول في مطلعها ^(٢)

لديّ لَكُمْ رجُلٌ أُمسي وخالتي خَدَاةُ الْكَلَابِ إِذْ تُحْمَرُ الدَّوَابِرُ ^(٣)

وعدة أبيات هذا النص إثنا عشر بيتاً . ومن القصائد التي تكاد تختصر على غرض واحد قصائد الرثاء التي تصدر عن شواغر تربطهم صلة القرابة أو الزوجة بالقتيل ، لأن قصائد الرثاء التي تصدر عن شعراء القبيلة يتخللها تهديد للأعداء الذين قتلوه ، كما قد تتضمن وصفاً لبطولات القتيل .

أما التصوص المتعددة الغرض فكثيراً جداً في الشعر الجاهلي عامة ، وفي شعر الأيام خاصة . ففي يوم الكلاب الثاني أشرت تميم عبد يَغوث بن وقاص الحارثي وقطعوا له عرقاً وتركوه ينزف حتى مات . فقال هذه القصيدة حين جهز للقتل ، بدأها بنهي صاحبه عن لومه فقال ^(٤)

ألا لا تلوماني فَخَضِيَ اللُّومُ ما بها وما لَكُمْ في اللُّومِ خيرٌ ولا لها

ثم رجا مَنْ يأتي العروض أن يبلغ أصحابه أن لا لقاء فقال :

فها راكِباً إِسا عَرَّضْتَ فَبَلَّغْ نداءي من نَجْرانَ أَن لا تَلَّجِي ^(٥)

وبعد ذلك انتقل إلى لوم قومه لأنهم لم يجهزوه فقال :

جَزَى إِلَهُ قَوْمِي بِالْكَلابِ مَلَامَةً صرَّحَتْهُمْ وَالْأَخْرَبُ مِنَ الْقَوَالِي ^(٦)

ويبين بعد ذلك أنه لو شاء الحرب وتجا ولكنه ثبت ليمحي الضمير فقال :

ولو شئتُ نَجَّيْتُ مِنَ الْخَيْلِ هَدَّةً تُرَى خَلْفَهَا الْحُرُ الْجَاهِدُ ثَوَالِي ^(٧)

ثم ينتقل بعد هذا إلى قص قصة أسره وشد أسانه ، وما تلقى من هزة نساء تميم به فقال :

أقول ولقد شَدُّوا إِساني بنسعة أمعشَرُ تميمٍ أَطْلَفُوا لي إِسائِي ^(٨)

(١) اللطبية رقم ٣٢ .

(٢) نحر : قطع ، الدوابر : الأصول .

(٣) اللطبية رقم ٣٠ .

(٤) اللزالي : الحلفاء .

(٥) عرَّضت : أقيمت العروض .

(٦) هَدَّة : مرفعة الخيل ، الحرة : الحاضرة . (٧) النسعة : قطعة من الجلد .

وأخيراً تحدث عن نفسه ففخر بشجاعته وكرمه ، ومهارته ، في القتال فقال :

فإن تقتلونني تقتلوا بي سيداً وإن تُطْلِقُونِي تُعَرِّبُونِي بِهَا^(١)

واعتمد هذا المقطع بالأسف على لفظه الماضية فقال :

ولم أسبِ الزقُّ السُّويُّ ولم أُلْقُ لأيسارٍ حديدٍ : أعظموا ضوءاً باري^(٢)

وفي النص الذي عرضناه تعدد للأغراض التي احتواها ، ولكن رابطاً يجمع بينها ، فهي تمثل بالشاعر مجازيه وبحاضره وبمصوره الذي ينتظره .

ونختار نصاً آخر من حاشية أبي تمام لقائده بن مسلمة الحضي قال في يوم وخرحان ، فقد بدأ القصيدة بلوم صاحبه له لأنه أجبر الخوارج بن ظالم المري حين قتل خالد بن جعفر بن كلاب^(٣)

بَكَرَتْ عَلَى مَنْ السُّقَاوُ تَلَوْنِي سَفَهَا تُعْجِزُ بَعْلَهَا وَتَلُومُ

ثم انتقل بعد ذلك إلى عرض آخر فتحدث عن شجاعته ومنازلته القوم فقال :

قَاتَلْتُهُمْ حَتَّى تَكَلَّفَ جَمْعُهُمْ وَالْحَيْلُ فِي سِلِّ الدِّمَاوِ تُعَوِّمُ^(٤)

ويقتل إلى الحديث بعد ذلك عن وصف المعركة التي انتهت بقتله سيد القوم فقال :

لَمَّا اتَّقَى الصَّفَّانِ وَاخْتَلَفَ الْقَتَا وَالْحَيْلُ فِي تَقَعِ الْعِجَاجِ أَرْوَمُ^(٥)
فِي النَّفْعِ سَاهِمَةُ الْوَجُوهِ حَوَائِسُ وَبَيْنَ مَنْ دَعَسَ الرِّمَاحَ تَلُومُ
يَحْمَتُ كِبَشَهُمْ بِطَعْنَةٍ فَيُصَلِّرُ فَهَوَى لَحَرَ الْوَجُوهِ وَهُوَ ذَمِيمُ

وبعدنا أخيراً عن فرمان قومه فيقول مفتخراً بشجاعتهم :

وَمَعِيَ أَسْوَدٌ مِنْ حَنْفَةٍ فِي الْوَعَى لِلْبَيْضِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ تُسَوِّمُ^(٦)

(١) حرب : أخذ ماله وتركه بلا شيء .

(٢) أسياً : اشتري الخمر ، الروي : القتل . الأيسار : الذين يضربون الأعداء .

(٣) حاشية أبي تمام شرح المزيوني ٧٦٥ / ٢ .

(٤) السيل : ما سال من القطر والدم .

(٥) الأروم : جمع أروم ، والأروم : الإنسان والعصفور وكثير من الحية .

(٦) الدعس : الطعن وشدة الوطء ، تسويم : علامة .

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ كَانَهُمْ فِي الْبَيْضِ وَالْحُلُقِ الدَّلَاسِ تُجُومٌ

ويجتم القصيدة بهذا البيت معلناً تصميمه على النزول إن بقي حياً :

فَلَسْتُ بِقَبِيحٍ لَأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ تَقْصِي الْغَنَائِمَ أَوْ بِمَوْتٍ تُرْهِمُ

وتعتمد الأفعاض في النص الذي عرضناه ، ولكن رابطاً بين هذه الأفعاض ، فهو يرد على امرأته التي تلومه لأنه أجاز الحارث ، ثم يتحدث عن بطولته ، ولا ينسى أن يتحدث عن فرسان قومه الذين شاركوه القتال ولم يتصر إلا بتكاتفهم جميعاً .

وإذا اخترنا بعد ذلك معلقة الشاعر من شعراء الأبيات ، وموضوعها الرئيسي متصل بالحرب ، ولكن معلقة عنترة العبي ، فالتأثير أن عنترة بدأها بمطلع عريفه من سبق الشعراء إلى معانيه ، فلم يدعوها مقالاً للقتال ، ثم أكمل ذلك المطلع بذكر الذيل ، ثم تابع دار عبلة وحياها واستطفا عليها خبره عن أهلها القناعين عنها . ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف الناقة التي قد تلبثت خارجاً ، ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف فرسه تمهيداً للوصول إلى الحديث عن المعارك ، فالفرس وسيلته وأحد أسلحته . وانتقل إلى الحديث عن المعارك التي خاضها ، وكيف كان يصلح الأبطال فيصرعهم ، ويغرق بسيفه دروهمهم ، ثم يقطعهم برمح ، ويعلوهم بسيفه ، ثم نراه يتوقف ليعود ليتابع حبيته التي حرمت عليه ، ويرسل جاريته لتتجسس أخبارها ، ثم نراه يعود إلى وصف بلاتة في الحروب ، ويذكر حث قومه له ودعوتهم له ليتقدم الصفوف .

وهكذا تتميز المعلقة الطويلة الأفعاض التالية : المقدمة ، وقد قسمها إلى ذكر الأبطال ، ووصف الناقة ، ووصف الفرس ، وذكر الحية ، ثم موضوع المعلقة ، وهو الحديث عن بطولته في المعارك ، وتحلل الحديث عن المعارك لحظات تذكر فيها عبلة ويضئ الهند تقطر من دمه .

ومعلقة عنترة تثير نقطة عامة تتعلق باختلاط الأفعاض وتداخلها بشكل متميز ، فعبارة يذكر حبيته في أكثر من موضع من القصيدة ، فالآيات التي ذكرها فيها متتارة ، وهذا يجعل بعض الباحثين يهتمون الشاعر العربي الجاهلي والشعر الجاهلي بالاضطراب ، وأن وحدة البيت هي الأساس ، فكل بيت وحدة مستقلة . وفي رأينا أن هذا الاتهام يحتاج إلى دراسة مستفيضة قبل أن تتسرع في إصداره ، فالشاعر الجاهلي على الرغم من عفوية التي يصد عنها شعره أحياناً ، إلا أن العملية الشعرية ليست عفوية كلها ، بل أن الشاعر الأصيل يصدر عن وهي تام لما يريد أن يقول وكيف سيعرض لتلكه ، ولم قدم هذا وأخر ذلك من الآيات ، ومدى تأثير ذلك في نفس السامع وبخاصة شاعر الحرب الذي كان ينظم لغرض قبل ، وليصل التأثير إلى الناس ، الأعداء منهم والأصدقاء .

وتعتقد أن الأمر يحتاج إلى دراسة مستفيضة ليس هذا مكانها ، ومع ذلك فإننا نكاد نجزم بأنه لو سلم الشعر الجاهلي من عبث الرواة وجهل النسخ ، ونيسر له الدارسون الواضون لخصائص اللغة العربية والنسبة العربية في ذلك العصر ، واشتملوا لبيئة الجاهلية ومقوماتها وطبيعتها ، لو نيسر كل ذلك لاكتشفنا جمالاً وعمقاً ودقة في شعرنا ، ولعرفنا أن الشاعر لم يكن يتصرف إلا من رعي تام لما ينظم ولوجدنا تفسيراً لهذا التداخل والتظلم والتأخير في الأتكلار .

ولو تفحصنا قصيدة من قصائد شعراء الصنعة لرأيناها متعددة الغرض أيضاً ، ولكن الشاعر قد جعل هذه الأغراض بيئة في النص ، ويجهد للانتقال من الغرض إلى الذي يليه . وتعليل ذلك واضح أيضاً فإن بعض شعراء الصنعة كانوا يمشون حولاً كاملاً وهم يفحصون قصائدهم ولا يترجونها إلا بعد تنقيح وتلقيح شديدين .

أما شاعر الحرب فإنه يميز عن أتكلازه دولنا تنقيح أو إعادة نظر فيها ، إلا إذا كان قد قالها بعد انتهاء الحرب ، ومع ذلك فإن قصائد أولئك الشعراء التي نظموها ، وانفعالات معينة تؤثر فيهم ، قد عبروا عن أتكلازهم بشكل انفعالي ودون تنقيح أو ترتيب لأنكلازهم ، ولكن هذه الأتكلاز التي تبدو متداخلة أحياناً ، قد تنفتحت على لسان الشاعر لتعطي في شكلها هذا تأثيراً ، وتميز عن تخيلات نفوسهم .

نشرة المقدمات والمطالع المصرة

لعل من أعرق الظواهر الفنية التي أرمى دهانتها الشعراء الجاهليون ، وحرصوا على مراعاتها والحفاظ علىها المقدمة بأنواعها المختلفة ، وتبجدها مستوفية لجميع مقوماتها في أقدم ما الرمن مطولاتهم ، وقد ردها فضل ابتكلازها إلى شاعر مجهول لم يصلنا إلا اسمه ، فاسرق القيس يقول :

عوجاً على الظلل المحيل لعنا تبكي الديار كما بكى ابن حدام^(١)

وقد عرض لها كظاهرة ملازمة للشعر الكثير من النقاد العرب^(٢) ، ولكنهم لم يعرضوا لها إلا هاولين تمييز وجودها ، فقد أجمعوا على أنها وجدت لتهيئة السامعين وجلب انتباههم لكي

(١) أنوار المرافقة - حسن المستوفي - ٢٠٠ .

(٢) أنظر الشعر والشعراء ٦ / ٢٠ ، الواسطة ١٧ ، الصناعات ٤٣٧٠ ، الصنعة ٦ / ٢٢٥ الزمر للسويطي ١٧٧ .

يصفوا إلى الموضوع الأساسي للتصيدة الذي سبل المقدمة ، أما المحدثون ، فقد عرض لها المستشرق الألماني فالتر براون ^(١) ، ورجعها إلى حياة الفلق والحبرة التي كان العربي يجيها . أما الدكتور عز الدين اسماعيل ^(٢) فقد رجعا إلى الخوف والقلق والخوف من الجهول . أما الدكتور يوسف خليل ^(٣) فرأى فيها فرصة أتاحها التقاليد الفنية للوروشة ليحلف فيها الشعراء من التزاماتهم القبلية المفروضة عليهم ، ويغرفوا في هذه المقدمة التعبير عن فواتهم وشخصياتهم في محاولة جادة لتحقيق وجودهم المضاع في زحمة هذه الالتزامات . ورأى فيها باحث آخر أنها ^(٤) ليست أكثر من تقليد في أصل الشعراء الجليليون .

وقد عرف الشعر الجاهلي لتواها من هذه المقدمات ، أكثرها انتشاراً وأعرقها المقدمة الطللية ، ويحرص الشاعر على ذكر الأطلال ويصف آثارها ، وما حل بها وإحبال حالها ، وما تبوءه في نفسه من ذكريات عزيزة . وقد رأى فيها الدكتور يوسف خليل ^(٥) تعبيراً عن ظاهرة الحركة في المجتمع القبلي والتي تعتبر النتيجة الطبيعية للتفاعل الحتمي بين البيئة والحياة .

وعرف هذا الشعر المقدمة الغزلية ، وأفرغ فيها الشاعر الجاهلي آلام الفراق ، وتلذذ بالشوق ، وذرّف الدمع على حبيته الراحلة ، النائية . وعرف كذلك مقدمة وصف القطع ، ومقدمة الشباب والشيب ، وأخيراً مقدمة القرومية التي تكثر عند الشعراء الفرسان .

وليست المقدمة الطللية أو غيرها وفقاً على الطلولات ، فقد عرفت المقطوعات تلك المقدمات ، كما ستعرض لذلك بعد قليل .

ونستطيع أن نقول استناداً إلى الوثائق من الشعر أن نزعهم أن المقدمات رافقت التصيدة الجاهلية منذ أقدم الشعر الذي وصل إلينا، ففي شعر حرب اليوسوس، وهو أقدم شعر نستطيع الاطمئنان إلى صحة بعض المقدمات، ففي المقضية ^(٦) التي يرثي بها المرقش الأكبر ابن عمه الذي قتل في حرب اليوسوس نجد مثل هذه المقدمات، وتشغل أيضاً سبعة، كما نجد في مقضية أخرى ^(٧) للأخض ابن شهاب التغلبي قالها بعد حرب اليوسوس يرثي بها قومه ويكيح حاتم التي ألوا إليها.

(١) مجلة المعرفة السورية حزيران ١٩٦٣ ص ١٥٦ - ١٦١ .

(٢) مجلة الشعر المصرية فبراير ١٩٦١ ص ٣ - ١٤ .

(٣) مجلة لليلة أبريل ١٩٦٥ ص ٣٥ .

(٤) مقدمة القصيدة العربية - حسين عطوان ٦٠٢ .

(٥) مجلة لليلة - أبريل ١٩٦٥ ص ٣٥ .

(٦) المقضية رقم ١٥ .

(٧) المقضية رقم ٤١ .

والباحث في الشعر الجاهلي يرى القصائد في أغلبها وبعض المقطوعات تلازمها في بدايتها مثل تلك المقدمات ولكنه سيجد عكس هذا الواقع حينما يدرس شعر الأيام ، ولعل الأمثلة البسيطة التالية تعطيان فكرة عما نذهب إليه ، في شعر حرب البسوس ، لا تصادفنا أكثر من خمس أو ست مقدمات ، وفي شعر حرب داحس وهو شعر مرحلة قريبة من نهاية العصر الجاهلي يزيد عدد المقدمات فيصل إلى نحو من اثني عشرة مقدمة . وفي حروب الفجار لا نجد أكثر من مقدمة مطلية . ولا نطفر من شعر الأيام بأكثر من ستون قصيدة وصلتنا بمقدماتها .

ولعل في هذه الأمثلة القليلة ما يجعل الصورة أمامنا واضحة ، وهي أن شعر الأيام يكاد يخلو من المقدمات بأشكالها وصورها المختلفة . فما تعليل هذه الظاهرة ؟

أمامنا احتمالات عدة ، سنحاول عرضها ومناقشتها . أول هذه الاحتمالات أن يكون لطبيعة الموضوع وما يتسم به من مفاجأة دخل في ذلك فالنزو والقتال بدأهمهم فجأة ، ومطلوب من الشعراء أن يعبروا عن تلك اللحظات الزاخرة بالانفعالات . ونحن نعلم جيداً أن شعر الأيام ضربان ، ضرب قبل أثناء حدوث الحدث ، وضرب قبل بعد أن هدأت النفوس . ولو توفر لنا معرفة الزمن الذي نظمت فيه النصوص لاستطعنا أن نقول أن الشعر الذي فاجأ حدثه الشاعر تنظم فيه دون مراعاة المقدمة له ما يبرره ، والشعر الذي نظم بعد ذلك بفترة ، ويكون الشاعر قد ابتعد قليلاً عن أجر المشحون بالانفعالات ، فابتدأ القصيدة بمقدمة مناسبة ، ففترة حيناً وإلى مالك بن زهير وكان صديقه لم يضمن قصيدته مقدمة^(١) بل شرع يعبر عن آله وحزنه وخسارة عيس . ولكن عترة حيناً تحدث مقتحراً بيوم المباحة لبيد على زياد العبيسي الذي كان يحسده ويحاول التفتق من منزله ، بدأ الشعر بمقدمة قال فيها :^(٢)

نَأْتِكَ رَقَاشِرٌ إِلَّا عَنْ لِيَامٍ وَأَمْسَى حَبْلُهَا خَلَقَ الرُّمَامُ^(٣)

... الخ المقدمة التي استغرقت آيةً تسعة من القصيدة .

وعندما أسر مهلهل ، وكان سجيناً ، وتذكر قومه وقتلاهم ، وما حل بهم قال مخاطباً ابنة أسره عندما حاولت محادثته :

طَفَلَةٌ مَا ابْنَةُ الْمُحَلَّلِ بَيْضاً ؕ لَعُوبٌ لَذِيذَةٌ فِي الْعَتَاقِ^(٤)

... الخ الأبيات

(١) ديوان عترة ١٧٦ - ١٧٨ .

(٢) الديوان ١٥٦ - ١٥٧ .

(٣) الأغانى / كتب ٥ / ٥٤

(٤) اللهاج : اللقاء العسير . الرمام : قطع الخيال البالية .

ويستخر عامر بن الطفيل يوم عكاظ ، ولا تدري متى نظم هذا الشعر ، ويستغرق ذلك أليافاً عدة ، ولكنه يخلو من المقدمة ، ويقول في مطلعها :

لَقَدْ نَسَا نَقُودُ الْحَيْلِ قَبْلَ عَوَائِبِهَا وَنَخْصِيبُ يَوْمِ الرُّوْعِ أَسْبَابَهَا دَمَا^(١)

ورب قائل يقول لم لا يعتبر هذا المطلع والآيات التالية شكلاً من أشكال المقدمة ، وهي مقدمة القرومية لأنه لا يذكر فيها حديثاً عن حرب معينة ؟

والاحتمال الثاني أن يكون تلخيص الأحداث ، وهدف الشاعر التعبير عن تلك الأحداث ، وأنه ليس مطالباً بالصنع ، بل المطلوب منه التعبير عن تلك الأحداث ولا غبار عليه لو تسرع في النظم ، دون الاهتمام بتقاليد القصيدة الجاهلية ، ودون صناعة دقيقة متأنية .

لكن هذا الاحتمال لا يثبت للتقدم لأن الشاعر الذي تجاهل وجود المقدمة ، فلم ترد في هذا النص ، قد ذكرها في قصيدة أخرى لما نفس الظروف والأجواء . فالأخس التخلي عنها متى فرغهم وبكاهم في مفضلية أهتم بالمقدمة فشملت ثمانية عشر بيتاً^(٢) ، والمرثى الأكبر حيناً وثى ابن عمه الذي قتله بكر ، وتأثر لذلك قطعاً رثاء بقصيدة من القصائيات وأهتم بالمقدمة فشملت أليافاً سبعة^(٣) ، ولكن عترة حيناً رثى ما كان لم يتم بالمقدمة^(٤) ، مع أن شعره الذي وصل إلينا ضمت قصائده مقدمات مختلفة الأشكال والصور . وأما بنت أمية بن عبد شمس فثري أحماء الذي قتل في حروب القحار يوم عكاظ بقصيدة بدأتها بمقدمة تصور حزنها وحالتها النفسية بسبب ما أصابها^(٥)

والاحتمال الثالث أن تكون القصائد بمقدمات حيناً نظموها ، ولكن هذه المقدمات ضاعت فيها ضاع من هذا الشعر . ويعضد هذا الاحتمال أن شعر الأهم خاصة تندرج فيه المقدمات ، لأن المقطوعات غالباً عليه ، ولأن هذه المقطوعة بعضها منتزع من قصائد ، سقط باقيها ولم نعر حله .

ويدعم هذا الاحتمال أن الشعراء الذين سلمت أشعارهم ودواوين شعرهم من الضياع أو الحبس والتحريف قد حوت دواوينهم الكثير من هذه المقدمات ، وأقرب مثال لما ذهب إليه حيوان عترة وشعر مهلهل . وما يذكره أيضاً أن شعر الشعراء الذين لم تصل إلينا دواوينهم في

(١) حيوان عامر بن الطفيل ١٢٨ .

(٢) القصيدة ٤١ .

(٣) القصيدة ٤٥ .

(٤) حيوان عترة ١٧٦ .

(٥) الأغاني / تكملة ٢٢ / ٥٠ .

مطلبه شعر مقطوعات، وخلال من المقدمات حتى لو وجدت القصائد . ولكن هذه ليست قاعدة مطلقة بل نجد ما يقيدنا ويضعفها .

والحقيقة التي يمكن أن نزعها أن شعر الأيام ما زال مبعثراً ، ولا نستطيع أن نقطع برأي في ظاهرة كهذه إلا أن نخمن ، وكانت النتيجة ستكون أقرب إلى الحقيقة لو وصل إلينا جو الشعر الذي قيل فيه ، إذن لاستطعنا التمييز بين ما قيل فور حدوث الحدث ، وما قيل بعد ذلك ، ونقررنا حل ضر ذلك .

بقيت كلمة أخيرة وهي أن شعر الأيام الذي ضمت قصائده مقدمات قد عرف أنواع المقدمة المختلفة : الطويلة والغزلية والفروسية ومقدمة الشباب والشيب^(١) . ووصف الظن . كما أن المقطوعات عرفت المقدمة أيضاً .^(٢)

وما دعنا قد ذهبنا إلى إحمال فقدان مقدمات الكثير من قصائد الأيام فإنه من الطبيعي أن يسقط معها المطلع المصروع ، هذا لو وجدت مطلع مصرعه ، لأن السرعة الفنية التي طبعت شعر الأيام تجعل اهتمام الشاعر بهذه الصفة الموسيقية أمراً نادر الوقوع .

مواكبة الشعر لأحداث الأيام

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن أخبار الأيام لم تصل إلينا إلا عن طريق الشعر ، سواء أكان شعر هذه الأيام الذي رواه الرواة كجزء من شعر الشعراء الذين روى شعرهم ، أو الشعر الذي نظمته شعراء العصر الأموي ، ذلك العصر الذي احتدمت فيه العصبيات القبلية وبعثت من مرقدتها بعد أن كاد الإسلام يطمسها ويستبدل هذه العصبة النين الجديد . وعلى وجه التحديد ذلك الثالث الشعري المتمثل في جرير والفرزدق والأعطل ، فقد أثار جرير والفرزدق من خلال تراشقهما بالحجاء والتفاخر أحداث من أيام القبائل وحروبهم ، وكان لتعيم حصه الأسد من تلك الأيام التي ذكرت في تلك قصيدتها ، وعندما شرح أبو عبيدة نقائضها أسهب في الحديث عن تلك الأيام التي أشار إليها في شعرهما .

أما عربون الشعر التي رواها الرواة فقد حلوا بالإضافة إلى الشعر مناسبة هذا الشعر وإطلوه التاريخي ، ودعاهم ذلك إلى التحدث عن اليوم الذي قيل فيه هذا الشعر بإيجاز .

(١) ديوان حمزة ١٧٨ .

(٢) ديوان حمزة ١٩٠ .

وعندما عرض المؤرخون تلك الأيام استمعوا ببعض هذا الشعر الذي وجدوه في متناول أيديهم ليدلوا على صحة ما يقولون ، فعملوا ذلك لما للشعر من منزلة في نفوس الناس ، ولائحه في تزوين الحبر ، وهذا الأثر دعا بعضهم إلى إيراد الشعر دونما تحقيق في هذا الشعر أو في مصادر أو روايته .

ولا نستطيع قبل أن نبحث في استطاعة شعر الأيام تغطية أحداث تلك الأيام بكاملها ، إلا أن نشير إلى بعض المشكلات التي تعترض سيلنا . ولعل هذه المشاكل أن القسم الأكبر من شعر الأيام ليس بين أيدينا ، وهو موزع بين مفقود لم يصل إلينا ولم يصل ، وبين مدفون في بطون المخطوطات من تراثنا والتي لم تر النور بعد ، ثم تواجهنا بعد ذلك مشكلة أن كتاباً أو كتاباً دونت شعر الأيام مستقلة لم يصل إلينا ، على الرغم مما أشير إليه ابن النديم وغيره من أن أبا عبيدة القه كتاباً في الأيام ، ولعل إلى أنه ضمت شعر تلك الأيام ، كما أن أبا الفرج له كتاب في الأيام تفسر ألفاً ومائتي يوم . ولو كان وصلنا ديوان شعر للأيام ، أو مؤلف كامل تلك الأيام لتغيرت الصورة ومن المشكلات التي تعترض الباحث أن شعر الأيام مختلفاً في قصائده لم يكن هدفاً في حد ذاته ، بل كان وسيلة يقتطف منه المؤرخ والأديب ما يناسب ويناسب مؤلفه ليستشهد به . وقد كان لهذه العملية تظهير لأوصال تلك الشعر وتثريه ، وقد كان أولئك العلماء والذين نرجح أن شعر تلك الأيام كان في متناول أيديهم ، كانوا يسقطون ويملكون ما لا يلزمهم فيضيع وينساه الناس . لأن كل جيل ، بعد انتشار التدوين والكتابة ، كان يتصل بما هو مدون لمحسب . وما يؤكد زعمنا أن لها هي أكثر القبائل حفظاً في بقائه قسم كبير من أيديها ومن شعر تلك الأيام ، كما أن تلك الأبيات المفردة والتي تظلمنا في شعر الأيام الذي بين أيدينا أكثر دليل على ما تلعب إليه ، فقد حفظت تلك الأبيات المفردة لأن مؤلفها تحوياً أو علماً من علماء العرب قد احتاج إليها فدونها ، وذكر مناسبتها وأسقط باقي القصيدة لأنها لا تعنيه .

ففي يوم غول الثاني عبر سحيم بن وتيل الرياسي طرناً بقتله جلويه ، ولا تتصور أن يكون ذلك مثلاً في بيت واحد من الشعر نظم على بحر من بحور الشعر التي عرف أنها تستخدم في الموضوعات التي تستغرق أبياتاً عدة . فنحن لا نرى إلا هذا البيت أورده ابن عبدويه في العقد المفرد .

لقد كنتَ جاورَ ابْنِي هُجُومَةً قَبْلَهَا فلم تُعَسِّرْ شَيْئاً غَيْرَ قَتْلِ الْمُجَاوِرِ^(١)

وما يدهم وجهة نظرننا هذه أن القصيدة التي وردت في مجموعة المنفصليات وفي دواوين

(١) العقد المفرد ٢٣٩ / ٥ .

الشعراء الذين قدر لدواوينهم أن تصل طويلاً ومكتملة البناء ، في حين نجد المقطوعات نسبتها كثيرة جداً في الشعر الذي ورد في غير الدواوين والمقتضيات . ويتضح هذا الذي نذهب إليه بشكل عملي إذاً ما قرنا بين نص لشاعر ورد في ديوانه وبين ذلك النص أو القسم الذي أورده كتاب تاريخ أو أدب ، ففي يوم الفجر الأول للأندلس ، وهو يوم من حروب الأوس والحزرج ، يقول عبد الله بن رواحة حيناً جرح قيس بن الخطيم :

ومينالك أيام الفجر فلم تزل حياً فمن يشرب فلست يشرب^(١)

ولكننا نجد أن ذلك النص يزيد على الخمسة عشر بيتاً من الشعر أوردها محقق ديوان قيس ابن الخطيم^(٢) .

ومن العجائب التي تعترض سبيل البحث الصحيح ذلك العبث الكثير ، والتحريف عن عمد أو عن جهل من النساخ والرواة وآخرها المحققون ، فإن أية نظرية فاحصة في نص في مصادر مختلفة عرضت أجزاء منه تكفي لكي نلاحظ التحريف الذي قد يصل إلى حد تغيير المعنى وتغيير نتيجة المعركة التي يتحدث عنها ذلك النص . ومن المضاعفات التي يحدثها ذلك التحريف تغيير بعض الأعلام فيه والتي لها أهمية بالغة في رصد أحداث تلك الأيام .

ولقد عرضنا فيما سبق من بحثنا إلى ضياع مقدمات الكثير من قصائد شعر الأيام ، وعلى الرغم من أن الاعتقاد السائد لدى الكثيرين أن المقدمة قد تبدو غير ذات أهمية ؛ إلا أنها قد تكشف لنا أشياء تحصل باليوم أو بطبيعة الغرض . لو تكشف لنا عن نفسية صاحب النص . ولقد رأينا أن بعض شعراء الأيام من فرسان تلك الحروب تحدث في مقدمة قصائده عن فرسه أو غير ذلك مما يتصل بالحرب مستعاضاً بذلك عن تلك المقدمة الظنلية أو الغزلية المتعارف عليها ، كما فعل عنترة وغيره .

انتشر عامر بن الطفيل العامري يوم هكاه من أيام الفجر الآخر ، وبدأ قصيدته بمقدمة ضمنها حديثاً عاماً عن الحرب والفرسان وفخر بفرسان قومه وبجهايتهم الفعار ، ثم انتقل إلى موضوع الشعر الرئيسي ، فقال :

ألسنا نفوة الخيل قباءً حوايساً ونخشب الزمار حين يشتجير القتأ
ونخشب يوم السروع أسافناً دماً ونثني عن السرب السرعيل السوما

(١) الكامل لأبن الأثير ١ / ٦٧٦ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ١٣٥ .

ونستلبُ الخَوَّ العوايسُ كالقنا سَوَاهِمَ يَحْمَلْنَ الوُشِيحَ المَقُومًا^(١)

والتعبيراً فإن من المشكلات العامة اختلاف المؤرخين والرواة أحياناً في إسناد الشعر إلى غيره ، وهم يفعلون ذلك حيناً لا يرد ذكر اليوم في الشعر الذي يوردونه ، فيجهد كل منهم أو يفعل قصة لذلك الشعر، هذا إذا لم يكن في حوزته مناسبة ذلك الشعر من رواية الشعر، لأنه لو سلمنا بأن كل شعر خلا من ذكر اليوم هتلق ، ومن فعل المؤرخين لألفيتا شعراً كثيراً ، ولأنفسنا خلاً جديداً بقوض بلباً تعاورته عوامل هدم كثيرة ، من داخله ومن خارجه .

ويتصل بالإستاد أيضاً اختلافهم في إسناد الشعر إلى صاحبه ، لأن ذلك يضيف اضطراباً جديداً إلى الصورة العامة لأحداث تلك الأيام ، وبخاصة أن معظم الشعراء اشتركوا في تلك الأيام ، ففرق بين أن يسند هذا الشعر إلى الحوفزان بن شريك لو أن يسند إلى غيره ، لأن معناه أن الحوفزان عاش حتى شهد يوم ذي قار ، ويتغير الصورة إذا ثبت لنا أنه مات قبل أن يشهده^(٢) :
 مَا رَأَيْتُ الْحَيْلَ شَكَّ نُحُورَهَا حِيَابُ وَشَابُ صَبَرْتُ جَنَاحَا
 عَلَى الْمَوْتِ حَتَّى أُنْزِلَ اللَّهُ نَصْرَهُ وَوَدَّ جَسَّاجٌ لَوْ قَطَعِي فَاسْتَرَحَا^(٣)



ولكننا لا نملك تغيير حقائق وصلت إلينا ، فلا نملك أن نضيف إليها عوضاً عن ذلك الذي ضاع ولا نملك إلا أن نصحيح ما نستطيع تصحيحه بالفتارة وترجيح الروايات الموثقة. فيمن أهدنا بمسوعة ضخمة من شعر الأيام بلغت أكثر من مائة ألف قصيدة ومقطوعة ، ومطلوب منا أن نقرر هل هذا الشعر يرصد أحداث الحرب وينطبقها من بدايتها إلى نهايتها ؟

قبل الإجابة عن ذلك التسلول نود أن نوضح المقصود بأحداث الحرب وحديثاتها ، فالجواب تنسب بين قبيلتين أو أكثر ، ولا بد من سبب لنشوب تلك الحرب ، وقد تطول الحرب فتستمر أكثر من لقاء ، كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، وحرب القجار ، وحروب الأوس والخزرج ، والحرب قائمة بقومون فرسان فيلثمهم ومقاتليها ويوجهونهم . وفي الحرب يلتقي الطرفان ويتحان ، ويسقط قتل وجرحى ، ويقع أسرى في أيدي الأعداء ، وتسبى سبائا ،

(١) ديوان حمز بن الطفيل ١٢٨ .

(٢) الغنائم ٢ / ٦٤٦ .

(٣) جناح : اسم فرسه .

وتساق انعام كفتاحهم . وفي الحرب تحاك الدسائس والحيل كوسائل للتغلب على الأعداء . وترفع أصوات خافذة تلاميذ السلام ووقف القتلى بين المتحاربين وتدعو إلى الصلح وسط ذلك الصخب وتلعلمة السريف .

تلك هي أبرز الأحداث والتفاصيل المتصلة بالحرب ، ولنحاول أن نتصل بالشعر لنرى مدى تغطيته لتلك الأحداث .

ولنأخذ يوماً هاماً من أيام العرب ، وننظر في الشعر الذي وصل إلينا لنرى مدى مواكبة هذا الشعر لأحداث ذلك اليوم ، وهو يوم ذي قار ، وبين أهلينا من الشعر الذي قيل فيه أربعة أربعين مقطوعة والصبغة ، وحتى تكون الصورة واضحة فلنأخذ منه إلى أنه لا بد من أن نذكره بالشعر لتكوين صورة واضحة للعالم .

وأسباب هذا اليوم كما أوضحناها في غير هذا الموضع كثيرة ولكن الشعراء عرضوا لنا سبباً ، الأول أنزع النعمان ، يقول بعض شعراء بني ربيعة مفتخراً بأنهم منعوا أنزع النعمان :

أَلَا مَنْ لِلْجَلَدِ لَا تَغُورُ كَوَائِبُهُ وَهُمْ سَرَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ جَانِبُهُ
أَلَا هَلْ أَتَاهَا أَنْ جَيْشاً عَظُمَ مَرَمَاً بِأَسْفَلِ ذِي قَارٍ أَهْدَتْ كَتَائِبُهُ
فَمَا خَلَقَهُ النِّعْمَانُ يَوْمَ طَلَبَتْهَا بِأَقْرَبِ مَنْ نَجَمِ السَّمَاءِ ثُرَائِبُهُ^(١)

وذكر قيس بن مسعود السبب الآخر وهو اعتداء قومه بكر على سواد العراق الذي يجمعه كسرى ، فقد تعهد قيس بن مسعود أمام كسرى بمنع قومه من الاعتداء عليه مقابل منحة سنوية ، ولكنه لم يستطع فجهده كسرى ، بسبب تخلفه به فقال وهو محبوس :

أَلَا أَبْلَغُ بَنِي دُعْلُجٍ رَسُولاً فَمَنْ هَذَا يَكُونُ لَكُمْ مَكَانِي
أَيَاكُلُهَا إِبْنُ وَحْلَةٍ فِي ظَلَمِهِ وَيَأْمَنُ هَيْشَمٌ وَابْنَا مَيْتَانِ ؟
وَيَأْمَنُ لِيَكُمُ الذُّهْلُ بَعْدِي وَقَدْ وَصَّوْكُمْ سِمَةَ الْبَيَانِ
أَلَا مِنْ مَبْلَغٍ قَوْمِي وَمَنْ ذَا يَبْلُغُ عَنْ أُسَيْرٍ فِي الْأَوَانِ ؟^(٢)

ويقول الأعشى أيضاً مصراً على عدم الضرب بلنزع النعمان :

خَلَقْتُ بِاللَّحْرِ وَالرَّمَادِ وَالْعَرَّ يَ وَيَالِلَاتِ ثُلُثُكُمْ الْخَلَقَةُ

(١) الأغاني / ثقافة ٢٣ / ٢٣٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ٢٣ / ٢٢٢ .

حسَى يَظِلُّ الْهَامُّ مُتَجَدِّلاً وَيَفْرُغُ التَّيْلُ طَرَّةَ الدَّرَكَةِ^(١)

وقد احتفظت الأقوال حول القبائل المشتركة في ذلك اليوم ، لشعراء شيان يدهون أن شيان فقط هي التي حاربت الفرس ، وأدعى آخرون أن آخرين اشتركوا معها . ولكن عمرو بن الأسود حدد لنا المشتركين في ذلك اليوم فقال من أسمعته^(٢)

لَمَّا سَمِعْتُ نِدَاءَ مَرَّةٍ قَدْ عَلَا
وَعَلَّأَ يَمْشُونَ تَحْتَ لِيَوَاتِهِمْ
وَسَمِعْتُ يَشْكُرُ تَدْعِي بِحَيِّبٍ
وَحَيِّبٌ يَزْجُونَ كُلَّ طَيْرَةٍ
وَالْجَمْعُ مِنْ فَعْلٍ كَأَنَّ زُهَانَهُمْ^(٣)
قَذَفُوا الرِّمَاحَ وَبَاشَرُوا بِنَحْوِهِمْ
وَإِنِّي رَيْبَةٌ فِي الْغِيَارِ الْأَقْتَمِ
وَالْمَوْتُ تَحْتَ لَوَاءِ آلِ عُلْمٍ
تَحْتَ الْعَجَاجَةِ وَهِيَ تَقَطُرُ بِالْدَمِ^(٤)
وَمِنَ الْهَازِمِ شَعْتُ غَيْرُ مُصْرَمٍ^(٥)
جَرَبُ الْجَمَالِ يَفُودُهَا ابْنَا شَعِيمٍ^(٦)
عِنْدَ الضَّرَابِ بِكَلْرِ لَيْثٍ غَسِيمٍ

وكان واضحاً في هذا اليوم أن العرب يقاتلون عدواً من خارج الجزيرة ولم يكن قتالاً بين قبائل عربية ، ويبدو أن ذلك كان واضحاً لدى بعضهم ، لهذا حنظلة بن ثعلبة يقول عرضاً ومبيناً شرف القتال في هذا اليوم :

يَا قَوْمَ طَلِبُوا بِالْفَتَالِ نَفْسًا
أَجْدِرُ يَوْمَ أَنْ تَقْلُوا الْفُرْسَ^(٧)

وترجمز امرأة من عجل ولومها يقاتلون الفرس تقول محبرة من مطبة الخزيمية^(٨)

إِنْ يَطْفَرُوا يَحْسِرُوا فَيْتَا الْغُرَانِ
أَبُو قُدَيْ أَبِي لَكُمْ بَنِي عَجَلٍ^(٩)

وهي بذلك تحدد اشتراك عجل في هذا اليوم .

ويقال أبو كلبة ، أحد بني تيس بن ثعلبة ، مؤنباً الأعرابي والأصم لندحها شيان خاصة

(١) نفس المصدر ٢٣ / ٢٣٩ .

(٢) الأصمعية رقم ٢١ .

(٣) تدعى : تنسب .

(٤) الطمرة : المستفزة للوثب والعدو . الشطت : اللقيط .

(٥) زهانههم : قدرهم .

(٦) تاريخ الطبري ٢ / ٢٠٩ ، القفاض ٢ / ٦٤٢ .

(٧) القفاض ٢ / ٦٤١ .

(٨) الغزل : الرمح الطويلة .

فيقول : مشيراً إلى الشترك اللهازم وبني عجل ، واعتراقاً بـشترك شيان :

لولا فوارسٌ لا ميلٌ ولا عزٌّ من اللهازم ما قاطعوا بلدي قار .

ثم يقول :

إن الفوارس من عجلٍ هم أنقوا من أن يخللوا يكرى عرصة الدار
قد أحسنت ذهل شيان وما عدلتُ في يوم ذي قار فرسان ابن سكر
هم الذين أتوهم عن شياثلهم كما تلبس وركب بضار^(١)

وقد غضبت شيان لأن بعض القبائل العربية ثقافت عن نصرتهم عواً من بطش كسرى ، وظهر هذا الغضب والعتاب القبائل بعد على لسان الأعشى حينما قال :

لو أن كل معد كان شلوكتنا في يوم ذي قار ما أخطأهم الشرق^(٢)

وقد حدد شعراء هذا اليوم اسمه ومكان اللقاء ، فقال الأعشى من قصيدة له :

هم ضربوا بالجنو حنو قراقر مقدمة الهامز حتى تولت

ويقول في بيت آخر من نفس القصيدة :

فصبحهم بالجنو حنو قراقر وذى قارها منها الجنود فقلت^(٣)

وذكر اليوم أعشى ربعة حين قال :

ونحن غداة ذي قار أقمنا وقد شهد القبائل عكينا^(٤)

ويطرح العذيل المجل ميلاً لعمية ذلك اليوم :

وما يعدون من يوم سمعت به للناس أفضل من يوم بلدي قار^(٥)

وسماه ابن قرد الحزير النجم يوم كسرى فقال متحدثاً عن بني لجم :

(١) الأخفاني / ثقافة ٢٣ / ٢٣٧ ، تاريخ الطبري ٢ / ٢١١ .

(٢) ديوان الأعشى ٣٠٩ ، الأخفاني ثقافة ٢٣ / ٢٤٠ .

(٣) ديوان الأعشى ٢٥٩ .

(٤) تاريخ الطبري ٢ / ٢١٢ .

(٥) التقاتض ٢ / ٦٤٦ ، العقد الفريد ٥ / ٢٦٦ .

هُمْ ضَرَبُوا الْكَتَّابَ يَوْمَ كَسْرَى أَمَامَ النَّاسِ إِذْ كَرِهُوا الْجِلَادَ^(١)

وذكر عمرو بن الأسود ذلك اليوم بأحد أسماؤه وهو ذات المعجم :

وَلَقَدْ أَسْرَتُ أَعْمَالُكَ عَشْرًا أَفْرَهُ لَعْنَتِي وَضَيْغَتُهُ بِذَاتِ الْعُجْرَمِ^(٢)

ولقد حصد أحد شعراء هذا اليوم عند الجيوش ، فقال بكبر ، أصم بني الحارث بن عباد :

زَحَفُوا بِجَمِيعٍ لَا تُرَى الْفُطَارَةُ لَقَحَسَتْ بِهِ حَرْبٌ لَفِيرٌ غَامٌ

عَرَبًا ثَلَاثَةَ أَلْفٍ وَكُنِيَّةُ أَلْفَيْنِ أَهْجَمَ مِنْ بَنِي الْفُذَّامِ^(٣)

ويبدو أن البعض قد علم باستعدادات القرس ، وأنهم حل وشك الزحف للقضاء على بكر ، فلم يضمن هؤلاء حل بكر بالتحطير لكني تستعد ، ومن هؤلاء مرداس أو حباس بن مرداس السلمي الذي كان مجاوراً فيهم ، ورأى الجيوش تقبل نحوهم فقال :^(٤)

أَبْلَغُ سَرَاةٍ بَنِي بَكْرٍ مَغْلُغَلَةٌ إِنْ سِي أَخَافَ عَلَيْكُمْ سَرِيَّةَ الدَّارِ^(٥)

إني لرى الملك الحامز متصلاً يزجي جياداً وركباً غير أبرار

وكان قيس بن مسعود محبوباً عند كسرى ومع ذلك بعث بجنودهم ويحصد لهم الأماكن التي حلهم لئلا يفلت من قبضته :

وصاة امرئ لو كان فيكم أعانكم على الدهر والأيام فيها الغوائل

فليأكلكم والسطف لا تقربه ولا البحر إن الماء للبحر واصل^(٦)

ولما لفظ الأبادي - وكانت لباد قد حازت إلى جانب جيش القرس - فقد كتب إليهم بجنودهم وبهمهم حل تسليم القيادة إلى قائد كفسه ليحقق هزيمة القرس فقال :

(١) الأغلبي / ثلاثة / ٢٣ / ٢٣٩ .

(٢) الأصمعيه رقم ٢١ .

(٣) الأغلبي / ثلاثة / ٢٣ / ٢٣٨ ، تاريخ الطبري / ٢ / ٢١١ ، الشافعي / ٢ / ٦١٤ .

(٤) الأغلبي / ثلاثة / ٢٣ / ٢٦٨ .

(٥) سرية الدار : السرية السطر الغربي ، السرية : الجبهة ينزلون من المعسكر فينبغون ويرجعون . مغلغل : ومغلة .

(٦) الأغلبي / ثلاثة / ٢٣ / ٢٦٤ .

قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم انزعوا قد ينال الأمن من فزعها
وقلدوا أسركم لله ذركم وحسب الذراع بأمر الحرب مضطجعاً^(١)

ولقد أحس بعض المختلين والقادة برغبة من لقاء تلك الجيوش التي لا قبل لهم بها ، وانترك
القادة والشعراء ذلك فهبوا يهتفون من أمرهم ، هذا عمرو بن جيلة البشكري يقول مرتجزاً^(٢) :

يا قوم لا تغرركم هذى الحرق ولا ويمض البيض في الشمس يرق
من لم يقاتل منكم هذى العنق فجنسوه السراح واسقوه المرق^(٣)

وحديث المؤرخون أن فكرة اللجوء إلى الصحراء وعدم ملاقة جيش القرس قد راودت بعض
القادة ، وأن الفريقين للعارض لجأ إلى قطع ومن النساء لهذا كل من حريمه . ووقف يزيد
للكسر بن حنظلة مرتجزاً :

من فر منكم فر عن حريمه وجساره وفر عن نديه^(٤)

أما الأبطال والفرسان الذين أبلوا في ذلك اليوم فقد أخذت الشعراء بعضهم ، ومع ذلك
ذكروا بعضهم ، يقول سويد بن أبي كاهل البشكري مفتخراً بيزيد بن حارثة البشكري الذي
حل على المرزيان فقتله :

منا يزيد إذ تحدى جموعكم قلم تقرىوه المرزيان المسود^(٥)

وذكر أبو كلبة بن سيار العجلي فقال مصوراً بطولته وبطولة فرسانه :

قد أحسنت دهل شيان وما عدت في يوم ذي قار فرسان ابن سيار
هم الذين اتوهم عن شيا يلهم كما تلبس وراد يصعد^(٦)

وذكر بكير ، أسم بني الحارث بن عبد بطولة أبي قيس فقال :

شد ابن قيس شدة ذهبت لها فخرى له في معبري وشام^(٧)

(١) العقد القديم ٥ / ٢٦٨ . والحياة البصرية ١ / ٨٩ .

(٢) الأغاني / قلعة ٢٣ / ٢٣٢ . (٣) العنق : الجباة من الناس .

(٤) الغنائس ٢ / ٦١٣ . (٥) الغنائس ٢ / ٦٤٣ .

(٦) الأغاني / قلعة ٢٣ / ٢٣٧ ، تاريخ الطبري ٢ / ٢٩١ ، الغنائس ٢ / ٦٤٥ .

(٧) الأغاني / قلعة ٢٣ / ٢٣٨ ، الغنائس ٢ / ٦٤٥ ، تاريخ الطبري ٢ / ٢٩١ .

ويشير حنظلة بن ثعلبة إلى أحد الفرسان في ذلك اليوم وهو عُمَيْرُ فيقول :

هَذَا عُمَيْرٌ تَحْتَهُ الْدُّ يُقَدِّرُهُ لَيْسَ لَهُ مَرَدٌ^(١)

وكان نصيب قائد كل من الجيشين من الأعيان قليلاً ، فلم يذكرُوا إلا الهامِرُ والزُرَيان ،
والنعمان بن زُرعة وهؤلاء من قلعة جيش القُرس ، وذكرُوا ابن سيار . يقول أحسَى ربيعة :

فَوَلُونَا الدَّوَابِرَ وَاتَّقُونَا بَنُوعَانِ بْنِ زُرْعَةَ انْتَهَبَا^(٢)

ويقول مرداس السلمي لو عباس مرداس بن السلمي :

إِنِّي أَرَى الْمَلِكَ الْهَامِسِرَ مُتَّصِلًا يُزْجِي وَرَكِبًا غَيْرَ إِبْرَارٍ^(٣)

أما جيوش القرطيين فقد أسهبوا في وصفها وبخاصة جيش القُرس ، ولعلهم فعلوا ذلك
للمبالغة في تصوير انتصارهم على جيش دولة ثم يفكرُوا يوماً بجزئتها . ويعتبر وصف الأُصْنَى
للجيش وللغداة القرطيين من أنقى الوصف وأجمله حيث يقول مصوراً جيش الأعداء :

لَمَّا أَتَيْنَا كَانَ اللَّيْلُ يَقْدُمُهُمْ	مُطْبِقَ الْأَرْضِ تَغْشَاهَا جَهْمٌ سَدَفٌ
بَطَارِقٌ وَهَنُوا مَلِكٌ مَرْلُزَةٌ	مِنَ الْأَعَاجِمِ فِي آذَانِهَا الطُّفْ
مِنْ كُلِّ مَرَجَانٍ فِي الْبَحْرِ لَحْرَزَاهَا	نِيَارُهَا وَقَامَاهَا طِينُهَا الصَّدَفُ
كَانُوا الْآلُ فِي حَافَاتِ جَمْعِهِمْ	وَالْبَيْضُ يَرُقُّ بِدَا فِي عَارِضِ يَكُفُّ

ويتحدث عن جيش قومه فيقول :

وَجَنَدٌ كَسَرُوا غَدَاةَ الْخَنِي صَبَّحَهُمْ يَتَنَا	خَطَارِيفُ تَزْجِي الْمَوْتُ فَانْصَرَفُوا
لَقُوا مَلْمَعَةً شَهَاءَ بَقْدَمِهَا	لِلْمَوْتِ لَا عَاجِزَ فِيهَا وَلَا غَرَفُ
فَرَّغَ ثَمَنَهُ فَرُوحٌ غَيْرُ نَاقِصٍ	مَوْفِقُ حَزْمٍ فِي أَسْرِهِ الْيَفُ
فِيهَا فَوَارِسٌ مَحْمُودٌ لِقَاؤُهُمْ	مِثْلُ الْأَسْبَقِ لَا مِيلَ وَلَا كُثُفُ
يَبِضُّ الْوَجْهَ غَدَاةَ السُّرُوحِ تَحْسِبُهُمْ	جَنَانٌ عَسِرَ عَلَيْهَا الْبَيْضُ وَالزَهْفُ

(١) تاريخ الطبري ٢ / ٢٠٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٢ / ٢١٢ ، الخاقاني ٢ / ٦٤٦ .

(٣) الأغاني / ثقافة ٢٣ / ٢٢٨ .

(٤) متصلنا : جانا ونظما القوم .

وصور الأعمى لنا نتيجة المعركة في أبيات قليلة فقال :

لما التقينا كشفنا عن جراحنا لمعلموا أننا بكرٌ فيصرفوا
لما أمالوا إلى الشباب أيدهم بلأنا بهيهر فظل الهام يختطفُ
ونخلُ بكرٍ لما تنفك قصدهم حتى تولوا وكاد اليوم يتصفُ
قالوا البقية والمهندي يحصدهم ولا بقية إلا السيف فأنكشروا^(١)

وعلى الرغم من اضطراب ترتيب هذه الأبيات في المصادر المختلفة إلا أنها تعطينا صورة واقعية لذلك اليوم .

وتحدث شعراء آخرون عن نتيجة المعركة ، فهذا ضرار المجلي يخبرنا بقرار فية لجمعاء بعد أسرتين كهلأ منهم كما أنهم قتلوا سيدهم الأضخم الضبي :

كسونا الأضخم الضبي لما أنا حذٌ مصقولٍ رفيقٍ
وفرئت فبة الجمعاء لما أجدٌ بهنٌ إتعابُ الوسيقِ
أسرنا منهم تسعين كهلأ نفوذهم إلى وصحح الطريق^(٢)

وبخبرنا المثل بن الفرخ العجلى بما استلبه من القوم المهزمين فيقول :

جئنا بأسلاهم واخليلُ عابسةً يوم استلبنا لكسري كلُ إسوار^(٣)

وألقت في هذا اليوم النعمان بن زردة التغلي وأخبرنا بهذا شعراً مرثد بن الحارث الشيباني :

وأفلتسي النعمانُ قابُ رماحنا وفوقَ لطاءِ المهرِ أزرقٌ لهدم^(٤)

وقيل المأمَرز في هذا اليوم فأخبرنا الأعمى بذلك في شعره فقال :

فجاء القيلُ هأمَرزُ عليهم يُقسِمُ القسما

(١) ديوان الأعمى ٣٠٩ ، المجلد الفرید ٥ / ٢٦٦ ، وأورد بعض هذه الأبيات الأتقاني / ثلاثة ٢٣ / ٢٤٠ .

(٢) التلخيص ٢ / ٦٤٨ .

(٣) نفس المصدر ٢ / ٦٤٦ ، المجلد الفرید ٥ / ٢٦٦ .

(٤) الأتقاني / ثلاثة ٢٣ / ٢٣٣ .

يَذُوقُ مُشْتَعِلاً حَتَّى يُؤْمِسَ السَّيِّءَ وَالشَّعْأَ
فَلَا تَلْقَى الْمَوْتَ مَكْتَبِئاً وَتُخْلَا ذَوْنُ مَا زَعَمَ^(١)

وبالغ الشعراء في تصوير كثرة عند القتل من الفرس زهوا بذلك النصر الذي حققوه على
الفرس ، فقال الأعشى :

لَمَّا أَمَالُوا إِلَى النَّشَابِ أَيْدِيَهُمْ بِلَنَا يَبْخِرُ فُظُلُ الْهَامِ يُقْتَطَفُ^(٢)

ويقول من قصيدة مصوراً ما كانت عليه حالهم وما آلت إليه :

أَذَاقُوهُمْ كَأْساً مِنَ الْمَوْتِ مَرَّةً وَكُنْتُ يَلْزَمْتُ فِرْسَانَهُمْ وَأَذَلْتُ

وبعدنا الأعشى عن هزيمة الأعداء ومسير نساكهم فيقول :^(٣)

فَمَا يَرْحُوا حَتَّى اسْتَحْجَتْ نِسَاؤُهُمْ وَأَجْرُوا عَلَيْهَا بِالسَّهَامِ فَذَلَّتْ^(٤)

ويروى أن قيس بن مسعود وفد على كسرى بعد يوم ذي قار ، فذهب الأعشى يلوم ويذكر قضي
قار ويذكره بحاجة يذكر إليه ويمتزله :^(٥)

أَقْسَى بِنَ مَسْعُودٍ بِنَ قَيْسٍ بِنَ عَالِمٍ وَأَنْتَ أَمْرٌ تَرْجُو شِبَاهَكَ وَأَقْلُ
أَطْوَرَيْنِ فِي عَامٍ : غَزَاةٌ وَرَحْلَةٌ أَلَا لَيْتَ لَيْسَ طَرَفُهُ الْقَوَابِلُ^(٦)

ثم يذكره بذلك اليوم ويقتل فيقول :

كَأَنَّكَ لَمْ تَنْهَزْ قَوَائِمِينَ جُتَّةً نَعِثَ ضَبَاعٌ فِيهِمْ وَهَوَامِلُ^(٧)
تَرَكْتَهُمْ صَرَعَى لَدَى كُلِّ مَتَهَارٍ وَأَقْبَلْتَ تَبْغِي الصَّلَاحَ أَمَّاكَ هَابِلُ^(٨)

(١) ديوان الأعشى ٢٩٩ ، تلويح الطبري ٢ / ٢١٢ .

(٢) ديوان الأعشى ٣٠٩ .

(٣) قيس القصير ٢٥٩ .

(٤) استحجت نساؤهم : طلب منها الأسراع في السير ، أجروا عليها بالسهم : اكسبوها .

(٥) ديوان الأعشى ٦٨٣ .

(٦) القوابل : جمع قابلة وهي المركبة التي تساعد المرأة لتلقي الولد عند الولادة .

(٧) هوامل : جمع حائل وهو اللب .

(٨) هابل : الأم التي تكلمت ولدها .

ويبدو أن أولئك القتل من بكر لأنه يلومه على فعلته وكأنه نسي أولئك القتل ويذهب يمشي الصالح .

وبعد هذا العرض المستفيض لشعر يوم ذي قار فإننا نقارنه ما نورده هنا الشعر بما ذكره المؤرخون من أحداث هذا اليوم نرى أن هذا الشعر قد غطى معظم أحداث ذلك اليوم ، وأنشأ قصير في تغطية بقية الأحداث فإن له فضلاً وهو أنه رصد لنا بعض الأحداث التي لم تذكرها مصادر أخرى غير الشعر .

وتعليل ذلك التقصير الذي بنا إما أن يكون متصلاً بالرواة وإما أنهم أو نسيانهم بعض الشعر ، ولما أن تكون تلك الأحداث لم تراعهاهم .

واستطيع أن نظن هذا المنهج الذي استخدمناه في هذا اليوم على الأيام التي وصلنا قدر كاف من شعرها ، أما الأيام غير المحفوظة والتي فقد الكثير من شعرها فإننا نقف عاجزين .

كما يمكن تطبيق ذلك على مجموعات الأيام التي تربط بينها وابطة ما ، كحرب داحس وحرب البسوس ، وحروب الفجار ، وحروب الأوس والخزرج ، وسندرس مدى تصوير كل من شعري مهلهل وعشرة لأحداث حربي البسوس وداحس .

ونختتم حديثنا هنا بالإشارة إلى نقطتين هامتين ، الأولى أن الرواة والمؤرخين انهمسوا لأوتهم بعضهم بمحاولة المطابقة بين الحادثة والشعر ، ولكن ذلك لا يؤثر على مضمون الشعر إلا إذا كان متحولاً فنحن درسنا الشعر ولم ندرس إشارات الرواة وربطهم الشعر بحادثة ما إلا نادراً .

والنقطة الثانية أن الشعر قصر عن تحديد الأحداث بصورة ثابتة تاريخياً ، فهذا ليس من وظائفه ، بل يكفي أنه نقل إلينا صورة حية واضحة محددة عن أحداث اليوم . أما التحديد التاريخي ، وبما في التفاصيل المتصلة بذلك فقد عجزت كتب التاريخ عن ذلك .

الباب الثالث

نماذج متميزة من شعراء الأيام

الفصل الأول

مهلهل بن ربيعة بطل حرب البسوس

قبلته - نشأته وحياته - دراسة لجوانب شخصية المهلهل بطل حرب البسوس - دوره في هذه الحرب - المهلهل بطل أسطوري شعبي - صورته في الأسطورة الشعبية - مدى اختلافها واتفاقها مع الواقع التاريخي - دراسة موضوعية وفنية في شعره ، إلى أي مدى يصور شعره أحداث البسوس .

الفصل الأول

مهلهل بن ربيعة بطل حرب البسوس

قبيلة :

تنسب قبيلة تغلب بن وائل إلى ربيعة ، فهي تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى
ابن دهم بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان . وتنتزع من هذه القبيلة
بطون عدة منها (١) :

الأراقم وهم جُشَم وعُمرُو وتُعلبة ومعاوية والحارث ، بنو بكر بن حبيب بن غنم بن
تغلب ، وقد سموا بالأراقم لأنهم كانوا كعمود الأراقم . ومنها كليب وائل ، وهو ابن ربيعة بن
الحارث بن زهير بن جشم وأبوه المهلهل بن ربيعة ، ومنها بنو كنانة بن ثيم بن أسامة ، وبنو حارثة
ابن ثعلبة بن بكر بن حبيب قوم المهلهل بن هبيرة ، ومنها أيضا بنو علي بن معاوية بن غنم بن
تغلب قوم الأخنس بن شهاب فارس النعسان ، ومنها بنو العذوكس بن عمرو بن الحارث بن جشم
قوم الأنطال .

ويعتبر ابن عبد ربه يكرأ جُمُعة ، ولا يعتبر تغلب جمعة مثلها^(٢) . وحاجم القبائل التي
للجميع البطون وتنسب إليها ذواتهم نحو كليب بن وبرة إذا قلت الكلبي استغثت أن تنسب إلى شيء
من بطونه ، وهذا ابن عبد ربه من الجحاجم لثاني .

ويروي ابن إسحاق أن ديار ربيعة بن نزار وألقاها ومراقها ما بين مكة وواقي كندة

(١) المجلد الجديد ٣ / ٣٥٩ .

(٢) المصدر السابق ٣ / ٣٣٦ وانظر مادة (جهم) في اللسان .

ويطعن ذات عروق وما والاها من البلاد ، وعندما انفردت كلمتها تصدعت لها فحيطان فاجلتها إلى العراق وسكنت مكانها حكم بن سعد بن العشرة من مَنحج^(١) .

لما تغلب فكانت بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونصيبين وتعرف بديار ربيعة ، ويروي البكري في معجمه « أن منازل تغلب ما بين خفان والعليب^(٢) .
ومن أوديتها : ظبي ، والأحصى . ومن مياهها : البشر^(٣) وقباب^(٤) والنبي والثوير^(٥) .

وقد كان للملوك التابعة في اليمن سلطان على شبه الجزيرة ، يرسلون همالم على معظم قبائل نزار ، ويخضعونها لسلطانهم ، وتدخل لهم هذه القبائل الإتاوات ، ولقد مر بنا أن هذه السلطة كانت لا تدخل في شؤون القبيلة الداخلية ، ثم ظهر من قبائل نزار رجال أشداء استطاعوا أن يجمعوا بعض القبائل تحت لوائهم ، ويقادروا بقوة أولئك العمال ، ويحاولون التخلص من سلطان اليمن ، وبعضهم كان يقوم مبدئاً من ملوك الحيرة .

وكان ربيعة بن الحارث أحد أولئك الضعفاء الذين اجتمعت عليهم قبائل معد ، فقد قادهم في الواقع بينهم وبين قبائل اليمن . فقد حدث أبو عمرو الشيباني فقال^(٦) : « كان أبرهة ابن الصلاح حين طلع نجداً أثناء زهير بن جندب الكلبي ، فأكرمه أبرهة وفضلته على من^(٧) أنه من العرب ، ثم أمره على ابني وائل تغلب ويكر ، فوليهما حتى أصابتهما سنة شديدة ، فطالبيهما زهير بالابتلاء فاستمروا ، فأتاهم زهير في الجندب ومنعهم النجعة ، حتى يؤدوا ما عليهم فكانت مواشيهم تهلك . فدخل عليه ابن زبابة النيمي ، وكان أحد القتاك ، وكان زهير ناتئاً فوضع السيف في يده حتى أخرجه من ظهره ، غير أنه لم يصب أحداً بطنه فسلم زهير وظن النيمي أنه قتله . . . ثم يمضي الخبر فيحدثنا أن زهيراً جمع الجموع من بني كلب ، ومن أطاعه من أهل اليمن ، وسار بهم نحو ديار بكر وتغلب ، فأصابهم على ماء يقال له « الحى » فقتلوه وقتلوه قتلاً شديداً ، فهزمهم وأسر كثيراً ومهللاً أبني ربيعة واستلق أموالهم ، وسبى نسائهم ، وأسر جماعة من فرسانهم ووجههم . ثم أجمعت قبائل ربيعة أمرها ، ولت شملها ، وكثرت على جموع زهير ، فاستردت أسلحتها والفتكت أسرارها . وجمعهم ربيعة بن الحارث إليه وهاجم بهم زهيراً وقبائل كلب ، وافتقوا عند السلوك ، من أرض تهامة فأبلى اليمن ، فهزمهم وشتت شملهم ، ومزق جمع القبائل اليمنية ، وفتكوا بهم ، ونددوهم .

(١) كتاب بكر وتغلب ٢٨ ، ١١٩ .

(٢) معجم ما استعجم - البكري ٢/ ٥٠٥ .

(٣) انظر العقد الفريد ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ ، نهاية الأرب للخلعشتدي ١٨٦ .

(٤) الأغاني / ثلاثة ١٨/ ٣٠٣ .

واستمرت قبائل معد مستقلة زمناً بعد السلان تحت سيادة ربيعة بن الحارث والد كليب والمهلهل حتى أواخر القرن الخامس الميلادي^(١) . إلا أن شوكة زهير اشتدت في أواخر عهد ربيعة ، فاسترد ما كان له من نفوذ على معد ، فغضب عليهم الفزرة وعسفهم عسفاً شديداً . فصار إليه كليب على رأس جيش في عهد أبيه فهزمه بخزاز وفرق جمعه ، وكان زهير قد أسن^(٢) . ويروي ابن الكلبي فيقول : ^(٣) « حدثني من ألق به غير واحد من العرب أن كليب بن ربيعة كان رأس الناس وفارس نزار يوم السلان ، وكان رأس نزار يوم خزازي الأحوص بن جعفر ابن كلاب » .

وبعدنا الرواة أن مضر وربيعة اجتمعت بعد يوم خزازي على تنصيب ملك عليهم ينفعي بينهم ، وأنهم استلقوا ممن يكون الملك ، وتفاقم الخلاف واجتمع أشرافهم على تدارك الحال ، وإصلاح ذات البين ، فوجدوا أن أنسب حل لهم أن يفصلوا الحارث بن عمرو للقصور بن حجر أكل الخرار ملك بمكة ويوليهم عليهم وقصدوه . وشرحوا له حالهم وتمهلوا بالطاعة ، فأقام أولاده الخمسة ملوكاً على قبائل نزار ، فكان منهم شرحبيل على بكر وحظلة ومن إليهم ، وكان معد يكرب المعروف بخلغاه على تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مائة ومن معهم ، وقال ابن الكلبي ، إن سكرة كان على تغلب ويكرهه . واستتب السلم بين رؤساء ربيعة وملوك كسلة زمناً .

وتولى السيادة على قبائل ربيعة كليب بن ربيعة بعد موت أبيه ، وكان ليبد بن عتبة عامل كسلة قد تزوج تحت كليب ، فطلى على ربيعة ، وكان مصره القتل على يد كليب . وعندما استعصت قبائل ربيعة لمخاللة اليمن ، ولدت قبائل اليمن فنزلت خزاز وعليهم أهال حمير ، والنسب الصغير في جموعهم ، وكان الأحوص بن جعفر على مضر ، وشرة بن ذهل على ذهل وشيبان ، وذهل بن حذرة على ربيعة ، وطرفة بن العبد على قيس . وكان يقومهم جميعاً كليب ، وجعل السفاح التغلبي على مقدمة الجيش . والنسب الجمعان في خزاز فانتظوا قتالاً شديداً ، فانهمزت جموع اليمن وانتصرت نزار نصرأ مؤزراً^(٤) .

وكان يوم خزاز أعظم يوم الفتنة العرب في الجاهلية ، فإن نزاراً لم تنصف من اليمن ،

(١) أخبار المراقبة - حسن المستوى ٢٣٩ .

(٢) أخبار المراقبة - حسن المستوى ٢٤٠ .

(٣) كتاب بكر وتغلب ٢٣ .

(٤) الكلل لابن الأثير ١/ ٥٤٩ .

(٥) الكلل لابن الأثير ١/ ٥٢٠ - ٥٢٢ .

ولم تزل اليمن قاهرة لها في كل شيء حتى كان يوم غزاة ، فلم تزل تزار بمنعة قاهرة لليمن في كل يوم التقوا به بعد غزاة حتى جاء الإسلام .

وكان تغلب أيام مع بعض القبائل ، فمن أيامها مع بني يربوع : ثبرة ، ولذاب والقوى وذرد الثاني ، والشعب وقد هُزمت في أكثرها يربوع .

ومن أيامها مع سعد بن تميم ، ذؤيب بنى وقد هُزمت فيه سعد ، كما حاربت عمرو بن هند يوم الحسين .

وقد اشتركت في أيام مع غيرها ، ففي يوم أوزاة حاربت إلى جانب المنذر والنمر بن قاسط قبيلة بكر ، وفي يوم بزانة حاربت إلى جانب الغساسنة وإياد خببة . وفي يوم ضيحات تحالفت مع تميم في حربها مع الحارث بن عمرو الغساني حينما نهشت حية ابن الحارث فاتهم به قتيلاً وتغلب ، وفي يوم ذي قار حاربت تغلب إلى جانب الفرس ضد بكر وشيبان وبني حنبل . وفي يوم الكلاب الأول تحالفت تغلب مع النمر بن قاسط وبراء وبني مالك بن حنظلة ضد بكر وخببة والرباب ويربوع .

نشأة المهلهل وسماهته :

قيل أن نخوض في نشأته نود أن نعرض لمشكلتين متصلتين به ، أولاهما اسمه وثانيها ليم سمي بهذا الاسم ؟ لما اسمه فقد ذهب فريق من العلماء إلى أن اسمه امرؤ القيس^(١) ، وقال فريق آخر إن اسمه عدني^(٢) ، وذهب بعضهم إلى أن عدنياً هذا هو أعمو مهلهل^(٣) ، وهو القائل لما مات أخوه مهلهل قصيدة ذكر فيها من قيل من بكر في الحروب :^(٤)

ما أُرْجِي في العيش بعدَ ندامي قد أُرَاهم سُلُفُوا بكأسِ حَلالِي

(١) أمثال القيس ٥٥ ، الألفي / ط ، الكتب ٥٧/٥ ، المعجم ٨٦/١ ، معجم الشعراء للبرزني ٧٩ ضبط اللامية ١١١/١ ، المؤلف والمختلف ٨ ، خزائن الأدب لعبد السلام هارون ١٦٤/٢ ، التزهر ٤٥٦/٢ العقد القوي ١٢٠/٣ ، أمالي البزني ١١٦ .

(٢) أمثال القيس ٥٥ ، ضبط اللامية ١١١/١ ، القفاص ٩٠٥/٢ ، المعجم ٨٦/١ ، شرح العيون ٥٠ ، خزائن الأدب ١٦٤/٢ ، التزهر ٤٥٦/٢ ، الشعر والشعراء ٢٩٧/١ ، معجم البرزني ٧٩ ، الألفي ٥٧/٥ ، المؤلف والمختلف ٨ .

(٣) معجم الشعراء للبرزني ٧٩ .

(٤) المرجع السابق ٨٠ .

بمعد حَمْرٍو وعامِرٍو وحَمْرٍو
وامرئ القيس مَيّتٌ ما تُحَرِّمُ أو
وقَتيلٌ صدوفٌ وابسنٌ عِتْلِقُ
ذِي رَحْلٍ عَلِيٌّ ذَاتُ الْعِرَاقِ
عَدِيٌّ دُمْلَةُ الْأَكْفُ بِالْإِثْقَالِ^(١)

وبعضهم قال إن مهلهلاً هو امرؤ القيس وهو عدي بن ربيعة^(٢)، ومعظم المتأخرين منهم ذكروا أنه يقال له امرؤ القيس، ويقال إنه عدي.

ولكن الأمر الذي لم يختلفوا فيه أن أمّا كليب هو مهلهل، فقد اجمعوا عليه، ولكنهم عابوا فاختلقوا في سبب تلك التسمية، فذهب بعضهم^(٣) إلى أنه سمي كذلك لأنه كان يلهل الشعر أي يرفقه. وذهب فريق^(٤) آخر إلى أنه سُمّي ليبت شعره فلهذا:

لَمَّا تَرَقَّلَ فِي الْكَرَاعِ شَدِيدَهُمْ هَلْهَلْتُ أُنْشَرُ جَاهِرًا أَوْ صَبِيلاً^(٥)

وقال فريق ثالث^(٦) إنه سمي بذلك فلهذه شعره كهلهلة الثوب أي اضطرابه واختلافه.

وبخلاصة ما يمكن استخلاصه من هذه الروايات أن مهلهلاً هو الاسم الذي غلب عليه والذي وصلنا شعره كما وصلنا الجبلور، وسواء أكان اسمه حَمْرٍو أم امرأ القيس أم الاسمين معاً فلن يغير ذلك من مجرى الأحداث التي سنعرض لها، وبخاصة أن القديما عندما عرضوا له نبهوا إلى تعدد أسماؤه، ولن يشكل الأمر علينا إلا عندما نعرض لحادثة أسرته يوم قبضه.

ويؤكد تكون حياة امرئ القيس قبل مقتل أخيه كليب غامضة، وهذا شأن التاريخ في العصور الموحدة في القدم، لا يتم إلا بالسلطة والقادة، فقد كان المهلهل بعيداً عن السلطة متصرفاً إلى حياته الخاصة. ولكننا نستطيع من بعض النظم من الأخبار التي بين أيدينا، ومنها غير أسره في إحدى معاركهم مع لُبابل اليمن هو وأخوه كليب. ونستطيع أن نقول إن مهلهلاً، كأي فارس من فرسان القبيلة، حارب تحت إمرة والده ثم تحت إمرة أخيه كليب، ثم يتزوي مهلهل بعد استقرار الأمر والزعماء لأخيه كليب، ويؤكد عمله التاريخ لولا ما ذكر عندما قُتل

(١) كأس حلاق: كأس إثنية، ذات ذات العراقي: الدلمية.

(٢) أمثال الضبي ٥٥.

(٣) العمدة ٨٦/١، سمط اللالي ١١٢/١، القفاط ٩٠٥/٢، الشعر والشعراء ٢٩٧/١، الاستطالق ٣٣٨، أمالي اللالي ١٢٩/٢.

(٤) العمدة ٨٦/١، سمط اللالي ١١٢/١، أمالي اللالي ١٢٩/٢، للزهر ٤٣٤/٢.

(٥) نوقل: تشرح، الكرخاع: من الإحسان ما هوون الركبة إلى الكعب.

(٦) العمدة ٨٦/١، طبقات ابن سلام ٣٣ اللسان ٢٣١/١٤.

كليب من أن الخير جاهد وهو يشرب بصحبة هيام بن مرة ، فتعلم أن مهلهلاً كان منصرفاً إلى ملذاته ، وقد ركن إلى حيلة الدعة في ظل سيادة أخيه كليب على بكر وتغلب .

وعندما بدأ قرن الفتنة بنجم بين كليب وجساس أراد مهلهل تخفيف حدة التوتر بينهما ، ويريد كلياً إبعاد عن بعض غيّه ، فغضب كليب وقال له : إنما أنت زير نساء ، والله إن قتلت ما أكلت يعني إلا اللبن ، فقال مهلهل يرد عليه^(١) :

أخّ وحريمٌ سيءٌ إن قَطَعْتَهُ	ومئةٌ عَزِمَ هَذْمُهَا لك هَانِمٌ
وقَفْتُ على ثُبُونٍ إِحْدَاهَا دَمٌ	وحربٌ بها منا قُبُورُ الغَلَاصِمِ
ومنقصةٌ في هذه ومذلةٌ	وشرٌ شِيبَرٌ بينكم مُتَقَاوِمٌ
فما أَنتَ إِلَّا بينَ هاتينِ غَالِصِ	وكلتاها بحرٌ وذو الغيِّ نَادِمٌ ^(٢)

تلك هي المرحلة الأولى من حياته ، قضاهما في كثف والده وأخيه محارباً ، ثم متسلماً للدعة والراحة بعض الوقت عتداً استتب الأمر لأخيه .

ونقطة التحول الحادة في حياته هي مقتل أخيه كليب على يد جساس بن مرة ، فقد بلغه الخير وهو يلهم هيام بن مرة ، وكانا صديقين حميمين ، تعاقبا على ألا يكتم أحدهما شيئاً عن الآخر ، فجاءت إليه أمة فأسرّت إليه خبر قتل جساس كلياً . فقال له مهلهل : ما قالت ؟ فلم يغيره فذكره العهد بينهما ، فقال : أخبرت أن جساساً قتل كلياً ، فقال : أست أخيك أخيبك من ذلك^(٣) .

وهجر مهلهل معاقرة الشراب ، وحياء اللهو والدعة ، وراح يكي أخاه ويتنبه ويرثيه بالأشعار ولا يحدث سوى الوعيد في أشعاره حتى أيس منه قومه وقالوا : إنه زير نساء وسطرت منكم بكر ، وقالوا أيضاً : إنما مهلهل نائمة ما عنده خير ، وهمت آل مرة بالرجوع إلى الخي ، وبلغ كل ذلك مهلهلاً فأنبه ما هو غارق فيه من الأحزان وهول الصدمة ، وشمر عن ساعد الجهد ، وترغم قومه للمعطالية بانثار ، وأل على نفسه أن لا يقرب النساء ولا يشم الطيب ولا يشرب الخمر ولا يلهو ويقتل بكل عضو من كليب وجلا^(٤) .

(١) بكر وتغلب ٢٣ وشرح الغمامة للتبريزي .

(٢) الغلاصم : جمع غلصة وهي صحيفة فضروفية عند أصل اللسان ، شعر : شديد .

(٣) الألفي / ط الكتب ٥ / ٣٩ .

(٤) بكر وتغلب ٤٦ .

وتستمر نذر الحرب بين بكر وتغلب ، ويقود تغلب المهلهل ، ويعمن في القتل بكر ، ويحقق تقوم الانتصار تلوا الانتصار على بكر ، وكانت عشيرة الحارث بن عباد قد اعتزلت الحرب لما رأوا من بني جساس بقتله كليلاً ، وقال الحارث حينئذ : « لا ناقة لي في هذا ولا جمل »^(١) ثم إن بني تغلب لقوا بجير بن الحارث بن عباد وهو غلام في إبله فأتوا به مهلهلاً فسأله عن نفسه ، فأخبره بأنه ابن الحارث الذي اعتزل أمر هذه الحرب ، فلم به المهلهل فصرخت عنه وقال : يا بشع تعل كليلاً . فبلغ الحارث الخبر فغضب وقرر دخول الحرب^(٢) .

والحق الحيات بكر وتغلب في يوم قضة أو يوم التحالف ، وأسر في هذا اليوم مهلهل ، أسره الحارث بن عباد ، وتذكر الرويات أنه لم يعرفه ، وهذا أمر يحتاج إلى إيضاح ، فمهلهل زعيم تغلب ، والحارث سيد من سادات بكر ، والقيطان كانتا متجاورتين وبينهما قرابة ، ولما يزيد الأمر زياً أن بعض المصاحف تشير إلى أن أخت المهلهل ، أم بجير كانت زوجة الحارث بن عباد فكيف لا يعرفه إذن ؟ وفي رواية أن الأمر لا يخرج عن أحد احتمالين : إما أن يكون مهلهل قد غيرة الحرب طيلة هذه السنين ، ويوم قضة كان بعد سنين من بدئها ، فلم يعرفه الحارث ، وإما أن يكون الذي أسره الحارث ليس مهلهلاً وإنما أخوه . وربما كان مهلهل لا بأساً لامته فلم يعرفه الحارث .

وبعض الخبر فيذكر لنا أن الحارث طلب من الفارس الأسير أن يذله على أحد بني ربيعة مهلهل أو عدي . كما في رواية الضبي . قال : فإني إن ظلتك على أحدهما ؟ قال : أخفى عليك ، قال : قاله لي عليك بذلك . قال : نعم . فلما استوثق منه قال : فإني عدي بن ربيعة . قال الحارث : فألحني على امرئ شريف كريم الدم . فلحاله على عمرو بن أبان فحمل عليه أبو بجير فقتله^(٣) ، وفي ذلك يقول الحارث :^(٤)

لَحَفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَلَمْ أَعْرِفْ	عَدِيًّا إِذْ أَمَكَّتْ نَفْسِي مِنْهُ الْيَدَانِ
طُلُّ مَنْ طُلُّ فِي الْحَرْبِ وَلَمْ أَوْ	تَرِ بِجَيْرٍ أَبَاهُ إِيْسَ أَبَانِ ^(٥)
فَارِسٍ يَضْرِبُ الْكَتِفَةَ بِالْب	فَرَوْ وَتَمَوَّ أَمَامَهُ الْعَيْنَانِ

(١) أمثال الضبي ٥٦ .

(٢) أمثال الضبي ٥٧ ، بكر وتغلب ٥٨ والأخاني / كتب ٥ / ٤٧ .

(٣) أمثال الضبي ٥٧ ، الأخاني / كتب ٥ / ٤٨ - ٥١ .

(٤) أمثال الضبي ٥٨ ، الأخاني / كتب ٥ / ٤٩ .

(٥) طل : اعترده ، ولم يثر به ولم تؤخذ دية ، لوثر : أسد بثر .

وفي الأغاني^(١) أن الحارث أصر عدياً ، وهو مهلهل ، بعد انهزام الناس وهو لا يعرفه . فقال له : هلني على المهلهل ، قال : ولي دمي ؟ قال : ذلك دمعك ، قال : ولي ذمتك وذمة أبيك ؟ قال : نعم ، فلك لك ، قال : فأنا مهلهل . قال : هلني على كفء لجبير ، قال : لا أحلمه إلا أصر القيس بن أبان ، ثم جز الحارث ناصية مهلهل ، وقد قصد امرئ القيس فشدد عليه فقتله .

وهزمت تغلب في ذلك اليوم شر هزيمة ، وكانت أول موقعة تهزم فيها في حروبها مع بكر ، كما كانت بداية النهاية بالنسبة لحياة مهلهل . ويعود للمهلهل بعد الوقعة والأسر إلى أهله ، وقد هدته الهزيمة وتقبلت قومه ، كما أذله الأسر ، وهو الفارس الذي لم يغلب من قبل . وزاد من الله أن النساء والولدان جعلوا يسألونه عن قويم ، تسأل المرأة عن زوجها وابنها وأخوها ، ويسأل الغلام عن أبيه وأخيه . ويشير هذا المشهد في نفسه الأمم كما يشير ذكريات الماضي مع بكر ، كما يشير الرغبة في الانتقام ، فيقول :

لَيْسَ يَنْفُلُ بِحَيْسِ النَّاسِ عَنْ آ بَالِيهِمْ فُتُّكُوا وَيَتَسَى الْقِتْلَا
لَمْ أَرُمْ عَرَصَةَ الْكُمَيْتِ حَتَّى انْتَعَلَ الْوَرْدُ مِنْ دِمَاسٍ يُعَالَا^(٢)
عَرَفْتُ رِمَاحُ بَكْرِ فَمَا بَا خُذْنَ إِلَّا لَبَائِهَ وَالْقُدَا
غَلَبُونَا وَلَا مَحَالَةَ يَوْمًا بِقَلْبِ الدَّهْرِ ذَاكَ حَالًا فَحَالَا

ومحدثنا المصادر والرواة بعد ذلك عن رحلتين للمهلهل ، الأولى مع قومه بعد يوم قضة ، وكانت إلى العراق مرابا من البكرين الذين تعطوهم من منزل إلى منزل حتى لحقوهم بالطراف الجزيرة وما يليها من البلاد^(٣) .

والثانية وكانت بعد الأولى وانحصرت على المهلهل وأهل بيته دون بقية التغلبين ، وبينوا أن فارس تغلب وزعيمها ، قد هدته الهزيمة ، كما هدته منظر تشرد قبيلته ، فلم يرد لهم مزيداً منه ، فقرر الرحيل عن قومه ليطلب جرة الحرب ، وفي نفس الوقت فإنه كان قد شفى نفسه من بكر وأخذ يثأر وهدأت نفسه قليلاً ، ولا تنسى عمل الكبر وثقله في إطفاء جذوة الشباب المشتعلة . وكانت هذه الرحلة إلى اليمن بعيداً عن منازل القوم .

(١) الأغاني / كتب ٥ / ٤٨ - ٤٩ .

(٢) عرصة الكمية : ساحة الكمية ، الورد من الخيل : ما بين الكمية والأشتر .

(٣) بكر وتغلب ٨٩ .

ونزل المهلهل في جَبِّ ، وهم حي من اليمن ، لخطب إليه رجل منهم ابته ، فلبس قاتلاً : إلى طريد غريب فيكم ، ومتى أنكحتكم قال الناس احسروه ، ولكنهم أكرموه على تزويجها ، واسمعوا في إلاله فكان مهرها أمة^(١) ، فقال مصوراً حاشي اللذ والياس التلون وصل إليها في شريته بعيداً عن قومه :^(٢)

أَعَزُّ عَلَى تَغْلِبٍ بِمَا لَقِيتُ	أُخْتُ بَنِي الْأَحْزَمِينَ مِنْ جُشَمٍ ^(٣)
أُنْكَحْتَهَا فَقَدْ هُمَا الْأَوَاقِمُ فِي	جَبِّ وَكَانَ الْحَبَاءُ مِنْ أَدَمٍ ^(٤)
لَوْ بِأَبَاتَيْنِ جَلَدٌ يَخْطُبُهَا	زَمَلْ مَا أَنْفُ عَاطِبٍ بِذَمٍّ ^(٥)
لَوْسَا بِأَكْفَانِنَا الْكَرَامُ وَلَا	يُعْتُونَ مِنْ عَيْلَةٍ وَلَا عَدَمٍ ^(٦)
أَصْبَحْتُ لَا مَتَفِيئاً أَصْبْتُ	وَلَا أَبْتُ كَرِيماً حَرّاً مِنَ التَّدَمِّ ^(٧)

ونزل المهلهل مغفرتهم بعد ما فعلوا به ما فعلوا ، فأنشدهم حاتداً إلى ديار قومه ، فأغله عمرو ابن مالك بن ضبيعة البكري بنواحي حجر ، فطلب إليه أشواله بنو يشكر ، لأن أم مهلهل المرأة بنت ثعلبة بن جشم البشكزية أن يدفعه إليهم ففعل^(٨) ، وأقام عند حال أمة المحلل بن ثعلبة ، فسقاه حرّاً ، فلما طابت نفسه تغنى متغزلاً ومفتشراً بما كان من أيامه الغابرة وذاكرها أخصاء ، فقال :^(٩)

طَفَلَةٌ مَا ابْتَهَ الْمُحَلِّلُ بِهَا	أُ لَعُوبُ لَذِيذَةٍ فِي الْعَتَاقِ ^(١٠)
فَانْعَبَسِي مَا إِلَيْكَ غَيْرَ بَعِيدٍ	لَا يُؤَاقِبُ الْعَتَاقُ مَنْ فِي الْوِثَاقِ
ضَرَبْتُ نَحْرَهَا إِلَيَّ وَقَالَتْ	يَا حَدِيثًا لَقَدْ وَفَّقَكَ الْأَوَاقِسُ ^(١١)
مَا أَرْجِي فِي الْعَيْشِ بَعْدَ ثَدَامَا	يَ أَرَاهُمْ سَقُوا بِكَاسٍ حَلَاقٍ

(١) بكر وتغلب ٩١ ، الأغانى / طالكتب ٥ / ٥٠ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٢٩٨ .

(٢) الأغانى / طالكتب ٥ / ٥١ ، العقد الفريد ٥ / ٢٢ .

(٣) أمروء : حان .

(٤) الأرقام : قومها من تغلب ، الحباء : الشعر ، أدم : جلد .

(٥) أباتين : من ديار تغلب ، زمل : خرج .

(٦) عيلة : فقر ، حاجة . (٧) متفياً : مال بنفس مال كثير .

(٨) الأغانى / طالكتب ٥ / ٥١ ، الكامل للمبريد ٨١٥ ، الشعر والشعراء ١ / ٢٩٩ .

(٩) الأغانى / طالكتب ٥ / ٥٤ - ٥٦ ، بكر وتغلب ١١٤ - ١١٥ .

(١٠) طفلة : رخصة ، ناعمة ووريفة .

(١١) الأوائى : جمع واقية وهي كل ما وقيت به شيئاً .

ويستمر بعد ذلك في التغني بمخاضه ويرثي قومه ، ويصور لنا ما انتهت إليه حاله من
بعض من قومه وأسر ومهانة .

ونصل إلى نهاية بطل حرب البسوس ، فنجده أنفسنا أمام أكثر من رواية لنهايته ، ونستطيع
أن نلخص هذه الروايات فيما يلي :

الرواية الأولى تلعب إلى أنه فارق قومه ولم يزل مقيماً في أحواله بني يشكر ضجراً من
الحرب ، وبقي وحيداً عند أحواله إلى أن مات^{٥١} .

وتلعب الرواية الثانية إلى أنه عندما طابت نفسه بعد أن شرب وتغنى بما كان من أمره وأمر
كليب ، وأتى من سمع هذا الشعر من الشبان ، شبان بني قيس بن ثعلبة ، إلى عمرو بن
مالك ، فأنسم ألا يلقوا عنده خيراً ولا ماء ولا لبناً حتى يرد ربيب الغضاب ، وريب جل كان
أقل وروحه في الصيف الحمس ، فقال قوم : بش ما حلفت وأرسلوا الخيول في طلب البعير فأتوا
به بعد ثلاثة أيام . ومات مهلهل عطشاً^{٥٢} ، وقيل أنه تعلق من يمينه وسقاه من ماء الخافضة ، وهو
أولاً ماء ، فمات^{٥٣} .

وتلعب ثالث الروايات إلى أنه قتل ، ونحضي فتحدثنا بأنه عندما أسن وغرف ، وكان له
عبدان يخدمانه ، وكان يغير من حزين لأخر بمعلونة بعض صعاليك تغلب على بني بكر ، فمله
العبدان ، وانتكزا فرصة خروجه بها إلى سفر ، وعزما على قتله ، فلما عرف ذلك أوصاعها :

مَنْ مَبْلَغُ الْحَيِّ أَنْ مَهْلَهلاً لِّلْهِ دَرَكُهَا وَدَرُ أَبْيَكُهَا

ثم قتلاه ورجعا فقالا : مات . فقالت ابنته : إن مهلهلاً لا يقول مثل هذا الشعر وإنما أراد :

مَنْ مَبْلَغُ الْحَيِّ أَنْ مَهْلَهلاً أَسَى قَتِيلًا فِي الْقِفْلَةِ مَجْدُلاً
لِّلْهِ دَرَكُهَا وَدَرُ أَبْيَكُهَا لَا يَبْرَحُ الْعَبْدَانِ حَتَّى يُقْتَلَا

فضر بهما حتى أفرقا بقتله^{٥٤} .

(١) الخزانة ٢/ ١٧٣ تحقيق عبد السلام هارون ، شرح الميوز ٥٢ .

(٢) الألفي/ كسب ٥/ ٥٢ ، خزانة الأدب ٢/ ١٦٣ حرب بكر وتغلب ١١٤ ، سمط اللآلئ ١/ ٢٦ .

(٣) الألفي ٥/ ٥٢ .

(٤) بكر وتغلب ١١٥- ١١٦ ، طبقات الشلمية ١/ ٢٧٩- ٢٨٠ ، خزانة الأدب ٢/ ١٧٣- ١٧٤ ،
سمط اللآلئ ١/ ٢٦ شرح الميوز ٥٢ .

ومنها اختلفت الروايات فإن قدراً مشتركاً من الرواية يجمع بينها ، فهذه الحرب وولاً إلى أخواله بني يشكر ، وتنفق الروايات الثلاث على أنه مات عندهم ، ولكنها تختلف في كيفية موته ، وهذا ليس بلذي بال ما دام أنه لم يموت في حرب ، وإنما مات بعد أن اعتزل الحرب بعد أن عانى منها الكروب وقد الأسر واعتزال لومه .

وقد حاول بعض الباحثين تحديد وفاته على وجه التقريب ، فمنهم من ذهب إلى أنها سنة ٥٠٠ م^{١٠٠} ، ومنهم من عددها لسنة ٥٢٥ م^{١٠١} وأخر جعلها ٥٣٠ م^{١٠٢} ، وقاربه آخر فجعلها ٥٣٦ م^{١٠٣} . وهذه التواريخ التي حددت ليست بذاة قيمة كبيرة ، إلا أنها لمجعله مات في أوائل القرن السادس الميلادي ، ونستطيع أن نستعين بتاريخ آخر يحدد لنا زمن وفاته على وجه التقريب ، وهو أن عمرو بن هند ملك الحيرة هو الذي عقد الصلح بين الحيين وأبى حاتة العداء بينهما ، وقد حدث هذا بعد موت مهلهل الذي كان يقود قبيلة اللاتار ، وكان للحرك الأساسي لها .



دراسة لجوانب شخصيته :

يختار الدارس لشخصية المهلهل بن ربيعة حين يحاول أن يطبع هذه الشخصية بطابع مميز ، وسبب ذلك إختلاط الشخصية الحقيقية بالأسطورية وبما نسج حوله . ولكننا من الإشارات الغالبة المبهمة هنا وهناك في بطون المصادر نستطيع إن نقول أن عوامل عدة اجتمعت وخلقت منه شخصية مميزة .

فقد نشأ المهلهل في كنف زعيم وسيد من سادات معد ، هو ربيعة الذي كان أحد ثلاثة نفر فقد اجتمعت عليهم معد كلها ، وكان قاتلها يوم السلان ، وحقق يوم هزيمة جوع اليمن^{١٠٤} ومن نشأ في كنف سيد من سادات العلم لا بد وإن يتعلم الفروسية وقروب القتال .

وتحددنا المصادر عن اشتراك مهلهل في حياة أبيه في القتال ، وأنه أسر في أحد الأهم هو وكليب ، ثم أطلق سراحها^{١٠٥} .

(١) رواية الأديب - أنساب كلبوس ٢١٨ .

(٢) الأعلام - للزركلي ٩ / ٥ .

(٣) تاريخ الأديب العربي - قزوح ١ / ١١٠ .

(٤) تاريخ أديب اللغة العربية - زيدان ١ / ١٣٥ .

(٥) غزوة الأديب - تحقيق عبد السلام هارون ٢ / ١٦٦ .

(٦) العمرون والوصايا - للسجستاني ٣٥ .

وفي عهد كليب وهو ثالث الثلاثة الذين اجتمعت عليهم معد كلها ، وقادها كلها يوم عزاز ففقد جمع اليمن وهزمهم^(١) ، وقف المهلهل إلى جانب أخيه يسانه ، ثم لم يلبث أن وكن إلى حياة الدعة والظهر تاركاً الرعامة والسيادة لكليب بصرف الأمور بحكمة وشجاعة .

وفي ظل سيادة أخيه تحدثت عنه الروايات فأنهتته بالفخرية ، واللين ، وبأنه زير نساء ، مستغلين الحيلة التي وكن إليها . يقول ابن قتيبة^(٢) « وكان فيه عنث » ويقول صاحب الأغاني^(٣) « كان فيه عنث ولين » وكان كثير المحادثة للنساء ، وكان كليب يسميه زير نساء « وجاء في الاستطاق^(٤) كليب كان يسميه زيراً ، الذي يعجبه حديث النساء » وروى صاحب العقد الفريد إنه لما أنه موت أخيه كان يشرب فقال « اليوم حر وغداً الأمر^(٥) » .

وبمناقشة هذه الروايات وغيرها لا نخرج إلا بنتيجة واحدة هي أن المهلهل كان هذه عاداته النساء وشرب الخمر ، ولكن هذه الخليفة ليست كاملة . فهل هذه الصورة تتناسب مع ماخيه الفروسي ؟ نحن نميل إلى أن هذه الصورة لا تمثل الحقيقة كلها ، وربما ساعد على إنتشارها وتأكيدها أن كليباً بعد يوم عزاز استقرت له الأمور ، وأصبح سيد بكر وتغلب ، ولم يقد قبيلته في أيام لثرى بطولته مهلهل أو وقوفه إلى جانب أخيه . وربما ساعد على تأكيدها رغبة الرواة في تصوير هول الفاجعة عليه بأنها قلبت حياته من زير نساء إلى بطل ، وذلك أجدي في تصوير رد الفعل العكسي العنيف الذي قلب حياة المهلهل .

وفي رأينا أن مهلهلاً شأنه شأن أي سيد من سادات القبائل كان لا يجد غضاضة في الاستمتاع بوقته حين تهدأ ناز الحروب ، فيفزع إلى الصيد أو اللهو لتفضاء الفراغ الذي يعاني منه ، ولو كان مهلهل غنتاً لما تمكن بين يوم وليلة من قيادة تغلب في حروب الشأو ضد أختها وجاراتها بكر ، وقيادتها قيادة حكيمة حققت لها النصر على خصومها في كل المعارك إلا قضة . ولا تصور أن المهلهل المحدث بمجرد أن يبلغ أسباعه خبر مقتل كليب يتقلب إلى أسد هصور ، وحتى لو انقلب لمكرف يعقل أن تستجيب له تغلب وتسلم أمرها إليه ليفودها في حروبها ، كان الأمر سيكون صعباً عليه لو لم يكن يتمتع بما يؤهله لذلك من حصافة رأي وشجاعة واحترام القبيلة له .

(١) عزازة الأدب ١٦٦/٢ عهد السلام هارون .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٩٧/١ .

(٣) الأغاني / كتب ٥٧/٥ .

(٤) الاستطاق ٣٣٨ .

(٥) العقد الفريد ١٢٠/٣ .

ولقد كانت نقطة التحول في حياته وشخصيته مقتل أخيه كليب . فلقد نقلته نقلة مفاجئة ، من حياة يعتمد فيها على كلمة أخيه وتديره الأمور إلى حياة جديدة يواجه هو فيها الأحداث ، ويحتم عليه جمع شمل قبيلته وقيادتها بعد موت قائدها . وعندها نرى صورة مغايرة له ، صورة الفارس الشاب اللطيف الذي خسر أخاه خذراً في غير ساحة حرب ، فهيب طالباً يثأره ، واستمر في القتال طامعاً لا يرتوي . مخالفاً لكل رغبات السلم التي كان يديها قومه ، بل نراه يقتل حتى الذين اعتزلوا الحرب ، ولم يترك حلبة القتال إلا عندما غلب وهزمته بكر يوم تحالف النعم ، عندها أقر الرحيل إلى اليمن والأبعد عن مسرح الأحداث ، حل السلام برؤوف على ربيع الحين .

وهذه مرحلة ثالثة في حياته ، وكانت مرحلة امتزجت فيها آلام المزيمة وذل الأسر ، بتعاقب كبير السن ، وبما خلفته الحرب من آلام ومصائب على قومه . فلقد رأى بنفسه النساء والولدان يهرعون إليه بعد عودته من يوم قضة رسالته عن فوجهم . ويحتار ذلك القائد الذي لم يتعود المزيمة فيما يجيهم ويمتزم الرحيل بعيداً عن قومه لعل السلام يعود إلى تلك الديار ، ولكن بعد أن ثار لأخيه ، وقتل ، وشلى النفس . وتتابع الأحداث تضيف إليه أسزناً جديدة ، فقد أكرهه النعم على تزويج ابنته وساقوا إليه للهر جلوداً .

وأخيراً أقر الفارس وقد قاربت حياته حل الانتهاء ، العودة إلى قومه ، فأسر وأخذ أحواله وهي فيهم إلى أن مات ، يعاني من آلام الغربة ومللة الأسر .

تلك هي الجوانب التي نلمسها في شخصية ذلك الفارس ، وما زالت جوانب كثيرة غامضة في شخصيته ، وهذا ما دعا الدكتور طه حسين إلى الشك فيه^(١) ويقول فيه « وليس مهلهل في حقيقة الأمر إلا بطل هذه القصة ، فقد عظم أمره وارتفع شأنه بمقدار ما ثبتت هذه القصة وطول فيها » .

حرب البسوس ودور المهلهل فيها :

يستطيع أن نعد بداية حرب البسوس وإمكانية التصادم بين الحين منذ يوم خزاز ، فلقد فض كليب جوع اليمن وهزمهم ، فاجتمعت عليه معد كلها وجعلوا له قسم الملك وتاجه ، ولحيته وطاعته ، فغير يملك حيناً من الدهر ، ثم لم يلبث أن داخله زهو شديد فبغى على قومه . وكانت بكر وتغلب قد استقرتا بعد خزاز في مكان واحد فيما بين الذئب والكلاب وواردات

(١) في الأدب الجاهلي - طه حسين ٢٣٩ .

والغضب وما والأعما^{١٥}، وكان يربط بينها ويأط من الصهر والحلق والمجبة ، ولكن كليباً بلغ من بغيه أنه كان يحسي مواقع السحاب فلا يرمى حماره ، وكان يحسي من الرمي على الصوت لكلبه فيختص به ، وإذا قال إنه قد أجاز صيد كذا وكذا فلا يصادلها شيء . وكان يجير على الدهر فلا تخف ذمته ، ويقول وحش لرض كذا في جواربي فلا يباح ولا يورد مع إله أحد ، ولا توجد مع نازة نار حتى قالت العرب « اعز من كليب وأقل »^{١٦} .

وكان كليب قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيوان، وكانت أخت جساس، وكانت جساس حلة تسمى البسوس بنت منقذ التميمية، ولقد جاورت ابن أختها جساساً، وكان لها ناقة يقال لها : سراب ، فمرت إبل كليب بسراب وهي معقولة بفناء البسوس ، فلما رأت سراب الأبل خلخلت عقلها وتبعته إبل كليب فاختلطت بها ورأها كليب فأنكرها فرمى بها في شرعها . ففوت وولت حتى يركب بفناء صاحبها فبرزت البسوس صارخة : وإذلاء ؟ وأنشأت تقول :

لَعَسَ بِي ، لَوْ أَصْبَحْتُ فِي دَارِ مُتَقَلِّبٍ لِمَا ضَمَّ مَعْدُوهُ وَهُوَ جَلَدٌ لَأَيَّامِي
وَلَكِنِّي أَصْبَحْتُ فِي دَارِ غُرْبَةٍ مَتَى يَعُدُّ فِيهَا الذَّنْبُ يَعُدُّ عَلَى شَائِي
فَمَا سَعْدٌ لَا تُفَرِّزَ بِنَفْسِكَ وَارْتَحِلْ فَإِنَّكَ فِي قَوْمٍ عَنِ الْجَارِ أَسْوَأُ^{١٧}

فلما سمع جساس صوتها سكنها وقال : والله ليهتلن غداً جل عظيم أعظم عقراً من نالتك .

ثم اتجمع الحمي فمروا على نهر يقال له شيت فنهلم كليب عنه ، ثم على آخر يقال له الأحص ، فنهلم عنه ، حتى نزلوا على الذنائب فمر جساس بكليب وهو على خير الذنائب منفرداً فقال : أطردت أعلنا عن المياه حتى كنت تغتسلهم عطشاً^{١٨} . فقال كليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون فقال جساس : هذا كفعلك بناقة عائلتي قال : لو قد ذكرتها . أما أني لو وجدتها في غير إبل مرة لا استحلت تلك الأبل . فمطلق عليه جساس فطعته فأنزاه ، ووجد الموت فقال : يا جساس أسقي ؟ فقال : هيهات ، تجاوزت شيباً والأحص^{١٩} .

(١) بكر وتغلب ٣٠ .

(٢) أنظر أمثال القاضي ٥٥ ، الأغاني / حب ٣١ / ٥ - ٣٥ ، غزاة الألب ٢ / ١٦٦ (ت / عبد السلام هارون) .

(٣) غزاة الألب ٢ / ١٦٧ .

(٤) المصدر السابق ٢ / ١٦٧ - ١٦٨ .

وتنتزع هذه الرواية برواية أخرى في الأغاني : فهو يذكر قصة اليسوس ، ولكنه يبسطها بقصة سؤال كليب زوجته أنحت جساس : هل تعلمين هل الأرض عربياً أم نبطية ؟ فسكت ، ثم أعاد عليها السؤال ثانية فسكت ، ويكرر السؤال فتجيب : نعم أخي جساس وتذمأنه ابن عمه عمرو ، فينتزع رأسه من يدها ، وكانت تغسله ويأخذ قومه فيرمي فضيل ناقة اليسوس ويقتله ، ثم لقي كليب ابن اليسوس فقال : ما فعل فضيل نافتكم ؟ . . . ثم يعيد السؤال على زوجته وتصر على الجواب نفسه ، ويضربها في نفسه ، حتى مرت به إبل جساس ، فوالى الناقة فأنكرها ، فقال : ما هذه الناقة ؟ فقالوا لحالة جساس ، قال : ألوذ بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير عليّ بغير إذني ، أومضعها يا غلام . . .^(١) وتتفق رواية أبي حنيفة في التناقض مع هذه الرواية تقريباً^(٢) .

وللتأمل لهذه الروايات يرى أن سبب نقمة وجالات بكر على كليب إنما ترجع إلى عوامل عدة ، أهمها أنهم لاحظوا أن كليباً استأثر بالراعي الحصى وباللهاة وبالسيادة وبشي عليهم وهم يحسون أنهم هم الذين سوفوه على القبيلتين ، كما أننا نلاحظ إصراراً من كليب على التعالي على قومه وحل بكر أيضاً ، ويصر على منعهم من حق حياة الجار وحق الإجارة نفسها ، وقد أحست بكر أنه قد تجاوز حدوده التي أعطوها له كسيد لهم . وإذا كان قومه الأقربون تغلب قد تجاوزوا عن سيادته بحكم رابطة العصبة فإن بكرأ ، وقد برز منهم رجال يمثلون أنهم كفو للقيادة ككليب ، لم تستطع تحمل ظلمه لهم ، والنفس العربية مقطوعة على رفض الظلم بأي شكل من أشكاله ، وإلّا كان مصدره .

واشترك في قتل كليب جساس بن مرة وابن عمه عمرو بن الحارث ، فقد طعنه جساس برمح فأثنت حصته ، وعطف عليه عمرو فأحتر رأسه ، وفي ذلك يقول مهلهل :

قتيلٌ ما قتيلُ المرأةِ عمروي وجساس بن مرة فو ضرير^(٣)

وكان هيام وقتها يتألم مهلهلاً ، فجاءت أمه إليه فأسرت إليه قتل جساس كليباً^(٤) ، وفي رواية أخرى أن جساس ابن مرة ركب فرسه فركض ليؤذي أصحابه فمر على مهلهل وهو وهيام يضربان بالقداح . فلما دنا من هيام أخبره الخبر ثم مضى^(٥) ، ولم يستطع هيام أن يكتم الخبر عن

(١) الأغاني / كتاب ٥ / ٣٥ - ٣٦ .

(٢) التناقض ٢ / ٩٠٥ .

(٣) الأغاني / كتاب ٥ / ٣٦ ، التناقض ٢ / ٩٠٥ .

(٤) خزنة الأريب ٢ / ١٦٨ .

(٥) أمثال الطبري ٥٦ .

مهلهل لعهد كان بينها ، فسخر مهلهل منه وقال : استه أخيب من ذلك .

ووقعت الحرب وهازم الحيلان بكر وتغلب ، واعتزلت كل قبائل بكر الحرب لأنهم رأوا شيان قد ماتت عندما اتجمعت على قتل كليب سيد ربيعة بنانة ، فظلمت لحيم ، وكلفت بشكر ، واعتزل الخارث بن عباد بقومه^(١) . وبقيت شيان وحدها ، وانضمت النمر بن قاسط إلى تغلب ، كما انضمت أيضاً فقيله بن قاسط^(٢) .

وأتفق مهلهل من خفته واجتمعت عليه فرسان قومه ، فاستعد لحرب بكر ، وترك كل هو . ثم أن بني تغلب قالوا : لا تعجلوا على الخوكم حتى تعزوا فيا يشكم وينهم ، فانتظروا رعدة من أشراقهم ونوي أسنانهم حتى أتوا مرة بن ذهل بن شيان فعضوا ما بينهم وبينه وخبروه غصلة من أربع : إما أن يحيي لهم كليباً ، أو يدفع إليهم جسداً لقتله به ، أو هما لقتله به ، فإنه كفاه له ، أو يمكتهم من نفسه وفاء من دمه^(٣) ، فسكت مرة ولقد حضرته وجوه بكر بن وائل فقالوا : إنك غير غفلون فقال : لما جالس فإنه غلام حديث السن ركب رأسه فتهرب حين خاف ولا علم لي به ، ولما هيام فأنبو عشرة وعم عشرة ، ولو دفعته إليكم صبح بنو ، في وجهي وقالوا دفعت أينا بجميرة غيره ، فهل لكم إلى غير ذلك . فهؤلاء بني فدونكم أحدهم فاقطوه ، ولما أتوا فلا تمجبل من الموت ، ولكن هل لكم إلى غير ذلك ، قالوا وما هو ؟ قال : لكم ألف ناقه يضمونها لكم بكر بن وائل . فغضبوا وقالوا : لم نأتك لترذل لنا ، أي تعطينا وذال بنيك ولا تسومنا اللبن ، ثم تفرقوا فوقع الحرب بينهم^(٤) .

ولقد انفت القبلتان في أحد عشر يوماً ، كما وصلتا ، عشرة منها بين بكر وتغلب ، ودخل في الأخير أطراف أخرى ، ثم اختلفت الروايات في ترتيب هذه الأيام ، فهي عند ابن قتيبة^(٥) : عتيبة ، واردة ، الجئر ، القصيف ، قبضة ، تحلاق اللحم . وهي عند أبي الفرج^(٦) : عتيبة ، واردة ، الحنو ، القصيف أو بطن السرو ، قصة أو التحلق والعتبة والفصيل ، الكلاب . وهي عند ابن عبد ربه^(٧) والبكري^(٨) : النهي والذئاب وواردات وعتيبة

(١) الأمل للقبائل ٢٥ / ٣ .

(٢) خزائن الأدب ١٦٩ / ٢ .

(٣) الحواشي ١٦٩ / ٢ ، الأغاني / كتب ٤٠ / ٥ ، أمثال الصبي ٥٦ .

(٤) أمثال الصبي ٥٧ والأغاني / كتب ٤٠ / ٥٠ .

(٥) للعارف لابن قتيبة ٦٠٣ - ٦٠٧ ، الشعر والشعراء ٢٩٩ / ١ .

(٦) الأغاني / كتب ٤١ / ٥ .

(٧) المعقد الفريد ٢١٨ / ٥ - ٢٢٢ .

(٨) معجم البكري ١٣٦٢ / ٤ .

والخمر وعَوْرَضَات ، ضَرْبَةٌ ، الْقَصَصَات ، قِصَّةٌ ، وَهِيَ عِنْدَ أَبِي الْقَدَاءِ^(١) : عَجِيزَةٌ ، وَالنَّهْيُ ،
وَاللِّتَابُ ، وَوَارِدَات ، وَالْقَصَصَات ، وَقِصَّةٌ . وَهِيَ عِنْدَ صَاحِبِ الْفَرَاغَةِ^(٢) : النَّهْيُ ،
وَاللِّتَابُ ، وَوَارِدَات ، وَعَجِيزَةٌ ، وَقِصَّةٌ .

وَكَانَتْ أَوَّلَ وَقْعَةٍ لَهِمْ عَلَى مَاءٍ كَانَتْ بَنُو شَيْبَانَ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هُوَ النَّهْيُ ، وَظَلَّكَ بَعْدَ أَنْ تَخَارِزَ
الْحَيَانَ عِنْدَمَا تَفَاقَمَ الشَّرُّ بَيْنَهُمَا ، وَرَأْسُ ثَغْلِبِ الْمُهْلَهْلُ ، وَرَأْسُ شَيْبَانَ الْحَارِثُ بَيْنَ مَرَّةٍ ، فَكَانَتْ
الدَّائِرَةُ لثَغْلِبِ عَلَى بَكْرِ ، وَكَانَتْ الشُّوْكَةُ فِي شَيْبَانَ ، وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلَ فِيهِمْ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا
فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ بَنِي مَرَّةٍ .

ثُمَّ اتَّفَقُوا بِاللِّتَابِ وَهُوَ أَكْثَرُ وَقْعَةٍ كَانَتْ لَهِمْ ، فَظَفَرَتْ بَنُو ثَغْلِبِ وَظَلَّتْ بِكَرٍ مَقْتَلَةً
عَظِيمَةً ، وَلِهَا قُتِلَ شَرَاهِيلُ بْنُ مَرَّةٍ بِنَ هَامٍ فَكَلَهُ عَتَابُ بْنُ قَيْسِ بْنِ زُهَيْرٍ بِنَ جِشْمٍ ، وَقُتِلَ
الْحَارِثُ بْنُ مَرَّةٍ قَتْلَهُ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ بِنَ جِشْمٍ . وَقُتِلَ مِنْ بَنِي تَيْمِ اللَّهِ جَبَلُ بْنُ مَالِكِ بْنِ تَيْمِ اللَّهِ ،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَالِكِ بْنِ تَيْمِ اللَّهِ ، وَقُتِلَ مِنْ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ سَعْدُ بْنُ ضَيْبَةَ بْنِ قَيْسِ وَتَيْمِ بْنِ
قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ قَتْلَهُ عَمْرُو بْنُ الْقُدْرَكِيِّ جَدَّ الْأَعْطَلِ .

ثُمَّ اتَّفَقُوا بِوَارِدَات ، وَالرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ ، فَظَفَرَتْ بَنُو ثَغْلِبِ وَاسْتَحَرَّ
الْقَتْلَ فِي بَكْرِ ، قَتَلَ يَوْمَئِذٍ شُعْمٌ وَعَبْدُ شَمْسٍ لَبَنًا مَعْلُوبَةً بِنَ عَامِرِ بْنِ ذُهَلِ بْنِ ثَعْلَبَةَ ، وَسَيَّارُ بْنُ
حَارِثِ بْنِ سَيَّارٍ ، وَقُتِلَ هَامُ بْنُ مَرَّةٍ قَتْلَهُ نَاشِرَةُ ، وَكَانَ هَامُ رِبَاهًا وَكَفَلَهُ ، وَبَرَّ بِهِ مِهْلَهُلُ مَقْتُولًا
فَقَالَ : وَابْنُ مَا قُتِلَ بَعْدَ كَلْبِ قَبِيلِ أَخَزَّ عَلَى فَقَدْ أَتَىكَ . وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَامًا قَتَلَ يَوْمَ
الْقَصَصَاتِ^(٣) . كَمَا زَعَمُوا أَنَّ بُجَيْرًا قَتَلَ يَوْمَ وَارِدَاتٍ مَعْتَمِدِينَ عَلَى قَوْلِ مِهْلَهُلِ^(٤) :

فِيئَسَى قَدْ تَرَكْتُ بِوَارِدَاتٍ بُجَيْرًا فِي دَمٍ مِثْلِ الْبَعِيرِ
هَسَكْتُ بِهِ يَوْمَ بَنِي عُبَايَةَ وَبَعْضُ الْقَتْلِ أَشَقُّ لِلْمُصْدُورِ^(٥)

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ بُجَيْرًا سَكَنَ وَلَمْ يُوَافِدْ فِي مَزَاحِفَةٍ ، كَمَا اتَّفَقَتْ مَعْظَمُ الرِّوَايَاتِ .

ثُمَّ اتَّفَقُوا بِعَجِيزَةٍ ، فَظَفَرَتْ بَنُو ثَغْلِبِ ، ثُمَّ كَانَتْ بَيْنَهُمْ مَعَاوِدَةٌ وَقَائِعٌ كَثِيرَةٌ ، مِنْهَا :

(١) لِلْمَخَصَرِ فِي أَنْبَاءِ الْبَشَرِ لِأَبِي الْقَدَاءِ ٩٦/١ .

(٢) خُرُوقَةُ الْأَدَبِ ١٧٠/٢ .

(٣) الْأَعْلَانِي / كِتَابُ ٤٥/٥ يَرَوِي ذَلِكَ عَنْ مِقَاتِلٍ .

(٤) الْأَعْلَانِي / كِتَابُ ٤١/٥ .

(٥) الْقَتْلُ : الْعَظَمُ .

الجور ، وضوئهم ، وأنيق ، وضربة ، والنقصيات . وكانت الدائرة فيها على بني بكر . وأصبحت فيها بكر حتى ظنوا أنهم لن يستقبلوا أمرهم . وقد وصف المهلهل هذه الأيام ونعى على بكر في قصيدة طويلة هي الرائية ، ومطلعها :

أَلَيْتُنَا بَنِي حُسَمِ الْبُزْري إِذَا أَتَيْتِ انْقَضِيَتْ فَلَا تَحْزُوري^(١)

ثم إن المهلهل أسرف في القتل ، ولم يبال بأي قبيلة من قبائل بكر أوقع ، وكانت . كما مر بنا . أكثر بكر قد عدت عن نصرته بني شيبان لقتلهم كلها ، وكان الحارث بن عباد قد اعتزل تلك الحروب قائلاً . . . لا ناقة لي في هذا ولا جمل^(٢) ، فاجتمعت قبائل بكر إليه فقالت : قد فني قومك ، فلرسل بجيراً إلى مهلهل وقال له : قل له : إني قد اعتزلت قومي لأنهم ظلموك ، وخيلت وإلهم . وقد أمرت ترك وقتلت قومك . فأتى بجير إليه فقلته مهلهل على الرغم من تحذير امرئيه القيس بن أبان له بالأا يقتله ، وقد قال التغلبي حينئذ : والله ليقتلن بهذا الفتي رجلاً لا يسأل عن أمه يعني بشرها هي أعرف من ذلك . وعندما بلغ الحارث خبر مقتل بجير قال : نعم القتل أصلح بين حيي وأهل ، ولئن أن المهلهل قد أترك به ثار كليب وجعله كفناً له . قتيل له . إنما قتله بشع نعل كليب .

ومساء أصبحت هذه التفاصيل ثم كانت من نسج خيال الرواة ، فإن الحارث بن عباد قد أحس أن مهلهلاً قد قلد في حربه . وأنه يجب أن يوقف عند حده ، لأنه قد أخذ بشأه ، ونهى الحارث وتولى أمر بكر ، وذكر بعضهم أن الفند الزماني كان رئيس بكر . وكان أول يوم شهدته الحارث يوم قبضة ، وهو يوم تحلاق اللحم ويوم الفصيل ويوم الشبه .

والفتى الفريقان عند قبضة ، وقد سبقت بكر تغلب إليه فسقت وأسبقت ثم صدوت ، وغلوا تغلب . وتعالى القوم - أي بكر - ليعرف بعضهم بعضاً ، ولتعرفهم النساء ، وقال جحتر بن ضبيعة : لا تحلقوا رأسي فإني رجل قصير تسينوني ، ولكن أشعريه منكم بلول فلرس بطلع عليكم فطلع عليه ابن عناق فشد عليه فقلته ، ومدحه يستمع بن مالك بذلك فقال :

يا ابن الذي لما حلقنا ألحماً ابتاع منا رأسه تكراً

بفسارس أول من تَقَدَّمَا^(٣) .

(١) نزاهة الأب - تحقيق عبد السلام هارون ١٧١ / ٢ .

(٢) المصدر السابق ١٧٢ / ٢ .

(٣) الألفي / كـ ٤٣ / ٥ .

وكان جحدر يرتجز يومئذ ويقول :

رَدُّوا عَلَيَّ الْحَيْلَ إِنَّ أَلْتِ إِنَّ لَمْ أَقَاتِلَهُمْ فَجَزَوْا لِي^(١)

ويقول طرفة مقتضراً بذلك اليوم :

سائلوا عَنَّا الَّذِي يَعْرِفُنَا بقوانا يومَ تحلافِ الثَّمَمِ
يوم تبسّري البهيمُ عن أسواقِها وثَلَفَ الحَيْلُ أَعْرَاجَ الثَّمَمِ^(٢)

وأمر مهلهل في هذا اليوم ، على الرغم من اختلاف الروايات في تفصيل خبر الأسر ، وهُزمت تغلب شر هزيمة ، وقُتل عمرو وعامر التغلبان قُتلها جحدر بن ضبيعة ، وعاد مهلهل إلى قومه يجرر أُنثى الهزيمة ويطارده ذل الأسر وهو القلوس الذي لم يهزم قط . وجعل النساء والوالدان يستخبرونه عن طويهم فقال :

ليس مثلي يَجْزُرُ النَّاسَ عَنْ أ بالهيم قَتَلُوا وَيَسِي الْقِتَالَا

ويعترف في البيت الأخير من هذه القصيدة بالهزيمة ولكننا نلمح أنه بالانحسار إلى اعترافه هذا فإنه يحس بأن دوره قد انتهى وبأن أهام النصر قد ولّت حيث يقول :

غلبونا ولا محالة يوماً يقلب الدهرُ ذاك حالاً فحالاً^(٣)

وقرر أن يرعجل بأهله بعيداً عن قومه لعل نار الحرب تنطفئ وتعود الحياة إلى ما كانت عليه^(٤) .

وكان سبب هزيمة تغلب يوم قبضة ، أن الحرب كانت قد أُنهكت فرسانها ، ولكن الحارث بن عبد البكري عن المعركة ، ولكنه متأعب لما إذا جدّ الجِد ، وحالت ساحة ضرورة التدخل ، ولذلك فقد عدّتي للمعركة بفرسان لم تنهكهم الحرب ، ويقال له لم تؤثر في معنياته المعارك السابقة . وقد أكثر شعراء بكر من التفتي بانتصارهم يوم قبضة ، فهو اليوم الوحيد الذي انتصروا فيه ، وكان النصر الحاسم الذي وضع حداً لهادي مهلهل في الانتقام .

(١) المصدر السابق ٤٤ / ٥ .

(٢) ديوان طرفة ١٣٢ .

(٣) الأغاني / كعب ٥٠ / ٥ .

(٤) احتشدنا في سرد أحداث هذه الحرب على المصادر التالية : الأغاني / كعب ٣٤ / ٥ وما بعدها ،

الأغاني / قتادة ٢٣ / ٢٥٤ - ٢٥٩ ، الملذات القريد ٥ / ٢١٨ - ٢٢٢ ، أشبال الضبي ٥٥ - ٦٠ ،

المعارف لأبن قتيبة ٥ - ٦ ، خزنة الأدب ٢ / ١٦٤ ، وما بعدها ، الهدى ٢ / ٥٢٩ .

وباعتزال مهلهل الحرب فإن الحرب لم تنته نهائياً ، ولكنها بقيت تأخذ شكل المناوشات الفردية ، وحتى بعد موته لم تتوقف المناوشات بين القبيلتين ، إلى أن قام عمرو بن هند ملك الحيرة ، وكانت أم هند عمة أمية القيس بن خنيسر ، فقد سعى إليه زعماء الحيرة ليصلح ذات البين . قدما لذلك رؤساء الفريقين ، ودعاهم إلى التراضي ، ونجح في مسعاه ، وطمأنياً لاستمرار الصلح، أخذ من كل حي مائة غلام رهناً عنه ، وألف بهم كتية يفزو بها من يشاء، ثم كانت الحرب تنشب من جديد عندما هبَّ ريح سموم عليهم فأهلكت عامة التغلبيين ونجا البكريون ، وأثارت هذه الحادثة اثارة تغلب ، وهبوا يطلبون من بكر أن يؤدوا ديوات أبنائهم . وأبى البكريون ، ووقع النزاع بين الزعماء واحتكم الجميع إلى الملك ، ومثل تغلب عمرو بن كلثوم ، ومثل بكر النعمان بن هرم البشكري وأنشد كل منهم معلقة ، بعد أن قد انحازت بن حلزة البشكري عندما رأى أن الملك يوشك أن يهم بالنعمان . وأمر الملك برفع الستور حتى صار الحارث مع الملك على مجلسه ، وجرَّ نواصي السبعين بكراً ظليين كانوا بين يديه ودفعها إلى الحارث^(١) .

ودامت هذه الحرب كما يذكر المؤرخون والرواة أربعين سنة^(٢) ، وحدثها بعضهم بأنها كانت بين سني ٤٩٥ و ٥٣٥ ميلادية^(٣) ، بينما رأى آخرون أنها كانت سنة ٥٢٥ م بواسطة المنذر الثالث ملك الحيرة^(٤) .

ويذكرون أن آخر من قُتل في تلك الحرب جساس بن مرة قاتل كليب . قتله ابن كليب المحجرس^(٥) ، وقيل إن جساساً مات حطب لفته ولم يُقتل^(٦) .

ويروي صاحب الأغاني أنه لم يكن بينهم من قتل تعدّ ولا تذكر إلا ثمانية نفر من تغلب وأربعة من بكر حدثهم مهلهل في رايته التي مطلعها :

ألبتسا بلري حُسُمر أنيري إذا أنت انقضيت فلا تحسوري

(١) شرح القصائد السبع الطوال ٣٧٠ .

(٢) جميع الأمثال للمبدلي ٢ / ٥٢٩ ، والأشفاق لابن وريد ٣٣٨ ، والأغاني / كتب ٥ / ٤١ .

(٣) تاريخ الأئمة العرب - عمر فروخ ١ / ١١٠ .

(٤) تاريخ العرب - فليب حتى ١ / ١٢٠ .

(٥) الأغاني / كتب ٥ / ٦١ .

(٦) المصدر السابق ٥ / ٥٢ .

فقد حشد مهلهل أربعة من بكر في رايته ، ثم عاد لعدد لنا ثانية من تغلب في تصيدة أخرى مطلعيا :

طَفَلَةٌ مَا ابْنَةُ الْحَلَالِ بِيضًا أَوْ نَعُوبٌ لَذِيذَةٌ فِي الْعِنَاقِ

ويذكرهم عامر رايه هذا الذي يرويه أبو الفرج بأن أبناء القبايل هم الذين شهدوا تلك الحروب فعندهم حشداً بينهم وبين بينهم ، فلن يصلوا إلى حسمنا^(١) ، ولكن أخاه مسمع بن عبد الملك يكذب أعمامه ، ويستعجبون رايه لأنه يحتج بشعر مهلهل ، ويذكر بعض القتل الذين لم يردوا في شعر مهلهل ومنهم : أبو مكثف الذي قُتل يوم قُضَة ، وتأثره وحبيب الذي قُتل يوم واردات ، وابن الفيحة الذي كُله سعد بن مالك بن سبيعة يوم قُضَة^(٢) ولقد أحصينا القتل الذين وردوا في المصادر التي عرضت هذه الحرب فوجدناهم ستة عشر بكراً ، وثمانية من تغلب . ولكن مبالغه كبيرة في عدد القتل طالما في بعض المصادر ، ويدعو أن ابن اسحاق هو الذي أولع بذلك كما فعل في السيرة فقد ذكر في يوم النُّهْي من أن القتل استمر في بني شيبان ولكن أين القتل ؟ لم يذكر أحداً ، ومثله يوم الذنائب ، وثالث بكر يوم الذنائب ، ويروي ابن اسحاق خيراً يرفعه إلى غير واحد من العلماء بعدد فيه القتل من أشراف بكر وأشراف تغلب ، ويعقب بعد ذلك فيقول : « هؤلاء أشراهم وما دونهم لا يحصى ولا يُعد »^(٣) .

وقد كان مهلهل بن ربيعة فارس تغلب في هذه الحرب وقائلاً ، قائداً ضد بكر النسي غدرت بأخيه كليب سيد ربيعة فقتله غتراً بعيداً عن ساحة القتال . وقد قيلت في جميع أيام هذه الحرب ، لم يتخلف في واحدة منها إلى أن هُزمت تغلب يوم قُضَة ، ففر الرحيل إلى اليمن .

وكما كان فارسها وقائداً فقد كان رئيسها الذي يوجهها ، ولم يكن يستمع إلى أي صوت للسلام يدهوه للتعقل والاكتفاء ، حتى رأيناه يقدم على قتل ابن الحارث بن عباد وهو يقول له : يؤشع نعل كليب ويشد :

كَمْ قَتِيلًا فِي كَلْبٍ حَكَاةً حَتَّى يَنَالُ الْقَتْلَ أَلْ هَيَامُ^(٤)

ويقتل بجير انضم للحرب عنصر جديد قوي كان معتزلاً لما هو الحارث وقومه ، وكان السبب المباشر في هزيمة تغلب والقضاء على مهلهل معنوياً ، فلم تقم له بعد ذلك قائمة .

(١) الأختلي / كتاب ٥ / ٥٣ - ٥٤ . (٢) المصدر السابق ٥٥ .

(٣) نفس المصدر السابق ٥ / ٤٧ . (٤) حرب بكر وتغلب ١١٧ - ١١٩ .

وبالإضافة إلى قيادة قومه وراثتهم فإنه كان شاعر تغلب الذي سجل حروبهم وكان الناطق الرسمي باسمهم يتكلم ، ويرثي ويخمر ويرد ما يقوم به ، وسنعرض لذلك بمزيد من التفصيل عند حديثنا عن تصوير شعره لأحداث قومه .

ولا نجد في المصادر المختلفة التي روت أخبار تلك الحرب وأخبار بطلها ، مصدرأ يتحدث عن ولد ذكر له ، يقول الأمر من بعده ويساعده في حياته ، ويجيشنا أين حزم^(١) عن ثلاثة إخوة له وهم : كليب وعديّ وسلّمه ، ولكننا لا نعر على أي غير الثلاثة الآخرين إلا ما ورد بشأن الذي أسره الحارث فقد ذكرت بعض المصادر أنه عديّ أخو مهلهل وليس مهلهلاً .

كما أن هذا البطل الذي كرس حياته لوجدها في قيادة قبيلته ضد أختها التي مات سيدتها ، لم نجد من يرثيه ، أو على الأصح ، لم يصلنا شعر يرثيه إلا ما رثته به ابنة سليمان ، فلقد رثته كما وصلنا بقصبتين ، تحدثت فيها عن بطولته وفروسيته وشهامته فقالت :

أعني جوداً بالدموع السوافح	عل فارس الفرسان في كل صافح
ألا تبكيان المرتضى عند كل مشهد	يشير مع الفرسان تفع الأباطح
عدياً أخا المعروف في كل شؤ	وقارسها المروبو عند التكافح ^(٢)

وقد تكررت نفس المعاني في القصيدة الثانية ، فهو المرتضى عند الشدائد وهو المستغيث به العباد ، وهو حامي الملوك ، وهو الذي يغير الجيران ، وهو كافل اليتيم . ولا تدري لم تكررت ابنة على هذه الفضائل وأعملت فروسيته فلم تذكرها إلا في بيت واحد مع أن مهلهل اشتهر بقيادته في حربها ضد بكر ، وربما قلبت عليها طبيعة المرأة فأحسّت بأنها فقدت نصيراً كبيراً لها ، ولكل ضعيف مثلها كاليتيم والمستغيث والمستجير .

وربما كان سبب ذلك أن مهلهلاً مات بعيداً عن قومه ، كما مات وقد تشتت قومه وتفرقوا ، وكانت الحرب قد خفت أو هدأت قبل فترة من الزمن ، ولو كان مهلهلاً مات في ساحة الوضي لأبصر الشعراء من قومه لزاء الفارس الذي سقط في ميدان القتال . أما وقد مات ميتة طبيعية ، وكان قد أسن فلا داعي للتحمس في رثائه ، وربما وثق بشعر لم يصلنا ، ولكننا نحمل إلى أن موت مهلهل بعيداً عن قومه ، وبعيداً عن ساحة الوضي ، وقد شاع ، كل هذا خفف من وقع موته عليهم .

(١) جهرة الأنساب .. لابن حزم ٣٠٥ .

(٢) بكر وتغلب ١١٧ .

ولا نجد شاعراً من خصومه أو القبائل المحايدة وفي هذا البطل ، كما فعلوا مع غيره من الفرسان في الأيام الأخرى ، والسبب هنا واضح ، فلقد عطف الجميع على قضية اقتياله أنهى ، واعتزلت بعض أسماء بكر الحرب إحساساً منها بظلم بكر لأختها تغلب ، ولكن ثمادي مهلهل في القتل وسلك الدماء ، وعدم توقفه عند حد ، أخفقه هذا المظلم . ونقموا عليه ، كما أن موته بعيداً عن ساحة القتال كان له الأثر في تسيان القوم له ، فلم يعد ذا قيمة .

وإذا ما حاولنا العثور على نصوص تشير إلى بطولات تفصيلية له في هذه الحرب فإننا لن نطفر بطائل لأن أخبار تلك الأيام لم تصلنا بكامل أحداثها ، وإنما وصلنا الترويس من الذي يحدد لنا خطوطها العريضة . وهذا ما حاول القصاص الشعبي أن يستكملة حين عرض لصورة ذلك البطل .

ولكن هذا القصاص الشعبي اعتمد بجانب واحد فقط ، هو إبراز بطولة المهلهل ومهارته في فنون القتال ، دون التفات إلى ذكر اليوم ، باستثناء يوم قبضة الذي ذكره بالاسم ، أو تركيز على صورة المعركة إلا ما كان متصلاً بالبطل ، ونجد نفس هذا العيب ، إن جاز لنا أن نعتبره عيباً ، في سيرة عشرة ، حيث أهمل كاتب السيرة تفاصيل أيام حرب حاسم والغبراء وركز على معارك عشرة وحروبه مع القبائل الأخرى والأسم الأخرى .



المهلهل بطل أسطوري شعبي

ليل الخوض في عرض صورة المهلهل في الأسطورة الشعبية ، نود أن نتوقف قليلاً لتوضيح مفهوم الأسطورة . فليمر وفرويد^(١) باعتباره الأسطورة مرضاً عقلياً ويلعبان إلى صلتها بالسحر ، وفهمها جين هاريسون^(٢) قصة خيالية صرفة ، وفي مفهومها أننا حينها نقول إن شيئاً ما أسطوري ، فنحن نعني أنه لا وجود له وحده راجلان^(٣) الأسطورة يجعلها عن الحقائق التاريخية ، وقال إنه لا شأن للأسطورة بالتأملات أو التفسيرات ، كما أنها لا شأن لها بالحقائق التاريخية .

(١) البطل في الأساطير - شكري صبا ٧٧ .

(٢) نفس المرجع ٨٦ .

(٣) نفس المرجع ٨٦ .

وهكذا فتحنا أمام صورتين لا بد من توضيح معالم كل منها قبل أن نحدد معالم بطلنا، ونرسم صورة بطل حرب البسوس في الأسطورة الشعبية . الصورة الأولى البطل التاريخي ، والثانية البطل الأسطوري . والبطل في التاريخ هو الصانع الوحيد له ، ذلك ما آمن به المؤرخون . ونحن نلمس البطل عن طريق الأحداث التاريخية التي أحاطت به وسجلت طموحه . ويؤكد بليشانون^(١) أن « الزمان والمكان يعنى التغييرات التي يحدثها هؤلاء الأبطال هي عوامل تعتمد على الأحوال الاقتصادية وحل مجاذب المصالح الطبقة التي تنمو في تلك الأحوال » . ومعنى آخر فإن البطل « لا يستطيع التكيف في التاريخ ما لم يكن الزمن مؤاتياً له » ، وما لم يكن الأوان باتعاً^(٢) .

أما البطل الأسطوري فإنه يستعين بقوى خارقة ، ويأقنه العون من الآلهة وهنوعون خلقه . والبطل هنا يتعامل مع كائنات غريبة هي مزيج من الانسانية والحيوانية والالوهية ، بل إننا نجده يتعاون مع قوى الطبيعة ، التي تُصَوِّر هي أيضاً تصوراً حبيبة^(٣) .

وفي أساطيرنا العربية لا وجود لآلهة كما في أساطير غيرنا وقد حاول أحد الباحثين تحديد إطار أساطيرنا العربية فقال . . . أساطيرنا العربية بالرغم من تنوعها تطور حول فكرة واحدة هي إمكان السمو بالإنسان وإبلاغه مرتبة الآلهة ، فبحيا الإنسان حياة الأبدية بعد أن كتب عليه الموت . . . ولذلك كانت بطولة أساطيرنا وملاحمتها غير قاصرة على الآلهة ، إذ شاركهم فيها نفر من البشر الذين بلغوا أو كانوا يبلغون مرتبة الآلهة^(٤) .

وفي بحثنا هذا نحن أمام صورتين للمهلل ، إحداهما ، وقد سبق عرضها ، صورته في التاريخ كما صورته لنا الشعر وروايات الرواة . والثانية صورته في السيرة الشعبية ، وهي التي تظهر المهلل بطلاً قريباً من أبطال الأساطير ، ولكنه ليس أسطورة ، إذا فهمناها كما فهمها راجلان أو جين هاريسون ، بل إن بطلنا فارس من التاريخ ، عرفته الجزيرة العربية . ولكن صورته داخلها التحريف والبالغ لعدة أسباب . وبعبارة أخرى فإن بطلنا مزيج من التاريخ والأسطورة . ويرى أحد الباحثين^(٥) أن الأسطورة والتاريخ يلتقيان حول سيرة البطل القديم ،

(١) السيرة - ملعر حسن فهمي ٥١ .

(٢) نفس المرجع ٥٢ .

(٣) البطل في الأدب والأساطير - شكري عياد ٧٤ .

(٤) قصصنا الشعبية - فزاد حسنين ٢٦ .

(٥) السيرة - ملعر حسن فهمي ٢٠ .

للاسطورة فجميع بالخيال وتطفي عنصر الخرافة . . بينا التاريخ يحارب الخرافة ويعتمد تسجيل الحقائق وتفسيرها .

ولقد وصلنا صورة للمهلهل الأسطورية ، إن صح التعبير ، من خلال السيرة الشعبية ، وهي نفس الطريق التي نقلت إلينا صورة عنترة . والسيرة - كما يذهب الدكتور ماعر فهي^(١) - كانت وما زالت أكثر نضجاً بالحقبة من التاريخ ، ففيها تلمس البطل جسداً ونباهة ناطقاً . أما في التاريخ فلنا تلمس البطل عن طريق الأحداث التاريخية التي أحاطت به وسجلت طموحه ، لا عن طريق المشاعر والانفعالات ، واستبطان الأحاسيس الداخلية .

وقد مهد المؤلف لظهور المهلهل على مسرح الأحداث بمرض علاقة قيس عامة بملوك اليمن وبمحاورة ملوك اليمن إخضاعها ، ثم إخضاع ربيعة بحبيها بكر والغلب ، وقد نجحت جبريش اليمن في ذلك وقعب الرؤساء والسادة إلى تبع يسلعون عليه ويقبلون بديه ويطلبون لأنفسهم الأمان ، ولكن المؤلف جعل والد كليب والمهلهل لا يفعل كذا فعل القبايل لأن نفسه الآلية لم تقبل ذلك الخوان ، وكان جزؤه الموت شقة^(٢) . أما مرة فقد صور المؤلف منهزماً ، ثم يتقدم إلى الملك طالباً الأمان وداعلاً في طاعة قاتلاً للملك « نحن الآن عبيدك وطرح عبيدك »^(٣) ولا يخفى على القارئ لم فعل المؤلف هذا حينما صور كلاً من ربيعة ومرة على النحو الذي رأينا .

ثم ينتقل فيصور لنا أن ثعباً وضرب في جليظة بنت مرة ، وكانت مخطوبة إلى كليب ، ويطلب مرة رأي كليب الذي يضع خطة تعتمد على الخيلة القتل تتبع يوضع رجال شجعان في الطليقات السفلى من صنابير الحديد التي تراقب العروس ، ولكن منجياً يكتشف الخيلة ويلغها لتبع ، ثم يشرطه كليب ولجومه فيخفي الأمر وينجح كليب في قتل تبع ، وينشد تبع شعراً قبل مقتله يذكر فيه أن امرأة ستظهر ، وسوف تعمل على الانتقام لتبع من كليب^(٤) .

ويظهر مهلهل في القصة لأول مرة حينما ذكر كأحد إخوة كليب ويصفه المؤلف بقوله « وكان من جملتهم المهلهل اللغب بالزير ، وكان جميل الصورة كأنه البدر وهو صاحب السيرة والوقائع ، وكان في تلك الأيام ابن عشرة أعوام » ويستمر في رسم صورته فيقول عنه بأنه « فلرس شجاع كالسبع ، فصيح الكلام . منعكف عن الشراب وإنشاد الأشعار »^(٥) ويحاول كليب دفع أخيه في طريق السيادة والزمامة وترك حياة الشراب ولكن مهلهلاً يرد عليه قاتلاً « ما دمت أنت في الوجود

(١) المرجع السابق ٢٢ .

(٢) قصة الزير ١٠ .

(٣) نفس المرجع ١١ .

(٤) نفس المرجع ٢٧ .

(٥) قصة الزير ٣١ .

وأنا في خير لا أحسب حساباً للغير، ولكن إن جُرّ عليك الزمان، وأحاط بك الحساد فأنا أريد منك
الاعتذار^(١).

ويتدخل المتجمون ثانية في سياق القصة حين يخبر منجم أولاد مرة بأن الأمير جاسماً لا بد
أن يقتل كلياً، ثم يظهر الزير ويأخذ بثأره ويقتل منهم كل أسير وجنك بعد وقائع تستحق
الاعتذار... ويعتريهم الكفر ويفر أولاد مرة لتخلص من مهلهل قبل أن يكبر^(٢).

وهكذا يجعل المؤلف بداية الصراع بين القيلتين نبوءة النجم، كما يجعل مهلهلاً ينصت
للكائده وهو بعد صغير السن، والمؤلف يفعل ذلك ليعبّر لنا بطلاً منذ الصغر.

وتهتدي بكر إلى الوسيلة المثلى لمخاطبتها في التخلص من مهلهل، وتجد في جليظة إبتهم
وزوجة كليب غير متقد خطتهم. وتستعين جليظة بكل حيلة لتخلص من مهلهل، وهي
تستخدم في ذلك زوجها كلياً تفرّضه على أخيه، فهي تارة تتهمه بأنه راودها عن نفسها، وأخرى
تظن في أخلاقه، وثالثة تطلب من كليب أن يلعب إلى بئر السباع وهناك يتركه بعد أن يقطع
الحبل، ورابعة تلهّض وتطلب حليب السباع فيلعب مهلهل ويغضره لها دون أن يحس بسوء.
والمؤلف ينجي مهلهلاً من كل تلك الكائده، ويجعله يتغلب على أخيه حيناً بلزوه، كما يخضع
الأسود ويركبها^(٣). وتجد كلياً في نهاية المطاف ثوب إلى رشده ويقتنع ببرائة أخيه من كل ما
نسب إليه، ويرى فيه سنداً قوياً، ويطلب منه أن يبقى إلى جواره بعينه، ولكن مهلهلاً يرفض
ويطلب منه أن يملأه بصيوان كبير مجهز بالفرش الثمينة عند بئر السباع، وأن يزوده بالخدم
وبالطعام والشراب ويطلب منه أن يبقى وحيداً حتى يتعد عن كيد النساء^(٤).

وهكذا يضع المؤلف ملامح جديدة في شخصية بطله، فهو شجاع وريث عند السباع،
وهو يريد أن يتعد عن النساء ويكهنهن وليس زير نساء كما قالوا عنه، وهو لم يعتزل الفوم إلا
عندما أحاطوه بالأميرات والديسانس، ولم يعتزلهم ليتفرغ للشراب كما قالوا عنه أيضاً.

ويعد مهلهل في هذه الفترة صداقة مع ابن عمه هيام بن مرة، وتستمر هذه الصداقة
والعزلة عن القيلتين ثلاثة أعوام.

ثم تظهر المرأة العجوز، تلك المرأة التي ذكرها تبع في ملحمة ليل موته، والتي نعتها بأنها

(١) نفس المرجع ٣١.

(٢) قصة الزير ٣٣.

(٣) نفس المرجع ٣٣-٤٣.

(٤) نفس المرجع ٤٥.

سوف تظهر بعده وتلقي الفتنة في القبال وسيبها يقتل كليب وتثور الحرب بين بكر وثعلب .
ويصفها المؤلف بأنها ذات مكر والحيك وخداع وساحرة ماهرة . . . وكانت صغيرة حينما قتل
أخوها تبع ، وبلغها الخبر بعد أن كبرت فصمتت على السير إلى تلك الديار وقيل كليب
الغذكرة^(١) .

ومحدثا المؤلف بعد ذلك أن كليباً سار إلى المهلهل يعرض عليه التنازل عن رئاسة القوم
له ، وذلك بسبب تقدمه في السن . ولكن الزير يرفض ذلك ما دام كليب حياً ، ويأتي دور أخت
تبع ، لكي توقع بين الحوين ، وسيلتها في ذلك الناقة . وحلول جساس لإرضاءها ولكنها تصر
على مطلب من ثلاثة ، وكل واحد منها مستحيل التحقيق ، إما أن يملأ حجرها بالتجم ، أو أن
يحمي لها الناقة ، أو أن يقدم لها رأس كليب يوم الثلاثاء^(٢) . ولم يجد جساس بداً من قتل
كليب ، فبشله وبذلك يحقق نبوءة التجم . ويكتب كليب بدمه قبل موته على صخرة وصيته
لأخيه ضمنها رغبة في عدم مصالحة مهلهل بكرأ منها فعلاوا وإلا فإنه يريء منه ، كما طلب منه أن
يصلحهم حصداً^(٣) .

ويكره الخبر مرة وقومه ، ويعرض على أولاده رايه في إسكات الفتنة التي توشك أن تعصف
بالبقيتين ، فيرى بأن يوتفوا جساساً ويرسلوه إلى مهلهل وإخوته ليقتلوه بكليب . ولكن أولاده
مرة وقضوا الفكرة لأنهم رأوا أن جساساً هو الذي سيخلف كليباً في الرئاسة ، لأن المهلهل في
نظرهم لا هم له إلا الطعام والشراب^(٤) . ويعين المؤلف في رسم شخصية المهلهل كما يرأها
الطرف الآخر فيجعل ابن أخته شيان ابن همام يتصح بحاله مهلهلاً بأن يترك فكرة الحرب ويعود
إلى الشراب لأنه عاجز عن فعال الأبطال ، مما حدا بالمهلهل إلى قتله^(٥) .

ويقرر المهلهل قومه في حرب الثار ، وتثور الوقائع ، ويعين المهلهل فيهم تفتلاً ، ففي
يوم الذناب يقتل منهم ثلاثين ألفاً . . ثم يوقف القتال بسبب مقالة متجّم نصحه بوقف القتال
ست سنوات^(٦) .

وتلعب الخيلة دوراً هاماً في قصة الزير ، كما يلعب التنجيم دوراً هاملاً . فبالخيلة قتل
كليب تبعاً ، وبها أيضاً قتل كليب ، وبها استرد المهلهل مهرة متّدم عندما غزا جساس الديار وهو
غائب وأخذه . وبالخيلة أيضاً حاولت بكر إيقاف الحرب التي كانت تغنيها . فقد عمدت إلى

-
- | | |
|-----------------------|-----------------------|
| (١) قصة الزير ٤٧ . | (٢) نفس المرجع ٥٦ . |
| (٣) نفس المرجع ٥٩ . | (٤) نفس المرجع ٦٢ . |
| (٥) نفس المرجع ٦٥ . | (٦) نفس المرجع ٧٥ . |

وضع رجل داخل قبر كليب حتى إذا مر الملهل على القبر حسب عاداته وسأل أخاه : هل اكتفت ؟ يجيبه الرجل من الداخل بصوت خافت : لقد اكتفت يا أخي . ولكن الملهل مرعان ما يكتشف الحيلة ويستمر في حربه^{٨١} .

ويضطر جساس وقومه للهجرة إلى الخيشة والسودان ، ويستجرون بللك الرعيني ليس تحت الشج حسان ، وترافقهم جليلة ، وشرحوا للملك ما حل بهم ، وذكروه بما فعله كليب بللك تبع ، وقرر الملك قتال الملهل وأمر بالاستعداد لغزو بلاده^{٨٢} .

وعلم الزير بأمر هذا الغزو ، فصار حتى جن الليل ، فغير زيه وتكر ، وجعل نفسه كأحد شعراء الجرب الذين يقصدون الأمراء ، وقصد إلى صيوان الرعيني ، فسلم عليه ، ثم تمكن من القضاء عليه بحيلة وقتله برمح كان يحمله تحت ثيابه^{٨٣} .

وأصبح الملهل بعد أن هزم ملك الخيشة وجيشه ، فارس العرب والعجم ، وحظم الأمر على جساس فقصد العابد نعيان ورجله أن يتوسط لدى الملهل لإيقاف القتال فترة من الزمن ، ووافق الملهل على ذلك . وعاد الملهل إلى اللهر وشرب الدمام . . . ومغازلة النساء^{٨٤} .

ورأى جساس أن الفرصة مؤاتية لقتله ، وحاول عندما علم بأن الملهل وسيد طريق القرائش في الحزام ، لقصد الحي في ثلاثة آلاف مقاتل . وهجم الجيش على الملهل وهو سكران وقبضوا عليه ونزلوا عليه بالسيف فأنكسروا بالجراح ، ثم أسلموه إلى أخته « ضباع » « زوجة » . وهامه . . . لقتله بلهنا الذي قتله . ولكنها لم تظهر حزنها على ما آل إليه أخوها ، بل أظهرت الفرح ، ثم وضعت في صندوق يحكم ، وألقته في البحر ، وأخبرت إخوتها وبني عهها بما حل بالزير وأشاعت بين قوم جساس أنها أحرقت بالنار^{٨٥} .

وبالت غلب بعد غياب فارسها وطلها ، وقصدوا جساساً واعترفوا له بالسيادة ، وطلبوا منه الأمان ، فذهب أموالهم وأخذ توليهم ، واشترط عليهم ألا يرقنوا ناراً^{٨٦} . . . ورجل أخوه الملهل بلولادهم وأطفالهم حتى لا يلحق بهم اللد . وكان مؤلف القصة لم يشأ الإخوة الملهل أن يلحق بهم أي دل أو هوان .

ووصل الصندوق الذي وضع فيه الملهل إلى بيروت الإسرائيلية ، كما وصفها المؤلف

(١) قصة الزير ٨٠ .

(٢) نفس المرجع ٨٢ - ٨٤ .

(٣) نفس المرجع ٨٥ - ٨٧ .

(٤) نفس المرجع ٨٩ .

(٥) قصة الزير ٩٠ .

(٦) نفس المرجع ٩٢ .

وتفتح الصندوق ، وأخرج المهلهل وشوَّج من جراحه ، وحينما شفي تماماً قصَّ على ملك بيروت قصته فلم يصدق له ولم يحسبه^(١) .

وظل المهلهل في السجن حتى نشبت حرب بين برجيس الصليبي وحكمون اليهودي ، وهزم جيش حكمون ، وكان المهلهل يقف يرقب سير تلك الحرب ، ثم منحت له الفرصة لعرض حل حكمون أن يجازب فسمح له ، وأظهر بطولته خارقة ، واعترف بشخصيته لحكمون الذي أكرمه^(٢) .

ويقرر المهلهل العودة إلى أهله وديار قومه ، ويطلب جواداً جريحاً في القتال اسمه الأخرج ويهبه الملك ذلك المهر . ويعود مهلهل إلى الديار متكرراً بعد أن ترك المهر في الحياء في حراسة رجال ، ويذهب إلى بنت أخيه ويهدهن قليلات حزينات بعد هزيمة تغلب ، ولحكم ضالمين جساس بن وقومهم^(٣) ، ويكتشف أمره لمن بعد أن طلب منهن إبقاء الأمر سرّاً^(٤) .

ولكن جساساً يتمكن من إكتشاف أمر المهلهل والمهر ، ويأخذ المهر من العبيد ويستعد لقتال المهلهل وقومه ، ويلتقي الفريقان في معركة ضارية أهل فيها المهلهل ، وأحرز نصراً مؤزراً على جساس وقومه وهرب جساس هائلاً رأى ما حل بقومه من العذاب^(٥) . وفكر جساس وأخوه سلطان ، حيناً رأوا ألا جدوى من قتال المهلهل ، في الذهاب إلى مهلهل ، ليعرضاً عليه ملك الشام ودفع الجزية له والخضوع له . وذهبوا فعلاً إليه معهم جليلة وعرضاً عليه الفكرة ، ولكنه رفض إلا إذا رجوا اليامة ابنة أخيه ووافقت . وذهبت جليلة وأخوها سلطان إلى ابنتها اليامة يرجوانها ولكنها رفضت^(٦) .

وبلجاً سلطان وأخوه إلى الحيلة مرة أخرى للإيقاع بالزير وأسرهم ، وذلك بمطرد حدة حفر ، ليقع فيها الزير ولمسه لياسرونه ويتخلصون منه . ولكن هذه الحيلة أيضاً فشلت بسبب قوة الحصان ، ونجا الزير من هذه المكيدة^(٧) . وتعقد بعد ذلك هدنة مدتها شهران بين الحيين .

ويلتقي الحيان في معركة ، ويطلب شيون ، ابن أخت المهلهل ، خاله للمبارزة ، ويقتله المهلهل . ثم يلتقيان مرة أخرى فيقتل هيام ، يقتله المهلهل^(٨) .

(١) نفس المرجع ٩٦ .

(٢) قصة الزير ١٠٩ .

(٣) نفس المرجع ١١٣ .

(٤) نفس المرجع ١١٣ .

(٥) نفس المرجع ١٢٢ .

(١) نفس المرجع ٩٥ .

(٢) نفس المرجع ١٠٣ .

(٣) نفس المرجع ١١٢ - ١١٣ .

(٤) نفس المرجع ١٢٢ .

ويدخل المعركة مختصر فتى لم تفته الحرب بعد ، وهو القائد الزماني وقومه الذين استجذبت بهم بكر ، وكان يوم قبيلة ، واشتركت النساء في القتال . ولم يشأ المؤلف أن يجعل بطله يؤسر ، ولكنه جعله جريحاً مشدخاً بالجراح ، وهُزمت تغلب وقتلت فرسانها ، وحقت بكر نصراً ساحقاً في ذلك اليوم^(١) .

أما المهلهل فقد زاد حنقة على بكر ، فجمع الفرسان والأبطال ، ولجَّهز للحرب . وهنا يأتي دور الجرو بن كليب الذي كان بين أخواله ، ويعرف حقيقة أمره ، وترحل به أمه عن أهلها ، ويجمع المؤلف بينه وبين أخته الهامة التي تعرف عليه^(٢) .

ويغضي المهلهل عن مسرح الأحداث ليتصدى للثأرين كليب الذي يفتن مع عمه على حيلة لقتل شاله جاساً ، وكان جاس قد رأى بعض هذه الحيلة في منامه . وعندما التقى الثريخان برز الجرو إلى الميدان فبرز إليه المهلهل فالتقاء الجرو ، وطعته بالرمح طعنة كاذبة ، فالتقى المهلهل بنفسه على الأرض من ظهر الحصان وصاح الجرو أن قد قلنا لك بقتل الزير ، وصاح على جاس ليقطع رأسه ، وعندما اقترب منه جاس ، غمض الزير على قدميه . . . واستعطفها جاس ولكن الجرو طعنه حتى أجهز عليه^(٣) .

وعندما يصل المؤلف إلى نهاية المهلهل فإنه يكتب رواية واحدة ، وهي التي تحدثنا أنه قتل بيد عيدين كانا يرانقاه في غزواته لوائخر أيامه^(٤) . أما مدة الحرب بين القبيلتين فقد ذكرها المؤلف أنها امتدت أربعين عاماً^(٥) .

تلك هي صورة المهلهل كبطل أسطوري كما رسمته لنا السيرة الشعبية ، وقد لعب السحر والتنجيم ، والنساء والحيل ، كما لعبت القوة الخارقة لخصائه ، دوراً بارزاً في رسم صورة ذلك البطل . ولم ينس المؤلف أن يفرج بطله من دائرة القبيلة والجزيرة كذلك فيجعله يقتل ملك الحبيشة ويتنصر عليه . كما أن بطله قد انتصر على الوحوش الكاسرة وقد لعب دوراً حاسماً في ترجيح كفة ملك يبروت على الروم . والبطل هنا يتنصر على كل الأعداء مهما كانت القوى التي يستعينون بها . وحيلته تنجح وتغلي على الأعداء ، أما حيلهم فلا يكتب لها النجاح . والجيوش هنا جراءة ، والقتل بالآلاف المؤلفة .

(١) نفس المرجع ١٢٣ .

(٢) نفس المرجع ١٣٩ .

(٣) نفس المرجع ١٤١ .

(٤) نفس المرجع ١٤١ .

وقبل أن نبين مدى توافق هذه الصورة الأسطورية لبطلتنا مع التاريخ أو اختلافها ، نود أن نشير إلى صورة البطل في عيلين آخرين ، أحدهما كتاب بكر وتغلب وماجري بينهما رواية هذا الكتاب ابن اسحاق الذي ينقل عن الآخرين كلب الكلب . ويذكر لنا ابن اسحاق أن الرئاسة كانت في بني يشكر ثم تحولت إلى بني تغلب ، ويشير المؤلف إلى الصراع بين مضر وربيعة ، ويذكر عوف بن مضر التميمي والد اليسوس خالة جساس ، كزعيم من زعماء مضر^(١) . وحينما ينقل المؤلف بنا إلى المهلهل وقد علم بنأ مقتل كليب يصفه « بأنه كان شملاً ، وبأنه كان لا يعرف بالجرادة في الحروب ، بل كان صاحب شو ونساء ومعاشقة . . . وكان كليب يسميه زير نساء^(٢) » .

ولم يزل مهلهل يكنى أثناء وجوده . . . ولا يحدث سوى الوعيد في الشعره حتى ليس منه قومه وسقطت منه بكر . . . فاقسم ألا ينزع درعه حتى يطر لكليب^(٣) . ثم يحدثنا عن إهمام مهلهل وقومه نحو العراق ، وعن مفارقة مهلهل قومه وسيره بماله وإخوته إلى أرض اليمن . ثم يعود ويقاتل البكرين ويهزم . ثم يحدثنا عن مقتل جساس بيد ابن أخته الحجرس ، ولكن الحرب تستمر بعد مقتله . ويستجير مهلهل وقومه ببني كلب بن زبيرة ، ثم تعود تغلب إلى مصالحة بكر ، ولكن قهلاً يمشي مع بني كلب وعندما يصل بنا إلى نهاية مهلهل فإنه يذكر لنا روايتين : أحدهما قصة أسرهم وتسليمهم لعوف بن مالك البكري الذي حبسه ثم أطلق سراحه بفدية مقدارها مائة من الإبل ، ويحدثنا بعد ذلك بأهله إلى ملحق^(٤) . وهناك يقتله المبدان . والثانية : أنه أسر وحبس عند عوف بن مالك ثم موته وهو أسير كما يذكرها الأغاني .

والكتاب الثاني لمحمد فريد أبي حديد : « مهلهل سيد ربيعة » . وقد جعل المؤلف الصراع بين بكر وتغلب قائماً قبل مقتل كليب ، وأن مهلهلاً وهياماً كانا في شغل شاغل عن تلك النار والتأججة^(٥) . ويعد الخير مهلهلاً وكان شملاً فلم يصدقه ، ولكنه غير سلوكه حينما رأى قومه يكسرون السلاح ويحرقون الخيل لحية أسلمهم فيه . يصور لنا المؤلف أن بكراً لم تكن راجية في الحرب ، وأنها رحلت إلى أرض اليمن لتبتعد عن تغلب ، كما أن تغلب لم تكن راجية في الحرب ، وأن قبائل كثيرة من بكر لرفضت من حول شيان . وعرض جساس حل والده تسليم

(١) كتاب بكر وتغلب .

(٢) نفس المصدر ٥٠ .

(٣) كتاب بكر وتغلب ٤٦ .

(٤) نفس المصدر ١١٠ وما بعدها - ١١٥ .

(٥) مهلهل سيد ربيعة - محمد فريد ٤١ .

نفسه للمهلل الوضع حد للفتنة التي تكاد تعصف بهم . ولكن أباء وقومه يخاضون مغالبة العرب^{١١} . ويجعل المؤلف مهلهلاً يترك القتال بعد مقتل صديقه وندبه هيام^{١٢} .

وعندما يتناول قصة أسره يوم إفضة يجعل الحارث بن عباد يطلق سراحه بعد رجاء زوجته أخت مهلهل الحارث أن يطلق سراحه بعد أن يدله على ثغلي آخر يقتله بهجير فدله على امرئ القيس بن أبان^{١٣} . ثم يجعل المؤلف مهلهلاً يفرق قومه بعد أن أصعنا في لومه . ويصل بنا إلى نهاية للمهلل فيحدثنا عن أسره من قبل عوف بن مالك ، وعن مقتله وهو في الأسر ، قتله زبيب ، بعير يعوف ، بعد أن رفض عاتلة من زوجة عوف بن مالك لإيقاظه من الأسر والموت لأنه تذكر كلمة الحارث بن عباد حيناً أطلق سراحه ، ورد عليها قائلاً . . . «لن أشتري حياتي بالذلة موزين»^{١٤} .

مدى اختلافها واتفاقها مع الواقع التاريخي :

تتفق الصورة الواقعية للمهلل مع الصورة الأسطورية في وجود هذا البطل كحقيقة تاريخية ، وبكونه أحد رؤساء تغلب . كما تتفق في أنه ظهر على مسرح الأحداث حينما قتل أسوه كليب لخدراً ، وبأنه كان قبل ذلك بعيداً عن مسرح الأحداث ، بل هو مع صديقه وندبه هيام بن مرة . وتتفق الصورتان في المحرك المباشر لتلك الحرب وهو ناقة البسوس ، ولكنها تختلفان في الدوافع الحقيقية للبسوس ، فبينما تمل السيرة إلى ذكر قرابتها للشيخ حسان ، بأنها فعلت ذلك عن تخطيط للإنتقام من كليب ، تكاد كتب الأدب تسكت عن الدوافع الخفية وراء فعلها . ولا تختلف الصورتان في أن للمهلل شاعر عن ساعد الجند حينما حلت الكارثة ، وأنه قد فرسانه للثر ، ولم يعترل الحرب إلا بعد هزيمته في يوم إفضة . وتتلقى الصورتان في نهاية للمهلل مقتولاً بيد عديده ، وتختلفان أيضاً في مدة تلك الحرب .

أما أوجه الإختلاف فهي كثيرة ، فالسيرة تبرز لنا جذوراً بعيدة في العداء بين ملك اليمن وكليب ، ويقتله يد كليب ، وذلك ما حدا بأخته « سعاد » وهي نفسها البسوس إلى التفكير في حيلة للثر من كليب ، وقد نجحت فعلاً . وبهذا تسكت كتب الأدب والتاريخ عن مقولة المهلهل فإن سيرته تتحدث عنه غلاماً شجاعاً جميل الخلقة وهو ابن عشر . وتعتمد السيرة على

(٢) نفس المرجع ١٢٣ .

(١) نفس المرجع ١٠٧ .

(٣) نفس المرجع ١٦٤ .

(٤) مهلهل سيد ربيعة - محمد حميد ١٨٠ - ١٨١ .

السر والتنجيم والتنبؤ بالغيب ، وقرى السحر هذه هي التي تهيم القريض باللهلهل من قبل قبيلة بكر ، لأنه سوف ينظم لأخيه منهم حبراً يشب ، والتيع يقول في ملحمة قبيل موته أن امرأته سوف تظهر وتفسد بين بكر وتغلب وتكون السب في مقتل كليب وإشعال نار الحرب بينها . والتنجيم هو الذي يجعل مهلهلاً يوقف الحرب أكثر من مرة .

وتلعب الخيلة دورها في دفع الأحداث ، والحيلة من قبل المهلهل ناجحة ، وتنتظي على الآخرين وتحقق أهدافها ، أما حيلة الآخرين فمكشوفة ومفتحة عليها بالفشل ، لأن المهلهل تسنده قوى غفية تجعله لا يتعثر في أمهاله .

وتختلف صورة المهلهل في كتب التاريخ والأدب من صورته الأخرى ، فبينما تصوره كتب الأدب ماجناً لا هم له إلا الشراب ، تصوره لنا السيرة بطلاً فارساً مقداماً وهو ابن عشر ، يسلط كل مؤامرات جليلة للتخلص منه ، يظهر الأسود الكاسرة ويسخرها ، يل ويعيش بينها . وبينما تصوره كتب التاريخ على وشك القعود عن الأخط بالثار ، ولا يفعل إلا التهديد بالشعر ، تصوره السيرة رجلاً حكماً ، حتى أن أعداء يعرض عليه أن ينزل له عن حكم الفيليين لأنه كبير .

أما صورة الوقائع فلم تعرضها كتب الأدب إلا عرضاً سريعاً قريباً من الواقع ، بينما صورة هذه الوقائع في السيرة مبالغ فيها ، فالجيوش آلاف مؤلفة ، والقتل بالآلاف . وبطولة المهلهل لا يمكن وصفها . وقد نقلت السيرة لنا صورة يوم قضى خلاف ما نعرف عنه على الرغم من اعترافها بهزيمة تغلب ، إلا أن مهلهلاً لم يؤسر ، بل خرج .

ونقلت السيرة للمهلهل من بكر وتغلب نفلة خارج الجزيرة ، فجمعته بجوارب ملك الحبشة وتغلب عليه وعل جيشه ، كما قتله مرة أخرى حينما جرح وأسر ووضع في صندوق ، وألقي في البحر ووجد نفسه بعد أن شفي من جروحه في بيروت . واشترك في حرب ملكها اليهودي ضد ملك نصراني . ولا تدري السبب الذي حدا بمؤلف السيرة أن يفعل هذا ويعمل المهلهل للسبي ، لأن تغلب كانت تدب بالنصرانية ، بجوارب إلى جانب اليهودي ضد نصراني ، ربما كان الوفاء والعرفان بالجميل ، كما أننا لا نعلم الدافع الحقيقي وراء ذلك .

ولا تدري لماذا سكنت السيرة عن ذكر أولاد أو بنات مهلهل ، فلم يرد ذكر لهم . وقد استبعد كاتب السيرة قصة أسره بيد عوف بن مالك البكري ونقله في الأسر ، واكتفى بالرواية الثانية . وأغلب الظن أن الأولى رفضها لأنها تستقص من بطولته ، فهو لم يجعله يؤسر إلا مرة بعد أن جرح ونجاه منها وضع أخيه ضباع إياه في صندوق . وعل الرغم من أنه قتل بيد عبده إلا أن ذلك لا ينقص من بطولته لأنه صوره لنا وقد شاع وعُمر وأصبح كالأبطال في تصرفاته .

. ولم تزل سيرة بطل حرب البسوس امةماً كما نالت سيرة عشرة بطل حرب داحس ، سيرة عشرة نالت امةماً ورواجاً ، وكتبت في مجلدات عدة ، ومنها الشامية ، والحجازية ، والعراقية ، بينا سيرة المهلهل أو الزير لم تزل إلا امةماً يسيراً . ويرجع السبب في رايانا إلى أكثر من عامل منها : شخصية عشرة ، وأنه كان أحد الأعرية العرب ، واستطاع انتزاع اعتراف القبيلة به ، وهي بذلك تصور لنا حرباً وصراعاً ضد الشفرقة العنصرية وقصد العبودية ، وتغلغل إلينا مضموناً إنسانياً . ومنها منزلة قبيلة عيس في التاريخ الجاهلي ، ومنها البعد الزمني لمهلهل وحرب البسوس بعد عهداً من حرب داحس التي حدثت قبيل الإسلام . ولعل من أبرزها أيضاً ارتباطها بالصراع بين العرب والأجناس الأخرى ، وهو ما أطلق عليه اسم الشعوبية ، وفي سيرة عشرة صراع واضح للعرب مع الأجناس الأخرى . وقد استغلت السيرة نسب عشرة من جهة أمه . وقد يكون قرب عهد سيرة عشرة وحياته من عهد الإسلام ، وهو الذي جعل كاتب السيرة يستغل عشرة ليقود صراع العرب ضد الأديان الأخرى الوثنية وغير الوثنية ، كما قامه ضد الأجناس الأخرى .

ومما هو واضح أن سيرة عشرة نسبت إلى رواية عالم هو الأصمعي ، بينا سيرة مهلهل لم تنسب إلى رواية . ولكن كتاب بكر وتغلب الذي هو أقرب إلى التاريخ منه إلى السيرة ينسب إلى ابن إسحق وهو رواية منهم مطعون في روايته . ونحن نلمس أثر سيرة عشرة واضحاً في باقي السير بهذا العكس ليس صحيحاً .

ومن الفروق البينة بين السيرتين أن سيرة الزير لا تتضمن اتصال الزير إلا باليمن والحبشة واليهود ، بينا سيرة عشرة تتضمن صراعاً مع كل قبائل الجزيرة العربية أولاً ، شامها وجنوبها ، ثم مع كل جيران الجزيرة العربية من روم وفارس ويهود وأسياس وسودان ، بل للعرب كله . ولا نجد شيئاً لذلك إلا أن الصراع في زمن المهلهل كان على أشده بين قبائل الشمال وملكوك اليمن ومن والأهم .

دراسة موضوعية وفنية في شعره :

يرتبط الحديث عن أولية الشعر العربي بذكر حرب البسوس ، فإليها ترجع مقدمة مجموعة من الشعر العربي التي تستند إلى مصادر صحيحة نسبياً . ويعتبرون مهلهلاً أول من قصّد القصيد وذكر الوقائع في قتل أخيه كليب بن ربيعة^(١) كما اعتبره بعضهم أنه أول من لرقى المراثي^(٢) . واعتبره القرطبي أول الشعراء^(٣) .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة /١/ ٢٩٧ ، زهر الآداب للحصري /١/ ٢٣٤ ، الزهر للسيوطي /٢/ ٤٧٦ ، الأغانى /١/ ٥٧ .

(٢) الأمالي للقلبي /٢/ ١٢٩ . (٣) التفاضل /١/ ٢٠٠ .

وقد كانت حرب البسوس مجالاً لفتح قرائح الشعراء حتى قيل إن أول ما طول الشعر إنما كان في أحداثها لما رثى مهلهل أخته بقصيدة بلغت الثلاثين بيتاً .

وعندما نحاول دراسة شعر مهلهل نستخدم بعينين : أولها أن ديوان هذا الشاعر الذي حيكت حوله الأساطير والقصص مفقود ، فهو ليس بين أيدينا ، حل الرغص من أن القصائد أشارت إلى أن الأصمعي جمع شعر مهلهل ، فقد ورد في الفهرست^١ أن ديوان مهلهل بن ربيعة قد صنعه أبو سعيد السكري ، كما صنعه من قبل الأصمعي .

وورد في كشف الظنون^٢ ذكر ديوانه ضمن ذكره أبو مروان بن سراج بما رواه عن أبي سهل الحراني بما لم يتقدم ذكره من قبل .

والثانية : أن هذا الشاعر نسجت حوله القصص الشعبية والأساطير ونحلت عليه الأشعار ، وطوّقت بعض القصائد فاختلط الصحيح من أشعاره بالمتحول اختلاطاً يصعب أحياناً الفصل بين النوعين . وبخاصة أن القصص الذين وضعوا هذه الأشعار والوكلاوا أمر تنظيمها إلى من يحسن النظم قد وضعوا في اعتبارهم أن تتضمن أحداث حرب البسوس بحيث لا يبدو هناك أي تناقض .

وقد اتهم ابن سلام^٣ على لسان بعض العرب بأنه كان يتكثر ويذبح في قوله بأكثر من فعله ، ويرى الدكتور طه حسين^٤ أن المهلهل لم يتكثر ولم يذبح - كما قال ابن سلام - وإنما تكثرت تغلب في الإسلام ونحله ما لم يقل . وبأنها لم تكثف بذلك بل زعمت بأنه أول من قصّد القصيد وأطال الشعر .

ووصف بعض القدماء^٥ شعره بأنه فيه اختلاف واضطراب ولكنهم لم يفصحوا عن مظاهر هذا الاضطراب ، وسئل الأصمعي عنه ، فقال : ليس بفحل ، ولو كان قال مثل قوله :

أليتنا بذي حسم أنيري

(١) الفهرست ١٥٨ .

(٢) كشف الظنون - لحاجي خليفة ٣٩٧ .

(٣) طبقات شعراء لابن سلام ٣٣ .

(٤) في الأدب الجاهلي - طه حسين ٢١٦ .

(٥) المعلة لأبن رشيقي ٨٦ / ١ ، الإشتقاق ٦١ ، طبقات ابن سلام ٣٣ ، لسان العرب ١٤ / ٢٢٣٦ .

لكان أصلهم ، ثم اختلف : وأكثر شعره عمول عليه^(١)

وشعر مهلهل في رأي الدكتور طه حسين^(٢) فيه هلهلة واختلاط ، ولكن هذا الاختلاط وتلك الهلهلة يشترك فيها مع غيره من الشعراء الذين هلهل شعرهم الرواة الذين وضعوه من قصاص وغيرهم . ولكن شعر للهلهل مشكوك فيه جملة عند الدكتور طه حسين بسبب استقامة الوزن وأطراف القافية وملائمة لقواعد النحر مع قلمه ، وسهولة لفظه ولونه وإسقاطه^(٣) .

وفي رأينا أن شعر مهلهل بن ربيعة لم يصلنا كاملاً ، كما لم يصلنا في صورته الأصلية ، وإنما تعرض للضياع ، كما تعرض لعملية التعويض عما فقد منه ، فأضيفت الأبيات إلى القصيدة لإحاطتها ، ونحلت قصائد وبخاصة في رثاء كليب والتجميع عليه ، وتصوير بطولية مهلهل الخليفة . أما قدم هذا الشعر فأمر عرضنا له عند دراستنا لخصائص شعر الأيام الفنية ، في الفصل الثالث من الباب الثاني . ويزيد الأمر تعقيداً أن ديوانه لم يصلنا ، ولو وصلنا لاستطعنا استخراج الخصائص الفنية للشاعر واستطعنا تمييز الصحيح من التحول على ضوء المقاييس الفنية الذي نستخلصه .

وأكثر الشعر المنسوب إلى مهلهل ورد في كتاب بكر وتغلب الذي يرويّه مؤلفه عن محمد بن إسحاق يرفعه إلى غير واحد من العلماء ، وقد نهج هذا الكتاب في رواية الشعر أكثر من طريق ، فأحياناً يذكر رواية الشعر فيقول رواة ابن إسحاق أو أبو المنذر ، وأحياناً كثيرة لا يذكر الرواة أو المصادر . وابن إسحاق وأبو المنذر ورويتان متباعدتان ، كما أن ظاهرة تلفت أنظرونا في هذا الشعر ، وهي أن هذا الكتاب تضمن قصائد مطولة بلغ بعضها الخمسين بيتاً ، وهذه نقطة تثير الشك في هذا الشعر .

وبعض هذا الشعر في مصادر تضمّن إليها كالأصمعيات ، والأغاني ، وحامسة أبي تمام ، ولكن الذي تلاحظه أن الأبيات التي وردت في هذه المصادر التي نقت في صحة ما تورد به بعض الشيء ، قليلة بالنسبة للقصيدة في كتاب بكر وتغلب وفي هذا ما يؤكد التكرّر من الشعر ونسبه إلى المهلهل .

وبعض هذا الشعر ويشترك فيه كتاب بكر وتغلب والمصادر التي لا نقبل شعرها إلا إذا وجدنا مصادر أخرى تؤيّد كالعقد الفريد ومصادر التلويف والكتب الأبية .

(١) فتحة الشعراء ٢٢ .

(٢) في الأدب الجمال - طه حسين ٢١٦ .

(٣) في الأدب الجمال - طه حسين ٢٣٩ .

وعلاصة ما نريد أن نصل إليه أن شعر المهلهل الذي ورد في مصلحه مؤثقة نلزم جداً إذا ما قيس بالشعر الذي بين أيدينا ومنسوب إلى الشاعر . فنحن لا نكاد نطمئن تماماً إلى أكثر من ثباتي قطع ، ونشك في غالبية الشعر المنسوب إليه ، ونجزم ببعض الأبيات المنحولة أو الموضوعية عليه . فالقصيدة المنسوبة إليه والتي نظمت على نظم قصيدة الخوارزمي بن عبد الله والتي منها :

قرباً من وسط الشهر مني الكليب الذي أشاب قذالي

فإن الوضع فيها يبين ، وكذا حكاية مقتله ، والبيان اللذان لالحيا فيها للمرقش الأكبر ، وقد وردا ضمن قصيدة للمرقش الأكبر في القطفيات .

وتلك مشكلة نعرضها ، فإذا ما أردنا دراسة شعره ومدى تصويره أحداث تلك الحرب ، وانحصرت في دراستنا على الشعر المؤثق قبلنا لن نقتصر بطائل . وإذا ما قبلنا كل الشعر المنسوب إليه فإن الأمر لن يستقيم لنا ، فنفسك طريقاً وسطاً بين الطرفين ، ولا سيما ونحن لا نحقق ديوان شعره وإنما ندرس الصورة العامة لهذا الشعر ومدى تصويره أحداث قومه . لذا فإننا سنقبل الشعر الذي ورد في المصادر المؤثقة ، والذي ورد في بكر وتغلب وورد بعضه في المصادر المؤثقة ، لأن ورود بعضه يشير إلى أن أصله موجود وإنما زيد عليه أو عوض الذي فقد منه .

والأغراض التي طرفها المهلهل فيها وصلنا من شعره نكوّن مجموعة متصلة بحرب اليوسس وظهرها ، إذ لا نكاد نعتبر بقصيدة أو مقطوعة له قبل حرب اليوسس ، كما أن الشعر الذي نسب إليه بعد اعتزاله الحرب قليل . وموضوعات شعر حرب اليوسس عند المهلهل محدودة النوعية ، وفي مقدمتها ذلك الشعر الذي رثى به أخاه ، وهو في غالبية منحول عليه ، إما القصائد كاملة ، وإما النص الأصلي وقد طوَّره الرواة . ويروي القسالي أنه سمى مهلهلاً لأنه أول من لرق المراثي^{١٩} .

ورثاء مهلهل مزيج من التذجع على أخيه ، وذكر فساد الأمر من بعده ، وكيف آلت الأمور ، وأحياناً أخرى يرثيه ويتعهد بكراً ، وثالثة يرثيه ويذكر ما فعل ببكر ، وفي بعض هذه القصائد يصف لنا مقتل كليب . وقد رثاه مهلهل بثلاث عشرة قصيدة ومقطوعة لا نكاد نطمئن لأكثر من خمس منها أو بعضها ، ونشك بقياتي لانتفراد ابن إسحاق بروايتها .

ويصور لنا مهلهل حال القوم من بعد مقتل كليب فيقول بأن القوم تصدروا المجلس من بعده فلم يعد لهم سيد يتصدروا المجلس ، وأصبحوا يتكلمون في كل أمر عظيم ، ولم لا يفعلون

(١) الأملاني للقتال ١/ ١٢٩ .

ذلك وقد ذهبت ، ونساءل من يقوم مقام كليب فيقول^(١) :

لَيْتُ أَنْ النَّارَ بِعَدُكَ لَوَقِدْتُ	وَاسْتَبْتُ بِعَدُكَ يَا كَلِيبُ الْمَجْلِسُ ^(٢)
وَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ	لَوْ كُنْتُ شَاهِدَهُمْ لَمْ يَتَّسُوا
ذَهَبَ الْخِيَارُ مِنَ الْمَعَاشِرِ كُلِّهِمْ	وَاسْتَبْتُ بِعَدُكَ يَا كَلِيبُ الْمَجْلِسُ ^(٣)
أَبْنَى رِبْعَةٍ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ	أَمْ مَنْ يَرُدُّ عَلَى الضَّرِيكَ وَيُجِيسُ ^(٤)

ويصور لنا في هذه الأبيات كيف تغير الأمر من بعده ، ويتهدد بكراً بأنه لن يتوقف حتى يبيد منهم ما يشفي غليله ، بل حتى تلدق آل بكر كلها الموت ، ويقتلهم بناتها المروض ، وتختطف لحومهم سباع الطير وتفرأعينهم ، وتجر السباع أعضائهم وتلوحهم^(٥) .

لَمَّا نَعَى النَّاعِي كَلِيباً أَظْلَمَتْ	شَمْسُ النَّهَارِ فَمَا تَرِيدُ طُلُوعَا
قَتَلُوا كَلِيباً ثُمَّ قَالُوا ارْتَعُوا	كَتَبُوا لَقَدْ مَنَعُوا الْجِيَادَ رَتُوعَا
كَلّاً وَأَنْصَابَ لَنَا عَابَةِ	مَعْبُودَةٍ قَدْ قُطِعَتْ تَقْطِيعَا
حَتَّى أَبْدَ قِيلَةً وَقِيلَةً	وَقِيلَةً وَقِيلَتَيْنِ جَمِيعَا
وَتَلْدُقُ حَقّاً آلُ بَكْرٍ كُلُّهَا	وَنَهْدُ مِنْهَا سَمَكُهَا الرُّقُوعَا
حَتَّى تَرَى أَوْصَالَهُمْ وَجَاهَهَا	مَنْهُمْ عَلَيْهَا الْخَالِصَاتُ وَقُرُوعَا ^(٦)
وَتَرَى سِبَاعَ الطَّيْرِ تَنْفِرُ أَعْيُنَا	وَتَجْرُ أَعْضَاءُ لَحْمٍ وَتُكَلِّعُوا

وفي مقطوعة أخرى يصف لنا مقتل أخيه ، ويذكر قاتله ، ويضع على أخيه ولكنه لا يخرج بل يصمم على أن يشفى قاتله كأس الردى كما سفوه أخاه فيقول :^(٧)

قَتِيلٌ مَا قَتِيلُ الْمَرُوءِ عَمْرُوٌ وَجَسَاسٌ بَيْنَ مَرَّةٍ ذِي صَرِيمٍ^(٨)

(١) سقط اللام ، ٢٩٩ / ١ ، حاشية أبي تمام شرح الرزوي ٢ / ٩٢٨ .

(٢) استب بعذك المجلس : صار بعضهم يسب بعضاً وبذك في وجه الكلام القبيح .

(٣) الضريك : الفطير اليابس والأمت .

(٤) بكر وتغلب ٥٢ .

(٥) الخالصات : السباع .

(٦) الكامل لأبن الأثير طبعة مصر ١ / ٣١٤ .

(٧) ذو صريم : ذو عزيمة واحكام امر .

أصاب فؤاده بأصمَ لَذَنٍ فلم يعطف هناك على حبيب^(١)
لأنَّ غداً وبعد غدٍ لَوْهَنٌ لاسر ما يُقامُ له عَظِيمٌ
جسماً ما بكيتُ به كلياً إذا ذَكَرَ القِيَالُ من الجَسِيرِ
شأربُ كأسها صرفاً وأسلى بكأسٍ غيرِ مُتَطَلِّفٍ مَلِيمِ

ويصور في هذه القصيدة مناقب القتيل ، وبأن الدنيا بعد رحيله عنها لم يعد فيها خير ، ويتحدث عن كرم أخيه وشجاعته ورأسته ، ومطلع هذه القصيدة :^(٢)

كليبٌ لا خيرَ في الدنيا وتَسَنُّ فيها إذ كنتَ خَلَيْتَها فيمن يَخْلِيها

ويختتم هذه القصيدة بتصميمه على عدم مصالحة بكر الذين غدروا برئيسهم ، ويصور استحالة هذا الأمر بأنه لن يصالحهم حتى يصالح راعي الغنم الذئب .

لا أصالحُ اللهَ منا مَنْ يُصالحُكم حتى يصالحَ ذئبَ المُعَرِّ راعيها

وزجج بأن الفصائد المقرطة في الطول ، والفصائد المبالغ في الحزن والضعف فيها ، كليبها متحول ، لأن القصيدة العربية كانت في مهادها ، ولم يكن وقت مهلهل ، وهو قائد الحرب ، ليسمح بتطويل قصائده ، ثم إن مركز مهلهل وقيادته قومه ، وما اشتهرته من شجاعة لا تسمحان له بالهكاه على أخيه ، بل إن الثأر يجعله يتكبد قومه ويمتطي صهوة جواده للانتقام من قاتلي أخيه وليس القعود والهكاه عليه كما فعل الناححات .

والموضوع الثاني في شعر مهلهل هو التحريض على الثأر من بكر ، وهو يفعل ذلك لتلطف تغلب حوله لثقتة بكر والانتقام منها ، وكأنه كان يفعل ذلك كليباً أحس برغبة القوم في التوقف والمصالحة ، فقد حدثنا الروايات عن رفضه لأي صوت سلام يصدر عن أي من رجال القبيلة ، ونحن نسمعه يقول مناجياً نفسه ، وهابطاً قومه^(٣) .

كلُّ قَهْلَرٍ في كُليبٍ حَلَامٌ حتى ينالَ القَتْلُ أنْ هَيَامٌ^(٤)

(١) الأسم : السيف الصلب للصلب .

(٢) الكامل لأبن الأثير - طبعة مصر ١ / ٣٦٩ ، بكر وتغلب ٤٤ - ٤٦ .

(٣) الأغانى / عن الكتب ٥ / ٤٧ .

(٤) الحلام : الصغير من الغنم والمقصود هنا أنه لا يعدل عمله .

ويبلغ مهلهل إلى تصوير حال نساء تغلب وما لحق بهن من الذل بعد مقتل كليب ليثير فرسانهم للانتقام والثار دون الاكتفاء إلى أي نداء للسلم يصدر من الطرف الآخر ، ويهدف في عظام القصيدة بكراً فيقول :^(١)

فَلَا تَرْكُنْ بِهِ قِبَالَيْ وَأَثَرِ قَتْلَ بَكْلِ ثَرَارِيْ وَمَكَايِ
قَتْلَ تَعَاوَرِهَا النَّسْوَرُ أَكْفُهَا يَتَهَشَّتْهَا وَجَوَاجِلُ الْغُرَيَايِ

ويكثر في شعره شعر التهديد الذي يرسله إلى بكر ، تهديد وهو يرثي أبناء ، وتهديد وهو يتحدث عن أخيه بثر أخيه ، وتهديد وهو يحمن في قتل بكر ، وكأنه كان يرسل التهديد في كل مناسبة ليرهب بكراً . يقول في مطلع مقطوعة له بعد أن شفى نفسه من العطش إثر أخيه^(٢) :

يَا لِبَكْرِ أَشْرُوا بِي كُلياً يَا لِبَكْرِ أَيْنَ أَيْنَ الظَّرَا
يَا لِبَكْرِ فَاطْعَنُوا أَوْ فَحَلُّوا صَرَحَ الشَّرُّ وَمَا السَّرَارُ^(٣)

ويكثرهم في موضع آخر ، فيخبرهم بين ردّ كليب حياً لو أن ينتظروا ضرب سيفه الذي لا يجلب إلا الموت فيقول :^(٤)

قُلْ لِبَنِي دُخْلٍ يَرْدُونَهُ أَوْ يَنْصَبِرُوا لِلْعَيْلِمِ الْخُفَّيْقِ^(٥)
فَقَدْ تَرَوْا مِنْ دَمٍ مُحَرَّمٍ وَانْتَهَكُوا حَرَمَتَهُ مِنْ عَفْوَ^(٦)

ولا يقلو شعر مهلهل تصوير بعض أحواله الشخصية ، ولكن هذا الحديث لا يلبث أن يردّه إلى الحديث عن تلك الحرب التي اقتصرت الحَيَاة بثارها ، فعندما قرر مهلهل اعتزال الحرب ، وانحدر إلى اليمن ونزل في جنب ، وهناك أجبر على تزويج ابنته لهم وساقوا إليه مهرها جلوداً من آدم ، فقال بصور حاله اليوم ، وكيف كانت بالأمس ، وكيف لو جاء بخطبها هذا الذي أكرهه ، وهو عزيز في قومه قبل أن يستعد حزناً مهزوماً فيقول :

(١) بكر وتغلب ١١٢ - ١١٣ .

(٢) الأغانى / ط الكتب ٥ / ٥٩ .

(٣) صرح الشعر : أكشف ، المرأ : خط بطن والكف والوجه والجنبه .

(٤) جهرة أشعار العرب ٢١٨ .

(٥) الصيلم : السيف أو الداعية ، الخففيق : السريعة جدا .

(٦) محرم : في حرمة أو عهد أو ميثاق .

هَان عَلَى تَغْلِبِهَا لَقِيتُ أَحْتُ بَنِي الْأَكْرَمِينَ مِنْ جُشْمِ
أُنْكَحْنَهَا فَقَدْ هَا الْأَرَامِ فِي جَلْبِ وَكَانَ الْحَبَاءُ مِنْ أَدَمِ
لَوْ بَابَانِينَ جَاءَ بِخَطْبُهَا ضَرَجَ مَا أَتَفَ خَاطِبِ بِدَمِ
لِيسُوا بِأَكْفَانِيَا الْكِرَامِ وَلَا يُغْنُونَ مِنْ عَيْلَةٍ وَلَا عَدَمِ
أَصْبَحْتُ لَا مَتَقِيًّا أَصْبَحْتُ وَلَا أَهْتُ كَرِيحًا حَرًّا مِنْ النَّدَمِ^(١)

وتبقى البقية الباقية ، وهي أغلب شعره ، التي تصور أحداث حرب الجوسم لجناء من مثل كلب ، وانسلاخ الحرب ، وحتى نهاية مهلهل . وسنحاول في الصفحات القادمة أن نرى إلى أي مدى استطاع تصوير أحداث تلك الحرب ، لو على وجه الدقة إلى أي مدى استطاع ما تهي من شعره تصوير أحداث هذه الحرب .

فما أن يبلغ الخبر مسامع مهلهل حتى نراه يعلن بدء الحرب فيقول :

فَإِنْ يَطْلُعَ الصَّبْحُ الْمَسِيرُ فِلَاتِي سَاغِدُوا الْمُوتِيْنَا غَيْرَ وَإِنْ مُغْرِبِ
وَأَصْبَحَ بِكَرًا غَارَةً صِلِمِيَّةً يَدَالُ لَقَطَاعَا كُلِّ شَيْخٍ وَأَمْرِدِ^(٢)

وهو هو يخاطب قلبه بأن ينجز يوم اللقاء نخباً من بني الحصن ليأخذ بثأره منهم ويهدأ نفسه ، وليستريح كلب في قلبه .

أَيَا الْقَلْبُ أَتُجِزُ الْيَوْمَ نَحْبًا مِنْ بَنِي الْحَصْنِ إِذْ غَدَاوَا وَذُحُولَا^(٣)

وشروط الصلح عند مهلهل هي أن يعيدوا له كلياً حياً :

يَا لَبَكْرُ أَتَشِيرُوا لِي كُلياً يَا لَبَكْرُ أَيْنَ الْفَرَارِ^(٤)

وإن لم يفعلوا ، وليسوا بقادرين على الوفاء بهذا الشرط فإنه قد أتمم ألا يرضى بقتل بعضهم بل سيقتلهم أينما وجدوا^(٥) :

أَلَيْتُ بِاللَّهِ أَرْضِي بِقَتْلِهِمْ حَتَّى أَبْهَرَجَ بِكَرًا أَيْنَا وَجَدُوا^(٦)

(١) الألفي / طالكتب ٥ / ٥١ ، بكر وتغلب ٩١ .

(٢) بكر وتغلب ٤١ .

(٣) الألفي / طالكتب ٥ / ٥٦ .

(٤) نفس المصدر ٥ / ٥٩ .

(٥) العقد القرئد ٥ / ٢٢٠ .

(٦) أبهرج : ليح صهم .

ولن ينهي الحرب التي أشعلها إلا إذا أباد قبائل وقبائل، وقلق الرزوس بالسيف ، وتقوم
ريات الحذور حواسراً بمسحّ ذوائب الأيتام :

حصى لبيدٌ قبيلةً وقبيلةً قهراً وتقليقاً بالسيفِ والهام
ويقمنَ رياتُ الحذورِ حواسراً بمسحّ عراضِ ذوائبِ الأيتام^(١)

وحينما يتحدث مهلهل عن وقائع تلك الحرب فإننا نرى السلويين من هذا الحديث ، الأول
يذكر أيضاً بعينها في شعره ، والثاني يتحدث عن عروبه بشكل عام دون تخصيص .

حينما يتحدث مهلهل عن فساد الأمر بعد أخيه يذكر أخذه بثأره ، ويذكر يوم الذنائب في
معرض حديثه فيقول :

ولقد شغيتُ النفسَ من سرّواتهم بالسيفِ في يومِ الذنائبِ الأتيسرِ
إنّ القبائلَ أخبرتُ من جمعنا يومِ الذنائبِ حرّ موتِ أحيسر^(٢)

ويورد ذكر هذه الواقعة في قصيدة أخرى قالها حينما أترك بثأر أخيه فقال :

فإن يكُ الذنائبُ طالعَ ليلى فقد يسكرُ من الليلِ القصيرِ
فلو بُشّ المقابرُ من كليبٍ فحيسرُ بالذنائبِ أي زهير^(٣)

والواقعة الثانية التي ذكرها مهلهل في شعره واقعة واردة ، لقد ذكرها في شعره مرتين
الأولى حينما تحدث عن أكثر من واقعة عندما أترك بثأر أخيه ، وقد ذكر لنا ما فعله بالقوم ، ومن
قتل منهم ، فيقول :

يومِ الشعثَمونِ نَفَسٌ عَيْتاً وكيف لقاءً من تحتِ القبورِ
فإنسي قد تركتُ بوارداتٍ يُجسِّراً في دمٍ مثلِ البعيرِ
وهيامَ بنِ مرةٍ قد تركنا عليه القُتُعيانَ من النُصورِ^(٤)

وأورد في المرة الثانية مقطوعةً بأكملها للحديث عن يوم واردة فقال معرضاً بجساس الذي
فر إلى الشام وإلا لذاق طعم الردى ، ويعلم بأنه سيمنر في قتلهم حتى يتركهم العيون ، وحتى

(١) الأصمعية رقم ٥٤ .

(٢) بكر وتطلب ٥٠ .

(٣) أنيس : مظلم .

(٤) الأصمعية رقم ٥٣ .

(٥) للصدر السابق .

تختلف الحملات كل حين هفافة من وقع سيفهم .

لو أن خيل أدرتْكَ وجدتهُم مثل اللبثِ سترْغيبٍ عرينِ
فلاوردنُ الخيلِ بطنُ أراكو ولا قضينُ بفعلِ ذاكِ دُيونِ
ولا قتلُ جُحاجحاً من بكرِكم ولا يكونُ بها جفونُ عُيونِ^(١)
حتى تظُلُ الحملاتُ هفافة من وقعنا يقدفنُ كلَّ جُيونِ^(٢)

وعندما يعرض لوقعة حيزة فإنه يكتفي بأن يصور القتال قومه وبني بكر وكأنها رَحيا ملير ، وبأن صليل البيض وهو يضرب بالذكور كان يسمع في الهامة لولا الريح ، وقد كانت حروبهم بالجزيرة ، بين الموضعين عشرة أيام ، ولما فقد اتهمه القدماء بالكلب^(٣) ، وقد أنصف خصوم قومه في هذا البيت لأنه جعلهم يداً لقومه في القتال ، ومن هذا التفسير قال بعضهم إن القريلين تكلفوا في هذا اليوم^(٤)

كانا حذوةً وبني أبنا بجوفو عَنزِرةً رَحيا مليرِ
فلولا الريحُ أسمعُ أعلَّ حَجَرِ صليلُ البيضِ يقدغُ بالذكورِ^(٥)

ورده في بعض شعره فكر لوقعة كانت ثم يفتق ، وهو يصور لنا هذه الوقعة بأنه ينادي بركب الموت وهم فرسانه الذين يجيئون الموت للأعداء فيطلب منهم أن يسبوا بغلس ، لأن تلاح العنق قد حوت بالموت^(٦) .

أنادي برُكْبِ الموتِ للموتِ غَلَسوا فإن تلاحَ العنقِ بالموتِ ذُرَّتْ^(٧)

وتحدث مهمل عن يوم خزاز ، وهو اليوم الذي تالق فيه كليب وقاد معداً كلها ضد جموع اليمن ، وقد أصيب مهمل هنا على غير علفته في حديثه عن أيام البسوس ، ولا نجد تفسيراً إلا أحد الصالحين : أن يكون قد قال هذا الشعر عندما خلا إلى نفسه واعتزل الحرب ، وإما أن يكون

(١) جحاجح : جمع جحجج وهو السد السمح الكريم .

(٢) الكامل لابن الأثير طبعة مصر ١ / ٣٢١ .

(٣) المعتمد لابن رشيون ٢ / ٥٩ ، أمالي القتال ٢ / ١٣٤ .

(٤) الأغانى ٥ / ٤١ ، الشعر والشعر لابن قتيبة ١ / ٢٩٩ والأصمعية رقم ٥٣ .

(٥) حجر : موضع بالهامة ، المذكور : أجود السيوف وليسها وكندھا . يقدغ : يضرب .

(٦) معجم البكري ٣ / ٩٦٨ .

(٧) غَلَسوا : سبوا بغلس والغلس ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بغلس الصباح . تلاح : جمع تلع وهو ما ارتفع من الأرض .

هذا الشعر منحولاً عليه . وهو يتحدث عن هذا اليوم في معرض حديثه عن كليب فيقول :

إلى رئيس الناس والمرثى	لعقدة الشدِّ ورثى الفُرق
مَنْ عرفت يوماً خزانة	عليها معد عند أخذ الحقوق
إذ أقبلت حمير في جميعها	ومذبح كالصارخ المستحين
وجمع ممدان له حية	وراية تهوي هوي الأنوق
تلمع لَح الطير ربابه	على أواني لُح بحر عنين
فاحصل أوزارهم لُززه	برأي عمود عليهم شقين
وقد علمهم للفا هبة	ذات حياجر كلهيب الحريق ^(١)

لما وقعت قُبة أو وقعة لولان الدم كما سماها شعراء بكر ، وهي تلك الوقعة التي حصلت بنهاية مهلهل كقائد وفارس تغلب ، وحصلت في إنهاء الحرب ، فقد ذكرها مهلهل حل غير عادة الشعراء الذين يحاولون تلمس الأهم التي تهزم فيها قبائلهم . وقد جاء حديثه عنها بعدما نجا من الوقعة ، وعاد إلى الحلي فأتقلت عليه النساء والولدان يسألونه عن الرجال والأهل فقال يخاطبهم :

ليس مثلي يجسر الناس عن آ	بائهم قتلوا وينسى القتلا
لم أرم عرصة الكثير حتى اند	تعل الورد من دمار نعالا
عرفته رملح بكر فما يا	خُذْن إلا لبائنه والقذالا
غلبونا ولا محالة يوماً	يقلب الدهر ذاك حالاً فحالاً ^(٢)

ومهلهل هنا ، حل الرخم من هزيمته وهزيمة قومه ، واعترافه هو نفسه بذلك في هذا الشعر ، إلا أنه لا يتخاف ولا يبدو منهزماً فيما زال محضاً بروح الفارس الذي قاد قبيلته قرابة أربعين سنة ، ولكن مشهد النسوة والأطفال وهم يسألونه عن ذويم أُمِّ في نفسه كآب وكرجل يتزعج القبيلة ، ولعل ما رآه من تقتل فرسان قومه ، بالأضافة إلى ما رآه في الحلي ، كل هذا جعله يقرر الإعتزال .

وعندما يتحدث مهلهل عن حروبه مع بكر يشكل عام دولنا تقليد اليوم معين قوله يتحدث عن أمور كثيرة متصلة بملك الحرب وبلي حرب شبيهة بها في تلك الفترة . فنحن نسمعه يتحدث عن إسراقة في القتل فيقول :

(١) جهرة أشعار العرب ٢١٨ . (٢) الأغاني / كتب ٥ / ٥٠ .

اكثرْتُ قَتْلَ بني بكرٍ برجم حتى بكيتُ وما يبكي لهم أحدُ
ألبتُ بالسرِّ لا أرضى بقتلهم حتى أخرجُ بكراً أليفاً وجدوا^(١)

ويقول في موضع آخر بأنه لو قتل جن الحلبين كما قتل بكراً لفدت الجن :

لو كنت قتلْتُ جنَّ الحالبين كما قتلْتُ بكراً لأضحي الجنُّ قد نفدا^(٢)

ولا يفوته في بعض قصائده أن يحصى لنا القتل من قومه ومن بني بكر ، وهو بهذا العمل ،
لو صحَّ هذا الشعر النسب إليه ، يقدم لنا سجلاً صحيحاً ودقيقاً وتاريخاً لتلك الأيام . فلي
رائيه عدُّ لنا بعض القتل من بكر وهم : الشعثان وجبر وهام ، ولي قصيدة أخرى قالها وهو
أسير لدى عمرو بن مالك عدُّ لنا بعض قتل قومه في تلك الحرب فقال :

ما أُرَجِي في العيشِ بعدَ نداما ي أراهم سُقُوا بكأسِ حِلاقي
بعدَ عمروٍ وعاصِرٍ وخَيٍّ وربيعِ الصدوقِ وابني عَنَاقِ
وامرئٍ القيسِ مِتَّ يومَ أودى ثم خلَّ عليَّ ذاتَ العَرَاقِ
وكليبٍ سَمَّ الفوارسِ إذ حُمَّ ومالكِ السكياؤِ بالانفاقِ^(٣)

ولا يفوته أن يذكر أسرى بكر في تلك الحرب فيقول مصوراً حالهم في الأسر .

فجاءوا يَروِّعونَ وهم أسارى نفودُهُ على وُظْمِ الأنوطِ^(٤)

ويرد لنا مهلهل ثقيله بني بكر فيقول إنهم الذين بدأوا بالقتل فقتلوا سيدهم ، ويرى أن
ما يفعله هو الأخذ بالثار :

فقتلاً بقتيلٍ وعقراً بعقرتكم جزاءُ العُطاسِ لا يموت من أئسِّ^(٥)

ويعلن لهم في موضع آخر بأنه لن يترك وثره ولن يبدأ حتى يشفي ظمئه منهم وسياتهم
بنيران تغلب الشجعان على خيول أميلة كالمعالي ، وعدداً يساقون ومأههم من دماء بكر
فيقول :^(٦)

(١) العقد الفرید ٥ / ٢٢٠ .
(٢) الأغاني / ٥ / ٥٤ - ٥٦ .
(٣) البيان والبيان ٣ / ٣٢٠ .
(٤) انصار المرافقة ٣٧٠ .
(٥) انصار المرافقة ٢٨١ .
(٦) جبهة انصار العرب ٢١٨ .

غداً نساقي - فاعلموا بيتنا
بكل مفسور الضحى فالكثر
سعالى يحملن من تغلب
ليس اعصوكم تاركاً وثرة
- وماحنا من قانسي كالرقيق
شمردك من فوق طوق عتيق
فتيان صدق كليب الطريق
وليس على تغلبكم بالقويق^(١)

وعلى الرغم من تلك اللوحة العزومة من الحقد التي طغت على شعره ، فإنها لم تستطع أن تحرق صوتاً عاقداً لم يمض في مرجة التار والحقد ، ونعني به ذلك الشعر الذي يميز عن الحيين كقبيلتين تربطها القرابة والجوار والصلة . وقد ورد ذلك في موضعين ، في الأول نص على ذلك صراحة حين قال مصوراً ما بين بكر وتغلب بعد قتل كليب :

أصبح ما بين بنسي وائل
متقطع الجبل بعيد الصديق^(٢)

وفي الموضع الثاني ذكر اجتماع ولد معد في دارهم بتهامة وما وقع بينهم من الحرب ، ولا ندري هل على ذلك بكر أو تغلب أم على دائرة قبيلة الوسع تشمل معداً كلها فقال :

غيت دارنا تهامة في الدهر
فكسافوا كاساً أسرت عليهم
سر وفيها بنو معد حلولا
بينهم يقتل العزيز الدليل^(٣)

وقد سجل لنا شعر مهلهل بعض المواقف التي كانت بين القبيلتين ، في أواخر الحرب ، فقد حدث أن أجبرت تغلب فذهب مهلهل إلى مرة بين هيام يرجوه أن ترضى إيلهم في مراعي بكر فقتل مرة ، ولكن صغبراً بن كلاب وكان شيخاً جريماً رفض وقال : لا نصلحهم حتى يعطونا إيلهم ، ونعطيهم معزاتنا ، وبلغ ذلك القول مهلهلاً فقال :

هزئت أبنائنا من فعلنا
واعلموا أن لدينا عتبة
إلها كانت بنا موصولة
أكل الناس بها أخرى التهابة^(٤)

-
- (١) شعرك : صبي جلد . سعالى : جمع سعال وهو الغول أو كشي الغول وأراد هنا غيولا كالسعال .
(٢) جهرة لشعار العرب ٢١٨ .
(٣) معجم البكري ١ / ١٩ .
(٤) بكر وتغلب ٩٨ ، الأشتقاق لابن جريد ٢٥٤ أورد البيهقي ١ / ٢٠ .

ولم يفت الشاعر المهلهل تصوير أحواله المتصلة بتلك الحرب ، فقد نزل عندما اعتزل
العرب في جئب ، وهم حي من اليمن ، وأجبروه على ترويع إبنه ، فقال يصور لنا ذلك ويقولون
حالة اليوم بحالة بالأمس ، وكيف سيكون الأمر لو جاهد يخطبها وهي عزيزة في قومه ، فإنه
سيخرج أئمة بالدم لأهم ليسوا بالكفاء تغلب الكريمة الحسب والنسب ، وعبر لنا عن حالة من
الندم أصابته بسبب تركه قومه والتجاء إلى أولئك القوم حين يقول :

أصبحت لا متقياً أصبت ولا أبت كريباً حرّاً من الندم^(١)

وعندما كان في الأسر لدى عمرو بن مالك ، ولعبت الحمر يرأسه قال يذكر ماخيه وحاله
بومذاك ، وبدأها بالطلع الغزلي كعادة الشعراء في تلك الحين ، ولو أنه غزل ربما كان يوهم
بالحقيقة حيث يقول :

طفلة ما ابتد للحلل بيضا لعبوب لليلة في العناق
فلذهبي ما إليك غير بعير لا يؤاقي العناق من في الوئاق

ثم يتخلل إلى تصوير حاله بعد رحيل فرسان تغلب الذين التهمتهم الحرب الضروس
فقال :

ما أُرَجِّي في العيش بعد نداما ي أراهم سقوا بكاسر خلاف

ويختصها بجنون البتين ، ميئاً فيها أنه لا يرجو لذة العيش بعد أن آل أمر قومه إلى ما هم
عليه من التشتت والمزمنة .

لست أرجو لذة العيش ما أُرَمت أجلا قد يساقي

جللوني جلداً حوب فقد جعلوا نفسي عند التراقي^(٢)

وبعد ، فقد وصلنا إلى نهاية رحلتنا مع شعر مهلهل بن ربيعة ، ورأينا أنه على الرغم من
ضياح هذا الشعر ، ومن اضطراب بعضه ، إلا أنه قد حفظ لنا الإطار العام لهذه الحرب ، فقد
ذكر معظم الوقائع التي حدثت فيها ، كما ذكر لنا بعض ما جرى بين الحين ، وذكر أسره ،
ورحيله ، وتصميمه على الثار ، وحلّد لنا القتل من الحين . وإن كنا نأخذ عليه ، فإننا نأخذ عليه
الإيجاز في الوصف ، فهو لم يعرض لنا تلك الوقائع بأحداثها مفصلاً ، كما فعل بعض الشعراء ،
وربما لم يفعل ذلك انطلاقاً من ميل الشعراء الفرسان إلى الإيجاز وإلى التفرغ إلى النتائج دون

(٢) الأغاني ٥ / ٥٤ - ٥٦ .

(١) الأغاني / كتب ٥ / ٥١ .

الأسباب في الجزئيات ، فهذه لا تهم ، وإنما الذي يعنينهم أن يتشتر الخبر في صورته الرئيسية إلى أسباع الناس . وإنما لنلاحظ أخبار تلك الحرب أنها وردت مختصرة ولم ترد مفصلة باستثناء يوم قبضة قبيلة شعر مهلهل متشبهاً مع ذلك ، ولو كانت تغلب انتصرت يوم قبضة لسبعنا الكثير من مهلهل ، ولكن الهزيمة أتعنته وهدت هزيمته .

ونتقل بعد ذلك إلى دراسة شعره دراسة فنية ، ولعل أول ما يلاحظنا في هذا الشعر أنه في غالبية شعر مقطوعات ، إذا تبعنا نفس القاعدة التي عرضنا لها وهي أن نغير الشعر شبه موثق أو وجدنا بعضه ورد في مصادر موثقة . فإنا لا نجد من شعره الذي يزيد على الأربعين قطعة وتصيد ، بين منحول وموثق ومشكوك فيه ، أكثر من أربع قصائد وردت في مصادر موثقة وغير موثقة بنسب متفاوتة في عدد أبياتها . وأما كتاب بكر وتغلب فقد اتفرد برواية قصائد مفرطة في الطول ، بلغ بعضها خمسين بيت وبعضها مائة بيت . وإذا علمنا أن مهلهلاً اعتبره بعض القدماء أول من أطال في الشعر ، فإن الإلتحال بين في كتاب بكر وتغلب . وقد عمد إلى المقطوعات أو القصائد المتوسطة فأطال فيها ، ونسج على منوالها .

وتغلب على الشعر الذي وصل إلينا في المصادر ، هذا كتاب بكر وتغلب ، قلة عدد الأبيات ، ففي الشعر الذي جمعه ثنائي مقطوعات كل واحدة منها عبارة عن بيت واحد ، وعدد آخر تضم الواحدة بيتين أو ثلاثة أو أربعة .

وكما أننا نرفض تلك المطولات التي ذكرها كتاب بكر وتغلب ، فإننا نرفض أن يكون مهلهل قد صوّر حال بكر وقد هُزموا في بيت واحد حيث يقول :

فجأوا يبرعون وهم أسارى تفودهم على رُحس الأنوف^(١)

ونلاحظ أن مطلع هذا البيت ترحي بأنه سبق بأبيات ، فجاءت نتيجة ما عرض في الأبيات المفقودة . ويحدثنا البكري أن مهلهلاً قال يذكر حرباً لهم كانت يعمق ، ولا نجد إلا بيتاً واحداً من الشعر هو :

أناني برُحِب الموت للموت فُلسوا فإن يلاع العُشق بالموت ذُرْتُ^(٢)

(٢) معجم البكري ٢ / ٩٦٨ .

(١) شعير المراسلة ٢٨٩ .

وتساءل هل أفرغ مهلهل كل ما كانت تحش به نفسه حين بدأ يتحدث عن ذلك اليوم ، في هذا البيت ؟ ونجيب على ذلك بالنفي ، لأن النصر يثير التشوة والطفلة في النفس ، والشاعر أحسن الناس بترجمة ذلك إلى شعر . وشبه بالحالة السابقة هذا البيت الذي يذكر بكراً بأهم الذين بدأوا بالقتل والفساد ، فلهم يلاقون ما فعلوا :

فقتلاً يقتلوا وعقراً يعقروكم جزا العطاس لا يموت من النار^(١)

فأين الحديث عن يوم هذا القتل ؟ وأين المقدمة لآتي هذا الحديث نتيجة لها ؟ كل ذلك لا نجد له أثراً .

..

والظاهرة الثانية التي نلاحظها في شعره هي انعدام المقدمة الطفلية وغيرها ، ففي مجموعة شعره الصحيح منها والمشكوك والشكول ، لا تكاد نمر إلا على أربع قصائد مبتدئة بمقدمة . أولها انفراد برؤيتها ابن اسحق ويقول في هذه المقدمة :

أماج فداء عيني الذاكر هفتوا فالدموع لها انجرار
ومبار الليل مشتتاً علينا كأن الليل ليس له نهار
ويستأرقب الجوزاء حتى تقارب من أوائلها الحدار^(٢)

ومن أين في هذه المقدمة أنها تصور حالة الشاعر النفسية ، وما يعانيه من ألم وحزن بسبب مقتل أخيه غدواً .

والثانية أيضاً ما انفرد به ابن اسحق ، وهي التي أنشأها ، فيها يزعمون ، معلوماً قصيدة الحارث بن عباد ، ويقول في مطلع المقدمة :

هل عرفت القعدة من أطلال زعن رنير ودمعته يهطل^(٣)

والثالثة وقد ذكر هذا الشعر صاحب الاغانى ، وورد بعض هذه القصيدة في كتب الادب الأخرى ، وهي مقدمة غزلية للقصيدة قالها وهو أسير في أغريات حياته ، وفيها يقول :

(١) البيان والتهويل - الجاحظ ٣ / ٣٢٠ .

(٢) بكر ونظيب ٤٦ .

(٣) بكر ونظيب ٦٥ - ٦٨ .

مُفَلَّاةٌ مَا ابْنَةُ الْمُحَلَّلِ بِهَذَا مُنْصُوبٌ لِلْمَلِكَةِ فِي الْعِنَاقِ
فَلَاذِمِي مَا إِلَيْكَ غَيْرَ بَعِيدٍ لَا يُوَاقِي الْعِنَاقُ مَنْ فِي الرُّوَاقِ
ضَرَبْتُ نَحْرَهَا إِلَيَّ وَقَالَتْ يَا عَتِيًّا لَقَدْ وَفَّقَكَ الْأَوَاقِي^{٥١}

والمقدمة كما حللنا من سياق خبر أسره وبما كان حديثه فيها ليس تقليداً جرى عليه الشعراء ولكنه غزل حقيقي في ابنة المحلل ، وهو يخبرها بأنه لا يمكن أن يوازي العناق لشخص أسير مثله .

وفي الرابعة يطلب زجر العين أن تبكي الطلول ، وأن تكف من ذلك إلى ما هو أهم ، وهو غل في الصدر بسبب مقتل كليب . فهو يعترف في هذه المقطوعة التي ذكرها صاحب الأغاني بكاء الأطلال ، ولهذا دلالة العميقة ، معناها أن البكاء حل الأطلال كان معروفاً في عهد . يقول فيها :

أَرْجِرُ الْعَيْنَ أَنْ تَبْكِيَ الطُّلُولَا إِنَّ فِي الصَّدْرِ مِنْ كَلِيبٍ غَلِيلَا^{٥٢}

وما ستقوله هنا سبق وقلنا بعضه حيناً عرضنا لظاهرة التدهام المقدمات أو ثلوتها في شعر الأيام ، وقد حللنا تلك الظاهرة في حينه . ولكننا هنا أمام موقف جديد وخاص ، وهو أن مهلهلاً ، كما يلعب الكثير من العلماء أول من هلهل الشعر ، فمن المحتمل أن تكون المقدمة الطليقة في زمنه لم تتضح بعد ، ولم تتخذ نسفاً معيناً يلتزمه الشعراء ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر وجودها في حرب البسوس ، ففي المقصليات ، وهي مجموعة شعرية مؤلفة ، قصيدة للرُقش الأكبر يرثي بها ابن عمه ثعلبة بن عوف بن مالك بن ضبيعة ، الذي قتله تغلب ، قتله للهلهل في حرب البسوس^{٥٣} . كما أننا وجدنا في شعره قصيدة بدأها بمقدمة غزلية . ولا يبقى بعد ذلك أمامنا إلا احتمالان ، أولهما أن طبيعة الشعر الذي نتحدث عنه لم يكن يتطلب تلك المقدمات الطليقة ، ولكن قصيدة الرُقش وقصيدة مهلهل نفسه تلغي هذا الزعم . وثانيهما : أن تلك المقدمات ضاعت ولم نجد فيها أولئك المبتدئون الذين روي لنا أخبار تلك الحروب أدنى فائدة لأهلها ، ولم تصل إلينا . وهذا الاحتمال أقرب إلى الترجيح فيما نرغم .

..

(١) الأغاني / كتاب ٥ / ٥٤ .

(٢) الأغاني / كتاب ٥ / ٥٦ .

(٣) المقصليات رقم ٥٤ .

والمتأمل لشعر مهلهل بن ربيعة يلحظ ظاهرة بادية للوضوح فيه ، وهو أن لغته سهلة وواضحة ، وهذا ما جعل الباحثين يشككون في أمر صحته وصحة نسبتها إلى ذلك العصر الذي اتسمت لغته بطوايح معينة . ويستطيع أن تلمس ذلك من لزامنا لأية قصيدة أو مقطوعة له ، كما أن شعر مهلهل لا يجعل الكثير من سمات ذلك العصر الاجتماعية ، أو الصور والتشبيهات المتصلة بتلك البيئة ، وهذا سبب آخر يجعلنا نحيل مع القائلين بكثرة الشعر المنحول عليه . لأننا حينما درسنا شعر الأديم وموضوعاته المختلفة ، قلنا إن ذلك الشعر حل إلينا الكثير من طبيعة قاتلية ، والكثير من سجايلهم ، والكثير أيضاً من الملامح البيئية ، والتي يمكن الاستعانة بها لرسم صورة للحياة الاجتماعية في ذلك العصر .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ألفاظه وتراكيبه تنسم بالشعبية وتكاد تقترب من اللغة الدارجة ، وتبعد عن أساليب البلاغة التي اعتبر النقاد ذلك العصر أساساً لها . ولكننا ، إضافة للشاعر ، وحرصاً على الدقة فيما نذهب إليه ، نقول إن الذي نذهب إليه هنا إنما نعني به شعر مهلهل في صورته المشوَّحة التي بين أيدينا والتي يتخلط فيها الشعر الصحيح بالشعر المنحول عليه .

أما المعاني التي تتردد في شعره فتكاد تكون مكررة في كل قصيدة ، فهو شديد الحزن على أخيه ، وهو لن يبتأ له يال إلا إذا أسعن في تفتيلهم ، وهو دائم التذلل على أخيه ، وأن أخاه كان سيد الحين ، وأنه سيقبل يكرأ ألياً وجدهم ، ولن يتوقف إلا إذا تشروا له كلياً . ولم يكن مهلهل الوحيد في هذا المجال ، فقد كان شعراء الجاهلية يدورون حول معانٍ مشتركة ، ولكن كل شاعر كان يلون المعنى ويخرجه في قالب يبدو جديداً ، ولكن مهلهل تميز بأنه نفسه كرر معاني أكثر من مرة في قصائده ، ولم يشم شعره بالأيجاز ، فقد بلغت بعض قصائده مائة بيت . ولا ندري إن كانت هذه الظاهرة قد ألصقت به بسبب ما نحل عليه من الشعر ، أو أنها صفة أساسية تميز بها شعره . ولكن الإحمال الأول أقرب إلى الصحة .

ويتكرر في شعره تكرار شطر بيت معين في القصيدة الواحدة ، ففي رائيته يتكرر هذا الشطر ست مرات ، « حل أن ليس هدلاً من كليته »^(١) .

وفي قصيدة أخرى يتكرر هذا الشطر ثلاث مرات : « يا عليلي ناديا في كليته »^(٢) وقد تقلب ظاهرة التكرار هذه كوسيلة استخدمها الشاعر للضغط على معاني معينة ، ليعبر عن شحنة من الانفعال يحس بها ، وليقلها للناس بأمانة وصدق . ولكن الذي نرفضه أن يتكرر شطر ست

(١) الأمالي للخلقي ٢ / ١٣٠ ، الحراسة البصرية ١ / ٢٢ ، الأغاني / كتب ٥ / ٣٧ ، بكر والغلب ٦٩ .

مرات . وفي رأينا أن هذا التكرار الذي لا جدوى منه هو من عمل القصاص الذين تكثرُوا من شعر هؤلاء الفرسان كمهلهل وعترة .

وفي شعر مهلهل بعض الانضطراب في الوزن ، وتظهر فيه بعض الترحلات ، وهذه القوافي يشترك فيها مع الشعر الجاهلي ، وقد دمجناها إلى طبيعة الطريقة التي انتقل الشعر بها ، وإلى النسخ والرواة بشكل خاص .

وبما بلغت النظر أن مهلهلاً - فيما نسب إليه من شعر - نسج ثلاثة أرباع شعره على سبعة حروف هيائية ترتبها حسب درجة استعمالها على النحو التالي : الميم ، اللال ، اللام ، الراء ، اللام والسين والتون . وربما أمكن ربط بعض هذه القوافي بموسوعات الشعر والروايات التي يدور حولها معظم شعر مهلهل وهو اليكاه على أخيه ، والتصميم على الثأر من بكر ، والفخر بالتصاراته عليهم . وقد بحثنا ذلك بالتفصيل حيناً عرضاً للقوافي في شعر الأهم .

ولم نحل قوافي شعره من عيوب القافية وأبرزها الإقواء والسناد ، ولكنها قليلة بالنسبة لشعره عامة ، ولا تقل كثيراً من قيمة الشعر لو سلم من العيوب الفنية الأخرى .

ونسأله بعد كل ما عرضنا : هل يصلح شعر مهلهل لكي يكون نواة للملحة من نوع ما وفي صور ما تحكي أحداث حرب البسوس ؟

نستطيع أن نقرر على ضوء ما سبق أن بيتاً من طبيعة الملحة ، كما فهمها النقاد والباحثون في الغرب والشرق ، أن شعر المهلهل في صورته الرسمية ، ونعني الشعر الموزن ، لا يمكن أن يشكل جزءاً من ملحمة لأنه مقطع الأوصال ، مبحثرنا وهناك ، ومقطعه مفقود . أما شعره المنحول عليه والمشكوك فيه والصحيح ، فإنه بصور أحداث البسوس لو توفرت فيه شروط : أولها أن يتضافر مع شعراء البسوس ، لأنهم صوروا جوانب لم يعرض لها المهلهل . وثاني هذه الشروط أن يختلف شعره من تلك النزعة الخطابية والتقريرية التي تقصد قابليته . وثالث الشروط لو حذفنا بعض شعر الرثاء لأنه طغى على باقي شعره فهو من حيث عدد القصائد والمقطوعات بشكل تلك شعره ، ومن حيث حجم الشعر يبلغ ضعف باقي شعره . وقد بصور شعره ملحمة يمكن فيها إنشاء كبطل من أبطال ربيعة قتل غلراً ، ولكنه لن يكون ملحمة فنية تتواثر فيها خصائص الملحة التي تعارف عليها النقاد .

(١) بكر والغلب ٩٤ .

الفصل الثاني

عنترة العبسي

قبيله - نشأته وحياته - دراسة لجوانب شخصيته - عنترة بطل عبس - مشاركته في حروب قومه - دوره في تلك الحروب - عنترة بطل الأسطورة الشعبية - صورته في الأسطورة الشعبية ومدى اختلافها واتفاقها مع الواقع التاريخي - دراسة موضوعية وفنية في شعره - إلى أي مدى يصور شعره أحداث قومه ؟

الفصل الثاني عنترة العبي

قبيلة عبي .

عبي بن يغيث بطن عظيم من غطفان ، من قيس بن عيلان ، من العدنانية . وهم :
يتو عبي بن يغيث بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن
عدنان^(١) . وقد تفرعت من هذه القبيلة بطون منها : بنو عذرة بن غالب ، وبنو واحة بن ربيعة
بن قطيمة ، وبنو جذيمة ، وبنو جروة بن الحارث^(٢) .

ويتقسم غطفان إلى ثلاثة أفرع عظيمة : أشجع بن ريث بن غطفان ، وعبي بن
يغيث ، وذيان^(٣) . كما تنقسم ذبيان إلى ثلاثة بطون : مرة وتعلية وفزارة^(٤) .

واقيلة عبي إحدى جمرات العرب^(٥) ، وهي تلك القبيلة التي لا تدخل في أحلاف مع
غيرها ، ولا تحاربهم لغوتها الذاتية وترهبها القبائل الأخرى^(٦) .

ومن رجالها المشهورين : زهير بن جذيمة سيد غطفان كلها ، بل وسيد هوازن ، وابنه
قيس بن زهير ، وعنترة القوارس ، والربيع بن زياد ، والخطبة ، وعروة بن الريرة^(٧) .

(١) أنظر جغرافيا أنساب العرب لابن حزم ٢٥٠ - ٢٥٦ ، المقصد الفريد ٣ / ٣٥٠ ، بداية الأرب
للثقات ٨٩ ، المعارف لابن خزيمة - طبعة مصر سنة ١٣٠٠ هـ ص ٢٧ ، حفة جزيرة العرب
٤٢ ، معجم قبائل العرب - عمر كحالة ٢ / ٣٨ .

(٢) الاشتقاق لابن خزيمة ٢٦٥ .

(٣) معجم قبائل العرب ٣ / ٨٨٨ .

(٤) قيس الرقيم السابق ١ / ٤٠٣ .

(٥) المعبر لابن حبيب ٢٣٤ .

(٦) اللسان وجرء .

(٧) المقصد الفريد ٣ / ٣٥٠ .

وقد اختلف العلماء قديماً في تحديد مواطن القبائل وتعيين حدودها ، ومن الطبيعي أن يمتد هذا الاختلاف إلى تحديد موطن عيس وديارها وحدودها . وسبب هذا الاختلاف عائد إلى عدم اكتشاف جميع الأماكن في الجزيرة والتي تحدث عنها العلماء قديماً ، كما يمكن رده إلى كثرة الحروب والانتقال الدائم الذي جعل القبائل لا تكاد تستقر في مكان ما ، بل إن القبائل تراها تتساح من ديارهم إلى ديار آخر لأنها بسبب الحرب مما دفعها إلى الانتقال في الجزيرة العربية ، كما يمكن رده إلى تدخل قبائل غطفان نفسها .

فمن خلال استعراضنا لأحداث حرب داحس والغبراء نجد أن عيساً قد ارتفعت إلى بني شيان وجاورتهم ثم رحلت عنهم إلى بني سعد بن زيد بن مناة بن تميم ، ثم ارتفعوا إلى الشام فدخلوا تغلب بعد تطواف طويل ، ثم عادوا فدخلوا بني عكر . وهذا الانتقال جعل موطن عيس التي وردت في أشعار شعرائهم تشمل كل تلك الأماكن التي سكنتها ، بالإضافة إلى أن حاجة القبيلة إلى الرعي والماء تدفعها إلى الانتقال . فإذا ما أضفنا عاملاً مضافاً آخر وهو ورود مواطن في شعر بعض الشعراء دون أن تسكنها قبائلهم ، فإن ذلك كله يجعل من التعرف علينا لتحديد موطن قبيلة عيس وأية قبيلة أخرى على وجه صحيح . ومع ذلك سنحاول أن نعرض لبعض ما قالوه في محاولة منا لتحديد موطنها أو منازلها .

يقول البكري^(١) « كانت منازل عيس فيما بين ألبان والنفرة وألبان والريذة ويكنى عمر كحلة بالغول » وكانت منازلهم بنجدة^(٢) بينا براها ابن يلهيد النجدي^(٣) « متوسطة في بلاد نجد لأن جبل وحرحات من جبال الريذة . ومن معدن النفرة إلى جبل الرححان ، وهذه قطعة من نجد » ويقول في موضع آخر^(٤) : « أما بلاد عيس فهي الواقعة في بلاد غطفان شمال ألبان وغربي الجواء وشرقي النفرة » ويقول حسن القرشي في محاولة لتحديد موطن عيس فيقول « إنها مجاورة للمدينة في الجهة الشرقية في الحفر والأودية الواقعة فيما بين المدينة وبين فلك وغير مساحة إلى الشرق على ضفاف وادي الرمة الذي يتحد من المرتفعات الواقعة شرقي للمدينة وشمالها ، ويمتد على روافد هذا الوادي من الأودية التي تأتيه من الشمال ومن الغرب^(٥) » .

(١) معجم البكري ٤ / ١١٧٨ .

(٢) معجم قبائل العرب ٢ / ٧٣٨ .

(٣) صحيح الأخبار - ابن يلهيد ٣ / ١٩ .

(٤) نفس المرجع ١ / ٢٢٣ .

(٥) فارس بني عيس - حسن القرشي ٢٧ .

وعلى هذا فليدبرهم لحد غرباً بجبل إلهان وجبل قطن ، وشرقاً بالرمال الواقعة شرقي القصيم ، وشيلاً بأطراف القصيم الشمالية ، وجنوباً بإقليم السر . ويجعل ما يمكننا القول به إن ديار عيس هي القصيم ونواحيه .

وإذا ما بحثنا عن جيران عيس ، فبتأسد من الغرب ، وبنو نمير من الشرق ، وبعض قبائل ليس حيلاً من الجنوب ، ومنهم بنو عامر ، وفي الجهة الغربية ذبيان . وسنرى عندما نعرض للحرب كيف أثر هؤلاء الجيران في توجيه الحرب .

وعلى الرغم من كل هذه المحاولات لتحديد موطن عيس وحدودها ، فإنها لا تشكل حدوداً مرسومة ولا خطوطاً واضحة ، وإنما هي أماكن متناثرة في شبه الجزيرة ، وكل ما نجنيه هو تبيان منازل القبيلة في أزمنة مختلفة . ويمكننا القول إن هذه الأماكن والبلاد ليست وفقاً على عيس وحدها ، بل شاركها فيها قبائل أخرى عديدة من أعماها بطون خطفان .

وإذا ما حاولنا تبيان مكانة قبيلة عيس في العصر الجاهلي ، فإن أول ما يطالعنا أنها كانت إحدى جمرات العرب . ويروي لنا اليعقوبي^(١) أن عيساً استطاعت في وقت ما انتزاع سيادة عيس من فزارة ، ولكنها لم تستطع الاحتفاظ بها مدة طويلة ، بل اختصها منها بنو عامر بن صمصة . ونجدنا المصادر أن زهير بن جذيمة العبسي كان سيد خطفان كلها بل سيد هوازن ، وأن هوازن كانت تدفع له إتاوة كل سنة^(٢) .

وكانت عيس عاصمة من جميع جهاتها بأحلاف للذبيان من طيء وأسد ونمير وقبيلة والرياب وعامر بالإضافة إلى ذبيان نفسها ، وقد اضطرت عيس لقتال أولئك الجيران وغيرهم ، لأكثر من سبب لعل مشاكل التجاور في مقدمة تلك الأسباب ، فقد كان كل من القريظين يطمع في السيطرة على الفريق الآخر بالاستئثار بالرعي وموارد المياه .

ومن أيام عيس مع نمير : أقرن والمصرانم والسؤمان ، وقد هُزمت عيس في هذه الأيام الثلاثة . كما التقت عيس مع عامر في أيام أعماها : ذات الرتمم والنشلة والتخائق أو شمر ، وسكف ، ورتبة ، والرؤبة . وهُزمت عامر في أربع منها هي : التخائق ، وسكف ، ورتبة ، والنشلة . كما هُزمت عيس في باقي الأيام . وكان الصراع مع عامر يدور حول هدف واحد هو الاحتفاظ بالسيادة على هوازن ، كما هدفت عامر إلى الاستقلال ، ثم انتزاع السيادة من عيس ، وقد أفلحت في النهاية كما حدثنا اليعقوبي ، بل لقد انتهى الأمر بعيس أن لجأت إلى عامر متناسية قتل عامر لزهير بن جذيمة ، حدث ذلك بعد أن أرهقت حرب داحس والغبراء عيساً .

(١) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٢٦ . (٢) العقد الفريد ٥/ ١٣٥ .

ولعبس مع ضبة يوم أمهار أو الضبعة ، وفيه أنجزت عبس . ولها مع بكر يوم زُرد الأول ، وسببه طمع بكر في حب عبس لغزاعم الحوزان ، وهُزمت عبس في ذلك اليوم أيضاً . ولها مع هوازن يومان هما : ذات الأكل والصلعاء ، وقد هُزمت فيها عبس . وكان لها مع غني يومان أيضاً هما : التفراوات ومتعيج وقد هُزمت فيها عبس أيضاً . وقد التقت مع بني أسد يوم السلكل وهُزمت فيه أيضاً .

أما قبيلة علي ، فقد كان بينها وبين عبس غارات صوّرها لنا حنترة في بعض شعره ، ولاقى حنترة في إحدى هذه الغارات على يد رجل من علي .

وهكذا رأينا أن التجاور كان له الأثر في نشوب الحروب ، فقد رأينا عبساً تنصّب مع جيرانها جميعاً ، ولم يبق من القبائل المجاورة واحدة إلا وكان لها معها إهام .

ولكن ظاهرة تحتاج إلى تعليل ، وهي أن عبساً هُزمت في معظم الأيام التي ذكرنا ، ومع ذلك فقد بدأت عبس حربها مع ذبيان قزوة متأسكة ، ولا تلك من تعليل إلا أن تلك الأيام كانت غارات محدودة كما كانت معظم الأيام في ذلك العصر ، ولذا فلم تؤثر تلك الأيام على تماسك عبس بل زادت تماسكاً .

وعلى الرغم من أن عبساً فقدت ملكها خندراً ، وهو زهير بن جذيمة ، إلا أنها استطاعت الصمود فترة طويلة من الزمن كجمرة من جمرات العرب ، ولولا حرب داحس لا انطفأت تلك الجمرة .

نشأة حنترة وحياته

لعل شاعراً عربياً لم يعبث بالاهتمام وبالعناية كذلك الاهتمام الذي حظي به حنترة على مر العصور مما حدا بالملاحظ إلى نسبة ذلك إلى الخطأ^(١) . ومع ذلك فإن الأعيان النبوة في بطون الكتب بمجموعها تعجز عن إعطائنا صورة واضحة المعالم عن حياة هذا البطل العربي ، بل تبقى هناك ثغرات عديدة وفجوات تحتاج إلى خيال لملئها حتى تكتمل صورة حنترة الخطيبية .

ونستطيع أن نخمن أن حياة حنترة الأولى ، أو الفترة الأولى من حياته كعبد من عبيد بني عبس ، لم تسلط عليها الأنواء ، ولم يكن أسد يظن أن هذا العبد سيكون له شأن في القبيلة ،

(١) الحيوان ٢ / ١٠٣ .

ولذلك لم يهتم به أحد ، ومن هنا نجد أن أكثر الاضطراب حاصل في الفترة الأولى من حياته ، ولم يسعفتنا بشعر يرصد تلك الفترة . ولا يعني هذا أن القسم الثاني في حياته لا يخلو من اضطراب شأنه في ذلك شأن سائر شعراء الجاهلية وما ذلك إلا بسبب بعد الشقة ، وانتقال تلك الأخبار والأشعار بطريق الرواية الشفهية لمروراً طويلاً .

وأول ما يلاحظنا من اختلاف في حياته هو الاختلاف في اسمه فهو عترة^(١) ، وعترة^(٢) ، وعترة الفلحاء^(٣) ، وعترة الفوارس^(٤) ، ولعل بعض الباحثين إلى أن عترة لقب خلع عليه بعد تهره بالبطش ، ولم يكن اسمه ، ثم غلب عليه اللقب وشاع فبنا اسمه الأول^(٥) . ومن كناه التي وردت في المصادر العربية أبو الغلس^(٦) وأبو عيلة^(٧) .

وإذا ما اخلصنا من اسمه وألقابه ، وصرقنا أن الاسم الذي عُرف به ذلك الشاعر الفارس عبر عصور التاريخ هو عترة ، سواء أكان ذلك اسم أم لقب خلع عليه ، إذا ما انتهينا فإننا نصل إلى حقيقة أخرى ، تلك هي من يكون والد هذا الفارس ؟ فيبحث المصادر ذكرت أن أباه هو عمرو بن شداد^(٨) ، وبعضهم ذكر أنه شداد^(٩) ، وزعم آخرون أنه عمرو بن معاوية^(١٠) ، وذهب فريق رابع إلى أن شداداً عمه نشأ في حجره فنسب إليه^(١١) ، وهناك من يقول أن أباه معاوية العنسي^(١٢) .

(١) استقفا إلى بيت الشعر : ولقد شفى عيسى وأبى سفيها قيل الفوارس وبك عترة أقدم .

(٢) اللسان (ع)

(٣) الأغانى ٨ / ٢٣٧ ، الخصصى لابن سيدة ٣ / ٤٧ ، الزهر للسيوطي ٢ / ٤٣٢ ، شرح شواهد المغني ١٦٠ .

(٤) العقد الفريد ٥ / ١٥٣ .

(٥) مقدمة شرح ديوان عترة - إبراهيم الأبياري .

(٦) الزهر ٢ / ٤٢٦ ، شرح الحماسة للبربري ١ / ٨ ، شرح المظلمات السبع لابن الأثيري ٢٩٣ .

(٧) شرح الحماسة للبربري ١ / ٢١٨ ، شرح المظلمات السبع لابن الأثيري ٢٩٣ .

(٨) الشعر والشعراء ١ / ٢٥٠ ، خزنة الأدب ١ / ١٢٨ ، الأغانى / كتب ٨ / ٢٣٩ .

(٩) النفاخر ٩٧ ، أنساب الحليل ٦٢ ، طبقات ابن سلام ٢٧ ، المعبر ٣٠٧ ، شرح القصائد الطوال ٢٩٣ ، تاريخ المعبري ١ / ٢٦٣ ، الإشتقاق ١٧٠ ، المؤلفات والمختلف ١٥١ ، معجم الشعراء ٢٤٦ ، الأغانى ٨ / ٢٣٧ شرح الحماسة للمرزوقي ١ / ٤٢٥ حيلة القرصان ١٥٦ ، الخزنة ١ / ١٢٨ ، جميع الأغانى ٢ / ٢٤٤ .

(١٠) شرح شواهد المغني ٢ / ٢ عن أبي عيلة .

(١١) ورد في شرح الديوان لأبي بكر عاصم بن أيوب .

(١٢) شرح القصائد الطوال ٢٩٣ ، أسماء المتأخرين لابن حبيب ٢١٠ ، شرح ديوانه للبطلوسي ، شرح الحماسة للبربري ، التبليغ لابن المعتز ٢٨ .

وإذا حاولنا تحليل ذلك الاضطراب ، فإن السبب الأساسي يرجع إلى نشأته المفجأة فترة طويلة من الزمن كعبد من عبيد عيس ، وتأخر اعتراف والده به بعد صراع طويل ، كما أن الفترة الزمنية الطويلة التي طعمها الحبر والرواة يتناقلونه مشاغله ، كل هذه العوامل ولدت الاختلاف ، ويشاركه في هذا الاضطراب الكثير من شعراء الجاهلية .

أما تاريخ ولادته فلا نستطيع الجزم بتاريخ ، وكل ما نستطيع أن نخمنه أنه عاصر أحداث حرب فاحس والغبراء من بدايتها ، من يوم الرقيب ، كما تشير إلى ذلك أشعاره التي نطمئن إلى صحتها ، وهو لم يعاصرها بحسب ، وإذا شارك في أحداثها [ابتداء من يوم الرقيب حيث قتل قُصْباً الرقي ، فإذا ما عرفنا أن القارس لا يشارك في القتال الحظي ويعرف كقارس إلا عندما يقارب العشرين ، وعرفنا كذلك أن الحرب حدثت نهايتها في حدود سنة ٦٠٠ م^(١) ، فإن بدايتها ستكون حوالي سنة ٥٤٠ م ، وتكون ولادته عشرة نهاراً على هذا ما بين ٥٢٠ - ٥٣٠ م ويعتد على تقريب هذه الحقيقة إلى الألفان معاصرة عشرة واجتماعه بعمرو بن معد يكرب المخضرم وعروة بن الورد العيس^(٢) .

ويعتبر عشرة أحد الأخرى العرب ، لأن أمه زبيبة الحبشية ، جارية من جواري عيس ، ولم يكن عشرة يتكرر ذلك بل اعترف به في شعره فقال :^(٣)

يقدّمه قنسى من خير عيسر أبوه ، وأمه من آل حاتم
عجوز من بني حاتم بن نوح كأن جبينها حَجَرُ المقام

ويقول في موضع آخر مصرحاً بما يحس به من تلصق في النسب من جهة أمه ، وبأنه يتوخى ذلك النص بفروسيه :^(٤)

إني امرؤ من خير عيسر منصباً شطري وأجمي سائري بالمتك^(٥)
وإذا الكبيبة أُنْجِنَتْ وتلاخظت ألبت عسراً من مُيسم عُول^(٦)

(١) التنبه والأشرف للمحمدي/ ١٧٤ .

(٢) الأغلبي/ دار الكتب - ٨/ ٢٤٦ .

(٣) ديوان عشرة/ ١٥٩ .

(٤) الأغلبي/ دار الكتب - ٨/ ٢٤٠ ، حيوانه ١١٩ .

(٥) النصب : الأصل والحب ، والمكمل : السيف .

(٦) تلاخظت : من اللخظ وهو القفر ، وهذه حال للتردد في امره . والعم : الخول : التكريم الآباء والأمهات .

وجلس يوماً في مجلس قبيلته بعدما كان قد أبلل واعترف به أبوه ، واحتفه ، فسأبه رجل من
عيس وذكر سواده وأمه وأخوته ، سبه عشرة وفخر عليه وقال فيها قاله له : « إني لأحضر اليأس ،
وأولي الختم ، وأحف عند المسألة ، وأجود بما ملكت يدي » (١) .
ويحل الرواة والقصاصون عليه شعراً قاله في سواده واعتزازه به ، ولكن هذا الشعر لم
تثبت لنا صحته ، وإنما فعلوا ذلك لإبراز بعض النواقب في القصة ، ولأستخدامه كعنصر
للتشويق .

وتتميز فترةان في حياة ذلك الفارس ، الفترة الأولى عاشها عبداً من عبيد عيس ، وظيفته
الأساسية رعي الأبل وحلبها والخدعة التي لا تجلب له إلا اللذ والضعة ، ولكنها مع تلك كانت
فترة تكوين في حياته فقد صقلت تلك الفترة ، وجعلته يتعلم غروب القروسية وفنون القتال ،
كما أنها هدبت نفسه وصقلتها ، فقد كان يغلو في تلك المهام إلى نفسه ، وهو يرعى الأبل ،
ويتعلم ركوب الخيل ، واستعمال أدوات القتال ، كما علمت الصبر فكانت فترة بناء جسمه ولعقله
ونفسه ولقروسيته ، وظل بعيداً عن حياة القبيلة وصراحتها يرقب ما يجري حوله دون أن يتدخل
لأن مركزه الإجهامي لم يكن يتيح له أكثر من ذلك . وقد أوضحت تلك الفترة لبن الحرية عل
الرقم من أغلال العبودية التي كان يرسف فيها . فنشأ عبداً لهذه الحياة كارهاً للذل ولكن ما عيس
كرامته .

وبخلاصة ما يمكن أن نصف به هذه الفترة بأنها كانت فترة البناء الحاسمة التي كانت إرهاصاً
لفترة المقبلة الحامة في حياته .

يحدثنا ابن الكلبي أن بعض أسياد العرب أغلروا حل بني عيس ، فأصابوا منهم واستألفوا
إيلاً ، فبيعهم العيسيون فلفقوهم وقتلوهم وحسرة فيهم كعبد مرافق ، فقال له أبوه : كز يا
عنترة ، فقال : العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الخلاب والصر ، فقال كز وأنت حر ، فكرر وهو
يقول : (٢)

أنا المَجُونُ عَتْرَةُ كلُّ امرئٍ وَ يَحْيِي حَيْرَةَ
أَسْوَدُ وَأَحْمَرُ وَالشَّعْرَاتُ الْمُشْعَرَةُ
الواردات مَشْقَرَةُ

(١) شرح القصائد السبع الطوال / ٢٩٣ .

(٢) الأطلال / دار الكتب - ٨ / ٢٢٩ .

(٣) حرة : جالته ، تالعة .

(٤) مشقرة : التشقر : شلة الجعر ، واستعمل في الشقة الخليفة .

وقاتل يومئذ قتالاً حسناً ، فلداه أبوه بعد ذلك وألحقه بنسبه . ولم يمد ابن الكلبي ذلك الحى ولا الواقعة . وقال غير ابن الكلبي : إن حباً أظفروا على طيء ، فأصابوا نعيماً ، فلما أرادوا القسمة قالوا لا تقسم لك نصيباً مثل أنصابتنا لأنك عبد . فلما طال الخطب بينهم قُرِبت حلبيهم طيء ، فاعتزلم عشرة وقال : دونكم القوم ، فإنكم عدوهم . واستقلت طيء الإبل . فقال أبوه : كَرِّ يا عشرة . فقال : لو يحسن العبد الكَرَّ؟ فقال له : العبد خيرك ، فاعترف به ، فكَرَّ واستقله النعم ، وجعل يقول :^(١)

أنا المهجون عشرة الخ الأبيات

وتساءل بعد ذلك هل كان عشرة فارساً من فرسان القبيلة وهو عبد ؟ وإلا فلم ينسب له فرسان قبيلة ؟ وإذا كان هذا صحيحاً فإنه لا يتفق مع ما حُرف من سيرته أنه كان عبداً يرعى الإبل . إن طلب أبيه منه أن يكره يعني أن أباه كان يعلم بطرويته وإلا لما دعاه ، فهل سبق أن أبى عشرة في بعض حروب القبيلة ؟ تلك أسئلة لم تصلنا أخبار تركدها أو تفريها . ولكننا نحمل إلى أن عشرة كان عبداً وهذا لا جدال فيه ، ولكن شجاعته كانت معروفة لدى القبيلة ، ولم يكن بعيداً عن الأحداث ، وكان يتحيز مثل هذه الفرصة حتى يسترد مركزه الاجتماعي ، بل يسترده انتزاعاً من مجتمع لا يعترف إلا للمجلس العربي بحق الحرية والسيادة . ونرجح أن الرواة بالغوا في تصوير مثاقه وفضة مركزه في المرحلة الأولى من حياته ، حتى يبدو انتزاعه اعتراف أبيه به ، واعتراف القبيلة به ، صلباً بطولياً ونقطة تحول في حياته تلفت الأنظار إليها .

وكان لعشرة إخوة من أمه ، فأحب عشرة ، بعد أن نال حريته واعترف به أبوه ، أن يدهيهم قومه ويحدثا أبو الفرج في رواية عن ابن الأعرابي وأبي عبيدة كيف استطاع أن يغير قومه على الاعتراف بهم^(٢) .

وقد حرف عشرة الملة الأم في حياته ، ورثى لوضعها الاجتماعي كما رثى لوضعه ، إلا أنه لم يصلنا منه ما يشير إلى هلوله إغفاء نسبه ، كما حرف زوجة الأب ، سمية لوسية ، وهي التي حاولت الإسلامة إليه ، وسيت له الألم والضرب للبرج من أبيه لأنها اتهمته بأنه وابدها عن نفسها . ولما حدث ذلك قبل أن يدهي أبوه ، ثم إنها يكت عندما رأت ما به من الجراح فقال :^(٣)

أَمِنْ سَمِيَّةٍ دَمَعُ الْعَيْنِ مَذْرُوفٌ لَوْ أَنَّ ذَا مَنَلْنِي قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفٌ^(٤)

(١) الألفاظ / ٨ / ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) غنم / ٢٤٣ .

(٣) الألفاظ / دار الكتب - ٨ / ٢٣٧ - ٢٣٨ ، دوران عشرة / ١٠٩ .

(٤) مذكوف : من ذرف الدمع : صبه .

كَأَنَّهُ يَوْمَ صَدَّتْ مَا تَكَلَّمْتَنِي فَلَمَّيْ بَعُثْتَانِ سَاجِي الْعَيْنِ مَطْرُوفٌ^(١)
تَجَلَّلْتَنِي إِذْ أَعْرَى الْعَصَا فَيَكِي كَأَنَّهُ صَتَمٌ يُعْتَادُ مَعْلُوفٌ^(٢)
الْعَبْدُ عَبْدُكُمْ وَالْمَلَأُ مَالِكُمْ قَهْلُ عَذَابِكَ عَنِي الْيَوْمَ مَصْرُوفٌ

ويذكرهم عشرة في هذه القصيدة بما يفعله من أجلهم في الحرب : (٣)

تَنَى بِلَاتِي إِذَا مَا غَارَةُ لَفَحَتْ تَخْرُجُ مِنْهَا الطُّوَالَاتُ السَّرَاعِيفُ^(٤)

ولو ثبتت صحة هذا الشعر بأنه قيل لزوجة أبيه ولم يكن قد زال حرته بعد ، فإن ذلك يعني أن عشرة لخاضى المارك إلى جانب فرسان قومه ، واعترفوا بهذه القروسية قبل أن ينال حرته واعتراف أبيه به . ولكن هذا الشعر ربما كان قد نظم في غير هذه المناسبة ويتضح ذلك إذا عبرنا المعاني الواردة فيه .

ولكن بين الأبياري يذكر في شرحه لمعلته أن الآيات التالية من المعلقة عنى بها امرأة أبيه حيث يقول : (٥)

بِأَشَاءَ مَا قَصَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حَرَمْتُ عَنِّي وَلِبَنَاهَا لَمْ تَقَرَّرْ
فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي فَقَلَّتْ لَهَا إِذْ هَبِي فَتَجَسَّسِي أُغْيَارَهَا لِي وَأَعْلِي
قَالَتْ : رَأَيْتُ مِنَ الْأَعْدَاءِ خَيْرَ وَالْأَشَاءِ مَمَكَّةً لِمَنْ هُوَ مَرْتَمَرٌ

ويورد ذكر مهبية في شعر عشرة في موضع آخر حيث يقول في حرب كانت بينهم وبين جديلة طرية : (٦)

إِنَّا كَذَلِكَ يَا سُهَيْلُ إِذَا خَلَدَ الْخَلِيفُ نَقَسُودُ بِالْخَطْمِ

والمرأة الثالثة في حياته مهبلة ، تلك الفتاة التي اقترن اسمها به ، وتثنى بها في شعره وهو

(١) عطفان : منهل من متاعل الطريق بين الجملة ومكة . وساجي الطرف : ساكن النظر . . .

ومطروف : طرفت بشويه أو غيره فهي مريضة قد قهرت .

(٢) لجللتني : علنتي وولعت علي . ومعكوف يعكف عليه .

(٣) الأغاني / دار الكتب - ٨ / ٣٣٨ ، ديوان / ١٠٩ .

(٤) لفتح : انتفعت . والسراعيف جمع سرعوف ، وهو كل خفيف طويل ، يريد الخيل .

(٥) شرح القصائد السبع الطوال / ٣٥٣ .

(٦) الديوان / ١٥٥ .

بفرض غمرات القتال ، وكانت اللهم لذلك الفارس البطول . وقد تضاربت الروايات بشأن نهاية تلك العلاقة بينها ، فذهب البعض إلى أنه تزوجها^(١) ، وقال آخرون إنه لم يتزوجها^(٢) . وربط الذين قالوا بزواجه بين حريته إذ قال له أبوه : كر وقد زوجتك عبلة ، وفي مصدر آخره فاستلحقه أبوه يومئذ ، وزوجه معه عبلة ابنة « وفي مصدر ثالثه » أنك ابن أخي وقد زوجتك ابنتي عبلة . وعلى الذين قالوا بعدم زواجه ذلك بأن العرب كانت تمتنع عن تزويج بنتهم لمن يشب بهن . وأثبتوا ذلك أيضاً بأن شعر عشرة خلا من ذكر زواجه بها ، وهي كانت طلائع داعبت خيال ، بل إن في لامية التي رواها الأصمعي ما يشير إلى أنه لم يتزوجها . حيث يقول غاملاً^(٣) :

قَلْبُ رَبِّ أَيْلُجَ مِثْلَ بَعْلِكَ بِأَدْنٍ ضَحْضَحَ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ مُهَيَّلٌ^(٤)
غَادِرُهُ مَتَعَفُراً أَوْصَالُهُ وَالْقَوْمُ بَيْنَ مَجْرَحٍ وَمُجْدَلٍ

وتزداد حيرتنا أننا نقرأ في ديوان شعره بيتين قالهما العرس وقد نصحنه بالحرب يوم غدير قلهم ، وهي عبسة :^(٥)

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَبْسِيِّ قَرَبُ جَانِنَا وَأَفْرَاسًا ثُمَّ انْجُ إِنْ كُنْتَ تَاجِياً
فَقُلْتُ لَهَا مِنْ يَغْنَمُ الْيَوْمَ نَفْسَهُ وَيَنْظُرُ غَدًا يَلْسَنُ السَّيِّئِ كَانَ لَا قِيَا

ولكننا لا ندري مَنْ تكون تلك الزوجة العبسة . ولا تسعفا سيرته . بليليل يوشدنا إلى شخصيتها .

والمرأة الرابعة في حياته ، من بحيلة ، تزوجها عشرة ، ورد ذكرها في ديوانه حيناً لامتة في فرس له كان يؤثرها على خيله ويضعها ألبان إبله ، فقال :^(٦)

لَا تَذْكُرِي مَهْرِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ فَيَكُونُ جِلْدُكَ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرِبِ^(٧)

(١) جميع الأمثال ٢ / ٢٤٤ ، ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١ / ١١٠ ، شرح شواهد المعنى ١٦٥ .

(٢) عينة بدوي : الشعراء السود ٢٣١ - محمود الخفني : سيرة عشرة ٣٢ .

(٣) الديوان ١٢٦ .

(٤) الأبلج : النقي ما بين الحامين ، والعرب تستحسن ذلك . ومجمل : قنبل .

(٥) الديوان ١٩٨ .

(٦) الديوان ٢٠ .

(٧) فيكون جلدك مثل جلد الأجرِب : يندعا بقلبه عنها وهجران فراشها .

إِنَّ الْعَبْقُوقَ لَهُ وَأَنْتَ مَسْمُومَةٌ فَتَأْوِيهِ مَا شِئْتَ ثُمَّ تَحْوِيهِ^(١)
كُذِبَ الْحَقِيقُ وَمَاءُ شَرْبٍ بَارِدٌ إِنْ كُنْتَ سَأَلْتَنِي عِبْقُوقاً قَدْ حَوِيهِ^(٢)

والنتيجة التي يمكن أن تكون أقرب إلى الحقيقة أن حشرة لم يتزوج حيلة ، كما نشك في أنه تزوج غيرها ، بدليل أنه لم يرد ما يشير إلى أنه أنجب ، فقد أغفل الرواية ذكر أي ولد له ، ولعلنا نتقرب من الحقيقة إذا خنا أنه لم يزل حريته إلا بعد أن تقلعت به السن ، وشغل فترة من الزمن بحب حيلة ، وشغل بالي عصره بالحرب فعشقتها ، فلم يتزوج ووجد عزاءه في انتصاراته وروميته التي طار ذكرها في الآفاق .

وقد عاش المرحلة الثانية من حياته ينتقل من معركة إلى أخرى ، لم يعرف حيلة مستقرة . فقد شغله كما شغلت قرياته حرباً طويلة دامت أربعين عاماً .

وحينما تصل إلى نهاية هذا الفارس فإن الغموض يكتنفها أيضاً ، فقد اختفوا في نهاية كما اختفوا من قبل في حياة الظهليل .

في رواية أبي الفرج عن أبي عبيدة وابن الكلبي أن حشرة أغار على بني نهان من طيء فطرد لهم حريدة وهو شيخ كبير ، فجعل يرتجز ويقول :

أَتَارُ ظَلْهَانَ بِقَاعِ حَرْبٍ

وكان وزر بن جابر النهدي في فتوة فرماه ، فقطع ماله ، فتحمل بالرمية حتى أتى لعله ، وأخبرهم عن قتله :

وَإِنْ ابْنُ سَلْمَى عَنْده فاعلموا نَهِي وَهِيَاهُ لَا يُرْجَى ابْنُ سَلْمَى وَلَا نَهِي^(٣)

وفي رواية ابن الكلبي أن النبي قتله هو الأسد الرهيب^(٤) ، ولكن الأمل يرفض هذه الرواية^(٥) ، أما أبو عمرو الشيباني فيروي لنا أن حشرة غزا طيء مع قومه ، فانهزمت عيس ، فخر

(١) العبوق شراب العشي . ومسومة : عزيمة . والتحويب : التوجع .

(٢) الحقيق : الثمر . والشن : القرية الخلق الصغيرة .

(٣) الأطلاني / دار الكتب - ٨ / ٢٤٥ - ونظر أيضاً الإستطيق / ١٦٦ .

(٤) الأطلاني / دار الكتب - ٨ / ٢٤٥ .

(٥) الأملاني : المؤلف والمختلف ١٣٨ .

عن فرسه ولم يقدّر أن يعود فيركب من الكبر ، قد دخل وغلاً ، وأبصره ربيته على نزاله إليه ، وهاب أن يأتبه أسيراً فرمته^(١) .

ويطالعنا أبو عبيدة برواية رابعة فيذكر بأن عترة كان قد أسنّ واستنّح وعجز بكبر سنه عن الغارات ، وكان له يد على رجل من خططان بكر ، فخرج يتقاضاه إياه ، فهاجت عليه ربح من صيف وهو بين شرح وثاظة ، فأصابته نقتله^(٢) ، وكان ذلك بعد يوم جيّد^(٣) .

والقدر المشترك بين هذه الروايات أن عترة كان قد أسنّ عتدما مات ، وأنه لم يمت في غارة أو معركة ، بل مات برمية سهم أو برمح ، ويعني آخر فهو لم يمت على فراش الراحة ، كما أنه لم يمت في ساحة قتال ، بل مات ميتة وسطاً بينها . كما أن جميع الروايات لم تذكر أنه أسلم أو أهلك الإسلام ، بل إنه مات قبل الإسلام .

أما سنة الوفاة فهي غريب من التخمين ، ومع ذلك فقد حددنا بعض الباحثين سنة ٦١٥ م^(٤) ، بينما جعلها آخر بين ٦٠٨ - ٦١٠ م^(٥) .

شخصيته

إهتمت كتب الأدب بعترة ، بل وأسرفت في ذكر اسمه ، واتخذته مثلاً للشجاعة والحب العفيل وروث الكثير من شعره ، إلا أن القليل من هذه الكتب اهتم بحياته وذكر أخباره . وليس عترة هو الوحيد الذي وصلتنا أخباره من العصر الجاهلي ، بل ويشاركه في تلك الصورة المضطربة الكثير منهم . ولعل السبب في ذلك أن الرواة كان اعزاليهم مركزاً على الشعر وحده ، فلم يكن يعنهم إلا الشعر ، ولم يوردوا من أخبار الشاعر ومن لمحات حياته إلا ما يساعد على تفسير هذا الشعر وإلقاء بعض الضوء عليه .

(١) الأغاني / دار الكتب - ٢١٥ / ٨ .

(٢) الأغاني / كتب ٨ / ٢٤٥ ، الشعر والشعراء ١ / ٢٥٢ ، أسماء القتلين لابن حبيب ٢١٠ ، الإشتقاق ١٦٦ ، عزارة الأدب ١ / ١٢٩ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٢٥٢ .

(٤) تاريخ العرب - غليب حتى ١ / ١٢١ ، معلقات العرب - طهارة ١٨٢ ، تاريخ أدباء اللغة العربية - جوري زبدان ١ / ١٣٠ .

(٥) سيرة عترة - محمود الحفني ٤٧ .

وقد دفع هذا الغموض الذي يحيط بحياة عترة بعض الباحثين إلى رفض شعره وإنكار وجوده كإنسان حقيقي عاش في الجاهلية ، واعتبره شخصية أسطورية اتخذها الرواة والواضعون أساساً يستمدون منه مادة لتقصصهم ومرجعاً ينسبون إليه أشعارهم المتحولة^(١) .

وعلى الرغم مما أظهرته هذه الكتب من نقص في عرض حياته ، إلا أننا نستطيع أن نميز منها نغمة إنكاز نستطيع أن نتطرق منها ، وبالإستعانة بشعره الموثق ، لرسم شخصية ذلك الفارس الشاعر ، فقد عرفنا أنه ولد من أمة حبشية اسمها زبية ، وأنه قضى فترة من حياته يعاني من هذه العبودية ، وأن أباه أجبر على إخطائه بنسبه عندما استأجبت القبيلة إلى شجاعته ، وتكررت لنا بعض أخباره مع زوجة أبيه ، ووجه لعيلة ، ثم تفرقت بنا إلى مقتله أو موته .

ونستطيع من خلال هذه الأخبار المبثورة هنا وهناك ، ومن خلال شعره أن نتبين بعض العوامل التي أسهمت في تكوين شخصيته . وأول تلك العوامل عامل الوراثة فقد ولد عترة لام حبشية وأب عربي ، وبالتالي فقد اكتسب صفات من أبويه ، من أمة قوة البنية ، إذ لا تتخيل سيداً من سادات عيس يبنى بجارية إلا إذا كانت من كمال الجسم وتضارته ما يجعله يُكبل عليها ، كما أخذ عن أمة الصفات السلبية ، ومنها قوة الإحتمال ، وصفة المروافة ، كما اكتسب من أبيه قوة الجسم ، والصفات العربية الأخرى .

والعامل الثاني في تكوين شخصيته ، هو الفترة الأولى من حياته التي قضاها بعيداً عن أعين القوم يتدرب في الفلوات على أعمال الفروسية واستعمال السلاح ، يفعل ذلك كله وهو بمنأى عن أعين القوم الذين لم يكونوا يسمحوا له بذلك . وقد أعلته هذه الفترة لتربى القيادة في معارك قومه فيما بعد ، كما كانت السبب في نيله حرته وإخطائه بنسب والده .

والعامل الثالث الذي أثر في بناء تلك الشخصية هو عقدة اللون . فعترة أحد الأغربة ، لأن أمة أمة سوداء ، وقد قضى الفترة الأولى من حياته مهملاً بسبب تلك العقدة ، وتنازل من أجل التغلب على هذه العقدة ، لتدرب والتقى ركوب الخيل ، وصناعة الكر والفرو ، وأجبر والده على إخطائه بنسبه ، ولكن ذلك لم يمسح هذه الصفة من أذهان قومه وتقوسهم . فقد ظل يعاني منها حتى وهو في قمة إتصافاته ، يمدحنا أبو عمرو الشيلحي أن عبساً غزت قمياً وعليهم قيس بن زهير ، وطلبتهم قيس بعد أن اتهمتم عيس ، فوقف لهم عترة ، وحاسى عن الناس ، فلم يصيب مدير . فسأ قيساً ما صنع عترة يومك وقال حين رجع : والله ما حسى الناس إلا ابن السوداء^(٢) .

(١) حديث الأديب - طه حسين ١ / ١٤١ .

(٢) الديوان ١١٨ .

وكانت له منغرات مع بعض فرسان القبيلة اللذين رفضوا الاعتراف له بالمنزلة التي اقتصرها منهم بغروسيته وشجاعته ، ومنهم عبارة بن زياد العبي ، وبلغ الأمر بعثرة إلى هجاء عبارة عندما بلغه قول عبارة لقومه : إنكم أكثرتم ذكره ، والله لو لقيته غالياً حتى أعلمكم أنه عبد فقال عثرة مخاطباً عبارة^(١) .

مَنْ مَّا تَلَقَّيْتِ فَرْدَيْنِ تَرْجُفُ رَوَائِفُ أَلْيَتِكَ وَتَسْتَظَارُ^(٢)
وَمِيسَى صَارِمٌ قَبَضَتْ عَلَيْهِ أَشَاجِعُ لَا تَرَى فِيهَا إِنْشَارًا^(٣)

وعمل الرخم مما لاقى من محاولة للتقليل من شأنه في قبيلته ، إلا أننا لا نسمع في شعره الصحيح النسبة إليه ، أي بيت يشير فيه إلى لونه أو عيونه إلا هذا البيت^(٤) :

إِلَّا مَالَكُمْ وَالْعَبْدُ عَبْدُكُمْ فَهَلْ هَذَا بَيْنَكَ عَنِي الْيَوْمَ مَعْرُوفُ

وقد قاله ضمن قصيدة نسبها الرواة إلى أنها قيلت عندما ادعت سمية أو سهوية زوجة أبيه أنه وادعاه عن نفسها ، فغضب غضباً مبرحاً . ولكن قراءة القصيدة لا تشير إلى أن المخاطبة يمكن أن تكون زوجة أبيه ، بل هي ممتوحة له لأنه يقول فيها^(٥) :

أَسْنُ سُهَيْةٍ دَمْعُ الْعَيْنِ تَلَوِيْفُ لَوْ أَنَّ ذَا مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفُ
كَأَنَّمَا يَوْمٌ صَدَّتْ مَا تَكَلَّمَنِي ظَنِّي بِعُسْقَانٍ سَاجِي الطَّرْفِ مَعْرُوفُ
تَجَلَّلَتْنِي إِذْ أَغْوَى الْعَصَا قَبْلِي كَأَنَّمَا صَتَمُ يُعْتَادُ مَعْرُوفُ

وإذا ما اعتبرنا أن قصة هذه الأبيات ليست إلا من افتعال الرواة ، وأنها ليست زوجة أبيه ، فإن هذا البيت لا يشير إلى عبودية ملنية ، بل إنه كعاشق غا أسير لها ، فإلال وهو ملك لها .

وإذا نحن أمام احتمالات ثلاثة فيما يتعلق بعبوديته التي يبرها لونه ، إما أنه لم يكن فيناً قط ، وهذا يخالف كل ما ورد عنه مؤكداً عبوديته ، وأنه انتزع حريته انتزاعاً من القبيلة ومن والده . وإما أنه لم يقل شعراً في تلك الفترة التي كان فيها فيناً ، ويجب أن نطمئن إلى ما ورد في

(١) الديوان ٧٥ .

(٢) فردين : مغردين . والرواقف : جمع راقفة وهي أسفل الآلية . وتستظار : تدبر .

(٣) أشاجع : جمع شجع وهو العظم الذي يصل الأصبع بالرسغ .

(٤) الديوان ١٠٩ .

(٥) الديوان ١٠٩ - الأملاني : دار الكتب - ٢٣٧ / ٨ .

معلته وسبب نظمها ، وهذا ما رفضه جميع الباحثين الذين لم يتصوروا أن يكون قول شعر بطوله عترة يكون قصيدة مهاسكة طويلة مكتملة البناء الفني ، ولو أن هذا لم يمنع بعض الباحثين من قبول ذلك التعليل الساذج ، فأعطوا به وقالوا إنه لم يقل شعراً في تلك الفترة من حياته^(١) . والإجمال الثالث أنه ترتفع عن اليهودية فرفض تسجيلها على نفسه في شعره . ونحن نميل إلى الإجمال الثالث ، ونرى أن عترة حاول أن يبرز في شعره مركزه في القبيلة في المرحلة الثانية من حياته ، فهو يقول في يوم القيامة مصوراً جيش عيس^(٢) :

يَقْلَعُهُ قَتْسٌ مِنْ خَيْرِ عَيْسٍ أَبَوْه ، وَأُمُّه مِنْ آلِ حَامِ
صَجُورٌ مِنْ بَنِي حَامٍ يَزِيحُ نَوْحَ كَانَ جِيْنَهَا حَجَرٌ الْمَقَامِ

فهو قائد جيش عيس ، وأبوه من خير عيس ، وأمه لم ينف نسيها فهي من آل حام . ويقول في موضع آخر عندما حاول قيس بن زهير أن يتقص عما فعله يوم هزمتهم قيس^(٣) :

نَادَيْتُ عَيْساً فَاسْتَجَابُوا بِالْقَتَا وَبِكُلِّ أَيْهَضٍ صَارِمٍ لَمْ يَتَجَلَّرْ

فهو قائدهم يناديهم فيجيبوه ، ويتقدمهم للهجوم على الأعداء ، إلا أننا نسمعه في موضع آخر يتحدث عن بطوله فيقول :

يَدْعُونَ عَتَرَ وَالرُّمَاحَ كَأَنَّهَُا أَشْطَانٌ يَشِي فِي لَبَانِ الْأَدَمِ

ثم يردده بيت آخر يكشف عما كان يعاني من ألم بسبب شكر قبيلة عيس له ، وعدم إعترافيهم الفعل به أكثر لهم فيقول :

وَلَقَدْ شَقَى نَفْسِي وَأَيْسَرَا مَقْعُهَا قِيلُ الْفُؤَادِ بِسِ وَبِكَ ، عَتَرَ أَقْدِمُ^(٤)

وتشبهها بالسادة ، سادة عيس ، وهروياً عما يعانيه ، وكرر على صفة من صلتهم وهي معاقرة الحمار ، فذكرها في شعره ، ولكنه لا يفلح وحده ، فعرضه والحمل يكلم^(٥) :

(١) الزيات : تاريخ الأدب العربي ٤٨ - حسن القرشي : شاعر بني عيس ٣٥ -

(٢) الديوان ١٥٩ -

(٣) الديوان ١١٨ -

(٤) الديوان ١٥٣ -

(٥) الديوان ١٤٨ - ١٤٩ -

ولقد شربت من المدافع بعدما ركد المواجه بالثوب المكنم^(١)
 بزجاجه صفراء ذات أسرة قُرئت بأزهر في الشمال مُقَدَّم^(٢)
 فإذا شربت فإني سَتَيْتُكَ مالي وعرضي وانزلت بكلم^(٣)

وتبقى بعد ذلك مشكلة تورية وتلك مشكلة السب ، فهو هجين نصفه غير عربي ، ولم يخف ذلك في شعره ، بل أظهره وحلول إقناع نفسه والناس بأنه بفعاله خير من مُعِمّ قول ، وإن نصفه عبي ، والنصف الآخر حامي ولكنه بفعاله يحمي شطره الآخر من قبل أنه :

إني امرؤ من خير عبي متصباً شطري ، وأحمي سائري بالتصلي

ويقول في نفس القصيدة :

وإذا الكنية أحتجمت وتلاخظت ألفتُ خيراً من مُعِمّ تحولي^(٤)

وهو يهجم على الأعداء وهو يرمز معترفاً بنسب من جهة أنه فيقول :

أنا الهجين عترة كل امرئ يحكي حيوته^(٥)

وهكذا نرى أن عقدة اللون جرّت عليه عبوديته والأعمال الخفية التي كان يقوم بها في الفترة الأولى من حياته ، كما جرّت عليه طليقة حياته تعالي السادة البيض عليه . ونستطيع أن نعدّ من آثارها السلبية عليه أنها أثرت في علاقته مع المرأة ، ولكنها كانت خيراً عصباً لأنها أعطته نوعاً من التحدي ، ذلك التحدي الذي خلق منه فارساً متميزاً ، لم يكن نبراساً لفارسان العصر الجاهلي ، بل نموذج الفارس العربي على مر العصور ، وإلا لما كان الرسول ﷺ يقول وما وصف لي أعرابي قط فأحييت أن لوام إلا عترة^(٦) .

(١) ركد المواجه : ركدت الشمس وقام كل شيء على ظله . والتثوب : الدينار والدرهم ، وقيل : الكأس ، وقيل : البعير لها . وسلم : فيه علامة .

(٢) ذات أسرة : ذات طرائق وخطوط . وأزهر : يريق من فطة أو رصاصي ومقدم : مشدود لونه بخرقة .

(٣) بكلم : يجرح .

(٤) الديوان ١١٩ .

(٥) الديوان ٩٢ .

(٦) الأغمي - دار الكتب - ٨ / ٢٤٣ .

والعامل الرابع الذي طبع شخصيته بطابع مميز ، هو حبه لعبلة ، ذلك الحب الذي رأى فيه بعض الباحثين^(١) ظاهرة مرضية أخذت على الشاعر كل أنظار نفسه ، وهو حب كأنه نوع من السقم ، لأنه شفي به أكثر مما سعد ، وكانت عبلة تسمعه ما يكره ولم تكن تحفظ هيبته . بينما يرى فيه باحث آخر^(٢) طريقاً ملكه لبلوغ مأربه وهو الارتفاع إلى مستوى أبناء السادة الأحرار ، فقد وجد المرأة العربية طريقاً يسلكه ، فبدأ بزوجة أبيه ورلويها عن نفسها ، ثم بدأ بتغنى بحبه لعبلة . ولقد فعل كل ذلك للتغلب على عقدة النفس التي يعاني منها .

ويمكن قيل إلى أن المرأة كانت حائزاً له لا نوعاً من السقم ، وأنه شغل بالقروسية أكثر مما شغل بالمرأة ، ولم يكن يعنيه جسد المرأة بقدر ما يعنيه الجانب الروحي ، وربما كان يحس أن المرأة الحرة تتعالى عليه ولكنه لم يكن يظلم لها ، ولم يصلنا من شعره ما يشعرنا بذلك . ولقد نسبها في غمرة انتصاراته . لقد شغلته حروبه ومحاولة إثبات وجوده عن أي شيء آخر . ولا ننسى أنه أحب عبلة ، ولكننا نفي أن تكون شغله الشاغل . ولعل الذين حاولوا إبراز موضوع حبه قد تأثروا بكتابات سيرته الذي ركز على حبه ومهر بحرب داحس سريعاً .

والعامل الخامس الذي أثر في شخصيته هو الشعر ، فالشعر كان سلاحه كما كان فرسه وسيفه ودرعه وسلاحه ، يدافع به عن نفسه وعن قبيلته ، كما يدافع بالسلاح ، ويصور به مواقفه مع قبيلته في صراعه مع صراعه معها كما يصور به بطولاته ، وغلجات نفسه . ولم يصلنا عشرة غير المصور بهذه الصورة الواضحة للعالم لولا شعره ، فقد كان شعره عاملاً هاماً من العوامل التي أوضحت الكثير من جوانب شخصيته . وهو عند أحد الباحثين^(٣) أسلماً ارتقى به إلى درجة السادة ، وحل به عقدة كان يعاني منها . ولكننا نرى أن هذا الشعر كان وسيطه إلى التأثير على السامعين وإلى نشر مآثره بين الناس . بل لقد هدّد بهذا الشعر حين توعد بني العُشْرَاء الذين قتلوا قرواشاً فقال :^(٤)

سَيَأْتِيكُمْ عَنِّي وَإِنْ كُنْتُ نَاقِيًا دُخَانُ الْعَلَسِيِّ دُونَ بَيْتِي يَذْوَدُ^(٥)
فَصَالِدٌ مِنْ قَوْلِ امْرِئٍ يَحْتَلِيكُمْ بَنِي الْعُشْرَاءِ فَارْتَدُّوا وَتَقْلَدُوا^(٦)

(١) عبد بدوي : الشعراء الصوري ٢٢٨ . (٢) محمود حنفي : سيرة عشرة ٥٧ .

(٣) محمود حنفي : سيرة عشرة ٥٧ . (٤) الديوان ٤٧ - ٤٨ .

(٥) العَلَسِيُّ : ضرب من شجر الرمل وليس يحمض له دمان شديد . وبلويد : لسان يعني اللجاء .

(٦) يحتليكم : احتلني فلان النمل : إذا اتعله ، ويحترق بالليل : يحرق من شائمه فكانهم من موطن النمل ، وبني العُشْرَاءِ : الذين قتلوا قرواشاً العبي .

وعندما حاول قيس بن زهير أن يغيث من شأنه كان شعره سلاحه . وعندما عرض به عماره بن زياد كان الشعر سلاحه أيضاً يعرض به يابن زياد . وكذا فإن الشعر لا ينظمه إلا العربي الذي ينتمي إلى الأرومة العربية ، والفارس الذي قضى معظم عمره تحت طياً سهوة جياده . وبذا فإن هذا الشعر كان دواعياً وإلياً له كما كان سيفه وفرسه ووجهه .

وبعد هذا العرض السريع للعوامل التي أثرت في تكوين شخصيته بحق لنا أن نتساءل ما الشخصية التي كونتها تلك العوامل ؟ ونستطيع الإجابة عن هذا التساؤل بشيء من التركيز لأننا سنعرض لبطولته في موضع آخر فنقول إن هذه العوامل خلقت لنا فارساً عربياً نموذجاً للفارس في ذلك العصر وقدرة للأجيال التي تلت . فهو يجمع بين عوامل الفروسية المختلفة ، قوة في الجسم ، وحسن استعمال للسلاح بالمران والقدرة ، وخبرة شديدة اكتسبها بالمران بعيداً عن أعين الرقباء ، ثم استكمل بنامها في ساحات القتال . أي أنه جمع بين القوة الفطرية والقوة المكتسبة ، كما أنه أضاف إليها قوة فكرية تلك عليها تلك النصوص المتناثرة التي تصوره لنا فارساً يحسن الأمر وليس بالفارس الشهور الذي يعتمد على القوة الجسمية فحسب .

كما تتميز قروسية بأنها كانت تسندها قوة أخرى لا تقل أهمية عنها ، وتحتي القوة القولية ومملكة الشعر التي أسهمت إلى حد كبير في نقل أساميس هذا الفارس في شتى المواقف إلى الناس ، كما أنها مكنته من الدفاع ضد كافة الخصوم من داخل القبيلة وخارجها ، كما أسهمت في إنصاته .

وتتميز قروسية محترمة بالمثل العليا والقيم التي كان يحرص عليها ، فهو يكره الظلم ، سهل الحيلة إلا إذا ظلم فلذا ظلم فإنه يندو إنساناً آخر ، وهذا يتماشى مع خط القروسية الذي يجلوب الظلم :^(١)

أَتُنِي عَلَىٰ مِمَّا عَلِمْتَ فَإِنِّي سَهَّلُ خَالْفَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمِ
فَإِذَا ظَلَمْتُ فَإِن ظَلَمِي بِاسِلٌ مُّرْمَدًا أَكْبَهُ كَطَعْمِ الْعَلْفَمِ

وحسرة الفارس بالدم على الحرب غير هياب ولكنه يعف عند المظنم ، فلا هم له إلا لتحقيق النصر :^(٢)

يَجْسِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقْعَةَ أَنِّي أَغْنَى الْوَلَى وَأَعْفُ عِنْدَ الْمُظْمَرِ^(٣)

(١) الديوان ١٤٨ .

(٢) الوقعة : الوقعة . والولى : الصوت والجهلة ثم ظلم الصوت في الحرب .

فَأَرَى مَغَانِمَ لَوْ أَشَاءَ حَوِيَّتُهَا فَيَصْدُقُنِي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكْرُمِي

وهو حين يقدم بعد انتجاع فلانة لا يتم بعد ذلك على فعله : (١١)

وَإِذَا حَلْتُ عَلَى الْكَرِيمَةِ لَمْ أَقُلْ بَعْدَ الْكَرِيمَةِ لَيْسَنِي لَمْ أَفْعَلْ

والفارس ينبغي أن يكون عفيف اللسان لا يشتم الناس في أعراضهم ، فساحة الوفي هي
الفصل : (١٢)

وَلَقَدْ عَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَذُرْ لِلْحَرْبِ دَائِرَةً عَلَى ابْنِي فَصَنَعْتُمْ (١٣)

الشاعير عيرضي ولم أشتبهها والناسفونين إذا لقيتهما دمي

والفروبة تتطلب العفة في كل شيء ، كما تتطلب نفساً آية تترفع وتصبر ولا تذل أبداً :

وَلَقَدْ أَيْتُ عَلَى الطُّسْوَى وَأُظْلَمْتُ حَتَّى أُنَالِ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

وهذا البيت هو الذي جعل النبي ﷺ يقول عند سباحه له (١٤) : ما وصف لي أعرابي قط
فأعجبته أن لزمه إلا عشرة . وترتبط الفروبة بالكرم ، فالكرم من شياكل الفارس ، وهذا عشرة
يقول : (١٥)

وَإِذَا صَحَّوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَالِي وَتَكْرُمِي

وهو لم يكن كريماً بالقول فحسب ، بل إن رواة ديوانه يعدوننا أنه كان لا يكاد يمسك أبداً
حتى يعطيها إخوانه ويقسمها في الناس (١٦) .

ويظف أمام المرأة هذا الموقف الكريم نفسه ، فكثيراً ما كان يسي النساء ، ولكنه لم يكن
يرأوه السية عن نفسها ، بل يدع لها حرية لتقبله زوجاً أو ترفضه ، فإذا ما قبلته أنى إلى أهلها
صدأها (١٧) :

(١) الديوان ١٢٠ .

(٢) الديوان ١٥٤ .

(٣) ابنه صمصم : هرم والحصين .

(٤) الديوان ١١٩ . وانظر حاشية الصفحة نفسها .

(٥) الديوان ١٤٩ .

(٦) انظر مقدمة التمهيلة الرابعة ص ٧٥ - وشرح معطكة لأبي الأباري - والشعر والشعراء ١ / ٢٥١ .

(٧) الديوان ١٨٥ .

ما استفتت أنسى نفسها في موطنها حتى أوفى مهرها مؤلاها^(١)

وهو يحدثنا أنه دائماً يقض الطرف عن جزائه حتى لا يؤذيه بنظره :^(٢)

وأغض طرفي ما بدت لي جلوتي حتى يوارى جارتني ما واهي

وهو إنما يفعل ذلك فلأنه لا يتبع هوى النفس ، بل يكفها ويغطيها عن هذا الملأب أو ذلك الذي قد يلتمسه صغير النفس . وكان عترة يفعلته هذه إنما يبدو وكأنه « عاهد نفسه الكرمية أن يرد للسياة اعتبارها وكرامتها أولاً قبل أن يقرها ، وأما امرأته جارة فإن وقاه له جعله لا يمد يده إليها . وهذا « قمة المجد النفسي الخلفي الذي لا يقل روعة عن المجد الخارجي الذي أحرز »^(٣)

والفارس الأبي ليس بأنني فلما ما دعاه فارس مكروب لتجده لابه ، فليس المهم أن يحقق النصر لذاته بل ينبغي الترفع عن الأهلية ، فقد حدثت عن يوم شغب جبلة فقال مصوراً ذلك :^(٤)

ومكروب كشفت الكروب عنه بضربة فوصل لما دعاني
دعائي دعوة الخيل فغري فها تحري أباسمي أم كتاني

إلى أن يقول لنا ما فعله :

ففرقت المواكب عنه قهراً بطعن يسبق الشرق البائي

وتختلط الحماسة بالحلب في حيلة عترة وفي شعره ، فهو أبداً على صهوة جواده يكتبون ينار الحرب ويليق الأعداء طعم الردى ، ولكنه أبداً يذكر حيلة وقرن ابتسامة تفرها بصورة ماثلة أمامه هي صورة يريق السيف حيناً يمشقه الفارس :^(٥)

ولقد ذكرتملك والرماح نواهل مني ويضئ الهيثم فخطير من دمي
فوددت ثقيل السيول لأنها لمعت كبارق ففسرك المتسمر

ويصف الدكتور طه حسين عترة فيقول « وفي عترة معنى الرجولة الكاملة ، فهو رقيق رقة لا تنهي إلى الضعف ، وهو شديد دون انتهاء إلى العنف ، وصاحب شراب دون الإفراط إلى

(١) استلم الأتى : راودها عن نفسها . وبولأها : سبها .

(٢) القديان ١٨٥ .

(٣) شوقي خفيف : البطولة في الشعر العربي ٣٠ .

(٤) القديان ١٧٨ .

(٥) القديان ١٥٠ .

إلهام الخلق والبرقة وصاحب صحودون أن ينهي به الصبح إلى التقصير عما ينبغي للرجل الكريم من العطاء ، وهو مقدم إذا كانت الحرب ، حليف إذا قسمت الغنائم ^(١) .

ويعبر الدكتور شوقي حليف مجاهد معاني البطولة الحرة والنفسية والخلقية في شعره السبب في تنصيب العصور التالية لعصره مثلاً للبطولة العربية وكأنه أصبح الناطق عن شعرائها ^(٢) .

عنترة يظل عيس في حروبها

أخلصنا آنفاً إلى أن عنترة قد تضارفت عدة عوامل في تكوينه الفطري ، فغداً فارماً معلماً ، ومثلاً يُتلى في الأجيال التالية له ، ولكن الأمر يحتاج إلى وقتة لنرى مدى اعتراف قومه بفروسيته وبزعامته لهم في المعارك التي خاضوها ضد خصومهم . وسوف نعرض لثلاث مجموعات من وجهات النظر لنخلص في النهاية إلى نتيجة تقس عليها ونطمئن إليها .

١ - قال أبو عمرو الشيباني : « غزت بنو عيس بني ليم وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت عيس ، وعليهم قيس ، فوقف لهم عنترة ، ولحقهم كبكة من الخيل فحانئ عنترة عن الناس . فلم يصعب عليه . وكان قيس سيدهم ، لسانه ما صنع عنترة يومئذ . فقال حين رجع : « والله ما حمى الناس إلا بين السوءاء . وكان قيس أكرماً . فيبلغ عنترة قوله ، فقال يعرض به » : ^(٣)

٢ - وورد في مقدمة المعلقات « وجلس عنترة يوماً في مجلس بعدما كان قد أبلى واعترف به أبوه واعتقه فسابه رجل من بني عيس وذكر سوانه وأمه وإخوته . فسبه عنترة ولحق عليه وقال لها قاله له : « إني لأحضر الناس وألوي الغنم ، وأخف عند السائلة ، وأجود بما ملكت يدي ، وأفضل الحطة الصياء . . . » ^(٤) .

٣ - واستلزام عنترة نفر من قومه وبقاء آخرون ، ففي ذلك يقول عنترة قصيدته يعتد فيها بلاءه وأثارة عند قومه ^(٥) .

(١) حديث الأربعة - طه حسين / ١٥٦ .

(٢) البطولة في الشعر العربي - شوقي حليف / ٣٠ .

(٣) مقدمة القصيدة في الديوان ١١٨ .

(٤) شرح القصائد السبع الطوال ٢٩٣ .

(٥) مقدمة قصيدة في الديوان ١٩٠ .

٤ - وجاء في مقدمة قصيدة له في الديوان « وكانت بين حشويين عبارة بن زياد ملاحظة . فقال يذكر أياه التي كانت له في حرب داحس والغبراء ، ويذكر يوماً انهزم فيه عيس قُتبت من بين الناس ، فمِنع الناس حتى تراجعوا ، وكان عيساً أرادته النزول بيني سليم في حشرهم . فبلغ ذلك حليفة بن بدر الغزاري . فتبع بني عيس فهزمهم واستقل ما كان في أيديهم . فلم يزل عترة دون النساء واقفاً حتى رجعت عيل عيس ، وانصرف حليفة حتى انتهى إلى ماء الهابة . . . »^(١) .

٥ - وجاء في الأغاني « سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخطيئة : كيف كنتم في حرككم ؟ فقال الخطيئة : كان قيس بن زهير قيتاً ، وكان حازماً ، فكنا لا نعصيه . وكان قارسنا عترة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا أحجم »^(٢) .

٦ - وجاء في الأغاني « قيل لعترة : أنت أشجع العرب وأشدها ؟ قال : لا . قيل : فيم إذا شاع لك هذا في الناس ؟ قال : كنت ألدم إذا رأيت الإقدام عزماً ، وأحجم إذا رأيت الإحجام عزماً ، ولا أدخل إلا موضعاً أرى لي منه مخرجاً ، وكنت أحمى الضعيف ، فأخبره الضربة الحائلة يطير لها قلب الشجاع فأتني عليه وأقتله »^(٣) .

٧ - ويقول عمرو بن معد يكرب « ما أبالي من لغيت من فرسان العرب ما لم يلفني حراًها وبعينها ، يعني بالحريين علم بن الطفيل وعية بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدين عترة والسكيت »^(٤) .

٨ - ويقول عترة :

ناديت عيساً فاستجابوا بالقنا ويكل أبيض صارم لم يتجمل^(٥)

٩ - ويقول أيضاً

يقدمه فتى من خير عيسر أبوه ، وأمه من آل حامر^(٦)

١٠ - ويقول أيضاً

(٢) الأغاني / كتب ٨ / ٢٤٤ .

(٤) الأغاني / كتب ٨ / ٢٤٦ .

(٦) الديوان ١٥٩ .

(١) الديوان ١٥٩ .

(٣) الأغاني / كتب ٨ / ٢٤٤ .

(٥) الديوان ١٦٩ .

ولقد شكى نثسي وأبشراً سقمها قبل الفوارس وثك عترة أقدم^(١)

..

فتمن أمام تصوص مختلفة ، ولكنها في حقيقة أمرها يمكن ودعا إلى مجموعات ثلاث ،
للمجموعة الأولى تلك التي تشير إلى عدما اعتراف قوم عترة ببطولته وقيادته لفرسانهم في
الحرب ، ولكنها تعترف ضمناً له بهذا الشرف ، ففي النص الأول كان نثسي بن زهير عليهم
وكان سيدهم ، وإذاً لما مركز عترة؟ أغلب الظن أن الأهم في الجمالية كانت تطلب رئيساً
للقوم في اليوم كما يكون لليوم لفرسانه الذين يقومون للقاتلون ويبقى للرئيس صفة الرئاسة
والمشورة . ولكن قيساً ساءه أن يكون عترة العبد هو الذي دافع عن الناس .

وفي النص الثاني ما يشير إلى بطولة عترة التي أجبرت أباه والقوم على اتحاق بهم ، ولكنه
يشير إلى أن بعض القوم يرفض الاعتراف له بذلك . وفي النص الثالث كذلك ما يشير إلى أن قوماً
من قبيلة رفضوا الاعتراف به لذا لهم وحاولوا الانتقام من شأنه مما جعله يرسل عن عيس ،
ولكنه ذكرهم بمناقبه وببلائه في الحروب .

ويرينا النص الرابع خصماً أنزل لعترة هو عمارة بن زياد أخو الربيع بن زياد أحد قادة
حرب داحس فهو يرفض الاعتراف لعترة بالفضل مما جعل عترة يعلد لهم بطولاته في حرب
داحس والخيراء .

تلك هي تصوص المجموعة الأولى وهي تبين لنا مدى تعدت القوم ورفضهم الاعتراف
بفضله وبشجاعته وببطولته اعترافاً رسمياً ، ولكنهم يعترفون بذلك اعترافاً واقعياً ، فهو اعتراف
مستتر منهم رغماً عنهم .

وإذا ما انتقلنا إلى التصوص التي يروينا فريق منتصف من قومه ومن خارج حدود قبيلة ،
فلنا نجد الخطية يعترف بنثسي بن زهير سيداً لهم بطبعونه إن أبدى رأياً أو مشورة ، ولكنه
يضيف بأن عترة كان فارسهم للمقدم عليهم ، ولم يكن فارساً فحسب بل فارساً محكماً يعرف متى
يجعل حل الأعداء ومتى يصجم عنهم ، وكان لفرسان قومه بطبعونه . فهم بطبعونه كما يطبعون
قيس بن زهير كل في حدود اختصاصه .

ولهذا النص أهمية كبرى في أنه يؤكد وجود عترة كشخصية تاريخية حقيقية ، كما يؤكد أن

(١) الديوان ١٥٤ .

عترة كان في تلك الحروب حراً كواحد منهم وإلا لما سمح له بقيادتهم ، فالعرب لا تسمح لعبد بقيادة فرسان القبيلة .

لما النص السابع فهو اعتراف من خلع حدود القبيلة بفروسية عترة لأنه يأتي من فارس زييد عمرو بن معد يكرب الذي أمرك الإسلام وأسلم وأهل في حرب الفتح الإسلامية .

أما المجموعة الثالثة فهي نصوص على لسان عترة ، ومن الديرجي أن يحاول عترة فيها إثبات ما حلول بعضهم إنكاره ففي النص السادس يرفض عترة الفارس للتواضع أن يعترف بأنه أشد العرب وأشجعها ، ولكنه حينها يسأل عن السر في شهرته وفروسيته يجب بأنه كان فارساً عنكاً ذا تجربة ، فهو يقدم حين يرفع الإقدام ، ويجمع إن رأى فيه عزماً ، ولا يضع نفسه في موضع إلا إذا عرف كيف سيخرج منه ، كما يعتمد التأثير النفسي في القتال ، فهو يعتمد التأثير لأنه يخطر فارساً عادياً فيقتله بشرية شديدة مما يؤثر في نفسية الشجاع فتزهد فرائصه مما يمكن عترة منه . وبعض آخر فإن عترة يجمع القوة الجسمية إلى استعمال الفكر والتدبير الأمر والتخطيط ، ثم يضيف إليها التأثير في الأعداء .

أما النصوص الثلاثة الأخيرة ففيها تقرير من عترة بأنه كان قائد فرسان قومه في لقاءهم مع الأعداء ، بلا منازع ، وأن ذلك عزاءه الوحيد ، والذي يشفي نفسه من عقبتها .

ويحسبنا ابن حزم أن حُومر بن علي بن ربيعة فارس بني عقيل دعا عترة إلى المبالزة قائلاً له : أبرز لي ، أيها العبد ، فإن قتلتك فلاخين أصحابك بعدك ، وإن قتلني رجعت بأهل قومي ، فلم يقدم عترة على مبالزته .^(١) .

وهذا النص لا يشير إلى حين عترة بل ربما يؤيد ويؤكد سياسته بأنه لا يقدم إلا حين يكون الإقدام عزماً ، كما أنه اعتراف غير مباشر بزعامة عترة لفرسان قبس لأنه إن قتله فليخين أصحابه بعده .

ويذكر حاتم بن الطفيل في قصيدة له أن عترة فرّ في غارة لعمرو على بني عيس تركاً عيلة وعيره بذلك فقال :^(٢)

ونجنا بعترة الأعبر من الرقوى يسوي على حجله هوي الأجدك^(٣)

(١) ابن حزم : جهرة أساب العرب ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٢) ديوان حاتم بن الطفيل ٩٣ .

(٣) الأنحر: قرنه : وهو هرباً : انحط إلى الخس ، انفضى . والأجدل : الصخر .

وَسَرَكْتَ حِمْلَةً فِي السَّوَاءِ لَفْتَةٍ بَاتُوا عَلَى كُفْرِهِ الْخِيُولُ الْجُسُولُ^(١)

وفي هذين البيتين ، إن صحت نسبتها إلى محاصر بن الطغتمل ، اعتراف بقلة عترة
لقرسان عيس ، لأنه لم يكن مترجماً من حملة حتى يكون مسؤولاً مباشراً عنها ، وإلا فالسؤولية
لأنه قائد فرسان القبيلة المسؤولين عن حماية الحمى ونساء القوم وتجمعهم . وتبقى مسألة فراره ،
فهي تختمل الصدق والكذب . فربما كان عترة يخرج الحمى في غارة هو وقرسان عيس ، فجاء
عمر وقرسانه وأخي خلوف ، وربما وجد عترة في ترك ساحة القتال غير المتكافئ بسبب عنصر
المفاجأة ، القرصة في انقاذ لرواح قرسان قومه .

ويستغل بعد هذا إلى الحديث عن حرب داحس ، قبل أن نخفي في الحديث عن مشاركة
عترة في حروب قومه .

حرب داحس والغبراء :^(٢) .

قبل أن نخوض في ذكر هذه الحرب التي دامت أربعين عاماً نود أن نشير إلى بعض
الملاحظات ، وأولها أن اعتبار هذه الحرب تخضع ، مثل غيرها من الحروب في ذلك العصر ،
لحالات كثيرة في الجزئيات ، فليس هناك اتفاق على الفراس السابق ولا على عدد المارك وأسماء
القتل والقاتلين . ومع أن هذه الحرب جرت إليها جميع رجال القبيلتين فهي لم تعد رجالاً يفكرون
بحكمة وتعمل بمعون الصلح فكانت خالفتها مشهودة يوم وقف المربون يدفعون من أموالهم
ديات القتل التي بلغت ثلاثة آلاف بعير .

ولقد أكثر شعراؤهم من ترويض إسم يغيث في قصائدهم متوخين لتذكير القوم برابطة الدم
والقرابة لأن يغيثاً كان أبا عيس وذيبيان وأخوه ، فالناطقة الذهبية يقول :^(٣)

صَبْرًا يَغِيثُ بْنُ وَرَيْثٍ لَهَا رَحِمٌ حَيْثُمُ بِهَا فَأَنَا عَشْتُكُمْ بِجَعَجَاعٍ

(١) السواء : الوسط ، أي بينهم . والجسول : من الجسولان .

(٢) اعتمدنا في دراسة هذه الحرب على المصادر التالية : أمثال الضبي ٢٦ - ٤٤ الأغاني / دار الكتب -
١٧ / ١٨٧ - ٢٠٨ - الطلائع / ١ - ٨٣ - ١٠٨ - ابن قتيبة : المعارف ٦٠٧ - ابن الأثير : الكامل في
التاريخ / ١ - ٥٦٦ - ٥٨٣ العقد الفريد ٥ / ١٥٠ - ١٥٩ - ابن رشيح : المعتمد ٢ / ٢٠٢ - ٢٠٧
البيهقي : مجمع الأمثال ٢ / ٥٣٣ ، ٥١٩ - عزارة الأدب / ١ - ١٢٨ - نهاية الأدب / ١٥ / ٣٥٦ وما
بعدها - البكري : معجم ما استعجم ٢ / ٥٣٢ ، ١٠٢٤ / ٢ - ٣٦٥ .
(٣) ديوان الناطقة / تحقيق شكري فيصل ٢١٦ .

ويكرر ذلك قيس بن زهير فيقول :^(١)

فيا ابني بغرض راجعاً السلم قسناً ولا تُشعيتا الأعداء بفرق السُّلْمُ

وقد كانت ذبيان قبل هذه الحرب تدبر حروباً داخلية بين عشائرها بالإضافة إلى حربها مع عيس التي نشبت وما زالت الخلافات قائمة ، في حين كانت عيس مهادنة ، ومن المحتمل أن يكون مرد ذلك إلى قوة العائلة الحاكمة في عيس .

وإنما ما بحثنا في بطون الكتب التي اسعقتنا بأخبار القبيلتين عيس وذبيان فإنتا لا تكاد تعثر على خاتمة بينهما قبل حرب داحس . بل إننا نجد ذبيان تثار لعيس عندما أغارت عليها بتو جشم ، وقتل في تلك الغزوة عبد الله بن الصمة ، وذكرها عنترة في شعره فقال :^(٢)

فإن بكُ عبدُ الله لأقْسى فوارساً يردون حالَ العارضِ المُتَوَقِّدِ^(٣)
لقد أمكنتُ منكُ الأسنةَ حانياً فلم تحمِ إذ تُسعى قتيلاً يَمْتَدِّدِ^(٤)

وارتبط رجالهم مع بعض في علاقات اجتماعية طيبة وبصاهرة ، وقد رأينا أن الحارث بن ظالم المري قتل خالد بن جعفر نائل زهير بن جليعة ، وكانت كل منها تعتبر ما يلحق الأخرى من أنى أو عار هو عارها أو أنى يلحق بالقبيلتين . ويمكننا تلخيص العلاقة بينهما بأنها كانت علاقة دم وجوار . ولكن تلك العلاقة كان يشوبها ما نشب بينهما من تحاسد وتنافس على السيادة .

وهكذا فقد كانت أسباب الصراع بين القبيلتين مهيأة ، فالتنافس بينهما ، وضغط العامل الاقتصادي الذي كانت تعاني منه القبائل العربية ، والذي كان يشتد بسبب التجاور والخلاف على موارد الماء والكلأ .

وقد كان الرهان بمثابة الشرارة التي أشعلت نار الحرب بين القبيلتين بين قيس بن زهير وحليفة بن بدر ، ولن نخوض في تفاصيل ذلك الرهان ومقداره واختلاف رواياته ، وإنما يغتينا أن ذلك الرهان كان الإشارة التي أعلنت بدء الحرب بينهما فقد كان للقروض لو جري القرمان

(١) الليثاني : مجمع الأمثال / ٢ / ٢٤٤ .

(٢) ديوان عنترة ٤٦ - الشعر والشعراء / ٢ / ٧٥٢ .

(٣) الخلال : لواء الجيش . والعارض : ما سد الأفق من الجراد والنمل ، يريد به الجيش . والمتوكد : الذي له مضاعف ونشاط .

(٤) العاني : الأسير .

دون تصلي كمين فزارة لأحدهما أن يسبق فرس قيس بن زهير ، ولكن النتيجة انحلت وأحست عيس بأنها أقيمت ، وطالبت بالرهان فرفضت فزارة ، ولم ترفض وحسب بل طالبت هي بالرهان .

ولقد مال القوم إلى تجنب الحرب ، فطلب زهير ولو ناقة واحدة ينحرها فيطعم الناس حتى لا يقال إنه ظلم ، وهم بعض بني فزارة بإعطائه عيس ناقة ولكن قومه منعه ، وعندما قطعت عيس ابن حذيفة الذي ذهب يطالب بالرهان دفع السريح بن زياد العنبي دية الفزارة حسياً للتراع . وعندما قطعت فزارة مالك بن زهير طالبتهم عيس بالدية التي دفعوها دية لابن حذيفة رفضت فزارة .

ونستمع إلى سيد عيس ، ولقد هم في تلك الحرب ، وهو قيس بن زهير يتصل من مسؤولية عيس عن إشعال تلك الحرب فيقول :^(١)

إِنْ تَكُ حَرْبٌ فَلَمْ أَجْئِهَا جَتَّيْهَا صَبَّارْتَهُمْ أَوْ هُمْ

ويقول بعد مقتل حُل بن بدر يوم الحيلة :^(٢)

فَلَا كَانَتْ الْغُبْرَا وَلَا كَانَ دَاحِسٌ وَلَا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ رَهَانٍ

وعندما حلفت عيس إحدى القبائل ، وطالبهم القوم بدية حليف ، قال قيس سائطاً على تلك الحرب التي جعلتهم يرحلون عن ديارهم :^(٣)

لَمْ يَلِ اللَّهُ قَوْمًا أَوْشُوا الْخَرْبَ بَيْتًا سَقَوْنَا بِهَا مَرًّا مِنَ الشَّرِبِ آجِيَا^(٤)

وهذا شاعر آخر من عيس يشير إلى ذلك الرهان النحس فيقول :^(٥)

إِنْ الرُّبَاطُ السَّكْدُ مِنْ أَلٍ دَاحِسٍ جَرَيْنَ فَلَمْ يُفْلِحْشَ يَوْمَ رَهَانٍ^(٦)

ولتطالع الحرب ابن حذيفة بن بدر ، وتكبه له أم قرفة ، ولا تنسى الرهان وما جليه من ويلات فتقول :

(١) أمثال النسي ٣٢ . (٢) يقول : معجم البلدان ٨ / ٤٤٠ .

(٣) أمثال النسي : ٢٨ .

(٤) أوشوا : أشعلوا . وأجبن : ماء فاسد متغير اللون والطعم .

(٥) أمثال النسي ٤٤ . (٦) الرباط : الخيل .

فما يوم الرهان فُجِئَتْ فيه بشخصٍ جازٍ عن حدِّ الصفاتِ
ولا زال الصبحُ عليك ليلاً ووجه البدرِ مُسَوِّدُ الجهاتِ
ويا خيلَ السباقِ سبقتُ سماً مُدَابِّاً في المياهِ الجاريةِ^(١)

وعندما يقتل مالك بن بدر الفزاري ، وترثه ابنته سلمى ، ولا ترثس أمها إلا صورة
الرهان الذي أودى بأبيها فتقول :

فليتها لم يَشْرَبْ قط قطرة وليتها لم يَرْسَلْ لرهان^(٢)

وقد سألت جماعة من فزارة وعيس حليفة أن يفتك الرهان ، وصور ذلك أحد شعراء فزارة
فقال متحدثاً بلسان اللين لا يريدون الشر أن يعم : وهو أبو جعدة الفزاري :

آل بدرٍ دَعَوْا الرهَانَ فإنا قد مَلَكْنَا اللجَاجَ عندَ الرهَانِ
ودَعَوْا المرَّةَ في فزارة جراً إن ما غابَ عنكم كالعِيَانِ^(٣)

وقد بدا لنا من الروايات المختلفة لتلك الحرب أن فزارة عملة بحليفة ، قد ظلمت أخيها
عباً ، وقد حاول شعراء عيس أن يوضحوا ذلك ، فقال الربيع ابن زياد العبسي^(٤) :

فإنَّكْ حَرَبُكُمْ أَمْسَتْ عَوَاناً فإني لم أَكُنْ عَمَّنْ جَنَاهَا^(٥)
ولكنَّ وَلَدُ سَوْدَةَ أَرَقَّهَا وحشوا نَزَّهَا لِيْنِ اصْطِلَاهَا^(٦)

وعلى الرغم من كل ما أبداه أولئك القادة ، فإن الحرب استمرت بينهما أربعين عاماً ، ولم
يستطع أحد وضع حد لها ، وكانت كلها ألوشكت على الانتهاء أشعلتها العصبية وأثارها الشر .

وكانت بداية الحرب تأخذ شكل الغارات تقوم بها إحداها ضد الأخرى ، ثم كان لهم أول
يوم التفوق فيه وهو يوم العُيَّةِ أو القريب فهُزِمَت فزارة وقُتِل مالك بن بدر أخو حليفة ، وأمسك

(١) لويس شيخو : رياض الأدب ٤٠ .

(٢) أمثال العبي ٣٣ .

(٣) لين الأثيري : الكامل في التاريخ ١ / ٥٧٠ .

(٤) أمثال العبي ٤٣ .

(٥) الحرب العموان : التي قوتل فيها مرة بعد مرة .

(٦) ولد سودة : حليفة وقومه .

الربيع بن زياد بحليفة بن بدر وأسرته ، ولكنه منع قومه من قتله . وظل أسيراً حتى اجتمعت حلفاؤه وسعت في الصلح .

وقد اتفقوا على هدمهم القتل بعضها ، وأن يعقلوا دم مالك بن بدر ، وأعذرهم من قتل في هذه الواقعة ، وأطلق سراح حليفة ، فسألت سمعته في قومه .

وعندما تفاقم الشر بين القبيلتين ، اتفق بعض عشلاء القريظين على وضع حد لحقن الدماء ، فمضى الأسلع بن عبد الله العسبي فقصده سبيع بن عمرو بن ثعلبة وروهن لديه سبعة صبية لو أكثر . وشاء يتدبرون شؤون الصلح ، ونظمت العصبة لديه حتى وافته الثنية ، فسلحها لابنه مالك بعد أن حلوه من مغبة الضرب في هؤلاء العصبة وسلمهم إلى حليفة .

ولكن حليفة لم يزل يمدح مالكاً حتى دفعهم إليه ، فجعل يبرز كل يوم غلاماً منهم بالعمرية يضعه غرضاً أنباله ويرميه حتى يفرقه التبل .

وكان الربيع بن زياد قد نصح قيس بن زهير بالألمعوا يرهائن إلى خزاعة ، وفي ذلك يقول الربيع :

أقولُ ولم أملكُ لقيس نصيحةً أرى ما يرى والله بالغيب أعلمُ
أبقي على ذبيان في قسار مالك فقد حش جاني الحرب ثاراً تُفصرُ

ولما بلغ بني عيس ما فعله حليفة أنوهم بالهتفيرة ، فلحقهم بالحررة ، حررة البعصرية ، فقتلوا منهم اثني عشر رجلاً منهم : مالك بن سبيع ، وأخوه يزيد ، والحارث بن بدر ، وهرم بن ضمضم .

وبعد هذا اليوم دخلت الحرب مرحلة جديدة تميزت بالعنف ، وقد أصبح كل حي وانراً أو مؤثراً ، وتميزت أيضاً بدخول حلفاء ذبيان الحرب ، فقد دخلها كل من أسد وطى ، ويطون من غطفان . وقد حصلت عيس بما أشار به قيس بن زهير على قومه بترك الأموال والتعم والضعفاء واتخاذ طريق للمقاتلين غير طريق الأموال والتعم ليشغل الأعداء بجمع المال . وقد حدث ما توقعه قيس فشغل القزاريون بجمع الأموال ، فلهذا عيس وهم متفرقون فوضعت فيهم السلاح .

وهرب حليفة حتى استأثرت بجحر القهامة ، وكان اليوم حاراً ، فرس بنفسه في ماء الجحر ،

(١) العقد الفرید ٥/ ١٥٥ والفاخر ٢٢٥ .

وبعد أخوه حل بن بدر وغيره ونزعوا سلاحهم ، فأدركهم العبيسون وهم حل تلك الحال ، فحملوا عليهم وهم ينادون ليحكم ليحكم ، يريدون الصية الذين قتلهم حليفة ، فقتل في ذلك اليوم حليفة قتله قريش العبي وقُتل حل بن بدر فقتله الخواث بن زهير واسترجع سيف أخيه مالك .

ولم يزلت هذه الواقعة بالوحشية ، حيث مثلوا بالقتل ، وقطعوا رؤوسهم ، ولم يستمع قيس إلى صوت حليفة وهو ينشده الرحم ، ويقول له : يا قيس ابن العفوك والأحلام ؟ ونذهب بعض الروايات إلى أن قزارة خسرت ما يزيد على أربع مائة قتيل ، لذا فقد سبها بعضهم وقعة اليوار . كما خسرت عيس عشرين قتيلاً ولم يبق من أسرة بدر إلا حصن بن - بطة بن بدر الذي استقبله القوم لعيباء .

وعندما انتهت الواقعة ، والنطق كل من القوم أنفاسه ، ندب قيس حل قتل حليفة وأخوته ، وكأنه تذكر قوله له : لكن قتلتي لا تصلح خطفان أبداً . يقول قيس بعد هذا اليوم :

شَفَيْتُ النَّفْسَ مِنْ حَلِّ بْنِ بَدْرٍ	وسيفي من حذيفة قد شفاني
فإن ألك قد بررتُ بهم فكلبي	ظلم أقطعُ بهم إلا بنائي
فلا كانت القبرا ولا كان داحسُ	ولا كان ذاك اليوم يوم رهاج ^(١)

ويكي قيس حل بن بدر الذي قُتل في هذا اليوم فيقول مشيراً إلى ظلم بني بدر له والقومه :

تعلّم أن خيرَ الناسِ ميتٌ	على جُفَرِ المِيتَةِ ما يُرِيمُ
ولولا غُلْمُهُ ما زلتُ أهكي	عليه الدهرُ ما طلعَ النُّجُومُ ^(٢)

ويروي حذيفة فيقول مشيراً إلى مركزه في قيس جميعها ، وإلى منزله في نفسه :

أقامَ على المِيتَةِ خيرٌ ميتٌ	وأكرمُهُ حذيفةٌ لا يُرِيمُ
لقد فجمت به قيس جميعاً	موالي القوم والقومُ الصميم ^(٣)

وعلى الرغم من فجاعة عيس وقزارة يقتل حليفة ، فقد شفى قتله خليل العبيسين الذين مازالت صورة أبنائهم الذين قتلهم حليفة ماثلة في أذهانهم ، لذا فقد أنكروا القول في قتله وفي

(١) جملة أبي تمام شرح المرزوقي ٢٠٣/١ ، ومعجم البلدان - ياقوت ٨/ ٤٤٠ .

(٢) لسان النبي ٣٥ .

(٣) الكامل لأبن الأثير ١/ ٥٧٩ .

ما فعله به القوم ، ولم ينسوا أن يسيروا إلى قلعه وفيه . وقتله خلا مقعد الرئاسة في فزارة ، ولكن عيساً أحست بما فعلت ، وكره البعيد للذي ، وعتقته للرقبة .

ولم يجد نيس بن زهير سيد عيس بدأ من الخروج ، بعد يوم الهبابة ، هو وقومه إلى أرض بعلبة لكي تتوقف الحرب التي زادت ضراريتها وشملت أرضاً جديدة وتقاتل أخرى . وقد فعل ذلك أملاً في إحياء فرص للسلام ، وليتمكن سعاة الصلح من تهدئة النفوس ، وإن يتم ذلك إلا بالابتعاد مؤقتاً .

لما خيان فلم تخلف الحرب من زعمائها من يتدبر أمرها إلا سينان بن أبي حارثة المري الذي قادهم وجمع شملهم وأخذ يطوف في أحياء العرب متخذاً من مقتل جليظة ذريعة لتجديد الحرب والتأثر ، فقسم إلى شيان قطعان كلها ، وبني أسد وطى .

وكان نيس مازال في أرض عيس لم يرحل ، فأشار على قومه بعدم لقاء القوم ، ولكنه أشار أيضاً بإرسال الطلعائن والأموال إلى بني عامر ، ولا تعرض عامر لهم لأن عيساً يطلبهم بثار زهير بن جليظة ، ويبقى بعد ذلك المقاتلون ، ونصحهم بعدم منازلة القوم إلا إذا ألبوا إلا القتال ، وحدها يتأجزمهم المقاتلة ، وتكون الأموال في مأمن فإن ظفرت عيس فتكون لم تحسر شيئاً ، وإن هزمت كان الأهل والأموال في مأمن .

وقدمت ذبيان وحلفاؤها ، والتقى الفريقان على فلاة الجراجير ، وكثرت الضحايا من كلا الفريقين ، ثم التقوا في اليوم التالي لمزيدات الخسائر ، وظهرت في هذا اليوم شجاعة عترة . وعندما كثرت الضحايا تطير الناس من ستان بن أبي حارثة المري ، وتذكروا متعة جليظة من الصلح ، وتوقفوا عن القتال ، ثم توفقت ستان بعد ذلك بفترة لأن قومه فتروا فعاد إلى منازله .

وعند ذلك أحست عيس أن لا مقام لها في أرضها ، فقررت الرحيل ، فأخذوا طريق بني شيان بن بكر ، وقوا مجاورين بكرة إلى أن شرع غلباهم يتعرضون لأموالهم ، فعزموا على الرحيل ، فلحقهم شيان فتصدت لها عيس وهزمتها .

وسارت عيس بعد ذلك إلى هجر لمخالفة ملكهم معاوية بن الحارث الكندي للقلب بين الجون ، فزلقوا بجر وامشروا منها .

ثم حلوا على بني عيشي بن سعد بن زيد مناة وهم بالفروق ، وظلوا إلى جوارهم ، وقد أمهلهم بنو سعد ثلاث ليال فأقاموها ، ثم شلصوا عنهم ، فأتبعهم ناس من بني سعد ، فقاتلهم العيسيون فامنعوا حتى رجع بنو سعد وقد خابوا ولم يظفروا بشيء ، وكانوا قد هموا

بالغدر بعيس ، وقد خلد هذه الواقعة حثرة في شعره .

وسار بنو عيس بعد ذلك ، فرحلوا إلى كلب بعرعر ، فاجتمعت عليهم بنو كلب لمنعهم من ورود الماء ، وأرادت أن تغنمهم ، فاقبض القرينان وهزمت كلب وأُقتل رئيسهم مسعود بن مصاد الكلابي ، وغنمت عيس أموالهم وذرايعهم وخلد تلك الواقعة في شعره فارس عيس .

وسارت عيس بعد ذلك إلى الهامة وفيها بنو حنيفة ، ووجدت عيس في هذا الحى خير محير لهم ، لأن عبساً ترتبط بقرابة نسب مع حنيفة ، فحنيفة أخوال عيس ، ولعزة هذا الحى ومنعته . ومكثوا أطول مدة مكثوها محلولين لقوم حتى ذلك اليوم ، مكثوا ثلاث سنين ، ولكن القوم لم يحسنوا جوارهم وغبنوا عليهم . واضطرت عيس إلى الخروج من جوارهم سبعة في السير ثلاثة أيام بلياليها .

وراسلت عيس بني ضبة ، وكانت ضبة في تلك الأيام محلوب تهاً لأنها كانت تأكل من ضبة أبنائها قبل أن يتربوا ، فربحت ضبة في الاستعانة بعيس ، فقبلت جوار عيس ، ولكن ضبة عندما انقضى أمرها مع قوم لم تجد مهرباً للإبقاء على ذلك الحلف فافتعلت المشايقات لجريائها ، فاقبض القرينان وهزمت ضبة .

وخرجت عيس تريد الشام ، وربما كانت قاصدة الغساسنة خصوم بني ذبيان ، وتبتهت لذلك بنو عامر ، ففاوضت عيس في الانضمام والمحالفة معها ، فخالفت عيس بني شكل ، وهجاهم النابغة لجواررتهم بني شكل فقال :^(١)

لحي الله عبساً آل يُغَيِّرُ
كُلَّ حِي الكلابِ العادياتِ وقد فَعَلُ^(٢)
فأصبحَ حَسْمُ واللَّهْ يَفْعَلُ ذَلِكُمْ
يَعُزُّكُمْ مولى موالِكم حَجَلُ^(٣)

ثم قررت عيس الخروج من حلف بني شكل ، ونزلت إلى جوار بني عامر في ديارهم ، ومكثوا فيهم حتى هزمت الأحلاف كلها يوم شعب جلة . وهزمت ذبيان وقيم والأحلاف في ذلك اليوم شر هزيمة .

(١) ديوان النابغة / تحقيق شكري فيصل ٢١٤ .

(٢) لحي : قبح ولعن .

(٣) يعزكم : يهزركم ويغلبكم .

ثم فزت ذبيحان بني عامر وعيس يوم شعواء ، وأسرت في تلك الواقعة قرواش بن هني العبيسي ثم قتله بحذيفة عندما عرفته امرأة كانت متزوجة في عيس .

وقلت عيس في جوار عامر حتى كان يوم شواحيط ، فاعتقلت عيس مع حلفائهم لأنهم طالبوها بدية رجل من ططفان قتله يهودي وجده مع امرأته ، ورفضت عيس دفع دية ، وتذكر قيس بن زهير حاله وقومه وتذكر الذين تسببوا في تلك الحرب التي شردتهم كل هذا التشرذ فقال قصيده بذلك يقول :^(١)

لحي الله قوما أرشوا الحربَ بيثا سقونا بها مراً من الشرِّبِ آجنا
ويشير إلى الحادثة فيقول :

أَكْلَفَ ذَا الْحِصِينِ إِنْ كَانَ ظَالِمًا وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا وَإِنْ كَانَ شَامِلًا^(٢)
ولنسمعه يشير إلى تكرر القبائل المختلفة عليه وعمل قومه فيقول :^(٣)

إِذَا قُلْتُ قَدْ أَقْلَعْتُ مِنْ شَرِّ حَتَبِمْ لَقِيتُ بِأَشْرَى حَتَبًا مُبَاهِلًا^(٤)
فقد جعلت أكيادنا تحتويكم كما يحْتَوِي سَوْقُ الْعِصَاةِ الْكَرَازِنَا^(٥)

ويطغى التابغة تحسر قيس وما قاله فقال يرد عليه منتقيا :^(٦)

ابكر بكاء النساء إنك لن تهبط أرضاً تحيها أبدا
نحن وهنالك للجريش وقد جلوزت في الحى جتغفراً عددا

ثم إن بني عيس ارتحلوا عن بني عامر ، فصاروا يربطون بني تغلب ، فأرسلوا إليهم أن أرسلوا إلينا وقدأ ، فأرسلت إليهم ستة عشر وكيأ إليهم ابن الحنيس التغلبي قاتل الحارث بن ظالم ، وقد سرت تغلب بمجيئهم ، لأنهم يطلبون تغلب بنار ، وعندما أتى الولد بني عيس قال

(١) أمثال الضبي ٣٨ - الغنائص ١ / ١٠٠ .

(٢) ذا الحصين : الرجل القليل . وشامل : بعيد .

(٣) أمثال الضبي ٣٨ - الغنائص ١ / ١٠٠

(٤) حنيس : اسم ، والحنيسة : الرولسان في الحرب .

(٥) تحتويكم : يفضلكم . والعصاة : كل شجرة شوك . والكرازان : جمع كرز بن وهي الفأس الكبيرة .

(٦) أمثال الضبي ٣٨ .

قيس بن زهير انتسبوا لعرفكم ، وعندها عرف ابن الحنيس فتحلورا ، فقتله قيس بالخارث بن ظالم . وعند ذلك قال قيس مخاطباً قومه : يا بني عيس ارجعوا إلى قومكم فلهم خير أناس لكم فصالحوهم ، أما أنا فلا أجاور بيتاً ضطقتاً أبداً ، فلتحق بعمان فهلك بها .

ولم يرد لنا أبو حاتم وصية لقيس بن زهير يومى بها قومه فيقول : « وأناكم عن الرهان فإني به أتكلمت مالكا ، وعن البهي فإنه صرع زهيراً ، وعن السرف في الدعاء ، فإن قتل أهل الهبادة ألزمني الدار . . . ثم أنشد :^(١)

إن يومَ الهبادةِ أورتني اللدُّ لى فأصبحتُ ظالماً مظلوماً

وقرر الربيع بن زياد العودة إلى قومه ، ومعه بنو عيس ، ونسبهم يلوح بما فعله قيس به وعيس ثم احترك فيقول متعباً قيس بمسؤولية إشعال الحرب^(٢) .

حرقَ قيسُ علىَ البلادِ حتى إذا اضطروئت أجندما^(٣)
جنيهُ حربَ جناها فها تُفسرُج عنه وما أسلما^(٤)

محاولة الصلح :

وأرسلت عيس ولداً يسعى في الصلح مع بني ذبيان برئاسة الربيع بن زياد ، فوجد الوفد على الخارث بن عوف وعرفوه بأنفسهم ، وقال لهم الخارث : إن كنتم قد احتجتم إلى قومكم فقد احتاج قومكم اليكم . وتكلمنا هذه العبارة على أن الحرب كانت قد انتهكت الحيين ورفض كل منهما في إنجائها . وطلب منهم الخارث أن يتوجهوا إلى حصن بن حليفة بن بدر سيد ذبيان . فساروا إليه ، فأنطلق معهم إلى الخارث بن عوف ، وافق الطرفان على إنهاء الحرب المبررة وكان من بتوه الاتفاق أن يلتزم حصن فلا يفتد بالقرم بعد الصلح . وبخصوصاً وأن عيس ما زالت صورة الصية وما فعله والده بهم ماثلة أمامهم . وقد التزم حصن بدفع ذيات القتل من ماله ، كما التزمت عيس بدفع ما يفرضه عليها رجال الصلح . ويذكر وهب بن منبه^(٥) أن مكان

(١) العمرون والوصايا ١٤٤ .

(٢) أمثال الضبي ٤٠ - حسانة أبي تمام شرح للمزوني ٢ / ٤٨٤ .

(٣) حرق : الحب . وأجندم : أسرع في السير .

(٤) تفرج : تفرق ، وتكشف .

(٥) وهب بن منبه : التيجان ١٢٣ .

للتجار كان سوق عكاظ كعادة العرب آنذاك ، وكانت لجنة المفوض مكونة من عوف بن حارثة ، وحسن بن حليفة ، وهرم بن سنان مثلاً لعيس ، والربيع بن ضبيح الفزاري مثلاً لجميع الأطراف . وقد فرضت اللجنة غرامات بلغت في مجملها على عيس ثلاثة آلاف بعير ، ويبدو أن عيساً كانت قد أرقعها التجوال فلم تعد تلك ما تنلج من هذه الغرامات فتشارك في حملها الحارث بن عوف وهرم ابن سنان وحسن بن حليفة . وتم الإنفاق واصطلاح الحبان .

ويبدو أن بعض بطون ضبيان لم تكن راضية عن هذا الصلح ، لأنها أحست بأنها لم تأخذ بثأرها من عيس ، ومن هؤلاء المتنوعين حصين بن ضمضم المري الذي لم يحضر الإنفاق ، وامتنع عن دفع المديت الشربة عليه ، وتآمر القوم ، فقال الربيع : يا حصين طال الشر وغدر الدهر ، وقال عترة : يا حصين الحرب خير لي والصلح غير لك . فتهرب حصين قاتلاً له : أسكت يا عبد بني عيس ، ثم حل حصين بن ضمضم على رجل من عيس فقتله ، وكانت الحرب تتجدد لولا أن حصن ابن حليفة انحدر إلى عيس لأن القتل أحمه من فزارة ، فقام الحارث بن عوف فبحث بآبته إلى بني عيس ، فرضيت عيس بالدية واحتملها سنان بن حارثة ، وعرف ذلك اليوم بيوم لظن .

ثم إن عيساً تحركت تريد بلوغ ظهير قَلْبِي فسبقها إليه بنو لعلبة تريد منعها ورود الماء ، وتدخلت فزارة وبنو مرة محاولتين حجز القوم عن بعضها ، والسباح لعيس التي كانت شوت عطشاً ، يورود الماء . فابت بنو لعلبة وأكسبوا الأيمنوا الماء إلا إذا دفعت عيس مئتي عبد الحزري بن حذار ومالك بن سبيح فاضطرت عيس إلى دفعها .

وهكذا وضعت حرب داحس والغبراء أوزارها بعد أن دامت أربعين عاماً ، انسحبت عيس خلال تلك الفترة في مختلف أرجاء الجزيرة ، وببريت جميع الخلافات وحل الديات هرم بن سنان والحارث بن عوف ، وأخذ حملها زهير بن أبي سلمى في معلقته فقال :

بينا لنعم السيدان وجدنا	على كل حال من سحريل ومبرم
تدلركما عيساً وضيان بعدما	تقاتوا ويقوا بينهم عطر منشم
وقد قلنا أن نترك السلم واسعا	بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحنا منها على غير موطن	بعدين فيها من حقوق ومائم
عظيمين في عليا معد هدينا	ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
وأصبح يحسدي فيكم من الغلما	مفانم شنى من المال مزعم

تعفى الكلوم بالثمن فأصبحت
ينجمها قوم لقوم غرامة
ولم يريقوا بينهم ملء حجج^{١١}

ولم تكن عبس مثله في بعض سادتها مبالاة إلى الحرب مع ذبيان لأنها كانت تريد أن تغلظ
بحرب هوازن ، يقول الربيع بن زياد الحنظلي مخاطباً نيس بن زهير . ظلموك في جوارك وظلمتهم
في صفاتهم ، وقتلوا أخاك بآبائهم ، فإن يزل الدم بالدم فعسى أن تفلح الحرب أقم معك ، وأحب
الأمرين إلى مصالحهم وتغلظ بحرب هوازن^{١٢}

دور عترة في تلك الحرب :

لقد عرضنا من خلال حديثنا عن حياة عترة وبشخصيته بأن عترة شارك مشاركة فعالة في
حرب داحس والغبراء ، بل وإن تلك الحرب « البرقة التي انصهرت فيها مزاجها من الشجاعة في
القتال والصبر على مر الكفاح في سبيل نصرة مبادئ قومه ورفع شأن قبيلته »^{١٣} .

ولكننا هنا سنحاول إثبات دوره في تلك الحرب اعتماداً على أمرين ، أولهما نصوص من
خلال حديث الرواة والمؤرخين تشير إلى اشتراكه في أيام تلك الحرب ، وثانيها ما ورد في شعره
الموثق .

يقول ابن قتيبة^{١٤} : « وكان عترة قد شهد حرب داحس والغبراء فحسن فيها بلاؤه ،
وحصلت مشاهدته » ويتحدث ابن الأثير^{١٥} عن يوم ذات الجراجر فيقول « فلما كان اللقاء عادوا إلى
اللقاء فإقتلوا أشد من اليوم الأول ، وظهرت في هذه الأيام شجاعة عترة بن شداد . . . » .

ونذكر صاحب العقد الفريد ، وهو يتحدث عن يوم الرزيب ، عترة فقال^{١٦} « وقتل منهم
أبو الحصين المري قتله عترة الفوارس » .

(١) شرح القصائد السبع الطوال ٢٦ وما بعدها .

(٢) الكامل لأبن الأثير ١ / ٥٧٤ .

(٣) حسن القرشي : فارس بن عبس ٦٢ .

(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ / ٢٥٢ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١ / ٥٨٠ .

(٦) العقد الفريد ٥ / ١٥٣ .

وروي له البطلوسي والأصمعي والأعلم الشمتري قصيدة وذكروا في مقدمتها: وقال
بذكر يوم القُرووق ، وقد اشترك فيه عترة ، وكُتل في ذلك اليوم معاوية بن نزال جد الأحفد
ومطلعه^(١) :

ألا قاتل الله الطلوق البَواليا وقاتل ذكرائك السنين الحَواليا
وقسولك للشبيو الذي لا تناله إذا ما حَلَا في العيين يا ليت ذاليا
ونحن منعنا بالقُرووق نساءنا نُطَرِفُ عنها مُشعلات غَواشيا^(٢)

وجاء في الأغاني أن عمر بن الخطاب سأل الخطبة : كيف كنتم في حربكم ؟ فقال
الخطبة : كان قيس بن زهير ، وكان حازماً ، وكنا لا نعصبه . وكان فارستا عترة ...^(٣)

ذلك ما أسعفتنا به كتب التاريخ وكتب الأديب العامة ، فإذا ما اتقلنا إلى ديوان شعره ،
وجدنا رواة الديوان من الطبقة الأولى قدسوا لبعض القصائد بحيث أشربوا فيه إلى اشترك عترة
في بعض الحروب فقد ذكر أبو عمرو الشيباني أن عترة وقف عندما نهضت عيس وطلبتهم بنو
تميم ، حلفى عن الناس ، قلم يصيب ملبر ...^(٤) .

وبعدنا ابن الأثيري عن سبب قول عترة للملقة ، ويروي لنا قصة ذلك ، ويقول أن
عترة أول ما قال من الشعر يذكر قتل معاوية بن نزال وغيره ، وكان عترة يومئذ لا يقول من
الشعر إلا البيت والبيتون في الحرب^(٥) .

وجاء في مقلعة قصيدة أخرى في الديوان وهي تلك التي قالها يذكر أيلمه التي كانت له في
حرب داحس والغبراء ويذكر يوماً نهضت فيه عيس ...^(٦)

وأول ما يلفت أنظارنا في النصوص التي عرضنا لها أن كتب التاريخ تكاد تهمل عترة
إعمالاً تاماً ، فمن لا نجد ابن الأثير يذكره إلا عند حديثه عن يوم ذات الجرجار ، والشبي عندما
يتحدث عن تلك الحرب لا يذكره كمقاتل وإنما يذكره مرزوقاً لوثلاثا كشاعر يفتخر ببعض الأيام .

(١) ديوان عترة ١٩٢ .

(٢) ظرف : تود . ومشعلات : منتشرات . وغواشيا : صهجة بالقوم .

(٣) الأغاني / دار الكتب - ٢٤٤ / ٨ .

(٤) الديوان ١١٨ .

(٥) شرح القصائد السبع الطوال ٢٩٤ .

(٦) الديوان ١٥٦ .

أما ابن خنبة فيذكر أنه شهد الحرب وأبل فيها بلاء حسناً . وذكره ابن عبد ربه في يوم المرقب كفارس ، أما كشاعر فقد ذكره في غير ذلك اليوم .

وعندما يتحدث الخليفة عن عترة فزاة يعمم ولا يتخصص ، فهو فارسهم في الحرب ولكنه لم يتخصص تلك الحرب .

وحين ننقل إلى الرواة الذين رووا شعره وجمعوا ديوانه فإننا واجدون بعض المقدمات التفصائل تذكر مناسبة القصيدة ، ولكننا نلحظ من هذه المقدمات موقف الخلو لأنها ربما أضيفت إلى الديوان ، وما يجرمنا من الحقيقة كلمة أن الذين جمعوا الديوانين في القرنين الثالث والرابع وما بعدهم أهملوا تعليقات وشروح ومقدمات شرحها رجال الطبقة الأولى . ولو وصلتنا تلك الشروح والمقدمات لوصلنا غير كثير.

وإننا ليس أملاً إلا أن نستكمل الصورة من شعر عترة الذي نظمنا إليه ، لأننا لم نثبت من كتب التاريخ والأدب إلا من اشتراكه في المرقب ، وفات الجرارح والفروق ، وقطن . وربما قائل يقول ربما ذكر عترة اليوم في شعره دون أن يشهده وذلك محتمل حصوله لو أن عترة لم يكن معاصراً لتلك الحرب ، ولولا أن بعض العلماء ذكروا أنه شهد تلك الحرب ولولا تلك العبارة الغامضة التي ذكرها ابن الأثير حين قال « وظهرت في هذه الأيام شجاعة عترة » . وثمة شيء آخر نظمنا إليه وهو أن عترة لم يكن يحظى باحترام واعتزاف سادة القبيلة ، فانه لو اختار يوم أنه يشهده وكان مدعياً لرواه عليه ونظمنا فيه ولوصلنا ذلك بطريق أو بآخر ، ولكن شيئاً من ذلك لم يصلنا .

وإذا ما جلنا في الديوان فإننا نظفر بالكثير ، فلقد ذكر عترة الأيام التالية في شعره الذي نستطيع أن نظمنا إليه : يوم القرن^(١) ، ويوم الجفار^(٢) ، ويوم غرامر^(٣) ، ويوم المرقب^(٤) ، ويوم الهامة^(٥) ، ويوم جبلة^(٦) ، ويوم الفروق^(٧) ، ويوم غدير قلبي^(٨) ، ويوم اليعمن^(٩) .

تلك أيام حرب داحس ، أما الأيام مع القبائل الأخرى والغارات فنستعرض لها في غير هذا الموضع .

- | | |
|-------------------|-------------------------|
| (١) الديوان ١٨ . | (٢) الديوان ٤١ . |
| (٣) الديوان ١٠٦ . | (٤) الديوان ١٤٢ و ١٩٩ . |
| (٥) الديوان ١٥٦ . | (٦) الديوان ١٧٨ . |
| (٧) الديوان ١٩٢ . | (٨) الديوان ١٩٨ . |
| (٩) الديوان ١٩٨ . | |

ونستطيع أن نطمئن إلى النتيجة التالية وهي أن عترة كان فارس تلك الحرب ، وأنه ليل في تلك الحرب ولكن الزعامة الرسمية لم تكن له في مجتمع تسوده العصبية للجنس واللون ، ولولا شعوره بما عرفنا عن عترة شيئاً ذا أهمية . فهو لم يكن يحظى باعتراف سادة القبيلة نفسها التي وهب فروسيته لها وفي سبيلها . بل ونستطيع أن نطمئن أيضاً إلى أن عترة قاد فرسان قومه في كثير من هذه الحروب على الرغم من إهمال المؤرخين والرواة لتلك الحقيقة ، فقد ذكروا فرساناً غيره أقل منه شأنًا في يوم المعركة وغيره .

عترة يظل الأسطورة الشعبية وصورته في الأسطورة :

عرضنا لصورة عترة في التاريخ الجاهلي من مصدرين : الروايات والشعر ، ولقد لاحظنا أن تلك الصورة لم تكن متكاملة المخطوط ، بل أننا وجدنا فيها ثغرات تحتاج إلى تخيال المؤلف ملئها . ورأينا كذلك أن هذا الشاعر الفارسي نحت عليه الأشعار حتى لحدا شخصية أسطورية تقريباً لتعدد الروايات المحيطة بحياته ، ولكثر ما نحل من شعر . مما حدا بالدكتور طه حسين إلى إنكاره كإنسان حقيقي عاش في جاعلية ما قبل الإسلام ، واعتبره شخصية أسطورية الخلقها الرواة والرواة أساساً يستمدون من فته مادة لقصصهم .

ولكننا عرضنا فيما مضى لتكون شخصية عترة كحقيقة تاريخية واقعة وليس كأسطورة ، وهذا أمر لا يحتمل الطعن فيه . ولكن الذي يمكن أن نجعله حك الاختيار هو تلك الروايات التي ضخمت حياته وإتعدت بها عن الواقع التاريخي .

ويعد موت عترة بقرون ، ولأسباب متعلقة لا مجال للخوض فيها ، ولكننا نرى من بين تلك الأسباب فروسية عترة ونحبه لمجتمعه الذي لا يعترف بأمنائه ، ومنها أيضاً ذلك الحب الذي لغنى به فارس عيس . فالحب الذي نشأ بريئاً شريفاً ، ونغنى به فارس عاش حياته تحت ظلال السيوف ، والثورة التي قادها ذلك الفارس مكاناً ضد أسرته وضد قبيلة واستطاع أن يحصل على حقوقه كاملة ، ثم ما أبداه هذا الفارس من بطولية في حروب عيس ، كل هذه العوامل قادت أنظار القاصيين والرواة ، فاعتصموا به ، وجعوا أخباره ، وأضاقوا إليها من نسج خياله ، فكانت سيرة عترة .

ويرى الدكتور عبد الحميد يونس^(١) أن « وجدان الشعب العربي احتفل بعترة في كل مكان ، وجعل منه نموذجاً يصعد إلى الأفراد كلها حزب الامر ، أو جمع الوجدان العربي من

(١) مجلة المصرية - عند سبتمبر ١٩٥٩ ص ٦١ .

الاعتصام بسورة الحنية العربية ، وكلما ارتطم الشعب العربي بعدو يريد أن يتحيفه أو يعتدي على حماه .

والحور الأسامي الذي تدور حوله السيرة هو شخصية عترة ، ويعتمد عليها المؤلف كشخصية تاريخية في بناء الشخصية الأسطورية التي يريد أن يحقق له أهدافاً عدة .

وترتبط سيرة عترة ، في الصورة التي رسمت ، بالحلب ، والحلب دعامة من دعائم القروية في الشرق العربي والغرب المسيحي في ذلك الوقت الذي وضعت فيه السيرة . بما حدا ببعض الباحثين إلى إعتبار القصة خرافية في أساسها ، تتجلى فيها آداب الجاهلية وأسلان أهلها وحروبهم وعاداتهم إذ أن أكثر الأسماء الواردة فيها لها مسميات حقيقية تاريخية ، إلا أنها جاءت في سياق قصة يعنى جوها بالكثير من عناصر الأسطورة والخرافات والمعجزات والأخبار المروية عن هذه الشخصية وما يدور حولها من شخصيات بمثابة نواة حكمت حولها شبكة من الأساطير^(١) .

ومصادر هذه القصة أو السيرة الشعبية هي ما نقله الرواة عن صاحبها وفي مقدمتهم أبو عبيدة والأصمعي وابن هشام وجهينة الأخبار وغيرهم من الرواة .

ولن نعرض لتواضعها الحقيقي ، لأن القول فيه كثير ، ومعظمهم يستدونها إلى الأصمعي ، ولكن هذا بعيد عن الحقيقة وفي السيرة ما يشير إلى عكس ذلك ولكننا نستطيع أن نميز أنواعاً ثلاثة من هذه السيرة : السيرة المجازية ، وهي أطولها ، والسيرة الشامية ، والسيرة العراقية .

وستحاول بعد ذلك أن نعرض لعناصر تكوين شخصية عترة كما عرضتها السيرة في صورتها الأسطورية ونبين مدى اختلافها أو اتفاقها مع الواقع التاريخي .

وأول ما ستعرض له قبيلة البطل ، بني عيس فقد عرضت لها السيرة بأنها لم تكن قبيلة ككل القبائل ، وإنما هم قوم غزو وأرباب سيف ، كرام ، يلبسون داء المستطيت^(٢) . وهذه الصورة التي عرضها المؤلف للقبيلة ليست بعيدة عن الواقع التاريخي الذي يذكر لنا عيساً إحدى جرات العرب . ولكن المؤلف يجعل عيساً لا تحارب القبائل العربية فحسب ، وإنما انتقل بها إلى خارج الجزيرة إلى بلاد الحيرة وفارس وبلاد عسان . وتحرك بها في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية مشغلاً رحلة عيس أثناء حرب داحس والغبراء .

(١) مصدر الدراسة الأدبية - يوسف ماهر ٣٤ .

(٢) السيرة ١/ ٨٧٦ .

وعندما يعرض المؤلف لنسب عترة وولادته ، فإنه يصور لنا كيف تم اللقاء بين زبيبة وشداد ، وكيف قاومت باقي الفرسان غائلة بللك سلوك باقي الإماء في مثل تلك المواقف ، ليمهد بذلك إلى نيل أصلها^(١) ، ثم تراه فيما بعد يكشف لنا أصل تلك الأمة ، وبأنها ابنة النجاشي ملك الحبشة ، وذلك حينما يتوجه عترة إلى بلاد النجاشي ، فيكتشف أن أمه ابنة النجاشي^(٢) . وبذلك يحقق له مؤلف السيرة نيل نسبه من ناحية أمه ، وهي نقطة الضعف التي شكك منها عترة التاريخي ، والتي سببت له إزدراء فرسان قومه .

وعندما يعرض مؤلف السيرة لولادة البطل فإنه لا يجعله ميلاداً كأي ميلاد ، فهو يصفه لنا أسود أدهم مثل الفيل ، معبس الوجه ، منخل الشعر ، كبير الأشدانق . . .^(٣)

ويتحدث مؤلف السيرة عن مشكلة النسب في أكثر من موضع من السيرة ، فويرث مشكلة النسب عندما يرحل عترة عن قومه غاضباً وبخالف مجموعة من الفرسان ، ويعرض له رئيسهم نصيب نصيب الفارس منهم ، وهو يجعله هذا إما يكرمه ، وعمل الرقيم من كل هذا فإن عترة يجلب هذا الوضع ويشبه المؤلف مرة أخرى عندما يحاول عترة تعليل معلقته على جدران الكعبة فيرفض الشعراء الآخرون أصحاب المعلقات بسبب أنه ليس عربي الأصل ، ويعالج المؤلف هذا الموقف بقتال عترة لهم وحسبهم ثم العفر عنهم ، ومناقشة معلقته فنياً ، والإقرار بصلاحياتها لتعليل^(٤) .

وعندما يصور لنا المؤلف صراع البطل مع قبيلته ، فإن أهداف هذا الصراع عنده هي لنيل حقوقه أولاً ، وحقوقه هي اعتراف القبيلة به فلزماً ، وإلحاق أبيه له بنسبه ، والاعتراف به كقوا للزواج بعيلة . وفي سبيل نيل هذه الحقوق يستغل المؤلف ما ورد في الروايات التاريخية من ملاحاة بين عترة وهزارة بن زيد وقيس ابن زهير . ليحسم لنا تلك الخلافات ، ويعمل الظروف المحيطة بالقبيلة تقدم أهداف عترة ، فالقبيلة دائماً تنزع في مآزق ولا يخلصها إلا عترة من الذل والأسر وغيره من المآزق^(٥) . وخصومه يقعون في الأسر ولا يحدون من يخلصهم من الأسر إلا عترة^(٦) فيضطر بعضهم للاعتراف بخضله وبفروسيته كما حدث مع شأس بن زهير^(٧) ويضطر عترة في صراعه مع القبيلة إلى ترك القبيلة والرحيل عنها لأنه يرى الذكائد تحيط به من خصومه ،

(١) السيرة ٥ / ٤٠٢ .

(٢) السيرة ١ / ١٥٠ .

(٣) السيرة ١ / ١٥٠ .

(٤) السيرة ١ / ٣٨٨ .

(٥) السيرة ٥ / ٤٠٢ .

(٦) السيرة ١ / ١٣٥ .

(٧) السيرة في مواضع مختلفة .

(٨) السيرة ١ / ٤١٩ .

ولكنه عندما يعود بعدها في حال من اللذات فيهب لنجبتها . وفي إحدى هذه المرات ينتزع عترة اعترافاً إليه ^(١٦) وينتزع من صده موافقته على زواجه من عبلة .

ثم تبدأ مرحلة صراعه مع قبيلته لتثبيت تلك الحقوق التي نالها ، ويتغلب عترة على كل العوائق والأعداء الذين يعترضون سبيله ، فيتغلب على حجارة بن زياد ، ويخلص شأس بن زهير من الأسر ، ويذبح أمر عترة في الجزيرة العربية فارساً مقدماً .

وبنيل عترة حقوقه الذاتية من قبيلة التي كانت تلحق الإعتزال بها ، فإنه ينتقل لمرحلة جديدة ، وهي مرحلة صراعه ضد مجتمعه العربي كله ، ليصبح عترة فارس الجزيرة بلا منازع .

وعندما يعرض مؤلف السيرة لنشأة عترة الأولى ، وهي تلك النسأة التي أحملها الرواة والمؤرخون فإن مؤلف السيرة يجعل ذلك المولود ليس مولوداً كباقي الأطفال ، فهو قوي البنية ، يترك الثياب ، يقتل ذئباً ويعود برأسه إلى أبيه مما يجعل شداً يقول لزيبة « إعلمي أن أولادك شياطين » ^(١٧) . . .

ويستمر المؤلف في عرض المواقف التي تمهد لميلاد بطل عظيم ، ويصوره لنا وهو يتعلم الفروسية والطعن بالرمح والاحتكم في الخيل ، ويجعل المؤلف خبيراً أثناء من أمه يصطنع الخيل لتستر على أفعال أخيه ليعد عنه أنظار القبيلة التي لم تكن تعترف بهذا الحق للعبيد .

وحتماً يعرض لصلة عترة بالزاة ، فإنه يركز في المرحلة الأولى من حياته على عبلة ، وما قامه في سبيل الحصول عليها ، ولا ينسى أن يعقد الأمور فيأسرها أكثر من مرة ، ويجعل عترة يخلصها من الأسر ، ويجعلها عمة أنظار لفرسان العرب وساداتها . ولكنه يتغلب عليهم ولا يزوج المؤلف إلا بعد أن يكون قد أذل جميع أعدائه وثبوا مكان الصدرة في الفروسية غير منزع ، ويقر له زعيم عيس قيس بن زهير بزواجه من عبلة ، وتستعد القبيلة لزواجه . وفي هذا الزواج يتم تنويع عترة ملكاً على الفرسان إذ يقدم على جميع المشهورين من الفرسان ، وقبل أولئك الفرسان عليه بالقدابيا والشعر . . . ^(١٨) وكأنما أراد المؤلف أن يقرن فوزه بعبلة التي أحبها وسيطر عليه حينها بفوزه في ميدان الفروسية .

وعلى الرغم من بقاء عبلة حية حتى يموت عترة في الأسطورة ، إلا أن المؤلف جعل عترة يكرر صورة شداً وزبيبة فيجعله المؤلف يتصل بنساء أخريات غير عبلة ، ويجعلهن يتجنن منه

(١٦) السيرة ٣ / ٢٣٦ .

(١٧) السيرة ١ / ٨٢ .

(١٨) السيرة ٣ / ٢٣٦ .

أولاداً ، ولا يجعل عشرة يلازم أولئك الزوجات ، بل يرسل ، وبالتالي فإن عشرة لا يعرف ولده ولا يلقي بهم إلا في ساحات القتال ، ويعترف عليهم حينئذ ويتغير المؤلف . ويدعو أن المؤلف فعل هذا يؤكد استمرارية عشرة كبطل أسطوري في شخص أبنائه .

ويدعو في أن المؤلف اعتمد على بعض الروايات التي تذكر أن عشرة تزوج غير حيلة ، واستغل هذا فزوجه من أكثر من واحدة ، وعلى الرغم من أن التاريخ لم يذكر لنا ولداً لعشرة إلا أن المؤلف جعل له أكثر من ولد .

كما أن مؤلف السيرة ، وبعد أن حقق لعشرة أمنية عظيمة ، وهي الحصول على حيلة ، فإنه حرره من عائلته وجعله يتجوز صراحاً مع عائلته ، وجعله يرسل عن حيلة ، كما يرسل عن نساء أخريات اتصل بهن ويفعل المؤلف ذلك ليحرر البطل من عائلته ليتفرغ لأهداف أخرى أكبر من مطامحه الدانية ، وأبعد حدوداً من حدود مجموعة القبلي المتمثل في حبس .

ولا ينسى المؤلف ما كان للشعر من مكانة في ذلك المجتمع الجاهل خاصة والمجتمع العربي عامة ، ولذلك فقد رأى أن شخصية عشرة لا يكتمل بتلقاها كشخصية ثوراجية ، وليقلها من اطرافها المحلي إلى إطار أوسع ، إلا بالاعتراف بمكانته الشعرية ، فعهد لذلك بعقد مناقشات شعرية شلهذا عشرة مع غيره من الشعراء القدامى^(١) ، وجعل قمة هذه المؤلفات مشهد تعليق عشرة معلقته على جذوان الكعبة ، ولم ينس الخبير حينئذ ، بل آثار امتناش الشعراء الآخرين من أصحاب المقلات ويلازمهم عشرة ويسرهم ثم يفك أسر الرهائن من الشعراء ، ويعقد بعد ذلك مناقشة شعرية لغوية تثبت فيها جدولة عشرة الشعرية واستحقاق معلقته التعليق^(٢) . والمؤلف يعتمد في هذه الحادثة على أن عشرة من أصحاب المقلات العشر.

أما لفروسة عشرة فقد كانت تشكل اللغة الأساسية للسيرة ، وهي محور السيرة الأساسي وكل ما عرضه فيها فإنما هو خدمة هذا الهدف ، فالمؤلف أراد أن يجعل من عشرة بطلاً أسطورياً لسيرة تحمل الكثير من أحزان العرب وطموحهم وشوقهم إلى التغلب على العوقات التي تضغط عليهم ، ولذا فقد احتفل وجدان الشعب العربي بها .

وقد تدرج المؤلف في عرضه لفروسة عشرة تدريجاً يمتد مع منطق الحياة والتاريخ ، وجعلها تنمو لهما طبيعياً لا اتصال فيه . فعشرة نشأ قوي البنية ، بصرع الذئب وهو ما زال صغيراً ، وهو يتدرب سراً في الصحراء على ألوان مختلفة من قنود القتال . وحتى يبدو الأمر لا غرابة فيه فإن المؤلف جعل شبيباً أعماه يبعد عنه انتظار بني عيس بما يصطنعه من حيل .

(٢) السيرة ١٥ / ٨ .

(١) السيرة ١٠ / ١٥ .

ثم يجعل المؤلف فروسية عترة تظهر معلنة عندما تقع قبيلته في مأزق فيقدم عترة لينقلها ، وقبل أن يخرج المؤلف بعترة من إطار قبيلته ، فإنه يجعله يخوض صراعاً ضد فرسان قبيلته وساداتها ، ويجعل الصراع على الظفر بعلة المحور الذي يدور حوله الصراع . ويتغلب عترة على خصومه ، ولا يكون الظفر بسهولة ويسر ، بل إنهم يتآمرون عليه ، ويؤجرون القتل والسفاكين للإيقاع به ولكنهم يفشلون . ويستعين بعض خصومه بأعداء لعيس من الخارج للقبض عليه ولكنهم يفشلون أيضاً . ويشارك عمه ، أبو عيلة ، وشية أحماته على قتله وتدخل الوحوش في الصراع هذه المرة ولكن عترة يقتل الأسد ويشوي لحمه^(١٤) . ويبلغ المؤلف فيجعل عترة يتصدى لفرسان خطفان الذين أغاروا على عيس والحلي خطوف ، وعمه أربع عشرة سنة ويسترد الأسلوب منهم ويبرزهم . ولا ينسى المؤلف أن يصور لنا أن هذه الانتصارات تزيد من محبي عترة من قبيلته ، كما تزيد من بغض مبغضيه والحقد عليه وعترة الفارس العربي هو المدافع عن النساء المستضعفات وهي مسمة من سمات الفارس العربي الذي يجب أن يتصف بهذه الصفة الكريمة .

ولا يصور لنا المؤلف عترة في هذه المرحلة بطلاً لا يهزم ، بل إن المؤلف يجعله يهزم في صراعه ضد أبناء قبيلته ولكنها ليست هزيمة سيف ، بل هزيمة بسبب مركزه الاجتماعي ، فيضطر للهجرة أكثر من مرة عن قبيلته . ولكنه عندما يعود يجد عيساً في مأزق فيخلصها مما هي فيه .

والمؤلف يستفي مادته من بعض الروايات التاريخية ، ويضيف إليها ، فالروايات تذكر لنا صراعاً بين عترة وبعض سادة عيس ، ولكن هذه الروايات لم تذكر لنا كيف تم هذا الصراع ، ولم تذكر لنا تلزمهم عليه واستنجدتهم برجال من خارج القبيلة . وربما فعل المؤلف ذلك إرضاءً للمرحلة التالية من مراحل فروسيته التي سيتقلدها فيها من فارس عربي في فارس إلى فارس العرب .

وقد مهد المؤلف لهذه المرحلة حينما ذكر أن أبا عيلة طلب من عترة مهراً لعبلة ألفا من النوق العصفير وهذه لا توجد إلا لدى النعمان ملك الحيرة . وبذلك أخرج عترة إلى جيران الجزيرة العربية ، ويجمعه المؤلف مع فارس أسطوري له قيمته في الأساطير الفارسية ، وهو (رستم) ، ويتم اللقاء بينهما وتنتهي الجولة بهزيمة رستم^(١٥) .

ويدبر المؤلف في براعة قصصية لقاءات مختلفة بين عترة والعديد من فرسان العرب في الجاهلية ، ويختطف سبل اللقاء ، منها اللقاء المباشر في ساحات القتال ، ومنها اللقاء المفاجيء ،

(٢) السيرة ٧ / ٢٦٠ .

(١) السيرة ٦ / ٩٩ .

ومنها الصراع على فرض واحد . ويستغل المؤلف تاريخ الجزيرة العربية في ذلك الوقت ، وما حلل به شعرهم من ذكر الأبطال الفرسان ، فيجمعهم بعثرة ومن هؤلاء : بسطام بن قيس الشيباني ، وعمر بن معد يكرب ، وذر الخمار ، ودريد بن الصمة ، وزيد الخيل ، وعامر ابن الطفيل ، وغيرهم .

والبطل في هذه اللقائات مؤيد بقوة خارقة قال عنها الكاتب : « إن الله عز وجل أسكن في عترة سرّاً خفياً لا يعلمه إلا الله اللطيف الخبير ، وكان من عادته أنه يقاتل الفرس إلى أن يحل به التعب ، فإذا انفصل عنه وتأخر قليلاً ، ود الله عز وجل عليه قوته وضاعفها فيرجع إلى خصمه ويأخذه من الميدان أسيراً أو يتركه قتيلاً »^(١) .

ويذكر المؤلف عدد الفرسان الذين التقى بهم عترة فأمرهم أو قتلهم بسمين جباراً من جبهة الفرسان ، ويركز المؤلف على نقطة عامة ، فعترة لا يتصر عليهم بالسيف فحسب ، وإنما هم بعد هزيمتهم يعترفون بهزيمتهم ويفروسيته ويسلمون له القيادة ، وبعضهم كان ينظم إلى صفه ، وعقد المؤلف بينه وبين بعضهم صداقات .

وكما جمع المؤلف بين عترة وفرسان الجزيرة العربية ، فإنه لم ينس حقاً الطائي ، الذي اشتهر بكرمه وفروسيته فجمع بينه وبين عترة ، وقد فعل ذلك ليضيف إلى عترة فضلاً جديداً واحترافاً من حاتم وفروسيته ، وربما استغل المؤلف صك عبس وطيه الحرية .

ويستغل المؤلف بعثرة الفارس البطل الذي تغلب على فرسان الجزيرة ليؤكد بطوراته الذاتية ، وتغزوه عليهم إلى عترة كفارس يحارب الظلم أينما وجد ، وكان عرب الشمال يصون بتعالي عرب الجنوب عليهم ، وقد خضعت قبائل شمالية كثيرة لقوة الجنوبيين ، لذلك استغل المؤلف ذلك ، ليجعل عترة الفارس الشامي يقود فرسان الشماليين ضد فرسان الجنوبيين ، فيهزم الجنوبيون ، وبذا أكد المؤلف تفوق فرسان الشمال على فرسان الجنوب . وقد فعل ذلك انطلاقاً من الصراع بين العصبيتين العدنانية والقحطانية في الإسلام .

ولا ينسى المؤلف أن يجعل عترة يتغلب على كل قوة ، فهو يتغلب على الساحر بقوة أسطورية في أحد المواقف .

ويدخل المؤلف عترة وهو يقود معارك ضد أصحاب الديانات في ذلك الحين ، فيجعلها يقود معركة ضد النصارى في بلاد الشام ، ويدخل عترة دمشق مؤيداً ملك الفرس ضد

(١) السيرة ٣ / ٢٥٠ .

التصارى ، ويعمله يدم الكنائس ، ويخلص الأسرى . كما يثير حرباً بين العرب والمجوسين ، ويعمل عشرة بقود العرب ضد القوس عندما حلول ملكهم الأساءة الى العرب والسير اليهم واحتلال بلادهم ، ويؤسر عشرة في هذه الحروب أكثر من مرة ولكن المؤلف يخلصه من الأسر بأساليب مختلفة ، فمرة ينجو من الأسر بحيلة من قيس بن زهير مستغلاً بذلك ما روته الرواة من سعة حيلة قيس . وعندما يؤسر عشرة وهو يحارب الفرس ينقل الى عاصمة كسرى ومعه حيلة . ويعمل المؤلف إين كسرى يقع في غرام حيلة فتقلته حيلة ، فيطلق أعوه قيار بن كسرى سراح الأسرى طمعاً في ملك أبيه ، ويعني أعرابيه عشرة في تثبيت ملكه ، وهنا يثبت المؤلف لعشرة دوراً جديداً وهو مقرته على إزالة ملك وإقامة ملك آخر .

ويحارب عشرة قبيلة عبساً لأول مرة عندما تتحالف عبس وفزارة ضده ويؤيدها الفساسة الذين رغبوا في إضعاف الديانة المسيحية .

وهكذا نرى أن عشرة في هذه المرحلة ، انتقل من الصراع من أجل تحقيق مطامحه الذاتية ، وبيل حقوقه من قبيلته وتبنيها ، إلى التراجع اعتراف فرسان العرب بفروسيته وزعامته ، ولكنه في هذه المرحلة جعله يمثل دور القائد الذي يتزعم الجزيرة العربية ضد أعدائها الذين يحاولون النيل منها محاولاً الإبقاء على استقلالها ، والقضاء على كل من تسول له نفسه أن يطأ أرضها ، فهو قد حارب القوس ، وحارب اليمن ، وحارب الفساسة ، وحارب التصارى الذين حاولوا أن يدخلوا الناس في دينهم ، كما حارب اليهود ، فقد جمعه المؤلف بيهودي ثم خذره به ذلك اليهودي وأسرهم ، وقد فعل المؤلف ذلك ليصور خدو اليهود .

ويبدو أن المؤلف فعل ذلك ليمهد للدين الجديد ، الذي كان على وشك الظهور . فهو يحارب التصارى واليهود والوثنية .

ولم يكتف المؤلف بالجزيرة العربية ويجربها لينقل عشرة إليهم بل أنه نقله عبر البحار ، فنقله في رحلات الى السودان ، وبلاد الهند ، وبلاد النجاشي .

فرحلة السودان جعلها بناء على طلب من خيرة ، أم ابنه غصوب ، لتخلص أمراها . وقد فعل المؤلف ذلك ليصنع لقاء بين الساميين والحاميين ، كما جمع من قبل بين العرب والفرس والروم . ويأسر ملكهم ويحبره على الصالحة . وفي السودان يجمعه المؤلف بشيطانة داعية صاحبة حصن الغمام ، وتنتهي المعركة بتدمير حصنها وتقلها هي وابنتها .

ويتوغل في رحلته حتى يصل الى بلاد الحبشة وهناك يلتقي بأخواله ، ويكتشف أن أمه زبيبة هي إنة النجاشي ملك الحبشان ، وكان أبوها قد زوج أمها بالملك بسم وهو أبو الملك هيام .

أما رحلة السند وافقت فقد جعلها المؤلف بسبب عداء بين أبناء عترة وقارس اسمه ، عيد هيفه . فيستجد هذا القارس بملك السند وافقت صديقه ، الذي يسر بجوده نحو الجزيرة العربية ، فيجمع العرب عترة لقائمة الغزو الجديد ، فيكونون جيشاً كبيراً يقوده عترة ويرأسه دويد بن الصبة^(١) .

ثم ينقلنا المؤلف إلى معركة أخرى في قلب الجزيرة إذ يفقد الأحباش والسودان جيوشاً جارة للثأر ، ويقابلهم عترة والفرسان والعرب ويؤمنهم ويلحقون بهم إلى بلاد الحبشة^(٢) .

ويسير المؤلف عترة بعد ذلك إلى الجزائر حيث ولداه في الأسر ، فيقتصر ويعود ثانية إلى الحجاز ، ويجمع المؤلف بملك الأندلس فيقتله عترة . . .^(٣)

ويربط المؤلف بين عترة وقيسر ، ويجعل قيسر يكلقه بهام للفتنة على الخارجين على مملكته ، وإعجاباً به وتقديراً له يصنع له ولأخيه شيوخ ثنائين^(٤) .

وعندما يصور المؤلف نهاية ذلك البطل الأسطوري ، فإنه يستعين بإشارة وردت في كتب الأدب ، وهي أن عترة قتل على يدي الأسد الرهيص ، ولذلك يجعله عائداً من انتصاره على غارح على ملك قيسر واستيلائه على قلب أخت ملك الروم وتزوجها ثم تركها عائداً إلى بلاده ، وفي طريق العودة يقدم عليه الأسد الرهيص الحاقده عليه ، فيكمن لعترة بجوار بعض الغدران ، فإذا ما أقبل عترة إلى الغدير وماء الأسد الرهيص يسهم ، ويجعل الأسد الرهيص يموت بعد إطلاق السهم مباشرة ، وهذا ما لم يرد في الخبر . ويدرك عترة أن نهايته قد اقتربت ويشير على حيلة بالذهاب إلى أحد الرجلين ، إما ابن الطفيل وإما زيد الخيل ، وينصحها بالزواج من أحدهما^(٥) .

ويقف عترة متحسلاً أمامه التي تأخذ في الأذياد ، ويركب حصانه ويتخذ سيفه ويطلب من حيلة ومن معها من فرسان أن يسرعوا إلى ديار عيسى ، بينما يقف هو ليجمعهم . ويقف فرسان الأعداء الذين هاجموا القافلة يمينين ، لا يسر أحدهم على الإقتراب منه . ثم يسقط عترة من الجواد عندما يتحرك ، ويقتل الأعداء احتراماً له .

ونهاية البطل تتفق مع الرواية التي وصلنا من طريق الرواة في أن قتله الأسد الرهيص ، ولكنها تختلف في أن المؤلف جعل البطل يموت في الوقت الذي تصل فيه بطوكه إلى القمة .

(٢) السيرة ٦ / ٢٦ .

(٤) السيرة ٨ / ١٤٦ .

(١) السيرة ٦ / ٢٥٢ .

(٣) السيرة ٨ / ٨٧ .

(٥) السيرة ٨ / ١٧٦ .

ولا ينسى المؤلف أن يجعل لعترة جلوراً عنداً بعد موته ، فقد صور لنا مواقف أبنائه وبناته ، ويصور بطولاتهم ومعاركهم . وكاننا فعل المؤلف ذلك ليعبرنا أن البطال الأسطوري لا ينتهي دوره بموته ، بل إنه يترك جلوراً تتولى إتمام الرسالة من بعده ، فالمؤلف لا يريد أن يموت ، وأن تموت رسالته .

وهكذا نرى أن للرحلة الأخيرة من حياة عترة ، جعلها المؤلف أسطورية بحثة ، فعترة لم يفرج من الجزيرة العربية كما وصلنا من الروايات . كما أن عترة لم يتصل بأحدى الدول ولا بأي من الملوك التي عرض لها المؤلف . ولكن المؤلف فعل ذلك ليكمل من عترة بطلاً وثقلاً يقود الجزيرة العربية في تضالها ضد أعدائها الطامعون فيها .

وقد اعتمد المؤلف على مصدرين أساسيين في سيرته كقيادة أساسية ، فالمصدر الأول وهو ما يتصل بحياة عترة ، فقد استفاد المؤلف مما بين أيدينا من روايات . أما المصدر الثاني فهو ما وصلنا من أخبار عن الجزيرة العربية في العصر الجاهلي ، وما حدثنا به الرواة من صلات الجزيرة العربية بجيرانها ، فاستغلها المؤلف ونسج حولها القصص ليؤكد انضمام أولئك الأعداء أمام قوة العرب ، يقودهم فارس العرب جيماً عترة .

ولم يجعل المؤلف عترة بطلاً لا يهزم ولا يؤسر ولا تصيبه الرماح ، فقد أسره أكثر من مرة ، وجرح في إحدى المعارك ، ولكنه كان يثبت بطولته ويرقى بها عندما يصور تخلصه من الأسر بشي الخيل ، وبالفوة التي يمتلكها . ويعنى آخر فقد جعله إنساناً ولكنه يتمتع بقوة أهله لما وصل إليه من مركز عظيم حتى اعتبره أحد المؤرخين أنجيل العرب^{٥٥} .

أما أهام نحاس والغبراء فيبدو أنهما لم تحظ بأهتمام المؤلف ، وربما تجاهلها أهلاً على أن الروايات التاريخية لم تذكره في تلك الحروب كثيراً ، وربما - وهذا ما نحمل إليه - أنه لم يشأ أن يغفل إلينا صورة ائتلاف بين قبيلتين تربط بينهما أواصر القرى ، وما يقود ما تلعب إليه أن عترة لم يصوره المؤلف يحارب قبيلة إلا مرة واحدة في سيرته ، وفي لقاءات عترة بفرسان الجزيرة العربية فإن المؤلف كان يهدف إلى انتزاع اعترافهم به وفروسيته ليمهد إلى توليه قيادتهم بدليل أنه كان لا يقتل معظم أولئك الفرسان ، في حين لم يكن يتورع عن قتل خصومه من غير العرب . بل أنه كان يجمع بينهم ويربط بينهم بصفقات متينة امتدت حتى موته ، كما مر بين الطفيل وزيد الخيل ، بخلافاً بذلك ما رواه كتب التاريخ والأدب .

(١) تاريخ العرب - فليب حتى / ١٠٧ .

ونستطيع أن نوضح أوجه الاتفاق بين الصورتين حل الوجه الآتي : فهما تطفقان في انتهاء إلى عيس ، وأن أياه عيسى ، وأنه من أصل حامى ، وأنه غاض صراعاً طويلاً ومبرراً عند قبيلته حتى استطاع انتزاع الاعتراف به ككفره حر من أفراد قبيلته ، وتطفقان بأنه عانى تجربة حب لابتة عند عبلة . وعثرة في الصورتين شاعر من أصحاب العلاقات ، وفارس من فرسان عيس حارب مع قبيلة خصومها من ذبيان وطىء وتميم وغيرها من القبائل .

أما أوجه الاختلاف بين الصورتين فتتمثل في حالتين : الأولى : وهي اتفاق الصورتين في الفكرة الأساسية ثم تباعف الصورة الأسطورية في رسمها ، ونجد ذلك متمثلاً في نسب عثرة من جهة أنه لقد جعلها مؤلف السيرة ابنة ملك الحبشة . كما نجد متمثلاً في صراعها مع قبيلة . فقد بالغ مؤلف السيرة في رسم صور هذا الصراع وأشكاله وأبعاده وجميع أحداث عثرة من عيس يستعينون بكناس من خارج عيس ، وهذا ما لم نألفه في مجتمع تحكمه العصبية القبلية . ونجد هذا أيضاً في شبه لعبلة فقد اختلفت الصورة في السيرة كثيراً عن الحقيقة ، وجعلت عثرة يصارع عاصفته نحو عبلة ، ويتغلب عليها . وينصحبها في النهاية عندما يوشك على مفارقة لعبلة بالزواج من أحد فارسين حلتها لها .

وأما الصورة الثانية للاختلاف فتتمثل في أمور كثيرة أهمها مولد عثرة ، فالتاريخ يجعل ميلاده ولا يذكره إلا عتسما حسب فارساً ، بينما نرى السيرة ترسم لنا عثرة بولد ميلاداً غربياً يوحى بمسقبله وبطولته الأسطورية . ولم يحددنا التاريخ أو المصادر الأخرى بأن عثرة كان فارس الجزيرة العربية ولا فارس حبس بلا منازع ، بل إن الروايات تشير إلى أنه بعد صراع مرير اعترف به كفارس من فرسان عيس . ويعتقد مؤلف السيرة صلات كثيرة بين عثرة والمركلة ، ويعمله بكرر صورة شداد وزبية . وبينما نجد الروايات تسكت عن ولد عثرة فإن مؤلف السيرة يجعل عثرة ينجب أولاداً ، ولا يلتقي بهم إلا حينما يشبوا فرساناً ، ويبارزهم في ساحات التوفى ليعزلهم .

وأخيراً فإن من الملامح الأسطورية البارزة في السيرة هي رحلات عثرة في الجزيرة وخارجها وشخصه شعرات القتال ضد جيوش كثيرة متعلقة بالجناس والألوان ، وتطوافه به بلاد الهند والهند شرقاً ، إلى المغرب والأندلس غرباً ، إلى السودان والحبشة جنوباً ، إلى بلاد فارس والروم شمالاً .

ولكننا مع ذلك نستطيع أن نزعهم أن عثرة البطل الأسطوري ما زالت له جذور تاريخية تربطه بواقع كان قديماً . وكل ما قلعه مؤلف السيرة أنه استغل إشارات تاريخية بسيطة ونسج عليها من خياله بما يناسب روح العصر الذي كتبت فيه ، ويناسب وجدان الأمة آنذاك .

ونود أخيراً أن نعقد مقارنة حاجلة بين بطل حرمي البوس وداخس والغبراء . وأول أوجه الاتفاق بين البطلين أن الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب بارز في السيرتين . ونرى كذلك أن السحر والتنجيم يلعبان دوراً هاماً في تحريك أحداث السيرتين . وفي السيرتين نجد مهلهلاً وعشرة يصارعان الوحوش الكاسرة ويقهرانها .

أما أوجه الاختلاف فليزعم أن صورة مهلهل في سيرته بطل يهب للأخط يثار أخيه الذي قتل غداً ، أما صورة عشرة فهو بطل يحارب الظلم ويظارنه أينما وجد ، داخل الجزيرة العربية وخارجها . ومنها أن مهلهلاً لم يخض صراعاً مع قبيلته ، ولم يتأمر عليه فرسانها ، وعلى العكس من ذلك نجد عشرة يتأمر عليه الكثيرون من قبيلته ، ولم ينصرفوا عنه إلا حينما أجبرهم على الإحتراف بمنزله ومكانته في القبيلة . ولم يعقد مؤلف سيرة المهلهل لقاءات بين البطل وفرسان الجزيرة بالعكس من ذلك فعلى مؤلف سيرة عشرة أن يسلط عليهم . وقد أغفل مؤلف سيرة المهلهل ذكر البارزين ، ويقال لهم ويخبرهم ويعترفون له بالسيادة عليهم . وقد أغفل مؤلف سيرة المهلهل ذكر أولاد المهلهل ، بينما اهتم مؤلف سيرة عشرة بأولاد عشرة وجعلهم يكملون دور أبيهم ورسالته . وأخيراً فإن المرأة لعبت دوراً هاماً في السيرتين ولكنه مختلف ، ففي سيرة مهلهل لعبت جليدة زوجة كليب دوراً هاماً في التأمر على المهلهل ، وكانت اللئيم لمخطط القضاء عليه ، كما لعبت الهامة بنت كليب دور المحرض لعمها على أن يستمر في الحرب . أما في سيرة عشرة فقد كانت عبلة محور السيرة والخالف الذي يحفز عشرة على المعنى قدماً في إنشراح حضرة ليصبح في منزلة الساعدة وليستحق عبلة ، بل وغادر الجزيرة العربية طلباً للتوفى المعصاير مهراً لها ، كما بارز مشاهير الفرسان الذين تقدموا يطلبون الزواج بها .

دراسة موضوعية وثنية في شعره :

عشرة من الشعراء الفرسان ، وهو أحد أصحاب للعلاقات السبع ، ويروي ابن الأثير أنه قبل أن يقول معلقاته كان لا يقول من الشعر إلا البيت والبيتين في الحرب ، إلى أن سابه رجل عجب فذكر مولده وأمه وإخوته ، فقال له الرجل بما قال : أنا أشعر منك . قال له عشرة : ستعلم^{٥٩} .

فبعثرة إذا لم يكن يقول في الحرب إلا البيت أو البيتين ، وعندما نبحث عن شعره في غير الحرب قبل المعلقات فإننا لا نظفر بظائل . وهذا ما حدا بالكثير من الباحثين إلى القول بأن هذه

(١) شرح للمعلقات السبع الطوال ٢٩٣ - ٢٩٤ .

القدمة موضوعة لاتصال مناسبة للمعلقة ، إذ لا يعقل ألا يتغن الشاعر إلا قول البيت أو البيتين ثم ينظم معلقة تزيد على الثمانين بيتاً .

ونفث عن شعر عترة في غير الحرب وما يتصل بها فإنا لا نظفر بشيء ، وبخاصة الشعر الذي قاله في الشطر الأول من حياته . وقد أوحى هذا للأصمعي بالقول بأن عترة ذهب بعملة ذكر الحرب^(١) . معتمداً على أن الشعر الذي رواه لنا الأصمعي متصل بالحرب وما يتصل بها .

ونستطيع أن نقول أن شعر عترة الذي وصلنا لا يمثل كل شعره ، فهو لا يدور إلا حول موضوعين الحرب والحب وهما يتزوجان معاً . كما أن كثرة المقطوعات فيه ربما أثبتت بعض هذه الشكوك ، ولا نطمئن إلى ما ذكره السيوطي من أن عترة من الشعراء المفلحين^(٢) ، لأن الحرب تنطق الشعراء ، فما باتنا وعترة قضى جل حياته على ظهر فرسه محارباً أكثر من عاصم . وإذا حاولنا البحث عن تعليل لفقدان شعره فإنا لن نقف على سبب محدد ، وبخاصة أن الشعر المنسوب إليه كثير ، ولكننا نعتقد أن شعره ضاع كما ضاع شعر غيره من الفرسان ، وشعر الجاهليين عموماً . كما نضيف إلى أن الرواة خرجوا من قفل كل ما نسب إليه لكثرة ما نسب إليه ، وما تسبج حوله من قصص .

أما منزلة عترة الشعرية فهي عند الأصمعي أنه من أشعر الفرسان^(٣) ، واعتبره الغني من الفحول^(٤) ، وجعله أبو عينة في الطبقة الثالثة مع المرقش الأكبر وكعب بن زهير والحطيئة وعنداش بن زهير وهريد بن الصمة وعروة بن الورد والنمر بن تولب والشياخ بن ضرار^(٥) . بينما جمعه ابن سلام في الطبقة السادسة مع سويد وهيمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة^(٦) .

ونستطيع أن نطمئن إلى ثلاث وثلاثين قصيدة ومقطوعة رواها الأصمعي ورواها البطلوسي ، وانفرد ببعضها البطلوسي ، منها عشر قصائد يزيد عدد أبياتها عن عشرة أبيات ، وثلاث وعشرون مقطوعة . ويقودنا هذا إلى تبرير هذه الظاهرة ، ومحاولة تحليلها ، فمن المحتمل أن تكون هذه المقطوعات قصائد في الأصل ، فقدت بعض أجزاءها ، ولم يبق منها إلا

(١) فحول الشعراء للأصمعي ٣٥ .

(٢) الزهر السيوطي ٢/ ٤٨٧ .

(٣) فحول الشعراء للأصمعي ٢٧ .

(٤) جوهرة أشعار العرب ٧٦ طبعة سنة ١٣٣٠ هـ .

(٥) جوهرة أشعار العرب ٧٦ - طبعة سنة ١٣٣٠ هـ .

(٦) طبقات ابن سلام ١٢٧ .

مقطوعات ، وثمة إحتمال آخر وهو أن حيلة القروسية وما يراكبها من اضطراب وعدم استقرار لا يناسبها إلا المقطوعات ، فالشاعر لا يجد الوقت الكافي للإطالة في نظم الشعر ، وأخيراً لم لا يكون الموضوع هو الذي يمل على الشاعر قلة عدد الأبيات ، فبعضها نظمه في غرض لا يتطلب الإطالة .

ونستطيع كذلك أن نقسم شعر عترة الذي قاله في الحماة والحرب إلى قسمين متميزين ، القسم الأول وهو ما قاله في خضم المعارك وقمعة السيوف ، والقسم الآخر قاله بعد الحرب ، ودفعه إلى قوله القفر بطولاته وبطولات قومه .

أما موضوعات الشعر التي نميزها في ديوان عترة فهي : القفر والحماة وحديث المعارك ، والتهديد والوعيد ، والهجاء والزلاء ، وشعر الحب والحرب .

ولعل أن نتخوض في عرض هذه الموضوعات نود أن نتحفظ فنذكر أن بعض هذه الأغراض تضمنته قصيدة أو مقطوعة واحدة ، وبعض القصائد اشتمل على أكثر من غرضين ، وهذا لا ينفي أن بعض المقطوعات انفرد بها موضوع واحد .

أما حديث المعارك عند عترة ، فهو مادة عترة الشعرية الأساسية ، وهو مادة فطره . ويأخذ حديثه عن المعارك حدة صوره ، فهو تارة يتحدث عن جيش قومه ويصوره كأن سراياه عصاب طير تتجه صوب الماء لتشرب ، وهذه السرايا مزودة بالرماح الرديئة التي تغل في حجباتهم ، وكأن أصواتها هذه كأصواتها وهي تغل من لقب الثغاف حين تتقف^(١) :

كَأَنَّ السَّرايَا بِسَيْنَ قَوِيٍّ وَقَارِيٍّ عَصَابُ طَيرٍ يَتَحَجَّبِينَ لِمُشْرِبٍ

ويتحدث عن بعض أسلحة هذا الجيش فيقول :^(٢)

نَصِيحُ الرَّدِيئَاتِ فِي حَجَبَاتِهِمْ صَبَاحَ الْعَوَالِي فِي الثَّقَافِ الْمُتَقَبِّ^(٣)
كَتَائِبُ تُزَجِّي غُرُقَ كُلِّ كَتِيئَةٍ لِسَوَاءٍ كَظَلِّ الطَّائِرِ الْمُتَقَلِّبِ

وعندما يتحدث عن كفاءة جيش قومه ، ومصابرتهم في القتال ، وما يقبلونه أثناء المعركة ، ويختم المشهد بآخر ذلك في نتيجة المعركة ، وذلك عندما التقوا بالجفار فلوا ، أي الأعداء

(١) الديوان ١٩ .

(٢) الديوان ١٩ .

(٣) الرديئات : الرماح السنوية إلى ودية . والحجبات : جمع حبة وهي حرف الورك . والعوالي : رؤوس القنا أو نصاتها التي تل الأسنة والثغاف : ما نسوى به الرماح . والمظب : الثوب .

ورد القوم على أعقابهم عاسرين على الرغم من أنهم لم يكونوا عزلاً من السلاح^(١) .

فلم أرحباً صابروا مثل صبرنا ولا كافحوا مثل الذين تُكافح^(٢)
تُراحمُ زحفاً لم دلافي كثية تُطاعشنا أو يدعز السرح صائح^(٣)
فلما التقينا بالجفار فصعصعوا وزدت على أعقابهم المسالج^(٤)
وسارت رجال نحو أعزى عليهم الحديد كما تشي الجمال الدوالج^(٥)

إذا ما مشوا في السابقات حسبتهم سيولاً وقد جاشت بهن الأباطج

وأن جيش قومه يقتل الأعداء علانية في ساحة الوحي عندما يثور الغبار فوق الرؤوس ، ولا يقتلهم خدرا كما يفعل الآخرون الذين يقتلون الفرسان بعد أن يأمرهم ، كما فعلوا بقرواش العبيي حيناً قلوه وهو أسير فيقول^(٦) :

قلت سرأكنكم وخلست منكم غسلاً مثل ما غسيل الوبار^(٧)
ولم تقتلكم سرا ولكن علانية وقد سطع الغبار^(٨)

وعلى الرغم مما اتهم به عشرة من فردية مفرطة تسود شعره ، وعلى الرغم مما عانى من تأمر قومه عليه ، فإن لبطولات فرسان قومه حديث في شعره . نسمعه يصور لنا بطولة ورد بن حليس العبيي حيناً قتل نقطة الأسدي فيقول^(٩) :

يذنب ورة على إثرو وأذركه وقع مردى خثيب^(١٠)
تتابع لا يتوسي غيره بأبيض كالقيس الملتهب^(١١)

(١) الديوان ٤٢ - ٤٣ .

(٢) للكتابة : اللصارية والمداغة تلفاء الوجه .

(٣) السرح : لال السائم .

(٤) تصعصعوا : ذلوا . والسالج : جمع سلحة وهم قوم ذو سلاح .

(٥) الدوالج : التي تشي متائلة من ثقل ما تحمل .

(٦) الديوان ٧٨ - ٧٩ - أمثال العبيي ٣٦ .

(٧) غسل : تقي . والغسيل : القذف من كل شيء . والوبر : جمع وبر وهي دوية على قدر السنور غيره أو يشاء . من دواب الصحراء .

(٨) سرا : ختلا . وسطح : انتشر .

(٩) الديوان ١٨ .

(١٠) يذنب : يجعل مفرداً . والمردى : حجر يرمى به .

(١١) تابع : توالى ، والأبيض : السيف ، والقيس : النملة تنبئ من مظلم الشر .

ويقتل بني العشاء قرواشاً بحليفة ، فبريه عترة رقاء فلوس فلوس ، لا ينيكه ولكنه
يذكر الأعداء بما فعله بهم هذا البطل في ميدان الرمي قبل أن يغلبوا به فيقول :^(١)

وأطلعن في الهيجا إذا الخيل صدّها غداة الصباح السّمهري المُقصّد^(٢)
فهلاً ولي الفُغواء عمرو بن جابر بلقيته وابن النقيطة حصيد^(٣)

ويحملو فلوس عيس أن يعقد مقالة بين فرسان قومه وفرسان الأعداء يوم التقى الجمعان
حتد جهر الهياة فالأبطال يحملهم الخيل ، وتطلق بهم كالسهام ، ولما حلوا يشيرون النفع الذي
يصاحبه الموت الزؤام للأعداء . وفرسان كهؤلاء يحملون إلى فرسان الفريق الآخر يحملهم خيل
مسومة أصيلة ، وهم هنا فرسان قومه ، وعلى كل فرس فلوس جبار ، متعشش لشرب الدماء ،
دماء الأعداء ، وبأيديهم السيوف والرماح القاطعة اللامعة . وعندما يلتقي الطرفان يسكت كل
صوت غير صوت ضرب السيوف والرماح ، وصوت الرامي ، ووقع الرمي الذي أصابته
الرماح :^(٤)

وخيلهم تحمل الأبطال شعثاً غداة الرّوع أمثال السهام^(٥)
عناجيح تئب على راحها تشير النفع بالوت الزؤام^(٦)
إلى خيل مسومة عليها كماة الرمح في رنج القتام^(٧)
عليها كل جبار عتيد إلى شرب الدماء تراء غلامي^(٨)
بأيديهم مهتدة وسمر كان ظلماتها شعل الضرام^(٩)
فجأوا عارضا برداً وجثنا حريقاً في غريص ذي ضرام^(١٠)
وأسكت كل صوت غير ضرب وعترسة ومريسي ورامي^(١١)

(١) الديوان ١٢ .

(٢) الهيجا : الحرب ، والسّمهري : الرمح الصلب العود ، والمقصّد : المكر بصفتين حتى يهون .

(٣) الفُغواء : اسم أولاد ، وعصيد : للأيون ، ومنه ، عصيدته على الأمر : إذا أكرهته عليه .

(٤) الديوان ١٥٨ .

(٥) شعثاً : جمع أشعث ، وهو الشعر الراس والبدن .

(٦) عناجيح : جمع عنجرج وهو النجيب من الأهل . وتئب على راحها : تسرع حيث تسرح .

(٧) كماة : جمع ظلة وهي حد السيف .

(٨) غلامي : الشجر للثقف .

(٩) حريقاً : شدة وعنف .

هنا فيما يتعلق بقومه ، أما حديثه عن معاركه ، لو عن دوره في القتال فقد تركزت على مواقف له مع فرسان ، يلقي بهم ، ثم يصرعهم . وعثرة يفتل أولئك الفرسان ذوي سمات خاصة متميزة ، فهو قد ترك زوج غالية بدلاً في ساحة الوعى ، وقد طمت طمعة تجلاء ، جعلت دمه يسيل منه بغزارة^(١) :

وحليل غانية تركتُ مجذلاً تمكو قرصته كشيدقِ الأعمى^(٢)
سبقتُ يداي له بعاجل طمعة ورشاشه ناذق كلون العدم^(٣)

ويصور لنا في مشهد آخر فارساً مدججاً بالسلاح نحاشاً الفرسان خوفاً منه ولكن عثرة جاءت له بداء بطمعة عاجلة بسيف صادق الطعن ، فشك بالرمح الأصم ثيابه ، وفرج الدم غزيراً منه ليدل السباع ثباته لياكلن لحمه ، وهو يعلل لنا قتله على الرغم من أنه فارس كريم ، ولكن الكريم لا يجرم دمه على القتا^(٤) :

ومذجج كره الكفاءة قتاله لا تمعن هزاً ولا مستسلم^(٥)
جاءت له نفسي بعاجل طمعة بمقتد صدق الكعوب مقوم^(٦)
برحمة الفرعين يدي جزوها بالليل معتنى الذئاب الضرم^(٧)
فتككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القتا محرم^(٨)
فتركت جزر السباع ينشته يقضمن حسن ثيابه والنعصر^(٩)

ويكرر هنا المشهد ، وهو يصور فيها فارساً شجاعاً ، يصرعه عثرة ، ويترك لحمه للسباع لتأكله ولكنه لا ينكر هزبه لحقت به ، بل يذكرها مع تعليل هزبته لأنه كان حاسراً ،

(١) الديوان ١٤٩ .

(٢) حليل : زوج : والغانية : التي استغت بزوجه ، أو الشابة ، والكو : تعطر ، والغريصة : اللوح الذي يرد من الدابة والإنسان إذا خاف ، والأعمى : للشقوق الشفة العليا .

(٣) الناقلة : الطمعة التي نطقت إلى الجانب الآخر ، والعدم : صبح آخر .

(٤) الديوان ١٥٠ - ١٥١ .

(٥) الذجج : الذي تورى بالسلاح .

(٦) للقب : الضرم والصلح . والكعوب : عقد الأثياب ، وصدق : صلب .

(٧) الرحمة : القوامة ، والفرخ : ما بين كل عرويين ، والجرس : الصوت ، والنعس : النعس الطالب ليلاً ، والضرم : الجراح .

(٨) ثيابه : درعه وقيل : ثيابه ، وقيل : بدنه .

(٩) الجزر : جمع جزرة وهي الشاة والناقة التي تلبح وتحر ، وينشته : يتناولنه .

ويقرنها بصورة أخرى لهي السامع هذه الخزيمة ، فيذكر قتل فارس آخر وتركه ملطخاً بدمائه التي تنزف منه :^(١)

ظرو لافئسي وعليّ ذريعي علمتَ علامَ تحتملُ الدروعُ
تسركتُ جَبيلةً بنَ أبي عديٍّ يئسُ ثيابهَ علقَ نَجيعٌ^(٢)

وبين لنا ما يفعله في المعركة ، فهو يكر عليهم إن لحقوا به ويترسه ، وعندما يلحجم القربان يشد على الأعداء ، أي أن عترة يهجم عندما تلحجم الحيل ويحس بأن قومه في ضيق ، وهو يتزل إلى ساحة الرمي ويثبت عند اللقاة حيناً يفر القارس منها فرحاً :^(٣)

إن يُلَحِّقُوا أَكْرُزُ وإن يَسْتَلْحِمُوا أَشَدُّ وإن يُلْقُوا بِضَنكِ أَهْزِلْ
حينَ النزولِ يكونُ غايَةً ويثبنا ويَقِرُّ كلُّ مفسلٍ مُستَوْهِلٍ^(٤)

ويرافق عترة في معاركه فرسه وسيفه ورمحه وبنود قتاله ، وهذه يصفى عليها عترة سمة الشجاعة والصبر والقوة والمنازلة ، فهو في معاركه يتنقل على فرس يدحرجه دحرجاً ، وهذا الحصان تتعاقبه الرماح من القربان الشجعان وهو يتحملها صابراً لا يشكو ولا يئن :^(٥)

إذ لا لزالَ على رَحالةٍ سابعٍ نَهْمُ ثَغَاوَرِهِ الكُفَاةُ مَكَلَّمٍ^(٦)

وبصور لنا هذا الحصان في مشهد آخر وكأنه أدلة من أنبوات القتال فهو يرمي الأعداء بشفرة تحره ويلبثه حتى ليس تحره ولبانه ثوباً من الدم :^(٧)

ما زلتُ أرميهم بِشَفْرَةٍ تُحَرِّيهِ وألبانيه حتى تُسْرِبِلَ بالدمِ^(٨)

ويكرر هذا المشهد في قصيدة أخرى ، فهو يكر على الأعداء مهزبه وهو كالميم ، وقد تقلد

(١) الديوان ١٠٥ .

(٢) حلقى : دم ، ونجيع : ما ضرب لونه إلى السواد .

(٣) الديوان ١١٩ .

(٤) مستوهِل : ضعیف يفرح .

(٥) الديوان ١٤٩ .

(٦) الرحالة : السرج يعمل من جلود الشاة بأصوافها يتخذ للبعري الشديد ، والسابع من الحيل : الذي يدحرج يديه دحرجاً كأنه يحوم ، والهد : الغليظ ، والكسي : الشجاع .

(٧) الديوان ١٥٣ .

(٨) الشفرة : الخزيمة التي في الحلق .

بسياب حر هي دملوة التي نسل ، وتقع السهام على موضع واحد تقريباً من هذا المجرى وهو نحره وكذاها ثوراته :^(١)

أَكْرُ عَلَيْهِمْ مُهْرِي كَلْباً قَلَائِدَةُ سِيَابٍ كَالْقِرَامِ^(٢)
إِنَّا شَكْتُ بِتَأَلُّفٍ يَدَا نَعْرُضُ مَوْضِعاً ضَمَكَ الْفُجَامِ
كَأَنَّ دُفُوفَ مَرَجٍ مَوْفَقِي ثَوَارَتَهَا مَنَازِعُ السَّهَامِ^(٣)

وعندما يتحدث عشرة عن سيفه ودوره في المعركة ، فإنه كشعاع البرق ، قاطع لا يفلت فيه ولا صانع ، رقيق الحد ليجمع بين الخفة وسرعة الفتك بالأعداء . ويعمل رهاً مستقيم القناتة ، أجلس ، صلباً ، إذ يطلع ليلاً بحسبه الرائي نلراً ملتهية :^(٤)

وسيفي كالعقيقَةِ وهو كسفي ميلاحي لا أَقْلُ ولا قُطَارِ^(٥)
وكالْوَرَقِ الخفاف وذاتُ عَرَبٍ تَرى فيها عن الشرع الزورارِ^(٦)
ومطرِدُ الكُعُوبِ أَحْصَى صَدَقَ فخالَ مِثَالَهُ بِاللَّيْلِ نَارِ^(٧)

والخيماء والقنصر عند عشرة لسان ، قسم فردي ينفصه هو ، وقسم آخر قبلي متصل بشيئته ، والقسم الأول أغلب في شعره . أما القسم الفردي فإن مادته الأساسية هي القنصر بطوكه في المارك ، وقد عرضنا لهذا الجانب أول معطلة في حديثنا عن المارك ، ولقد كان عشرة يفسر بأنه قائد القوم ، وبأنهم عندما يشتد الكرب فإنهم يدعونه لنجدتهم ، وهذا ما يفسر نفسه ويختلف من وفاة ما يحس من محاولة قومه أو بعضهم التقليل من شأنه :^(٨)

ولقد شَكَى نفسي وأبرا سَكَمَهَا قِيلَ الفوارسِ وَتَكَ عَتَرِ أَقْدَمِ

(١) الديوان ١٥٣ .

(٢) الكلبي : الجريح ، وسياب : جمع سية وهي الشفة الرقيقة ، والقرام : ثوب من غليظ الصوف يفرش في المروج ، وليل : هو السر الزليل الآخر وهو المراد هنا .

(٣) الدفوف : جمع دف وهو الجنب ، ومنازيع : جمع مزعة ، من نزعت : افتارعت .

(٤) الديوان ٧٦ .

(٥) العقيق : شعاع البرق ، والكعب : الضجيع ، والخل : تلم ، وفطار : فيه صلوع وشقوق .

(٦) عرب : حلة ، والشرع : الأوتار .

(٧) الكعوب : جمع كعب ، وهو عطفة ما بين الأيديتين من القصب والفسا . والأطرد : استقامة الشيء ، وأحصى : أجلس ، وصدق : صلب مستر .

(٨) الديوان ١٥٤ .

وعلى الرغم من عقدة عشرة من جهة أمه فإنه لم يستطع تجاهلها ، بل ذكرها واقتصر بأنه
يتقدم الجيش كقائد لهم وإن أباه من غير عيب ، وأمه حامية الأصل :^(١)

يقدمه فتى من خير عيسر عيسر أبوه ، وأمه من آل حاكم

ويكرر هذا المعنى في موضع آخر ، ويضيف إلى أنه يعرض هذا الذي يلحقه من ضعة
النسب من جهة أمه ببطولته في القتال حيث يقول :^(٢)

إني امرؤ من خير عيسر متصياً شطري ، وأخني سائري بالمتصل

وعترة كفارس يلى الظلم ويغرمته ، ويفضل أن يبيت على الطوى على أن يصيه ظلم لو
بذل لقوم ويصور البيت التالي تقسية الفارس العربي على مر الأزمان وما ينبغي أن تكون عليه
دوماً :^(٣)

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكول

وعترة الذي عرفت عنه القوة والبطش بالأعداء ، إنما هو سهل خالفته بشرط ألا يظلم ،
لأنه إذا ظلم فإنه لن يكون متساهلاً مع الذين يظلمونه ، بل سيليقهم كأساً مرة الطعم
كالعلم :^(٤)

أتبى على بما علمت فوشى سهل مخالفتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل سر مدافقه كطعم العلقم^(٥)

واقتصر بجملة فضائل تعتبر من شيم الفارس العربي ، كالكرم ، وبذل الأخلاق ، ونجدة
لللهوف ، وكف لسانه عن شتم امراض الناس رغم شتمهم له ، وشكر القوم على نعمه . وقد
عرضنا لها في موضع آخر من هذا البحث .

أما الجانب الآخر من شعره في الفخر ، فهو ما يتصل بالفخر القبلي ، وهو كثير في شعره
على الرغم مما يشاع عن فرديته بسبب صراحته مع قبيلته ، وسنعرض لبعض نماذج من هذا الفخر

(١) الديوان ١٥٩ .

(٢) الديوان ١١٩ .

(٣) الديوان ١١٩ .

(٤) الديوان ١٤٨ .

الذي تركز على الفخر بفرسان قبيلة وحمل بطولتهم يوم اللقاء . هذا اعتزاز يحملنا عن فرسان قومه
يوم حركنا فيقول^(١) :

أَيُّنَا فَلَا تُعْطِي السَّوَاءَ عَتُونَا قِيَامًا بِأَعْضَادِ السَّرَاةِ الْمُعْطَفِ^(٢)
بِكُلِّ هَتُونٍ شَجَّهَا وَخَوَّيْ^(٣) وَنَهَمٍ كَثِيرٍ الْحَمِيرِ الْوَقْفِ^(٤)
فَإِنْ يَكُ عَزْ فِي قَضَاعَةٍ ثَابَتْ لَنَا بِرَحْرَحَانٍ وَأَسْطَفِ^(٥)
كَتَابٍ شَهْبًا فَوْقَ كُلِّ كَتِيبِ^(٦) لِسَوَاءٍ كَنْظَرِ الطَّائِرِ الْمُتَصَرِّفِ^(٧)
وَعَادُونَ مَسْعُودًا كَانَ بِنَحْرِ^(٨) شَقِيقَةٍ يُزْرَى مِنْ بَيْنِ مُتَوَقِّفِ^(٩)

وفخر هؤلاء الفرسان في موضع آخر ويصبرهم على الفكر والفكر ، ولحملهم الألم ،
وحملتهم ، ولروستهم فيقول^(١٠) :

وَقَوْلَارِمْ لِي قَدْ عَلِمْتُهُمْ حَبِيرَ عَلَى التَّكْرَارِ وَالْكَلِمِ^(١١)
يَمُشُونَ وَالْمَاضِي لَوَلَّيْتُهُمْ يَتَوَقَّدُونَ تَوَلَّدَ الْفَحْمِ^(١٢)
كَمْ مِنْ قَتَى فِيهِمْ أَحْسَى ثَلَاثُ^(١٣) حَسْرَ أَغْرَ كَفَرِي الرُّمَمِ^(١٤)

ولا ينسى أن يعقد مقارنة بينهم وبين فرسان الأعداء هؤلاء ، أي الأعداء ، سود
الوجه^(١٥) :

لِإِسْوَا كَأَسْوَامٍ عَلِمْتُهُمْ سُودَ الْوُجُوهِ كَمُعْصِدِ الْبُرَمِ

ولم يفخر بقومه بأمر غير متصلة بالحرب ، ولهذا تحليل ، فيها اعتقاد ، بأن الفخر

(١) الديوان ١٠٧-١٠٨ .

(٢) السواء : النصف ، وأعطى : أقر ، والسراء : شجر تخدم منه الناس .

(٣) الهتوف : المسوة عند الرمي لشدة وثرها ، والهمس : عجز القوس وتطيقها ووضوئة : منصوبة
إلى رضوى ، وهو جبل بالندية ، وسهم مؤقف : مقفود على قدر واستواء .

(٤) شهب : يضيء ، والتصرف : للقلب .

(٥) شقيقة : تصغير شقة .

(٦) الديوان ١٥٥ .

(٧) التكرار : كثرة الفكر ، والكلم : المخرج .

(٨) للمضي : السراح كله من الحثيد الحثايس .

(٩) أسى ثقة : يوثق بما عنده من الشجاعة والخير ، والرثم : الضي الحثايس اليأس .

(١٠) الديوان ١٥٥ .

بفرسانهم وبقروميتهم متصل بالضمير بنفسه من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن عشرة نفسه خلا
شعره تقريباً من الشعر القبلي غير المتصل بالحرب ، أو على الأقل خلا الشعر الذي بين أيدينا .

والتهديد والوعيد من موضوعات شعر عشرة ، ولكنه ليس بالكثير وحيثما يتوعد قوماً للإلحاق
بتوعدهم مذكراً لهم بما فعله بغيرهم ، أو يهض أبطلهم في أيام سابقة ، ويحصل ذلك لما
سيحدثه من أثر نفسي فيهم عندما يذكرون ما حدث لغيرهم وما سيحدث لهم ، توعد حي عبيرة
من فزارة فقال مذكراً إياها بضعتها^(١) :

سائلٌ عبيرةً حيث حلتُ جمعها عند الحروب بأيّ حنٍ ثلح^(٢) ؟

ثم يذكرهم بحطيفة وبمصيروه فيقول^(٣) :

واسألْ حذيفةَ حين أُرْسَ بينا حرباً ذوالنبها بموتِ تخلف^(٤)

ثم ينتقل إلى التهديد المباشر فيقول :

فلتعلمنْ إذا التقتِ قُرسانا بلسوى الشجيرة إن غنك أحن^(٥)

وعندما تقتل فزارة مالك بن زهير صديق عشرة ، يلقب ليرثيه مصوراً بطولية ذلك
الفارس ، وما فعله بهم ، وأثر موته ، ويغتم القصيدة بيتين يتوعد فيها فزارة ، ويقسم إن بقي
بعد حياً وأمكنه الدهر ليعلمن بهم ما لو كان مالك حياً لقرت عينه :

فسوف ترى إن كنتُ بعدك باقياً وأمكنني دهرٌ وطولُ زمانٍ
وأقسمُ حقاً لو بقيتُ لينظروا لقرتُ بها عيناك حين ترائي^(٦)

وسلاح عشرة الآخر غير السيف والرمح ، الشعر وهو يذكرك الرذالك الشعر إن بلغ قوماً مع
ما يعلمون من القوة التي يمتلكها صاحب هذا الشعر . فالقول مع القدرة على العمل له مفعول
الفعل نفسه ، ولنسمعه يتهدد بني العشاء عندما قتلوا قرواشاً قبيلة ليقل :
سبأنيكم عني وإن كنتَ نائياً . دُحانُ العلتدي دون يشي مزوذة^(٧)
قصائدُ من قبل امرئٍ يخذلهم^(٨) بني العشاء فارعدوا وغفلدوا^(٩)

(١) الديوان ١١١ .

(٢) عبيرة : من فزارة ، وحيث حلت جميعها : أي يجمعها .

(٣) الديوان ١١١ . (٤) الديوان ١٧٧ - ١٧٨ .

(٥) الديوان ٤٧ - ٤٨ .

وتعصى عشرة لأولئك الذين يتوعدونه وقومه ، أو يهيمون بفكر قومه ، فقد حالت عيس
بني كعب ، وهما بفكر بني عيس ، فقال عشرة عخلوا وعخلوا .

قلتُ لكعبِ والقنسا مُشْتَجِرُهُ تعلمسي يا كعبُ وامشي مبصرة
ثم اذهبي مني وكوني حَكْرَةً^(١)

وتوعد عمرو بن أسود وقومه بني سعد بن عوف بن مالك بن زيد بن قيس ، فقال ملوكراً
إياهم بأن رماحهم قد تكسرت فشدت بالماء ، وهي سوانا لقدعها ، وهم لم يسلبوا قوماً
لأنهم جبناء ، وهم ليسوا بأغنياء فيشتروها ، وهذه سخريه مرة من الذين يتوعدونه ويختم هذا
الرد بجاء عمرو بن أسود ويشبهه بقي ناقة عطشى أسرع بعد أن اشتد عطشها إلى مورد
الماء^(٢) :

قد أوعدونني بأرماح مُعَلَّبَةٍ سود لُيْطَنَ من الحُرْمان أخلاق^(٣)
لم يَسْلُبوها ولم يُعْطُوا بها ثَمناً أيدي النعام فلا أسْقاعُهم الساقِي
عمرو بن أسود فازياء قاربة ماء الكلاب عليها الطَّبِي معنقى^(٤)

ويقل الهجاء في شعر عشرة ، إذ لا تكاد نعر له إلا على قصيدة واحدة يعجوقها عبارة بن
زيد العبيسي هجاء صريحاً ، وقصيدة أخرى يعرض بقيس بن زهير . وكان الهجاء عند عشرة
للذين يملكون النيل منه ومن فروسيه ، أو يملكون الطعن في نسيه ، وكان رده عليهم إيجاباً بأن
يذكر لهم بلائه وحروبه ومدامته عنهم . وكان يه كان يربأ بنفسه وهو الفارس العليم أن
يستعمل بذيء الكلام في هجائهم ، وكان يرى أن الفضل طريقة هي تذكرهم بأفعاله يوم جبنوا ،
ويذكرهم بما يتحل به من كريم الخصال . لقد غزت بنو عيس بني قوم وعلبهم قيس بن زهير ،
فانهزمت عيس ووقف عشرة لهم فيعلمي عن الناس ، فساء قيساً ما فعل عشرة ، ولم يجد عشرة
طريقة أفضل للرد عليه من تذكره بما فعله فقال^(٥) :

(١) الديوان ٢٠٠ .

(٢) الديوان ١١٠ .

(٣) العلب : الذي حزم مقبضه بعليه البعير ، وهو عصب الحنق ، ولتظن : أي لم تكن عندهم من
سلب ولا شراء ، وأخلاق : بالة .

(٤) فلزياء : لم زياد ، وزياء : كثيرة شعر الأذن والعينين ، والقارية : التي تطلب اللد ، ومعنقى
مصرعة .

(٥) الديوان ١١٩ - ١٢٠ .

والخيلُ تعلمُ والفوارسُ أني فرقتُ جمعَهُمْ بطعنةٍ فيصكر
إذ لا أبادرُ في التصيقِ قوارصي ولا أوكُلُ بالرعيلِ الأولِ^(١)
ولقد غدوتُ أمامَ رايتهِ غالبِ يومَ الحياجِ ومسا غدوتُ بأعزلِ

ولا ينبغي أن يذكر قيساً وغيره بأنه في ساحات الوضي ، وسنرى يشهد الخطب ، فهو خير من
في الحب والنسب^(٢) :

وإذا الكتيبةُ أحججتُ وثلاثُ حظَّتْ ألقيتُ خيراً من مُعِيرِ غولِ

وعندما بلغه أن عماره بن زياد العبي ، وهو من سادة عيس ، يتوعدّه ويأمنى لولقيهِ
حالياً حتى يعلم عيساً أنه حيد ، فقال حدثنا عنترة وقد أثّر ما قاله عماره ، بهجوه هـ ، تبيهاً ،
ولكنه لم يسترسل في ذلك الهجاء ، بل عاد إلى طبعه ففطر بسيفه وبطلته ، وكانه بذلك يعرض
بعمارة وبجته^(٣) :

أحوالي تنفّضُ استكَّ ميثرونيًا لتقتلني فيها أنا ذا عمارًا^(٤)
منى ما تلقني فردّين ترجفُ وروائفُ ألييكِ وتُستطارا^(٥)
وسيفي صارمٌ قبضتُ عليه أشاجعُ لا تری فيها انتشارا^(٦)

وللرثاء نصيب في شعره ، ولكنه لم يرث إلا فارسين من فرسان عيس ، قرواش السلي
قتله بتر العشاء بحليفة الذي قتله يوم جفر الحياطة ، وسالك بن زهير الذي قتله فزارة . ولا
نذكرى لم سكت عن رثاء غير هذين من فرسان القبيلة أو ساداتها . وقد خص قرواشاً
بمقطوعتين ، وخص مالكاً بقصيدة طويلة . ولكن رثاء عنترة ليس ندياً أو بكاءً ، وإنما هو ذكر
لبطلته ذلك الفارس القليل ، وما فعله بالقوم قبل أن يقتلوه . قال في قرواش مطرناً يته وبين
الأعداء ، وبيناً فروسيته ، ومذكراً إياهم ببعض قتلاهم الذين قتلهم قرواش^(٧) :

-
- (١) الرعيل : القطعة من الخيل القليلة ، ولا أوكُل : لا أكون أول من يرب في لواق الخيل .
(٢) النديان ١١٩ .
(٣) النديان ٧٥ .
(٤) المفردان : طرفاً الأليين ، عمارا : هو عماره بن زياد العبي .
(٥) فردّين : مشرفين ، وروائف : جمع رافعة وهي أسفل الآلة ، وتُستطارا : تضرع .
(٦) الأشاجع : جمع أشجع وهو العظم الذي يصل الأصبع بالرسغ .
(٧) النديان ٤٧ - أمثال القسي ٣٩ .

هَدَيْكُمْ عَيْرُ أَبَا مِنْ إِيَّكُمْ أَعَفُّ وَلَوْ بِي بِالْجَوَارِ وَأَخَذُ^(١)
وَأَطْمَنْ فِي الْهَيْجَا إِذَا الْخَيْلُ صَدَّهَا خِلْدَةُ الصَّبَاحِ السَّهْمَرِيُّ الْمُقَصِّدُ^(٢)
فَهَلَّا فِي الْغَزَا عَمْرُو بْنُ جَابِرٍ يَذْمِيهِ وَابْنُ اللَّيْطِ عَصِيدُ

وعندما رثى مالكاً ، وكان صديقاً له ، فإنه أظهر بعض الجزع الفند ، وتذكر سبب تلك الحرب ، وهو تلك الزمان فتشئ لو لم يكن ، ولو أنها ما قبل أن يهربا ، لأنها تسيب في مصرع مالك ، وعدد مناقب القتيل ، فهو كريم ماجد ، يحمي الدعار في الهيجاء ، ويطمن عند الكر والفر فقال :

لقد جلبنا حيناً لمصرع مالك وكان كريماً ماجداً لهيجان
وكان لدى الهيجاء يحمي فمارها ويطمن عند الكر كل طعان

ويصور لنا أهمية مالك بالنسبة لعنترة كسند له في القتال ، ويظهر حزنه عليه فيقول :

به كنت أسطو حيناً جدت العدا خِلْدَةُ اللَّيْلِ لَحْوِي بِكُلِّ يَمَانِي
فقد هد ركني فقدته ومصابه وخلى فؤادي دالم الحفان

وقد بلغ الجزع به أن نسي الموت ، فتشئ لو أن السهم الذي رماه رماه أيضاً في نفس الوقت ، ومن شيل إلى أن هذا البيت ربما كان متحولاً عليه ، فتلك نعمة لم نسمعها في شعر عنترة :

رماه بسهم الموت رامي مُصَمَّم فياليت لما رماه رماي^(٣)

ويتجد فرقا بين القصيدتين ، ولعل السبب أن مالكاً كان صديقاً لعنترة ، وقد أرموته في عنترة ، فأحزنه وأنطقه بما قال في وثاقه . بينا فرواش فارس من فرسان القبيلة ، كل ما يعني به عنترة هو بطولته وخسارة القبيلة بطلته .

ويبدو أن صلب السيف ، وخيار المعارك ، لم تحجب حقيقة عن عنترة ، تلك هي الموت ، فقد ردها ذلك الفارس في شعره في مواضع أربعة . ذكرها في حديثه عن غارة لطيء على

(١) هدى : جازم يرم عليهم منه ما يرم من الخيل .

(٢) اللبيوان ١٧٧ .

بني عيس ، وما فعله بالعثنين ، ويرر اندفاعه بأن الفرار لن ينجيه من ثلثه المحتوم ، كما أن الإقدام لن يجعل بها :

وعرفتُ أن مَنِّيَّسي إن تَأْتِي لا تَجْزِي منها القِيارُ الأسْرَحُ
لصبرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً ترسو إذا نفسُ الجِبانِ تَطْلَعُ^(١)

وكرر هذا المعنى في موضع آخر حيناً تحدث عن يوم الفروق فقال مفتخراً بنفسه وبقومه ، وشجاعهم يوم اللقاء ومعللاً إقدامهم وعدم خوفهم :^(٢)

فما وجدونا بالفروقِ أشابةً ولا كُثُفًا ولا دُعِينًا مَوَالِيًا^(٣)
تعالوا إلى ما تعلمون فإني أرى الدهر لا يُنْجِي من الموتِ ناجيا

ويقل لنا في موضع ثالث صورة لطيفة لإقدامه في المعارك ومدانته الموت ، فهو في إقدامه هذا إنما يشبه إقدام القاروس الشجاع من الجبان ، فهو يقدم عليه غير هباب . والموت طوع وبدي عترة يقدف به كل عدو ، إذا ما أسرع إلى سيفه :^(٤)

وما دَانِيَتْ شَخْصَ المَوْتِ إلَّا كما يدنو الشجاعُ من الجِبانِ
وقد علمتُ نسر عيسر بَأْنِي أَهْشُ إذا دُعِيَتْ إلى الطَّعَانِ
وَأَنَّ المَوْتَ طَوْعٌ يَلِي إذا ما وصلتُ بناها بالْمُسْدُوَانِي

والموت كالس لا بد أن يسقى به كل إنسان ، وهو مهمل لا بد من وروبه ، وأن الإنسان ميت سواء أقتل بالسيف أم بغيره . وقد ردد ذلك حيناً بكثرة حلفته نفوفه من الموت فقال :

فأَجَبْتُهَا إِنَّ المِيتَةَ مَهْمَلٌ لا بُدُّ أَنْ أَسْقَى بِكَاسِ المَهْمَلِ
فأَقْنِي حَيَاكُم لَا أَبَا لَكَوَا عُلْهِ أَتَمِي امرؤُ سَامُوتِ إِنْ لَمْ أَقْتَلِ^(٥)

وقد امتزجت غريبات السيوف وحلت عترة عنها وهو يصول في المعارك ، امتزجت أحداث عترة عن الحرب بالحديث عن هيئته عيلة ، وكأن المعارك وضجيجها لم تستطع أن تسبه به ، وهي ميزة تميز بها شعره ، فلقد ذكرها والرماح تنوشه ، ودمه يسيل من جسمه ، ولم

(١) الديوان ١٠٤ . (٢) الديوان ١٩٤ .

(٣) أشابة : المتلاطم ، وكثف : تكثف عند اللقاء فتهمز ، والقروق : واد بالهامة والبحرين .

(٤) الديوان ١٢٩ - ١٨٠ . (٥) الديوان ١٢٩ - ١٨٠ .

(٦) الديوان ١٢٠ .

تستطع تلك الأمان أن تعجب صورتها عنه ، فود تعجب السيف لأنه تعجبها فم علة للتبسم .

ولقد ذكرتكَ والرماحُ نواهلُ مني وبيضُ الهندِ تقطيرُ من دمي
فَوَدِدْتُ تعجبُ السيفِ لآها لَمَسْتُ كِبَارِقِي فَعَمِرْتُ التَّبَسُّمُ^(١)

ويبرر انشغاله عنها ، وعدم زيارته لها ، وهو يعلم أنها لا تعلم كل الأسباب التي منعت ، وهو يخبرها بأن حرب داحس التي لونها لها ببيض ، وهو ليس من لونها ومع تلك جمعت مع من جمعت لأنه من حبس ولا يستطيع اعتزالها :

إني عُداتي أَنْ أَزوركِ فاعلمي ما قد طلعتِ وبعضُ ما لم تَعْلَمِي
حالتِ رماحُ ابني بفَيْضِ دونكم وزوتِ جواني الحُربِ مَنْ لَمْ يُحَرِّمِ^(٢)

الخصائص الفنية للشعر :

شعر عشرة قطعة من الشعر الجاهلي ، وهو يمثل مرحلة متأخرة زمنياً وقريبة من الإسلام ، إذ أن هذا الشاعر مات قبل الإسلام ، كما أن شعر عشرة عناصر مدرسة تميزت بطابع معين متميز ، وتعني مدرسة زهير بن أبي سلمى ، مدرسة الصناعة . ولكن عشرة بطبيعة تكوينه ، ولطروف حياته ، فإنه لم يشارك كثيراً بهذه المدرسة . فهو لم ينفتح شعره كثيراً ، ولم تغلب عليه الصناعة ، وحرص على تصوير الواقع دون زخرفة ، ليخدم فرضاً أساسياً هو تصوير بطولته ومحاولة إتصافه بامام الدين يحاولون النيل منه .

فالفردات سهلة ، وهو لا يعتمد إلى الغريب إلا نادراً ، ولكنه لا يهمل المفردات بل يحسن اختيار المناسب منها للموضوع الذي يعرضه ، فالمفردات التي يستخدمها وهو يتحدث عن ساحة الفناء الأبطال ، غير تلك التي يختارها ليخبر عن عاطفته ، وهي غير تلك التي يستخدمها حين يتوعد قوماً . ولا يعتمد إلى الغريب من الألفاظ إلا نادراً ، ولا نلمح أثر التزيين والصناعة واضحاً إلا في مغلته ، ويبدو أنها حملت للتحدي ، وليثبت مقدرته الشعرية ، كما أثبت مقدرته البطولية .

وتكرر مجموعة من المفردات في شعره ، وهي مجموعها مفردات يستلزمها شعر الحرب عامة ، وبمسن الشاعر توزعها في شعره .

(١) الديوان ١٥٠ ، (٢) الديوان ١٥٤ .

وإذا ما انتقلنا إلى التعبير في شعره ، فإننا نرى شعره ينسم بالوضوح والبساطة مع البلاغة وعدم السقوط الفني . ولا نجد من تحليل لهذا إلا أن الشاعر يعرض قضية فارس ، ويصور بطولته ، وفي الوقت نفسه لا ينسى جانب الفصاحة والبلاغة عند قوم تعتبر البلاغة والفصاحة مادة من مواد فخريهم . فهو ينسم بجودة الأسلوب وبلاغته ، ومع ذلك يجمع إليها البساطة والوضوح . ويورد الحجج ، ويشير الحوار مع حاذقه أو زوجته أو الرد على من يحاول الإتياف من قدره . كل ذلك يحتاج إل هذه العوامل ليرتق أكله . طعن عنترة في إحدى الأيام ، فقال معللاً ذلك ومعرضاً بخصوصه .

إِنَّ الْكَرِيمَ نُدُوهُ فِي وَجْهِهِ وَنُدُوبُ مَرَّةٍ لَا تُرَى فِي الْمَدْحِ
لَكِنْ فِي أَكْتَافِهِمْ وَظُهُورِهِمْ فَبِذَاكَ فَافْخَرْ بِشَيْءٍ ذَاكَ الْقَضَرِ^(١)

لما الصورة في شعر عنترة ، فهي صورة متصلة بالموضوع الغالب في شعره وهو شعر الحرب ، وعلى الرغم مما يتميز به شعره وهو السرعة الفنية ، إلا أن هذه الصورة عرضت ببساطة ووضوح ، فبدت جميلة واضحة . وهي صور من الواقع ، ها هو يصور فارساً من فارس الأعداء وقد قتله ورد العبيسي وتركه يجر الأسيئة كاللحطب الذي يجر وراءه أطراف العبدان لمس الأرض :

وَعَادُونَ نُظِّلَتْ فِي مَعْرَكِهِمْ يَمْسُرُ الْأَسِيئَةُ كَاللَّحْطَبِ^(٢)

وسرايا عيس وهي تشير إلى القتال تشبه مجموعات طير وهي تقصد مورد الماء :

كَأَنَّ السَّرَايَا بَيْنَ قَوْ وَقَارَةٍ عَصَائِبُ طَيْرٍ يَتَحَجَّرْنَ لِشَرِّبِ^(٣)

وعندما يمشي الفرسان في ترويحهم يحسبهم الرائي سيولاً متدفقة ، لهم كثر ولون الدروع اللامعة يعكس ألوانا يشبه لون الماء .

إِذَا مَشَوْا فِي السَّابِغَاتِ حَصِيَّتَهُمْ سَيُولاً وَقَدْ جَاشَتْ بَيْنَ الْأَبَاطِجِ^(٤)

والرماح الزعينة سنانها لامعة كأنها شهاب لمع في الظلام :

وَكُلُّ رُقَيْبِيٍّ كَانَ سِيَانَهُ شِهَابٌ يَدَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَاضِحٌ^(٥)

(٢) الديوان ١٧

(٤) الديوان ٤٣

(١) الديوان ١٩٩

(٣) الديوان ١٨

(٥) الديوان ٤٤

وعندما يلتقي حصانه وراح الأعداء فإنها تترك في نحره مجاري من الدم وكأنها حبال بشر ،
وقد كرر هذه الصورة في شعره .

ولا نستطيع أن نطيل الحديث عن الصورة في شعر عنترة ، ولكننا نخلص مما عرضنا بأن
التشبيه بأنواعه يكثر استخدامه استخداماً لا تكلف فيه في شعره ، لأهميته في توضيح الصور ، كما
نلاحظ اهتماماً خاصاً عند الشاعر بالألوان .

ويجزم عنترة بمحضر الحركة في الصورة ، فهي ليست صورة جليدة ، فالدرع ليست لامعة
فحسب ، بل إن الرجال حين يلبسونها ويمشون بها كأنها سيول الماء ، والرمح اللامعة الحادة
كالشهب التي تلعب في الظلام ، والسرايا تسير وتشبه عصاب الطير المتحركة للجهة نحو مورد
الماء ، ونستطيع أن نقول إن ذلك راجع إلى طبيعة الموضوع للسيطر على شعره وهو شعر الحرب ،
والحرب قوامها الحركة والصخب ، فهي كَرٌّ وفَرٌّ ، وضربٌ وطعنٌ ، وثباتٌ وهربٌ .

كما تتجلى ظاهرة التخصيص في شعره ، فقلوب عنترة فارس جيلان ، لا يهله الفارس
الشجاع :

وما دأبتهُ شخصُ الموتِ إلا كما يدنو الشجاعُ من الجبان^(١)

وحصانه كأنه إنسان يزور من وقع الفنا ، ويشكو إلى عنترة بعبرة ولحسم ، وهو يهرد
للطعان تارة ، وتارة أخرى يحدد الكثير من القوم .

فازورُ منْ وقعِ الفنا بلبابه وشكا إليّ بعبرته وتَحْسُمُ^(٢)
ويقول أيضاً :

طوراً يهرد للطعان وتارة يأوي إلى حصن الجببي عزيم^(٣)

أما البحور التي استخدمها عنترة في شعره فهي على الترتيب : الطويل ، الكامل ، والوافر ،
الرجز ، البسيط ، المخفوف . ولم نأخذ طول القصيدة أو المقطوعة بعين الاعتبار ، لأن عدد
الآيات ليس دائماً ، فربما فقدت بعض هذه القصائد آياتها . وقد استعمل الرجز في المقطوعات

(١) الديوان ١٧٩ .

(٢) الديوان ١٥٣ .

(٣) مملكات العرب - بدري طيانة ١٨٨ .

التي قالها وهو محتط ظهر فرسه ويكر حل الأعداء وقد خلا شعره تقريباً من صوب الوزن والقافية ،
ويعتقد أنه أحسن اختيار الغالبية الملائمة للفرض الغالب على القصيدة .

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الخصائص المعنوية لشعره ، فإن أول ما يطالعنا قلّة
المقدمات الطفلية في الشعر الذي بين أيدينا ، إذ أننا لا نجد مقدمات طفلية أو غيرها إلا في أربع
قصائد . ولا نرى تعليقاً لهذه الظاهرة إلا أسد الأحوال التالية : إما لأن همّ الشاعر في الغالب
إحباط قصة لصاعب تعترضه ، ثم لا يلبث أن يتغلب عليها ، وإما لأن المطالع كانت لم تفقد ولم
تصلنا ، وإما لأن الموضوعات لا تتطلب المطالع ، وإما لأن طبيعة نظمها تتطلب ذلك ، فقد
نظمها ، أو نظم معظمها إبان الحركة ، وأن القصائد التي نظمها بعد ذلك جعل لها مقدمات .

وتجلى بوضوح في شعره ترعّتان متقابلتان ، النزعة اللاتية وتتمثل في احترازه بنفسه ،
والتعني بالبطولة القردية ، ونزعة قبلية تجلت بالفخر بفرسان قومه . وقد فترج الترعتان في بعض
المقطوعات والقصائد ، ففي قصيدة تحدث فيها عن يوم القروقي وتحدث عن قومه ، ثم تحدث عن
نفسه وبطولته^{١١} ، وفعل مثل ذلك في حديثه عن يوم الهبادة ، فقد تحدث أولاً عن فرسان حبيس ،
ثم خصص نفسه وفرسه بالأبيات الستة الأخيرة ، وتكرر ذلك منه . وهذا يعني الزعم القائل أن حشرة
تميز بالقردية في شعره .

وتميز شعر حشرة بالواقعية ، وهي مناسبة للقراس مثله يتحدث عما يحدث في ساحة الوغى ،
لا يتخيله ولا يفتعله ولا يدعيه ، فهو ينقل نقلاً صادقاً عن الحياة التي يجيهاها ويجيهاها غيره من
القرسان ، وهو يعنى بتصوير دقائق الصورة لأنها واضحة أمامه ، ويعين مظاهر البيئة المختلفة ،
كما ينقل صورة بالوليا الطبيعية دونما زخرفة أو تنميق ، ويحرص استكمالاً لأواقعيته على التحديد
العددي والتحديد الزمني والمكاني لما يتحدث عنه .

وتبرز في شعره الروح القصصية ، فتمترة في موضوعاته التي يحدثنا عنها ، وهي كما قلنا
متصلة بالحرب يسردها لنا سرداً قصصياً ، ولكن ذلك لا يعني أنه استكمل عناصر القصة في
رسمها ، ولكنه يصطنع السرد القصصي في تصويرها ، فعل ذلك عندما رسم لنا مشاهد مختلفة
للقراس المجدل في ساحة المعركة ، وفعل ذلك حينها نقل إلينا حواراً بينه وبين أسرته ، وفعله حينما
حدثنا عن فرسه ، وأدار حواراً آخر بينه وبين محبوبته ، وقد أعلته على ذلك الوحدة الموضوعية في
القصيدة ، والتي تميز بها شعره ، فشعره الذي بين أيدينا شعر مقطوعات أكثر منه شعر قصائد ،
وهذه المقطوعات معظمها يدور حول موضوع واحد . ولعل طبيعة الموضوع هي التي ميزته بهذه

الظاهرة ، ومن المحتمل أيضاً أن تكون أجزاء من القصائد قد ضاعت . وإن تعرض لشواهد على هاتين الظاهرتين لأننا عرضنا لذلك في الفصل الثالث من الباب الثاني .

وقد بدت الغنائية واضحة في كثير من قصائده ومقطوعاته ، وهي غنائية تتمشى مع شعر فارس قال شعره وهو يذكر حل الأعداء ، ومتشياً بما يحدث من نصر عليهم ، وبما يحظى به من حب وتقدير من الفرسان الأعداء منهم والأصدقاء على السواء ، ولم لا يتشئ بهذا الشجعان الذي بناه بجده واجتهاده ، ولم يره عن أحد ، ولم يعه فيه أحد ؟ ولعل مما جعله حل تلك الحال من الشهوة القتران هذا الطموح وتلك القرومية بهدف ثان هو أن يحظى بحب جيلة إبنه هذه التي لم تبرح صورتها خياله حتى حينما كانت السيوف تواله منه ويرى الحقد تظفر من دمه .

إلى أي مدى يصور شعره أحداث قومه ؟

لقد اصطدمت عيس بليان ، كما اصطدمت بقبائل أخرى في أثناء حروبها مع ذبيان وتطواقها في الجزيرة العربية ، وقبل حروبها مع ذبيان . ولقد نقل إلينا الرواة أن عيساً كانت لها حروب وأيام مع بكر وتميم وطى وأسد وعلمر وذبيان . وإذا نظرنا إلى حرب داحس التي عاصرها عترة وأسهم فيها بتصيب الأسد في فروسيته ، وجدنا أنها في إطارها العام تتكون من واقع الحرب ، ولربما ، ولربما ، ولربما التي خاضوها ، وتشائج تلك الأيام ، وموقف القبائل من هذه الحرب ، وقتل هذه الحرب من الفرسان المشهورين ، ومحاولات إنهاء الحرب بوضع حد لها .

أما دوافع الحرب فقد كشف عنها عترة حين رأى صديقه مالك بن زهير الذي تخطه لفرارة ، فقال متعجباً ألا يكون الرهان قد وقع ، والذي أتى إلى الحرب التي أودت بصديقه :^(١)

فليتها لم يجبرها نصفاً ظنوا وليتها لم يرسلوا لرهان^(٢)
وليها ماها جميعاً يلدو وأعطاهما قيساً فلا يران^(٣)
لقد جلبها حيناً وحرباً عظيمة ثبداً سراة القوم من غطفان^(٤)

ولم يكشف عترة بتحديد سبب الحرب ، بل إنه أتى تبعة تلك الحرب على فرارة التي ظلمت أختها عيساً ، وقد ورد ذلك على لسانه غاضباً الربيع بن زياد :

(١) الديوان ١٧٧ .

(٢) الظفر : الظفر ، مقدار رمية سهم ، وتقدر بثلاثمائة إلى أربعمائة فراس .

(٣) قيس : هوقيس بن زهير .

(٤) من غطفان : يريد عيساً وأبيهاً وفرارة .

فَإِن تَكْ حَرْبُكُمْ أُمِيتَ صَوَاتُهَا فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ مِنْ جَنَاهَا
وَلَكِنْ وَلَدْتُ سَوْدَةَ أَرْكَوَهَا وَشَبَّوْا نَارَهَا لِمَنْ اصْطَلَاهَا^(١)

وقال أيضاً منها حليفة بإشعال الحرب :^(٢)

وَإِسَاءُ حَلِيفَةٍ حِينَ أَرْضُ بَيْتِنَا حَرْباً ذَوَاتُهَا بِمَوْتِ تَحْقِينِ

ويقول في معلقته أيضاً مبيناً أنه ليس ممن أشعل نار الحرب ، ولكنها جمعت ، ويوجه الخطاب إلى حيلة :^(٣)

حَالَتْ رِمَاحُ ابْنِي بَغِيضٍ دُونَكُمْ وَزَوَتْ جَوَانِي الْحَرْبِ مَنْ لَمْ يُجِرْ^(٤)

أما أيام داحس والغبراء التي وردت في شعر عترة فهي يوم الهبادة ، ويوم الرقيب ، ويوم عرار ، ويوم الفروق ، ويوم غدير قلبي ، ويوم العمرة ، ويوم شعب جبلة ، إذا احتيرنا حروب حبس تمتد من اختلافها مع فزارة وذييان إلى أن تم الصلح بين الحين .

وقد وردت هذه الأيام على صورتين ، أولاهما : وهي الأكثر وروداً ذكر تلك الأيام في أثناء تقديم النص كما حله لنا الرواة مدوناً في نسخ الديوان ، وهذه الأيام هي : الهبادة ، والرقيب ، والعمرة ، وجبلة ، وغدير قلبي ، ولأنيبها . وورد بعض الأيام في شعره صراحة وهي : عرار ، والفروق ، ورحرحان ، والجلفار .

أما الأيام التي تحدث عنها غير أيام داحس والغبراء وذكرها عترة في شعره فهي : أقرن ، غلوة لعيس على بني الهجيم ، وغلوة لطيء على عيس ، وغلوة لبني سليم على إيل له وطردهم للكليل ، وغلوة لبني عيس على بني عيس .

هذه هي الأيام التي ذكرها عترة في شعره ، سواء نص عليها في شعره صراحة ، أو ذكرنا الرواة العلماء في تقديمهم للفصائد أنه قالها في يوم كذا .

وسأحدث عترة عن هذه الأيام كان يأخذ مظهرين ، أولهما أنه كان يتحدث عن اليوم أثناء

(١) الديوان ١٨٦ - أمثال الضبي ٣٣ - المقطع الفرید ٥ / ١٥٣ ، بتسليمها للريح بن زيد العيصي .

(٢) الديوان ١١١ .

(٣) الديوان ١٥٤ .

(٤) ابن أبي شيبه : عيس وذييان ، زوت : جمعت ، جواني الحرب : الذين هاجروها وأرلوا ، ومن لم يجرم : من لم يرد العاجتها .

حلوه أو يعيله كحديثه من يوم أقرن بين نعيم وعيس^(١)، ويوم الجفاز^(٢)، وغزو عيس لبني عمرو ابن الحميم^(٣)، وغارة لبني سليم على عيس^(٤) وكان حاسراً، ويوم عراعر^(٥)، ويوم لم مع نعيم^(٦)، ويوم لم مع جليله على^(٧)، ويوم حيلة^(٨)، ويوم غدير قلبي^(٩)، ويوم البصرة^(١٠).

ونائبها أن يضطر إلى الحديث من ذلك اليوم بعد فترة ، كما حدث يوم كان في بني عامر وأسمعه شياهم شيئاً يكرهه ، فقال يذكر تصديه لطيفه ، وقد أغرقت على بني عيس والناس خلوف ، وشعر على فرسانه الذين رحلوا وتركوا^(١١)، وحديثه من يوم زحزان ويوم أسقف وهو يفخر يوم عراعر^(١٢)، وحديثه في معقلته من يوم الرقيب ، فقد تحدث عنه عندما سابه رجل من عيس^(١٣)، وحديثه من يوم الحيلة وغيره ليدكر زياد العبيس وكل معروض له بما فعله من أجل عيس^(١٤)، وحديثه من يوم الفروقي^(١٥).

وهكذا فإن عشرة إن صحت تلك المقدمات التي أوردنا الذين جمعوا لنا ديوانه ، دخلت من الوضع فإن شعر عشرة يعتبر أكثر دواوين الشعراء الذين تحدثوا لنا عن أيام قبائلهم فهو قد ذكر معظم أيام قبيلته ، ولكن النقص الذي يعبه كما يعيب الشعر عامة ، ونعني شعر الأيام ، أن شعرهم لم يهدف إلى تسجيل أحداث تلك الأيام بل كان يكفي بملاحع مميزة منها .

لقد كان عشرة يهدف ، فيما نظن ، إلى إبراز ناحيتين ، أولها تصوير بطولته في تلك الأيام ، وكان يصل إلى هذه النتيجة من خلال أسلوبين ، أن يفخر بفروسيته وشجاعته مباشرة فيذكر ما أبلاه في تلك الحرب ، ويصور لنا الأبطال الذين صرعهم ، أو يتحدث عن بطولات فرسان عيس في تلك الحروب ويحدثنا في بعض تلك الصور عن قيادته لهم ، وكأنه في كلتا الطريقتين يصل إلى النتيجة نفسها وهي الحديث عن بطولة فارس عيس مثلاً في شخصه .

(١) الديوان ١٨ .	(٢) الديوان ٤١ .
(٣) الديوان ٤٨ .	(٤) الديوان ١٠٤ .
(٥) الديوان ١٠٦ - ١٠٨ .	(٦) الديوان ١١٨ - ١٢٠ .
(٧) الديوان ١٥٥ .	(٨) الديوان ١٢٨ - ١٨٠ .
(٩) الديوان ١٩٨ .	(١٠) الديوان ١٩٨ .
(١١) الديوان ١٠٣ .	(١٢) الديوان ١٠٦ - ١٠٨ .
(١٣) الديوان ١٤٢ - ١٥٤ .	(١٤) الديوان ١٥٦ - ١٥٩ .
(١٥) الديوان ١٩٢ - ١٩٤ .	

وعلى الرغم من اقتصار عشرة في حديثه عن تلك الأيام على تصوير البطولة إلا أنه كان يلجح إلى سبب الحرب ، أو نتيجةها ، ففي يوم القروق حاولت عيم أن تذل عيساً ، وكانت الحرب ، فصور عشرة تلك الحرب ، وتحدث في البيت الثالث بعد مقدمة بسيطة ، فقال مشيراً إلى الباحث :

ونحنُ مَنَعْنَا بِالْفَرُوقِ نِسَاءَنَا تُطَرِّفُ عَنْهَا مُشْعَلَاتُ قُحَاشِيَا
حلفنا لهم والحيلُ تَرْدِي بِنَا مَعَا لُزَايِلُهُمْ حَتَّى يَهْرُوا الْعَوَالِيَا
ويكرر المعنى ذاته بعد قليل فيقول :

ونحفظ عوراتِ النساءِ ونُكْفِي عليهنَّ أَنْ يَلْقَيْنَ يَوْماً هَازِيَا^(١)

ويتحدث عن يوم بين عيس وبني جديلة على ، وكانت شيبان قد أمدت جديلة ، ويبدو أنه كان حلف بين عيس وجديلة وغذرت ، لذلك أشار عشرة إلى غدر القوم وهو يفسر بفرسانه في ذلك اليوم وما فعلوه بالأعداء ، فقال :^(٢)

إِنَّا كَذَلِكَ يَا سُهَيْلُ إِذَا خَسَرَ الْحَلِيفُ تَقْوَدُ بِالْخَطْمِ^(٣)

ولمحت بنو حنظلة من بني قيس عيساً ، فهزمتها عيس ، وعندما تحدث عشرة عن ذلك اليوم أبدى سروره البالغ فزيمه من غزوا قومه ، ولقتل زعيمهم عمرو بن عمرو بن عيس فقال :^(٤)

وَلَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَمُوتَ وَلَسْتُ نَقَمُ قَرَانِبَ عَمْرٍو وَسَطَ نَوْحٍ مُسَلَّبِ^(٥)
شكيت النفس مني لو دنا من شفاتها تَرْدِيَهُمْ مِنْ حَالِقٍ مَقْصُوبِ^(٦)

ولم يخل حديثه عن تلك الأيام من إطالة ، فقد تحدث عن إغارة له ولفرسان قومه على بني خبة وعيم ، فقد صور لنا اللقاء ، والكر والفر في ساحة الوطى ، ووصف لنا الفرسان بأسلحتهم وبنوعهم ، وذكر لنا كثرة عدد الجيش ، كما حدد لنا فترة القتال إذ استمر طيلة اليوم حتى أقبل الليل ، وفي النهاية ذكر لنا نتيجة المعركة وهي عبارة عن سلبها وقتل من الأعداء ، ولم

(١) الديوان ١٩٢ .

(٢) الديوان ١٥٦ .

(٣) الخطم : الألف .

(٤) الديوان ١٩ .

(٥) نوح : النساء الناحلت ، والسلب : تليس الثياب السود للعداء .

(٦) تردى : سقطهم من عل ، والحلق : الجبل المرتفع ، والمقصوب : المنحدر .

يقول لنا صراحة أن القوم قد هزموا ، ولكن الصورة التي عثم بها حديثه كانت أكثر بلاغة وأشد تأثيراً في النفس ، إذ يقول :^(١)

لخَلَّوْا لَنَا عُرُذَ النِّسَاءِ وَجَيَّوْا غَيَّابَهُنَّ مِنْهُمْ مُسْتَقِيمٌ وَجَامِعٌ^(٢)
وَكُلُّ كَعَابٍ غَدَلَةٍ السَّاقِ قَطْمٌ^(٣) لَهَا مَلْصَبٌ فِي آلِ ضَيْبَةَ طَامِعٌ^(٤)
تَرَكْنَا ضُرَاراً بَيْنَ عَانٍ مُكْبَلٍ وَبَيْنَ قَتِيلٍ غَابَ عَنْهُ التَّوَالِيعُ^(٥)
وَصَرْنَا وَجَيَّاناً تَرَكْنَا بِقَفْرَةٍ تَعُوذُهَا فِيهَا الطَّبَاعُ الْكَوَالِيعُ^(٦)
يُحْرُونَ هَاماً فَلَقَقْنَا رِمَاحَنَا تَزِيلُ مِنْهُمْ اللَّحْسُ وَالْمَسَالِيعُ^(٧)

وعندما يتحدث من يوم هزاعر يبدأ من أول بيت في القصيدة غامطاً لمرأه فيذكر لها كيف جاء جمع بني عيس ، وكيف جاء جمع الأعداء ، ثم يذكر كيف غشي فرسان عيس بيروت بني كلب ، وكألا غشي القوم غية موت ، ويستمر في الحديث عن ذلك اليوم إلى أن يصل إلى النتيجة ، وهي قمة النصر في ذلك المجمع ، عندما يقتل قائد القوم مسعود الكلبى ، حيث يقول عنترة^(٨) :

وَعِائِدُونَ مَسْعُوداً كَانَ يَنْحَرُهُ شَقِيقةُ يَرْدٍ مِنْ يَمَانٍ مَفُوقِ^(٩)

ويحرص عنترة كما نرى على ذكر القتل من فرسان الأعداء ، لأنها مادة فخر أساسية في الحروب ، فقد حرص على ذكر مقتل مسعود بن معاذ الكلبى يوم هزاعر ، كما حرص على ذكر مقتل عمرو وجبان التميدى ، كما حرص على ذكر مقتل عمرو بن عمرو بن علس التميمى يوم أقرن ، وفي يوم السليل انحصر حديثه على تصوير قتل ورد العبسى لشظية الأسدى^(١٠) حيث بدأ المقطوعة بهذا البيت الذي نعتقد أن أياداً أخرى سبقته ولكنها ضاعت :

(١) الديوان ٤٤ - ٤٥ .

(٢) العوذ : جمع عائل ، وهي كل أنثى مطى على وضعها سبعة أيام لأن ولدها يعود بها ، والتجيب :

القرار من الشيء ، وعجابه : متفرقون ، ومستقيم وجامع : هذا على الطريق وهذا قد حبل عنه .

(٣) الكعاب : القاعدة الثنتين ، والحدلة : المنطقة الساتين والتواوين : وطامع : سلام حال .

(٤) العاني : الأسير .

(٥) الكواليع : العلية الكثيرة ، يريد الشديدة على الأفراس .

(٦) الساتج : جمع سبعة ، وهي اللزابة .

(٧) الديوان ١٠٩ - ١٠٨ .

(٨) شقيقة : تصغير شقة ، وهي السبية المستطيلة من الثوب ، والمقوف : البرد الرقيق أو الذي فيه خطوط يمشى .

(٩) الديوان ١٧ .

وغلادون فضلة في معرك بحير الأسنة كالمحتطب

وتحدث عن جيلة ويختم الحديث الذي قلب عليه طابع الفردية ، إذ يتحدث عن عترة عن بطولته ، فيختم الحديث بيتين تحدث فيها عن لوارس عبس ، وتظلم لقيطاً وابن حجر وحاجيا وابن أبن :

ونعم فوارسُ المهيجاء قومي إذا علقوا الأعنة باليئان
هم قتلوا لقيطاً وابن حجر وأردوا حاجباً وابني أبن^(١)

وتلك ميزة لم يفردها عترة دون باقي الشعراء الذين قالوا شعراً في الأيام ، وإنما يشتركون فيها جميعاً ، ولكن حديث عترة عنها يتميز بالصدق والواقعية لأنها وقعت أمام عينه ، وربما كان هو الذي قتل تلك الفارس .

وشمة طاعنة في شعر عترة وهي أنه قصر عن ذكر فرسان قومه بني عبس ، فهو لم يذكر منهم إلا قرواشاً ومالكاً ، وقد ذكرهما بعد مصرعهما كما ذكر ويدا العبي . ولعل السبب يكمن في موقف فرسان عبس منه ، كما أنه لم يترك فرسان قومه حيناً قتلوا ، ولم يذكر إلا اثنين هما قرواش ومالك ابن زهير ، وكان تربطه بالثاني رابطة صداقة مينة . كما فرسان ذبيان فلم يذكر منهم إلا خليفة :^(٢)

واسأل خليفة حين أرض بيتنا حرباً ذوائبها بموت تحقيق^(٣)

وقد تحدثنا عن تصويره لتلك الأيام عندما عرضنا لأغراض شعره ، لذا فإن حديثنا عنها هنا ثانية سيكون تكراراً عملاً لا نفع فيه .

كما الحديث عن الصلح فلم يعرض له عترة ، لأنه فارس والفارس عندما يعرض لهذا الأمر فإنه يتهم بالجن والفرار من الحرب ، مهما كانت الدوافع ، ولذا فهو يترك ذلك الأمر لساحة القبيلة وسبكها لها . . وكيف يعرض عترة لهذا الأمر ، وحياته ومنزله وسعته مينة على البطولة في ساحة القتال ، وهي ملته فخرو على الذين يحاولون التنقص من قدره .

(١) الديوان ١٨٠ .

(٢) الديوان ١١١ .

(٣) ذوائبها : راياتها ، وتحقق : تصحرك باللوت .

الفصل الثالث

قيس بن عاصم بطل حروب تميم وسيد أهل الوبر

وقد قيس بن عاصم القرظي على رسول الله ﷺ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هذا سيد أهل الوبر »^(١) .

هذا هو قيس بن عاصم القرظي التميمي موضوع البحث وتعود صلتى بقيس بن عاصم إلى عشر سنوات عطلت . حينما كتبت أحد رسالة الدكتوراه ، وكان موضوعها : « الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي » . وقد جعلت الباب الثالث من البحث في البداية للحديث عن نماذج متميزة من شعراء الأيام ، ووقع الاختيار على النماذج التالية :

الاهلhel : بطل حرب البسوس ، وعنترة : بطل حرب داحس والغبراء ، وقيس بن عاصم ، بطل حروب تميم . ولكنني اكتفيت حينما أعددت البحث للمناقشة باثنين من ثلاثة هيا : الاهلhel وعنترة ، وكان ذلك بسبب قلّة ما توفر لدي في ذلك الحين من شعر قيس بن عاصم .

ومن خلال تدريسي مادة الأدب الجاهلي في الجامعة بدأت تتضح لي صورة قيس بن عاصم بصورة أفضل مما كانت عليه قبل عشر سنوات ، كما أحسست أن قيس بن عاصم شخصية متميزة ، وإن قل شعره ، تستحق البحث والدراسة . ولا أظن أن الرسول (ص) قد أطلق عليه هذا اللقب : « سيد أهل الوبر » من باب الجمالة ، وحقاً لقد وجدت الكثير من أخباره الموثوقة في المصادر وإن كان بعضها يؤكد بعضاً ويكرره ، إلا أن هذه الأخبار تؤكد قياً معينة كانت سالكة ، وكان قيس يمثلها أحسن تمثيل ، وأقرها الإسلام فيها بعد .

(١) انظر الأغانى (دار الكتب) ٧٤/١٤ ، معجم الشعراء المعزى في ٣٢٤ ، الإحصاء ٢/٢٤٢ ، أمالي المرتضى ١/١١٢ .

ويتمهي نسب قيس : إلى قبيلة تميم التي تنسب إلى مضر^{١٠} ، وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك على البصرة والهيمة ، حتى يتصلوا بالبحرين ، وانتشرت إلى العليبي في أرض الكوفة .

ومن بطونهم : الحارث بن تميم ، وبنو العنبر ، وبنو الحميم بن عمرو بن تميم . وبنو أسيد بن حمير ، وبنو مالك بن عمرو بن تميم . وبنو عمرو بن العلاء بن عمار بن عدنان بن الحارث . وبنو امرئ القيس بن زيد مثة وبنو سعد بن زيد مثة ، وبنو منقر بن عبيد بن مقاعس ، وبنو صريم بن مقاعس ، وبنو عرف بن كعب بن زيد مثة ، وبنو مالك بن سعد بن زيد مثة ، وبنو ويعة بن مالك بن زيد مثة ، وبنو ثعلبة بن يربوع بن حنظلة ، وبنو الحارث بن يربوع ، وبنو رباح ، وبنو طهية بن مالك ، وبنو دارم بن مالك بن حنظلة^{١١} .

ومن منازلهم : صلب ، والدغنة ، والإحصاء ، ووبرة ، والصمان ، وشرف الأوطى ، والمراء ، والصمان الشعر ، والرمادة^{١٢} .

ومن مباهم : حمض ، وكهسل ، والجفصار ، وأواره ، وطولبع ، واللهباء ، ونطاع ، والكلاب^{١٣} . وقد عد الذين أرحوا للعصر الجاهلي وعنوا بدراسة ودراسة حروبه وصلات القبائل ، وأعني المؤرخين القدامى ، قبيلة تميم من جمرات العرب^{١٤} ، وعنوا بالجمرة تلك القبيلة القوية الكثيرة العدد والعدة ، التي تستطيع أن تدافع عن نفسها ، وأن تغزو غيرها وتغيرهم على احترامها . فقد كانت القبائل تسعى إلى التحالفات طلباً للأمن ، ودفعاً للعدوان وإشراكاً للعاقبة ، ومع ذلك فلم تستطع هذه التحالفات حقن الدماء التي كانت تسفك لأتفه الأسباب ، بل ربما كان التحالف نفسه من أسباب الحرب ، إلا أننا يجب أن لا ننسى أن هذه الإتحادات ، لإتحادات الأحلاف ، قد لعبت دوراً كبيراً إيجابياً في تكوين القبائل ، إذ كانت تضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية لتحميها وترد العدوان عنها^{١٥} .

(١) أنظر : الإشتقاق لابن دريد ٢٠١ وما بعدها . العقد الفريد ٣/ ٢٤٤ - ٢٤٦ ، معجم البكري ٢٠٧/١ ، ٢٢٤ ، ٢٥٦ ، نهاية الأرب للقلقشندي ١٨٨ ، معجم قبائل العرب لحنظلة ١٢٦/١ .

(٢) أنظر المصادر السابقة .

(٣) أنظر المصادر السابقة .

(٤) أنظر المصادر السابقة .

(٥) أنظر : اللسان مادة (جر) وكذا تاج العروس (جر) .

(٦) شوقي غيف ، العصر الجاهلي ، ٥٨ .

وتعتبر قبيلة تميم من القبائل التي خاضت حروباً كثيرة في الجاهلية خاضتها مع قبائل يمانية، وخاضت بعضها مع بكر عدوها اللدود، وخاضت بعضها مع القساسة، وبعض هذه الحروب كان مع قبائل عربية مختلفة. وقد أتبع في خلال بحثي الألف المذكور أن أجمع ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين يوماً، كان نصيب تميم منها مائة يوم، انصرفت في ستين يوماً منها، وهزمت في أربعين يوماً^(١).

ومن الأيام التي انصرفت فيها : طليقة (لتميم على المناقرة) : والكلايب الثاني (لتميم على اليمن) ، والبناج (لتميم على بكر) ، والغطالي (لتميم على بكر) ، وهظط (لتميم على بكر) ، وجذود (لتميم على بكر) ، وفرفرائح (لتميم على اليمن) ، والسار (لتميم على بكر) ، وغول الثاني (لتميم على القساسة) .

ومن الأيام التي هزمت تميم فيها : السلان (لعامر على تميم) ، وأورة الثاني (لعمر بن هند على تميم) ، والصفقة (للفوس على تميم) ، والجفار (لبكر على تميم) ، ورحرحان الثاني (لعامر على تميم) ، وشعب جبلة (لعامر وحلفائها على تميم وحلفائها) والشيطون (لبكر على تميم) .

بعد هذه اللقطة عن قبيلة الشاعر ومكانتها في الجاهلية نتقل للحديث عن تيس بن عاصم . واستعمل في حديثنا في رحلة تشمل : تيس بن عاصم الإنسان والفارس البطل ، والشال الجاهلي ، وقباً للسلم ، وقباً الشاعر.

وهكذا نستقل في رحلتنا من مرحلة تيس في جاهليته كفرد في قبيلته ، ثم كفارس شجاع في حروب تميم ، ثم كفرد دخل في الإسلام ، فودته ، ثم حوذه إلى حقيرة الإسلام ، وأخيراً كشاعر .

وينبغي أن ننبه منذ البدء على أن تيساً، شأنه في ذلك شأن معظم الجاهليين ، لم تتوفر لدينا معلومات متكاملة عن نشأته ومراحل حياته بذلكها المختلفة .

وهو تيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن عبيد بن عاصم بن مقاس ، ومقاس ينتمي إلى الخلوت بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن

(١) الأرقام والمعلومات من جداول ملحقة برسالة الدكتوراه .

فهم^{١٠٩} . وكنيته أبو علي^{١١٠} . ويضيف ابن قتيبة أنه « لم يكن في الجاهلية أحد يكنى أبا علي غير قيس بن عاصم وعمر بن الطفيل »^{١١١} وتبحث عن سبب الكنية فلا تجد تفسيراً لأن المصادر لم تذكر أبا له اسم علي . أما أنه فكأن أم أصغر بنت خليفة بن جرول بن منقر^{١١٢} .

وينسب قيس إلى بني منقر من بني نهم ، وقد حدد صاحب الجوهرة من ولد منقر : فقياً وبطناً ، وعالماً ، ومعداً ، وجرولاً وصحفاً ، وعرفاً ، وأبياً . وذكر قيساً أنه ابن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر^{١١٣} .

ولم نعمل المصادر أبنائه وذريته ، فقد ذكرت : أن أولاده كانوا ثلاثة وثلاثين ابناً^{١١٤} .

ولكنها لم تذكر لنا منهم إلا طلبة والفقهاء ، والشيوخ^{١١٥} .

وذكرت من بنات أولاده : مية صاحبة ذي الرمة وهي ابنة مقاتل بن طلبة بن قيس^{١١٦} . وأما من ذكرت من ذريته فهم : شملة ابن بركة بن مقاتل بن طلبة ، وكان من الشراة خرج بالبيعة قتلته محمد بن سليمان بن العباسي ، ومنهم : عصبية بن عاصم بن قيس بن عاصم ، وقد قطعت يده في يوم الوقيي وعرف بعاصم الجويرية كما عرف بعصبية الأجزم ، وقد قطع يده اليسرى أريد ابن سنان في يوم الوقيي الذي كان لبني مازن ، علي يكر^{١١٧} .

أما بناته فلم يذكر لنا التاريخ بنات قيس ، وقد ذكر الخبير الذي يروي عنه ، عندما قدم على الرسول ﷺ يسأله عن كفارة يسب، ولده علداً من البنات له ، وستأقش ذلك في موضعه من البحث ، وما حدا ذلك لم يرد ذكر إلا لبنت واحدة له حدث خبرها بعض الأنصار والرسول (ص)^{١١٨} . وسأتي تفصيل ذلك في حديثنا عن الرواد أيضاً .

ولجميع المصادر على أن قيساً كان سيداً في قومه كما كان شريفاً ، قال عنه ابن قتيبة « كان شريفاً سيداً »^{١١٩} . وقد مثل قيس بهم سدت قومك ؟ قال : بهذا القرى ، وترك المرأة ونصرة

(١) الأغاني (دار الكتب ٦٩/١٤) ، معجم الشعراء للمرزباني ١٩٩ .

(٢) الأغاني ٦٩/١٤ ، المعارف لابن قتيبة ٣٠١ .

(٣) للمعارف ٥٥٦ . (٤) الأغاني ٦٩/١٤ .

(٥) جمهرة أنساب العرب - ابن حزم ٢١٦ . (٦) للمعارف ٣٠١ .

(٧) للمصدر السابق ٣٠١ . (٨) المصدر السابق ٣٠١ ، والجمهرة ٢١٦ .

(٩) الجمهرة ٢١٧ . (١٠) الأغاني ٦٩/١٤ .

(١١) للمعارف ٣٠١ .

المولى^(١). وفي رواية أخرى أنه قال: يذلّ النسي، وكف الأثني، ونصرة المولى، وتعجيل الثري^(٢). وقد وصفه صاحب الأغاني بأنه شاعر فارس شجاع حلّيم كثير المغارات متفكر في غزواته، أترك الجاهلية والإسلام قسداً فيها.

ومستلحون في حيلة أن يضرب أمثلة لهذه الخصال التي كان يتحل بها قيس. أما الشاعرية فنسترجع الحديث عنها قليلاً وكذا فروسيته. أما الحلم فقد رجعت المصادر غيراً مفاده أن الأحف بن قيس كان يقول: ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم الثقفي، لأنه قتل بين أخ له بعض بني، فأتى بالقاتل مكتوباً بقاد إليه، فقال: ذعرتك الفتى، ثم أقبل على النسي فقال:

يا بني بس ما صنعت، نقصت عندك، وأرعبت عضدك، وأشمت عضوك، وأسأت بقومك، خلوا سبيله، واحملوا إلى لم للمقتول دية، فإنها غريبة، ثم صرف القاتل، وما حل قيس حيوته، ولا تغير وجهه^(٣).

وقد ضرب به المثال في الحلم يقول: «أحلم من قيس»^(٤)، وكان الأحف يقول: لقد اختلفنا إلى قيس بن عاصم في الحلم كما نختلف إلى الفقهاء في الفقه^(٥). وقد كانت السيادة في الجاهلية يخص بها من توفرت فيه خصال. وقد حدد تلك الخصال لحد الباحثين حين قال: «كان أهل الجاهلية لا يسمون إلا من تكاملت فيه ست خصال: السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان»^(٦) ولعله من الواضح أن هذه الصفات كان يتصف بها قيس بعد أن نستكمل حديثنا عن شجاعته وشاعريته. ومن أجل هذا كله قال عنه الرسول الكريم: «هذا سيد أهل الميرة».

وكان قيس بن عاصم كرمياً يطعم الزاد لغيره، ويكره أن يستأجر به. تزوج قيس بن عاصم للثقي منقوسة بنت زيد الفوارس النضي، وأتته في الليلة الثانية من بناء بها بطعام فقال: فأين أكيلي؟ فلم تعلم ما يريد، فأثأ يقول:

(١) ميراث الأخبار لابن قتيبة ١/ ٢٢٥ والأغاني ١٤/ ٧٦.

(٢) بلوغ الأرب للأوسمي ٢/ ١٨٧.

(٣) نظير الحمر في الأغاني ١٤/ ٧٣، وفيات الأعيان ٢/ ٥٠١، الجيهان لابن ناثيا ٢٥٣ مع اختلاف في بعض الكلمات لكن المضمون واحد.

(٤) الوسيط في الأمثال لأوحدي ٦٦.

(٥) ميراث الأخبار ٢/ ٢٨٧.

(٦) بلوغ الأرب للأوسمي ٢/ ١٨٧.

يا ابنة عبدالله وابنة مالك وبأنت ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتسي له أكيلاً فإني لست آكله وحدي
أخا طارق أو جبار بيت فإني أخاف ملائمت الأحاديث من بعدي
وإني لعبد الضيف من غير ذلة وما بي إلاّ تلك من شيم العبد .

قال : فإرسلت جارية لها مليحة فطلبت له أكيلاً ، وأثبات تقول له :

أبى المرء قيس أن يذوق طعامه بغير أكيل أنه لكريم
قبورك حيا يا أخا الجود والتدي وبورك ميتاً قد حوكت رجوم^(١)

ولم يتوقف قيس بن عاصم عند حدود قبلك وهو فارسها وسيدها ، بل كان فيمن ولد
عل النعمان بن النضر للمقاترة ، فقد كان منهم : الأقرع بن حابس وقيس بن عاصم . ومن
بكر : بسطام بن قيس ، والحوقان بن شريك^(٢) .

ولم يجل سجل قيس من بعض السقطات ، فقد ذكر صاحب الأغاني أن ما يعبر به قيس
وقومه أن عبادة بن مرثد بن عمر بن مرثد أسر قيس بن عاصم وسبي أمه وأخته يوم أبرق
الكبريت ، ثم من عليهم فأطلقهم بغير فداء ، فلم يشكره قيس ، ولم يشكره على فعله بقول يلقفه ،
فقال عبادة :

عل أبرق الكبريت قيس بن عاصم أسرت وأطراف الفناقصد حر^(٣)
متى يعلق السعدي منك بدمه تهجد إذا يلقي وشيمته الغدر^(٤)

ويذكر الأغاني خبراً آخر مفاده أن زيد الخيل الطائي خرج من قومه ، وجاور بني منفر
فأغار عليهم بنو عجل ، وزيد لهم ، فأعانهم ، وقتل بني عجل قتلاً شديداً ، وأبلى بلاء
حسناً حتى انهزم عجل ، فكفر قيس فعله ، وقال : ما هزمهم غيري ، فقال زيد الخيل بعينه
ويكذبه في قصيدة طويلة منها

لست بوقاف إذا الخيل أحجعت لست بكذاب كقيس بن عاصم^(٥)

ولست أدعي لقيس العصمة ولكن بكراً ، عدو قيس اللدود ، قاسم مشترك في الحربين ،
فعبادة بن مرثد وبنو عجل كلاهما من بكر . وقيس لا يريد أن يعترف لبكر بالإتصاف عليه وعلى

(١) الأغاني ١٤ / ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ١ / ٢٨٠ .

(٣) قصة الحمر والشمر في الأغاني ١٤ / ٨٩ .

(٤) الأغاني ١٤ / ٨٩ .

قومه لما نجده لم يشكر عبادة بقول يبلغه ، لأن في ذلك إذلالاً لقيس بطلق قومه ، ولم يعترف بالهزام عجل إلا به ويقومه . ولست بمصدق أن يهزم فارس قبيلة مها كانت شجاعته .

ويربط قيس بن عاصم بنفسه خطيرة في الجاهلية ، تلك هي قضية واد البنات . فقد ذكر القرآن الكريم في سورة التكاوير « وإذا المومنة سطت بأي ذنب قتلت »^(١) .

والمومنة : المذمومة حية وكذلك كانت العرب تفعل بناتها . هذا ما يورده الطبري في تفسيره ثم ينقل خيراً مرفوعاً إلى قتادة : قتلت بلا ذنب ، كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويقتلو كلبه فعاب الله ذلك عليهم . . . وكانت العرب تقتل الناس لذلك^(٢) .
وقد سميت بالمومنة : لأن التراب يطرح عليها فيقتلها حتى تموت^(٣) .

يقول متشم بن نويرة :

ومومودة مقبورة في مغارة بآمتها مومودة لم تمهد^(٤)

ونسبه صاحب لسان العرب إلى حسان ويورده هكذا :

ومومودة مقصورة في مغاور بآمتها عرسومة لم تومد^(٥)

ويورد صاحب « الكشف » خيراً في سياق شرح الآية المتعلقة بالوادة : بأن الرجل كان يستحي ابنته أحياناً فلم يكن يقتلها دائماً ، فكان إذا أراد أن يستحيها البسها جبة من صوف ، أو شعر ، ترض الأهل والغنم في البادية . ولما أن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت ملامسة فيقول لأمها طيبها وزينها حتى ألعب بها إلى أحباتها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فيلعب بها البئر ، فيقول لها : انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ، ويحبل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض^(٦) .

ولم يكن الرجل هو الذي يدفحها ، بل إن الحامل كانت إذا أقربت حفرمت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة ، فإذا ولدت بتأرمت بها في الحفرة ، وإن ولدت إناً حبست^(٧) .

(١) آية ٨ من سورة التكاوير .

(٢) تفسير الطبري (طبعة بولاق) ٤٦ / ٣٠ .

(٣) تفسير القرطبي ١٩ / ٢٣٢ .

(٤) تفسير القرطبي ١٩ / ٢٣٢ .

(٥) لسان العرب مادة (عرول) .

(٦) الكشف للزهري ١٤ / ٢٢٢ .

(٧) المصدر السابق ٤ / ٢٢٢ ، تفسير القرطبي ١٩ / ٢٣٣ والقرطبي يرفع الخبر إلى ابن عباس .

وفي ذلك يقول الراجز :

سبمتها إذ ولدت غموت والقبر صهر ضامن زميت^(١) .

وتثير هذه الأخبار أموراً عدة منها : هل كان الولد مشترأ بين القبائل العربية ؟ ومن أول من ولد البنات في الجاهلية ؟ هل كان الولد من اختصاص الرجل أم أن المرأة كانت تتد أيضاً ؟ ما سبب قيامهم بذلك ؟ .

لما التساؤل الأول فمنطق الأمور يفيد ، لأن الولد لوعم القبائل العربية لما استمر بقاء الجنس العربي بعد جيل أو جيلين أو ثلاثة . ولما أول من ولد بناته في الجاهلية فيطالعنا خيران ، الأول أن تيساً أول من ولد البنات في الجاهلية^(٢) ، والثاني أن الولد عند العرب أقدم من تيس ، وربما يعود إلى ما قبل الميلاد ، مثل ما ذكره عن سودة بنت زهرة الكاهنة ، وهي أقدم من تيس^(٣) . وقد كان الرجل يتد بناته كما كانت للمرأة أيضاً تفعل ذلك ، وربما كانت تفعله لأنها تعرف رغبة زوجها ، ولعل ما فعلته زوج تيس بن عاصم شاهد على ذلك ، فقد حدث تيس بن عاصم الرسول ﷺ أنه ما ولدت له بنت قطراً ولدها ، وما رحم منهن مبروعة قط إلا بنية له ، ولدتها أمها وهو في سفر ، فبلغتها أمها إلى أخوالها فكانت فيهم ، وقدم تيس فسأل عن الحمل ، فأنجرت أمهاته أمها ولدت ولداً ميتاً ، ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية وبلغت فزارت أمها ذات يوم ، فدخل تيس فقرأها وقد ضمرت شعرها وجعلت في قروها شيئاً من خلوق ونظمت عليها ودعا ، وأبستها قلادة جزع ، وجعلت في عنقها خنثية بلعج ، فسأل عنها تيس لأنها أصبحت بجهاها وكيسها فيبكت وقالت : هذه ابنتك ؟ كنت أخبرتك أنني ولدت ولداً ميتاً وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا البلعج ، فأمسك تيس عنها حتى اشتغلت أمها عنها ، لم أخرجها يوماً ، لمطر لها خفيرة فجعلها فيها ، وهي تقول يا أبت ما تصنع بي ؟ ، وجعل يلقف عليها التراب وهي تقول : يا أبت أتعطى أنت بالتراب ، أتأمرني أنت وحدي ومتصرف عني ؟ ، وجعل يلقف عليها التراب ، حتى واراها واتقطع صوتها ، ويختم تيس مقوله هذه : فإيا رحمت أحداً بما وأرته غيرها^(٤) .

وهذا يعني أن المرأة الجاهلية كانت تعلم مصير ابنتها ، ولو اختفها إلى حين ، ولهذا كانت تلعها منذ ولادتها حتى لا تأمن عليها وهي تراها شابة باقعة تدفن حية .

(١) تفسير القرطبي ١٩ / ٢٢٣ .

(٢) وفيات الأعيان لأبن خلكان ١ / ١٨٣ .

(٣) للتفصيل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٥ / ٩١ - ٩٢ .

(٤) الأغاني ١٤ / ٦٩ - ٧٠ .

وإذا ما انتقلنا إلى سبب الوالد نرى تعليل فعلتهم الشبهة تلك تأخذ عللاً وأسباباً كثيرة : ففي خبر عن قيس بن عاصم أنه كان يند بناته « للغبية والألفة من النكاح »^(١) وتبعه الناس في ذلك إلى أن أبطله الإسلام . ويورد صاحب الكشف خيراً : فيجد بأن العرب يقولون : « إن الملائكة بنات الله فالحقوا البنات به » فهو الحق بينه^(٢) أما القرطبي فيرى أنهم كانوا يدلفون لفصلتين : الأولى أنهم كانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله ، فالحقوا البنات به . والثانية : حاجة الحاجة والإملاق أو خوفاً من السي والاسترقاق^(٣) .

وهكذا نرى أنه يمكن رد أسباب الوالد إلى الغيبة والألفة من النكاح وإلى الخوف من الحاجة والإملاق والخوف من السي والاسترقاق . وأخيراً إلى عقيدة يعتقدونها : وهي أن الملائكة أمات وهن بنات الله ، ولذا ألحقوا البنات به فقتلوهن .

ونستطيع بمناقشة هذه الدوافع أن نبين أن الخوف من الحاجة والإملاق والسي والاسترقاق أمور يشترك فيها العرب جميعاً ومن باب أولى أن يخشى هذه الأمور ضلعف العرب ولقرائهم .

فلماذا يكون قيس بن عاصم ، وهو سيد قومه وعزيزهم ، وقيته ، من أتوى القبائل وهي إحدى جرات العرب ، هو الذي يند بناته ؟ وإذا كانت العرب تعتقد أن الملائكة بنات الله ، وتؤمن بذلك كل القبائل العربية ، فلماذا لم تجمع حل الوالد ؟ ألم أن الأمر متعلق بعقيدة معينة ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم . ولم لا يكون السبب شخصياً خاصاً بقيس بن عاصم أو من صادف حالة مشابهة ؟ فقد أورد صاحب الأغاني : أن سبب والد قيس بن عاصم بناته أن الشمرج البشكري البكري ، ويكر خصم لدود شميم ، أغار على بني سعد فسي منهم نساء واستاق أموالاً وكان في النساء امرأة غلاما قيس بن عاصم ، وهي رميم بنت أحر بن جندل السعدي ، فزحل قيس إليهم يسألهم أن يهبوها له أو يفتدوها فوجد عمرو بن الشمرج قد اصطفاها لنفسه فسأله فيها فقال : قد جعلت امرأها إليك ، فإن انتظرتك لمخلها ، فخيرت فانتظرت عمرو بن الشمرج . فانصرف قيس ، فواد كل بنت وجعل ذلك سنة في كل بنت تولد له ، واقتدت به العرب في ذلك فكان كل سيد يولد له بنت يهدا خوفاً من الفضيحة^(٤) .

وهذا الجزء الأخير من الخبر يتعارض مع ما ذكرنا من سبب الوالد بسبب الخوف من الحاجة

(١) وفيات الأعيان ١ / ١٨٣ .

(٢) الكشف ١ / ٢٢٢ .

(٣) تفسير القرطبي ١٩ / ٢٣٣ .

(٤) الأغاني ١٤ / ٧١ وتفسير الطبري ٣٠ / ٤٥ .

والإمامي ، كما أنه يتعارض مع خبر أورده القرطبي : بأن «الأشراف منهم يمتنعون من هذا ويعتصمون منه»^(١) ، وربما لو ربط خبر القرطبي بما ذكر عن صمصمة بن ناجية جد الفرزدق الذي اشترى ثلاثين موهبة منهم بنت لقيس بن حاصم ، وفي ذلك اقتصر الفرزدق فقال :
وجندي الذي منع الوائدات وأحيا السويد فاسم يواد»^(٢)

ولا أنري كيف يستوي هذا المطلق ، فإذا اشترى صمصمة بنت قيس بن حاصم بالمال ومنع وأدعا ، هل يمنع هذا العلم من أن يلحق بقيس لو ارتكبت عملاً مثلياً ؟ ذلك سبب لا يقبله منطق العقل ، كما أن ليساً لا يفعل أن يبيعها بسبب الاملاقي . يبقى احتمال من احتمالات كثيرة .
أينكون لخمر الفرزدق والخبر المتصل به من صنع الرواة ؟ .

وقد شغلت قضية الواد بال قيس بن حاصم عندما دخل في الإسلام ، فتعددت الروايات التي تجمع على أن ليساً كان يقد على النبي ﷺ .

ففي خبر واده لأبنته بعد أن كبرت : أن الرسول ﷺ دعت حواء ثم قال : إن هذه لقسوة ، وأن من لا يرحم لا يرحمه^(٣) وهذا ما شغل بال قيس وأهله .

وفي خبر مرفوع إلى قتادة رواه الطبري : أن ليساً جاءه إلى النبي ﷺ وأخبره أنه واد ثياني بنت في الجاهلية ، قال : فاعتق عن كل واحدة بدنة^(٤) .

وفي خبر مرفوع إلى قتادة أنه قال لرسول الله ﷺ : إني وأنت ثيان بدأت كن لي في الجاهلية . فقال : فاعتق عن كل واحدة منهن رقبة . فقال : يا رسول الله إني صاحب إبل ، قال : فاهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت^(٥) .

ويروي ابن كثير ثلاث روايات : لا تحمد الأولى عند البنات الثلاث وأبعد في الجاهلية . وتحدد الثانية العدد : ثيان ، وتذكر الثالثة : أنه واد اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة^(٦) .

ولقيس بن حاصم موقف من الخمر في الجاهلية قبل أن يجرمها الإسلام ، فقد عده رواية الأخبار أنه ممن حرّموا الخمر في الجاهلية ، وذكروا منهم نغراً ، منهم : قيس بن حاصم ، وعلم ابن

(١) تفسير القرطبي ١٩ / ٢٣٣ .

(٢) ديوان الفرزدق وأنظر وفيات الأعيان ٨٩ / ٨٩ .

(٣) الأغاني ١٤ / ٧٠ .

(٤) تفسير الطبري ٣٠ / ٤٦ .

(٥) تفسير القرطبي ١٩ / ٢٣٣ .

(٦) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٧٨ .

الغزير العدواني ، وصفوان ابن أمية ، وحليف بن معد بكرب الكندي ، والعباس بن مرداس السلمي ، وورقة بن نوفل ، والوليد بن المغيرة ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وأبوذر الغفاري ، ونس بن ساعدة ، وعبيد بن الأبرص ، وزهير بن أبي سلمى ، والنابغة الذبياني ، والنابغة الجعفي ، وحاتم الطائي وغيرهم^(١) .

ويرجع سب تحريم قيس لما أنه سكر ليلة ، ففزع حكمة ابنته فهربت منه . فلما صحا منها ، سئل عما صنع البارحة فلم يعرف ، فأخبروه بصنعه ، فحرمها على نفسه ، وقال في ذلك شعراً منه :

فلا والله اشربها حياتي ولا أدعو لها أبداً نديها
إذا دلوت حميها تعلت طواع لسفه الرجل الخليلي^(٢)

وفي رواية أخرى عن عاصم بن الحذاف أن الزبير قال : إنها كانت أخته ، وقد أرادها على نفسها ، وحليف أخبر أنه أول عربي حرمها على نفسه في الجاهلية^(٣) .

وتحريم قيس للخمر منكرة يضيفها قيس إلى سجنه الخافق بالحلم والمكرمات ، عليها تكثر عن فعله بالبنات اللاتي كن يزلن له .

تلك كانت جاهلية قيس ، فكيف نرى قيساً في الإسلام ؟ ومتى بدأت صلته بهذا الدين الجديد ، وهل حسن إسلامه ؟ وما مدى تقاعله مع قيم هذا الدين ومثله ؟

تعود صلة قيس وقومه بالإسلام إلى ما بعد فتح مكة^(٤) ، فقد بعث النبي ﷺ بشر من مشبان على صدقات بني كعب بن خزاعة ، فجاء وقد حل بنواحيهم بنو عمرو بن جذع بن العنبر بن عمرو بن نهم ، فوجدت خزاعة مواشيها للصدقة ، فاستكر ذلك بنو نهم وأبوا وإبتدروا النبي وشهروا السيوف ، فقدم المصدق على النبي ﷺ فأخبره . فقال : من هؤلاء القوم ؟ فانتدب لهم عيينة بن بدر الغزاري فبعث النبي ﷺ في حسين قارصاً ، فأغار عليهم فأخذ أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً ، فجلبهم إلى المدينة .

(١) انظر للمحررين حبيب ٢٣٧ ، اعلي للقبلي ١ / ٢٠٤ ، حياة الأرب للتوحي ٤ / ٨٨ ، بلوغ الأرب للأفومي .

(٢) الأغاني ١٤ / ٨٤ .

(٣) المصدر السابق ١٤ / ٨٥ .

(٤) المعارف لابن قتيبة ٣٠٢ .

وعندها قدم وفد من رؤساء بني قيس منهم : عطاردة بن حاجب ، والزريقان بن بدر ،
وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن سعد ، والأقرع بن حابس ، ورياح بن
الحارث ، وعمر بن الأهم . . ويذكر الخبر أن الرسول ﷺ قال في قيس بن عاصم : هذا سيد
أهل الوبر . ورد عليهم الأسرى والسبي وأمر لهم بالجوالة كما كان يميز الوفود^{٢٩٤} .

ولكن الخبر لم يحدثنا لماذا أتبه الرسول الكريم إلى قيس دون بقية الوفود، وقال عنه أنه سيد
أهل الوبر ، هل فعل ذلك لأنه أحسن الغزل ؟ أم لأن الرسول ﷺ كان على علم بمآثر قيس ؟ أم
أنه ترسم فيه الخير لهذا الدين ؟

ويبدو أن قيساً قد التقى بالرسول أكثر من لقاء ، يدل على ذلك حواراً معه بشأن واد
البنات، وقد سبق ذكره، وفي خبر آخر مرفوع إلى قيس بن عاصم عن سفيان الثوري أنه أمر من
النبي ﷺ أن يقتل بماء وسدر^{٢٩٥} . ومن الأخبار أيضاً ما رواه صاحب الأغاني أن قيساً دخل على
الرسول ﷺ وفي حجره بعض بناته يشمها ، فقال له : ما هذه السخلة تشمها ؟ فقال : هذه
ابنتي . فقال : والله لقد ولد في بيتك وأوتيت بنات ما شممت منهن أنثى ولا ذكراً قط . فقال
الرسول الكريم : فهل إلا أن يتزع الله الرحمة من قلبك^{٢٩٦} .

وفي خبر آخر عن ابن جعدة أن قيس بن عاصم قال : كتبت الرسول ﷺ ، فرحب بي
وأداني فقلت : يا رسول الله ، المال الذي لا يكون على فيه نعمة ما ترى في إسائه لضيء إن
طرقني ، وعيال إن كثروا علي ؟ فقال : على نعم المال الأربعمون ، والأكثر الشون ، وويل
لأصحاب الثين - ثلاثاً - إلا لمن أعطى من رسلها وأطرق فحلها ، وأفقر ظهرها ، ومنح
غزيرتها ، وأطعم القانع والمعر . فقلت : يا رسول الله ، ما أكرم هذه الأخلاق ! إنه لا يحل
بالوادي الذي أنا فيه من كثرتها . قال : « فكيف تصنع في الإطراق ؟ » قلت : يغدو الناس ،
فمن شاء أن يأخذ برأس بعير فعب به ، قال : « فكيف تصنع في الاقتار ؟ » قلت : إني لأتفر
الجاب للديرة والضرع الصغيرة . قال : « فكيف تصنع في المنيحة ؟ » قلت : إني لأمنح في
السنة المائة . قال : « وإنا لك من مالك أكلت فأقيمت ، أو لبست فألبيت أو تصدقت
فأبقيت^{٢٩٧} . »

(١) طبقات ابن سعد / ١ - ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) الأغاني / ١٤ / ٨٩ .

(٣) الأغاني / ١٤ / ٧٠ .

(٤) الأغاني / ١٤ / ٧٧ .

وفي خبر آخر عن ابن جعدة أن النبي (ص) لما فتح مكة قدمت عليه وفود العرب ، فكان
 فيمن قدم عليه قيس بن عاصم وعمرو بن الأختم ابن عمه ، فلما صاروا عند النبي (ص) تسابحا
 ولهاثرا ، وحاول عمرو بن الأختم أن ينال من نسب قيس وحسبه ، فيقال أن النبي (ص) نهى
 عمرو بن الأختم عن هذا القول في قيس ، وقال : إن إسحاق بن إبراهيم صلى الله عليها وسلم
 كان أحمر^(١).

وفي حديث آخر عن جرير عن المغيرة عن أبيه شعبة عن الثؤم أن قيساً سأل الرسول (ص)
 عن الخلف فقال : « لا خلف في الإسلام ، ولكن تمسكوا بخلف الجاهلية »^(٢) .
 ويذكر رجل ليساً عند النبي (ص) وكأنه توعدده ، فبهر النبي (ص) : « إذا تحول سعد ثوبه
 بكر آخرها »^(٣) .

هذه الأخبار تشير إلى أنه وقد حل الرسول (ص) كثيراً ، كما تدل حل أن الرسول (ص)
 كان يمشي في وجهه ، ويرحب به ، كما تشير إلى أن ليساً كان غنياً ولم يكن يفتنى الإسلام .
 وتحدثنا الروايات بأن ليساً ارتد بعد النبي (ص) عن الإسلام وآمن بسجاح النسيجة
 وكان مؤذناً ، وقال في ذلك :

أضحت نيتنا أنسى نطق بها وأصبحت أنباء الله ذكرانا^(٤)

ويضيف صاحب الأغاني أن خالداً بن الوليد غزا الهمة لقتال سجاح ومسيلمة الكذاب
 زوجها وأخذ قيساً أسيراً ، وأن قيساً أدهى عند خالد أنه جاء يطلب ابناً له أخيه مسيلمة ،
 فأخذه خالد فحلف ، فخل مسيلمة^(٥) .

وقبل مناقشة صحة هذه الرواية أو التعليق عليها نورد خبراً آخر عن المدائني يفيد : بأن
 قيس بن عاصم كان حل عهد الرسول (ص) قد ولي صدقات بني مقاصس والبطون كلها ، وكان
 الزبير بن بدر قد ولي صدقات حوف والأبناء . فلما توفي الرسول ﷺ دس إليه الزبير كان من زين

(١) الأغاني ١٤ / ٨٨ .

(٢) الأغاني ١٤ / ٩٠ .

(٣) الأغاني ١٤ / ٩٠ .

(٤) الأغاني ١٤ / ٨٨ ، وهذا البيت وأبيات أخرى ذكرت في ليل القلوب للعتابي ٣١٥ ، والمعروف لابن
 قتيبة ٤٠٥ .

(٥) الأغاني ١٤ / ٨٨ .

فليس منح ما في يده من الصدقات وخدعه بذلك ، ففرق قيس الأهل في قومه ، فانطلق الزبرقان إلى أبي بكر بسجاعة يعبر فادعها إليه . فلما عرف قيس بالهيلة قال : لو عاهد الزبرقان أنه لا يخذل^(١) .

والذي قيل إليه أن قيساً وقع ضحية مكيبة من الزبرقان فتأخر عن دفع الصدقات لأبي بكر ، وربما فرقها فعلاً في قومه ، كما قيل إلى أن العصبية القبلية ربما دفعت قيساً إلى تأييد سجاح الشيمية ، خاصة أن العرب بعامة - إلا النزر اليسير - قد ارتدوا بعد فاة النبي ﷺ من هذا المنطلق . لكن الذي قيل إليه أن قيساً تزعمت فته سجاح عندما تزوجت من مسيلة ، ولما نسبت إليه بعض المصادر هذه الآيات :

يا لعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن بالآفك أغرانا
مسيلة الكذاب لا سقت أصلوا ماء مزن حيثما كانوا^(٢)

وربما كان قيس عندما أسره خالد بن الوليد قد تراجع عن رده قبل أن يأمره خالد ، وأن يمينه كانت صادقة .

وإذا انطلقنا بعد هذا إلى جانب هام من جوانب شخصيته وأحد مقوماتها ، ونعني به قيس بن عاصم الفارس نجد أن أول ما يطالعنا غير في الأغاني يصفه فيه بأنه فارس شجاع كثير الغارات ، مظفر في غزواته^(٣) . ويطالعنا صاحب « المحبر » بخير آخر بعد فيه قيس بن عاصم من الجرارين^(٤) ، والجرار هو القائد الذي يقود ألف رجل . ويدهي أن القائد الجرار الذي يقود ألف رجل محارب في الجاهلية يعني أنه فارس شجاع إذا ما احتبرنا عدد الجيوش المقاتلة في تلك الأيام .

ونقلب في المصادر التي أوردت أخبار تلك الأيام والغارات في الجاهلية نرى أن قيساً كان قائداً وفارساً مبرزاً في الأيام التالية : يوم جدود ، ويوم قتل أو الباج ، ويوم الكلاب الثاني ، وكذلك عبد القيس .

لما يوم جدود فقد كان من حديثه أن الحارث بن شريك جمع بني شيان وبني ذهل والهلزهم

(١) الأغاني ٧٦ / ١٤ .

(٢) ليار القلوب للعلمي ٣٦٥ ، المعارف لابن كنية ٤٠٥ .

(٣) الأغاني ٦٩ / ١٤ .

(٤) المحبر - لابن حبيب ٢٤٦ .

أغار على بني مقلص وأخوتهم بني ربيع فلم يجيبوهم ، فاستصرخوا بني منقر ، فركبوا حتى لحقوا بالحارث بن شريك ويكر بن وائل وهم ناضلون في يوم شديد الحر . وكانت نتيجة المعركة أن هزم الحارث ويكر ، وقصد قيس بن عاصم الخوفزان ، ولم يكن له حمة غيره ، والحارث على فرس له قارح يدعى الزبد ، وقيس على مهره ، فخالف قيس أن يسبقه الحارث ، فخطروه بالربيع في أسنة ، فحفر به الفرس فتجا ، فسعى الخوفزان ، وأطلق قيس أموال بني مقلص وبني ربيع وسباههم وأخذ أموال بكر بن وائل وأسرهم ، وانتفضت طعنة قيس على الخوفزان بعد ستة فئات^{٢١} .

وفي يوم النياج وثيل ، أغار قيس بن عاصم على القهارم ، فقبعة بنو كعب بن سعد بالنياج وثيل ، فخطوف أن يكره أصحابه لقاء بكر بن وائل ، فقام ليلاً فشق مزادهم ، لئلا يجهلوا بدا من لقاء العدو ، فلما فعل ذلك أذعنوا وصبروا للقاهم ، فأغار عليهم ، فكان أشهر يوم يوم ثيل لبني سعد ، وظفر قيس بما شاء ، وملأ يديه من أموالهم وغنائمهم . وفي ذلك يقول أبته حل بن قيس بن عاصم :

أنا ابن الذي شق المزاد وقد رأى بثبثل أحياء القهارم حضرا
فصحبهم بالجيش قيس بن عاصم وكان إذا ما أورد الأمر أصبرا^{٢٢}

وفي يوم الكلاب الثاني ، وكان تاريخه بعد يوم الصفقة حيث أوقع كسرى بسيم ، اجتمعت ثميم إلى سبعة منهم وشاوروهم في أمرهم . وكان من بينهم قيس بن عاصم ، وقال كل رجل منهم ما رأى ، ووافقوا على رأي النعمان بن الحبحاس ، حيث أشار عليهم بالبحث عن ماء يجمعهم ولا يعلم الناس بأي ماء هم حتى يقرى ظهروهم ، وتصلح أموالهم ، واقترح عليهم ماء قلة . وعلمت اليمن بضعف أمرهم بعد أن بطش بسيم كسرى ، فتناوت وأحلافها من قضاة ، وخرج الجميع لغزو ثميم ، ففرغت ثميم إلى أنكم ليشير عليها أن تنزل حنظلة بالدهناء ، وسعد والرياب بالكلاب ، وأي الطريقين أخذ القوم كفى أحدهما صاحبه ، وقيل القوم مشورتهم . واحتل القوم وقتل النعمان بن الحبحاس آخر النهار ، ولما أصبحوا ثوى قيس بن عاصم امرأة ثميم ، وحلوا على أهل اليمن حملة صديقة ، فانهزموا ، وقيس ينادي : يا ثميم ! لا تقتلوا إلا فارساً ، فإن الرجال لكم^{٢٣} .

(١) الأغاني ٧٩ / ١٤ .

(٢) الأغاني ٨١ / ١٤ .

(٣) أنظر غير هذا اليوم مفصلاً في مصنفه : شرح الشافعي ١ / ١٣٧ ، الأغاني والمفيد القصيد ٣ / ٣٥٤ ، الكامل في التاريخ لابن الأثير ، خزائن الأدب ١ / ٣٧٠ .

ومن غزوات قيس بن عاصم ، تلك الغزاة على عبد القيس ، وقد كان بنو سعد برئاسة سنان بن خالد ، وكان بنو عبد القيس بأرض البحرين ، فأصاب بنو سعد ما أرادوا ، وقد أبلى بنو سعد بلاد حسناً ، واجتالت عبد القيس في أن يفعل ببني عقيم كما فعل بهم بالشعر يوم أغلق عليهم بابهم فامتنعوا . ويبدو أن هذا اليوم ، بين عبد القيس وبني سعد كان هو يوم جزائي ، لأن سوار بن حيان المقرئ يقول مفتخراً :

فيا لك من أيام صدق أعضاها كيوم جزائي والنياج وثبتلا^(١)

ومن أعياد الأيام ما تجده في غير يوم الستار ، وهو يوم ينكر وعقيم ، وفي هذا اليوم قتل قيس بن عاصم ، كما قتل فيه أيضاً قتادة بن سلمة الخنفي فارس بكر^(٢) .

هذا ما استعنت به المصادر التي عنت بأعياد الأيام ، ومن المؤكد أن أياماً أخرى قد ضلت طريقها إلينا ، لأن لأبي عبيدة كتابين في الأيام ، كتاب الأيام الكبير ، وكتاب الأيام الصغير . وقد ذكر أبو عبيدة أنفاً وماتني يوم في الكتاب الأول ، ولورده في الثاني خبر خمسة وسبعين يوماً^(٣) . كما ألف صاحب الأغاني كتاباً في الأيام جمع فيه أنفاً وسبعماية يوم^(٤) .

ولكننا بالرغم من كل هذا لا نعرش على أعياد ما يقارب ثلاثمائة يوم أو يزيد قليلاً^(٥) . وبعبارة أخرى إن ما وصلنا إليه يعادل خمس الأيام التي دونها العلماء الرواة .

وتابع الرحلة مع سيد أهل الورع لنبحث في جانب آخر من جوانب شخصيته ، ونعني قيساً الشاعر ، فقد أسعدتنا المصادر بمقطوعات من شعره ، ولم نتج لنا للمصادر أن نقتصر بقصيدة واحدة له يزيد عدد أبياتها على العشرة . وقد كان هذا من أبرز الدوافع عندني لإلقاء الفصل الخاص بقيس ، إذ لا ديوان شعر له بين أيدينا ، وليست بين أيدينا قصائد مطولة له ، كما أن عدد أبيات المقطوعات التي ظفرتنا بها لا تزيد على خمسين بيتاً موزعة على إحدى عشرة مقطوعة .

وسنحاول في محاولة أن نعرض لنماذج من شعره لنبين الموضوعات التي طرفها ، ولنتبين صلتها بجوانب شخصيته .

(١) الأغاني ١/ ٨١ .

(٢) جمع الأنساب للبيهقي ٢/ ٣٩٩ .

(٣) كشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ٤٩٩ .

(٤) كشف الظنون ١/ ٤٩٩ .

(٥) إحصائيات ملحقة يحثي للشار إليه أنفاً .

وأول ما نطالعُه هنا حديث عن الخمر التي حرمها على نفسه في الجاهلية . ففي خبر عن أبي حاتم أن قيساً شرب ليلة حتى سكر ، وكان يجاوره داري تاجر ، فربط الداري وأخذ ماله ، وشرب من شرابه فآذناه سكرأ ، وجعل يتطاول ويثارر التحريم من السكر ليلتها ولتأول القصر فقال :

وتاجر فاجر جاء الإله به كأن عثوته لذناب أجمال

فلما أصبح أخبر بما كان منه ، قلل ألا يدخل الخمر بين أضلعه أبداً^(١) .

وفي رواية أخرى عن عاصم بن الحذعان وهشام بن الكلبي عن أنبياعها أنه حرم الخمر لسبب آخر ذكرناه سابقاً وأشد في ذلك :

وجدت الخمر جامحة وفيها	عصال تفضح الرجل الكريم
فلا والله أشر بها حياتي	ولا أدعو لها أبداً ندما
ولا أعطي بها ثمناً حياتي	ولا أنفي بها أبداً سقيا
فإن الخمر تفضح شاربها	وتجشمهم بها أمراً عظيما
إذا دارت حباها تعلت	طوالع تسفه الرجل الحلما ^(٢)

ونلاحظ في الأبيات السابقة أن ترميها على نفسه جله نتيجة لخبرة مريرة عاشها قيس ، قد تكون محاولته مع ابنة أو أخته ، ولعل هذا قوله في البيتين الرابع والخامس ، كما نلاحظ ربط ذلك بما تحدثه للرجل الحلوم . وهذه الإشارة ربما تعود إلى تصرفه أيضاً مع تاجر الخمر نفسه وربطه إلى ضوحة في داره ، ولطمه أخته وخش وجهها ، وهذه تصرفات تسفه الرجل الحلوم .

وليس مقطوعة أخرى رويت عنه تتعلق بالخمر ، يقول فيها :

فوالله لا أحسو مدى الدهر خرة	ولا شربة تزوي بلدي اللب والفخر
فكيف أتوق الخمر والخمر لم تزل	بصاحبها حتى تكسح في الفدر
ومصارت به الأمثال تضرب بعدما	يكون عميد القوم في السر والجهر
ويديرهم في كل أمر بنوهم	ويعصمهم ما نأبهم حادث الدهر

(١) الأختي ١٤ / ٧٦ ، ٨٥ .

(٢) الأختي ١٤ / ٨٤ .

فيا شارب الصهباء دعها لأهلها الغواة وسلّم للجسيم من الأمر

فإنك لا تدري إذا ما شربتها وأكثرت منها ما تريش وما تدري^(١)

ونستخلص من هذه الآيات القليلة الأسباب التي حثت على الإمتناع عن شربها ومعالجته
الله على ذلك ، ومن ذلك أنها تزرى بصاحبها ولو كان ذا عقل ومعدة يفسد بها ، ومنها أنها لم
تزل بصاحبها حتى تفعله بنفسه في الرذيلة ويتلذذ في القدر ، ومنها أنها تجعل شاربها حديث
القوم وتغرب به الأمثال في السفه والفخر بعد أن كان سيد القوم في السر والعلن ، وبعد أن كان
صاحب المبادرة في كل أمر يتزل بهم ، وكان يعصمهم ويصحبهم من نواب الدهر . ونراه في
البيتين الآخرين لا يقتصر التحريم على نفسه بل نراه يوجه حديثه إلى كل شارب لما ناصحاً له بأن
يتزكها للغواة الضالين السائرين في الضلالة . وأن يتفرغ للأمور الحامئة التي تهم قومه وشعبه ،
وبعلل ذلك بأن الذي يشربها ويكثر لا يدري ماذا يفعل ولا يستطيع أن يميز بين الضر والنافع .

ومما أثار من قيسين عاصم كرمه وإطعمته زاده الآخرين أن زوجته أمته في الليلة الثانية من
بنائه بها بطعام فقال : أين أكيل ؟ فلم تهم قصده ، فأنشأ يقول :

يا ابنة عبدالله وابنة مالك ربا بنت في البردين والقرم والورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلاً فإني لست آكله وحدي
أخاف ملامات الأحاديث من بعدي أنسا طارقاً أو جلي بيت فإني
وإني لعبد الضيف من غير ذلة وما بي إلا تلك من شيم العبد

فأرسلت جارية لما مليحة فطلبت له أكيلاً ، وأجابه :

أيس المرء ليس أن يذوق طعامه بغير أكيل إنه لكريم
فبوركت حياً يا أخا الجود والندی وبوركت ميتاً قد حوتك رجوم^(٢)

بوركت قيس من عاصم ، فقد كان ينشئ ملامات الأحاديث من بعده ، وقد كان يرفض أن
يتفرد بالزاد وهو يأبى إلا أن يكون عبداً لضيفه الذي جده بالطارق أو بالجار ، وكلاهما له عليه
حق في زاده .

وترى تيساً حيناً خدعه الزيرقان وزين إليه أن يفرق كل منها الصدقات في قومه ، ولعلها
قيس ، وذهب الزيرقان بما لديه من الصدقات إلى أبي بكر ، نراه يقول عبداً سب فعله تلك
ومعلنا ذلك ليهل إلى قريش :

(١) الأغاني ١٤ / ٨٥ .

(٢) الأغاني ٤ / ٧٦ - ٧٢ .

ألا أبلفنا عني قريشاً رسالة
حبوت بما صدقت في العام متقرأ
إذا ما أنتمهم مهنيات الودائع
وأياست منها كل أطلس طامع^(١)

ويبين من البيت الثاني أنه عول بعد موت النبي ﷺ أن تقع الصدقات في يد لص بحيث طامع ، والأولى أن ينسبها في قومه ، وربما كان علوه في ذلك أنه لم يكن قد تمثل الإسلام بعد ، وأن موت النبي يعني أن عقد الأمور إنحل وعادت الأمور إلى سابق عهدها في الجاهلية .

أما قيس الفارس الشاعر فلم يشر له إلا على منطوحات ثلاث ، الأولى قلنا في يوم جديد ، وفيها يقول :

جزى الله يربوعاً بأمرأ سمعها
ويوم جدود قد فضحت أباكم
فأصبحتم والله يفعل فاكم
وأصبحت وغلاً في غيم وأصبحت
لغزراً على الملوى إذا ما بظتم
إذا ذكرت في الثالث أمورها
وسالتم والخيول تدمى نحورها
كمروودق لم يبق إلا زفيرها
عظماً مساعها سواك ونورها
ولوما إذا ما الحرب شب سمعها

ويتخل بعد هذا التلميح ليرجع لتكويدها عن نصرة أخوتها ، إلى القصر بقومه فيقول :

عصمتنا قمي في الحروب فأصبحت
وهزت بنو يربوع إذ هشها الوغى
معادتها تحي سواك وخيرها
هرير كلاب أوجعتها أيورها

ثم يذكر يومين آخرين لقومه وهما جوائي والنباج فيقول :

ويوم جوائسي والنباج وثيل
وغركم من وهطكم كل مربع
تساقط أطلاق الحصى في نحوركم
ويرجز قيس في يوم الكلاب الثاني :
لما تولوا عصبا شواربا
أقسمت لا أظعن إلا راكبا
منعنا ريبها أن تباع ثغورها
جوابسي جهنم بمد نحيرها
بصحن العراق فاستبتم نحورها^(٢)

(١) الأغاني ٧٥ / ١٤ .

(٢) شرح النفاذ لأبي عبيد ٤٦ / ١ ، ٣٢٨ ، الأغاني ٨١ / ١٤ . المقدم الفريد ٢٠٠ / ٥ ، الكامل لابن الأثير ٦١١ / ١ .

إني وجدت الطعن فيهم صائبا^(١)

ويجب راجز ملحق قائلا :

عما قليل تلتحق أربابه مثل النجوم حسرا سحابه
ليمتعن النعم المختص به سعد وفرسان الواسي أربابه^(٢)
وفي الأثافي أن مهارة نضبت بين قيس وابن عمه عمرو بن الأهمم عند رسول الله ﷺ حينما
لما عليه بعد فتح مكة ، وقال قيس يرد على ابن عمه ويغشخش :
لولا دفاعي ، عنكم كنتم أعيادا مسكنها الحسيرة طالسيلحون
جاءت بكم عفرة من أرضها^(٣) حيرته ليست كما تزعون
في ظلمر الكف وفي بطنها وسم من الداء الذي تكتنموا^(٤) .

ويبدو أن العمرة امتد بقيس ، فقد حاصر لها بكر ، لأن صاحب فتوح البلدان يذكر عمرا
عن فتوح السواد ، ذلك أن النبي بن حارثة الشيباني كان يغير على السواد . فبلغ أبا بكر عميره ،
فسأل عنه ، فقال قيس بن عاصم لأبي بكر : هذا رجل غير شامل للذكر ولا مجهول النسب ،
وأثنى عليه^(٥) .

واكتسبت تلك السنوات حكمة أودعها فيه ، فكان يقول لهم : إياكم والبغي ، فما بنى
قوم قط إلا قتلوا وقتلوا .

وقد امتلأ بئره لما أوصاهم فكان بعضهم يلطمه قومه أو غيرهم لونهي إنشوته من أن
ينصروه^(٦) . وأوصاهم بحفظ المال ، وقد حل عليه وعلى قومه من أجل ذلك لأنه يتأنس الكرم
ولا يتلنى معه . وربما كانت وصيته ألا يتشكروا المال إلا في أهداف نبيلة ، وأن يتجنبوا إغلاقه في
اللهم وغيره مما لا ينفع ، وما يؤكد هذا الإلهام ما سيرد في وصيته الأخيرة .

ويروي ابن حنبل أن قيساً جمع ولده حين حضرته الوفاة وأوصاهم بما يلي : يا بني إذا مت
فسودوا كباركم ، ولا تسودوا صغاركم ففسده الناس كباركم . وعليكم بإصلاح المال فإنه منهية
الكريم ، ويستغنى به عن القلبي ، وإذا مت فادفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها وأصوم .
ولياكم والسألة فإنها أضر مكاسب العبد .

(١) شرح النفاذ ١/ ١٥٢ .

(٢) التكميل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٦٢٤ .

(٣) الأغاني ١٤/ ٨٨ .

(٤) فتوح البلدان - البلاذري ٢٤٢ .

(٥) الأغاني ١٤/ ٧٧ .

جدول رقم (١)

الأيام العدنانية - القحطانية

اليوم	الفریقان (التنصر أولاً)	اليوم	الفریقان (التنصر أولاً)
عطيفة	برسوع ... تميم - القميعة بن المنذر	حارث الجولان	غسان
السلان	عامر - المنظورة + تميم + ضبة	جو نطاع	معبد تميم - هذيل بن علي ملك المناذرة
عزاز	نزار - اليمن	الزخيم	تميم - اليمن
براعة ، غنم	ضبة - القيسية	الحسين	تغلب - عمرو بن هند
ليف السريح ، الأبشر يوم بضيح	عامر - اليمن	حنو قرقر ، حفص	تميم - لطيمة عامل كسرى
حجر	أسد - كتلة	رضيخ	عامر - طي
أولادة الثاني	عمرو بن هند - تميم	فدوى	بنو طهية ... تميم - اللات
أولادة الأول	المنذر بن ماء السماء + تغلب + النمر - بكر	فروخ	بنو معبد بن ثعلب ...
الصلفة	القرص - تميم		أسد - غسان
الكلاب الثاني	تميم - اليمن	فوذرائح	تميم - اليمن
حول الثاني	تميم - غسان	شطب	أسد + المناذرة -
ظهر الدهناء	طيء - أسد	الطبيب	غسان سعد + حنزة - مذحج + حمير
المرقوب	كلاب ... عامر - مذحج + خثعم + زبد	ضبيعات	الحارث بن عمرو
البيداء	حمير - كلب + تميم - الرباب	تجران	الكتندي - تميم + تغلب
تلحيت	سليم - مراد	لراو	تميم - اليمن + حمير
أرق	طيء - عامر	النشاش	أسد - غسان
نقر	عمرو بن الحارث الغساني - ذبيان	التجبر	عامر - أعلى اليازة كتلة
		نافيخ والضحطان	تميم - اليمن

اليوم	الفرقان (التنصير) (أولا)	اليوم	الفرقان (التنصير) (أولا)
يوم بني عيد منه وكتلب وحير	بنو عيد منه - كتلب - حير	جدود	منقر / تيم - شيان / بكر
القرن	عاصر - خشم	سفوان	مازن / تيم - شيان
أ - بكر وتيم		خول الأول	بنو الخير - طوائف من عمرو بن تيم بكر
التياج وتغل	تيم / مفاص - بكر / التهام	السل	مازن / تيم - بشكر
الجهات	بنو ثعلبة بن يرموع - بكر	نقا الحسن ، الشقيقة قبة - شيان	
ذو طلوح ، الصمد ، بلقاء ، أود ، جوف طويلع ، ذو احيال .	يرموع - بكر	الزويين	شيان - ثور
المحقق ، عين النمر ، ماله		الميسمي ، الهباء	تيم - ثلاث / بكر - بجائع / تيم
التنمر ،	يرموع - بكر	الشبطون	بكر - تيم
رأس العين	يرموع - بكر	مبايض	شيان - بنو عمرو - بنو سعد - بنو حنظلة
المغظالي ، أمشاش ، الأباه		ذو قار الأول	شيان - يرموع
الأفائة ، مليحة	يرموع - شيان / بكر	الحاظر ، ملهم	يرموع - بشكر - حنيفة
الغيظ ، الثعالب ،		الشفق	عجل / بكر - تيم
أهشاش صحراء الثعالب من تيم -		نعف قشابة ، نعف	
فلج ، البردي ، شيان		سويقه	شيان - يرموع
الغبيطون .		زبالة	شيان - تيم الله - تيم
الحاير ، طويلع	بشكر / بكر - بنو أسيد بن عمرو بن تيم	ظهر	بنو عمرو بن تيم - بنو حنيفة
خضط	يرموع - بكر	ذو بيش ، الصمد	شيان - يرموع
		الثبة ، ثبة مفروق	
		قبرة	بكر - تيم
		الطوع	بكر - تيم
		الغزير	بكر - تيم
		خوي	تيم - بكر
		الوقبي	شيان - مازن
		أفقي ، واليق	يرموع - بكر
		سفار	تيم - بكر

اليوم	القرىسان (المختصر أولاً)	اليوم	(القرىسان للمختصر أولاً)
الحجاب	يكر - سليط بن بريسوع + رباح + بنو لعلة بن يريوع	الدشة	مازن / تيم - سليم بريسوع + حفظة - عامر + كنية
ذو أواط ، أراط	تيم - حنيفة + جملة	الوليدات ، الولدة	بشيل / تيم - هلال / عامر
الستار	تيم - يكر	مازق	سعد تيم - عامر
القناع	يكر - تيم	الترغام ، الجوتون	بريوع - كلاب / عامر
الصلاب	يكر - عمرو بن تيم	قارب	طية - كلاب / عامر
القفار	يكر - تيم	عين	منقر + عماشع + بشيل - بنو عين العيش
صطوقي	بنو ديرة / يكر - سليط بن يريوع	عزان	بريوع - كلاب
القاعة	يكر - سعد بن زيد مناقة + منقر	يوم ليني جشم /	بنو جشم / هوازن - بني بريوع + بني سعد
ذوخيم ، الأريعاء	رباح - حنيفة	القرودين	دارم - عيس + مرة + ذيان
دولى	بنو طهية / تيم - تيم اللات	السلمي	بنايلة / عيس - طية + عدي + عكل + تيم
الأميل	طية - شيان	يوم الرمصة	طني - خطفان
ب - تيم وفيس		رحرحان الأول	دارم / تيم - عامر
القرن	عيس - دارم / تيم	رحرحان الثاني	عامر - تيم
المروت ، العناب ، أرم الكلية	بنو العنبر ومالك ويوسوع - بنو قشير / عامر	منع داب	بريوع - كلاب / عامر
دارة مائل	طية - قيس / بنو كلاب	جزع طلال	عيس - سعد / تيم
السويان ، ملزق	عامر + عيس - تيم	الكفافة	مزاورة - التيم + عدي - عكل + ثور لطلح بني عبد مدنة
المروقي	عيس - تيم		مزاورة - عمرو بن تيم
الجرف ، الصراشم	رباح بن يريوع - عيس		

اليوم	القرينان (المختصر أولاً)	اليوم	القرينان (المختصر أولاً)
ج - تميم مع تغلب	و - تميم والغساسنة	الشعب	غول الثاني
ذو يمدى	خسان - يرمع	ذو يمدى	خسان - يرمع
ارباب	الحبارث بن عمرو	ارباب	الحبارث بن عمرو
زودو الثاني	الغساني -	زودو الثاني	الغساني -
نطاع	تميم + تغلب	نطاع	تميم + تغلب
د - تميم وأسد	ز - تميم واليمن	تميم	الزخيم
يروع - أسد	الزخيم	يروع - أسد	الزخيم
بنو بني أسد - بني	ذو فوايح	بنو بني أسد - بني	ذو فوايح
سعد بن زيد مناة +	العذيب	سعد بن زيد مناة +	العذيب
بني حنظلة	الكلاب الثاني	بني حنظلة	الكلاب الثاني
هـ - تميم والمناذرة .	نجران	هـ - تميم والمناذرة .	نجران
عمرو بن هند - تميم	بوع بين بني عبد مناة	عمرو بن هند - تميم	بوع بين بني عبد مناة
سعد تميم - هذلة بن	عاقل	سعد تميم - هذلة بن	عاقل
علي	ضربة	علي	ضربة
الصفقة ، الشفر	الصفقة - يوم حمض	الصفقة ، الشفر	الصفقة - يوم حمض
حتر قرقر	عامل الفرس - تميم	حتر قرقر	عامل الفرس - تميم
السلان	(٢) حروب قيس	السلان	(٢) حروب قيس
طخفة	أ - فيما بين عيس وذبيان	طخفة	أ - فيما بين عيس وذبيان
	الريث		الريث
	عيس وبنو عبد الله بن		عيس وبنو عبد الله بن
	ضطكان - فزارة + ذبيان		ضطكان - فزارة + ذبيان

اليوم	الفرقة (المتصدر أولاً)	اليوم	الفرقة (المتصدر أولاً)
ملزق	سعد - عامر	حوزة الثاني	سليم - غطفان
لقارب	ضبة - كلاب	النقراوات	غني - عيس
عينين	منقر + مجاشع + نهشل	الثلوي + واردات	غطفان - هوازن
	بنو عبد القيس	الصلعاء	هوازن - غطفان
خوان	يربوع - كلاب	منعج + الرديعة	غني - عيس
القروطين	دارم - عيس + مرة + ذبيان	زروة الأول	بكر - عيس ، عيس - علي
السل	باهله / قيس - ضبة + عدي + حنكل + قيس	النصار	غطفان + أسد + علي + ضبة + عامر + هوازن
النصار	غطفان + أسد + علي	الجفار	غطفان + علي
الجفار	ضبة + عامر + هوازن		ضبة + عدي + عامر + قيس
	غطفان + علي		عامر - غطفان
	ضبة + عدي + عامر + قيس		ذبيان - عامر
يوم	جشم / هوازن - بني يربوع + بني سعد	ذات الشقوق	عامر - غطفان
رحرحان الأول	دارم - عامر	بطن عاقل	عامر - غطفان
رحرحان الثاني	عامر - قيس	الرقم ، بأجج	عامر - غطفان
داب	عيس - سعد / قيس	الشامه	عيس - عامر
جنز قلال	قزارة - النيم + عدي + حنكل + ثور أطحل بني عبد مناة	شواخط	بنو عكراب / قيس - عامر
	قزارة - عمرو بن قيس	قمره	
الكفاة	ضبة - عيس	المروراة	عيس - عامر
التيمة ، أعيار	هـ - قيس فيما بينها	شعر ، النخائن	عامر - عيس
	عدنية ، ملحسان أو سليم - غطفان	ذات الزرمم	عامر - عيس
	قنة ملحسان	طولة	عامر - غطفان
حوزة الأول	سليم - غطفان	سقف	عيس - عامر
		ركبة	عيس - عامر
		الرمية	عامر - عيس
		ذات الأكل ، الأوطي	جشم / هوازن - عيس

اليوم	المفريشان (المختصر أولاً)	اليوم	(القرينشان) (المختصر أولاً)
و - أيام أخرى	عريس - أسد	عريس - أسد	عريس - أسد
السلب	سليم - أسد	سليم - أسد	سليم - أسد
ذات الأكل	بنو عامر - بنو أسد	بنو عامر - بنو أسد	بنو عامر - بنو أسد
ذو علق	بنو بطيخ - عامر بن	بنو بطيخ - عامر بن	بنو بطيخ - عامر بن
يوم الحصى	صعصعة	صعصعة	صعصعة
يوم نرج	الأبام من بني صعصعة	الأبام من بني صعصعة	الأبام من بني صعصعة
سبان	بنو أسد	بنو أسد	بنو أسد
	فزانة	فزانة	فزانة
الفلج الأول	جشم بن بكر	جشم بن بكر	جشم بن بكر
الفلج الآخر	عامر - حنيفة - بكر	عامر - حنيفة - بكر	عامر - حنيفة - بكر
	بنو حنيفة .. بكر	بنو حنيفة .. بكر	بنو حنيفة .. بكر
	عامر	عامر	عامر
قارة أعوى - القوية	فجر - سبان	فجر - سبان	فجر - سبان
الفرن	عامر - خنعم	عامر - خنعم	عامر - خنعم
البيرة	هليل - سليم	هليل - سليم	هليل - سليم
الجرف	سليم - بنو سهم من	سليم - بنو سهم من	سليم - بنو سهم من
	هليل	هليل	هليل
٤ - حروب ربيعة لها بيتها (حرب البسوس)			
النهي	تغلب - بكر	تغلب - بكر	تغلب - بكر
الذئب	تغلب - بكر	تغلب - بكر	تغلب - بكر
واردات	تغلب - بكر	تغلب - بكر	تغلب - بكر
عنزة	تغلب - بكر	تغلب - بكر	تغلب - بكر
الحنو	تغلب - بكر	تغلب - بكر	تغلب - بكر
	أو بكر - تغلب	أو بكر - تغلب	أو بكر - تغلب
	(الأقاليم)	(الأقاليم)	(الأقاليم)
عريس - أسد			
سليم - أسد			
بنو عامر - بنو أسد			
بنو بطيخ - عامر بن			
صعصعة			
الأبام من بني صعصعة			
بنو أسد			
فزانة			
جشم بن بكر			
عامر - حنيفة - بكر			
بنو حنيفة .. بكر			
عامر			
فجر - سبان			
عامر - خنعم			
هليل - سليم			
سليم - بنو سهم من			
هليل			
٤ - حروب ربيعة لها بيتها (حرب البسوس)			
النهي			
الذئب			
واردات			
عنزة			
الحنو			
أو بكر - تغلب			
(الأقاليم)			
عريس - أسد			
سليم - أسد			
بنو عامر - بنو أسد			
بنو بطيخ - عامر بن			
صعصعة			
الأبام من بني صعصعة			
بنو أسد			
فزانة			
جشم بن بكر			
عامر - حنيفة - بكر			
بنو حنيفة .. بكر			
عامر			
فجر - سبان			
عامر - خنعم			
هليل - سليم			
سليم - بنو سهم من			
هليل			

اليوم	الفرقيضان (المتنصر أولا)	اليوم	الفرقيضان (المتنصر أولا)
وهي أيام :			
١) يوم الجسر	الحزرج - الأوس .		
٢) يوم التبرج	الحزرج - الأوس		
٣) يوم التيقع	الأوس - الحزرج		
٤) يوم الفرس	الأوس - الحزرج		
٥) يوم الفجسار			
الأول أو الخليفة	الحزرج - الأوس		
٦) يوم معبس			
ومضرس أو مفسس			
ومضرس	الحزرج - الأوس		
٧) يوم الفجسار			
الثاني	الأوس + قريظة + النضير - الحزرج		
يوم بعثات	الأوس + قريظة + النضير + مزينة		
	الحزرج + أشجع + جهينة .		
يوم الخليفة	وهو يوم القجار الأول		
ب - حروب الغساسنة والمناذرة			
يوم عين أبيخ	الغساسنة - المناذرة + نزار		
مرج حلينة	الغساسنة + عرب الشمال - المناذرة + عرب العراق .		
شطب	المناذرة + بنو أسد غسان		
ج - أيام أخرى			
نهد وجرم	عمرو بن معد يكرب السريدي - بلحاوث بن كعب		
الروزم	عبدان - مراد		
حرض	ملحج - نهد		
٧ - أيام العرب والفرس			
	ذو قار - قراقسر - يوم الحشو حنوذي قار - يوم حنو قراقسر - يوم الجباهات - بكر (الأبو حنيفة) + أمرى بني وياح - بن يوعج - يوم ذات المعجرج - يوم الفسلوان - يوم البطحاء بطحاء ذي قار - يوم صيد - يوم اللقية		
الصفقة	عامل الفرس - فهم		
حش			
٨ - أيام تغلب			
تغلب - بكر			
التغلب - بكر			

اليوم	القريستان (المختصر أولا)	اليوم	القريستان (المختصر أولا)
واردات	نقلب - بكر	ضحيات	الحارث بن عمرو
عنزة	نقلب - بكر	الشملي - نيم + نقلب	
الحنو	نقلب - بكر	يربوع - نقلب	
عورمضات	نقلب - بكر	نقلب - رباح بن	
أثيق	نقلب - بكر	يربوع	
ضربة	نقلب - بكر	نيم - بنو دراح ..	
القضيات	نقلب - بكر	نقلب	
قصة	بكر - نقلب		
الكلاب الأول	نقلب + النمر + براء + بنو مالك بن حنظلة + سلعة	(٩) إهام بين بطون القبيلة الواحدة	
	بكر + غيبة + الرباب +	حرايب	ورعيا
ذوقار	يربوع + شرحيل	هراميت	الغضاب بن كلاب بن
	بكر + شيان + عجل		عامر
	الفرس + نقلب +		جعفر بن كلاب بن
	طي + قضاعة +	قرعاء	عامر
	براء + إباد		دارم بن مالك بن
ذو يدي	غيبة + بنو سعد بن نيم		حنظلة بن نيم - يربوع
	نقلب	الفساد	بن حنظلة بن نيم
الشعب	نقلب - يربوع		الغوث ... من طيء
الأحص	بكر - نقلب .		جديلة ... من طيء
الحسين	نقلب - الكافرة	الفتاة	بنو خالد بن جعفر
خزائر	نزار - نقلب		العامري
خزائر	نزار - نقلب	لناس	بنو عامر
	اليمن ... ملحق		بنو سعد بن زيد عنزة
أولاء الأول	النذر + نقلب +	الردم	بن نيم
	النمر بن قاسط		بنو عمرو بن نيم
	بكر		بنو عمار بن نيم
يزالمة	الضائسة + إباد +		بن كنانة
	طوائف من نقلب - غيبة		بنو جميع بن عمرو ...
			ميتة

جدول رقم (٢)

القبائل والأيام التي انتصرت أو
هزمت فيها

القبيلة	الأيام التي انتصرت فيها	الأيام التي هزمت فيها
١ أسد بن عزيمة بن مذركة بن الياس بن مضر .	حجر ، فرحرج ، شطب ، الرداء ، يوح مع عيم ، السلو ، صاحوق ، قلاب .	ظهر النعناء ، نحو ، شعب ، جيلة ، شططه ، السليل ، ذات الأثل ، ذوعثن ، ترج ، العا .
٢ بكر بن وائل بن قاسط . .	الحاجر ، الزويرين ، القيصم ، الشيطين ، ميايض ، ذوقار الأول ، الشقين ، نعل فشاوة ، زيالة ، ذو بيش ، ثيرة ، الحويج ، الحزير ، الوقيي ، الحذاب ، القاج ، الصليب ، الجفار ، صفوق ، القاعة ، زروذ الأول ، حنزة ، قضة ، ذوقار ، الأحص ، العسا ، الفلج الآخر .	أوراة الأول ، ذرنى ، النياج ، الجهيات ، ذو طلوح ، القحطج ، رأس العين ، العطال ، الغيط ، خطط ، جدود ، صفوان ، ذول الأول ، السل ، نقا الحسن ، الحائر ، ظهر ، حوى ، أفاق ، صفار ، ذو أراط ، السطر ، ذو خيم ، ذرنى ، انهى ، الكتائب ، وارفات ، الحنو ، عورضات ، أثيل ، خزيمة ، القصييات ، السكلاب الأول ، قلاب ، القلج الأول ، الأميل ، غلة الحوى .

القصة	الأيام التي انصرفت فيها	الأيام التي هزمت فيها
٣ تغلب بن وائل بن قاسط .	أول مرة الأول ، الحسون ، الشعب ، أرباب ، الكهس ، الذنائب ، واريدات ، حنيزة ، الحنو ، حويضات ، أتيق ، ضربة ، القصصيات ، الكلاب الأول .	ضبيعات ، فو بهلى ، زروه الثاني ، نطاع ، قصة ، فو قار ، الأعص .
٤ غيم بن مر بن كد بن طانجة .	طيفة ، الكلاب الثاني ، غول الثاني ، جرنطاع ، الزخيم ، حض ، دولى ، فوقراتح ، العليب ، نجران ، التباج ، الجيدات ، فو طلوح ، التفتيح ، رأس العين ، العطالي ، الغيط ، غطط ، جدود ، سفوان ، غول الأول ، السلى ، نقا الحسن ، الطائر ، ظهر ، حوى ، أفاق ، سفار ، فو لواط ، السلار ، فو غيم ، دولى ، المروت ، الجرف ، الدنية ، فونجب ، المودة ، ملزق ، الرغام ، عيتن ، غوان ، الفروطين ، رحرحان الأول ، متعج ، فو بهلى ، زروه الثاني ، نطاع ، حو ، جرنطاع ، الصفقة ، حض ، ضربة ، النصار ، الكلاب الأول ، فوقار ، حر الدواير .	السلان ، أول مرة الثاني الصفقة ، ضبيعات ، الحاجر ، الزويرين ، الغيمى ، الشيطان ، ميايلى ، فوقار الأول ، الشقيق ، نطف قشولة ، زبالة ، فو يضر ، ثبرة ، الخروح ، الحزير ، الوقى ، الحداب ، القاع ، الصليب ، الجفار ، صطوق ، القاعة ، آقرن ، السويان ، الفروق ، يوم مع هوازن ، السلى ، رحرحان الثاني ، داب ، الكفالة ، الشعب ، أرباب ، يوم مع لعد ، أول مرة الثاني ، غول الثاني ، هاقيل ، شعب جيلة ، الجفار ، الكلاب الأول .

الأيام التي عومت فيها	الأيام التي انتصرت فيها	التحية
السلان ، السل ، الكلاب الأول . الدنية ، برزة .	بزاخة ، دارة مأسل ، قارب ، ذو بهدي ، النصار ، الجفار ، الأميل . تثليث ، الكتيد ، الفيفاء ، عذنية ، حوزة الأول ، حوزة الثاني ، ذات الأثل .	٥ غبة بن أد بن إلياس بن مضر . ٦ سليم بن منصور بن قيس بن عيلان .
أراق ، المروت ، دارة مأسل ، ذو نجب ، الوثلة ، ملزق ، رحرحان الأول ، منعج ، النصار ، الجفار ، بطن عاقل ، الرقم ، النشأة ، شواحط ، شعر ، سلق ، ركبة ، الحسي ، العنب .	السلان ، ليل ، السريح ، العروب ، زخبيخ ، النشاش السليان ، رحرحان الثاني ، شعب جبلة ، ذات الشقوق ، ذات الررمج ، طواله ، الرميثة ذو علق ، ترج ، الفلج الأول ، قارة أعوى ، القرن شعب جبلة ، التفراوات ، منعج .	٧ علم بن صعصعة بن بكر ابن هوازن . . بن قيس بن عيلان .
الجرف ، القروطين ، ذو حسا ، التفراوات ، منعج ، زود الأول ، ذات الرمرم ، الرميثة ، ذات الأثل .	أقرن ، السليان ، القروق ، داب ، الرقيب ، اليعسرية ، الحياة ، قطن ، ظهير قلبي ، عراعر ، المعنقة ، شعب جبلة ، شعواء ، ذات الجراجر ، العلق ، النشأة ، شعر ، سلق ، ركبة ، السلي .	٨ غني بن أعصر . . من قيس بن عيلان . ٩ عيس بن عفيش بن ريث بن عطفان بن سعد بن قيس بن عيلان .
أقر ، القروطين ، الرقيب ، اليعسرية ، الحياة ، قدير قلبي ، عراعر ، شعب جبلة ،	فوحسا ، النصار ، الجفار ، بطن عاقل ، جزع غلال ، الكفانة ، سبان .	١٠ ذبيان بن عفيش بن ريث بن عطفان .

الغيلة	الأيام التي انصرفت فيها	الأيام التي هزمت فيها
١١ غطفان بن سعد . . قيس بن عيلان .	اللولى ، الرقم ، الحسى .	قطن ، العنقة ، العلق . عدنية ، حوزة الأول ، حوزة الثاني ، الصلعاء ، ذات الشفوق ، طواله .
١٢ نصير بن حاصر بن صعصعة .		
١٣ هوازن بن منصور . . بن قيس بن عيلان .	يوم مع قيم ، الفجار الثاني ، نخلة ، شطه ، العيلاء ، الحريرة ، الصلعاء ، ذات الائل . شعب جلة .	الفجار الأول ، الفجار الثالث ، شرب ، النصار ، اللولى ، بيان .
١٤ باهلة ، بنو سعد مناة بن مالك بن أعصر . . . قيس بن عيلان .		بعاث .
١٥ أشجع بن ريث بن غطفان . . بن قيس بن عيلان .		النشاش ، عين .
١٦ عيلان لقيس بن أقصى . . . أسد بن ربيعة بن زرار .		
١٧ النمر بن قاسط . . بن أسد بن ربيعة .	لوازة الأول ، الكلاب الأول .	خو فلز .
١٨ زرار بن معد	خزاز .	عين أبايع ، مرج حليلة .
١٩ كتانة بن خزيمه بن مذوكة بن الياس بن مضر .	برزة ، الفجار الأول ، الفجار الثالث ، شرب ، نخلة ، العنب ، تكيف .	الكديد ، المهباء ، الفجار الثاني ، شطه ، العيلاء ، الحريرة .

الأيام التي هزمت فيها	الأيام التي انتصرت فيها	القبيلة
اليثاء ، يوم مع بني عبد منة ، هراهر ، شعب جيلة ، ذوقار .		٢٠ كلب بن وبرة بطن من قضاة .
	الكتاب الأول .	٢١ جهاد بن عمرو . . . من قضاة .
بعث .		٢٢ جبهة بن زيد بطن من قضاة .
		٢٣ إله بن قزاة بن معد بن عدنان .
	بارق .	٢٤ عتف .
بارق .	الضج والضحضجان ، السل ، شوايط .	٢٥ ليس بن عيلان .
	بعث .	٢٦ مزينة بطن من مضر .
كعب بن عمرو ، السراة ، حصين بن الأسلت ، فارخ ، السرك ، الجسر ، الربيع ، الفجار الأول للأنصار ، مضر ومعبس .	سمير ، ربيع الظفري ، قيس ، البقيع ، القرس ، الفجار الثاني للأنصار ، بعث .	٢٧ الأوس بن حارثة بن ثعلبة . . . الأزدة .
سمير ، ربيع الظفري ، قياه ، البقيع ، القرس ، الفجار ، الثاني للأنصار ، بعث .	كعب بن عمرو ، السراة ، حصين بن الأسلت ، فارخ ، السرك ، الجسر ، الربيع ، الفجار الأول للأنصار ، مضر ومعبس .	٢٨ الحارث بن حارثة بن ثعلبة .

القبيلة	الايام التي انتصرت فيها	الايام التي هزمت فيها
٢٩ الأزدي بن القوث بن نبت بن مالك بن كهلان . ٣٠ الخامسة .	أبهر ، حارث الجولان ، غول الثاني ، عين أياغ ، مرج حليمة .	ضرية .
٣١ لثائرة .	أواره الثاني ، أواره الأول ، شطب .	طخقة ، السلان ، جوطاع ، عيسى ، شعب جبلة ، عين أياغ ، مرج حليمة .
٣٢ طيء بن أدد من القحطانية .	شهر النخشاء ، أراق ، التار ، الجطار ، الجلميم .	زبيح ، ذوقار .
٣٣ حمير من القحطانية .	البيداء .	العذيب ، نجران ، يوم مع بني عبد مناة .
٣٤ غصم من القحطانية .	عاقل .	العرقوب ، القرن .
٣٥ زيد بن صعب من ملحج .	هد وجرم .	العرقوب .
٣٦ مراد بن ملحج .		تظيت .
٣٧ بلحارث بن كعب بن عمرو بن ملحج .		هد وجرم .
٣٨ ملحج بن أدد . . . من كهلان .		العرقوب ، العذيب .
٣٩ ببيعة بن من القحطانية .	شعب جبلة .	

المدينة	الأيام التي انتصرت فيها	الأيام التي هزمت فيها
٤٠ كنلة بن عفير من القمطانية	ضبيعات ، التجير .	حجر ، ذولجب .
٤١ اليمن .		عزاز ، نيف الربيع ، الكلاب الثاني ، الزعيم ، فوفرائح ، نجران ، المصيح والضحضحان .
٤٢ الفرس .	الصفقة .	حفس ، فوقار .
٤٣ اليهود .	القجار الثاني للأندلس ، بعث .	

جدول رقم (٣)

الأيام والشعر

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	الجموع للأبيات
سبتمبر	قيس بن الخطيم ، عمرو بن أمريه ، القيس الأنصاري الخزرجي ، حسان بن ثابت الخزرجي ، مالك بن العجولان الخزرجي ، نوحهم بن زيد بن جبيعة ،	٣	٣	٨٢ بيتاً
كعب بن عمرو الغازي	عاصم بن عمر المغيرة ، أحيحة بن الجراح الأوسي ،	٢	١	٣٠
السراة	قيس بن الخطيم ، حسان بن ثابت ، عبد بن ناقة الأوسي ،	٢	٢	٤٨
الربيع الظفري	حسان بن ثابت ، قيس بن الخطيم ، عصم بن سليمان البجلي الخزرجي ، سويد بن الصامت الأوسي ،	٣	١	٣٣
فروع	الربيع بن أبي الحقيق اليهودي ، عامر بن الأطلابة ،	١	١	٢٤

العدد للمجموع للأجزاء	عدد النصائح	عدد المتطوعين	الشعراء	العدد
٦٧	٢	٢	قيس بن الخطيم ، عبد الله بن رواحه ، أس بن العلاء الخزرجي ،	حاجب
٤٠	٢	٢	عبد بن خالد الأوسي ، أبو قيس بن الأسلم الأوسي ، عبد الله بن رواحه ،	البقيع
١	-	١	عبد الله بن رواحة ،	الفجار الأول للأنصار
٦	-	١	يزيد بن قيس الخزرجي ،	الفجار الثاني للأنصار
٤٣	٢	١	قيس بن الخطيم ، حسان بن ثابت ، عبد الله بن رواحة ،	مضرس ومعيص
٤٦	٢	-	قيس بن الخطيم ، عبد الله بن رواحة ،	القطباء
٢٢	-	٥	قيس بن الخطيم ، أبو قيس بن الأسلم خفاف بن ثعلبة التميمي ،	بعث
٨	-	٢	حسان بن ثابت ، يزيد بن طعنة الخطيم الأوسي ،	الذك
٣٩	١	٤	حسان بن ثابت ، الرمي بن يزيد الخزرجي ، قيس بن الخطيم ،	أيام من أيام الأوس والخزرج
٧٦	٢	٥	عدي بن الرعلاء الغساني ، علقمة الفحل التميمي ، لؤس بن حجر التميمي ، النابغة الذبياني ، بعض شعراء غسان ، أجدع ،	حروب الغساسنة والملقرة (أباغ - حلقة)

اليوم	الشعراء	عدد المتطوعات	عدد النصائح	المجموع للأبيات
عطيفة	منعم بن نويرة اليربوعي ، ربيعة بن مفروم الضبي ، شريح بن الحارث اليربوعي ، عمرو بن حوط الراسي ،	٤	-	٢٧
السلان	ليبد بن ربيعة العاصري ،	١	-	١
عزاز	عمرو بن كلثوم التغلبي ، السفاح التغليبي ، ابن الحائك الحميري ، عبد بن قواد البهراوي ،	٤	-	١٦
بزاغة	ابن القناص ، ربيعة بن مفروم الضيبي ، ناكحة ابن مزقياد ،	٣	١	١٩
فيف الريح	عاصم بن الطفيل ، مسهر بن يزيد الحارثي ، أبو ذؤاد الرؤاسي ، عمرو بن معد يكروب ،	٥	٣	٦٣
حجر	عبد بن الأبرص الأسدي ، اسروق القيس الكتاني ،	٨	١١	٢٦٦
لؤارة الأول	الأعشى ، علقمة بن عبدة التميمي ،	٢	-	١٥
لؤارة الثاني	عمرو بن ملقط الطائي ، الأعشى ، حاتم الطائي ، علقمة بن شيبان ، قيس بن جروة الطائي ، ليث بن زُرارة التميمي ، الحمران بنت حميرة بن جابر ،	٧	١	٤٠
الصفقة	الأعشى ، المجذام التميمي ،	٢	-	١٠
الكلاب الثاني	علقمة الفحل التميمي ، ربيعة بن	١٥	٦	١٨٥

اليوم	الشعره	عدد القطوعات	عدد المتصالحات	المجموع للآيات
	مقوم الضبي ، وعلة الجرمي ، مبرز ابن الكعير الضبي ، عبد يثوث الخلقي ، أوس بن مفره ، البراء بن قيس الكتني ، علقمة بن السباع ، صفية بنت الخرج التيمية ، رجل من أهل اليمن ، رجل من ضبة ، قيس ابن عاصم ، نائلة عمرو بن الجعيد ، زينب بنت مالك بن جعفر بن كلاب ،			
ظهر الدعاء	بشر بن أبي عازم الأسدي ، أنيف بن زيان التيهاني الطائي ، رويشد بن كثير الطائي ،	٣	٤	٩٢
غزل الثاني	سحيم بن وثيل الرياحي ،	١	-	١
العرقوب	ليد بن ربيعة العامري ، معاوية المرادي ،	٢	-	٩
البيد	رجل من حمير ، هلال بن رزيق ، حصان بن ثلبة العلوي ،	٤	-	٢٢
تثنية	العباس بن مرداس السلمى ،	-	١	٢٨
يوم بين بني الحارث	اسود القيس بن عمرو بن الحارث الكتني ،	١	-	٩
كتلة - تيم	عبد بن الأبرص ،	-	١	١٢
شطب الراو	عبد بن الأبرص	١	٢	٤١

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
فوقار	امركة من عجل ، ابو كلبة ، الأعمش ، أعشى ربيعة ، عمرو بن الأسود ، بنت القرين الشيبانية ، بكير ، أصم بني الحارث ، حنظلة بن ثعلبة ، الحواشيزان بن شريك ، النعمان بن جندب ، سويد بن أبي كاهل البشكري ، العدلي بن الفرج ، لقيط الأيادي ، يزيد بن حنظلة بن ثعلبة ، يزيد بن حمان السكوني ، الحرقة بنت النعمان بن المنذر ، قيس بن مسعود ، مرداس بن أبي عامر ، عمرو بن جيلة بن يامث بن صريم ، مرثد بن الحارث ابن ثور ، أم عمرو بن عدي بن زيد ، أحمد شعراء بني ربيعة ، ابن قود المختبر النحوي ، حريم بن الحارث النحوي .	٣٠	*	١٧٦
النباح	ربيعه بن طريف بن نعيم العنبري ، قرة بن قيس بن عاصم ، عمرو بن المكعب الطيبي ،	٣	-	١٣
الجيات	عميرة بن طارق اليربوعي ،	١	-	٣
ذو طلوح	شيخ من شيان ، عبد الله بن حمزة الطيبي ، عميرة بن طارق اليربوعي ، مشم بن نورية اليربوعي ،	٣	٣	٧٣
رأس العين	سحيم بن وائل الريملي ، الأسود بن يعفر ،	٢	-	٨

البرج	الشعراء	عدد القطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
الفتح	حشيش بن عمران الريلحي .	٢	-	٣
العقل	عنية بن الحارث اليربوعي قطبة بن سيار بن منذر بن ثعلبة ^٤ ، العوام الشيباني ، أم العوام ، شمم بن نوبة اليربوعي ، عميرة بن طارق اليربوعي .	٨	١	٩٠
الخيوط	مالك بن نوبة اليربوعي ،	١	-	٣
الحاجر	باعت بن صريم الشكري ،	٢	-	١٠
ضبط	مالك بن نوبة اليربوعي ،	-	١	٢٦
جدود	سوار بن حيان الثقفي ، سلامة بن جندل السعدي ، قيس بن حاصم الثقفي ، عبد الله بن حنمة الضبي ، مالك بن نوبة اليربوعي ، الأعمش الثقفي ، قيس بن مقلد الكلبي ،	٥	٤	٨٥
سفوان	وداع بن لعل الفلزني .	٢	-	٩
عزل الأول	ربيع بن طريف العنبري ، فضلة السلمي ،	٢	-	١١
السل	زاهر بن عبد الله بن مالك النعبي ، حاجب بن ذبيان القارني ،	٢	-	٨
نقا الحسن	شمعة بن الأخطر الضبي ، هرث بن الكعبير الضبي ، مالك بن النضيق الضبي ، عبد الله بن حنمة الضبي ، أم بسطام بن قيس ،	٤	٢	٣٧

اليوم	الشعراء	عدد المطبوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
الزويمين	الأعشى ، الأقلب العجلى ،	٤	-	١٦
الميمى	مجمع بن حلال ،	-	١	١٠
الشيطن	رشيد بن رميض العنزي ، محرز بن المكبر الضبي ، قيس بن عمر العجلي ، عيسى بن عمرو العائلي ،	٦	-	٢٩
مبايش	عمر بن سواد ، حصيفة الشياني ، طريف بن تميم العنزي ،	٣	-	١٤
خوقار الأول	عتبة بن الحارث اليربوعي ،	١	-	٢
الحارث - ملهم	مالك بن نيرة اليربوعي ، حاجب ابن زارة التميمي ،	٢	-	٤
الشفين	أبو النجم العجلي	١	-	١
نعف فشاوة	أقيم بن أوس الشيباني ، مالك بن حطان ، مالك بن نيرة اليربوعي ، متهم بن نيرة اليربوعي ،	٢	٢	٣٥
زبالة	أوس بن حيدر التميمي ، الحصون بن القنماق ،	٣	١	٣٠
أقرن	مسكين الدارمي ، عنترة العبسي ،	-	-	٧
المرات	يزيد بن الصنع الكلابي ، أوس بن حجر التميمي ، أوس بن بحير القشيري ، بحير بن عبد الله القشيري ، تميم بن حناب الرياحي ، العرواء تحت بني رباح ، يزيد بن فهر	٩	-	٢٨

اليوم	الشعراء	عدد القطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
	التميمي ، بنت بحير بن عبد الله القميري .			
دارة مأسل	شمعة بن الأخطر الضبي ،	١	-	٢
السويك ، أو السويك	أوس بن حجر التميمي ،	١	١	٢٣
ومرحبان الأول	لقيط بن زورارة التميمي ، عامر بن الطفيل العامري .	٥	١	٣٢
ومرحبان الثاني	عوف بن عطية التميمي ، قصانة بن مسلمة الحنفي ، النابغة الجعدي ، لبيد ابن ربيعة العامري ،			
عمر	ربيعة الأسدي (أبو ذؤيب) ، سحيم عبد بني الحسحاس من بني أسد ، أمية بنت عتبة بن الحارث اليربوعي ، شتم بن نويرة اليربوعي ، مالك بن نويرة اليربوعي ، بشر بن لقيط القمي الأسدي ، أوس بن حجر التميمي ،	٥	٢	٤٤
الندبة أو الندبة	عباس بن ربيعة السهمي ، حاجب بن ذبيان المازني ،	٢	-	٩
الكفافة	الحادرة ،	١	-	١
فوشجب	أوس بن حجر ، سحيم بن ذؤيب الرياحي ،	٣	-	١٥
هوازن - بنو برموج + بنو سعد	دريد بن الصمة ،	١	-	٧

اليوم	الشعراء	عدد القطرات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
فوجيني آراب	جرير حنينة بن الحارث اليربوعي ، مساور ابن هند ، ليبد بن عطار بن حاجب ابن زرار بن عدس التميمي ، منقذ ابن حرافطة ، الفضل بن العباس البلهي ،	١ ٥	- -	١ ١٥
المشعب	مالك بن نويرة اليربوعي ، سحيم بن وثيل الراصي ،	٢	-	٢
ملزق	سلامة بن جندل التميمي ، الأحباب ابن أعشى ربيعة بن جرادة ، أوس بن مغراء السعدي ،			
الرقام	امرؤة من بني مرة ، العباس بن مرفاس السلبي ، حنينة بن الحارث اليربوعي ، مالك بن نويرة اليربوعي ،	٤	-	١٤
الوتلة أو الوتلات	طليل الغنوي ،	١	-	٣
الجرف	شعبت بن ذياح الراصي ، عصمة بن حذرة ، واقع بن هرم الراصي ، الحطية ، سحيم بن وثيل الراصي ، جرير ،	٦	-	٢٨
زود الثاني	أنيف بن جيلة الغسي ، هبيرة بن عبد مناق اليربوعي (الكلجة) ،	٢	-	٩

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	للمجموع للآيات
بنو أمية - بنو سعد وبنو حنظلة	بشر بن أبي عازم الأسدي ...	-	١	٢٨
حروب الفجار ١ - الفجار الأول	الأخضر بن مازن ، ليث بن ربيعة الحامري ، الحارث بن كلثة الثقفي ، حامر بن السقطيل الحامري ، الصمة	٢٣	٣	١٢٧
٢ - الفجار الثاني	الجشمي ، خطاش بن زهير ، بندر بن معشر الكناني ، البراء الكناني ،			
٣ - الفجار الثالث	بلعاء بن قيس الكناني ، الشومسر الليثي ، عبد الله بن جلد الطعان الكناني ، عبد الله بن الزبير			
٤ - الفجار الآخر	ضرار بن الخطاب الفهري ، أمية بنت أمية بن عبد شمس ، عزة بنت أبي كعب ، فاطمة بن الأحجم .			
شعطة لحقة القبلاء شرب الحريرة				
الكديم	ربيعة بن مكدم الكناني ، أم ربيعة ابن مكدم ، عبد الله بن جلد الطعان الكناني ، فريد بن الصمة الجشمي ، وجلد من بني الحارث ، عزة بنت مكدم ، نيسة ابن حبيب ، حسان بن ثابت ، كعب بن زهير ،	١٥	-	٥٨

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للآيات
برزة	عبد الله بن جندب الطعمان ، عباس بن مرداس السلمي ،	٣	-	١٩
القبلاء	هند بن خالد بن الشريد السلمي ، فارس بن رطل ، أعبان السلمي ، عبد الله بن جندب الطعمان الكناني ، يزيد بن الصعق العامري .	٦	-	٢٢
حرب داحس والغبراء	عشرة العبي ، قيس بن زهير العبي ، السريخ بن زياد العبي ، شداد بن معاوية العبي ، عمرو بن الأسلم العبي ، الحارث بن زهير العبي ، سمية زوجة شداد العبي ، حيان بن حصون العبي ، قباقر بنت الشريد السلمية ، خراشة بن عمرو العبي ، القارعة بنت شداد العبي ، حليلة الحضرة العسية ، بشير بن أبي العبي ، زهير بن أبي سلمى ، هند بنت حليقة بن بدر القرظري ، نائحة هرم بن طيسم ، أم لرفة زوجة حليقة بن بدر ، سلمى بنت مالك بن بدر القرظري ، عقيل بن حليقة المري ، النابغة الليثاني ، شتم ابن غويك القرظري ، ابن هشام القرظري ، معقل بن عوف بن سبيع التعلبي ، شريح بن جهمر الثعلبي ، أحمد ، أبو جعدة القرظري ، حميد بن	٤٨	١٥	٥٤٥

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	الاجممع للأبيات
شعب جبلة	<p>بدو الغزاري ، الربيع الغضب العبي .</p> <p>عنترة العبي ، قيس بن زهير</p> <p>العبي ، خراشة بن عمرو العبي .</p> <p>معلق بن عامر بن جميع بن مولة</p> <p>الأسدي ، معاوية بن مالك السلمي ،</p> <p>الجميع الأسدي ، النابغة الذبياني ،</p> <p>نبيكة بن الحارث الغزاري ، مالك بن</p> <p>حمار الغزاري ، المعقل البارقي ،</p> <p>دخنوس بنت لقيط بن زوراة ، معاوية</p> <p>ابن عيانة بن عقيل ، رجل من أسد ،</p> <p>رجل من بني عامر ، لقيط بن زوراة</p> <p>النمبي ، عوف بن المتفق .</p> <p>شريح بن الأحمس العامري .</p>	٢٣	٤	١٧٣
أقرن	<p>مسكين الدارمي ، عنترة ، يزيد بن</p> <p>الصمق ،</p>	٣	-	٨
المروت	<p>يزيد بن الصمق ، لؤس بن حجر ،</p> <p>لؤس بن حجر القشيري ، حجر بن</p> <p>عبد الله ، نعيم بن عتاب الرياحي ،</p> <p>العمراء أمّ بنت رباح ، بنت حجر</p> <p>ابن عبد الله القشيري ،</p>	٧	-	٢٥
دائرة مأسل	<p>شمعة بن الأنضر الضبي</p>	١	-	٢
السليان	<p>لؤس بن حجر النمبي</p>	١	١	٢٣
عدنية	<p>صخر بن الشريد السلمي</p>	١	-	٤

اليوم	الشعراء	عدد المقطوعات	عدد القصائد	المجموع للأبيات
الثلاثاءات	خالد بن جعفر الكلابي ، ورقاء بن زهير العبسي .	٢	-	٨
الخميس	عريد بن الصمة الجشمي ، ربيعة بنت جليل الطعان ،	١	١	٣٣
حوزة الأول	الحصاء ، عمرو بن عمرو بن الشريد	١٠	٢	٩٢
حوزة الثاني	السلمي ، عمرو بن قيس الجشمي ، خفاف بن ثلبة السلمي ، عترة العبسي .			
الصلعاء	عريد بن الصمة ، أهدم	٢	١	٢٤
التيمة	شرحاف بن النكسم ، النكسم بن النكسم .	٣	-	٨
زويد الأول	نعامة بن شريك	١	-	٢
بن عبس وطىء	عمرو بن السورد العبسي ، عترة العبسي .	٣	-	١٨
النصار والجفار	بشر بن أبي خازم الأسدي ، الفارعة القشيرية ، خالد بن نضلة الأسدي ، سلمى بنت الحلق ، الحريبي ، عبيد ابن الأبرص الأسدي ، رجبل بن ذبيان ، سهم الأسدي ، عول بن عطية التيمي ، عترة العبسي .	١١	٦	٢١٤
ذات الشوق	عترة بن ضمرة النهشل	١	-	٥
بطن عائل	عبد الله بن جعدة الكلابي	١	-	٥

اليوم	الشعراء	عدد المتطهرات	عدد التصانيد	المجموع للآيات
الرقم	عروة بن الورد العبسي ، عامر بن الطفيل ، عمرو بن حنظل	٣	١	٢٠
انشاء	خوشة بن عمرو العبسي ، زهير بن أبي سلمى .	٢	-	١٢
شواخط	خداش بن زهير الجشمي	-	١	١٨
ضمة	الحلوت بن ظالم المري	-	١	٢٣
المرونة	عامر بن الطفيل	١	-	٦
شعر	عروة بن الورد العبسي	١	-	٤
أيام غير محدودة	النايفة الليثاني ، عروة بن الورد ، عامر بن الطفيل	٣	٤	٥٩
حرب البسوس يوم الفتي يوم القتال يوم واردات يوم عشرة يوم الحزن يوم عورضات يوم أتيق يوم القصصيات يوم قصة	مهلهل بن ربيعة التغلبي ، هجرس ابن كليب بن ربيعة التغلبي ، أبو حنس التغلبي ، كليب بن ربيعة التغلي ، جابر بن حنس التغلبي ، عدي بن ربيعة التغلبي ، أم فاشرة التغلية ، أمية بنت كليب ، سلمى بنت مهلهل ، الأحنس بن شهاب التغلي ، الزيان بن هلال البكري ، الرقش الأكبر ، جساس بن مرة البكري ، الرقش الأصغر ، جليلة بنت مرة ، سفيان بن عياض البكري ، زينب البشكوية ، شاعر من بكر ، عوف بن مالك البكري ، نضلة	٥٥	١٩	٧٠٠

اليوم	الشعراء	عدد القطوعات	عدد النصائح	المجموع للآيات
الكتاب الأول	ابن مرة ، البسوس إبنه منقلد ، سعد بن مالك بن ضبيعة البكري ، الفند الزمانى ، الحارث بن عباد البكري ، طرفة بن العبد البكري ، حبيد بن قيس بن ضبيعة البكري ، الحارث بن حلزة البشكري ، مرة بن شيبان ، رجل من قديم ، سلمة بن الحارث ، خلفاء بن معد يكرب ، وبيعة بن مفروم النسي ، أبو اللحام التغلبى ، السفاح التغلبى ،	٨	١	٣٥

جدول رقم (٤)

القبائل والشعراء

الشاعر وقبيلة	الأيام التي نظم فيها	عدد القطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
(الأوس) أبيحة بن الجراح الأوسي	كعب بن عمرو المازني	١	١	١٩
فروهم بن زيد بن صبيحة الأوسي	سمير	٢	-	١٤
سويد بن قصاصت الأوسي	الربيع الطقري	١	-	٢
عبيد بن نافع الأوسي	السرارة ، البقيع	٢	-	١٣
قيس بن الخطيم	سمير ، السرارة ، الربيع الطقري ، حاطب ، مضر ومعيس ، القضاء ، بعث	٤	٧	١٩٣
أبو قيس بن الأسلت	البقيع ، بعث	١	٢	٣١
يزيد بن طعمة الخطمي	الدرك	١	-	٥
لحيان (أسلم)	القيفاء	١	-	٣
(أسد) بشر بن أبي خازم الأسدي	ظهر الدعاء ، يوم بني أسد وبني سعد وبني حنظلة ، التمار ، الجفار	٥	٨	٢٣٧

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد القطوعات	عدد القصائد	مجموع الآيات
يعثر بن لقيط النقععي	نحو	١	-	٦
الجميع الأسدي	شعب جبلة	١	-	١
عwald بن نضلة الأسدي	النسل والجفار	٢	-	٢
ربيعة الأسدي ، أبو ذؤيب	نحو	-	١	١١
سحيم عبد بني الحسحاس	نحو	١	-	٦
سهم الأسدي	النسل	١	-	١
عبد بن الأبرص الأسدي	حجر ، شطب ، الرزاد ، النسل ، الجفار .	٢	١١	٣١٢
معتل بن عامر الأسدي	شعب جبلة	٢	-	٩
لقيط الأبادي	ذوقار	١	-	٥
المعقر البارقي الأزدي	شعب جبلة	-	٢	٢٦
(مكرر) الأعشى ، ميمون بن قيس (من بني قيس بن ثعلبة)	أولاد الأول ، أولاد الثاني ، الصفقة ، ذوقار ، الزويرين	٧	٤	٨٨
أعشى ربيعة ، عبد الله بن خارجة الشيباني .	ذوقار	١	-	٥
ثم بسطام بن قيس الشيباني (شيبان)	نقا الحسن	-	١	١٠
الأغلب المعجلي	الزويرين	٣	-	١١

الشاعر وقبيلته	الأهـام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
بكر ، أحمـ بن الحارث بن عباد (من بني قيس بن ثعلبة)	ذوقار	١	-	٧
ياثـ بن صريم البشكري	الحاجر	١	-	٢
جساس بن مرة بن شيان	البسوس	٢	-	٦
جليلة بنت مرة	البسوس	٢	١	٢٨
جندب بن قيس بن شبيعة	البسوس	١	-	٧
حنظلة بن ثعلبة	ذوقار	٢	-	٧
الحارث بن شريك بن عمرو الحواريان	ذوقار	١	-	٢
صريم بن الحارث التيمي	ذوقار	١	-	٣
حصيبة الشيباني	مياض	١	-	٦
الحارث بن عباد البكري	البسوس	٢	-	٦
الحارث بن حلزة البشكري	البسوس	-	١	٨٤
رشيد بن رميض العنزي	الشبطين	١	-	٩
الزبان بن مجالد	البسوس	١	-	٣
زينب البشكرية	البسوس	١	-	٥
سويد بن أبي كاهل البشكري	ذوقار	٢	-	٧

الشاعر وقيل	الأهلام التي نظم فيها	عدد الخطوط	عدد القصائد	المجموع الآيات
صفهان بن مجاشع البكري	البسوس	١	-	٢
سعد بن مالك بن ضبعة	البسوس	٢	-	٨
طرفة بن العبد البكري	البسوس	-	١	٢٢
علقمة بن شيان	أبوارة الثاني	١	-	٣
العديل بن الفرخ العجلي	ذوقار	١	-	٣
عمرو بن جبلة بن باعث	ذوقار	١	-	٢
ابن صريم البشكري				
العوام الشيباني	المعقل	٣	-	١٨
كم العوام الشيباني	المعقل	١	-	٢
عوف بن مالك البكري	البسوس	١	-	١
الفد الزماني	البسوس	٣	-	٢٦
بنت القرن الشيبانية	ذوقار	١	-	١
قيس بن مسعود الشيباني	ذوقار	٣	-	١٣
أبن نورد بن المختبر النيس	ذوقار	١	-	٥
قيس بن عمر العجلي	الشيطن	١	-	٣
كيد الحصة				
غداة بن مسلمة الحنفي	رحرحان	-	١	١٢
أبو كلبة ، من بني قيس به ثعلبة	ذوقار	١	-	٧
لقيم بن أوس الشيباني	نعف فشاوة	١	-	٥
مرثد بن الحارث بن نورد الشيباني	ذوقار	١	-	٢
بصبع بن هلال البكري	القيس	-	١	١٠
مروة بن شيان	البسوس	١	-	٥
الرقش الأكبر	البسوس	-	١	١٧
الرقش الأصغر	البسوس	١	-	٢
أبو النجم العجلي	الشفيق	١	-	١
نعمانة بن شريك البكري	زورود الأول	١	-	٢

الشاعر وقبيلة	الأيام التي نظم فيها	عدد الخطوط	عدد القصائد	مجموع الآيات
نظرة بن مرة الشوافي	البوس	١	-	٣
يزيد بن حنظلة بن ثعلبة العجل	ذوقار	١	-	٣
الدعان بن جندل (تميم)	ذوقار	١	-	٢
لؤس بن حجر	زينة ، حروب الفساسة والمنافرة المروث ، السويان ، خو ، ذونجب .	٥	١	٧٦
الأهثم القرني	جلود	١	-	٢
آمنة بنت هبيرة بن الحارث اليربوعي .	خو	١	-	١
الشعراء بنت خضرة بن جابر	أواراة الثاني	١	-	٢
حريم بن الحارث التميمي	ذوقار	١	-	٣
حشيش بن ثمران الراسحي	الفتح	٢	-	٣
حاجب بن ذبيان المازني	السل ، الدنية	٢	-	٩
حاجب بن زدارة	الحائر	١	-	١
الحصين بن القطاع	زينة	٣	-	١٣
دختوس بنت لقيط بن زدارة	شعب جبلة	٣	١	٣٤
ريسة بن طريف العبدي	التياح ، غول الأول	٢	-	١١
رافع بن هرم الراسحي	الجرف	١	-	٥
زاهر بن عبد الله بن مالك التميمي	السكي	١	-	٢
سحيم بن ثليل الراسحي اليربوعي	غول الثاني ، رأس العين ،	٥	-	١١

الشاعر والبيت	الأيام التي نظم فيها	عدد المنظومات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
سوار بن حيان الثقفي	ذو نجب الشعب ، الجوف	١	-	٥
سلامة بن جندب السعدي	جنود	-	٣	٤٨
شريح بن الحارث اليربوعي	جنود ، ملزق	١	-	٩
شميت بن زنياع الرياحي اليربوعي	طخفة	١	-	٦
صفية بنت الحارث التميمية	الجوف	١	-	٣
ضمرة بن ضمرة التمهلي	الكلاب الثاني	١	-	٥
طارق بن قيس العبدي	ذات الشوق	١	-	٥
علقمة الفحل التميمي	مبايض	٣	٢	٦٥
عمرو بن حوط بن سلمى الرياحي	حروب النجاسة والنظرة ، أواره الأول ، الكلاب الثاني .	١	-	٩
اليربوعي .	طخفة	٢	٣	٦٤
عميرة بن طارق اليربوعي	الحيات ، ذو طلوح ، العطال	٥	-	١٨
عتبة بن الحارث بن شهاب	العطال ، ذو غار الأول ، أراب ، الرغام	١	-	٣
عمرو بن سواد	مبايض	١	-	٨
الموراء ، أخت بني رباح	لرود	٢	-	٩
عوف بن عطية التميمي	وحجران ، النصار ، البحار	٢	-	٩
عصمة بن حذرة الرياحي	الجوف	١	-	٥
قيس بن عاصم الثقفي	الكلاب الثاني ، جنود	٢	١	٩
قرا بن قيس بن عاصم	النجار	١	-	٧
قطبة بن سيار بن منذر اليربوعي	العطال	١	-	٧
لقيط بن زبارة التميمي	أواره الثاني ، وحجران	٦	-	٣٨

الشاعر وتبينه	الآيات التي نظم فيها	عدد القطوعات	عدد القصائد	مجموع الآيات
ليبد بن عطار	شعب جيلة	١	-	٣
منعم بن توبة البربري	أرباب طخفة ، فو ملوح ، العظالي ، نعف قشابة ، عو	٤	١	١٣
المجذوم التميمي	الصفقة	١	-	١
مالك بن توبة البربري	الخيطة ، ضطط ، جدود الحائر ، نعف قشابة ، عو ، الشعب ، الرغام	٦	٢	٤٩
مسكين الدارمي	أقرن	١	-	٢
نعم بن حناب الراسي	المروث	١	-	٣
هيرة بن عبد مناف البربري (الكلجبة)	زردن الثاني	١	-	٧
وندك بن ثعلب المازني	سفوان	٢	-	٩
يزيد بن نهر التميمي	المروث	١	-	٢
أوس بن مغراء السعدي	الكلاب الثاني ، ملزق	٢	-	٧
الأسود بن يعفر الدارمي	رأس العين	١	-	٤
علقمة بن الساجق القريني	الكلاب الثاني	١	-	٢
مالك بن حطان البربري (تغلب)	نعف قشابة	١	-	٨
أمانة بنت كليب	البوس	١	-	٨
الأخضر بن شهاب التغلبي	البوس	-	١	٢٧
جابر بن حنن التغلبي	البوس	-	٢	٣٢
أبو حنن التغلبي	البوس	١	-	٣
سلمة بن خالد التغلبي (السقاج)	عزاز	١	-	٣

الشاعر وقبيله	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
سليمي بنت مهلهل	البسوس	١	١	١٩
عمرو بن كلثوم	خزاز	١	-	٤
عدي بن ربيعة التغلبي	البسوس	١	-	٨
كليب بن ربيعة التغلبي	البسوس	٢	-	١٤
مهلهل بن ربيعة	البسوس	٢٨	٢	٣٥٨
أم ناضرة	البسوس	١	-	٢
هجرس بن كليب بن ربيعة	البسوس	٣	-	٦
(ثقيف)				
الحارث بن كلثة الثقفي	القجلاز	١	-	٤
(الخزرج)				
أوس بن العلاء	حاطب	١	-	٨
(من بني الحارث)				
حسان بن ثابت الخزرجي	سمير ، السراة ، الربيع الظفري ، مضر ومعس ، الدوك ، الكند ،	٦	٣	٨٤
الرمق بن يزيد الخزرجي	كعب بن عمرو	١	-	٤
صخر بن سليمان البياضي	الربيع الظفري	١	-	٤
عمرو بن أمية القيس الأنصاري	سمير	-	١	١٦
عاصم بن عمرو القزني	كعب بن عمرو	١	-	٣
عامر بن الأخطابة	فلح	١	-	٨
عبد الله بن رواحة	حاطب ، البقيع ، القجلاز الأول ، مضر ، ومعس ، القضاء	٤	١	٢٤
مالك بن المعجلان	سمير	-	١	٢٠

الشاعر وقبيلة	الأهلام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
يزيد بن قسحم الخزرجي (سليم)	الفجر الثاني للأندلس	١	-	٦
عفاف بن ثنية السلمي	بعث ، حوزة الأول ، حوزة الثاني .	٢	٢	٣٩
الحسناء	حوزة الأول ، حوزة الثاني	٤	١	٣٨
صخر بن الشريد	عدنية ، حوزة الأول ، حوزة الثاني .	٤	-	١٩
العباس بن مرداس	ثلاث ، الرغام ، برزة	٢	١	٤١
عباس بن ربيعة الرحلي	العدنية	١	-	٦
مرداس بن أبي عامر	فوقار	١	-	٥
معاوية بن مالك السلمي	شعب جبلة	١	-	٣
نضلة السلمي	خول الأول	١	-	٥
نبيشة بن حبيب السلمي	الكندية	١	-	٣
هند بن خالد بن الشريد (عيسى)	الفيضة	٢	-	٩
بشير بن أبي العبي	داحس والغبراء	١	-	٤
ثامر بنت الشريد السلمية	داحس والغبراء	-	١	١٠
الحارث بن زهير العبي	داحس والغبراء	١	-	٥
حيان بن حصين العبي	داحس والغبراء	١	-	٣
حليمة الخطرية	داحس والغبراء	٢	-	٥
خراشة بن عمرو العبي	داحس والغبراء ، شعب جبلة ، النشلة	٢	١	٢٨
الربيع بن زياد العبي	داحس والغبراء	٣	١	٢٢
الربيع بن تمب العبي	داحس والغبراء	١	-	٢
سهدة زوجة شداد العبي	داحس والغبراء	١	-	٦

الشاعر وتبعه	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
شداد بن معاذية عشرة بن شداد العبسي	داحس والغبراء أقرن ، داحس والغبراء شعب جبلة ، حوزة الأول ، النصار والجفار ، يوم مع طيء	٢ ٢١	- ١١	٨ ٣٣٤
عمرو بن الأسلم العبسي عروة بن الورد العبسي	داحس والغبراء الرقم ، شعر ، بن عيس وطي ، يوم مجهول .	١ ٤	- -	٤ ١١
الفرخة بنت شداد العبسي قيس بن زهير العبسي	داحس والغبراء داحس والغبراء ، شعب جبلة النقراوات	١ ٩ ١	- ١ -	٣ ٦٦ ٥
ورقاء بن زهير العبسي (عامر)	المرويت ملزق	١ ١	- -	٣ ٢
لؤس بن بجير القشيري الأحذب ، ابن أخي ربيعة ابن جراء	المرويت المرويت النقراوات	١ ١ ١	- - -	٢ ٢ ٣
بجير بن عبد الله القشيري بنت بجير بن عبد الله القشيري عائلة بن جعفر الكلابي	الكاتب الثاني النصار والجفار شعب جبلة	٣ ١ ١	- - -	٨ ٣ ٣
زيت بن مالك بن جعفر بن كلاب سلمى بنت الحلق شرح بن الأخوص العامري عامر بن الطليل	نهب الريح ، ومرحان ، الفجارة ، الرقم ، المرويت	٨	٧	١٢٣

الشاعر وقيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
عبد الله بن جعد	بطن عاقل	١	-	٥
صبرو بن حذاف	الرقم	١	-	٢
الفارعة النخيرية	النصار والجفار	٢	-	١٢
ليد بن ربيعة	السلان ، العرقوب ، روحان ، القصار	٤	-	١١
الثابتة الجعدي	روحان	١	-	١
يزيد بن الصعق النخيري	لمروت ، النقياء ، القرن ،	٤	-	٩
أبو حواء الرؤاسي	هيف الريح	١	-	٧
أبو جعدة الفزاري	داحس والغبراء	١	-	٤
حميد بن بدر الفزاري	داحس والغبراء	١	-	٤
سلمى بنت مالك بن بدر الفزاري	داحس والغبراء	١	-	٤
شليم بن عويكة الفزاري	داحس والغبراء	-	١	١٢
شريح بن جبير الثعلبي	داحس والغبراء	١	-	٨
إبن عتقاء الفزاري	داحس والغبراء	١	-	٣
أم قرة زوجة حليفة بن بدر الفزاري	داحس والغبراء	-	١	١٥
مالك بن حار الفزاري	شعب جيلة	١	-	٤
سعل بن خوف بن سبيع الثعلبي	داحس والغبراء	١	-	٣
هيكمة بن الحارث الفزاري	شعب جيلة	١	-	٤
هند بنت حليفة بن بدر (ضطبان)	داحس والغبراء	١	-	٩
الحارث بن ظالم المري	ضمرة	-	١	٢٣
ربطة بنت جلال الطعان	الملوى	١	-	٧
زهير بن أبي سلمى	داحس والغبراء	١	١	٦٤
عقيل بن حنيفة المري	داحس والغبراء	١	-	٣

الشاعر وتبعه	الأيام التي نظم فيها	عدد القطوع	عدد القصائد	مجموع الأبيات
الناطقة الليثاني	حروسة القمامة والمنافرة ، داحس والغبراء ، شعب جبلة ، يوم مجنون .	٥	-	٢٠
كعب بن زهير	الكتند	١	-	٦
ناتحة هرم بن غسطنم	داحس والغبراء	١	-	٠
(هوازن)				
الأحر بن مازن	الفجر	٢	-	٧
عنداش بن زهير	الفجر ، شواشط	٥	٢	٥٨
زيد بن الصمة	بن هوازن وبرمخ ، الكتند ، النوى ، الصلحاء	٤	١	٦١
الصمة الجشمي	الفجر	١	-	٤
عمرو بن قيس الجشمي	حوزة الثاني	١	-	٣
(غني)				
قطيل بن عوف الغنوي	الوثلة	١	-	٣
(ضبة)				
أنيف بن جبلة الضبي	زرد الثاني	١	-	٢
ربيعة بن مقروم الضبي	طخفة ، بزاعة ، الكلاب الثاني .	٣	٢	٨٣
شمعة بن الأخضر الضبي	نقا الحسن ، دائرة مأسل	٢	-	٨
شرحاف بن النلم	النقعة	١	-	٦
عبد الله بن عنة الضبي	فوطيخ ، جدود ، نقا الحسن .	١	٢	٤٣
إبن الغائف الضبي	بزاعة	-	١	١٠
هرز بن الكعير الضبي	الكلاب الثاني ، الباج	٥	-	١٩

الشاعر وقبيلته	الأيام التي نظم فيها	عدد القطوعات	عدد النصائد	مجموع الآيات
مالك بن النخف الطائي	نقا الحسن ، الشيطان .	١	-	٣
الشم بن السخسرة	نقا الحسن	١	-	٢
عوف بن النخف الطائي	الثقة	١	-	٣
(عتي)	شعب جبلة	١	-	٣
أثيف بن زبان النيهاني	ظهر الدعاء	-	١	٢١
حاتم الطائي	أواراة الثاني	١	-	٢
روشد بن كثير الطائي	ظهر الدعاء	١	-	٣
عمرو بن ملحط الطائي	أواراة الثاني	١	-	٥
قيس بن جروة الطائي	أواراة الثاني	١	١	١٧
(قرشي)				
أميمة بنت أمية بن عبد شمس	الفجار	-	١	١٨
قرة بنت أبي طرب	الفجار	١	-	٥
ضرار بن الخطاب الفهري	الفجار	١	-	٩
(كنانة)				
بنو بن معشر الكناني	الفجار	١	-	٢
البراض الكناني	الفجار	٣	-	٨
بلعاء بن قيس الكناني	الفجار	٢	-	٤
ربعة بنت جطل الطعان	الوحي	١	-	٧
ربعة بن مكدم الكناني	الكديد	٦	-	١٧
أم ربعة بن مكدم	الكديد	١	-	٢
الشويعر الثاني	الفجار	١	-	٦
ضرار بن الخطاب الفهري	الفجار	١	-	٩
عبد الله بن جطل الطعان	الفجار ، الكديد	٦	-	٢٤
	برزة ، الهذلاء .			

الشاعر وقبيلة	الأيام التي نظم فيها	عدد المقطوعات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
عبد الله بن الزبيري	الفجر	٢	-	٥
مزة بنت مكنم (كنة والقبائل القحطانية)	الكديد	١	-	٨
أمرؤ القيس بن حجر الكندي	يوم حجر	٨	٤	١٤٦
البراء بن قيس الكندي	الكلاب الثاني	-	١	١٦
فاطمة بنت الأحجم	الفجر	١	-	٦
عدي بن الرعلاء الضبياني	حروب الغساسنة والتفارة	-	١	١٠
عبيد بن قراء البهراوي	خزاز	١	-	٥
عمرو بن معد يكرب الزبيدي	فيف الريح	-	١	١٢
عبد يثوث الحلوثي	الكلاب الثاني	-	١	٢٠
أبوسوس بنت منقل	البسوس	١	-	٧
حصان بن نشبة العدوي	اليداء	٢	-	٩
إبن الحائك الحميري	خزاز	١	-	٤
الحرة بنت النعمان بن المنذر	ذوقار	١	-	٤
مسهر بن يزيد الحارثي	فيف الريح	١	-	٤
معاوية المزني	العرقوب	١	-	٥
هلال بن رزين	اليداء	١	-	٥
وهلة الجرمي	الكلاب الثاني	-	٢	٢٦
أبوسوس لينة منقل	البسوس	١	-	٧
(شعراء آخرون) الحاضرة	الكفافة	١	-	١
الحرمي	النسر والخطار	١	-	٢
الريح بن أبي الحقيق	فارع	-	١	١٦
عمرو بن الأسود	ذوقار	-	١	١٧

الشاعر وقيلته	الأهيام التي نظم فيها	عدد المنظومات	عدد القصائد	مجموع الأبيات
أم عمرو بن عدي بن زيد	ذو قار	١	-	٦
الفضل بن العباس اللهي	أواب	١	-	٢
قيس بن مقلد الكلبي	جلود	١	-	٢
مقاس بن عمرو المازني	الشيطون	٣	-	١٢
مساور بن هند	أواب	١	-	١
منقلد بن عرلة	أواب	١	-	٢
معاوية بن عتبة بن عليل	شعب جبلة	١	-	٣
نائحة ابن مزيلاء	بزاخة	١	-	٢
نائحة عمرو بن الجعيد	الكلاب الثاني	١	-	١
يزيد بن حبان السكوني	ذو قار	١	-	٤

جدول رقم (٥)
توزيع النصوص على مجموعات الأيام

نصوص مقتطفات	عدد النصوص	عدد المقتطفات	آيات مفردة	
١٥	١٨	٣٦	٣	شعر أيام قحطانية - قحطانية
١٨	٣٦	١٣٠	٨	شعر حروب قيس
٦	٢٠	٦٦	١٥	شعر حروب ربيعة لها بينها (البسوس)
-	٣	٢٣	٢	شعر حروب الفجار
-	-	٢٤	-	شعر حروب قيس وكنانة
١٧	٣١	٦٦	٤	شعر الأيام العدنانية - القحطانية
-	٥	٣٠	٤	شعر يوم ذي قار
-	١	١٩	٥	شعر حروب قيس ولهم
١	٤	٤٩	١٣	شعر حروب تميم والقبائل الأخرى
٣	١٥	٥٧	٦	شعر حروب بكر وتميم

المصادر والمراجع

- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي (ت ٦٣٢ هـ) : الكامل في التاريخ ، بيروت - دار صادر ١٩٦٥ .
- إحسان عباس ، فن الشعر ، دار الثقافة - بيروت ١٩٥٩ .
- إحسان النص : العصبية وأثرها في الشعر الأموي ، دمشق - دار الهمزة ١٩٩٣ .
- أحمد إبراهيم الشريف مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، القاهرة - دار الفكر العربي - ط ٢ : ١٩٦٧ .
- ٥ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية - ط ٩ : ١٩٦٤
- ٦ - أحمد الشاذلي :
أ - تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، مكتبة النهضة المصرية - ط ٤ : ١٩٦٦
ب - تاريخ النقائض في الشعر العربي ، مكتبة النهضة المصرية - ط ٢ : ١٩٦٦ .
- ٧ - أحمد شوقي ، مسرحية هنترة ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر - ١٩٤٨ .
- ٨ - أحمد كمال زكي ، دراسات في النقد الأدبي ، دار الأندلس ، بيروت ، ط ٢ : ١٩٨٠ .
- ٩ - أحمد محمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة - ط ٤ : ١٩٦٢ .
- ١٠ - الأعطل ، ديوانه . تحقيق أنطوان صالحاني - بيروت ط ٢ : ١٩٦٧ .
- ١١ - ابن اسحاق ، كتاب بكر وتغلب وما جرى بينهما وما كان من كليب وجساس ، مصر ١٣٠٥ هـ .
- ١٢ - الأصمعي ، أبو اسحاق إبراهيم بن عبد القارم ، مسالك الملك - لندن ١٩٦٧ .
- ١٣ - الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦ هـ) ،

أ- الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، طبعة ٢ : ١٩٦٤ - دار المعارف بمصر .

ب- فبحولة الشعراء ، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد خطاطي ، مصر ١٩٥٣ .

ج- تاريخ العرب قبل الإسلام ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، بغداد ١٩٥٩ .

د- الكليل ، تحقيق أوجست هانتر ، غينا ١٨٩٥ م .

١٤ - الأضنى ، ميسون بن قيس ، ديوانه ، شرح وتحقيق محمد محمد حسن ، مكتبة الآداب بمصر ١٩٥٠ .

١٥ - الزايت درو ، الشعر ، كيف نفهمه ونطوقه ، ترجمة إبراهيم الشوش ، بيروت - دار الثقافة

١٦ - الأمدي ، أبو القاسم الحسن بن يحيى (ت ٣٧٠ هـ) ، المؤلف والمختلف ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٦١ .

١٧ - أسرى الفيس بن حجر ، ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر - ط ٣ : ١٩٦٩ .

١٨ - ابن الأثيري ، أبو بكر محمد بن القاسم (ت ٢٣٨ هـ) :
أ- شرح القصائد السبع الطوال ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .

ب- شرح معقدة عترة ، تحقيق ونشر - روما ١٩١٤ .

١٩ - لؤس بن حجر التميمي : ديوانه ، تحقيق محمد يوسف نجم ، بيروت - دار صادر ١٩٦٠ .

٢٠ - البحري ، أبو عيادة الوليد بن عبيد (ت ٢٨٤ هـ) : حواشيه ، تحقيق لويس شيخو ، ط ٢ : ١٩٦٧ - بيروت

٢١ - بدوي طيانة : معالقات العرب ، مكتبة الأنجلو المصرية - ط ٢ : ١٩٦٧ .

٢٢ - بروكلمان ، كارل :

أ- تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار المعارف ١٩٥٩ .

ب- تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس وزميله ، بيروت - دار العلم للملايين ط ٤ : ١٩٦٥ .

٢٣ - بشر بن أبي خازم الأسدي : ديوانه ، تحقيق عزة حسن ، دمشق ١٩٦٠ - وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

٢٤ - البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ) : تاريخ بغداد ، مكتبة الخاتمي بالقاهرة ١٩٣٦ م .

٢٥ - البغدادي ، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ) : خزنة الأدب وألب لهباب لسان العرب .

أ - طبعة للطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٧ هـ .

ب - طبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة - تحقيق عبد السلام هارون ١٩٦٧ - ١٩٧٠ .

٢٦ - الهكري ، محمد توفيق : أراجيز العرب ، مصر ١٣١٣ هـ .

٢٧ - البلافري ، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ) : أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف ١٩٥٩ .

٢٨ - بلاشير ، رجس : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة إبراهيم كيلاني - دمشق ١٩٥٦ م .

٢٩ - أبو تمام ، حبيب بن أوس (ت ٢٣١ هـ) :

أ - الحماسة شرح المروزي ، تحقيق عبد السلام هارون وأحمد أمين ، مصر ١٩٥١ .

ب - الحماسة بشرح التبريزي ، تحقيق محمد عبد النعم عطاية ، مصر ١٩١٣ م .

ج - الوحيات ، تحقيق عبد العزيز اليماني ، دار المعارف ١٩٦٣ .

د - ثلاثون جريد والأخطل ، تحقيق الأب أنطوان صالحاني ، بيروت ١٩٢٢ .

٣٠ - ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١ هـ) : مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ط ٢ : ١٩٥٦ م .

٣١ - الجاحظ ، أبو عمرو عثمان (ت ٢٥٥ هـ) :

أ - الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٢ : ١٣٦٤ هـ - مطبعة الخطي بمصر .

ب - البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخاتمي بمصر ج ١٩٦٠ م .

٣٢ - الجرجاني ، عبد القاهر (ت ٣٩٦ هـ) ، أسرار البلاغة في علم البيان ، مصر ١٣٢٠ هـ .

٣٣ - النجاشي ، محمد بن سلام (ت ٢٣٦ هـ) : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف ١٩٥٢ م .

٣٤- أمين جني ، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ هـ) : المختصر ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ١٩٥٥ .

٣٥- جواد علي :

أ- تاريخ العرب قبل الإسلام ، المجمع العلمي العراقي - بغداد ١٩٥٠- ١٩٥٨ .
ب- الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٧ .
١٩٧٠ .

٣٦- حاتم الطائي : ديوانه ، دار صادر بيروت ١٩٦٣ .

٣٧- حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله : كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ، نسخة مصورة عن طبعة إيران - مكتبة المتن ببغداد - ط ٣ : ١٩٤٧ .

٣٨- حلي ، فليح : تاريخ العرب مطول ، دار الكشاف - بيروت ، ط ٤ : ١٩٦٥ .

٣٩- ابن حزم ، أبو محمد علي بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ) : جوهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون - دار المعارف ١٩٦٢ .

٤٠- حسان بن ثابت : ديوانه ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ، دار الأئمة - بيروت ١٩٦٦ .

٤١- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، مكتبة النهضة المصرية - ط ٤ : ١٩٥٧ .

٤٢- حسن السندوي : أنهار المرافقة ، القاهرة ١٩٥٤ ، ط ٢ .

٤٣- حسن عبد الله القرشي : فارس بني عباس ، دار المعارف ط ٢ : ١٩٦٩ .

٤٤- حسين فوزي النجار : التاريخ والسير ، المكتبة الثقافية - عدد نوفمبر ١٩٦٤ .

٤٥- حسين نصار :

أ- تشاة التعوين التاريخي عند العرب ، مكتبة النهضة العربية بمصر - ١٩٥٣ .
ب- يونس بن حبيب ، من سلسلة اعلام العرب - وزارة الثقافة ١٩٦٨ .

٤٦- الطبري ، أبو اسحاق إبراهيم بن علي القيرداني (ت ٤٥٣ هـ) ، زهر الأدب وشعر الألباب ، تحقيق علي محمد البجلاوي ، ط ١ : ١٩٥٣ دار إحياء الكتب العربية .

٤٧ - الخطبة : ديوانه ، تصحيح أحمد بن الأمين الشنقيطي - مطبعة التقدم - مصر بدون تاريخ .

٤٨ - خطاب بن نذبة السلمي : ديوانه ، جمع نوري حمودي القيسي ، بغداد ١٩٦٧ مطبعة المعارف .

٤٩ - ابن خلدون ، عيد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ) :
أ - كتاب المعبر وديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٦ .
ب - مقلدته ، مصر ١٣٢٢ هـ .

٥٠ - ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٨ .

٥١ - الحسناء : ديوانها ، دار صادر - بيروت ١٩٦٣ .

٥٢ - دائرة المعارف الإسلامية : ترجمة أحمد الشنقوي ورفيقه ، مصر ١٩٣٣ م .

٥٣ - داغر ، يوسف أسعد : مصادر الدراسة الأدبية ، لبنان ط ٢ : ١٩٦١ .

٥٤ - ابن عريذ ، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ) : الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مؤسسة الخالجي بمصر ١٩٥٨ .

٥٥ - مصطفى ثيلسن : التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسين علي ، مصر ١٩٥٨ .

٥٦ - الشينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد القنعم عامر ، وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٠ .

٥٧ - ديوارث ، ول : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ط ٢ : مصر ١٩٦٤ .

٥٨ - الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ) : ميزان الإعتدال في نقد الرجال ، تحقيق علي البجاري ، دار إحياء الكتب العربية ط ١ : ١٩٦٣ .

٥٩ - الرافعي ، مصطفى صديق :

أ - تاريخ آداب العرب ، القاهرة ط ٢ : ١٩٤٠ .

ب - تحت راية القرآن ، مصر ط ١ : ١٩٣٦ - للكتبة التجريدية

٦٠ - ربيعة بن مقروم الضبي : شعره ، جمع نوري حمودي القيسي - بغداد ١٩٦٨ .

- ٦٠ - ريتشاردز : مباديء في النقد الأدبي ، ترجمة محمد مصطفى بدوي - الهيئة العامة للثقافة والنشر ١٩٦٠ .
- ٦١ - ابن رشيق ، أبو علي الحسن الفيرواني (ت ٤٦٣ هـ) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ط ٢ : ١٩٥٥ - المكتبة التجارية بمصر .
- ٦٢ - الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ) : طبقات النحويين والمفسرين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ : ١٩٥٤ - مكتبة الخانجي بمصر .
- ٦٣ - الزبيدي ، أبو عبد الله مصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦ هـ) : نسب قریش ، تحقيق فروق سلال - دار المعارف ١٩٥٣ .
- ٦٤ - الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، طبعة خامسة - مصر ١٩٥٤ - ١٩٥٩ .
- ٦٥ - زكي المحاسني : شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى سيف النعولة - دار المعارف ١٩٦١ .
- ٦٦ - زهير بن أبي سلمى : ديوانه ، الدار القومية ١٩٦٤ - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٩٤١ .
- ٦٨ - زيدان ، حرجي :
 أ - تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال - مصر ١٩٥٧ .
 ب - تاريخ التمدن الإسلامي ، دار الهلال - مصر ١٩٥٨ .
 ج - العرب قبل الإسلام ، دار الهلال بمصر ١٩٥٧ .
- ٦٩ - الزير سالم : قصته ، مطبعة ومكتبة محمد علي صبيح - القاهرة (بدون تاريخ) .
- ٧٠ - السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين : طبقات الشافعية ، مصر ١٣٢٤ هـ .
- ٧١ - سدني هوك : البطال في التاريخ ، ترجمة مروان الجباري ، بيروت ١٩٥٩ .
- ٧٢ - السجستاني ، أبو حاتم (ت ٢٥٥ هـ) : للمعمر بن وهب ، تحقيق عبد المتعم عامر ، دار إحياء الكتب العربية - مصر ١٩٦١ .

٧٣ - سعد الدين الجيزاوي : النحمة في الشعر العربي ، المكتبة الثقافية - سبتمبر ١٩٦٧ .

٧٤ - زين سعد ، محمد بن سعيد : الطبقات الكبرى ، دار صبا - بيروت ١٩٦٠ .

٧٥ - سعيد الأنثاني : أسواق العرب ، دمشق ط ١ : ١٩٣٧ .

٧٦ - إين سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر - دار المعارف ١٩٥٢ .

٧٧ - سلامة بن جندب : ديوانه ، تحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٩٦٠ .

٧٨ - السهري ، أبو الحسن بن عبد الله علي نور الدين (ت ١٠١١هـ) : وقفا، الرولا بانغبار دار المصطفى ، مصر ١٣٢٦هـ .

٧٩ - السهلي ، أبو القاسم (ت ٥١٨هـ) : الروض الأثف في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة ، مصر ١٩١٤ ، الطبعة الجمالية .

٨٠ - السيوطي ، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت ٩١١هـ) :

أ - الزهر ، تحقيق : محمد جاد الملوك ورفيقاه ، دار إحياء الكتب العربية - ط ٤ : ١٩٥٨ .

ب - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، مطبعة السعادة بمصر ط ١ : ١٣٢٦ هـ .

٨١ - شاعر الجودي : إلمامة بالرجز في الجاهلية وصدر الإسلام ، بغداد ١٩٦٦ .

٨٢ - ابن الشجري ، هبة الله بن علي بن محمد (ت ٥٤٢هـ) :

أ - حاشية - جدار أباد ١٣٤٥ هـ

ب - مختاراته - القاهرة ١٨٨٨ م -

٨٣ - شكري محمد عباد : البطل في الأدب والأساطير ، دار المعرفة بمصر - ط ١ : ١٩٥٩ .

٨٤ - النشاشيبي ، أبو الحسن علي بن محمد : الأسوار ومحاسن الأشعار ، تحقيق السيد محمد يوسف ، وزارة الإعلام ، الكويت ١٩٧٧ .

٨٥ - شوقي صيف :

أ - العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ط ٢ : ١٩٦٥ .

ب - الفن ومناخه في الشعر العربي : دار المعارف بمصر - ط ٤ : ١٩٦٠ .

ج - البطولة في الشعر العربي ، دار المعارف - سلسلة إقرأ عدد يوليو ١٩٧٠ .

- ٨٥- شيفو ، لويس اليسوعي :
 أ- شعراء النصرانية قبل الإسلام ، بيروت ط ٢ : ١٩٦٧ .
 ب- رياض الأدب في مرآتي شعراء العرب ، بيروت ١٩٩٧ م .
- ٨٦- صالح أحمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، بغداد - مكتبة اللبني ١٩٦٨ .
- ٨٧- صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين البصري (ت ٦٥٩ هـ) : الحفاصة البصرية ، تحقيق
 فخر الدين أحمد ، حيدر آباد ط ١ : ١٩٦٤ .
- ٨٨- طه حسين :
 أ- في الأدب الجاهلي ، دار المعارف بمصر ١٩٥٨ .
 ب- في الشعر الجاهلي : مصر ط ١ : ١٩٢٦ .
 ج- من حديث الشعر والنثر : دار للمعارف ١٩٦٥ .
 د- حديث الأربعاء : دار المعارف ١٩٦٢ .
- ٨٩- ابن طباطبا ، محمد بن أحمد : حيار الشعر ، تحقيق طه الحاجري ، محمد زغلول سلام ،
 المكتبة التجارية بمصر ١٩٥٦ .
- ٩٠- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣٢٠ هـ) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد
 أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٦١ .
- ٩١- طرفة بن العبد البكري : ديوانه ، تحقيق علي الجندي ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨ .
- ٩٢- طفيل بن عوف الغنوي : ديوانه ، تحقيق كركن - لندن ١٩٢٧ م .
- ٩٣- حارث بن الطفيل : ديوانه ، دار صادر - بيروت ١٩٥٩ .
- ٩٤- عباس محمود العقاد :
 أ- ألقه الشاعر ، مكتبة غريب - القاهرة (بدون تاريخ) .
 ب- ساعات بين الكتب : مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٢٩ م .
 ج- بين الكتب والناس : مصر - ط ١ : ١٩٥٢ م .
- ٩٥- عباس بن مرداس السلمى : ديوانه ، تحقيق يحيى الجبوري ، بغداد ١٩٦٨ .
- ٩٦- عبد البديع صقر : شاعرات العرب ، الكتب الإسلامية بقطر ط ١ : ١٩٦٧ .
- ٩٧- عبد الجبار الجرمرد : الأصمعي ، حياته وآثاره ، بيروت ١٩٥٥ م .

٩٨ - عبد الحميد يونس : الغلالية في التاريخ والأدب الشعبي ، كلية الآداب بجامعة القاهرة
١٩٥٦ .

٩٩ - ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد : العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين ورفاقه ، لجنة التأليف
والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤٦ .

١٠٠ - عبد الرحمن بلرود : أراجيز رؤبة بن العجاج ، رسالة ماجستير ١٩٦٢ .

١٠١ - عبد السلام هارون : نواتر المخطوطات ، القاهرة ١٩٥١ .

١٠٢ - عبد العزيز الدوي : نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت - المطبعة الكاثوليكية
١٩٦٠ .

١٠٣ - عبد العزيز البكري ، أبو عبد الله عبد الله :

أ - معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ .

ب - معط اللالي : تحقيق عبد العزيز الميني ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ .

١٠٤ - عبد المنعم مازد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، مكتبة الأنجلو المصرية - ط ٤ :
١٩٦٧ .

١٠٥ - عبد الله الطيب للجذوب : المرشد لفهم أشعار العرب ، مكتبة مصطفى الحلبي بمصر
١٩٥٥ م

١٠٦ - عبيد بن الأبرص : ديوانه ، تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصطفى الحلبي بمصر ط ١ :
١٩٥٧ .

١٠٧ - أبو عبيدة ، معمر بن النخعي :

أ - النقائص ، طبعة أوروبا ١٩٠٥ - نسخة مصورة عنها - نشر مكتبة النخعي ببغداد .

ب - الخليل ، حيدر آباد ط ١ : ١٣٥٨ هـ .

١٠٨ - عثمان أمين : مارتن هيدجر في الفلسفة والشعر ، الدار القومية ١٩٦٣ .

١٠٩ - عروة بن الزور العيسى : ديوانه ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق ١٩٦٦ .

١١٠ - أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥ هـ) : كتاب
الصناعين ، طبعة أولى بمصر ١٣٢٠ هـ .

- ١١١ - علقمة الفحل : ديوانه ، الجزائر ١٩٢٥ بشرح الشيخ ابن أبي شنب .
- ١١٢ - علي الجندبي : شعر الحرب في العصر الجاهلي ، مكتبة الأنجلو المصرية ط ٢ : ١٩٦٣ .
- ١١٣ - علي بن عبد الرحمن بن هليل الأندلسي : حلية القوسان وشعار الشجعان ، تحقيق محمد عبد القني حسن ، دار المعارف بمصر ١٩٤٩ م .
- ١١٤ - علي مظهر : العصبية عند العرب حتى زوال بني أمية ، مصر ١٩٢٤
- ١١٥ - عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ، مكتبة نهضة مصر ١٩٥١ .
- ١١٦ - عمر رضا كحالة :
 - أ - معجم قبائل العرب ، دار العلم للملايين ط ٢ : ١٩٦٨ .
 - ب - أعلام النساء ، دمشق ط ٢ : ١٩٥٩ .
 - ج - جغرافية جزيرة العرب ، مكة ط ٢ : ١٩٦٤ .
- ١١٧ - عمر فروخ :
 - أ - تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين - بيروت ط ١ : ١٩٦٥ .
 - ب - حضارة العرب ، دار العلم للملايين - بيروت ط ١ : ١٩٦٦ .
 - ج - تاريخ الجاهلية ، دار العلم للملايين - بيروت ط ١٩٦٤ .
- ١١٨ - عمر بن يوسف بن رسول : طريقة الأصحاب في معرفة الأنساب ، تحقيق مترستين - دمشق ١٩٤٩ .
- ١١٩ - عنترة بن شداد :
 - أ - ديوانه ، تحقيق عبد النعم شليم - المكتبة التجارية بمصر .
 - ب - سيرته - طبعة المكتبة السعيدية .
- ١٢٠ - ابن قليس ، أحمد (ت ٣٩٥ هـ) : الصالحين في اللغة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .
- ١٢١ - فاروق خورشيد : أضواء على السير الشعبية ، المكتبة الثقافية - يناير ١٩٦٤ .
- ١٢٢ - أبو الفداء ، اسماعيل بن علي (ت ٧٣٢ هـ) : المختصر في أخبار البشر ، بيروت - دار الكتاب اللبناني .
- ١٢٣ - أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) : الأغاني ، طبعة دار الكتب - نسخة مصورة عنها

١٩٦٣ ، وطبعة دار الثقافة بيروت ١٩٦٢ ط٣ : وطبعة السامي ١٢٨٥ هـ .

١٢٤ - مؤاد حسنين : قصصنا الشعبي ، القاهرة ١٩٤٧ .

١٢٥ - القتالي ، أبو علي إسحاق بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ) : الأمالي وقيل الأمالي والتواتر ، دار الكتب المصرية ١٩٢٦ .

١٢٦ - قدامة بن جعفر :

أ - نقد الشعر ، تصحيح يونياكو - لندن ١٩٥٦ .

ب - نقد الشعر ، تحقيق طه حسين وزميله ، كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٣٣ م .

١٢٧ - ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) :

أ - الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ط٤ : ١٩٦٦ .

ب - المعارف : وزارة الثقافة والإرشاد القومي - عن طبعة دار الكتب ١٩٦٠ .

ج - عيون الأعيان : وزارة الثقافة والإرشاد القومي - عن طبعة دار الكتب ١٩٦٣ .

١٢٨ - القرشي ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب : جوهرة أشعار العرب ،

أ - تحقيق علي البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ١٩٦٤ م .

ب - طبعة دار صادر - بيروت ١٩٦٣ .

١٢٩ - القنطري ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف : إنهاء الرواة على أنهاء النحلة ، دار

الكتب المصرية ١٩٥٠ - ١٩٥٥ م .

١٣٠ - القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) :

أ - صبح الأعشى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٣ م .

ب - فلاح الجيآن في التعريف بقبائل عرب الزمان ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار

الكتب الحديثة - ط١ : ١٩٦٣ م .

ج - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، القاهرة ط٤ : ١٩٥٥ م .

١٣١ - قيس بن الخطيم : ديوانه ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، مكتبة دار المعروية بمصر ط٤ :

١٩٦٢ م .

١٣٢ - ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ومكتبة

النصر - بيروت والرياض ط١ : ١٩٦٦ م .

١٣٣ - الكلي ، أبو المنذر هشام (ت ٢٠٤ هـ) : أنساب الخليل وأخبارها ، تحقيق أحمد زكي ،
دار القومية ١٩٦٥ م .

١٣٤ - لبيد بن ربيعة : ديوانه ، تحقيق إحسان عباس ، وزارة الإرشاد الكويتية - الكويت
١٩٦٠ م .

١٣٥ - لطفي عبد البديع :
أ - التركيب اللغوي للأدب ، مكتبة النهضة المصرية ط : ١٩٧٠ م .
ب - الشعر واللغة ، مكتبة النهضة المصرية ط : ١٩٦٩ م .

١٣٦ - لويدون ، غوستاف : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعتر ، مطبعة عيسى الحلبي - ط :
١٩٦٤ .

١٣٧ - ملحق حسن فهمي : السيرة تاريخ وفن ، مكتبة النهضة المصرية ط : ١٩٧٠ م .

١٣٨ - المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) : الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق
رايت ، ليزج ١٨٧٤ م .

١٣٩ - محمد أحمد خلف الله : أبو الفرج الراوية ، مكتبة نهضة مصر ، ط : ١٩٥٣ م .

١٤٠ - محمد أحمد جاد الملوك ورفيقاه : أيام العرب في الجاهلية ، دار إحياء الكتب العربية ط
٣ : ١٩٦٦ م .

١٤١ - محمد بن حبيب ، أبو جعفر (ت ٢٤٥ هـ) :
أ - المعبر ، تحقيق أيلزة شنتير ، المكتب التجاري بيروت - نسخة عن طبعة حيدر آباد
١٩٤٢ .

١٤٢ - محمد عبد الحميد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٣٧ .

١٤٣ - محمد بن عبد الله بن بلعيد النجدي : صحيح الأبحار عما في بلاد العرب من الآثار ،
الرياض ١٩٥١ م .

١٤٤ - محمد عزت دروزة :

أ - تاريخ الجنس العربي ، بيروت ١٩٦١ - المكتبة العصرية .

ب - عصر النبي وبعثته قبل البعثة ، دار النهضة - بيروت ١٩٦٤ .

١١٥ - محمد غنيمي هلال :

أ - النقد الأدبي الحديث ، مكتبة النهضة العربية - ١٩٦٩

ب - في الأدب للقارن ، مكتبة الأنجلو المصرية ط٣ : ١٩٦٢ .

١١٦ - محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ، مطبعة السعادة بمصر ط٢ : ١٩٥٢ .

١١٧ - محمد مفيد الشوماني : الأدب ومذاهبه من السكلامية الأخلاقية إلى السوانعية الاشتراكية ، الهيئة العامة للتأليف والنشر - ١٩٧٠ .

١١٨ - محمد النورسي :

أ - الشعر الجاهلي - متبع في دراسته وتكوينه ، الدار القومية - ١٩٦٩ .

ب - وظيفة الأدب ، معهد الدراسات العربية العالية - ١٩٦٧ .

١١٩ - محمود الحفني : سيرة مخترة ، الدار القومية للتوزيع - سلسلة مذاهب وشخصيات .

١٢٠ - الشريف الرضي ، أبو القاسم علي بن الطاهر (ت ٤٣٦ هـ) : أماليه ، تحقيق محمد بدر الدين النعساني الحلبي ط١ : ١٩٠٧ .

١٢١ - مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة حسين نصار ، دار الثقافة - بيروت .

١٢٢ - المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) ،

أ - معجم الشعراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج - دار إحياء الكتب العربية - ١٩٦٠ .

ب - الموشح ، تحقيق علي محمد البجاري - مكتبة نهضة مصر - ١٩٦٥ .

١٢٣ - المرزوقي ، أبو علي الأصمطهاني : الأزمة والأمن ، حيدر آباد - ط١ : ١٣٣٢ هـ .

١٢٤ - السعدي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ) :

أ - مروج الذهب ، تحقيق يحيى الدين عبد الحميد - القاهرة - ١٩٦٦ .

ب - التنبيه والأشراف ، لندن - ١٩٦٧ .

١٢٥ - مصطفى سوريق : الأسس النفسية للإبداع الفني ، دار المعارف بمصر ط٣ : ١٩٦٩ .

١٢٦ - مصطفى السقا ، ومحمد سعيد الكيلاني ، مختار الشعر الجاهلي ، مكتبة مصطفى الحلبي بمصر - ط٢ : ١٩٤٨ .

١٢٧ - مصطفى تاشف :

أ - دراسة الأدب العربي ، الدار القومية
ب - الصورة الأدبية ، مكتبة مصر ١٩٥٨ م .

١٥٠ - الفضل المصري :

أ - أمثال العرب ، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ١٣٠٠ هـ .
ب - الفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ط ٣ : ١٩٦٤ .

١٥١ - القريري ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) :
إنتاج الأسباع بما للرسول من الأبناء والحضرة والأموال والنفاع ، تحقيق محمود محمد شاكر ١٩٤١ م

١٦٠ - ابن منظور المصري ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم (ت ٧٩١ هـ)
أ - لسان العرب ،
ب - مختار الأغانى ، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٥ .

١٦١ - اللباني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) : مجمع الأمثال ، مكتبة دار الحياة - بيروت ١٩٦١ .

١٦٢ - النابغة الذبياني : ديوانه ، تحقيق شكري فيصل ، دار الفكر - لبنان ١٩٦٨ .

١٦٣ - ناصر الدين الأسد : مصطلح الشعر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ط ٢ : ١٩٦٢ .

١٦٤ - ناليو ، كلود : تاريخ الأدب العربية حتى عصر بني أمية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٤ .

١٦٥ - ابن تيمية ، جمال الدين (ت ٧٢٨ هـ) : شرح العيون ، في شرح رسالة ابن زيدون ،
مصر ط ١ : ١٩٥٧ .

١٦٦ - ابن النديم ، محمد بن إسحاق (ت ٤٣٨ هـ) : الفهرست ، نسخة مصورة عن طبعة أوروبا - مكتبة خياط بيروت - العدد الأول من سلسلة روائع التراث . .

١٦٧ - النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - مصر ١٩٥٥ .

١٦٨ - ديوان الملاحين : نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية - الدار القومية ١٩٦٥ .

١٦٩ - شرح أشعار الملاحين : تحقيق عبد الستار فراج ، مكتبة دار العروة - القاهرة - العدد

الثالث من كتوز الشعر .

- ١٧٠- ابن هشام ، عبد الملك (ت ٢١٣ هـ) : السيرة النبوية ، تحقيق : مصطفى السقا ورفيقه ، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة ، ط ٢ : ١٩٥٥ .
- ١٧١- ولغسون ، إسرائيل : تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر ١٩٢٧ .
- ١٧٢- ولكن : الأممية عند العرب ، ترجمة بتلي الجوزي ، كلزان ١٩٠٢ .
- ١٧٣- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٣٦ هـ) :
أ- معجم الأدباء ، تحقيق مرجليوث ، مكتبة مصطفى الحلبي بمصر ١٩٠٧ - ١٩٢٥ .
ب- معجم البلدان ، مصر ١٣٢٣ هـ . . . ١٢٢٥ هـ .
- ١٧٤- يحيى الجبوري : الجاهلية ، مطبعة المعارف - بغداد ١٩٦٨ .
- ١٧٥- الزبيدي ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن العباس (ت ٣١٠ هـ) : الأمل ، ج ١ ، بيروت ١٩٤٨ .
- ١٧٦- يعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر : تاريخ يعقوبي ، مطبعة النجف الأشرف - بكون تاريخ
- ١٧٧- يوسف خليف : الشعراء الصعلوك في العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ط ١ : ١٩٥٩ .

المجلات والدوريات

- ١ - مجلة الأدب - لأمين الخولي - القاهرة .
- ٢ - مجلة للجميع العلمي العربي بنعشق .
- ٣ - مجلة « المجلة » تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة .
- ٤ - مجلة الأتلام العراقية تصدرها وزارة الثقافة العراقية .
- ٥ - مجلة « بلاد العرب » السعودية تصدرها دار اليمامة بالرياض .

المخطوطات

- ١ - الطريق الواضح للسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك : محمد بن القرات ، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ٣٢٧ تاريخ من نسخة حسين جليي رقم ٢١ تاريخ إستانبول . الجزء العاشر .
 - ٢ - كتاب الإكلیل الجامع لأخبار كثير من العرب ووقائعها وأشعارها لزهير بن جدية والنعمان بن المنذر ومختارة وغيرهم .
- نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم ٩٠٣ تاريخ من نسخة عبدالمجيد رقم ٢٣١٢ .

المراجع الأجنبية

1. MARGOLIOUTH D.S.
 (a) The Early Development of Mohammedanism,
 London 1914
 (b) Mohammad and Rise of Islam.
 London 1926, Third edition.
 (c) Mohammadanism.
2. Lyall (c.j.)
 (a) Translation of ancient Arabic Poetry.
 London 1930
 (b) Abū Ibn Al-Abras of Asad diwans.
3. Nicholson (R.A.)
 Literary History of the Arabs,
 London 1953.
4. O'Leary, De Lacy
 Arabia before Mohammad 1927.
5. Smith, Robertson -
 Kinship and Marriage in early Arabia.
 London 1903.
6. Encyclopaedia of Islam.
 London 1913.
7. Ollander, Gunnar
 The Kings of Kinda.
 London 1927.

فهرست الموضوعات

الصفحة		
٧ - ١٠	مقدمة
١١ - : دراسة تاريخية	الباب الأول
١٣ - ٦٦ : المجتمع القبلي الجاهلي	الفصل الأول
١٣ - ١٤ الإطار الجغرافي	
١٤ - ١٦ الإطار الزمني	
١٦ - ١٧ مصادر دراسة الفترة	
١٧ - ١٩ القبيلة وحدة الحياة في المجتمع الجاهلي	
١٩ تشكيل القبيلة	
٢٠ - ٢٥ رئيس القبيلة : حقوقه وواجباته	
٢٥ - ٣٢ دور الشاعر	
٣٢ - ٣٧ دستور القبيلة العرفي	
٣٧ - ٤٤ المعصية القبلية : مظالمها وآثارها	
٤٤ - ٤٨ المثار	
٤٨ - ٥٣ السياسة الخارجية للقبيلة	
٥٣ - ٥٧ الغزو	
٥٧ - ٦٦ العلاقات مع الممالك المجاورة	
٦٦ - ٩٦ : دوافع الحرب في العصر الجاهلي	الفصل الثاني
٦٦ - ٧١ طبيعة البدوي	
٧١ - ٧٧ دوافع الحرب : عرض لمختلف آراء الباحثين	

العصية القبلية	٧٧ - ٨١
النثر	٨١ - ٨٣
النصر على أسباب الحياة	٨٣ - ٨٧
النصر حول تقاليد المجتمع	٨٧ - ٩٠
التمرد على سلطة الممالك المجاورة	٩٠ - ٩٣
المرأة والأيام	٩٣ - ٩٦
: أيام العرب في العصر الجاهلي	٩٧ - ١٦٤
طبيعة الأيام	٩٧ - ١٠١
مصادر دراسة الأيام	١٠١ - ١٠٦
مشكلات تواجهنا عند دراسة الأيام	١٠٧ - ١١٠
تسمية اليوم	١١٠ - ١١١
مجموعات الأيام الكبرى	١١١ - ١٦٤
: دراسة موضوعية وفنية	١٦٥ - ٤٢٦
: مصادر شعر الأيام	١٦٧ - ١٨٠
رواة شعر الأيام وأخبارها	١٨٠ - ٢٠٣
شعر الأيام وقضية الإحتفال	٢٠٤ - ٢٠٥
دواعي الإحتفال في شعر الأيام	٢٠٥ - ٢٠٨
مظاهر الإحتفال في شعر الأيام	٢٠٨ - ٢١٢
إختلاف الشعر : أسبابه ومظهره	٢١٢ - ٢١٥
ضباب شعر الأيام	٢١٥ - ٢١٨
توثيق شعر الأيام	٢١٨ - ٢٣٠
: موضوعات شعر الأيام	٢٣١ - ٣٢٤
تمهيد	٢٣١ - ٢٣٥
شعر القحط والحياة	٢٣٥ - ٢٥٢
حديث المعارك	٢٥٢ - ٢٦٥
الحجاء	٢٦٦ - ٢٧٤
التهديد والوعيد	٢٧٥ - ٢٨١
الرفاء	٢٨١ - ٢٩٣
نداء النثر	٢٩٣ - ٣٠٢

الفصل الثالث

الباب الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني

٣٠٩ - ٣٠٢	المختصات
٣١٤ - ٣٠٩	اللدبح
٣٢٠ - ٣١٤	المثل العليا والقيم الأخلاقية
٣٢٤ - ٣٢٠	موضوعات أخرى
٤٢٦ - ٣٢٥	: خصائص شعر الأيام الفنية
٣٣٩ - ٣٢٥	الخصائص اللغوية والأسلوبية
٣٥٢ - ٣٣٩	الخيال والصور الفنية
٣٦٤ - ٣٥٢	الأوزان والقوافي
٣٧٤ - ٣٦٥	إنتشار الرجز
٣٧٤	الخصائص المعنوية
٣٨٦ - ٣٧٤	الواقعية والصنف الفني
٤٠٠ - ٣٨٧	القصصية
٤٠٥ - ٤٠٠	إنتشار المقطوعات
٤١٠ - ٤٠٦	تعدد الغرض
٤١٤ - ٤١٠	ندرة التقديمات
٤٢٦ - ٤١٤	مواكبة الشعر لأحداث الحرب
٥٧٨ - ٤٢٧	: شائع متميزة من شعراء الأيام
٤٨٢ - ٤٢٩	: المهلهل بطل حرب البسوس
٤٣٤ - ٤٣١	قبله
٤٤١ - ٤٣٤	نشأته وحياته
٤٤٣ - ٤٤١	شخصيته
٤٥٣ - ٤٤٣	المهلهل بطل حرب البسوس ونوره فيها
	المهلهل بطل أسطوري شعبي
٤٦٢ - ٤٥٣	وصوره في الأسطورة الشعبية
٤٦٤ - ٤٦٢	مدى اختلاف القصورة مع الواقع التاريخي وانعكاسها
	دراسة موضوعية وثنية في شعره
٤٨٢ - ٤٦٤	والى أي مدى يصور شعره أحداث حرب البسوس

الفصل الثالث

الباب الثالث الفصل الأول

الفصل الثاني

- : عترة بطل حرب داحس والغبراء ٤٨٣ - ٥٥٨
 قبيلته ٤٨٥ - ٤٨٨
 نشأته وحياته ٤٨٨ - ٤٩٦
 شخصيته ٤٩٦ - ٥٠٥
 عترة بطل عيس في حروبها ودوره في تلك الحروب ٥٠٥ - ٥٢٣
 عترة بطل الأسطورة الشعبية وصورته في الأسطورة ٥٢٣ - ٥٤٩
 الخصائص الفنية لشعره ٥٢٤ - ٥٥٣
 إلى أي مدى يصور شعره أحداث قومه ؟ ٥٥٣ - ٥٥٨

الفصل الثالث

: قيس بن عاصم بطل حروب تميم وسيد أهل الوبر ٥٥٩ - ٥٧٨

- جداول ملحقه بالبحث : جدول رقم ١ : ٢٠ القبائل والأيام ٥٧٩ - ٥٩٥
 جدول رقم ٢ : الأيام والشعر ٥٩٦ - ٦١٠
 جدول رقم ٤ : القبائل والشعر ٦١١ - ٦٢٥
 جدول رقم ٥ : توزيع النصوص على مجموعات الأيام ٦٢٧

مصادر البحث ومراجعته

٦٢٩ - ٦٤٥